المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الثانى - المجلد الأول

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/ 926





مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى" الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته.



ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى - المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٢٦ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج٢، مج١)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى – المجلد الأول)

تأليـــــــــف: تشارلـز م. دوتـــى

ترجمـــــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعـــة وتقديم: جمال زكريا قاســم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(ج٢_مـج١)، تـأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسـن؛ مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ - القاهرة، المركز القـومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٧٤ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية - وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان
٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٥
الترقيم الدولى: 9 - 191 - 479 - 977 -978
طبع بمطابع صحوة

المحتويات

الفصل الأول : مدينة ابن الرشيد 7

الفصل الثاني : الحياة فى حائل 39

الفصل الثالث : الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر 71

الفصل الرابع : خيبر « بلد الرسول » 113

الفصل الخامس : الخبابرة 153

الفصل السادس : حياة المدينة فى خيبر 199

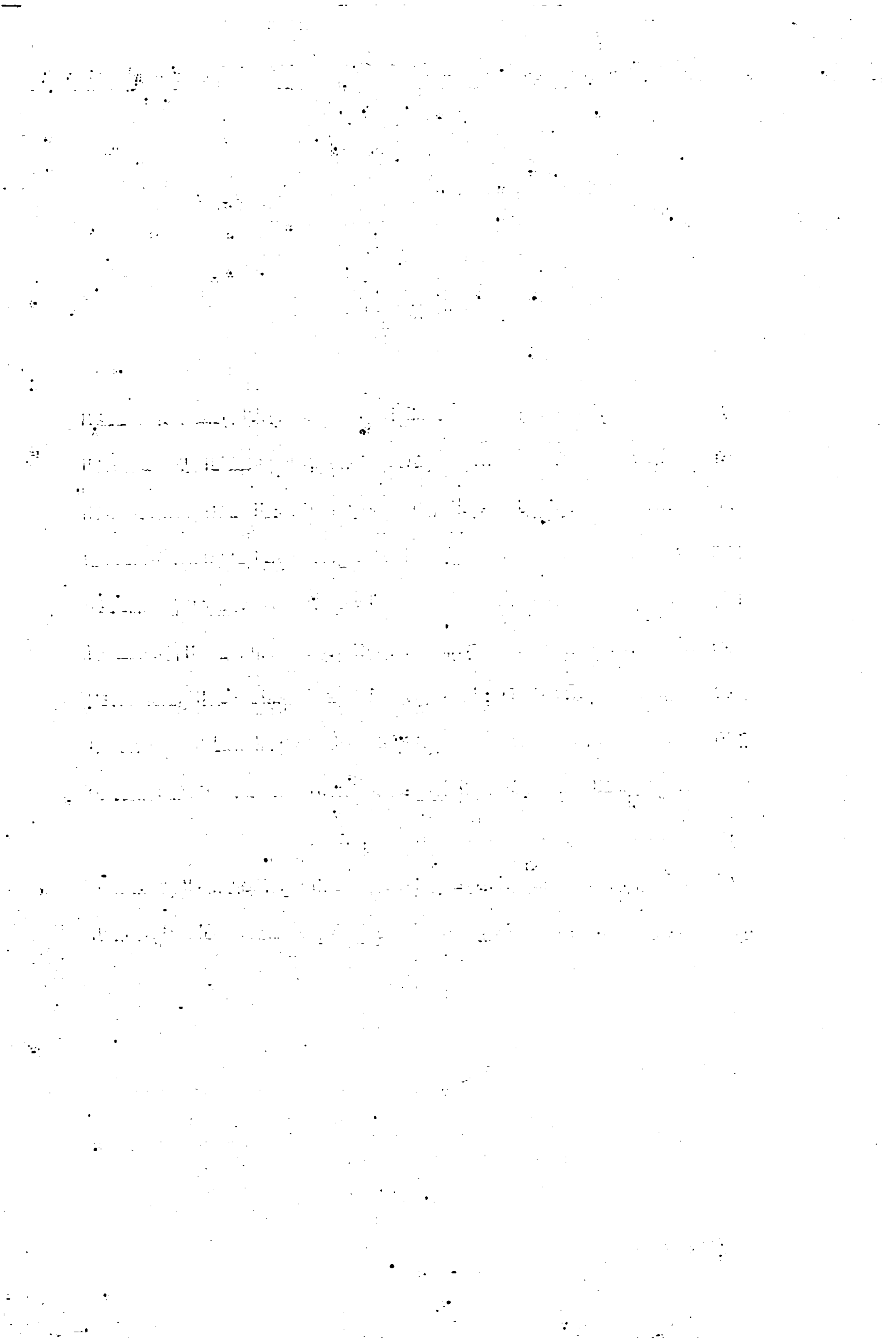
الفصل السابع : أرض الأحباش – تراث المدينة الأدبى 237

الفصل الثامن : الخلاص من خيبر 279

الفصل التاسع : الرحلة الصحراوية إلى حائل – طرد النصرانى من هناك 325

الفصل العاشر : الشمَّر وصحارى حرب فى نجد 375

الفصل الحادى عشر : رحلة إلى القصيم : بريدة 421



الفصل الأول

مدينة ابن الرشيد

تساؤل عجيب من أهل المدينة. زيارة الحكيم المغربى لمدينة حائل. إخراج الحكيم للجن. الجن. مخاوف العرب الخرافية. طاردو الأرواح الشريرة بالأدعية. مُحصَّن مسيحى. فريق معزول فى الصحراء. مزايا مهنة الطبابة. حمود يرسل طفله المريض إلى الحكيم النصرانى، الذى يشفى زوجة حمود أيضًا. الأمراض فى حائل. القصر العظيم. غرف الضيافة. بناء المنازل فى حائل. الأقسام الإدارية فى المدينة. الحرفيون. زيارة السويفلى. المقبرة تبتلع السكان. الصم والبكم فى حرس الأمير. رماية ماجد باستعمال الرش. البارود الإنجليزى. كلمات خليجية فى حائل. النخيل وأشجار الصمغ فى أجا. "الأنباء عن مجىء محمد (ﷺ) فى الإنجيل". تسامح حمود الحضرى. اجتماع آخر. أسرة بن الرشيد المالكة. طلال قاتل نفسه. متعبٌ يخْلُف طلال. أبناء أخيه، أبناء طلال يتآمرون على قتله. وفاة متعب بنيرانهم. الأمير بندر. عودة محمد الذى فَّر إلى الرياض بعد وعد بالسلام. تولى محمد مرة ثانية دور إرشاد الحجاج البغداديين؛ وعودته إلى حائل مع القافلة السنوية التى تحضر التمن (نوع من الأرز) للمطبخ العام. بندر يواصل المسير مع أخيه بدر ومع حمود للقاء محمد بن الرشيد. محمد (يقتل) بندر ابن أخيه. خطاب حمود إلى الشعب. مآسى فى القلعة. خطاب محمد فى المسحاب Meshab . بقاء محمد كمحافظ. أسر بدر وقتله. محمد يقتل القاتل. طبيعة حمود. الأمير محمد بلا ذرية. اعتداله وقسوته. الكرم الملكى. ولاية الشمر. القرى والهجر. الضرائب العامة والمكوس ومصروفات الحكومة. بيع خيول الأمير فى الهند. قوات الأمير. غزوات بن الرشيد. إضعاف ابن الرشيد للأعراب. نظارة الشمر.

بعد أن عدت، فى فترة العصر، من الرحلة التى صعدت فيها سميراء Sumra ، اكتشفت ذيوع الخبر فى المدينة كلها. كان أول الأشخاص الذين التقيتهم يسألوننى، "ماالذى وجدته هناك – هل وجدت أى شىء؟ خبِّرنا! من المؤكد أنك ذهبت لرؤية شىء هناك، – وإلا فلماذا تسلق النصرانى تلك الصخور العالية، واستأجر حمارا ودفع بنسا واحدًا؟" وبينما كنت أمر من السوق كان التجار يشيرون إلىَّ من داخل دكاكينهم، فقد كانوا هم أيضا يودون التحدث إلىَّ حول هذه المغامرة.

بدا أصدقائى القدامى يحرصون على أن لايراهم أحد وهم بصحبتى أويرافقونى؛ لأن ذلك يمكن أن يحسب عليهم من منظور أنهم يفضلون الكافر. وبينما كنت أسير فى المدينة فى الصباح جاءنى واحد من أولئك البطارقة النبلاء المحيطين بالأمير وسألنى: – الغالبية العظمى من أولئك الشبان الصغار، الذين أراهم فى المدينة، وهم يرتدون معاطفهم الحريرية، هم من أرذل الناس فى حائل – وبحركة متعجلة وإشارات متعجلة راح ذلك البطريق يشدنى من ردائى وعباءتى،" قال: ياخليل، ما الذى تبحث عنه، بعيدا عن السوق؟ لماذا تتجول هنا؟ ماالذى جاء بك إلى هذا المكان؟ ما الذى تبحث عنه، ما الذى رأيته؟ هل حائل مدينة جيدة ؟ وهل الهواء جميل؟ – ومتى سوف ترحل عن هنا؟" وعندما عدت، كان هناك بدوى يجلس عند الطرف العلوى من المسحاب، حيانى بتحية ودية، وكان واحدًا من شيوخ ولاد على، قد رأى النصرانى فى وادى الحجر. جلسنا أنا وهو سويا، وهنا جاءنى واحد آخر من هؤلاء العرب الشباب المخنثين الذين يرتدون الملابس الحريرية، ويتمسحون فى ثقة الأمير. وقاطع ذلك المخنث حديثنا، وهنا قاطعته أنا قائلا : – "أمض لحالك، أيها الشاب، فإن أُذنى تتألم من جهلك وكلامك السيئ." تركنا هذا المخنث غاضبا، وبعد أن ذهب لحال سبيله،" قال البدوى الصديق: أنا أتكلم معك من باب الصداقة، لاتتعامل تعاملا مباشرا مع أهل المدينة؛ صدقنى سوف يملكون عليك كلامك، بمافيهم ذلك الذى ذهب لحال سبيله، وسوف يستمر الجميع فى كراهيتك ؛ وأنا أقسم لك بالله، أن هذا الشاب من بيوتهم الكبيرة، وهو قريب للأمير – إى! الحياة هنا مختلفة، عن تلك الحياة التى تعودت عليها أنت فى الصحراء، ونحن لسنا هنا فى الصحراء، كما أن الناس هنا ليسوا هم البدو." – وهو نفسه، رسول من القبيلة المتمردة، ويبدو أنه مصطبغ بظلال المكان الاستبدادية.

قال بعض الأصدقاء الذين جاءوا لزيارتي بعد أن تركت البيت القديم وانتقلت إلى المخزن المجاور له:" خليل هو الحكيم الثاني الذي نراه في هذا المسكن."- " من هو ذلك الحكيم الذي سكن هذه الغرفة من قبلي؟"-" مغربي، طبيب بحق، [أفضل من خليل] لم يكن هناك مثيل له في كتابة الأحجبة، وكان يتقاضى ثلاثة ريالات عن كل حجاب: - لماذا لا تكتب أنت أحجبة، ياخليل؟ اكتب، يارجل، وسترى المدينة كلها أمام بابك، ويمسك كل واحد منهم بدولارين، أو ثلاثة دولارات في يده. وسوف تغتني خلال فترة وجيزة، وأنت لا يمكن أن يتحسن حالك من بيع هذه الأدوية، لأن العرب لا يريدون أدوية.- ولكن المغربي، والله، كان يمسك أحجبته ويعرضها لحظة للدخان، ثم يقوم بتسليمها لأولئك الذين يدفعون له الريالات، وكان الناس يرون أن تلك الأحجبة مفيدة جداً. إذا كانت هذه هي أحجبة المغربي، أليس خليل نصرانيا، ومن ثم فهو أقدر على الكتابة من المغربي؟ - آه! كما كان ذلك المغربي قويا في قراءة العزائم والأسحار! كان المغربي يخرج الجن من البشر الذين أصابهم مس من الجن، كما كان يقيد الجن أيضا، والله، في هذا الركن الذي أمامك." - ما الذي ربطه في ذلك الركن؟"- " أهل الأرض، (الشياطين الذين يعيشون تحت الأرض،) إنهم يصيبون الرجال بالمرض، كما أن من يتملكه أو يتلبسه الجن يضرب نفسه، أو يسقط على الأرض، وهو يصرخ ويزبد."

على العيد، جاري في المنازل المجاورة، الذي كان مدينا لي بخدمة (طبية) طيبة، أحضر لي مصباحا من الشحم الحيواني وهو يقول:" هو لا يوافق على أن ينام صديق هنا في الظلام، فقد يتلبسني الجن، ثم نظر حوله." قال: هذا المخزن مليء بالجان (نظرا لأن المغربي أخرج الكثيرين من الجان)، وأنا نفسي لا يمكن أن أنام في هذا المكان" - " لكن، قل لي: من الذي رأى ذلك الجان، وماذا يشبه ذلك الجان؟"- " لقد رأيت الجان، يا خليل، البعض منهم طويل القامة، والبعض منهم له قامة صغيرة أو قصيرة، وملامحهم مرعبة جداً؛ أنواع منهم لها عين واحدة في منتصف الوجه؛ بعض ملامح الجن الأخرى يمكن رسمها بصورة مخيفة، أو قد يكون وجه الجن قصيرا ومستديرا، كما أن شفاه بعض من الجن تتدلى إلى منتصف أجسامهم." جاء على العيد في الصباح إلى بيتي ليعرف كيف تغذيت، وعندما وجد أن مصباحه الدهني لم

يستهلك أكثر من ساعة، وصفنى بالغباء لأنى نمت فى الظلام. ولكنه أشار إلى الأعلى، وأرانى حالة سيئة، فقد كانت الدعامة الكبيرة مكسورة من منتصفها! وكان السقف الثقيل المصنوع من الطين يهدد بالخراب والدمار، وبالتالى لم يكونوا يسمحوا بسكنى أى أحد فى ذلك المخزن فى الفترة الأخيرة: - يضاف الى ذلك أن هذا المخزن المهجور، وافق حمود، على مضض، على إعطائه للنصرانى. ولعل النخلة التى كانت تنمو فى بستان حمود، وكان جريدها يتدلى من الشباك المفتوح أثناء الليل، ويهتز مرتعدا، كان هو ذلك الجان، الذى سيطر على ضمائرهم المضطربة. أثناء النهار كانت عصافير المسحاب الصغيرة، ضيوفا عندى، وأغلى عندى من أية صحبة أخرى.

اكتشفت أساتذة فى فن طرد الأرواح الشريره بالأدعية (كما سبق أن قلت) فى حائل: كانا شخصين مزيفين. كان أحدهما رجلا متقدما فى السن: سبق أن رأيته فى قهوة عبيد، وقد أدهشتنى إجاباته وردوده، كما أدهشتنى أيضا قدرته على القراءة والكتابة: هذا الشخص كان أجنبيا من شرقى نجد، ولكنه كان يعيش فى منطقة قفار. كان متخوفا من الرد على ؛ وربما لم يكن قادرا على المجاهرة بكلامه، وكان يتكلم همسا. أما الشخص الثانى فكان شابا من حائل، وكان قد جاء سراً إلى المخزن الذى أقيم فيه، ليتعلم شيئا من هذا الفن من النصرانى. سألنى: 'ماهو الأسلوب الذى اتبعه لتقييد الجن، وماهى الكلمات التى تنطوى عليها عزائمى السحرية القوية (القرينة)'. 'كان لديه هو الآخر كتاب ملىء بالقراءات ويحتفظ به فى منزله، وأنه كان يستفيد منه تماما، لأنه كان هو الأقدر، فى إخراج الجن، أكثر من أى شخص آخر. هذا الرجل كان شخصا ناعما هينا، فقد حبته الطبيعة بأشياء كثيرة، فهو بسبب صوته العذب كان يستدعى للغناء، فى بعض الأحيان، أمام الأمير.

هذا المغربى، ومعه فنونه العمياء، كان يعيش فى حائل وسط حظوة الجميع، وجمع الكثير من المال؛ كما أقرضوا ذلك الرجل المنعزل أرملة جميلة لتكون له زوجة، - "فلماذا يعيش بلا زوجة؟" وفى يوم من الأيام، جاء عبدالله، وهو عبد من عبيد الأمير، إلى النصرانى بعرض مماثل، وأرانى ماجد فتاة حبشية من أهل بيت والده، وهو يقول:

إننى إذا ماوافقت فسوف تصبح ملكا لى. كانت الفتاة المسكينة لطيفة ومتواضعة وكانت راغبة وموافقة على ذلك؛ ولكنى بحكم عدم رغبتى فى أن أحيا حياة على ذلك النحو، فقد عزوا امتناعى إلى العقيدة المسيحية وتسامحوا معى فى النهاية. وعن طريق البدو العائدين من العاصمة ذاعت فى كل أنحاء المناطق المجاورة لحائل، أنباء مفادها أن "الأمراء يعانون فى حائل، وأنهم كانوا يحابون النصرانى؛" وبعد ذلك لم أذهب إلى أى مكان آخر فى نجد ، إلى أن وصلت فيما بعد الى قرى القصيم، التى لم تصلها أخبار ذلك النصرانى الجائل، وعن طريق العلامات استطاعوا جميعا التعرف علّى. حدثونى أيضا عن نصرانى (ربما كان سوريا أو من بلاد الرافدين)، جاء إلى حائل، قبل سنوات عدة، وأخذ من الناس نقودهم لقاء مصل فاسد." قالوا: ولكن الله قطعه، إذ التقاه الأعراب وقتلوه فى الصحراء."

كانت ممارستى للطب قليلة، ومع ذلك أكسبنى ذلك الاسم الدخول بين هؤلاء الناس كما أكسبنى أيضا أخلص الأصدقاء. فليس هناك طبيب فى نجد؛ ولكن جرت العادة أن يروا كل عام طبيبا أعجميا، وهو يجىء إلى حائل بين الحجاج الفرس. كانوا يستدعوننى للكشف على المرضى؛ ونظرا لأنهم لم يكونوا واثقين بى إلى حد بعيد، فقد بقيت بلا مرضى تقريبا . هذا هو حمود أرسل لى ولده الصغير فيصل، الذى كان يعانى من الحمى والدوسنتاريا . هذا الطفل الذى أحضروه إلى وكاد يشرف على الموت، تركته عندما غادرت حائل، وهو يتماثل للشفاء ويسترد صحته. استدعونى أيضا للكشف على زوجة حمود فى منزله. ووجدتها مثل سائر نساء الجزيرة العربية وهى ترتدى رداء من البفتة المصبوغة بصبغة النيلة، وكان وجهها مستورا بالحجاب؛ أعطيتها دواءً وتحسنت خلال أيام قلائل. وأشهر الأمراض (كما رأينا بالفعل) هى أمراض العيون، - والفقراء هنا هم الذين لايأكلون طعاما جيدًا، ولذلك فهم الأكثر تعرضا للمرض - تلى أمراض العيون أمراض الأمعاء، والملاريا، والروماتزم؛ أما الرجال الذين يعانون من جهل شديد بالدين المكى، فيشتكون دوما من الضعف. وميكروب الكوليرا يشيع فى حائل، والمنطقة المجاورة لها؛ كشفت على عدد كبير من الناس الذين يعانون من الاكتئاب الشديد [حوالى ثلث سكان الجزيرة العربية] .

كما أحضروا أمامى حالات غريبة من البرص أو البهاق؛ إذ كانت البشرة ملونة ببقع بيضاء، تنتشر خلال ثلاثة أيام فى كل من الصدر والعنق. كما كان السرطان يشيع بينهم، وكذلك الشلل الجزئى الذى يؤثر على الأطراف السفلى.

سألت عن تاريخ إنشاء القصر؟ - الذى له طابع نبيل بالرغم من أنه مبنى من الطين. ويصل سمك الجدار الى مايقرب من ثمانية أقدام عند الأرض، وأكثر من أربعين قدما من حيث الارتفاع، ويبدو أنه مقام على مساحة كبيرة. وفى الميدان العام، قست مبنى القلعة، حوالى مائة وعشر خطوات، ولها برجان. ومدخل القصر، يقع تحت البرج فى المنتصف، وهو يغلق أثناء الليل بباب مصنوع من الخشب الثقيل، توجد فيه فتحة صغيرة، يدخل منها الداخل الى القصر منحنيا - ويكون الدخول قبل حلول الظلام. والجدار هو وأساس ذلك المبنى الطينى الضخم موجود منذ زمن قديم، والذى وضع أساس هذا المبنى هو واحد من الشيوخ الكبار (الذين كانوا أصحاب أذهان طموحة) فى حائل (*)، أى قبل عبد الله بن الرشيد. والمسحاب الموجود أمام القصر طوله خمسة وعشرين خطوة، والمخازن المبنية فى مواجهة القلعة يصل عددها إلى تسع مخازن وكل مخزن له باب به قفل من الخشب، والباب يفتح على فناء صغير، وخلف الفناء توجد غرفة الضيافة وهى بلا باب، ومربعة الشكل ومظلمة، وطولها خمسة عشر قدما وعرضها اثنا عشر قدما. وإذا ما أراد أحد من الرُبة الحصول على شيء من الوقود فى أيام الشتاء الباردة، تعين عليه أن يطلب ذلك من الأمير أثناء جلوسه فى المجلس العام. وطلال هو الذى بنى هذه المخازن هى والمسجد الكبير؛ ووالده عبد الله هو الذى أنهى بناء القصر، قبل عام واحد من وفاته. والطين الذى تبنى منه المنازل فى حائل يكون على شكل طبقات سميكة، تدفن فيها، كما سبق أن شاهدنا فى مجوج، كتل مسطحة من الحجر، جرى تجفيفها تماما، من قبل فى ضوء الشمس، وثقيلة جداً، وذات قوة كبيرة وتحمل كبير أيضا. نهايات الجدران فى حائل،

(*) كان يحكم حائل قبل عبد الله بن الرشيد آل على ، وهى الأسرة التى انتزع منها عبد الله بن الرشيد الحكم بدعم من السعوديين . (المراجع)

هى وأفاريـز النوافـذ يجـرى تشطيبهـا، فى معظم الأحيان، من أعلى بأفريز بارز، مما يجعلـه يشبه الكورنيش الغريب المنحـوت فى كل من الواجهـات الموجودة فى كل من بيترا أو الحجر.

شوارع مدينة حائل - وكنت قد وصلت بعد فترة طويلة أمضيتها فى الصحراء - فى رأيى، جيـدة التنظيم؛ والمنازل هنا عبـارة عن صـفـوف ومكونة من طابق واحـد. والمنازل هنا لايبدو عليـها التحلل وإنما تبـدو جديدة، وتوحى بالثراء والوفرة: والقرية العاصمة تبدو مثل سكانها وكأنها ترتدى ثيابا جديدة. وحائل مقسمة إلى أحد عشر قسما إداريا، أمـا القسم الثـانى عشـر فـهو السويفلى. كل المستوطنات المقامـة فى المناطق البدوية الرعوية من الجزيرة العربية، بما فى ذلك أصغر الهـجر، ومن حولها الصحراء الفاسدة، لها مسحة مميزة وطابع مميز غير الطابع الذى يطالع الرحالة الوافدين من الغرب، عندما يكونون فى سوريا. سكان قرى الجزيرة العربية - وهم من سلالة البدو - يشعرون بالسعادة (طالما أن السلام الربانى لا تعكره الأحزاب أو الطوائف المتصارعة) فى ظل حكم شيـوخـهم العـادل والمنصف، هؤلاء السكان حملوا مـعـهم الى تلك القرى الكثير من حرية الصـحـراء وعقلية الصـحراء أيضـا. وفى كل من حـائل وتيماء تقع عين الغريب على بعض الأطر والبراويز الصـغيرة المتقارية مثبتة فى أعلى واجـهات الدور، وهذه الأطر تأخذ شكل المثلثات قـائمة الزاوية؛ قد يتصور الغريب هذه الأشكال وكأنها مصنوعة من الخشب فـوق مـداخل المنازل. هذه الأشكال والأطر ليست سوى مـزاغل (مثل مزاغل قلاعنا فى العصور الوسيطة) تستعمل فى الدفاع عن باب العائلة.

وفيما يتعلق بإدارة المدينة، فمدينة حائل لا تفرض فيها أية ضرائب أيضًا للخفارة أو الحراسـة: ومع ذلك فشـوارع حائل نظيفة، ويجرى كسح المخلفات ودفنها فى حفر أو أماكن جانبية. ومياه الرى يجرى جلبها باستعمال الإبل، من الآبار العميقة، وبرغم عدم جودة ذلك الماء، فهو متوفر فى الأسبلة وفى القنوات؛ وربات البيوت يفدن على تلك البرك العامة ليملأن جرارهن وقراب الماء، كما يغسلن أشيائهن المنزلية. والكلاب لاتظهر أثناء النهـار فى أية قرية من قرى نجد، ولكن بعض الكلاب الضـالة التى تعيش خـارج

الواحات، تتجول فى الشوارع أثناء الليل. ومن الحيوانات المنزلية (المستأنسة)، يربى الناس فى كل القرى تقريبا نوعا من البقر الحلوب، الذى يستعملونه فى جر المحاريث؛ والناس هنا يستعملون الحمير فى الركوب والحمل، ويستعملون القطاط فى مطاردة الفئران، كما يربون الدواجن أيضاً.

الحرفيون قلائل فى حائل وهم من طائفة الحدادين، أى من أولئك الذين يعملون فى المعادن والخشب، الذى يقوم البعض منهم بالحصول عليه من شجر الإثل ثم تحويله بعد ذلك الى أطباق صغيرة هشة. وسُرُج الإبل هنا مختلفة عن مثيلتها فى تيماء وفى المناطق الغربية، من ناحية أن ركائز السرج تكون مرتفعة إلى الأعلى. وتنتشر بين النساء هنا صناعة متواضعة هى الخياطة والتطريز، باستعمال الحرير والخيوط المعدنية، وهن تطرزن تلك العباءات (البشوت) التى يجرى جلبها (على شكل قطع) من كل من الجوف وبغداد ـ وهذه العباءات (اليشوت) لاتصنع هنا فى حائل. وقد شاهدت فى السوق أنواعًا من الحرير الفاخر الملفوف فى أوراق الصحف، وكان أصحاب الدكاكين، فى كثير من الأحيان، يستوقفوننى ويضعون تلك اللفائف بين يدى كى أقرأ لهم المكتوب عليها ـ ولكن الكتابة كانت باللغة الانجليزية! وعندما قرأت اسم الصحيفة عرفت أنها "بومباى جازيت BOMBAY GAZETTE ". والحريم هنا يجدلن من سعف النخيل نوعا من الحصير الذى يستعملنه فى المنازل، شأنهن فى ذلك شأن الحريم فى الواحات الأخرى كلها. وهناك من بين الرجال من يمتهنون حرفة البناء وحرفة النجارة، ولكن بطريقة بدائية، إذ ليست لديهم الأدوات أو العدد اللازمة لذلك، وهناك بعض المليسين الذين يقومون بالأعمال الجسِّية أو إن شئت فقل: الجبسية، وهم يجلبون ذلك الجبس من الجبال ويعثرون عليه على شكل مسحوق، ثم يخلطونه بالماء ويستعملونه فى حواف الوجارات وتبطين جدرانها: ويتحول الجبس بعد ذلك إلى قشرة صلبة بيضاء اللون، تلمع مثل الرخام، وتتحمل النار. والعمال الذين يجمعون الحطب والعلف، ويقطعون من أجل ذلك مسافات طويلة داخل الصحراء، هم أولئك الذين يطلق الناس عليهم هنا اسم القصمان Kusman ، وهم عمال كدّادين أجانب يفدون على حائل من القصيم؛ وأهل جبل شمر من البدو لايصلحون لمثل هذه الأعمال.

خرجت من حائل ذات يوم متجها صوب السويفلى. وخلف الوسيط مررت ببعض الحقول التى كان يعمل فيها بعض العمال، وقام واحد منهم بقذف النصرانى بالطوب، ولكن بقية العمال منعوه من ذلك؛ ذهبت إلى المنطقة الواقعة فيما بين السمرتين، كما ذهبت أيضًا إلى مجرى السيل الواسع الذى كانت تغطيه الأحجار. والتربة هنا من اللهم الجيد وذلك على العكس من تربة حائل الجرانيتية الحادة؛ والتمر هنا من النوع الجيد، وهو أفضل أنواع التمور فى هذا البلد - كانت البيوت الأولى التى عثرت عليها عبارة عن جدران مهدمة وبلا سقوف، وكانت المزارع المحيطة بتلك المنازل مهجورة؛ لم تكن جذوع النخل الواهنة تحمل سوى أعراف واهنة من جريد النخل المصاب بمرض الصدأ. وأنا لم أر شخصًا واحدًا فى تلك الحقول، التى كانت عامرة، فى يوم من الأيام، على جانبى مجرى السيل. والآفة التى دمرت قرى الجبل، فاجأت الجميع، بعد عام من الجفاف، عندما خاب محصول التمر وارتفعت أسعار القمح (وصلت إلى ريال واحد لكل ثلاثة صاعات) ثم ارتفعت بعد ذلك الى ضعفى هذا الثمن أو ثلاثة أضعافه. وما يدعو للغرابة هنا، بحكم اعتيادنا على علاج الأمور العامة، أن أحدًا من التجار، بما فى ذلك أيضًا تجار الماشية، ولا حتى الأمير نفسه، لم يكن متحمسًا أو مستعدًا لجلب الحبوب من مسافات بعيدة : (...)(*) وعندما فاجأهم مرض الوباء Waba مات خلال شهرين فى تلك القرية الصغيرة (السويفلى) مائتا شخص. وكانت البقية الباقية من البشر فى السويفلى ضعيفة وهزيلة، وإلى يومنا هذا؛ فقد ضاعت صحة الناس، إلى حد أن الناس كانوا يقولون عنهم "إنهم لا يقوون على حمل عباءاتهم". كان ذلك المرض اللعين يصيب الرجال أكثر من النساء والأطفال.

أخيرا وصلت إلى مكان وجدت فيه قلة قليلة من البشر الذين سافروا للخارج طلبا للفرجة؛ ألقيت عليهم تحية عابرة، وسألتهم "من لديه مقهى هنا، وأين سكان المكان؟" اكتشفوا أن ذلك الذى كان يسألهم كان شخصًا غريبًا وردوا عليه بتهكم شديد "إنهم موجودون فى المقبرة البعيدة!" وواصلت المسير فى اتجاه كانت تتناهى إلى أذناى منه

(*) عبارة تحمل رأيًا خاطئًا عن الدين الإسلامى رأينا استبعادها . (المراجع)

أصوات السواني (السواقي). عند السواني وجدت امرأة (نظراً لوفاة الرجال) تقود قطيع الإبل الذي يعمل في جلب الماء من البئر. عمق البئر هنا يصل إلى تسع قامات؛ ومياه الآبار كلها هنا مالغة، أما الماء العذب الذي يصلح للشرب فيجري جلبه من حائل نظير النقود. والماء المالغ في التربة الجيدة يصلح تماماً لري وزراعة النخيل؛ ولكن النخيل عندما يزرع في تربة مالحة أو مرة، كما هو الحال في تربة خيبر، يحتاج إلى أن يروى بالماء العذب: والنخيل يجود في وجود شيء من الملوحة في التربة أو الماء. هذا الماء المالغ مضر بالصحة تماماً إذا ماشربه الناس في تلك المناخات، وعلى حد زعم الناس هنا، كان ذلك الماء سبباً من أسباب كثرة الوفيات هنا في فترة انتشار وباء الطاعون. والناس هنا يقولون: إنه في الزمن القديم، عندما كانت قرية السويفلي هي حائل، كانت الآبار في هذه المنطقة عذبة الماء، إلى أن أدت الزراعة فوق تلك الآبار إلى تلف الماء. وهنا تقدم شخص واقتاد الغريب بطريقة.تنم عن الجود والكرم، إلى البيت المتبقي في السويفلي، كي يشرب القهوة. دخلنا غرفة متواضعة مبنية من الطين، والغرفة طويلة، وغير مكنوسة، وفي الشمس شاهدنا مكاناً فيه جحفل من الذباب؛ كان ذلك المكان بمثابة القهوة. وكان الأشخاص الثلاثة أو الأربعة الشاحبون الواهنون، والضعاف، الذين تبعونا لشرب القهوة، هم أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ويعيشون في المنطقة المجاورة للسويفلي؛ ويبدو أن الكابوس لم يكن قد هجم عليهم بعد. استقبلوا الغريب استقبالاً طيباً، وسرعان ما وضعوا أمامي صينية من التمر الممتاز. وأهل قرية السويفلي، فيما يتعلق بالكرم وخفة الروح، يقال إنهم يشبهون البدو أكثر من أهل حائل. وكان يكفيهم تماماً أن يكون الغريب حكيماً، ولم يكن من عادتهم إثارة الاعتراضات التافهة مع الضيف أو سؤاله عن دينه.

بينما كنت جالساً معهم في القهوة، دخل علينا شاب أصم وأبكم يحمل سيفه، وهو من أولئك الذين سبق لي التعرف عليهم في حائل، وهو واحد من «رجاجيل» الأمير المسلحين: وبإشارات عنيفة وصياح عال أوضح لنا أنه جاء من حائل بحثاً عني. هذا الشاب المسكين كان يعاملني دوماً باحترام وأنا في المدينة، ولم يكن يطق أن يسيئ إليَّ أي أحد من الناس. بل إنني رأيته وهو يهدد ماجد بنظراته الغاضبة عندما كان في

غرفتي، بل وصل إلى حد التلويح بعصاه لابن الأمير، الذى كان يرى، أنه أساء إلىّ كثيرًا. بدأ ذلك الأبكم والأصم يحدث بعض الإشارات - فقد مرر أصبع السبابة على زوره - التى تفيد خوفه على وأنا خارج المدينة. وطوال طريق عودتنا إلى المدينة راح ذلك المسكين يلومني، كما لوكان يقول: "لماذا غامرت بالذهاب إلى هذه المسافة البعيدة وحدك، وأنت يحدق بك خطر فقدان الطريق؟" قلت له بالإشارات:إننى ذهبت للكشف على بعض المرضى، الذين كانوا بحاجة إلى الدواء. وفى منطقة منخفضة أراني، ونحن نسير فى الطريق، وهو يبتسم، بعضًا من أشجار النخيل وحقلاً كان مملوكًا له. بلغنى أن ذلك الأبكم الأصم كان غريبًا (وهذا هو حال الكثيرين من رجال الأمير) من العروض El-Aruth . وأنا عندما وصلت حائل فى المرة الأولى، وعندما أسروا لذلك الشاب بأنى لست من دينهم، سارع هو بدوره برأى ودى مفاده أنى يجب أن أصلي مثل بقية الناس. هذا المسكين الذى لايتكلم لم يكن ينطق سوى مقطع واحد، هو Ppahppah؛ وهذا المقطع هو على وجه التقريب الصوت الأول عند الأطفال وعند البكم، وهو عادة ما يبدأ بالحرف M أو الحرف B أو الحرف W، وتكاد تكون كلها صوت واحد عند هذين الصنفين من الناس. وهذا الحرف p الذى ينطق بملئ النفس، لايوجد فى أبجدية اللغة العربية، ولكن الأجانب الذين ينطقون كلمات تبدأ بذلك الحرف يتحتم عليهم نطق هذه الكلمات وكانها تبدأ بالحرف F أو بالحرف B . وهنا كان من السهولة بمكان فهم مايقصده ذلك الأبكم من قبل أهل حائل؛ لقد جعلوه يرد عليهم بتحريك شفتيه، كما لو كان يتكلم، وكان بوسع ذلك الأبكم، وبحكم المقارة الطويلة التى تلازم حياته، أن يفهم ما يدور فى أذهان أولئك الذين كانوا يتحدثون إليه: ولكن إذا ماتهكم عليه أحد أو سخر منه، بأن كرر المقطع Ppah ، وتمتم ودغدغ، فقد كان يغضب، ويظهر الغضب فى عينيه، ويستل سيفه مهددًا به حياواتهم، أو قد يستل سيفه من جرابه إلى منتصفه. ولعل معاناته الطويلة هى التى أوصلته إلى هذا القرار الذى يمكن أن يساعد فى تأمين وحماية أصم وأبكم آخر. قالوا لى: إن هذا الأصم كان يركب ذلوله مع العصابة، ويبلى بلاءً حسنًا ضمن الغزوات التى يقوم بها الأمير.

عندما عدت إلى المدينة التقيت ماجداً وجماعته وهم يحملون بنادقهم فى الحقول، وكان معهم عمه فهد. كان من عادة هؤلاء الناس الخروج يوميًا، للتدريب على الرماية على ورقة بيضاء معلقة على جدار من جدران البستان وعلى بعد مائة وعشرين خطوة جلست مع فهد لنتفرج على ذلك التدريب؛ كانت كل طلقاتهم الصادرة عن تلك البنادق الفتيلية الطويلة تقع حول الورقة البيضاء وعلى بعدأصابع قليلة منها، وكان من النادر أن تقع طلقة داخل تلك الورقة كان غانم أفضل هؤلاء الرماة، لأنه من خلال النظر فى النظارة كان يوجه طلقته إلى منتصف الورقة البيضاء. هذا الإطلاق باستعمال الكبريت لا يساعد على ثبات الهدف. كانوا يطلقون بنادقهم باستعمال 'بارود إنجليزى' على شكل مسحوق، موضوع فى قنينة من القصدير أو الصفيح، كان مكتوبا عليها بالإنجليزية HALL, DARTFORD . هناك كثير جداً من البضائع التى يتجربها فى الخليج، فى أسواق حائل، والناس هنا لايهتمون أو يلقون بالاً للمكان الذى جاءت منه هذه البضائع، وهذا هو حال الناس فى بلادنا الذين لا يلقون بالاً لصناديق الشاى الصينى؛ هناك أشياء أوروبية كثيرة داخلة ضمن الاستعمالات الحياتية الضرورية عند هؤلاء الناس، ومنها الفئوس التى يستخدمها الناس فى الزراعة على سبيل المثال، ومنها أيضًا العتلات الحديدية، ومنها أيضًا الشماعات المصنوعة من الرصاص، ومنها أيضًا ألواح الحديد والصفيح؛ أما أقمشتهم فهى من البفتة التى تصنع فى كل من مانشستر وبومباى. والتعامل هنا بالنقد الأجنبى؛ الريالات الأسبانية، والدولار الماريا تريزى والكراون التركى المجيدى؛ والنقود الذهبية هى المعروفة هنا بين الناس. والناس هنا يطلقون الاسم 'دبلون' doubloon على قطعة النقود التى تساوى خمسة جنيهات تركية، وهم يطلقون أيضًا على الجنيه الإنجليزى اسم 'جنيَّات' Ginniyat أوقد يقولون له'بنتو' bintu ، وهم أيضًا يطلقون اسم 'ليره' lira 'فرنساوى' Fransawy على قطعة النقود التى تساوى عشرين فرنكًا. أما بالنسبة للنقود المعدنية المصنوعة من الفضة فلديهم فى أسواق حائل قطعة معدنية قيمتها ست بنسات، كما أن لديهم أيضًا بعض العملات المعدنية الفارسية، ولديهم أيضًا عملة معدنية أخرى تشبه أختام العالم الإغريقى القديم . ومع حب التجديد الذى يعد أمرًا طبيعيًا عند الساميين، نجد أن أهل

حائل يستوردون مع بضاعتهم الأجنبية بعض الكلمات الخليجية، وبخاصة تلك الكلمات المأخوذة من اللغة الفارسية، التي منها على سبيل المثال، عندما يتحدثون عن الإبل، إذ يقولون'شيتر' shitter ليعبرون بها عن الثروة المكونة من الإبل، وذلك بدلاً من الكلمات العربية التي من قبيل (هجن،) ذلول، ركاب ، (حادوج)، مطية ، رحول ، حاشي'حُرَّة.

دعاني ماجد، إذا مابقيت في حائل إلى فصل الشتاء، إلى المشاركة في المقناص (*) الذي يقومون به إلى جبل أجا Ajja . ففي ذلك المقناص يخرج كل من صغار الإفرنج ورجال حائل، وكذلك الأمراء، إلى الجبل لاصطياد البدون، ويأخذون معهم الحمير التي تحمل لهم الماء المطلوب: وقد جرت العادة أن يمضوا أسبوعًا في ذلك المقناص ويعتمدون في عشائهم على مايصطادونه. وفي كثير من وديان جبل أجا الصغيرة ينمو نوع من النخيل البري الذي يشرب من ماء العيون، أو قد يضرب جذوره في أرض السيل. وملاك هذا النوع من النخيل هم من أسر البدو التي تجيء إلى تلك الوديان الصغيرة في موسم حصاد التمر فقط: وثمار هذا النخيل أصغر من ثمار النخيل الذي يزرعه الناس. وتنمو في جبل أجا، شجرة يطلقون عليها اسم العرار el-arar ، التي يسيل منها نوع من المستكة يشبه الصمغ' "هذه الشجرة تشبه شجرة الإثل." وجبل أجا أكبر وأطول بحوالي عشرات الأميال، عن شقيقه جبل سلمى Selma .(**)

كنت أرى حمود يوميا؛ وذهبت لتناول الغداء معه من جديد، وبينما كنا نجلس في فترة المساء، سألني حمود، "أليس في الإنجيل شيئا مكتوبا عن محمد (ﷺ)؟" - 'لا، ليس في الإنجيل أي شيء عنه، وأنا أعرف الإنجيل كلمة كلمة."-" لكن أليس مذكورا في الإنجيل أن نبيا اسمه 'حامد' Hamed ، سيجيء بعد عيسى؛ – وأن هذا 'الحامد' هو محمد (ﷺ)؟" ورددت عليه بإجابة قصيرة من جديد: "لا، ليس في الإنجيل شيء عن محمد (ﷺ) " . ودهش حمود، ولما كان يصدقني ويثق بي، فقد أقنعته إنسانيته أنني لم أقصد الإساءة

(*) المقناص : مكان الصيد أو القنص . (المراجع)

(**) يشكل هذان الجبلان – أجا وسلمى – جبل شمر ، وهو مركز حكم آل رشيد . (المراجع)

إلى أحد بكلامي وأن ماقلته لم يكن مقصودا به الإساءة إلى الدين. وأردفت قائلاً: "لو أن شيئا من هذا ورد فى الإنجيل، لاعتنقت الإسلام ودخلت فيه؛ هل تقرأ هذا الكلام فى القرآن!" لم يرد على حمود، وجلس متجهما يتأمل. لقد كان ذلك الذى يعنونه بتلك النبوءة عن حامد أو محمد يشكل لى لغزا (فهذان الاسمان شيء واحد) فى الإنجيل المسيحى. - ونحن نقرأ فى الآية السادسة من السورة رقم ٦١ من القرآن، " قال عيسى بن مريم، يابنى إسرئيل ، إنى رسول الله ، لتأكيد التوراة (كتاب سيدنا موسى المقدس) وأنبؤكم بمجيء نبى، - سيكون اسمه أحمد" (*) (العظيم). هذا الأحمد أو هذا العظيم المبارك، ورد اسمه باليونانية القديمة فى الكتاب المقدس الجديد أو الهيلينى على أنه "شديد الوضوح". ومن هنا فإن علماء الدين غير المتحضرين يقولون : إن النصارى الحاقدين حرفوا الكلمة اليونانية التى معناها "المريح" [وهذه الكلمة وردت أربع مرات فى الإصحاح الأخير للمسيح، من الآية الرابعة عشرة إلى الآية السادسة عشرة من سورة القديس جون] .

كان حمود يسعد عندما كان يسألنى ويتحاور معى عن ديننا؛ وكان يبتسم بشيء من الإعجاب الدينى عندما كان يسمع النصرانى الغريب وهو يردد بعده بعضا من صلواتهم الشرعية، ويقول : إنه "يفعل ذلك من أجل الخير"؛ ومن هذه الصلوات الفاتحة، التى يستفتحون بها صلاتهم، التى لها وقع مدهش وجميل ووقور على لسان القراء النجديين: ومعنى الفاتحة هو على النحو التالى:" بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين." كان حمود ، حتى فى دينه الرسمى ، صاحب سماحة متحضرة: كان الدين عند حمود هو دين الحكام. وفى أرض النخيل الموجودة خارج قهوة حمود، كان لديه (وبطريقتهم الخاصة) مكانا مرتفعا للصلاة؛ هذا المكان كان عبارة عن حلبة مربعة الشكل من الطين، ولها

(*) جاء فى الآية السادسة من سورة الصف قوله تعالى ﴿ وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إسرائيلَ إنّي رسُولُ الله إليكُم مُصدقًا لما بين يديّ من التّوراة ومُبشّرًا برسُول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ ﴾ . (المراجع)

كورنيش منخفض، ومفروشة بالحصى النظيف، وتصل من الكبر حدًا تتمكن معه جماعة شرب (القهوة) من الركوع والسجود على الأرض. كان حمود يصلى فى ذلك المكان أثناء النهار،إماما للناس وأفراد أسرته. وذات يوم وبينما كانوا يؤدون الصلاة، شدنى على، الذى كان من أتباع ماجد، من عباءتى فجأة ليجذبنى إلى الانضمام إليهم فى الصلاة. ولكن حمود واصل صلاته مبتسما لهذا وذاك، وبإشارة منع توجيه الإساءة إلى الغريب. هذا المصلًى تجده فى أحواش منازل حائل، وفى بساتين حائل؛ وربما كان ذلك أسلوب من أساليب الدين الصحيح فى نجد، وقد شاهدنا أشياء أخرى من قبيل ذلك المصلّى فى الصحراء الواسعة، وكانت محاطة بالأحجار. وكل مصلّى كان مفروشا بالحصى، ويستقبل القبلة.

انقضى أسبوع عاد بعده الأمير محمد من الصحراء: وفى عصر اليوم التالى استدعانى الأمير محمد إلى مجلسه. وقد وجدنى مراسله نائما فى المخزن؛ منهكا ومحطما طوال ذلك العام من الجوع والإرهاق، وكنت نائما نوما عميقا. أيقظنى مراسل الأمير بصورة مباغتة وبشىء من العنف الذى ينطوى عليه أسلوبهم: " انهض وهيا تعال معى؛ الأمير يطلبك؛" وعندما توانيت كى آخذ الغترة والعباءة (البشت)، أخذها علًى، ذلك العبد، عندما دخلنا إلى المجلس، إذ قال للأمير 'لم يكن خليل يرغب فى المجىء معى!'

وبعد أن توجه محمد من المجلس هو و «الرجاجيل» إلى قهوة عبيد؛ جلس الأمير فى مكان حمود، وجلس حمود فى المكان الذى كان يجلس فيه سليمان كل يوم. كان ذلك السيف الخفيف، الذى له قبضة، أو مقبض مصنوع من الذهب، والذى كان محمد يحمله فى يده بصورة دائمة، مركونا إلى الجدار بالقرب من محمد؛ ويقال إن حد ذلك السيف ماضٍ تماما. كان يجلس جلسة أهل الجزيرة العربية فى ثوبه الفضفاض المصنوع من القطن، ويرتدى عباءته وغترته وساقاه ورجلاه عاريان، فى حين كان حذاؤه الذى خلعه من قدميه، موضوعا على السجادة من أمامه . حييت الأمير قائلا: السلام عليك . - لا إجابة: ثم حييت بعد ذلك كلا من حمود وسليمان، اللذين كان

يربطني بهما في ذلك الوقت، تعارف ودي، حييتهما بنفس التحية، ورحبا بي قائلين: وعليكم السلام، وابتسما ابتسامة توحي بالارتياح. واقتادني أحد الحاضرين إلى مكان أجلس فيه أمام الأمير الذي تساءل على الفور "من أين؟" – "من مخزني". – "ما الذي وجدته وكنت أفعله هناك طول النهار، ها! وما الذي رأيته طوال وجودي في حائل، وهل كان ذلك جيداً؟" وعندما قال الأمير: "ياخليل!" كان مفروضا أن أرد قائلا: عونك، أولبيك، أو طويل العمر. ولكن إحساسي بأني أوروبي وسط هؤلاء الآسيويين أصحاب الألسنة الطلقة، ولما كنت متعبا تماما، فقد آثرت الصمت. وعليه، فإن الأمير الذي لم يرد على تحيتي، تحول فجأة ليسأل كلا من حمود وسليمان: مايرد؟ بمعنى "إنه لا يرد على كلام من يتحدث إليه؟" وهنا رد حمود عني رداً طيبا، "هو لا يستطيع الإفصاح، ربما كان خليل متعبا." ورددت بعد برهة الانتظار وقلت: "لقد وصلت منذ فترة وجيزة إلى هذا المكان، ولكنه أغروطي، أي أنه على مايرام." وهنا فتح الأمير عينيه الأنثويتين الواسعتين العربيتين وحملق فيَّ كما لو كان يتعجب من كلامي البسيط الخالي من التملق؛ ثم تكلم الأمير فجأة، وبشيء من التوكيد، وعلى مسمع ومرأى من الحاضرين: "إي، أنا أرى ذلك أيضا، المكان على مايرام تماما! – وما رأيك يا خليل، أليس الهواء عليلا هنا ؟" – "أعتقد ذلك ولكن الذباب كثير جداً. – "هم، الذباب كثير جداً. وهل قمت بالحج إلى مدينة بيت المقدس؟" –

"مرتان أو ثلاث مرات، كما ذهبت أيضا إلى جبل الطور، حيث يوجد جبل سيدنا موسى." – قال البعض منهم للأمير، " لقد سمعنا أن رهبان النصارى يعيشون هناك، وأن منزلهم على شكل قلعة وسط الخلاء (الصحراء)، والدخول الى ذلك المنزل عن طريق نافذة موجودة في الحائط؛ ومن يدخل ذلك المسكن يتعين رفعه وسحبه بعجلة مركب عليها حبال. "سأل الأمير: "هل لديهم ثروات؟" – " لديهم دخل من الصدقات." ويقف الأمير ويرتدي حذاءه، ويقف معه بقيه الرجال، – وأشار إليهم الأمير، بالبقاء جالسين في أماكنهم ، ثم اتجه بعد ذلك إلى المزرعة. وطوال فترة غياب الأمير خيم الصمت على كل الحاضرين؛ وعندما عاد الأمير جلس في مكانه. وهنا سألني الأمير الذي استطاع أن يقرأ، من خلال كلامي، ذلك الذي كان يدور بخلدي، " هل كان التمر جيدا أم سيئا؟"

وأجبته قائلا: "بطَّال، بطَّال، أى سيئ تماما." - "هل الخبز طيب ؟ وماطعم الخبز فى فمك؟" كرر الأمير علىٌّ بنفسه ذلك الاسم الذى سبق أن سمعه باللغة التركية، وعرفه باللغه الفارسية؛ ومحمد، بحكم أنه كان مرشدا سابقا للحج ، يستطيع التحدث بالفارسية.

تكلم الأمير معى بإشارات توحى بقليل من القلق الذى يعترى العرب عندما لا يكونون مسرورين، وعندما يكونون هم أصحاب الأدوار الرئيسية، - فهذا تقطيب مفاجئ للجبين، وهذا رأس يشرئب من فوق العنق ، وحركة الرأس هذه تشبه حركات سكان نجد الذين يشبهون الطيور، وهم يتوقعون من المستمع ردًا على تلك الحركات. كان لدى الأمير فكرة طيبة عنى، ولكن مجموعة الحاقدين المحيطة به، وهم من الشبان المتزمتين، كانوا يقللون دوما من شأن النصرانى. وبحكم أن محمدًا كان أميرا، فقد كان أفضل منهم، إضافة إلى أن فهمه كان أرقى من فهمهم. وأنا عندما كنت أجيب على أى سؤال من أسئلة الأمير مؤكدا إجابتى بطريقة البدو، بأن أقسم بحياته، كأن أقول حياتك على سبيل المثال ، كان الأمير عندئذ يقول لحمود: " أترى مايحدث؟ لقد تعلم خليل التحدث (بالعربية) بين العنوز، ها هو يقول: أغروطى." - " وما الذى يمكن أن أقول ياسيادة المحافظ (*) ؟ أنا أتكلم بنفس الطريقة التى سمعتها من البدو." لم يكن الأمير يهتم بمسألة النحو، ولكنه كان يستمع إلى وأنا أناديه بلقبه نداء صحيحا، عندما كنت أناديه بلقب 'قيِّم' (التى تعنى 'حامى' أو 'مراقب' فى تاريخنا القديم)، عندئذ كان الأمير يقول:"حسن، أفضل لك أن تحلف بحياة الله!" (ونظرا لارتباط آل حائل بالوهابيين، فإن القسم بغير الله يعد من الشرك ومن الوثنية.) وهنا كنت أجيب بإجابة غير التى يتوقعها الأمير." - هذا هو مايقوله البدو، فى الأمور الكبيرة، ولكنهم يقولون بحياتك فى الأمور الصغيرة." وعندما لم يستطع الأمير أن يحصل منى على كلام ناعم مثل كلام الحاشية، سارع كل من حمود وسليمان، بكلامهم

(*) المحافظ : لقب المحافظ هو اللقب الذى منحه السعوديون لحكام جبل شمر من آل الرشيد غير أنهم صاروا يطلقون على أنفسهم بعد ذلك لقب أمير ، وكان هذا مرتبط بتصاعد نفوذهم وضعف السلطة السعودية . (المراجع)

الطبيب لإنهاء الأمر ويعفيانى من الموقف الذى كنت فيه. "قالا: من المؤكد أن خليلا ليس على مايرام اليوم، إيه، يالهذا المسكين! يبدو أنه مريض حقا!" – كنت أمضى القسم الأكبر من ساعات النهار، ممددا على أرضية المخزن غير النظيفة، فى الوقت الذى كان الحاسدون يقولون للأمير إننى أكتب عن بلده؛ ولذلك كان يفد على فى كثير من الأحيان، جواسيس من القلعة، وكانوا يفتحون الباب على فجأة ليروا ذلك الذى كان يشغل النصرانى. – أمير: "وماهى أدويتك؟ هل لديك ترياق؟ – [كان آباؤنا يطلقون الاسم نفسه على الدواء المضاد للسم الزعاف] . وفى ضعفى هنا كنت أكاد أروح فى النوم، وعندما بدأ انتباهى يترنح لم يكن أمامى من شىء سوى أن أقول، – " وماهو الترياق؟ – أقسم بالله، بالرغم من أنى ليس عندى هذا الشىء، إنه لا يوجد شىء بهذا الاسم." سليمان: "خليل لديه الكثير من الملح الإنجليزى – أليس لديك هذا الملح، ياخليل؟ " ومع هذه الهجمة الكئيبة، ونظرا لأن الأمير كان منشغل البال بالسم، لم أتمالك نفسى، وابتسمت، – وهذا جرم فى حضرة الحكام. وهنا بدأ سليمان ينادينى ويطلب إلى أن أحكى لهم عن القارة الجديدة، كان يسألنى عما إذا كان لدينا تمور فى تلك القارة، ولكن "طويل العمر" وقف فجأة وبكبرياء، – ووقفت البقية من بعده، ورحل الجميع.

آن الأوان أن أقول شيئا عن الأسرة الأميرية وعن ولاية جبل شمر: وأبدا بالمآسى التى حدثت فى بيت بن الرشيد. قيل إن طلال (*) بعد أن عاد من الرياض (الذى اعتاد الذهاب إليها كل عام، باعتباره رهينة عند الوهابى، بهدية من الخيول) مرض بسبب السم، الذى وضع له فى فنجان القهوة فى شرقى نجد. وتدهورت صحته، وأصيب الأمير بشىء من الجنون المحزن. وهنا أرسل طلال إلى بغداد فى طلب حكيم فارسى. وقام الحكيم برحلة طويلة إلى حائل، وبعد أن زار الأمير وكشف عليه، أصدر حكمه متهورا وبلا تأنى." – هذا المرض ليس مرض موت، وإنما هو مرض طويل المدى سينهى على فهمك وإدراكك." – ورد طلال على الحكيم قائلا: آه؛ وهل سأكون أحمقا؟ – والله مجنون! وأنا الحاكم؟" ونظرا لأن قلبه الكبير لم يطق العيش والكل يترحم عليه،

(*) تولى طلال بن عبد الله بن الرشيد الإمارة فى عام ١٨٤٧ حتى انتحاره فى عام ١٨٦٧ . (المراجع)

وعندما حبس نفسه ذات يوم فى غرفته، فقد صوب مسدساته إلى صدره، وفتح النار على نفسه لينهى حياته بيديه. وعليه أصبح شقيقه متعب أميرا على حائل، باعتباره الأكبر فى الأسرة الاميرية، ووريثا لوالده عبد الله ، ومن الناحية (القانونية) جرى تخطى أولاد طلال، الذين كان بندر أكبرهم سنا، والذى أصبح أميرا فيما بعد عن طريق القتل والاغتيال؛ كان بندر فى ذلك الوقت يبلغ من العمر سبعة عشر عاما. وسبق أن سمعت مرارًا الناس وهم يطرون متعبا ويمدحونه على اعتداله ولكنه لم يكن واسع الأفق؛ كان متعب أميرا بحق وله شعبية أيضا؛ وكان الناس يعدونه أكثر أفراد بيت الرشيد سياسة وحنكة، شأنه فى ذلك شأن شيخ الأعراب الكبير، وحاكما حظيظا. لم يحكم متعب عامين كاملين، (*) - فقد كان يكره دوما بندر، ابن أخيه، ذلك الشاب ناشف الدماغ. وقد تآمر بندر هو وأخوه بدر، على عمهما، وقرر هذان الشابان الجاحدان قتل عمهما.

كان هذان الشابان يعرفان أن عمهما يحمل على ذراعه " تميمة تضمن له حياته من الموت رميا بالرصاص"، ومن هنا حاول هذان المغامران العثور على وسيلة تتيح لهما استعمال مقذوف من الفضة. - كان متعب جالسا فى تلك الساعة المحتومة مع أصدقائه وحرسه من أمامه فى مجلس العصر، الذى كان ينعقد، على حد قولهم ، فى الطرف البعيد من المسحاب، على بعد خمسة وعشرين خطوة من مواجهة القصر، - وكان بندر هو وبدر قد تسللا خلسة من الداخل إلى أعلى مكان من القلعة، حيث توجد شرفة ودروة. وهنا صوَّب بندر بندقيته الفتيلية من خلال مصيدة، أو إن شئت فقل: مزغل صغير فى الجدار، وبدأ هو بإطلاق النار؛ والمرجح أن يد بندر اهتزت عندما هاج الجميع على إثر سماع الطلقة، فقد انحرفت رشة بندر قليلا وأطاحت بشال عمامة شيخ بدوى كبير هو ابن شعلان، شيخ قبيلة الرولة العنزية القوية وغير الصديقة، والتى تعيش فى الشمال؛ وكان ذلك الشيخ قد وصل فى ذلك اليوم إلى حائل قادما من ديرته، لزيارة

(*) حكم متعب بن عبد الله بن الرشيد جبل شمر (١٨٦٧ - ١٨٧١) قرابة أربع سنوات وليس كما ذكر دوتى عامين . (المراجع)

الأمير بن الرشيد. وعندما سمع ابن شعلان الطلقة وهي تدوى بجواره، أتريد قتلي!" وهنا رد الأمير، الذى بقى جالسا فى مكانه، ولم يحاول إنقاذ نفسه بالفرار، وتعبيرات وجهه تدل على الثبات،" لاتخف؛ سوف ترى أن الطلقة كانت موجهة إلى أنا." وأصابت الطلقة الثانية الأمير فى صدره، وكان بدر هو الذى أطلق تلك الطلقة.

وعندما تولى بندر عرش الإمارة، لم يكمل عاما فى ذلك المنصب، كما أنه لم يزدهر حاله: ففى عهدة حدث ذلك الطاعون الذى قضى على الأخضر واليابس فى البلاد. ومحمد، الذى هو أمير حائل حاليا، كان قد هرب، بعد سقوط أخيه متعب ،إلى الرياض حيث أمضى فيها فترة قصيرة. كان الأمير الوهابى، عبد الله بن سعود، هو بمثابة الوسيط فى الصلح بينهما، وتعهد بندر، على الورق، بالسلام، ودعى عمه إلى العودة إلى حائل. وحضر محمد إلى حائل، وشغل منصبه القديم، وأصبح محافظا مرة ثانية لقافلة الحج البغدادية. كان محمد يرافق القافلة العائدة من مكة إلى بلاد الرافدين، حيث كان سيأخذ معه مئونة عام كامل من التمن (نوع من الأرز) للمضيف (وأن جاز لنا تصديق مايقولون: فإن تلك المؤنة كانت تقدر بحمولة ألف جمل، أى حوالى ١٥٠ طنا من الأرز!) وعندما وجد محمد أن أعراب ظفير كانوا هم وحدهم فى المشهد، استأجر منهم إبلا، ووعدهم بضمان سلامتهم أثناء ذهابهم ومجيئهم خلال ممتلكات ابن الرشيد؛ والسبب فى ذلك أن أعراب ظفير كانوا بدوًا من خارج المنطقة، ولم يكونوا على وفاق مع جبل شمر. هذه الرحلة تستغرق مسير أسبوعين من تلك الإبل المحملة، وعندما وصل محمد إلى حائل، أرسل رسولا قبله لتحية الأمير قائلا: " محمد يحييك، وأحضر معه مئونتك من الأرز للمضيف." – ها! هل جاء محمد ؟ ورد عليه بندر، – سوف لايدخل حائل." وهنا ركب كل من بندر وبدر وحمود ومضوا قدما لاستقبال محمد ولقائه؛ وبناء على أوامر من بندر أغلقت من خلفهم بوابات المدينة.

كان محمد جالسا فوق ذلوله، عندما التقوه، لأنه كان قادما من الشمال، وهنا قال: تعلم أنهم جوم (أعداء) لنا!" محمد :" والله، يا المحافظ، لقد أحضرتهم بوجهى ، أى على عهدتى! (وبأسلوب عرب الجزيرة العربية راح يملس بيده على لحيته) –

والسبب فى ذلك أنى لم أجد أحدًا غيرهم يمكن أن يحمل الأرز المطلوب." وبينما كان بندر ينحنى ناحية محمد ، أعطاه حمود، الذى كان على عهد واتفاق مع محمد إشارة إلى أن حياته فى خطر، – وقيل أن هذه الإشارة كانت بوضع السبابة على البلعوم. وهنا تكلم محمد مع واحد من أهل المدينة، كان راكبا حصانا،" يا أنت! أعطنى فرسك برهة من الوقت،" متظاهرا كما لو كان سيذهب للإشراف على دخول القافلة وإنزال حمولتها. وبعد أن استقر محمد على ظهر الفرس، اقترب من الأمير الشاب، وأمسك بندر من " خصل شعره" ، وتناول خنجره المعقوف بيده الأخرى، وهم يعلقون هذا الخنجر فى أحزمتهم أثناء الرحلات الطويلة. – " "لا عميمى، لا عميمى، بمعنى لا تفعلها ياعمّاه !" قال بندر هذه العبارة : وهو يعانى رعب الموت وسكراته. وهنا رد عليه محمد بصوت حاد رهيب قائلا: " لماذا قتلت عمك؟ وهو فى بطنك، بمعنى (لقد التهمته، كرامة، وحياة، وكل شيء)،" ويضربة قاتل غرس خنجره فى أحشاء ابن أخيه! – ولم يكن هناك من خيار آخر أمام محمد، بعد أن تلقى الإشارة، إذ كان لابد من قتل الولد الأكبر من أبناء أخيه، وإلا ضاعت حياته هو؛ ولو قدر له أن يهرب، فكيف له بالخلاص من الشباب قتلة الآباء؟ كانت ناقته مرهقة كما كان هو مرهقا أيضا؛ وكان لابد أن يعفو عن الظفير، الذين خانوا الوعد الذى أعطاهم إياه. – والالتهام هو بمثابة الطموح العاجز فى الحكم، وبخاصة عند أولئك العرب الذين يولدون بالقرب من السلالة الأميرية. كان محمد رجلا مخلصا فى عهد متعب؛ وبعد قتل أخيه، لم يكن أمامه سوى الثأر؟ وبعدها يصبح التاج ملكا له.

اغتيال بندر، حتم استئصال ذريته وأقاربه، أولئك الذين يمكن أن يكونوا خطرا على محمد. ومن باب سوء الحظ والمصير أن قام محمد، بنفسه، بارتكاب هذه الجرائم. – وتلك كانت مآسى بيت آل – الرشيد! بدأت تلك المآسى اعتبارا من طلال، ذلك القاتل لنفسه؛ وخطأ فرد من الأفراد يمتد إلى من حوله، وهذه هى طبيعة الشر، مثله كمثل الحجر الذى نلقيه فى الماء، عندما يثير الاضطراب فى البركة كلها. وهناك من يقول: إن حمود هو الذى جعل وفاة بندر أمرا ميسورا بطلقة من واحد من المسدسات، – قد يفعل ذلك، لأن مصيره كان مرتبطا بحياة محمد: ولكن الأشخاص الثقات فى حائل

أكدوا لى أن حمود لم يكن له ذنب أو جريرة فى ذلك. - وأدار حمود رأس حصانه، وراح يجرى صوب المدينة وأمر بالإبقاء على بوابات المدينة مغلقة، ومنع خروج أو دخول أى إنسان مهما كانت الأسباب؛ ثم عاد حمود إلى المسحاب وصاح قائلا: " اسمعوا، جميعا! لقد قتل رشيدى رشيديا، - وليس لأحد منكم حق الكلام فى ذلك ! وأرجو أن لا يرفع أحد منكم صوته بكلمة واحدة، أو يتحرك حركة واحدة، وإلا فسوف أقطع رأسه، قسما بالله، بهذا السيف."

خيم صمت طويل على حائل ، وانسحب الناس من الشوارع إلى داخل منازلهم! أصاب الذهول البدو من أهل المدينة وعندما وجد سكان الخلاء، الذين لا يوصد الناس عليهم أبوابا، البوابات مغلقة قفزوا من فوقها.

وبدأت مذبحة مروعة فى القصر، إذ أصدر محمد أمرا بقتل كل أولاد طلال، كما أمر أيضا بقتل أبناء شقيقته الأربعة، وشقيقته هذه هى أرملة رجل يدعى الجبَّار وهو من بيت على (هذا يعنى أنه قبل أن يتولى عبد الله الحكم، دار صراع داخل بيت الرشيد على تولى مشيخه حائل، - وكان من بين القتلى والدة محمد). تحقق أمر عمهم الدموى، وجرى حمل تلك الجثث الدافئة التى كانت تنزف دما، بعد أن انترعت منها الحياة، إلى خارج القصر لدفنها فى المقابر؛ ومات مع هؤلاء الناس العبيد الذين كانوا أندادا لهم فى العمر، والذين تربوا أيضا داخل أسر أولئك الآباء، - إخوانهم من العبيد، الذين يمكن أن يكونوا، فى أى ظرف من الظروف، أدوات للثأر، عن طيب خاطر، لموت هؤلاء الآباء.

ارتعدت حائل كلها إلى مساء ذلك اليوم، وتواصل ذلك الارتعاد طوال الليل وحتى طلوع الصبح، حيث وقف محمد فى المسحاب، وقد شهر سيفه فى يده، وراح ينادى أولئك الذين كانوا يقفون متحفزين فوق ضفاف من الطين، - كانت أغلبيتهم من البدو - " يا مسلمين! لم أفعل ذلك ، إلا نتيجة خوفى من هذا! (وهنا راح يربت براحة يده اليسرى على عنقه)، ولما كانوا على وشك أن يقتلونى، أنا سبقتهم ، بمعنى حلت بينهم وبين مايريدون." وأردف قائلا بعد ذلك: - " وهؤلاء، الذين قتلوا شقيقى متعب، هل

تظنون أنهم كانوا سيبقون على حياتى؟" وعندما سمعنا صوته بقينا (وهذه رواية شاهد عيان من المطير) فى أماكننا مندهشين إذ كان كل واحد منا يرى الموت الأسود أمام عينيه". - وبعد ذلك جلس محمد على عرش البلاد باعتباره محافظا. وبالتدريج راح الناس يتوافدون على المسحاب وهم يحنون الرءوس لسيدهم الجديد، ويفرّحونه بالسلطة التى استولى عليها. وبعد إبعاد بندر، استأنف محمد الحكم؛ - ولم يحدث أن جاءت، على حد قول الناس هنا، - حكومة أكفأ من تلك الحكومة.

- كان بدر قد انسحب بعيدا على فرسه إلى الصحراء الجرداء ليعيش فيها حياة حلوة ـ مرة: هرب بدر فى فترة العصر. وفى الصباح، وعندما كاد أن يغمى عليه من الجوع والعطش، ومن الضغط والإرهاق الذهنى، فتح النار على فرسه فأرداها قتيلة ثم تسلق بعد ذلك جبلا من الجبال. - ومن هذا المكان راح بدر ينظر من بعد إلى مخاوف الدنيا وآلامها ، التى أصبحت تشكل له مكانا شاسعا للموت وفراقا للحياة! كان محمد قد أرسل الخيالة تطوف الخلاء بحثا عن بدر وإحضاره؛ وعندما عثروا على بدر بين الصخور لم يلقوا بالاً لتوسلاته الحزينة: وقتلوه فى مكانه قتلا وبيلا، وحملوا جثته فى اليوم نفسه وعادوا بها إلى حائل فى اليوم نفسه أيضا. قال كبيرهم، وهو يدخل على محمد، منتفخ الأوداج: "قسما بالله ، ياسيادة المحافظ، أنا أحمل لك أخبارا طيبة! قد ينشرح صدرك أن تأتى معى إلى مكان سأريك فيه جثة بدر بعد أن مات؛ هذه اليد هى التى فعلت ذلك، وسيكون ذلك هو مصير كل أعداء الأمير!" ولكن محمداً نظر إلى ذلك الرجل نظرة غضب واستياء، وصاح قائلا: "من الذى أمرك بقتله، يا ابن الكلب؟ متى تم ذلك، أيها اللعين؟ الله يلعن أباك، إخص ! هل قتلت بدراً؟" وهنا استل محمد سيفه، ووجه إلى ذلك الرجل ضربة جانبية عنيفة على عظمة عنقه فأطاح برأسه تماما. ولجأ محمد إلى سياسة الطغاة القديمة، التى كانوا يحاولون بها إضفاء طابع الأمانة على أعمالهم أمام أعين عامة الناس. " تساءلت عن السبب الذى جعل بدرا ، الذى كان ولابد عارفا بالصحراء المحيطة به، بحكم أن أبناء الأسرة الأميرية كانوا يشاركون فى الغزو، تساءلت، كيف لم يستطع ذلك الرجل الهرب بصورة أو بأخرى؟ ألم يكن بوسع الفرس التى كان يركبها، أن تحمله مسافة مائة ميل؟ - أى رجل يكون شجاعا، وفى مثل هذه

الورطة، كان بوسعه أن يتحمل الكثير من أجل أن يخرج خارج ممتلكات ابن الرشيد، ليدخل بعد ذلك، إلى حدود أو إلى بلاد القصيم الحرة." أجابوني." لقد أرتبك ذلك الشاب أمام تلك الكارثة العظمى، إضافة إلى أنه كان جهيلا، وفى حالة نفسية سيئة، ولم يكن هناك من يمد له يد الخلاص والمساعدة."

تحالف حمود ومحمد سويا إذ كان الخطر قائما بينهما من ناحية وبين أبناء طلال من الناحية الأخرى؛ وما لم يكونا قد استبقا كلا من بندر وبدر، لكانا قد دفعا حياتيهما ثمنا لذلك. كانت تلك المذابح على النقيض تماما من طبيعة حمود ذلك الرجل القوى. حمود، ذلك الرجل، الذى جعل وجهه السمح، الناس وإخوانه المواطنين يصفونه "بالعزيز" بمعنى "المحبوب"، وبالرغم من كل ذلك كان حمود، عندما يخرج عن طور الود والصداقة، ينقلب إلى رجل شديد الغضب، صعب المراس، سليط اللسان وجبار مثل والده تماما؛ والذى لا شك فيه أن حمود يمكن أن يتحول إلى نمرود قوى القبضة فى لحظات الخطر. يضاف إلى ذلك، أن هذا هو الأسلوب الذى يتعامل به العرب مع بعضهم البعض؛ وليس هناك من هم أكثر لوما أو وباءًا من العرب عندما يكونون أعداءً. وخارج نطاق الكرم، نجد أن حمود، مثل سائر العرب جميعا، صاحب مزاج مبتئس إلى حد ما، ولقد سمعت ذلك مرارا فى حائل،" حمود (...)" Khara . هذا يعنى أن حمودًا كان أسوأ من غيره. هذه هى بعض المفردات غير النظيفة فى الحجاز، والتى تنبعث من أوكار الحياة غير المتحضرة، الذين يحكمهم حكام مجرمون، فى الأرض المقدسة؛ ولا ينتمون إلى المدارس طيبة الكلام، وجيدة السلوك والأخلاق، وهذه المدارس تتمثل هنا فى القهوة التى توجد فى واحات الجزيرة العربية وفى المجالس التى تنتشر فى الخلاء، أو إن شئت فقل: الصحراء. - كانت هناك ضرورة مخيفة تقع على عاتق محمد: هى أن محمدًا كان لا يمكن أن يصل إلى عرش حائل إلا من خلال هذا القتل والاغتيال الذى أحدثه بين أهله وناسه. ومحمد عقيم، وهو عقير، أى لا ينجب؛ أما حمود العبيد فقد كان له أبناء كثيرون.

بعد أن شتت محمد الأخطار المحدقة به، كرس نفسه للعمل الحكومى، حتى يتسنى له اكتساب الرأى العام؛ وفيما يتعلق بسلوكياته الشعبية، بدأ يظهر أمام الناس

وكأنه أسلس تصرفاً من سابقه طلال. ومحمد لم يلجأ مطلقا إلى استخدام سلطته فى الأماكن التى لا تعارضه أو تقف فى طريقه، كما كان أيضا معتدلا تماما فى شئون البلاد الداخلية، ولكنه كان بالغ القسوة فى استئصال أو بتر الأجزاء المضطربة من ممتلكاته. وعندما عادت إليه الجوف مرة ثانية بفضل التمرد الذى قام به المغاربة الذين كانوا ضمن الحامية، "يقال أن محمدا، أمر بقطع الأيادى اليمنى لكثير من أولئك الذين اعتنقوا عقيدة الدولة العثمانية.(*) ومع ذلك لم يمض على الجوف جيل كامل تحت حكم جبل شمر؛ والسبب فى ذلك ، أن محمداً، الذى كان شابا صغيرا فى ذلك الوقت، كان يرافق عمه عبيد فى الاستيلاء على الجوف، وقد أصيب بجرح من رشة استقرت فى عظمة القدم؛ - وجرى بعد ذلك استخراج الرشة من قدمه فى حائل بواسطة حكيم فارسى، جرى استدعاؤه خصيصا لهذا الغرض، من بلاد الرافدين.

وفيما يتعلق بالعطايا والهبات الأميرية فى الجزيرة العربية، نرى أنهم يقدمون الهبات آخذين فى اعتبارهم مسألة المنفعة. هؤلاء الأمراء على استعداد أن يخسروا اليوم جنيها ، على أمل أن يعود عليهم ذلك الجنيه بعشرة جنيهات خلال فترة من الزمن . والعرب يقولون: إن "ابن الرشيد من عادته أن يتعامل مع كل إنسان على عقله، بمعنى حسب قدرته على الفهم." كان الحظ عنيدا مع محمد فى شبابه، إذ إن فرصة دموية هى التى مكنته من الحكم. وهو فى حكومته يتحمل ذلك الذى لايمكن تغييره على وجه السرعة؛ هذا يعنى أنه ليس بوسعه لجم أهواء البدو عن طريق القوة وحدها؛ وبالرغم من أنه كان يكابد فى نفسه الكثير من الآلام، فإنه كان يتحمل تلك الآلام بذلك المحيا السمح الجميل، والخطاب الودى، وبكلمات قليلة، كان يستطيع الوقوف على ما يدور فى أذهانهم، وهو يتحدث معهم. فهذا هو مطلق، شيخ الفجير، يعود إلى دياره مبتسما، بالرغم من أن الأمير محمد لا يستلطفه؛ وهذا هو الأمير يفرض فى العام التالى ضريبة "الميرى" Miry على بدو الفكارة، دون أن يعترض أفراد القبيلة على ذلك. وهؤلاء هم كبار رجال تيماء، مدينته الخارجية الجميلة الذين انهارت آبارهم، يغادرون قصره محملين

(*) الأصح الذين ظلوا موالين للدولة العثمانية وليس الذين اعتنقوا عقيدة الدولة العثمانية . (المراجع)

بالهدايا والعطايا. ومحمد من النوع الذى يستحوذ على عقول عامة الناس؛ وإذا ما ناداه بدوى وقح وهو فى الشارع، أو من داخل المجلس (البدو كلهم من الشحاذين الملحاحين)، قائلا: "آها! أيها المحافظ، أطال الله عمرك! أنا جئت إلى هنا، ضمن رُبَّة (جماعة من البدو) وأنا أقسم بالله! أنى عريان"، تراه يصرف مثل هذا البدوى بكلام طيب وهو يقول: باسم الله! أذهب مع فلان، وسوف يعطيك ثياباً." - وهذه الثياب عبارة عن تونك (ثوب) ثمنه شلنان فى حائل، وعباءة من الصوف الخشن ثمنها تسعة شلنات وغترة ثمنها ستة بنسات؛ ونظرا لأن هذه الأشياء تُشْتَرى جملة من بغداد، ويجرى إحضارها على ظهور إبل الأمير نفسه، فقد لا تكلفه عشرة شلنات.

ترى، ماهى تلك الإمارة وماهى تلك السلطة التى يتصارع عليها هؤلاء العرب فى الجزيرة العربية، صراعا مريرا؟ هذا هو ابن الرشيد، على حد علمى، يمتلك حوالى ثلاثين واحة، منها خمس عبارة عن مدن صحراوية هى: الشعكخى، الجوف، وحائل وقفار، وتيماء، ويبلغ إجمالى السكان ما يتردد بين ١٢ ألف و١٣ ألف نسمة: عدد آخر من تلك الواحات عبارة عن قرى جيدة مثل: القصر، مجوج، العلا، المستجَدّة، فيض، الروثة، سميراء Semira ، والحيات، وهى لا تضم أكثر من ٥٠٠٠ نسمة. وإلى جانب هذه الواحات هناك بعض الهجر النائية موجودة فى صحراء جبل شمر ويسكن فى كل هجرة من تلك الهجرات عائلة واحدة أو عائلتان وأحيانا ثلاث عائلات، وهم عادة مايكونون مستوطنين جاءوا إلى تلك الهجر من القرى المجاورة؛ وفى أغلب الأحيان، قد تتكون كل هجرة من هذه الهجر من عشرين بيت ولا يزيد عدد السكان فى كل بيت على عشرة أفراد. ومن بين هذه الهجر: الجفيفة، العجلَّة، القُصَّة، البديعة، حليفة، ضرغرد Thujhrod ، ماخول Makhaul ، عُثيم Otheym . البعض من هذه الهجر لا يعدو أن يكون مجرد بيت ريفى، يظل مهجورا بعد حصاد التمر فى شهر أبريل، إلى فصل الخريف وإلى أن تحين أشهر الرى والزراعة: ولكن قرى التمر بها سكان دائمون، مثل البديعة، وضرغرد. وبذلك يمكن القول إن سكان جبل شمر المستقرين يقدرون بحوالى ٢٠٠٠٠ نسمة؛ وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء البدو والأتباع، بنى وهاب، - والفجير يصل عددهم إلى حوالى ٨٠٠ نسمة، ونصف قبيلة ولاد على فى الجنوب يقدر عددها بحوالى

١٦٠٠ نسمة، – ولنقل إن الإجمالى يصل إلى ٢٥٠٠ نسمة، وهناك أيضا البشر فى الجنوب، ولنقل إنهم يتكونون من ٣٠٠٠ نسمة، أو قد يكونون أقل من ذلك ؛ والقسم الشمالى من قبيلة حرب قد يصل عددهم الى ٢٠٠٠ نسمة وهم موالون لابن الرشيد، والجزء الجنوبى من الشمر لا يزيد عدده بحال على ٢٠٠ نسمة، ولنقل إن الحطيم فى المنتصف يقدر عددهم بحوالى١٥٠٠ نسمة، ولنقل أيضا إن الشرارات يبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ نسمة؛ ولا يوجد بعدهم شىء يذكر. وبذلك يصل إجمالى أعداد الناس هنا إلى حوالى ١٤٠٠٠ نسمة أو ما يقل عن ذلك: يضاف إلى ذلك أن عدد السكان والبدو المستقرين لا يزيد بحال من الأحوال على ٣٠٠٠٠ نسمة.

العبء الذى يتحمله الأمير نتيجة إسهامه العام فى استقبال أفراد الشعب، يجرى فرضه على شكل ضرائب، أو مكوس تفرض على الثمار والقمح والتمور فى المستوطنات – وقد تأكدت أن تلك الضرائب فى تيماء تقدر بحوالى جنيه إنجليزى واحد عن كل رأس من البشر؛ أما فيما بين البدو الرحل (الذين لا يلقون بالا لأية حكومة يجرى تشكيلها من أجل الصالح العام) فقد وصلت هذه الضريبة بين الفكارة، تلك القبيلة المسكينة، إلى ما يقرب من جنيه إنجليزى واحد عن كل ثمانية أو عشرة أشخاص. وغير هذه المستحقات هناك أيضا أنواع أخرى من المكوس، التى لا أعرف الكثير عنها، والتى منها على سبيل المثال، تحصيل ستين ريالا عن حمولة الجمل الواحد من التبغ الحميدى، الذى يجرى إحضاره عند بوابات السوق فى حائل. وعند هذا الاختناق الذى لا يطاق تمكنت من حساب مدخولات إمارة ابن الرشيد، العينية، والنقدية، بما يقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ جنيه إسترلينى، يجبى١/٢ منها من البدو. زد على ذلك ، أن إيجارات الأمير الخاصة كبيرة جداً. يضاف إلى ذلك أن المال والثمار التى تنتج عن الممتلكات التى تجرى مصادرتها كل عام، تذهب إلى بيت المال، أو إلى الخزانة العامة.

تقدر المصروفات الحكومية المعتادة بما يقرب من ١٢٠٠٠ جنيه إنجليزى، وهى تصرف على خدمات القلعة، والفرقة المسلحة، وعلى مجموعة العبيد ، والرعاة الذين يقومون على أمر الثروة الحيوانية فى الصحراء، وعلى الخدم، والمتسلمين، وعلى الممثلين

المقيمين فى البلدان البعيدة مثل تيماء والجوف، وكذلك على الضيافة العامة فى حائل، كما يصرف منها أيضا على تغيير الملابس. أما مصروفات الأمير غير العادية فهى تقدر بحوالى ١٠٠٠ جنيه إسترلينى كل عام وهى تصرف على البارود، وعلى الغزو العام، والعطايا والهدايا السنوية. والرشوة التى يقدمها تعتمد على تغيرات المناخ العالى، وهى تقدم لكبار رجال الحكومة فى الإمبرطورية العثمانية؛ وفيما يتصل بخبير فقد راح يزين بالذهب بعض الأصابع فى المدينة (المنورة). كل هذه المصروفات تجرى تغطيتها عن طريق بيع الخيول النجدية، فى معظم السنوات، (وكلها من الذكور) فى أسواق الهند ؛ وهذه الخيول، يجرى شحنها حسب الطلب، من الكويت، بواقع حوالى عشرين حصانا فى المرة الواحدة: سياس هذه الخيول، الذين يقومون بتوصيلها إلى الهند، يتغيبون عن حائل طوال شهرين كاملين عندما يقومون بهذه المهمة.

وعند الضرورة، وفى حالة العمليات الحربية، يستطيع ابن الرشيد أن يستدعى، على حد علمي، وبلا صعوبات حوالى ٢٠٠٠ محارب من القرى التابعة له، إضافة إلى كثير من الجمّالة (السواد الاعظم منهم يركبون النياق) ، ولكن هؤلاء الجُمالة ليسوا جميعا مسلحين؛ ولكن الذين يشاركون فى الحملات بالفعل يصل عددهم إلى ربع هذا الرقم. ومن بين الرعايا البدو يستطيع ابن الرشيد، عند الضرورة، استدعاء حوالى ثمانمائة أو تسعمائة فرد من القبائل المرتبطة به، أو القبائل التى تخشاه أو تخاف منه باعتبارهم جيرانا له مثل: الشمر، والبشر، وحرب، والحطيم: كما يستطيع أيضا تجنيد مائتين وخمسين رجلا من بنى وهاب، باعتبارهم من رعايا الحدود، كما تدور الشكوك حول ولائهم، إضافة إلى أنهم كثيرو التمرد والعصيان؛ كما يستطيع ابن الرشيد أيضا أن يجند حوالى مائتى فرد آخرين من بدو الشرارات المغلوبين على أمرهم، والذين هم على استعداد للتحول إلى الإمبراطورية العثمانية إذا ماساندتهم الحكومة السورية؛ وبذلك يصل إجمالى أفراد البدو الذين يمكن استدعاؤهم إلى مايقرب من ١٣٠٠ رجل، هم فى الأصل من الجمّالة (قلة قليلة من الشيوخ هم الذين يركبون الخيول) – يضاف إلى ذلك أن ثلثى هذا الرقم مسلحون ببنادق فتيلية، أما الباقون فيتسلحون بالسيوف، والهراوات، والرماح والحراب. ويقال إن الأمير لديه " أربعمائة حصان،" وأن تلك الخيول

موجودة ، على سبيل الإعارة، لدى بعض الرجال الموثوق بهم والرجال المهمين فى القبائل الخاضعة للأمير؛ وهؤلاء الرجال هم من بين الراكبين فى الحملات التى يقوم بها الأمير. وفى الغزو العام الذى يقوم به الأمير يشارك كل من «الرجاجيل»، وسكان حائل، ورجال من القرى المجاورة، وهم يقدرون بحوالى أربعمائة رجل، إضافة إلى كثير من البدو، الذين هم رهن إشارة الأمير، ومستعدين للذهاب معه ومرافقته تطلعا إلى المكاسب والمغانم : كل هؤلاء الناس يحدد لهم موعد الغزو ومكان التجمع . العرب الذين يعيشون فى بلد ميت، يظنون أن ذلك الاصطفاف الذى يجريه ابن الرشيد لهؤلاء البشر، إنما هو شىء رائع، ويرجع إلى الغزوات التى يقوم بها ابن الرشيد. ترى هؤلاء العرب يقولون ويتحدثون وهم يتفاخرون" كان الطريق فيما بين حائل وقفار، مليئا بالراكبين!" - ولما كانت المسافة تقل عن اثنى عشر ميلا، فهى لا تصلح إلا للراكبين، وبطريقتهم السائبة، التى يسير الركاب بمقتضاها الواحد خلف الآخر، وبفاصل عشرين خطوة بين الراكب والذى يليه.

الأمير محمد شديد البأس فى القتال، وهو يستعمل بندقية أوروبية؛ وهذا هو حمود، القوى المتين، يقف مسلحا إلى جوار الأمير، وإذا مادعت الضرورة، وبرًا بقسمهما أن يعيشا سويا أو يموتا سويا، فإن حمود على استعداد لفداء الأمير بنفسه وبجسمه هو. هؤلاء هم الأمراء، نزلوا من فوق الإبل ، وامتطوا صهوات جيادهم، وهم يرتدون " قمصان داود"، ينخرطون بين المقاتلين فى المقدمة، فى حين يقوم المسلحون بفتح النار على العدو من الجناحين ، بالقرب من الأمراء. ومعركة الأمير لا تعوِّل كثيرا على البدو المساكين، لا من حيث الوزن أو العدد؛ والسبب فى ذلك أن «رجاجيل» الأمير، وكذلك الراكبين من القرى المجاورة، بحكم اعتمادهم على الحياة المدنية المتحضرة، يطيعون الأوامر، ويستطيعون التماسك مع بعضهم البعض. ولكن البدو، الذين تشبه عقولهم عقول الطير، والذين لايعرفون أى شىء فى حياتهم الرعوية، عن التدريب العسكرى، يندر أن يجتمعوا أو يحضروا فى يوم القتال، وعلى رأسهم شيخهم؛ ولكنهم يتصرفون تصرف الصقور، إذ يقاتلون متفرقين، ويجرون هنا وهناك، ولا يلقى أحد منهم بالا للمصلحة العامة وإنما يركزون على مصالحهم الشخصية، حتى ولو كانت

غنيمة هزيلة: البدو المساكين يعترفون ويقرون بأنهم مخدوعون من الطمع، أو إن شئت فقل: الذى يشغلهم هو جشع الكسب. من هنا نجد أن مقاومة البدو ضعيفة، والويل لمن ينكسر ويولى الأدبار! ولا يذهب أسير إلى محل إقامة الأمير إلا بعد تدميره وتحطيمه: وقلوب «رجاجيل» ابن الرشيد هم وعبيده قاسية ولا تعرف الرحمة. وأنا أعرف أن الأمير ألقى بنفسه بعض رجال القبائل الأسرى المساكين فى آبار المياه: - ومعروف أن أهل الجزيرة العربية لا يأخذون الأسرى. والمعارك التى تجرى مع البدو تكون فى فصل الصيف، وتدور هذه المعارك حول محطات المياه؛ وفى هذه المعارك يقيم المقاتلون فى مخيمات كبيرة طويلة الأجل.

من هنا يقول البدو" ابن الرشيد هو الذى يضعف البدو!" وبعد أن يكسر ابن الرشيد شوكة البدو، يبدأ فى استقبالهم ضمن أتباعه الحلفاء، ويخلصهم من كل أعدائهم الذين يجورون عليهم من جانبه. ويجرى توزيع جزء من الغنائم على «الرجاجيل»، ويحتفظ كل واحد من «الرجاجيل»، بذلك الذى يستولى عليه هو فى البداية، هذا هو إبراهيم الجزائرى، واحد من هؤلاء «الرجاجيل»، وكان يتحدث معى، فى معظم الأحيان، عن بلده الغربى، هذا الرجل قال لى: إن كل واحد من «رجاجيل» الأمير، يحصل على مبلغ أربعة ريالات قبل أن تبدأ عملية الغزو، وذلك حتى يتسنى له أن يشترى دقيقا، وتمرا، وذخيرة؛ وأن هؤلاء «الرجاجيل» يحملون معهم، فى بعض الأحيان، ما قيمته أربعة أحمال من أحمال الإبل، كلها من البارود والرصاص وكلها من مدينة حائل، وأن هذا البارود والرصاص يوزع على البدو الذين سوف ينضمون إلى الأمير وهو فى طريقه إلى الغزو.

ولتحديد ممتلكات ابن الرشيد فى الصحراء نجد أن: - الرولة هم على حدوده الشمالية، هم والقسم الشمالى من الشمر، وكذلك الظُّفير، تلك القبائل البدوية المتصادقة مع جبل شمر، ولكنها ليست تابعة له. ومن الناحية الشرقية، تحده ممتلكات بريدة، التى سوف نتحدث عنها باعتبارها ولاية تضم عددا كبيرا من القرى فى نفود القصيم؛ من هذه القرى: العيون، الخبراء، الرس، والتى ليس فيها رعايا من البدو. وبيت حائل

الأميرى، يتحالف عن طريق الزواج مع ولد مهنا، ذلك الفلاح الغاصب، طاغية بريدة، ونجد أنه هو والأمير متحالفان ضد الشرق، أى ضد عنيزة، وأيضا ضد القوة الوهابية المتحللة حاليا فيما وراء الجبال. وفى الجنوب، وبعد أن ضاعت خيبر من الأمير، نجد أن حدوده تمتد إلى مسافة حوالى مائة ميل فى اتجاه المدينة (المنورة)؛ والصحراء الداخلة ضمن ممتلكات ابن الرشيد يحيط بها من الناحية الغربية، طريق الحج الكبير القادم من سوريا، - ونحن عندما نستثنى بنى عطية - كما تخضع له أيضا كل منطقة بدو الشرارت، التى تمتد إلى جبل شرات Sherra ، وبذلك تدور حول وادى السرحان، إلى أن تصل إلى مدنه الشمالية الطيبة، المتمثلة فى الجوف الشعكخى Shakakhy وضواحيها. خلاصة القول، إن كل ممتلكات ابن الرشيد الصحراوية تقع بين كل من الجوف، والقصيم ودرب الحج؛ وتمتد مسافة تسعين فرسخا فى اتجاه الشمال والجنوب، وتمتد فيما بين الشرق والغرب حوالى مائة وسبعين فرسخا. وهو يبقى على هذه المنطقة كلها خاضعة له، باستعمال القوة (وهذا على حد قول الناس) التى يصل قوامها إلى حوالى أربعمائة من الجمَّالة الراكبين، مضافا إليهم «الرجاجيل» والقرويين ؛ ومن ذا الذى يستطيع تعبئة مثل هذا العدد فى تلك الصحراء الميتة، أو حتى من البدو الهمجيين، الذين يمشى نصفهم بلا سلاح. من ذا الذى يستطيع مقاومة قوة ابن الرشيد هذه؟

الفصل الثانى

الحياة فى حائل

القبائل الكبيرة التى تقف وراء ابن الرشيد. أخو نورة. العائلات الأميرية. الأمير محمد بلا ذرية. زوجته "المسيحية". عبد العزيز طفل طلال اليتيم، ويتيم أخاه بندر غير الشقيق. أوجاع الأمراء السرية. عائلة عبيد. أغنية من أغانى عبيد. عبيد يمكن أن يكون كريما. فهد. الروح المشتتة المسكينة يبيع ابنته لوالده عبيد. فيض. سليمان. عبد الله. ثروة أسرة عبيد. ابنة حمود. حكومة ابن رشيد. بداية إمارة شمر. فى رأى البعض الأمير ظالم، مستبد. حكاية عن حكومة متعب. تاجر دمشقى مسيحى يزور حائل. نزاع بين القبائل حول سيطرة الأمير وهيمنته. «الرجاجيل» الشيوخ. إمبارك. حامية المغاربة فى برج المارد فى الجوف. كلام الشرارات للشيوخ فى الجوف. ابن الرشيد يهب لإنقاذ الجوف. ابن الرشيد والباشا العثمانى. البدو أمام «الرجاجيل». رجال شرقى نجد ورجال الرياض يأتون لخدمة الأمير الغربى. 'تدمير' ابن سعود. مراسل من الرياض. رجال من القحطان فى حائل. كلام القحطان. بلاد وادى الرواسر. حيزان شيخهم. حيزان يهدد بطعن النصرانى. حكايات الناس عن القحطان. 'قبورهم غربان' ونسورهم حويصلات'. سلالة ابن الرشيد النسبية. أقارب الشمر. رشيد، بدوى متعلم. قاضى متشدد. نزاع مع القاضى المتحذلق."المسكوفيون القدامى تملكوا أرض نجد". نقوش جُبّة. دراسة الرسائل فى نجد. الجهل بالعالم المتحضر. ناظر مدرسة القرية. نبوءة من نبوءات حزقيال. غضب فى المقهى. صياح مُصلّح القهوة أمام الأمير. [ملحوظة: بيان تفصيلى للرحلة من حائل الى الكويت] .

القبائل الكبيرة الموجودة غربى درب الحج، هى فى معظمها أو فى بعض أجزائها تعد بعيدة جداً عن ممتلكات ابن الرشيد؛ وهم فى مأمن من ابن الرشيد فى ديارهم الخطيرة. وإذا مابدأنا من الناحية الشمالية نجد هناك بنى صخر فى بلقاء Belka ، وهم خاضعون حاليا للحكومة السورية، ثم بنى عطية، وإلى الخلف منهم تعيش الأمة البدوية القوية، بدو الحويطات، التى تعيش على مساحة واسعة. تمتد بين البحرين، ومن بعدهم البلى خلف الحرَّة، وجيرانهم سلالة جهينة العريقة والنبيلة أيضا: هذا بالإضافة إلى جنوبى حرب، وهم من البدو الرحل، ومن القرويين أيضا، والذين تقع أراضيهم كلها فى مجرى السيل فى وادى الحمض el.Humth . وفيما بين بلاد مكة والقصيم توجد منطقة بدوية كبيرة، تزيد مساحتها على مائة فرسخ، (وهى أحسن أراضى الصحراء التى شاهدتها أو رأتها عيناى فى الجزيرة العربية)، وهذه المنطقة تسكنها أمة عتيبة؛ والعتبان شديدو البأس فى السلاح، وهم أيضا من البدو المتحضرين، ويمثلون العدو الرئيسى لابن الرشيد. ولم يمض عام واحد، إلا ويكون ابن الرشيد قد قام بغزوهم والإغارة عليهم، ومع ذلك فهم أيضا بمثابة الدمار والهلاك للأعراب المتحالفين مع ابن الرشيد، وبخاصة أعراب الحطيم الذين يعيشون فى المنطقة الوسطى، فى وادى الرماح، هم وجيرانهم من قبيلة حرب. - هذا هو حال الضيَّاع، وهذا هو حال حكومة ابن الرشيد، هذا الاسم ذائع الصيت (بعد الضربات الوهابية القوية) فى الجزء العلوى أو إن شئت فقل الجزء البدوى الرعوى من الجزيرة العربية.

وفيما بين الحب والخوف، نجد أهل الصحراء يطلقون عليه اسم أخو نورة بل إنه هو نفسه يطلق على نفسه هذا الاسم (لأنه أحلى قَسَمْ عند أفراد أسرة ابن الرشيد). من هنا، فإن عبد الله، أول محافظ فى حائل، أقسم بأخته الصغيره تمشيا مع الأعراف والشهامة النجدية عندما قال: "لأنى أخو نورة". ومن بعده جاء طلال ومتعب وأقسما القسم نفسه، وها هو محمد يقسم بنفس القسم؛ والسبب فى ذلك، أنه كانت هناك نورة أخرى، هى ابنة عبد الله، ولكنها حاليا من بين الأموات. - وهذا قسم عظيم عند الحاكم، ولا يحتمل الهزار، إذاما أقسم به الأمير أو الحاكم على حياة أى إنسان من البشر! ولقد سمعت رجلا، لم يكن له شقيقات، وهو يقسم بحياة ابنته الطفلة: "أنا أبو عذيبة!"

إذا، فهذا القسم يعد من قبيل التملق والمداهنة فى حالة الصداقة، وقد يكون من قبيل السخرية والتهكم عندما يقول "أنت أخو (فلانة)"؛ - "يا لهذه الشهامة، إنك حتى فى أشيائك الضعيفة جدير بأن تدرج بين الشجعان." ولقد سمعت بعض صبيان البدو (من البِشْر) وهم يقولون، أنا أخو شكتى chokty ، بمعنى أنا أخو سسى Sissy ، أى أختى الصغيرة؛ وشبيه بهذا القسم، من حيث التحضر البدوى، تلك العبارة التى يقولها (رجل عجوز) تعبيرا عن الدهشه، أنا ولد أبوى!

وهنا يتعين على أن أقول شيئا موجزا عن الأسر الأميرية: محمد (كما سبق أن قلت) عقيم، أى عاجز عن الخلف بسبب دواء غير مناسب، أعطى له أثناء مرضه، " وكان هذا الدواء هو الوحيد الذى يمكن أن ينقذه من الموت." وهذا الحال يسبب له التعاسة وانعدام راحة البال، ويستحيل عليه تقوية نفسه بذريته التى من صلبه، ومحمد متزوج من أربع زوجات حسب الشرع، اثنتان منهن حضريتان، أى" من نساء المستوطنات"، والاثنتان الأخريان من "البدويات". وبطريق المغامرة الغريبة، استطعت رؤية واحدة من هاتين الزوجتين الحضريتين، واسم هذه الزوجة "كرستيان". وقد سمعت ذلك الاسم يتردد فى أحيان كثيرة؛ أما حقيقة هذا الاسم فى لغتهم، فأنا لا أعرفها. ولم أعرف منهم، من أى جزء من البلاد كانت تلك المرأة. "جاءت هذه المرأة بصحبة أخيها إلى حائل قبل سنوات قلائل؛ وقد أعجب هؤلاء العرب بذلك الشاب عندما أراهم مهارته وهو يستعمل الحربة من فوق صهوة جواده، "دخل كرستيان فى الإسلام فى حائل." وعندما غادرها خلف وراءه شقيقته التى تزوجت أمير البلاد. ترى، هل كرستيان هذا، يمكن أن يكون واحداً من راكبى الخيول (الخيالة) الذين يجيئون من مصر أو من بلدان الحدود الشمالية؟ - ولكن مسألة إساءة معنى سؤالى عن طريق الوشاة فى القلعة أمر وارد، وبخاصة عندما يقولون: إنى أتساءل عن شئون الأمير الشخصية. والزوجة الحضرية الأخرى هى شقيقة شخص يدعى حسن، ولد مهنا (*)،

(*) كان مهنا هو الحاكم الذى عينه السعوديون على بريدة ، واتسم بالتعصب والاستبداد وكان يعمل على تدمير روح أهل القصيم بإرسالهم فى حملات عسكرية عديدة لمصلحة السعوديين . (المراجع)

طاغية بريدة؛ وقد تزوج حمود واحدة من بنات الأمير حسن، إضافة إلى بقية الزوجات الأخريات.

ومحمـد يطـلـق ويتزوج، حسبما يشاء، "شهرا بشهـر:" وبالرغم مما سبق ذكره لا يستطيع هذا الأمير التعس شراء النعمة العامة! فأطفاله ميتون في داخله، وهذا الرجل الذي تخشاه القلاع البعيدة يبقى هنا عقيما، أو أقل من رجل وسط كل هذه الزيجات. ولكن هذا الأمير العقيم يحب الطفل اليتيم عبد العزيز كما لو كان ولده هو، وعبد العزيز هذا هو اللحم الوحيد المتبقي في هذه الدنيا من أخيه متعب، وهو الذي يشرف، مثل الأب، على تعليمه وكل شئونه. وفي كل يوم يحضر الطفل له واجبه اليومي، الذي هو عبارة عن آيات من القرآن، مكتوبة، مثلما يفعل أطفال الواحات في الجزيرة العربية، بالحبر الذي يصنعونه من هباب قشر الرمان، على لوح من الخشب الذي يبيضونه باستعمال الجبس. وفي يوم آخر من أيام الدراسة يجري غسل ذلك الحبر، وبذلك يصبح لون اللوح أبيض. كان عبد العزيز يجيء دوما إلى المخزن الذي أقيم فيه، وكان يطلب مني إعطاءه شيئا من الحبر الجيد، وبعضا من الورق، وبعض الكبسولات لمسدس صغير أعطاه إياه عمه محمد. وعندما كان يجيء ماجد، كان عبد العزيز ينهض واقفا ويذهب لحال سبيله، - وقد لاحظت عدم وجود كلام أو علامات صداقة فيما بينهما. كان عبد العزيز يأتي لوحده، أو بصحبه طفل آخر من أطفال الأمراء، (الذين أبقى محمد على حياتهم) - عبد العزيز هذا هو يتيم بندر! وكان يصحب هذين الطفلين صبي حبشي، وهو عبد حسن الطباع.

هؤلاء الأطفال، أبناء الأمراء، كانوا إخوانا غير أشقاء، نظرا لحدوث خلط مخيف في الزواج، فهم مولودين من أم واحدة، من عم أو من ابن أخ، إضافة إلى قتل بعضهم البعض! وهذا هو قاتل أبيه الشاب، والذي لم يحزن عليه أحد، يسكن قبره اليوم، قتيلا، بيدي محمد، الذي ثأر منه لقتل والده، ويعتلي اليوم عرش إمارة البلاد. - وبندر بعد أن قتل عمه الذي كان في منصب الأمير، تزوج امرأة القتيل، وهي أم عبدالعزيز ، - عمته؛ وقاتل أبيه هذا، أنجب منها طفلا. هذا القاتل أبقى على حياة ولد عمه الطفل، في الوقت

الراهن، وقد يفكر في إهدار دم هذا الطفل من باب تحسبه ومحافظته على نفسه، تحوطا لليوم الذى سيكبر فيه ولد متعب الذى مات مقتولا، - ترى هل سيفكر عبد العزيز فى يوم من الأيام، في اغتيال والد أخيه غير الشقيق، الذى تربى معه، وهو فى الوقت نفسه، زوج لأمه، كما أنه "عمه"، وابن عمه، إلا أنه هو أيضا الذى اغتال والده متعب؟ الآن، وبعد أن تولى محمد إمارة البلاد، فقد تغير الخطر الذى يمكن أن يجيء من جانب الأطفال الأبناء: هل سيغفر ولد بندر، إذا ما كبر، ومن أجل عيون عبد العزيز من ناحية، ولأنه بقى على قيد الحياة من الناحية الأخرى، قتل محمد لأبيه؟ - ولكن ذلك العمل المريع لم يكن ظلما فى أعين الناس.

هذا هو عبد العزيز خطوه يشبه خطو عمه، ومحياه يشبه محيا عمه أيضا، وهو يحمل سيفا صغيرا أعطته والدته إياه؛ ومع ذلك فإن ملامح وقسمات ذلك اليتيم الحزين تقول شيئا ما، وهو الذى جاء من فرع لم يرو من مياه الأبوة الطبيعية. ويبدو أن عقل هذا الصبى يتأمل الكثير من هذه الأمور؛ لقد سمعت عبد العزيز وهو يكلم نفسه عندما جاء لزيارتى، "ها! إنه هو الذى ellathi ذبحه thabhah ، هذه الكلمة التى كانت تنذر بعاصفة قادمة، كانت تجرى خفيفة على لسان ذلك الطفل. - يا الله ! من ذا الذى يستطيع التنبؤ بتلك المآسى القادمة! ترى، على من سيكون الثأر القادم، ومن الذى سيتولى العرش، وما هى حالات الاغتيال المنتظرة بينهم؟ هؤلاء الأطفال كحيلى الأعين، الذين يفرقون شعورهم من المنتصف، ويجدلونها على رءوسهم اليتيمة، والذين تشبه ملامحهم ملامح النساء والبنات الصغيرات. على الجانب الآخر، هناك ماجد، ولكن من ذا الذى يلاحق الأمير حاليا غير حمود ولد عمه؟ وربما تسبب ذلك فى تحاشى الأطفال بعضهم بعضا منذ البدايه؛ - وعبد العزيز هو الذى تحاشى ماجد. ترى هل جاء ذلك التحاشى نتيجة إحساس عبد العزيز بارتكاب حمود عملا ضد والد عبد العزيز؟ ربما أصبح كل واحد منهم يضمر فى داخله تدمير الآخر والقضاء عليه؛ - ماجد هو نفسه حفيد من أحفاد شقيق والده، وهو فى موقع ابن العم أو الخال بالنسبة للأمير. وماجد، حفيد عبيد، هو فى موقع الوالد بالنسبة لعبد العزيز، وهو يتمتع ببشاشة شعبية، ولكنه أقل ولاء للأمير؛ كما أن فيه ماينذر بالخطر، إذ تراوده ثقة طموحة بأنه سيكون هو

الحاكم فى يوم من الأيام. وعبد العزيز يوحى بأنه صاحب قلب طيب، وإذا أراد الله فسوف يكون ذلك الشاب أميرا على حائل فيما بعد، فهو يبدو عليه أنه سيكون واحدا من الأمراء الأجواد، مثل والده متعب. – هذه هى مآسى وأوجاع أولئك الأمراء فى حائل؛ وهنا نجد أن الرعب يتملك محمد فى وحدته الدموية. وأنا عندما كنت فى القصيم سمعت الناس يقولون عن محمد بن الرشيد "لقد ارتكب جرائم لم يشهدها العالم من قبل!"

وأنا هنا سوف أتناول أسرة عبيد التى يرأسها حمود فى الوقت الراهن. كان عبيد هو المسئول عن القوة العسكرية فى جبل الشمر، أثناء حكم شقيقه عبد الله، وأثناء حكم طلال بن أخيه. كان عبيد رجلا عسكريا، ووهابيا أكثر من حمود، الذى ولد فى أيام الوفرة والرخاء. كان عبيد سيدا من سادة العمليات الحربية فى الجزيرة العربية، بل إنه كان بطلا فى نظر الأعراب. وعلى حد قول الناس، كان عبيد قصاداً (نظاماً) ممتازا، وقد نظم بالشعر كل العمليات الحربية التى خاضها فى الصحراء، كما كان البدو الرُّحل يتغنون فى خيامهم، بتلك القوافى التى ذاع صيتها فى الصحراء. ولغة هذه القصائد ليست هى اللغة الشعبية أو الدارجة؛ وأنا هنا تحضرنى بعض أشعار عبيد، التى منها الأبيات التى يقول فيها: "هذه اليد أسقطت تسعين رجلا من الأعداء. ومات القصمان أمامى مطعونين حتى الموت، واستمر ذلك إلى المساء، حيث لم يفارق السيف قبضة يدى؛ وهذه أكمام ثيابى وأطرافها جفت وتصلبت بسبب دماء الحرب." وقد نظم عبيد هذه القصيدة، فى إثر حملة فاشلة جردتها مدينة عنيزة، المدينة العظيمة من مدن القصيم، على ابن الرشيد. – " تساءلت، وكيف استطاع عبيد، ذلك الرجل وحده، القيام بتلك المذبحة المروعة، التى نصبها لأولئك الذين كانوا يناصبونه العداء فى القتال؟" (*)

(*) صور عبيد بن الرشيد أحداث هذه المعركة التى عرفت باسم معركة «بقعاء» ١٢٥٧هـ – ١٨٤٢م فى قصيدة جاء فى مطلعها :

يا من لقلب فيه خمسة وعشرين   هجس وهاجوس وعدل ومايل

وسجل فى تلك القصيدة ما قام به فى تلك المعركة من القضاء على خصومة العنيزيين بقوله :

اللى ذبحت بشذرة السيف تسعين   منهم ولانى بطردهم بسايل

وكما يتضح من السياق أن «دوتى» يعلل كثرة القتلى فى هذه المعركة بأن عبيد فتك بخصومه بعد حلول الهزيمة بهم . (المراجع)

أجابوني: "عندما انكسر القصمان وبدءوا يلوذون بالفرار، لاحقهم عبيد، فى بقية النهار، وقتل الكثيرين من الهاربين (فى المؤخرة) وبلغ عدد من قتلهم تسعين رجلا؛" وهذه الشخصية المحترمة التى روت هذه الحكاية، جعلتها من مفاخر عبيد، من منطلق أنه قتل ذلك العدد الكبير من الرجال!

كان عبيد يبدو كريما، عندما يكون العرب أقلية، ومن بينهم خصم أو غريم: وكان الرجل يرتدى درعه الذى كانوا يطلقون عليه اسم الداودى، - لأن (سيدنا) داود، على حد قولهم، هو أول من اكتشف الدرع المدور، كما أن الله جعل الحديد يلين بين أصابع ذلك النبى - هذا يعنى أن الخطر المحدق بذلك الرجل (عبيد) لم يكن كبيرا فى ميدان القتال. وذات يوم من أيام الحرب الضروس ضد ابن مجلِّد العنزى، وبدو القصيم، وضد البدو الرحل الذين ورثوا وديان النخيل فى قرية الحيات (فى حرة خيبر)، وعندما أبصر شيخ القبيلة ذلك الأمير الذى يدمرهم فى ميدان القتال والمعارك، تحداه بصيحة عالية، وحاول الهجوم عليه؛ ولكن عبيدا (بالرغم من الإصابات التى لحقت به، عفى عن رجل سبق له أن أصابه) ترك البدوى يمر من تحت رمحه وهو يقول له: إنه لن يقتل رجلا [لا يضع فوق جسده ثوبا واحد من القطن] سارع عن طيب خاطر ساعيا إلى دمار نفسه وتحطيمها."

كان عبيد فى أواخر أيامه رجلا عجوزا له لحية تشبه الزعفران فى لونها، ويلتزم المنزل وأبا معتدلا لأسرة من أسر الجزيرة العربية؛ وقالوا: إن عبيدا مات قبل مجيئى إلى حائل بسبع سنوات، وبعد عامين من وفاة طلال. وقد شاهدت من أبناء عبيد: فهد، وهو أكبرهم، وقد نحوه جانبا لضعف فهمه؛ وفهد حاليا، رجل فى منتصف العمر، ومحياه طيب، وهو فارع الطول ممتلئ الجسم، ويصل طول قامته إلى طول قامة شقيقه حمود، الذى خلعه. يقولون: إن فهد كان يميل إلى الفضائل وأنه كان يتحلى بالتواضع فضلا عن موافقته على ما يريده الآخرون ؛ كل ما فى الأمر أن فهدا كان له حاجبان عابسان، وكانت تعلو وجهه مسحة محيرة من الحزن، وعينان مضطربتان توحيان بالتشتت وعدم التركيز، كل ذلك كان يوحى بشرود ذهن ذلك الرجل. كان فهد متأملا

طول اليوم للمسلمين ولأحوالهم، كما كان قليل الكلام؛ من هنا يصبح فهد، بصورة أو بأخرى، أسعد البشر فى حائل، - كان فهد هو الرجل الوحيد الذى لم يخش أو يخف من أى شىء. كان فهد يمضى ساعات النهار فى قهوة عبيد، فى الوقت الذى كان حمود يجلس فيه فى الصالة المخصصة لوالده فى منزل عبيد، فى حين كان سليمان يجلس إلى جانبه مباشرة فى مقعد من مقاعد الشرفة: أما فهد فلم يكن له مقعد من مقاعد الإمارة، ولكنه كان يجلس على السجادة العامة مع أطفال الأسر الأميرية الصغار، كما كان يجلس أيضا مع ضباط الأمير والشيوخ الزائرين الذين يفدون من القبائل والقرى. ويبدو أن فهداً تحول إلى تابع لحمود ورفيق ونديم للعب مع ماجد ولد حمود . قال لى ماجد بن أخيه: "أنا أحبه، إنه هادئ جداً!" ولكنه لم يكن يسميه "عمّى" ammy . وعندما كان يحين موعد العشاء، كان فهد يرحل، بحكم أنه رب عائلة. وكان فهد يعود من بيته ثانية إلى قهوة أبيه ليجلس فيها فترة المساء، ومن باب التواضع كان يقف برهة قصيرة فى المكان الذى كان يجرى فيه تصليح القهوة، إذا ما تصادف وجوده فيها، إلى أن ينتهى الأمير (حمود) من كلامه الخرافي.

كان فهد يبقى فى حائل أثناء قيام الأمراء بالغزو. وفى بعض المرات، كان يجد نفسه بحاجة إلى الخروج، ولذلك كان يركب جواده ويتجه صوب والده فى الميدان؛ وهنا كان عبيد يقول له: " كيف حالك الآن، يا ولدى! ماالذى جاء بك إلى هنا؟" - " والدى، سوف أنضم إلى الغزو، وآخذ نصيبا من الغنائم!" وهنا كان عبيد يقول له: " حسن، عد إلى منزلك فى حائل، وانتظر مجيئنا، خلال فترة وجيزة، بمشيئة الله! وهذا هو رأيى ، ولن تخسر شيئا." هذا هو الجشع السامى فى الغنائم والفرائس متأصل فى هذا القلب الضعيف: وفى مرة أخرى كان فهد المسكين يحضر معه ابنته الجميلة إلى عبيد ويقول له "آن الأوان لبيعها" (أى لتصبح جارية) ؛ وهنا، وتمشيا مع مزاج ولده المشتت كان عبيد يعطى ولده فهد فلوسا، وعملات فضية، ثمنا لحفيدته، وكان يطلب من فهد الاحتفاظ بها هى والفلوس. الابن الثالث، الذى يمكن قراءة شىء ما فى قسمات وجهه الشاحب غير السمح، كان شابا صغيرا متشددا جداً؛ كان يعيش منفرداً بالقرب من بوابة فهد ، ولم يحدث مطلقا أن جاء هذا الابن الثالث إلى صالة، أو مجلس والده ليكون بين إخوته.

كنت ألتقى ذلك الابن الثالث مرة أو مرتين كل شهر، أثناء مروره فى الشارع العام، وكان يحدقنى بنظرات تنطوى على كثير من المرارة؛ كان يمضى وقته مع الحريم، ويبدو أن أهل حائل لم يقيموا له وزنا. الأخ الرابع الصغير، كان اسمه فيض Feyd ، وهو صاحب قلب نظيف، ويكاد يكون شابا من عامة الناس وعمره سبعة عشر عاما. ومع ذلك، كان فيه شىء من التشوه الخلقى، فقد اكتشفت أن فى فكه صفين من الأسنان. وفى بعض الأحيان، كان فيض فى حالة تغيب الأمراء فى إجازة الربيع، أو أثناء اشتراكهم فى العمليات الحربية، هو الذى ينوب عن الأمير فى حضور المجلس اليومى ، – وفى مثل هذه الظروف – كان الأمراء يعفونه ويبقونه فى حائل. وعلى ما أذكر، كان سليمان هو الذى يلى فيض؛ وسليمان هذا ولد عديم القيمة، كما كان هناك ولد آخر اسمه عبد الله ، وكان فى عمر ماجد ولد أخو عبيد. كان عبد الله ثقيل الظل ويصلح لمرافقة صائد الفئران بدلا من حضور أى مجلس من مجالس الأمير. والولد الأخير من أبناء عبيد سقط يوم أن كان طفلا، من مكان مرتفع، الأمر الذى أفضى إلى كسر ذراع من ذراعيه، من المفصل، ونظرا لعدم وجود مجبِّر عظام فى ذلك الوقت فى هذه البلاد، ونظرا أيضا لأن الأمر" لم يكن يستدعى" إرساله إلى بلاد الرافدين، فقد" فوضوا أمره لله"، وهو الآن يتدلى ذراعه بجانبه ذاويا. كان ذلك الشاب يحضر مرارا إلى المخزن الذى كنت أقيم فيه، لكى يشحذ أو يطلب من الغريب بعض الأشياء التافهة: وعيناه المتورمتان كانتا تزيدان من قسماته المنفرة، كان يطلب منى دواءً ولكنى لن أدفع لك حسبما يقول لأنى ليس لدى نصف دولار." كان ذلك الشاب متشددا تماما، بل إنه كان على استعداد لتهديدى ووعيدى. وأمراء حائل (بحكم تربيتهم ونشأتهم بصحبة العبيد) يغلب عليهم أن تكون أرواحهم سيئة فى فترة شبابهم. ونظرا لأن عبد الله، لم يكن يرتاد قهوة أبيه، إلا نادرا، فقد كان حمود يناديه نداء بشوشا ويجلسه إلى جواره؛ كان حمود يضع ذراع أخيه حول عنق الطفل، حسبما يفعل أهل الجزيرة العربية (وذلك عندما يدللون أبناءهم الصغار وإخوانهم الصغار) ويسأله بلطف عن مرحه وسروره وكيف أمضى يومه؛ – كان ذلك، هو حال أبناء عبيد العجوز، كلهم عفون Affun ، أى بيوض غربان، وكل واحد منهم مولود بعيب خلقى، اللهم باستثناء حمود وحده. من هنا

يبدو أن السلالة كلها كانت معيبة، ولذلك كان غريبا، أن لا تظهر سبيكة من نفس معدن حمود النبيل؛ وبالرغم من جودة نوباته العقلية إلا أنها ليست جيدة بما فيه الكفاية، ولكن هذه الجودة العقلية تتوفر في الأمير محمد.

أسرة عبيد أسرة ثرية، حتى وإن اقتصر ذلك على الأطيان المملوكة لهم في حائل؛ وأفراد أسرة عبيد لهم نخيل أيضا في الجوف، - وإنفاق الرجل في الجزيرة العربية على أهل بيته وأسرته، اللهم باستثناء تعدد الزوجات الذي يبيحه الإسلام، يعد إنفاقا صغيرا إذا ما قيس بإنفاقنا. يضاف الى ذلك، أن ثراء هذه الأسرة يتمثل أيضا في نصف محصول ثمار قرية الحيات، التي كانت تذهب، منذ قديم الأزل، إلى العنوز الذين ورثوها؛ ولكن عندما قام عبيد بطرد أولئك العنوز من قرية الحيات، أعطى الأمير طلال، ثمار هذه القرية وإيجارها لعمه هو وورثته. وأسرة عبيد سعيدة أيضا من منطلق أن سحب الثأر والانتقام لا تتراكم فوقهم فيما يتعلق بسفك دماء الأقارب. وهاهم البدو الرحل، غير المتحضرين ينظرون إلى الأحداث المؤسفة التي وقعت في بيت عبد الله، ويتحدثون عنها وقد امتلأوا رعبا وخوفا: هذه المطامع التي ليست من الدين في شيء، غير موجودة في الممتلكات الصغيرة الخاصة بأبناء العموم؛ في الصحراء. وهذا هو فيض وعبد الله يعيشان صغارا في منزل شقيقهما حمود في حائل، وأنا كنت أذهب لذلك المنزل، كل يوم، لعلاج فيصل، وكنت عندما أطرق حلقة الباب، يفتحونه لي، وفي بعض الأحيان كانت تفتحه لي عبدة من عبيد القصر، وهذه العبدة كانت هي ممرضة الطفل، وأحيانا أخرى كان فيض نفسه هو الذي يفتح لي الباب. وقد رأيت فيض وهو يتشاجر مع واحد من النجارين، وكانا يتشاتمان بكلام عربي كما لو كانا ندين. وفي بعض الأحيان الأخرى، كان عبد الله هو الذي يفتح الباب بنفسه، وفي بعض المرات كانت ابنة حمود هي التي تقترب من الباب، وهي فتاة بهية الطلعة، ولها ملامح والدها الباسمة والتي توحي بالعبقرية والذكاء، ولم تكن ترتدي غير ذلك الرداء البسيط المصنوع من البفتة، والمصبوغ بالنيلة الزرقاء، وبلا أية زينة ولا يمكن تمييزها عن أية فتاه أخرى من أقاربها في القرى؛ وهذا كان هو حال تمار Tamar ابنة (سيدنا) دواد، والتي كانت تعجن الخبز وتخبزه. كان مسكنهم بسيطا للغاية، فقد كان عبارة عن حوش،

أو فناء مبنى من الطين، ومن خلفه مجموعة من الغرف والحجرات، ومنزل للحريم والعيال، لا يسمح لأحد من الغرباء بالدخول فيه. وقد رأيت خطا وصليبا معًا، مرسومين بالطباشير على جدار المدخل IX - وهذه العلامة هى الوسم الدال على ابن الرشيد. كان أبناء الشيوخ يختلطون مع أبناء الشعب فى المدينة؛ كل ما فى الأمر أنهم كانوا يتميزون عن أبناء الشعب بجودة الملابس التى كانوا يرتدونها. وبنات ابن الرشيد يشبهون طيور الأقفاص لأنهن يربين فى بيوتهن؛ والآنسات الصغار لا يراهن أحد فى الشوارع العامة خارج المنزل. وأبناء الشيوخ يشاركون فى الغزو عندما يبلغ الواحد منهم خمس عشرة سنة؛ هذا يعنى أنهم يكون قد مضى عليهم قرابة العامين من الانتهاء من الدراسة والمدرسين الذين لا يعرف الكثيرون منهم سوى الحروف الأبجدية.

ونحن عندما نتطرق إلى حكومة ابن الرشيد، التى تكاد تكون محصورة فى نطاق الأمن العام داخل دائرة كبيرة من البلدان التى يعيش فيها البدو الرحل: - نجد أن ابن الرشيد أخمد كل الصراعات الطائفية والحزبية فى المستوطنات، بل إنه أخمد وقمع أيضا الاضطرابات التى كانت تحدث فى الصحراء، مستخدما فى ذلك سيف الدين الوهابى (*)، وبذلك أصبحت أرض إسماعيل بلدًا beled أمنا aman . وفى الجيل الثانى، أى فى عهد عبد الله بن الرشيد، وهى أسرة من أسر حائل الرئيسية، نجد أن عبد الله تحول إلى منفذ رئيسى لتعليمات الأمير الوهابى فى الرياض، والسبب فى ذلك أن ابن سعود هو الذى أعاد عبد الله إلى بلده حائل فى جبل شمَّر: - ليكون ممثلا لابن سعود فى حملاته العسكرية النجدية، أو بالأحرى " ليكون حاكما على قبيلة العنزى،" وبخاصة على القبائل الجنوبية من هذه الأمة البدوية، التى تمتلك أراضى فى وديان النخيل فى حرة خيبر. وسرعان مانصَّب عبد الله نفسه حاكما على حائل بحد السيف، وعم صيته الأرجاء المحيطة به، وبذلك أصبح محافظا لإمارة جديدة ، تفرض ضريبة مثل ضريبة العشور على كل من القرى والقبائل؛ ولكنها كانت على شكل زكاة يجرى

(*) ليس هناك دينًا وهابيًا ، والصحيح أن يقال التعاليم الدينية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

تحصيلها وتوريدها إلى خزانة حكومته، ولم يكن يدفع للرياض أى خراج غير هدية من الخيول التى كان يقتادها معه كل عام عندما يذهب لزيارة ابن سعود. هذه الفُردة لم يعد لها وجود الآن بعد تحلل الدولة (الإمارة) الوهابية؛ ويعد ابن الرشيد، فى الوقت الراهن، أعظم أمراء نجد. وحكومته تقوم على حكم الطوائف العربية حكما شرعيا يقوم على استعمال السيف؛ ولا أحد من هؤلاء العرب يود أن يكون تابعا لابن الرشيد نظرا لخوفهم منه. والسكان البدو، هم وسكان الواحات لا يخضعون (على حد قولهم) لأحد غير شيوخهم الطبيعيين. وقد قال لى أهل الحضر مرارا عن ابن الرشيد، حتى فى حائل نفسها "حنا Henna مملوكين mamluin "بمعنى" نحن نقيم هنا مثل العبيد تحت حكمه". وهذا هو مريض من البدو الشماليين، راح يشير إلى الوراء، عندما كان جالسا داخل المخزن الذى أقيم فيه، أشار بيده إلى الخلف مخافة أن يكشف أمره من خلال باب المخزن أو جدرانه، وراح يغمغم ويتمتم ليقول لى : "ساكن ذلك القصر ظالم ،إنه طاغية قاس." وفى حائل، ونظرا لعدم وجود معتقلات، أو أماكن للتوقيف، أو سجون فإن العقاب يكون مفاجئا، بناء على كلام الحاكم؛ ويجرى إطلاق سراح المذنب بعد توقيع الجزاء عليه.

أمراء حائل هم الذين يقومون بدور الشرطة فى الصحراء. – وقد أبلغنى الناس ذلك عن حكم الأمير متعب إذ قالوا: إن واحداً من الباعة الجائلين القلائل الذين يفدون على القبائل من البلاد السورية، كان يتردد على حائل بين الحين والآخر، جرى تجريده من ثيابه وأصيب بجروح عندما كان يتجول فى ديرة بدو الشرارات. هذا البائع الجائل الغريب جاء إلى حائل واشتكى للأمير من ذلك العدوان السافر. وهنا أوفد الأمير متعب رسلا لاستدعاء شيوخ الشرارات، كى يحضروا المذنبين ويسلموهم على الفور، ونفذ الشيوخ أمر بن الرشيد على الفور، إذ لم يجرؤ أحد منهم على عصيان ذلك الأمر، وعاد الرسل ومعهم أولئك المذنبين. كان أولئك المذنبون عبارة عن رجل بدوى واحد. وأمر الأمير متعب أن يقف ذلك البدوى فى المجلس، وسأل الغريب إن كان ذلك هو المجرم أم لا؟ وعندما أجاب الغريب قائلا : "إنه هو" قال الأمير." كلب شرارى! كيف تجرأت على ارتكاب هذه الفعلة؟" وهنا طلب الأمير. متعب من الغريب أن يتناول رمح الشرارى

الذى جاءوا به معه، وأن يفعل بالمجـرم ذلك الذى فعله به. "ماهذا الذى يجب أن أفعله، يا سيادة المحافظ!" - "أغرس هذا الرمح فيه، واقتله أيضا إن كان ذلك يرضيك!" ولكن نار البائع، كانت قد بردت فى ذلك الوقت، ولم يقو على ضـرب الرجل، ولكنه راح يسترحم الأمير ويتوسل إليه، وبخاصة أن أشياءه ردت إليه، أن يترك المجرم يذهب لحال سبيله. وقد تعرفت على بعض التجار الدمشقيين الذين كانوا يترددون على البدو، والذين سبق لهم زيارة حائل، وكان من بين أولئك التجار، بائع جائل مسيحى، الذى كان يقوم برحلة تجارية كل عام إلى كل من وادى السرحان والجوف. هذا التاجر، عندما علم بندرة العباءات (البشوت) فى حائل، قام بعبور النفود ومعه حمل جمل من تلك البشوت التى وصل بها إلى حائل. وتحدث إليه الأمير طلال، حديثا لينا هينا، ووافق على أن يبقى فى حائل فترة من الوقت إلى أن ينتهى من بيع بضاعته؛ ولكنه منعه "من حلق لحيته"، - ذلك القناع الذى يرتديه المسيحيون الدمشقيون عندما يكونون بين المسلمين فى الحضر.

القبائل غير الموافقة (كماسبق أن رأينا) على فيدرالية ابن الرشيد ليست على استعداد أن تهاجم بعضها بعضا: ومع ذلك هناك بعض البدو الرحل (الذين يخشون من إضعاف حائل لهم، أو بسبب بعدهم عن حائل، أو بالأحرى عن ابن الرشيد بالذات، والتى لا تلتزم التزامًا قويا بالمحافظة على حسن الجوار) الذين يذهبون إلى ابن الرشيد ويشتكون له من الهجمات والتحرشات التى يشنها رعايا ابن الرشيد عليهم، فيجدونه يرد عليهم على النحو التالى: " هذا أمر يخصكم أنتم وهم وأنا لن أكون طرفا فى الخلافات التى تنشب بين البدو." والمعروف أن كبار شيوخ العرب هم سياسيون ماكرون جدًا: ومبلغ علمى أن من الصعب اكتشاف أى عيب فى حكومة ابن الرشيد، - ومع ذلك فإن أصدقائى القصمان أبلغونى بعد ذلك (بحكم أنهم أعداؤه من قبيلة عنزة) أنهم لا يحبون ابن الرشيد ولا يثنون عليه أو يطرونه.

- وأنا هنا سوف أتطرق إلى الجماعة المسلحة التى يطلقون عليها اسم «رجاجيل» الشيوخ. (وكما سبق أن قلت) فإن القسم الأكبر من الخدمات المطلوبة لابن الرشيد

يؤديها الأجانب (المغامرون والهاربون) الذين يجيئون من شرقى نجد: وبذلك يكونون من الخدم المخلصين للأمير، لأنهم مرتبطون بقيامه وبسقوطه أيضا. وإلى جانب هؤلاء «الرجاجيل»، هناك حوالى مائتى رجل آخرين فى المدينة يتقاضون منه رواتب شهرية. وقائد الحرس، وهو يشغل منصب كبير الياوران فى القصر، وهو أيضا حامل بيرق الأمير فى المعارك وفى القتال، هذا الرجل بهى الطلعة اسمه إمبارك Imbarak ولكنه رجل قوى متشدد. هذا الرجل كان غريبا من العروض، وقد رقى من مرتبة متدنية إلى ما هو عليه حاليا، بواسطة الأمراء الذين تولوا الحكم إثر بعضهم البعض،، وذلك جزاء له على كفايته الرجولية، إلى أن أصبح الآن، فى أبهى وأحلى سنواته، الذراع التنفيذية لابن الرشيد.

كان بعض المغاربة، الذين كانوا يعيشون فى حائل، يوم أن كنت أنا فيها، وكانوا يحصلون على أجورهم من ابن الرشيد. هؤلاء المغاربة شاركوا فى الاستيلاء على الجوف، فى الحملة التى جاءت من سوريا. وبعد رحيل الباشا التركى، أوكل إلى هؤلاء المغاربة حراسة واحد من البرجين، والذى كانوا يطلقون عليه اسم المارد ؛ فى حين تولت حراسة البرج الثانى جماعة قليلة من الجنود السوريين. - كل هؤلاء بقوا على شكل حامية بقيادة قائمقام، أو ممثلا مقيما للإمبراطورية العثمانية. ولكن بمرور الوقت، وعندما توقفت عنهم رواتبهم، قال هؤلاء الغربيون أصحاب الرءوس اليابسة وهم يحتقرون الإمبراطورية العثمانية "إنهم سوف يدعون ابن الرشيد لدخول هذين البرجين. "بل انهم ذهبوا أيضا لاغتيال الجنود السوريين، الذين ظلوا "موالين للسلطان" فى مواجهة أولئك المغاربة، بالرغم من أنهم كانوا يعانون من نفس الحال التى كان المغاربة يعانون منها. والمعروف أن المغاربة كانوا هم أصحاب اليد العليا، وعندما وصل ذلك الخبر، على وجه السرعة، إلى حائل، عاد الأمير ومعه رجاله المسلحين، وأعادوا احتلال المكان الذى سبق أن خسره على غير رغبة منه. وجرى نقل المغاربة" - وعددهم خمسة عشر شخصا - إلى حائل؛ لينضموا إلى قوات الأمير المسلحة - وجرى تعيين واحد منهم، لم يكن قد تعلم أو اعتاد ركوب الخيل، حارسا لبوابة القلعة، على أن لا يسمح لمرور أى أحد من تلك البوابة إلا بموافقة من ذلك المغربى. وفى بعض الأحيان، عندما كان

الشيوخ يتغيبون عن المدينة، كان المغاربة المسلحون هم الذين يبقون فيها، على أن يسكنوا في القصر أثناء الليل، مخافة الهجوم عليهم من قبل البدو الأجلاف، الذين رويت لهم معجزات عن خزانة ابن الرشيد: والسبب في ذلك أن السلام لا يستقر بين المسلحين كما أن تأمين الحياة في عاصمة ابن الرشيد لم يكن متوفرا.

أمكن استعادة الجوف بهذه الطريقة، بعد ارتداد المغاربة منها قبل أربع سنوات من وصولي إلى حائل. هؤلاء المغاربة تزوجوا واستقروا في المدينة؛ ولم يرحل عنها سوى اثنين فقط من هؤلاء المغاربة. كان هناك رجل آخر اسمه الحاج ابراهيم، وهو جزائري، عمل أيام شبابه جنديا (ولايزال يذكر كلمات القيادة) مع القوات الفرنسية، وكان مسروراً إلى حد ما بالراتب الصغير وبالغذاء الهزيل الذي كان يحصل عليه من المضُيف . قال لي هذا الجزائري: إنه سوف يغادر حائل، عندما يشتد عود طفله الصغير، الذي ولد في حائل، ويصبح قادرا على تحمل مشاق الرحلة. كان الحاج إبراهيم الجزائري هو والمغاربة يحتقرون أهل الجزيرة العربية باعتبارهم 'مخلوقات بشرية جاهلة غير متحضرة.'

وحكاية الجوف يمكن أن تكون عونا لنا في تقدير القيمة الميدانية للأعداد العربية التي كانت تواجه القوات التي كانت تحت إمرة الأتراك، والتي كانت مسلحة بالبنادق. في غضون العام ١٨٧٢ الميلادي جردت الحكومة السورية حملة (كان السلطان التركي في ذلك الوقت يرغب في تمديد وتوسيع ممتلكاته في الجزيرة العربية) لإخضاع مدينة الجوف الصحراوية، التي تبعد مسافة خمسين فرسخا عن طريق الحج من الناحية الشرقية، لطاعة السلطان. وجرى تجميع تلك القوة الصغيرة في معسكر معان . وقد أبلغني محمود ، الذي شارك مع هذه القوة ، أن عدد الجنود غير النظاميين كان يقدر بحوالي سبعين رجلا، أما البقية فكانت من الأطقم غير النظامية التي تمتهن الجندية عملا لها؛ وكان المغاربة الموجودون هنا، من بين أفراد هذه القوة، وكان قد جرى استئجارهم من دمشق للمشاركة في هذه الحملة. وقد قدر لي، محمد علي، الذي ذهب أيضا بصحبة الباشا، عدد أفراد هذه القوة بأكثر مما كانت عليه في الواقع، - فقد قدر الأفراد المقاتلين

بحوالى مائتى رجل، وقدر عدد الشرطة العسكرية (الضبطية Zabtiyah) بحوالى مائة رجل، إضافة إلى خمسين رجلا من أفراد العجيل الذين يعملون فى خدمة الحج. كما أبلغنى أيضا أن محمد سعيد، ذلك الباشا الكردى هو الذى تولى قيادة تلك الحملة.

استغرقت الرحلة إلى الجوف عشر مسيرات صحراوية بصحبة الإبل المحملة. وتركز الاهتمام على جلب أكبر عدد ممكن من قراب الماء، نظرا لقلة الماء على طول الطريق. "قال محمود: ولكن بفضل الله ورحمته، سقط المطر غزيرا، مع بداية قيامنا بالحملة، الأمر الذى مكننا من الشرب من مياه برك المطر الراكدة طوال مسيرنا اليومى." وفى مساء الليلة التاسعة أوقف الباشا جنوده على بعد ثلاثه أو أربعة فراسخ من الجوف، وطلب من الجنود شب أكبر قدر ممكن من نيران الحراسة فى السهل : - واستطاع أهل المدينة الذين كانوا يستطلعون العدو من أبراجهم، رؤية كل تلك الأضواء فى السماء، الأمر الذى بدت معه الصحراء وكأنها تحترق. وأثناء نوبة الحراسة الأولى مر بعض من بدو الشرارات على هؤلاء الجنود - والشرارات هم من البدو الرحل الذين ليسوا على وفاق مع الإمبراطورية العثمانية، كما أنهم يرون أنهم مظلومون بفعل (استبداد) ابن الرشيد؛ وراح هؤلاء الشرارات يحكون عجائب ومعجزات فى تلك الليلة، فى مدينة الجوف، عن ذلك الجيش الكبير من عسكر السلطان! " قالوا: لقد مررنا على المنطقة التى كانوا يعسكرون فيها؛ وعددهم لا يمكن أن يقل عن أربعين ألف رجل. لقد رأيناهم، ونحن نقسم بالله، أنهم كانوا يتحلقون بمعدل عشرين أو أربعين فرداً حول كل جورة من جور النار؛ فى بعض هذه الجور كانوا يعزفون على الطمبور، وحول بعض الجور الأخرى كانوا يرقصون؛ كما أن سراياهم لا تعد؛ وبوسع المرء أن يسير حوالى أربع ساعات بين مواقد النار! - وخرج الشيوخ من المدينة فى الليلة نفسها وسلموا مفاتيحها، وأخضعوا أنفسهم للباشا الذى احتل المكان احتلالا سلميا عندما طلع النهار.

عندما وصلت ابن الرشيد أخبار استيلاء الدولة (الإمبراطورية العثمانية) على مدينته الحلوة فى الشمال، بادر بإرسال الرسالة التالية إلى الباشا العثمانى:

" كما دخلت الجوف بدون قتال، أرحل عنها الآن بالطريقة نفسها؛ وإذا لم تفعل ذلك، فسوف أجيء أنا لإخراجك منها."

وصل ابن الرشيد إلى النفود وعبرها، ومعه «رجاجيله» وقروييه راكبين إبلهم؛ وتبعته سحابة كبيرة من البدو التابعين له (أخبرني محمد على أن العدد وصل إلى حوالى عشرة آلاف، ولكننا نقول إن ذلك العدد يقدر بحوالى ألف رجل على أكثر تقدير). كانت هناك أيضا بعض المدافع القديمة فى الأبراج: ولكن الباشا فى مواجهة ذلك كانت لديه قطعة مدفعية إنجليزية من مدفعية الجبال، وكانت تلك القطعة محملة على ظهر واحد من البغال أثناء هذه الحملة. وقد أصابت الدانة الأولى واحدا من البدو الراكبين فى منتصفه، وكان ذلك من مسافة بعيدة تماما؛ ولم يتبق من جسم ذلك المصاب شيئًا سوى قدميه اللتان بقيتا معلقتين فى الشدَّاد. وبث ذلك المنظر الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء العرب، - وها هو الموت الأسود (الطاعون) ينتشر بينهم، فى الوقت الذى ظنوا أنهم فى مأمن منه! يضاف إلى ذلك أن دانات الإمبراطورية العثمانية راحت تنهال عليهم من كل حدب وصوب؛ وبالرغم من كل ذلك واصل أولئك الأعراب هجومهم. وقد وقف محمود مع القوة المكونة من سبعين رجلا، خارج أسوار المدينة وبواباتها ومعهم أسلحتهم الصغيرة لمقاومة القوات العثمانية، فى حين راحت بقيه القوة تواصل هجومها على تلك القوات من الأبراج مستخدمة فى ذلك بنادقها. وعندما أدرك ابن الرشيد أن «رجاجيله» هم والبدو المصاحبين لهم لن يسعفوه، وأن أعداءه أصبحوا داخل أسوار المدينة، وعندما أدرك أيضا أن هذه البداية الموجهة ضده حسمت لصالح الدولة (الإمبراطورية العثمانية) بادر ابن الرشيد إلى دعوة الباشا إلى التفاوض لعقد هدنة؛ ووثق ابن الرشيد بدعوته عندما اكتشف أن الباشا كان من الأتراك العقلانيين، وأنه كان على استعداد للموافقة على قبول الأتعاب، أو إن شئت فقل: لقبول الثمن. التقى ابن الرشيد الباشا، وعلى حد قول العرب "فهما بعضهما بعضا". قال محمد بن الرشيد: أعطيك الجوف عندئذ ". - وقال محمد سعيد: "نحن فى الجوف بالفعل؛ وبمشيئة الله سوف نستولى على حائل." وفى النهاية؛ اتفق الاثنان على أن تظل الجوف تابعة للأمير، ولكن من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية؛ تعهد ابن الرشيد أن يدفع كل عام، لدمشق مبلغ ١٥٠٠ كراون مجيدى:

كما اتفقا أيضا على إقامة قائمقام ومعه حامية سورية، فى مدينة الجوف. وراح كل طرف من هذين الطرفين ينظر إلى الآخر نظرة إعجاب وتقدير؛ وترتب على ذلك أن بقى كل من ابن الرشيد ومحمد سعيد صديقان طوال حياتهما.

عثرت على بعض من البدو بين رجاجيل بن الرشيد. فقد أقنعهما الفقر والفاقة بالتخلى عن حياة التجوال فى الصحراء. صحيح أن الأتعاب التى كان الأمير يعطيهم إياها، كانت صغيرة ومتواضعة، ولكنها لم تكن تتأخر مطلقا، هذا بالإضافة إلى الحصول على بيت من اللبن فى حائل، وتعيينات غذائية أيضا. والذى لا شك فيه أن أولئك الأعراب الذين كانوا فى حائل كانوا من قبل يعملون فى خدمة الأمير الوهابى! - وأنا أعرف مجموعة من رجال الرياض، الذين كانوا ضيوفا مقيمين عند ابن الرشيد. هؤلاء الضيوف كانوا يشاركون فى كل عمليات الغزو التى كان ابن الرشيد يقوم بها، يضاف إلى ذلك أن الأمير الذى كان يعيرهم الإبل التى كانوا يركبونها، كان ينعم عليهم أيضا، بين الحين والآخر، بغيار من الملابس بالإضافة إلى أربعة أو خمسة ريالات؛ وبالإضافة إلى ذلك الذى كانوا يحصلون عليه من الغزو، كان ذلك الذى يحصل عليه الواحد منهم كل عام يقدر بحوالى عشرين ريالا؛ هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يتناولون طعامهم فى المضيف كل يوم. استمرت حياة هؤلاء الضيوف ستة أعوام على هذه الوتيرة، ولم يكونوا متزوجين، بل كان من بينهم شخص ضرير، الذى كان يلزم المنزل عندما يذهب رفاقه للمشاركه فى الغزو. - كان المنزل الذى يقيم فيه هؤلاء الضيوف واحداً من المساكن الخالية الكثيرة التابعة للأمير، - كان لذلك المنزل فناء مسوّر للحيوانات الخاصة بهؤلاء الضيوف، كما كان فيه أيضا غرفتان من اللبن، ويقع هذا المنزل خلف السوق فى الشارع العلوى المؤدى إلى قفار Gofar . كنت أذهب، فى كثير من الأحيان، لزيارة هؤلاء الضيوف فى ذلك المنزل، نظرا لأنه كان من بينهم شخص على دراية كبيرة بكثير من القبائل البدوية المترحلة وبالمعلقات أيضا، التى كان يقرؤها على لفائف من الرَّق (الجلد). وقالوا لى مرارا إننى إذا ما ذهبت إلى الرياض فسوف ألقى معاملة طيبة. سألتهم، "ابن سعود (رد على ذلك المتكلم، بإشارة توافقت مع حركة يده نحو الأرض) يغوص يوما بعد يوم ولكن الرشيد ها - ها - ها - ها - ها يرتفع

كل يوم! ويكبر دوما." وكان يتردد فى ذلك الوقت فى حائل أن "ابن Ibn سعود Saud خُربان Khurban" بمعنى (إنه مدمر ومحطم).

كان عبد الله، الأمير الوهابى، ولد فيصل الضرير المسن، قد جاء قبل عامين إلى هذه المنطقة، هاربا، ومطرودا من حكومته بسبب تمرد شقيقه الأصغر سعود. بقى عبد الله فى هذه المنطقة جائلا فترة من الزمن، بلا أى عون أو سند من أى نوع كان، وكان ينصب خيمته بين بدو العرب وتحت رعاية بن الرشيد. وأرسل الأمير محمد إلى عبد الله الوهابى مقدما له الأغنام، والإبل، والخيول وكل الأشياء الضرورية، اللهم باستثناء منعه من دخول حائل: ولكن عقب وفاة سعود، عاد عبد الله بسلام، إلى ذلك القليل الذى تبقى له من ممتلكاته السابقة. وفى هذه الأثناء تزوج عبد الله من واحدة من شقيقات محمد بن الرشيد! – ولكن بعد وفاة هذه الزوجة تزوج عبد الله واحدة من شقيقات حمود بن الرشيد: ولكن، اعتبارا من العام الماضى يقال أنه نشب بينهما نوع من العداء؛ ويرجع ذلك العداء إلى مداهمة محمد بن الرشيد القاسية لقبيلة عتيبة الحليف القديم لعبد الله الوهابى (والتى لم تكن خاضعة له فى ذلك الوقت) ، – وعندما كنت فى حائل وصل إليها رسول (مراسل) قادما من الرياض. وبينما كنت أتناول القهوة معه فى يوم من الأيام، وعندما رآنى استخدم القلم الرصاص، راح يسأل الحاضرين، "خبرنى، يامن تعرفه، هل النصرانى ساحر!" وفيما عدا ذلك لم يكشف عن أية كراهية نحوى، ولكنه كان ينظر إلىَّ نظرة العربى إلى الضيف وإلى الغريب. وقال له أحد الحاضرين "إخ الآن! إذا ما ذهب هذا (الرجل) إلى الرياض، هل سيقتلونه هناك؟" وهنا رد الرسول (المراسل) قائلا: "لا، أظن ذلك أنهم سيعاملونه بلطف، ويتركونه يواصل رحلته ؛ ألم يقم نصارى آخرين بزيارة الرياض!"

حائل، فى الوقت الحالى، هى مركز الجزيرة العربية البدوى الرعوى، على هذا الجانب من جبل الطويق، وفى نطاق طريق الحج. ويصل إلى الأمير ابن الرشيد، فى معظم الأحيان، مبعوثين من القبائل، غير التابعة أو الخاضعة له، ولكنها تجد نفسها مضطرة إلى التعامل معه بشكل من الأشكال. ومن أبرز أولئك الذين يتعاملون مع ابن

الرشيد، بدو القحطان، الذين ينحدرون من الدم اليمنى القديم والذين يطلقون عليهم إسم عرب الجنوب، - كما يطلقون على نسل إسماعيل اسم عرب الشمال. عرب الجنوب هؤلاء كانوا يتعجبون من أولئك الذين كانوا ينعتونهم ببدو القحطان، أو إن شئت فقل: بنى قحطان." (وهم يقولون) إن هذا فى لغة العنوز،" (نسبة إلى قبيلة عنزة). وقد قالوا لى إن جد أمهم هو النبى هود،' وأن بدايتهم كانت من جبال الطور el-Tor فى منطقة عسير. قالوا: إن إسماعين Ismayin (إسماعيل) كان شقيق جدهم هود. هؤلاء القحطان لم يسمعوا عن وجود قبر هود (عليه السلام) فى الجزء الجنوبى من البلاد، وليس لديهم علم بأى موروث عن انهيار سد مأرب (كان الأمر يبدو لهم مثل حكايات الزوجات) [وانهيار سد مأرب هذا هو الذى أسفر عن تفرق العرب القدامى فى عالم الجزيرة العربية] . وقد تغنى لى أحدهم ببعض الأبيات من طقطوقة (أغنية صغيرة) يحفظها كل القحطانيين يقول مطلعها: "رمح النبىَ هود، وصل إلى القبة الزرقاء." سألنى بعضهم، "بالله ! هل يعبد النصارى الأصنام asnam ،" - مبلغ علمى أن هذه الكلمة (أصنام) ليست فى موروث عرب الشمال. كان القحطان فى حائل عبارة عن مجموعتين: فقد جاءوا مع شيخهم الكبير حيزان من القصيم؛ التى أغار عليها قسم من القحطانيين خلال هذين العامين، وجاءت تلك الإغارة على بعض الأجزاء المهجورة من ديرة العنوز التى كان يعيش فيها ابن Ibn مجلّد Mujallad، الذى طرده عبيد من حائل. كانت خيام القحطان تقدر بحوالى مائتى خيمة، وكانوا قد طردوا من ديرتهم فى اليمن، - حيث تبقى هناك البقية الباقية من أولئك القحطان.

هؤلاء القبليون الجنوبيون الذين يتجولون فى أراضى وداخل حدود بن الرشيد، أرسلوا لابن الرشيد، للمرة الثانية، يطلبون التعامل مع أمير الشمر، ويعرضون عليه أن يكونوا أعرابا له، على أن يقوموا بدفع العشور لحائل؛ ولكن ابن الرشيد، الذى لم يكن يرغب أو يود لتلك القبيلة الخائنة، الإقامة فى نجد طردهم ولم يوافق على طلبهم وقال لهم: - 'قد يرعون ماشيتهم فى المنطقة المجاورة له على سبيل الضيافة، بشرط ألا يجروا المتاعب أو يخلقونها لأنفسهم، على أن ينظر هو إليهم كحلفاء، ولن يفرض عليهم ضرائب، أو يحرض القبائل عليهم.' وهنا رد مندوبو القحطان على الأمير:

" والله ! يا سيادة المحافظ، ألسنا إخوانك؟ أليس ابن الرشيد جعفرى، من فخذ العبدة Abda الشمر Shammar الذين ينحدرون من عبيدة Abida القحطانية؟" ولكن الأمير محمد رد عليهم ردًا جافاً،"نحن لسنا منكم، ونحن لن نساعدكم ولن نصيبكم بأذى." ولما كان أولئك القحطان مكروهين فى الرياض، - نظرًا لتحطم السلطة الوهابية القديمة بفضل خيانتهم، - فقد بدأ أعراب نجد يضغطون عليهم، كما بدأت قبيلة عتيبة تضغط عليهم أيضا من ناحية الجنوب، وأصبح أولئك القحطان المعتدون مطوقين بواسطة أعداء أقوياء.

وأنا أرى أن هؤلاء المبعوثين كانوا يتكلمون العربية البدوية، التى تختلف اختلافا طفيفا عن لهجة بدو نجد، اللهم باستثناء أنهم يتكلمون بطلاقة أكثر من طلاقة أهل نجد. وعندما كان أولئك القحطانيون يقيمون فى الجنوب، كانوا يحصلون على التمر من وادى الدواسر؛ وقد قال لى أحدهم: إن النخيل فى تلك المنطقة - يمتد بلا انقطاع على امتداد مسافة ثلاث رحلات سيرا بالإبل: وقال لى: إن المنطقة عبارة عن منخفض رملى وأن الماء فيه من الآبار. وقال لى أيضا: إن من يعيشون فى وادى الدواسر، ليسوا أناسا سيئين" ولكنهم يكرمون الضيف." وإن تحزبهم هو الذى يتعب البلاد، وإن القرى المتجاورة دائما ماتنشب بينها الصراعات والخلاف. فالأفلاج EL-Aflaj (جمع فلج Falaj - أو بلج Peleq ، كما يقول بعض المتعلمين - والتى معناها" انقسام الجبال") تقع فى جبل Jebel طويق Tuey (k)ch ، كما أن أهل القرى من الدواسر. وقدر المسافة من الرياض إلى الأفلاج بمسير ثلاث رحلات، ومن الرياض إلى وادى بيشة بمسير حوالى اثنتى عشرة رحلة بالإبل، وذكر لى الأسماء التالية على سبيل المثال، الفراع، السُلَيِّل، ليلى، البديعة، سيلّة، الهدا، حمَّر، السيْح: وسألنى البعض منهم إن كنت قد سمعت عن قصر ابن شدَّاد Ibn Shaddad . والثيران البرية، فى بلادهم، وهم يطلقون عليها اسم الوضيحى. والمؤكد أن أولئك القحطانيين لا يختلفون عن البدو الآخرين الذين سبق أن تعرفت عليهم؛ كان أولئك القحطانيون سمرا، ولم يكونوا داكنى البشرة، مثل الكثير من أعراب الشمال.

كان القحطانيون الذين تكلموا معى فى المسحاب غاية فى السرور عندما أكدت لهم عراقة جنسهم، على مسمع ومرأى من أهل نجد، الذين لم يكونوا قد سمعوا، من قبل أى شيء عن هذا الموضوع. وقد عزمنى أولئك القحطانيون لزيارتهم فى مخزنهم (مكان نومهم) حيث كانوا يشربون القهوة مع الشيخ. هؤلاء القحطان لم يكونوا يحضرون إلى المقهى العام داخل القصر، سواء أكان ذلك بسبب دخان التبغ، أم بسبب عدائهم مع غالبية أفراد القبائل الأخرى: كانوا يشربون قهوة الصباح وقهوة العصر، وكذلك قهوة المساء على انفراد وبعيدا عن الآخرين؛ ولكن كانت حبوب البن تصلهم من مطبخ الأمير. وبعد العشاء كنت أبحث عنهم خارج القهوة: وكان شيخهم الشاب حيزان يبادر بأن يطلب منى الجلوس إلى جواره على جلد السرج، وكان يقدم لى عن طيب خاطر، أول فنجان من فناجيل القهوة. كان ذلك الشيخ شابا جميلا، وجهه يوحى بالرجولة هو وقامته، لم يكن فيه أى شيء يحتاج إلى تغيير، كان مثل الزهرة بين كل أولئك الأعراب الذين رأتهم عيناى: عيناه لم تخبرا العوز فى الخلاء. كانت تبدو على محياه، بحكم صغر السن، القوة ومتانة العود: لم تكن اللحية البيضاء التى تشبه الحليب، قد بدأت تظهر على وجه ذلك الشاب. كان لذلك الشاب أطول خصلتين مجدولتين من الشعر على جانبى رأسه، وكان الجميع يرون هاتين الخصلتين؛ كان رجلا كبيرا بمعنى الكلمة، وله ساقان قويتان: - ولكن كل ذلك أشياء زائلة.

كان يدور بينهم نقاش دينى؛ وحدد شيخهم الشاب المتشدد واجب المسلم فى ثلاثة أمور، - " الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان، ثم الزكاة." - كم أن الساميين داوديين! إنهم شديدوا التدين وشديدو التمسك فى آن واحد! كلامهم باستمرار (وبدون نفاق) عن الدين، وهم يحفظون ما يقولون عن ظهر قلب، وكلامهم بالنسبة لنا حزين، وغير مريح ومفاجئ بل وغريب علينا. وبعد ذلك تحول حديثهم عن الدين لينصب علىّ وعلى نصرانيتى. وهنا قال حيزان لواحد من جماعته: "ناولنى قدّاميتى،" والقدامية هى عبارة عن سكين معقوف يعلقه الرجل فى حزامه. وهنا تناول ذلك الرجل القّدامية وأخرجها من جرابها، وحول نفسه فى اتجاهى وقال لى: صلىّ على النبى، وأجبته، "نحن كلنا نعبد الله. أنا لا يمكن أن أتنازل عن اسمى أو عن كونى نصرانيًا،

وأنت لا يمكن أن تتنازل عن كونك مسلما إذا ماكنت رجلا بمعنى الكلمة." – ولكن بينما كان يضع السكين فى اتجاه صدرى، قلت له: "ماهذا الخنجر؟ وأبلغ هؤلاء الحاضرين، إن كنت تريد أن تفعل بى شرًا ؟" ثم ألقى الشيخ السكين، كما لو كان خجل من رؤية الآخرين له وهو يهددنى، وأنا الضيف الذى جاء لتناول القهوة معه؛ وبعد أن عاد إلى حاله السابق، راح يجيب على كل أسئلتى؛ "قال: تعال، فى الصباح، وسوف نقدم لك القهوة؛ ثم اسألنى عن كل ما تريد، وسوف أقول لك كل شىء بحق وحقيقة ." وعندما قلت له: "لديكم الكثير من اليهود فى بلدكم اليمن،" بدا القلق والاضطراب على ذلك الشيخ الصغير. "وهذا السكين، أليس من هناك؟" – من نجران. "وفى نجران، أليس الصُنَّاع هناك من اليهود؟ ألم يصنع هذه السكين لك حداد يهودى؟" وراح ذلك البدوى الشاب الجاهل، الذى ظن أنى أعرف الحقيقة، يعض أسنانه ويقول: الله ullah يُسلِّط عليهم aleyhim Yusullat بمعنى "الله يسلط عليهم (من ينزل بهم الشر)." – وعندما عدت إليهم فى الصباح، وجدت حيزان وحده؛ كان الشيخ الشاب ينتظرنى بأدب جم لأنهم يقدرون الحفاظ على الوعد. وقال لى الشيخ: "هيا بنا نذهب إلى الرُّبَّة (الجماعة) فى المخزن المجاور، فقد عزمونا للذهاب إلى هناك، وسوف نشرب القهوة هناك."

عندما زرت أولئك القحطانيين ذات مساء ، كى أستمع إلى أناشيدهم وأغانيهم، لم يرد علىَّ الشيخ حيزان السلام. وعقب تناولى فنجان القهوة بادر الشيخ الشاب، مثلما حدث من قبل، يطلب قداميته من أحد الواقفين؛ وتناول السلاح، وبنظراته القاسية توجه نحوى مرة ثانية، وراح يقول: "صلى على النبى" - أجبته، "أوه! أيها البدوى الجاهل، كيف لى أن أكون عارفا بدينك أكثر منك!" – "أنت أعرف بدينى أكثر منى!" – صلٍّ على النبى." – (وهنا قال بعض الحاضرين من القحطانيين:"لا، يا حيزان! إنه ضيف.") – "إذا كنت ترتقى إلى عمر هذه اللحية، فسوف تعرف أيها الشاب الصغير، أنك يجب أن لا تمارس العنف ضد ضيف من الضيوف." ظننت أننى إذا ما قلت: 'أنا ضيف سيد وصاحب القلعة الموجودة هناك فى ذلك المكان' فلربما استجاب لكلامى-قائلا: إن الأمير سمح له بذلك! وفى اللحظة نفسها تملكنى إحساس فريد، بل قناعة تامة، تملكت روحى، [إن وفاة ذلك الشاب غدت قاب قوسين أو أدنى؛ بالرغم من ذلك فإن حياتى التى كان

يتهددها الخطر كل يوم، هى وصحتى الضعيفة إلا أنى كنت واثقا بأن عمرى وبقائى على قيد الحياة سيدوم إلى ما بعد حياة ذلك الشاب المتهور. "قلت له: قهوتك كانت فى حلقى، عندما رفعت سكينك علّى؛ ولكن، قل لى أيها القحطانى: ألا تحترم طقوس الأعراب الآخرين؟" ورد على بعض القحطان، "نعم، الله! نحن نلاحظ تلك الطقوس ونراعيها!" أما حيزان فقد لاذ بالصمت، نظرا لأن بقية الجماعة كانت تعارضه وتعترض على ما يفعله، والعرب لا يتفقون مطلقا اللهم إلا فى مسألة الدين: وهذا أمر يتعين على من يغامر بالتجوال بينهم، أن يراعيه حفاظا على سلامته. - هذا الحيزان، بعد ذلك بشهور قلائل، جرى اغتياله على سبيل الانتقام بأيدى أصدقائه (فى معركة من المعارك). هذا الحادث كان مثار الحديث والقيل والقال فى المدينة، كما جرى ترديده أيضا فى القصر، نظرا لأن إمبارك سألنى عن هذا الحادث عندما كنا فى القهوة الكبيرة: - "يا خليل، ماذا حدث للقحطانيين؟ وماذا حدث لحيزان، عندما تناول سكينه ليطعنك به، ألم تكن تخشى الموت أو تخاف منه؟" - "لو كنت أخاف من كل كلمة، هل تظن، أننى كنت سأجرؤ على دخول هذا البلد العربى؟ ولكن، هل تظن أن تصرف ذلك الشاب الجاهل كان تصرفا سليما؟" - وهنا فضل إمبارك الذى كان ناطقا باسم الأمير، أن يلوذ بالصمت.

وتتردد على ألسنة عرب نجد حكايات غاية فى الرداءة عن القحطانيين. ويقال عن القحطانيين إنهم يأكلون لحوم أعدائهم؛ وهناك مثل رذيل يطلق على من يكون من هؤلاء الجزارين؛ وهذا المثل يقول: 'الذيل، هو أفضل المشويات.' ويقال إن القحطانيين بلا إيمان، ويقولون عنهم أيضا: إنهم "يثورون لكلمة، ويشرعون فى استعمال السلاح لأتفه الأسباب." وقد حكى الناس لى فى القصيم حكاية غريبة عن أولئك القحطانيين، هذه الحكاية حكاها لى واحد كان شاهد عيان فيها: 'كان بعض القحطانيين عائدين على ظهور مطاياهم بعد الغزو وتصادف أن مروا على قرية الرس ar- Russ ؛ وعندما عثروا على عبد من قرية الرس خارج حدود القرية، أمسكوا به وقيدوه، وأخذوه معهم. وقبل حلول المساء، نزل القحطانيون عن مطاياهم فى صحراء النفود، وكان الرجال يكاد يغمى عليهم من شدة الجوع الذى تملكهم طول أيام عدة؛ - وقالوا فيما بينهم وبين أنفسهم: 'سنقتل

الأسير وناكله: واقتلعوا أيضا بعض الأشجار وجمعوا حطبا لإشعال نار كبيرة. - سوف يلقون ذلك العبد الأسود فى النار، بعد أن يذبحوه، ويشووا جسمه كاملا بنفس الطريقة التى يشوى بها الرحالة والصيادون طرائدهم فى الصحراء. ولكن ظهرت لهذه الجماعة جماعة أخرى كانت تمر عبر الكثبان الرملية! وهنا سارع القحطانيون إلى ركوب مطاياهم مرة أخرى؛ وعندما وجدوا أن تلك الجماعة كانت أكبر منهم عددا، لم يتوانوا وإنما لاذوا بالفرار شأنهم شأن البدو عندما يهربون ويولون الأدبار. هؤلاء الذين جاءوا فى إثر القحطانيين كانوا من القصيم، وفكوا قيود العبد المسكين الذى راح يحكى لهم حكايته (غير المعقولة). - ولكن هؤلاء القحطان شديدى التطرف، وشديدى التدين حتى فى جرائمهم. ولذلك يقول أهل نجد عن القحطانيين: على سبيل ضرب المثل " القحطانيون يقتلون الرجل لشرب الدخان، فى حين أنهم يشربون دم الإنسان." ولكن مشايخ عنيزة أخبرونى أن " القحطانيين فى اليمن يؤيدون قسمهم وإيمانهم بشرب الدم البشرى المتخثر؛ ويقال عنهم أيضا:إن القحطانى لايخسر حزامه المصنوع من الجلد، إلا بعد أن يقتل عدواً." حدث أن زار شيخ قحطانى آخر حائلا قبل عامين، - وبعد مناقشة شئونهم قال له الأمير ابن الرشيد: "فى كل الأماكن التى تجولنا خلالها فى الجنوب، عبر ديار البدو لم نرقط مقبرة واحدة للقحطانيين!" ويقال إن الشيخ رد على ابن الرشيد (متفاخرا)، "إى والله يا سيادة المحافظ، لقد رأيت قبور القحطان فى الهواء! - الغربان، والرَّخام، والعقاب." كان يود القول: إن الجثث تلقى بلا دفن، - وهذا هو ما يحدث فى المعارك الميدانية فى الجزيرة العربية؛ هذا يعنى أن من يموتون من الجانب الخاسر تترك جثثهم فى العراء بلا دفن، وقد حدث ذلك لحيزان، شيخ القحطانيين عندما قتل فى فصل الصيف: كان ذلك بعد أسبوع من مرورى على ذلك الشيخ، وكان أفراد القوافل يتحاشون المرور بالقرب من تلك المنطقة التى يوجد فيها جثمان حيزان.

هناك بعض التقولات على سلالة بن الرشيد النسبية. يقال: إن الشمر، على العكس من القبائل الرعوية البدوية الكبيرة، ليس لها جد كبير، ولكنها على حد قول الرأى السائد فى نجد، تتكون من سلالات نسبية مختلفة. هناك أيضا من يقولون: إن عميد هذه القبيلة اسمه شمر Shimmer . فخوذ الشمر وبطونهم، أو بالأحرى سلالتهم

النسبية، حَصلْتُ عليها من بدوى متعلم من العنوز، أو إن شئت فقل من سباع Sbaa العنوز، إن أردت المزيد من الدقة. وهذا الرجل يعيش فى حائل. وفخذ العبدة Abda هو فرع من عبيدة Abida قحطان التى منها الجعافرة Gaafar الذين ينحدر منهم ابن الرشيد هو وأسرته؛ والبطون الأخرى من سلالات مختلفة وليست من أصل واحد، - السنجارة Sinjara ، التومان Tuman ، إسلام Eslam ، الدغيرات Deqhreyrat ، غريث، عمود، الفداغرة، ثابت ، عفاريت Afarit ، الزميل ، حمازان، السايح، خروسى، زوية، شمر - طوجة (فى العراق).

لا أحد من أهل البادية يعرف القراءة أو الكتابة؛ ولذلك سررت عندما التقيت هنا بدويا متعلماً، والذى كان بمثابة العين بين هذا الجمع الكئيب من الناس لأنه كان متعلما تعليما جيداً وجادا أيضا، فضلا عن أن ذهنه كان مكرساً للدراسات الجيدة. كان اسم ذلك الرجل رشيد Rashid، وكان قد ربِّى أو نشأ ليكون باحثا، عندما كان فى الرياض؛ ولكنه تخلى عن الدولة الوهابية التى أصابها التفكك والاضمحلال، وانتقل إلى حائل، التى أصبح فيها واحداً من أولئك الذين يثق بهم حمود بشكل خاص ويعملون فى خدمته. كان، ذلك الرجل يقوم، فى كل عام، برحلة علمية، إلى واحدة من المناطق البعيدة والنائية. وقد ذهب فى العام الماضى، على سبيل المثال، إلى أرض إسرائيل، حيث زار مدينة بيت لحم، " (قال بنغمة توحى بالتدين) المكان الذى ولد فيه (المسيح عليه السلام) ، " كما زار أيضا المدينة المقدسة. هذه الفئة من سكان الجزيرة العربية فيها موهبة عقلية، لاينقصها سوى إتاحة الفرصة لها، كى تتعلم على وجه السرعة؛ - كان تعليم هؤلاء الناس يجرى بطريقة المحاكاة. كان رشيد رجلا جيدا يتمتع بسعة الأفق [كنت أتطلع إلى أن يكون لى رفيق مثل هذا الرجل فى أسفارى] ، ولكنه كان يمتاز بالأدب ودماثة الخلق فى حضور الرؤساء: هذا الرشيد لم يجرؤ حتى على أن يراه الناس وهو يتحدث إلى النصرانى، مخافة أن يؤدى ذلك إلى إغضاب شخصية من الشخصيات الكبيرة. وهناك من يقول إن هناك مستوطنة نائية فى العروض al-Aruth ، وأن هذه المستوطنه من سلالة الشمر النسبية، وأن اسم تلك القرية هو علّى Aleyi وأن من فيها ينعتون بالقرونية Kuruniyah .

عثرت ذات يوم على رشيد عندما كان يحمل كتاب الجغرافيا معه في المسحاب Meshab – (الميدان العام). وعندما قال لي : إن ماجدا أرسله بالكتاب إلى شخص متعلم في حائل، هو القاضي، رافقته إلى المكان الذي يقيم فيه ذلك القاضي؛ ولكن عندما وصلنا إلى دار القاضي لم نجده فيها. وقد بلغني أن ذلك القاضي كان قد أعد شجرة من أشجار السلالات النسبية، أوضح فيها السلالات العربية النسبية المختلفة. وذهبت لزيارته في يوم آخر، ولكني لم أهتدِ إلى بيته البعيد، نظرا لأن سيَّاف الأمير، الذي التقيته بينما كان يرتدي ملابسه المرحة، ضللني، ودلني على طريق غير الطريق الحقيقي؛ وعندما وصلت وجدت ذلك الرجل يجلس أمامي ! يا لهم من أوغاد في الهزر وعدم الجد، وبخاصة في توافه الأمور، كما أنهم تسيطر عليهم الشكوك الآسيوية. وعندما رحت ألومه وأوبخه لم يرد علي بكلمة واحدة، وكل ما فعله هو أن راح يتحسس حد سيفه، ليجعلني أتخيل أنه لديه إرادة قوية في تجريب قوته وقوة ذلك السيف المعدني على عنقي. هذا الرجل نفسه لم يكن على استعداد بعد ذلك لحمايتي من صلف الآخرين وبذاءتهم.

ألقيت السلام على القاضي، الذي رد عليَّ السلام بشق الأنفس وقال: ماذا تريد؟ – وهذا هو كل تعليمهم، الذي يتمثل في إجادة اللغة العربية. كان القاضي جالسا بجوار جدار بيته في تراب الشارع. كل جاذبية هؤلاء الناس تتساوى مع خفتهم، ففي البداية أراني القاضي ساعته، ثم سألني، "ماهذا الذي هو مكتوب على مينة تلك الساعة؟" ثم أرسل بعد ذلك في طلب كتاب من الكتب، وأطلعني على مدوناته لبعض النقوش القديمة، التي وجدها على الصخور في المنطقة المجاورة لمنزله (كانت تلك النقوش مدونة بالخط الحميري) ، ثم طلب القاضي مني، "هل هذه النقوش يونانية، أم مسكوفية (روسية)؟ – نظرا لأن المسكوف كانوا قد سكنوا هذه المنطقة في الزمن القديم." وأجبته قائلا: "هل بلغ بك الجهل إلى حد عدم معرفتك للغتك! هذه هي الكتابة الحميرية، أو أن شئت فقل الكتابة اليمنية القديمة في الجزيرة العربية. بلغني أنك رجل متعلم، ونحن يمكن أن نكون أصدقاء من منطلق هذه الأرضية المشتركة. وبالرغم من أن اسمك اسم مسلم وبالرغم من أن اسمي اسم مسيحي فنحن جميعا "نؤمن بإله واحد؛"

- "عدم تدين المسيحيين واضح لى : وهم يقولون: "الله له ولد، وبذلك يصبح الإله الواحد أكثر من إله"! لا! ولكنك إذا ما ابتعدت عن طريق عبادة الأصنام وأصبحت مسلما، فقد نتفق ونتعاون مع بعضنا البعض." - "وأنا أصبح مسلما! أنا أظن أنك لايمكن أن تصبح نصرانيا؛ وأنا أيضا لا يمكن أبدا أن أحمل اسم دينك: ومع ذلك ، هل يمكن أن تربط الصداقة بيننا فى هذه الدنيا، وهل يمكن أن نكون باحثين عن المعرفة الخالصة." - " معرفة المسيحيين! هذا أمر صغير، وقريب من عدم التعليم." - " يا لك من متعلم فأنت لا تعرف حتى حروف لغتك. شكل الأرض الجافة غير معروف لك، كما أنك لا تعرف أيضا أسماء مئات البلدان والشعوب العظيمة؛ ولكننا عن طريق الملاحة نكون قريبين بل وجيران لكل الأمم والشعوب، نحن نطوق العالم بكلامنا خلال لحظة واحدة. ألم يقل سليمان بن داود، "إن عظمة الروح الإنسانيه تتجلى فى البحث فى الأعمال البادية للرب"؟ ألا تعرف تلك الكتب المقدسة، ولكن أطفالنا يقرءون هذه الأشياء بفهم كامل." - هذا المتحذلق لم يستطع اكتشاف لغته؛ ووقع فى الخطأ عندما جر الغريب وأغراه بالجدل. لقد استرضاه هو ومن كانوا يجلسون معه.

التقيت رشيد بعد ذلك فقال لى متسائلا:" كيف وجدته ، إنه يعرف الكثير؟" - "القرآن، المعلقات، القاموس، بكل دقائقه وألقابه (أصوات الحركة وطريقة كتابتها)، وهو لا يعرف شيئا غير ذلك." - "إنها الحقيقة ، وأنا أحسب أنك لم تستلطفه؛" والسبب فى ذلك أن ذلك القاضى المتعلم والمتدين يبدو شخصية نكدة أمام أهل بلده. وبينما كنا نتحدث عن النقوش القديمة التى فى قهوة عبيد Abeyd ، قال مدرس ماجد لحمود متسائلا، "ألم نشاهد الصخور المليئة بهذه النقوش فى منطقة جُبَّة Gubba ؟ "وجبة هذه عبارة عن قرية صغيرة نائية من قرى النفود وتقع بالقرب من جبل شمَّر، على الطريق المؤدية إلى الجوف.

وفى نجد وجدت أن دراسة الحروف الأبجدية والقراءة والكتابة تحظى بتكريم كبير بين كبار تجار عنيزة. ولكن هذه الدراسة كانت ماتزال فى بدايتها فى حائل: بالرغم من أن حمود هو والأمير، يقال إن لديهما (ولكن من ذا الذى يصدق ذلك!) مايزيد على

ألفين أو ثلاثة آلاف من المجلدات. وقد عثرت، في قهوة عبيد، على ما لا يزيد على اثنى عشر كتابا داخل أكياس مصنوعة من قماش القطن، ومجلدة بجلود حمراء اللون من الجلد الطبيعي: - وكلما قل عدد هذه المجلدات، زادت سعادتي، السبب في ذلك أن الأمراء لا يمضون كل حياتهم في الالتحاق بالمدرسة. كان حمود يسألني في بعض الأحيان عن فن الطباعة، "أليس بوسعي أن أدله على الطريقة التي تتم بها الطباعة؟" ولكني عندما قلت له: إن بوسعه أن يشترى لنفسه مطبعة من بغداد، نظير مبلغ ليس كبير من المال، لم يتشجع، نظرا لأنهم لا يودون الإنفاق بأي شكل كان. والعجيب حقا أن هؤلاء الناس يمضون حياتهم وهم على جهل بالعالم الطبيعي شأنهم في ذلك شأن الجهل المطبق الذي يخيم على عقول البدو! سألني حمود، في إحدى الأمسيات، "يا خليل، هل يرى النصارى القمر؟" - قد يكون يقصد من وراء ذلك - "أن الهلال الجديد هو رمز سلطان الإسلام، وبالتالي يصبح القمر دلالة على المسلمين؛ - ومن ثم لا يكون القمر من الأديان الأخرى!"

كانت توجد في حائل أربع مدارس عامة. كان ناظر إحداها شاب صغير متزمت، هذا الناظر كان يردد في كل يوم على جمهور الجهلة الجالسين في القهوة تلك الأقوال المأثورة التي تعجبه وتسترعى انتباهه: كان صوته أجشا، وكانت نظرات عينيه تشبه نظرات الثعابين. ذات يوم، ناداني ذلك الناظر بصوت مرتفع، وهو يبتسم أمام جميع الحاضرين في المقهى، "يا خليل، لماذا تظل ساكتا بلا حراك على هذا النحو الذي أنت عليه؟ ألا تود الحضور إلى بيتي، في الغد؟ سوف أضع أمامك البراهين والأدلة، وسوف أستخرج لك هذه الأدلة من كتابك المقدس. سوف أقرأ نبوءة حزقيال هي والأدلة الأخرى؛ وعندها سوف تقول، بمشيئة الله، "أنا، يا من كنت أعمى طوال فترة من الزمن، أرى الآن وأشهد بأن الله واحد، وأن محمداً رسول الله." - " هل ستصيب رأسي بالصداع بسبب أسئلتك الكثيرة عن الدين! في الوقت الذي أجيء فيه إلى هنا لأشرب فنجالا من القهوة مع الأصدقاء." وهنا رد البدو نيابة عني قائلين: "إنه يقول الحق؛ اهدأ، أيها الشاب، ودع هذا الغريب ينعم هو الآخر بالهدوء." - " قال الشاب: أنا آمل أن يرتد هذا الرجل عن دينه ويدخل في الإسلام؛ ألم يحدث ذلك مع اليهودي الذي جاء قبله إلى هذا المكان؟"

ونظرا لأنى كنت أرغب فى رؤية أو مشاهدة كتاب مكتوب باللغة العربية فى حائل عن "حزقيال النبى"! فقد ذهبت فى عصر اليوم التالى إلى منزل رشيد، الذى كان بالقرب من المسحاب (الميدان العام)، بالقرب من فناء جاف عام، لا طعم له مثل الرجل تماما. "آه ! قال الرجل: مرحبا بك، آمل أن تكون جئت ثانية طلبا لمزيد من الحقيقة." وضع الرجل تمرا أمام الغريب، ثم أحضر لى كتابه العامر بالحكمة؛ وجدت أن الكتاب من تأليف أحد المتخصصين فى العلوم الإسلامية، وقد اقتبس ذلك المؤلف عن أقوال ذلك النبى، ولكن هذه الاقتباسات لم تكن تلقى أذنا صاغية ولا معنى لها فى الآذان البدوية غير المتحضرة. والعرب أصحاب بديهة فضولية للاستفادة من هذا العلم، غير أن العرب جميعا غير منطقيين إلى حد كبير من ناحية الدين. "(تساءلت) حسن! هل لديك أكثر مما قلت؟ وكنت أنا بدورى أتطلع إلى إصلاح نفسى! " ولكن ذلك الشاب، الذى كان يتطلع إلى أن آخذ غروره مأخذ الجد والثقة، استاء من نفسه، وتركته أنا على ذلك الحال. كانت الإمارة هى التى تدفع أجر ناظر المدرسة؛ فقد كان يتناول طعامه فى المضيف، كما كان يتلقى، إلى جانب الطعام، بضع ريالات كل عام، وغياراً من الملابس.

والعرب يمكن كسب ودهم عن طريق المعاملة الطيبة وعن طريق حسن النية، وهم يستسلمون للجدال والحجج العادلة المنصفة، وقبل أن أغادر حائل كان كل أعدائى القدامى يضمرون لى الخير فى قلوبهم. يضاف إلى ذلك أن الكلام الواضح الخالى من التّملّق كان أمرا مقبولا عندهم، وعند أولئك السوّاح، أو إن شئت فقل: أولئك الذين سافروا إلى كل من مصر وسوريا، إضافة إلى أولئك الذين كانوا يقتادون خيول الأمير لبيعها فى مدينة بومباى فى الهند، التى قالوا لى إنهم شاهدوا فيها سباق الخيل؛ هؤلاء الناس كانوا ينظرون إلى الغريب، شأنه شأنهم هم أنفسهم عندما كانوا فى بلاد أجنبية، نظرة فهم وبنية حسنة أيضا. "(هم يقولون): هؤلاء الناس، لم يتعلموا الأخلاق الطيبة، ولم يصححوا أنفسهم نتيجة مشاهدة البلاد الأجنبية: وإلا لماذا يضايقونك، يا خليل، فى مسألة دينك؛ ومسألة الدين هذه لا إكراه فيها. - أما نحن فقد ثقفنا أنفسنا نتيجة الأسفار؛ كما شاهدنا النصارى أيضا، وشاهدنا ثراءهم، وعبقريتهم وذكاءهم، كما شاهدنا أيضا عدالتهم وحريتهم."

فيما يتعلق بالطقس، الذى اتسم بالجفاف والحرارة الشديدة بعد مجيئى إلى حائل، أصبح مائلا إلى البرودة فى الوقت الراهن. والجليد الذى يمكن أن نشاهده فى غالبية فصول الشتاء فوق بعض القمم الجبلية فى الجزيرة العربية، يكاد يكون منعدما تماما فى نجد بالرغم من أن متوسط الارتفاع يصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم. وهم هنا يقولون: إن ذلك قد يحدث مرة واحدة كل أربعين عاماً. ويقال أيضا إنهم شاهدوا ذلك الجليد قبل عامين فى فصل الشتاء، حيث بقى الجليد على الأرض طوال ثلاثة أيام: الأمر الذى أدى إلى الاحتفاظ بالإبل داخل المنازل، وأن الكثير من هذه الإبل نفقت بسبب ذلك الطقس السيئ وبسبب الجوع أيضا.

كان يجرى فى القهوة الكبيرة إشعال نار فى الصباح وفى المساء وقبل وصول الجميع إلى القهوة لالتماس شيء من الدفء هناك بصحبة البدو. وذات مساء وقبل وصول الجميع الى القهوة، دخلت إليها كى أدفئ نفسى بالقرب من موقد النار. – "اخرج ! (صاح مقدم القهوة الذى كان رجلا عصبى المزاج) واترك النار للضيوف الذين سيصلون بعد برهة قصيرة." وهنا دخل بعض البدو وجلسوا بجوارى. صاح مصلِّح القهوة " قلت أرجع إلى الوراء!" "لحظة واحدة، أيها الرجل، وسوف أكون قد تدفأت؛ ألسنا كلنا ضيوف على الأمير؟" همس بعض البدو فى أذنى قائلين: "كان من الأفضل أن ننتقل من مكاننا، وأن لا نعطيهم الفرصة." هذا القهوجى، كان يتحدانى كل يوم، وكان يتدخل دوما فى كلامى مع البدو، وبخاصة عندما كان يسألنى أحدهم قائلا: "إلى أين ستذهب بعد ذلك، يا خليل؟" – "إن شاء الله إلى جهنم! (يصيح عامل تقديم القهوة)" بلغنى أن ذلك القهوجى كان واحداً من الخدم الذين جاءوا من عنيزة فى منطقة القصيم(*)؛ ولكن نظرا لتحية شيوخ البدو له كل يوم، فقد بدأ يشعر بقيمته وأهميته. وخطر ببالى أن التخلى عن عنف خادم من الخدم، يتطلب تضافر أناس آخرين من حائل. صاح القهوجى، بصوت عال، فى البدوى الذى كان يجلس إلى جوارى، "ناولنى

(*) تطلق منطقة القصيم على بلدتى بريدة وعنيزة . وتشتمل بريدة على أكثر من ثمانين قرية ، وعنيزة على أكثر من ستة عشر قرية كبيرة ، ومدينة بريدة هى عاصمة القصيم . (المراجع)

ذلك المشعاب" (الذى يمسك به البدو دائما فى أيديهم) وبعد أن تلقف المشعاب من البدوى، ضربنى به ذلك العبد بكل قوته. وهنا وقف البدو من حولى وقد اضطربت نظراتهم وقسمات وجوههم، - هذا يعنى أنهم أنفسهم لم يكونوا يشعرون بالأمن؛ لم يكن من بين أولئك البدو أحد من الشيوخ، حتى ينبس ببنت شفة وكل مافعلوه هو أنهم أشاروا إلى بالابتعاد معهم عن المكان، وأن نجلس على بعد مسافة قصيرة من المدفأة. كان من الخطورة بمكان أن أدافع عن نفسى بين الجبناء أو الوضعاء؛ والسبب فى ذلك، أنه إذا ماشاع فى المدينة أن النصرانى وضع يده على مسلم ، فإن ذلك يمكن أن يشعل نار الحقد والغل فى قلوب الكثيرين الذين هم على استعداد للثأر من ذلك النصرانى. بل إن الأمر يبلّغ إلى الأمير، ويتعين عليه البت فى مثل هذا الأمر، وطوال فترة وجودى فى حائل كانت الفرصة سانحة للجميع كى يشتمونى ويسبونى. ومررت من المنز إلى محل سكن الأمير، وطرقت الباب الحديدى، وسمعت صوت الصبى العبد الذى يحرس الباب من الداخل، يقول للحارس إن الطارق هو خليل النصرانى. وهنا أرسل الأمير ناصر كى يستطلع ذلك الذى جئت أنا من أجله، ثم ذهبت بعد ذلك للجلوس فى المسحاب . وأخيرا جاء من داخل القصر شخص كان بصحبة الأمير، وقال إن الأمير يطلب حضور القهوجى على وجه السرعة، وقال له:" لماذا! الله يلعن أبوك، هل ضربت النصرانى؟" - "والله، يا سيادة المحافظ (أجاب البائس الذى كان يرتعد خوفا) أنا لم ألمسه!" - ولكن حمود نهض واقفا ثم اتجه صوب محمد، ثم قبل يد ولد عمه، وطلب منه مستسمحًا إياه، أن يعفو عن القهوجى 'الذى كان مسكينا'. "اذهب لحال سبيلك أيها القهوجى، قال الأمير، وإذا ما بلغنى أو سمعت عن أى شىء آخر قمت به فسوف تطرد من عملك." ولما كنت قد تخليت عن القهوجى؛ فإن القهوجى الثانى حضر مرارا إلى المخزن الذى كنت أقيم فيه، وكان يلح فى الطلب منى أن أعاود الذهاب إلى القهوة وأكون بينهم؛ ولكنى أجبته قائلا: "أين يستطيع ضيوف الأمير أن يكونوا فى مأمن من الغضب ؟"

الفصل الثالث

الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر

"الحج الفارسي". كلام إمبارك. لصوص المدينة. حجاج الجوف في حائل. بدو في الحج. القافلة المتجهة إلى مكة تصل من الشمال. حاج إيطالي في حائل. مرور الفرس على القصيم. أخطار قاتلة في مكة. تقاطع طرق في حائل - رحلة خيبر. تعامل إمبارك العنيف. جواز سفر ابن الرشيد. الرحيل عن حائل. - قفار. سيادين، الباعة البدو الجائلون. قرية القصر. هجرة البديعة. مغامرة في الصحراء. عيادة بن عجوين. قاسم بن باراك. صالح الرفيق."إنهم الملائكة". وادي الرُّماح. شقيقة قاسم. المضي قدما مع صالح مرة ثانية. ترك النصراني أمام خيام غريبة. كرم أولئك البدو. ضيف الله. المضي قدما مع غروسيب من منزل عيادة. الحَّرة تتراءى لنا. منزل الحطيم في الحَّرة. السلالة النسبية للحطيم. ميدان الحمم البركانية. تقسيم المياه في شمالي الجزيرة العربية. ممر خطير. الحرة الكبرى (خيبر). قرية الحيات. الممرات المائية في الحَّرة. إنذار بالقرب من خيبر. الجراد. غروسيب يعاني من اضطراب عقلي. وادي جُلّاس. قرية خيبر. الحصن. مسجد قديم.

كان موعد الحج يقترب، ـ وهذه هي قافلة ابن الرشيد القادمة من بلاد الرافدين والتي يطلق عليها اسم "الحج الفارسي" متجهة إلى مكة المكرمة: - وبعد أن وجدت أن الطفل فيصل قد بدأ يتماثل للشفاء ، بدأت أفكر في الرحيل عن حائل، نظرا لأنني لم أكن أشعر بعد بالأرتياح أو الانشراح في حائل. ولما كان الأمير قد تحدث معي عن التعدين والمعادن والمناجم، فقد حزرت أنه ربما أرسل معي بعض رجاله ركوبا على ظهور الخيل، بحثا عن المعادن هنا وهناك في سائر أنحاء حائل: - ولكنه عندما أردف

قائلا: " هناك أيضا رمل لامع فى بعض أنحاء الخلاء (الصحراء) وأن ذلك الرمل يشبه الذهب المصقول" رددت عليه رداً واضحا كفيل بتثبيط همة أى واحد من العرب. كان حمود قد تكلم معى أيضا عن البحث عن المعادن.

عزمنى إمبارك ذات صباح على مصاحبته إلى منزله " لشرب القهوة، " فقد كان لإمبارك منزل طيب يقع بجوار المسجد، فى المنطقة الواقعة خلف المسحاب. وقد وجدنا طفله الصغير يلعب فى فناء المنزل: وتناول هذا الأب العسكرى الطفل بين يديه مغدقا عليه من رقة العرب وحبهم لأطفالهم. ولكن الأوروبى يسبغ أول شىء من حبه المنزلى على أم أولاده؛ ولكن الزوجات العربيات لا يقابلن أزواجهن بالابتسامات والعيون التى تفيض بالحب، وذلك من باب الترحيب بأزواجهن عندما يرجعون من أعمالهم، والسبب فى ذلك أن المرأة تنظر إلى أنها مجرد خادمة مسترقة، اشتراها الزوج من والديها وفى أفضل الأحوال يكون حب الزوج مقسما بين الزوجات. صاح الطفل، "هو! النصرانى، أنت لا تستطيع النظر إلى السماء!" – "انظر يا ولدى، أنا أستطيع النظر إليها أيضا مثلك تماما ، ومثل أى شخص آخر بل وأفضل منه؛ تعال حُبَّنى hubbiny ! بمعنى " اقترب منى وقبلنى؛ "والسبب فى ذلك أن الغرباء يقبلون أطفال مضيفيهم العرب. – وعندما سألنى بعض صغار أفراد الحاشية، فين ربك ، بمعنى 'أين ربك؟ كنت أقول لهم وبصورة قاطعة إن ربى 'فى كل kull مكان بمعنى' الله فى كل مكان،' وقد لقى هذا الكلام استلطافا كبيرا من جانب السائلين، وأصبح يتردد على ألسنة أولئك الذين كانوا فى القصر.

"قال إمبارك، ونحن نجلس إلى جوار المدفأة: يا خليل نحن نريد لك أن تقيم معنا فى حائل؛ وكل المطلوب منك هو الدخول فى الإسلام، وأن هى إلا كلمة بسيطة وسرعان ما ينتهى كل شىء. يضاف إلى ذلك، إنك إن أردت معرفة المزيد عن هذا البلد، فسوف تتهيأ لك فرصا كثيرة، من خلال إيفادك فى مهام أميرية هنا وهناك. وسوف يرَفَّعك الأمير إلى منصب عال، ويعطيك منزلا تمضى فيه حياتك فى راحة وانشراح بال، دون أن تشغل الهموم بالك، وتروح تمد ساقيك أمام مدفأتك الخاصة بك. وبالرغم من أن

مانقدمه لرجل مثلك لا يمكن أن يرقى إلى ماتجده فى بلدك، إلا أنك يجب أن تفهم أن عودتك إلى هناك أمر بعيد (المنال) لأن ذلك يحتم عليك اجتياز المزيد من الأخطار من جديد." - والذى لا شك فيه أن إمبارك كان ناطقا باسم الأمير، وقد وعد الأمير خيرا ، وأن ذلك المنصب الذى كان يود وضعى فيه هو جباية الضرائب وتحصيلها؛ والسبب فى ذلك أن العرب جميعا يثقون بالنصارى فيما يتعلق بالمعاملات المالية.

تلكم الريالات الستة أو السبعة التى عادت علّى من بيع ناقتى، - قمت بوضعها مع بعض الفكة المعدنية فى صندوق من الورق مع بعض الأدوية، ولكنى اكتشفت، فى أحد الأيام، سرقة أربعة ريالات منها، ولم يتبق لى منها سوى ريالين فقط مع بعض الفكة المعدنية؛ ويبدو أن اللص ترك هذين الريالين من باب التدين العربى أو من باب الخرافة التى تقول بأن اللص إذا ما سرق المبلغ كله سيجلب على نفسه اللعنة المسيحية من ناحية، وعقاب السماء من الناحية الأخرى. وقد انصبت شكوك أصدقائى على شخصين. (الرجل الأبكم) الذى كان يتردد على سكنى بصورة متكررة، دون سبب يذكر، وعلى رجل بدوى آخر، من «رجاجيل» حائل، صاحب مزاج حاد؛ هذا الرجل هو الذى اشترى ناقتى، وقد تردد على مخزنى مرات كثيرة بعد ذلك طلبا للعلاج، حيث كان يعانى من الرمد. وها أنا أسمعه الآن يتحدث عن كيس نقود أحد الحجاج الفرس، وهاهم الجيران وجدتهم يؤكدون أن ذلك الرجل قد نشل الكثير من أشيائهم ونقودهم. وعندما تكلمت عن الضرر الذى تسبب فيه ذلك الرجل للأمير حمود، راح يحاول التأثير على الحاضرين حتى لا يصدقوا كلامى. نظرت بعد ذلك إلى كيس نقودى ولم يكن به سوى ثلاثين ريالاً! وهنا أعطيت خيمتى للسمسار نظير أربعة أو خمسة ريالات. قام ذلك الدلاّل ببيع هذه الخيمة لنبيل شاب، الذى سيقطع خلال حج هذا العام فى فصل الشتاء مسافه ١٦٠ فرسخ أو أكثر فى الخلاء (الصحراء)، حتى يصل إلى مكة. وهنا وضع إمبارك سيفه فوق زور الرجل الأبكم، ولكن الأبكم احتج بكل قواه بأن ذلك الذنب المنسوب إليه ليس صحيحا ولاعلاقة له به. أما فيما يتعلق بالبدوى فلم نجد له أثرا فى حائل.

كانت مقدمة الحج قد وصلت إلى حائل بالفعل؛ وبلغنا أن عدد الحجاج فى ذلك العام لم يكن كبيرا. وها أنا أشهد الآن ذلك التجمع السنوى الذى يحدث فى حائل ويتجمع فيه البشر القادمين من القرى ومن القبائل، حتى يتمكنوا من الانضمام إلى قافلة الحج، كما أشاهد أيضا أصحاب الحرف الصغيرة الذين جاءوا للاتجار مع قافلة الحج أثناء مرورها: - أحضر بعض هؤلاء الحرفيين والتجار معهم التمور من القصيم التى تبعد أكثر من ألف ميل عن حائل. وهذه هى جماعة جاءت من الجوف وتقيم فى المخازن المجاورة للمخزن الذى أقيم أنا فيه؛ كان عدد هذه الجماعة يزيد على خمسين فردا، قطعوا رحلة استمرت عشرة أيام عبر صحراء النفود خلال طقس شتوى عاصف وأمطار شتوية أيضا: ولكن هذه المسافة لا تمثل سوى ثلث واحد فقط من مسيرتهم الطويلة (التى تبلغ حوالي سبعمائة ميل) إلى مكة (المكرمة). سألت واحداً منهم جاءنى فى الصباح وهو يرتعد من البرد، عن حالة وهو يقوم بهذه الرحلة الدينية والعودة منها خلال شهور الشتاء وبلا مأوى. " قال، أولئك الذين يموتون، يتوفاهم الله؛ ومن يعيشون ويبقون على قيد الحياة يرعاهم الله ويحفظهم." أبلغنى هؤلاء الناس أن المسافة من الجوف إلى بلده مشهد el. Meshed تقدر بحوالى ثمانية رحلات، وإلى دمشق بحوالى تسع رحلات بالإبل؛ والمسافة إلى معان تقدر بحوالى خمسة أيام من المسير بالإبل، أو تسع ليالى عندما تكون الإبل مُحَمَّلة. وكثير من أهل الجوف يفدون على الحوران كل عام بحثا عن العمل، والدروز يستأجرون أولئك العمال فى تنظيف وصيانة برك مياه الأمطار: - وهذا هو أسلوب الدروز الذى يوحى بالغيرة، لأنهم يعيشون معتمدين على أنفسهم، فهم يعيشون فى الأماكن التى يندر فيها وجود الماء. وملح الجوف تنقل منه كمية كبيرة الى الحوران. وقرويو الجوف يقولون إنهم ينحدرون من سكان بلاد الرافدين، ومن السوريين، ومن عرب نجد. وسوق حائل، فى تلك الأيام، كان يعج بالبدو الذين لهم أعمال يقومون بها فى ذلك الاجتماع السنوى، وبخاصة بيع الإبل. وهذا هو المسحاب (الميدان العام) قد امتلأ بالإبل الباركة. هذه الجموع الزائرة، كان يقدم لها فى الوقت المحدد الطعام بواسطة كل من مفرّج Mufarraj ومعه أولئك الذين يعملون فى المطبخ العام، كما كان يجرى دعوة أولئك الزائرين للإفطار والعشاء فى المُضيف.

وصل الحج بعد ذلك بثلاثة أيام، وكان معظم أفراده من العجم ، أى الأغراب الذين يتكلمون لغة غير العربية؛ وكلمة العجم يقصد بها بلاد فارس بشكل عام. وصل الحج مع بداية فترة العصر، وعلى حد فهمى كان ذلك يوافق اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. كانت تتقدم قافلة الحج الفارسية جماعة كبيرة من البدو، كانت هى بدورها تستعد للقيام بالحج؛ وبذلك يمكن القول إن إجمالى عدد هؤلاء الحجاج يقدر بحوالى ألف شخص. كان كثير من الأعراب الذين وصلوا إلى حائل من عنوز سوريا، ومن السباع، الذين تقع ديرتهم بالقرب من حلب فى أقصى الشمال. ومع هذه القافلة السنوية الكبيرة جاءت أيضا طوابير كبيرة من الإبل المحملة بالبضائع الخاصة بتجار حائل؛ وشاهدت اثنتى عشر جملا تدخل من بوابة القلعة، وكانت تحمل بالات من القماش، الذى كان يستخدم فى صناعة غيارات الملابس التى كان الأمير يهديها للبدو الذين يزورونه. مرت قافلة الحج من ناحية الغرب حول المدينة، وقصدت مكان المخيم أمام بوابة قفار، وأمام المقر الصيفى، وفى منطقة ماء Ma السماء es.Sama . كانت القافلة قد غادرت بغداد قبل اثنى عشرة ليلة. أحصيت حوالى خمسين خيمة من الخيام الكبيرة: لم يكن عدد الخيام يزيد عن ذلك بأى حال من الأحوال، وقد بلغنى أن ذلك العدد كان أقل من نصف عدد الحجاج فى الموسم السابق؛ ولكن هذا العام كان من أعوام الجهاد الكبير الذى يثير الاضطراب فى الإسلام ، ولذلك انصرف القسم الأكبر من الفرس (تخوفا من الجهاد) إلى السفر بالطريق البحرى الطويل إلى مكة. لم أر أحدا من أولئك الفرس وقد وضع على رأسه غطاء الرأس الفارسى، أو يرتدى حتى الملابس الفارسية: ويتزايد عدد أفراد الحج عند العودة بسبب أولئك الذين يزورون المدينة المنورة، ويعودون إلى بلادهم عن طريق مدينه مشهد.

تعجبت من التشابه الغريب بين عكاكمة (المسيحيون الذين يعملون فى خدمة الحج) بغداد وعكاكمة دمشق الذين تصيبهم الأسفار بالإرهاق والتعب، وكل طائفة منهما ترتدى ملابس مميزة؛ هؤلاء العكاكمة لهم وجوه تشبه القمر فى هاتين المدينتين: أى فى دمشق وبغداد. كان فى المنزل الذى يقيم فيه هؤلاء العكاكمة سوق للقصابين، وشاهدت فى ذلك السوق البائعات الحضريات وهن جالسات وأمامهن سلال مليئة

بالخبز المخمور والتمر؛ بعض هؤلاء الزوجات - المغطيات بشكل يصعب معه التعرف عليهن - كن يبعن أيضا لبن الخض! وهذه التجارة أقل من أن توصف بالأمانة، حتى في بلدان البدو الرُّحل. والحجاج يرتاحون في حائل طوال يومين، ويرحلون في صباح اليوم الثالث. وفي الأمسية الأخيرة استوقفني واحد في الشارع، ليسألني إن كنت سأرافق الحج الى مكة! وعندما تعرفت على صوته في ضوء الشفق أجبته بكلمة واحدة، "عنبر Ambar ، لا يمكن!"، واكتفى هو مني بهذا الرد. عنبر هذا أحد الأحباش الذين ولدوا في منزل بن الرشيد، وهو حاليا يشغل منصب أمير الحج، أو إن شئت فقل: قائد قافلة الحج - قائد هذه القافلة، كما سبق أن أوضحنا هو الأمير محمد؛ أما عنيبر Aneybar ، فهو الأخ الأكبر لعنبر، وقد حصل الاثنان على حريتهما، أو إن شئت فقل: أعتقهما ابن الرشيد، أما والدهما فكان عبداً لعبد الله بن الرشيد. وبذلك أصبح كل من عنبر وعنيبر أخوين حرين للأمراء الذين تولوا الحكم بعد ذلك، وكانا محل ثقة هؤلاء الأمراء؛ يضاف إلى ذلك أن عنبر وعنيبر كانا يرفلان في النعمة في حائل.

وفي صباح اليوم الذي غادرت فيه قافلة الحج حائل، وقفت في المنْزل، كي أشاهد تلك القافلة أثناء رحيلها. وهنا وقف واحد من أولئك الذين كانوا برفقة جماعة من تجار بغداد، والذي كان يرتدي زيا مماثلا لزيهم، كما كان يرتدي أيضا كمبازا سوريا ، توقف ليتحدث معي. سألته،' ما الذي يريد؟' - وظننت أنه قد يطلب دواء؛ ولكنه رد على قائلا: "إذا ما تكلمت بالفرنسية، هل ستفهمني؟" - " سوف أفهم ذلك! ولكن من أي بلد أنت؟" شاهدت وجها غريبا شاحبا، وله لحية كستنائية اللون: - من ذا الذي لم يلتق شخصا شبيها بذلك في بلاد الليفانت؛ أو إن شئت فقل: البلاد الواقعة في شرقي البحر الأبيض المتوسط؟' وأجابني قائلا: "أنا إيطالي، من تورينو." - "وما الذي جاء بك في هذه الرحلة الخطرة؟ يا ربي! قد يذبحوك فيما بينهم؛ هل أنت مسلم؟" - "نعم." - " أنت تقر' بإلاههم الواحد، وأن محمداً رسول الله' - وهذا يستحيل أن يسمعونه مني، أريكهم الله!" - "نعم، أنا أقر ذلك، وأنا مسلم فعلا؛ وأنا أقوم برحلتي هذه من هذا المنطلق."

كان هناك صخب ناتج عن طي الخيام وتحميلها في منطقة المخيم؛ كانت هناك بعض الخيام التي جرى تحميلها بالفعل: - وبينما كنا نتصافح سألت ذلك الإيطالي، "ما اسمك؟ وتذكر اسمي، لأن هذه أماكن خطرة وزمن خطير أيضا." ورد على الرجل الإيطالي في شيئ من التردد - قد يكون ما يقوله صحيحا، وربما كان يريد التهرب مني - اسمي : فرانسيسكو Francesco فيراري Ferrari . وهنا بدأت القافلة تتحرك، وسارع الرجل إلى الركوب فوق الجمل.

المسافة من حائل إلى مكة (المكرمة) لا تقل عن خمسمائة ميل، عبر صحراء شاسعة، تقطعها القافلة خلال خمس عشرة مسيرة طويلة، والقافلة لا تسير في المسار نفسه كل عام، وإنما طبقا للأخبار التي ترد عن الآبار التي يشرب الناس منها في ذلك الموسم (وهذه الآبار مملوكة للأعراب بطبيعة الحال)، وطبقا أيضا لحالة الخطر والسلم في الصحراء التي تمر خلالها قافلة الحج. ومعروف أن قافلة حج ابن الرشيد تمر بالقرب من خيبر، ولكن جرت العادة أن تسلك تلك القافلة طريقا يبدأ من بلدة المستجدة Mustajidda أو من بئر سميراء Semira الشهيرة، ثم تتجه شرقا من حرة القشيب el-Kesshub ، ومن حرة القشيب تواصل المسير مدة يومين آخرين لتهبط نازلة بعد ذلك إلى أراضي مكة عن طريق وادي الليمون Laymun . والعجيب في الأمر أن قبيلة عتيبة (ألد أعداء ابن الرشيد) لا تتربص بتلك القافلة: ومع ذلك هناك سرية من «رجاجيل» بن الرشيد تكون بصحبة القافلة للدفاع عن الحج.

كانت تلك القافلة، في الماضي، عندما تأتي من بلاد الرافدين متجهة إلى مكة (المكرمة) تمر من طريق القصيم، بكفالة من كل من عنيزة وبريدة؛ في هذه المسيرات الصحراوية الطويلة كان أولئك الذين يعتنقون العقيدة الفارسية (*)، قد اعتادوا على تحمل القسوة والعنف، وبخاصة تلك القوة وذلك العنف الذي كان يصبهما عليهم مهنا Mahanna ، ذلك المحتال والمغتصب الذي كان شيخا لبلدة بريدة، والذي يروي الناس

(*) ليست هناك عقيدة فارسية والأصح أن يقال المذهب الشيعي . (المراجع)

عنه حكايات كثيرة. ولقد بلغنى ما يلى من شخص أعجمى فقير: عندما وصلت القافلة إلى بلدة بريدة، جرى تقييد هذا الأعجمى المسكين بأوامر من مهنا، وضربوه أيضا بأوامر أيضا من ذلك الرجل؛ وواصل الأمير تهديده لذلك الأعجمى المسكين، - "يا ابن الكلب، أعطنى الجنيهات الأربعة التى معك، وإلا ستموت فى هذا المكان." وعرب المدن عندما يثورون يتحولون إلى أرواح همجية غير متحضرة، كما يتحول عداؤهم إلى مايشبه وحشية الحيوانات البرية، هذا يعنى أن قسوة هؤلاء الناس لا تعرف الحدود؛ ومن الحكمة والعقل أن لا يحاول أحد استثارتهم أو إغضابهم . - كان قد مضى حتى ذلك الحين حوالى اثنى عشر عاما على بدء مجىء كل حجاج البر "الفارسيين" عن طريق المشهد el. Meshed تحت الحراسة المشددة من أمير الشمَّر: - وهم يدفعون له إتاوة، (تصديقا للكلام) مقدارها مائة ريال، عن كل فرد من أفراد القافلة. - وقد شاهدت فرسا يقتادها أحد الأشخاص خلال المدينة، وكانت الفرس فى غاية الجمال: وكان الأمير محمد قد أرسل تلك الفرس (هديته المبكرة) مع الحج على سبيل الهدية لشريف مكة. كانت الساعة الثامنة عندما بدأت قافلة الحج فى التحرك؛ ولكن ركاب الإبل من أهل حائل، كانوا ما يزالون فى الطريق حتى يلحقوا بقافلة الإبل البطيئة عند منتصف النهار.

ومع تحسن طالعى عدت من جديد إلى بلدان آمنة ومسالمة، وفيها تركت خبرا عن ذلك الإيطالى الجوَّال الذى اسمه "فيرارى"، وكان ذلك فى قنصليته فى سوريا، وسألت عنه، ولكن بلا جدوى، فى إيطاليا: - أحسست أن ذلك من واجبى، نظرا للخطر الشديد الذى يتهدد رءوس أولئك الأجانب الذين يغامرون بالتواجد فى مكة، - التى سمعت من بعض المسلمين الثقات أنه يندر أن يمر موسم من مواسم الحج دون إعدام بعض الأشخاص باعتبارهم مسيحيين معتدين. كان هناك واحد من أفراد تلك القوافل يتحدث حديثا (صادقا) مع رفيق له من مسيحى دمشق (وهو واحد من معارفى المشهورين)، فى العام السابق لقيامى برحلتى، فقال: وإنهم شاهدوا شخصين غريبين جرى أخذهما من منى Mona عند نهاية الحج ، عندما ضبطوهما وهما يدونان أشياء فى كراساتهما. وعندما حققوا معهما اتضح أنهما "مسيحيان": وقد شهد إعدامهما، وهذا الأمر يحدث

فى سنوات كثيرة أو أن شئت فقل: فى معظم السنوات!!" وحكوماتنا المسيحية تعانى من ذلك التعصب الدينى منذ زمن طويل! لماذا لا يكون لتلك الحكومات ممثلين مقيمين للشرطة الدولية فى مكة؟ لماذا لم يحتلوا هذه المدينة باسم صحة الأمم، أو باسم الدين الإنسانى المشترك، ولأن أساس تجارة الرقيق موجود هناك؟ كان أحرى بالحكومات المسيحية، التى تسيطر على أية منطقة من المناطق الإسلامية، أن تأخذ فى حسبانها، أنها حتى ذلك الوقت، لن تستطيع أبدا الاستيلاء على هذه المناطق. وفى كل عام، تُداس فى مكة، كل الأسماء غير الإسلامية، وهم يقولون: إنَّ "بلد الرسول" لابد أن يظل بلا مساس، وأن أية قوة دنيوية لا يمكن أن تصل إليهم فى هذه المدينة. هذه البلدة هى "بيت الله"، (...)(*).

لم يدخل حائل أحد من الحجاج الغرباء طول فترة الراحة، - ولربما كان ذلك راجعا إلى خوف الحجاج من العرب. لم يدخل المدينة سوى بعض الدراويش البغداديين، وقد دخلوها طلباً لتناول الطعام فى إطار الكرم الشعبى أو العام؛ وقد رأيت إلى جوار أولئك الدراويش مجموعة من المغامرين المرحين، الذين كانوا يقبلون الدعوة على العشاء، على سبيل التجديد فى الجزيرة العربية. فى ذلك اليوم كانت كل أروقة المضيف تعج بالزائرين؛ فى ذلك اليوم تناولت العشاء عند الشفق، وعندما انتهيت من تناول العشاء ونهضت واقفا، اكتشفت أن حذائى الذى أهدانى حمود إياه، كان قد سرق. جرى تقديم الطعام اعتبارا من الساعة الرابعة حتى الساعة السادسة والنصف لعدد يتردد بين" ألفين وثلاثة آلاف" شخص؛ طعام الأمير هذا، كان عبارة عن أرز التمن المسلوق وعليه شىء من السمن.

من المؤلم أن يصبح المرء هدفا تشير إليه كل الأصابع ومن المؤلم أن يستطيع الإنسان المحافظة على رأى عادل فى مواجهة لا معقولية هذا العالم. لقد أحسست بذلك أثناء تجوالى فى الجزيرة العربية، على نحو أكبر من إحساسى بالمخاطر اليومية والمعاناة الجسدية الطويلة: ومع ذلك كان هناك شىء من العزاء فى الذكريات الحلوة؛ التى كانت تراودنى عن سخافة أولئك البدو الرحل. من ذلك مثلا، أنه وسط الجموع

(*) عبارة محذوفة . (الناشر)

الحـاشـدة فى تلك الأيام، والتى كـانت تنسـاب على المسـحـاب (الميدان العـام) كـان الكثيرون من البدو يجيئون إلىّ طلبا للحديث عن أوجاعهم؛ كان الغرباء ينادونى فى أى مكان أمـر عليه، وهـم أصـلا لا يعرفـون اسمى ويقـولون: "هو! أنت يا من تمشى هناك، أيها الحكيم!" بعض أخـر من أولئك الذين سبق لهم أن حصلوا منى على استـشـارة أمينة ومخلصة، كانوا يرحبون بى على الطريقة السامية قائلين: "سلَّم الله الرأس، كفاك الله الشر." وهذه العبارات، شأنها شأن علاماتهم المسجلة، تحدد نوعية القبائل التى ينتمى إليها أولئك البدو الرحل: هؤلاء الذين كانوا يحيونى بهذه الطريقة كانوا من أهل الشـمال على حد تفكيرى. من بينهم شـخص، قدمنى لرفيقه، قائلا: "أرى، أرَّى urraie هو hu هو hu بمعنى "أنتـبـه يا أنت! إنه هـو، هذا هـو النصـرانى؛ - شـيف Cheyf النصـرانى Nasrany ؟ (سـمـعت الرجل الآخر وهـو يقول هذه العبـارة وهى تخـرج من حلقه مشوية بجفاف الصحراء وقسوتها)" أجوُل ! agul ويش Weysh ينصره Yansu-rhu ؟ بمعنى، "كيف ينتصر ذلك الرجل، مـا الذى يعطيه النصـر؟" ظن الرجل البدوى المسكين عندما سمع هذه الكلمة، أنها تعنى "النصر" Nasr . وهذا هو بدوى مسكين من الرولة صاح عندما تلقى الدواء قائلا: "النقود ليس لديه منها شىء حتى يعطيه للحكيم، والله! ورجانى أن أرضى وأوافق على أخذ قميصه نظير النقود." ولو كنت قد وافقت على ذلك لخلع قميصه ومشى عاريا وليس عليه من لباس سوى عباءته (بشته) المفتوحة، وبذلك يستوى حاله مع أحـوال كثـير من الناس الذين يمشـون على هذا الحـال فى الصـحراء، وكأنهم مثل الهنود الذين لا يلبسون شيئا سوى ما يستر عورة الإنسان؛ وعندمـا سمحت له بالذهاب لحـال سبيله، غمـغم قائلا: جزاك Jizak الله ullah خيراً Kheyr ، ومضى الرجل لحـال سـبيله وهو يتـعـجب "إن كـانت الأشـيـاء التى أعطاه النصرانى إياها مجانا ستكون دواءًا مفيدا أم لا؟"

لم تعد بغداد تستـحوذ على اهتمامى لأن خيبر كانت شـغلى الشـاغل؛ هذا بالإضافة إلى أن مقامى فى حائل طال أكثر من اللازم. وبحلول المساء ذهبت إلى قهوة عبيد طلبا للتحدث مع حمود؛ كان حمود عندما دخلت عليه يركع فى بداية الصلاة، وجلست إلى جواره فى هدوء، إلى أن ينتهى من الصلاة. حمود، ولد عبيد، أومأ برأسه

بعد أن انتهى من الصلاة وسألنى قائلاً: " يا خليل ، هل أنت بحاجة إلى أى شيء، هل تريد شيئا على وجه السرعة؟" - "أنا لا أريد شيئا، الحمد لله." - "سوف أنتهى من الصلاة حالاً." وعندما عاد حمود إلى وضع الصلاة من جديد، قلت: 'لقد وجدت أن صحة الطفل فيصل بدأت تعود إليه، وتراودنى رغبة فى الرحيل، وهل سيوفدنى بالفعل إلى خيبر؟' وهنا رد علّى حمود "إن كنت تودذلك.' - "ولكن لماذا الذهاب إلى خيبر بالذات، يا خليل، مالذى فى خيبر؟ لا تذهب إلى خيبر، فقد تموت هناك بسبب الحمى؛ كما أنهم ليسوا من أصدقائنا، يا خليل، وأنا أخاف عليك من هذه الرحلة." ورددت عليه:" أننى بحاجة إلى المغامرة بالذهاب إلى خيبر، وسوف أرى آثار اليهود، مثلما رأيتها فى الحجر." - " حسن، سوف أدبر وسيلة لنقلك إلى هناك؛ ولكن الحمى هناك مهلكة، فلا تذهب إلى هناك، آخ يا خليل! أخشى أن تموت هناك." - طالما تجاوزت العويرض العظيمة، فأنا تراودنى رغبة قوية فى اكتشاف حرّة خيبر، فتلك قطعة بركانية أخرى من الجزيرة العربية، وقد بلغنى أن بدايات وادى الرماح موجودة فى خيبر، وأنها تقع فى الناحية الغربية من جبال الطويق، حيث يوجد المجرى المائى الجاف الذى يخص الشمال كله. هذا الوادى الكبير الذى ينزل هابطا من رءوس الحيات el. Hayat ومن الحويّات Howeyat ، يتجه صوب وادى الفرات عند مدينة الزبير ez-Zbeyer التى هى إحدى ضواحى البصرة، ويصل طول ذلك الوادى الملتوى إلى مايقرب من "خمسين مسيرة من مسيرات الإبل."

مد حمود ذراعه بعد ذلك، وطلب منى أن أفحص له النبض؛ كانت ضربات قلب حمود أسرع من ضربات قلب أى رجل آخر من الرجال الذين فحصتهم، فقد كان حمود رجلا بطلا قويا. والناس هنا عندما يمدون سواعدهم للحكيم يظنون أنه سوف يعرف كل مايتعلق بصحتهم: وعندما قلت إن النبض ليس منتظما أو صحيحا صاح فىَ الأمير بالتزام السكوت." بالأمس استدعى معالج فارسى، كان بصحبة الحج، كى يقيس أو يفحص نبض الأمير. قال الفارسى"ألا تحس بألم، يا سيدى، فى الركبة اليسار؟' ورد عليه الأمير،' إيْ أحس فيها فعلا بألم والله!' - وغاب عن الرجال معرفة ذلك!"

كانت قافلة الحج قد خلفت وراءها بعض المرضى فى حائل: كان من بينهم تاجر بغدادى ميسور الحال، عاودته آلامه القديمة أثناء المسير، وكان من بين المرضى أيضا جمّال تورمت قدمه والتهبت، كما كان من بين المرضى أيضا بعضا من الدراويش المساكين. وفى صبيحة اليوم التالى، ذهب كل أولئك ليضعوا أنفسهم أمام الأمير فى مجلسه، وصاح الدراويش بأصوات تبعث على الحزن بلغة عربية ركيكة قائلين : جنابك !Janabak . كانت اطراءاتهم التى تشبه اطراءات الأوغاد، وسلوكياتهم الخالية من الإحساس، وكلامهم الشمالى غير الدقيق، وكذلك أصواتهم التى توحى بالغلظة وعدم التسامح، كل ذلك كان يتعارض أو يتناقض تماما مع طلاقة اللسان والصراحة والمهارة التى يتسم بها كلام أفقر فقراء الجزيرة العربية. وهنا أشار الأمير إليهم إشارة توحى بالكرم، وصرح لهم بتناول الطعام فى المضيف. كما خصصوا للتاجر مخزنا أيضا؛ وتقرر أن يمضى هذين الشهرين أو الثلاثة فى حائل وعلى ما يرام، فلم يكن يفعل شيئا سوى الجلوس فى الشمس والثرثرة والتجوال فى السوق، وذلك إلى أن يحين موعد عودته إلى بلده. بعد ذلك قمت بإدخال شاب ضرير من الأعراب؛ ومد ذلك الضرير يديه الضعيفتين ناحية المقعد الذى يجلس عليه الأمير، وصاح قائلا: يا Ya طويل Tawil العمر! .Ummr el يا Ya ولد Weled عبد الله! Abdullah . وهنا نادى الأمير شخصا كان يقف بالقرب من خزانة الملابس، واقتيد ذلك الضرير إلى خارج المجلس ليتسلم غيارا من الملابس.

التقيت إمبارك بعد ذلك. "(قال) هل تود الذهاب إلى خيبر؟ لدينا هنا بعض العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) الذين يمكن أن يوصلونك إلى هناك." وعندما علمت أن منزل هؤلاء العَنَزة فى خرّام Kharram وأنهم لايستطيعون سوى نقلى إلى خيبر وبالذات إلى مسهل Misshel ، وأنهم سوف يرحلون على وجه السرعة: قلت إننى لا يمكن أن استعد خلال وقت قصير لرحلة طويلة من هذا القبيل، وأنه يتعين علّى الحصول على الديون التى على المرضى باعتبارها ثمنا للدواء. "سوف نجمع لك تلك الديون؛ ولكننا لا نتحمل بقاءك فى بلدنا فترة أطول من ذلك: وإذا ما أردت الذهاب إلى خيبر، فسوف نرسلك إلى خيبر أو إلى القصيم." - " إذا كنتم سترسلونى إلى خيبر، فأرجو أن تمهلونى يوما أو يومين قبل القيام بالرحلة، حتى أتمكن من الاستعداد لها."

في الصباح قبل الأخير، كنت أشرب القهوة مع أولئك الذين جاءوا من الرياض، وفجأة دخل علينا شاب يلهث، لقد جاء ذلك الشخص، على حد قوله، من عند إمبارك كي يطلب منى الذهاب إليه . وعندما التقيت إمبارك، قال: "لقد عثرنا على واحد من الحطيم سيقوم بتوصيلك إلى خيبر ." – ومتى سيرحلون؟ – "صباح باكر أو بعد باكر." ولكنه أرسل إليّ ليقول لى: إنه أعطاهم عربون ويتعين عليّ أن ألحق بهم على الفور." – "ولكن لماذا خدعتنى بكلمه غداً؟" – " أحزم أشياءك واركب راحلتك." – "ولكنك سوف ترسلنى مع الحطيمى!" – " نعم، نعم، أعطنى مفتاح المخزن وعجل، إذ يتعين عليك أن تركب راحلتك على الفور." – "هل يعنى ذلك دفعى إلى الصحراء كى أتوه فيها بصراحة؟" – " أبدا، لن يحدث لك أى شيء." – "حسن، أرجو أن تسمح لى بمقابلة حمود." عندئذ جاء أحد العبيد قادما من عند حمود، وفى يده أربعة ريالات، التى قال إن "عمه" قد أرسلها إليّ. وبعدها جاء زيد، البواب المغربى الذى يحرس بوابة القصر؛ وقد سبق لى أن قطعت معه شوطا طيبا عن طريق إهداء الأدوية إليه، ولكنه تحول الآن إلى وغد بحق،" مقاومتك لإمبارك تعنى أنك لا تفهم؛ والسبب فى ذلك أن إمبارك هو الريس ويركب خلفه خمسمائة رجل آخرين."

تأخرت بعض الشيء كى أسلم مفتاح المخزن المصنوع من الخشب، تحسبا لانكسار البارومتر إذا ماراحوا يفتشون أشيائى أو أن يأخذوا مسدسى وهم يعبثون بأشيائى ؛ كما كنت أتشكك أيضا فيما إذا كان رئيس الحرس (الذى كان يضع يده على حد سيفه فى كل لحظة) مكلف بمهمة سرية تتمثل فى قتل النصرانى وهو فى داخل السكن. وها هم عبيد إمبارك يتحوطون حولى، البعض منهم يشدنى من ملابسى، والبعض الآخر يدفعونى إلى الأمام؛ كانوا يدفعونى بكل قوة إلى داخل المخزن. – "هل المخزن ملكك أم ملكنا، يا خليل؟" – " ولكن إمبارك لم يعد يثق بك: بلغ كلامى هذا للأمير،' أنا قادم من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) وما عليكم إلا أن تعيدونى ثانية إليها.' " وهنا تفل السياف العربى فى وجهى قائلا 'فوه' Fugh . "لعنتك السماء يا من لا تخجل وأنت تتفل فى وجه واحد من البشر." – " يا خليل، لقد فعلت ذلك لأنك قلت 'أنا لن أثق بك'." لقد شاهدت البواب المغربى، وهو ذاهب ليفتح باب مخزنى عنوة،

وذلك عن طريق هدم الإطار الطينى المحيط بالقفل الخشبى. وهنا راح العبيد من جديد يشدوننى هنا وهناك، وتساهلت وتركت لهم الثوب العربى الخارجى، ووقفت أمام هؤلاء الجبناء الأشقياء وليس فوق جسدى سوى قميصى الداخلى." يا للعار! قلت لهم: وأنت يا إمبارك دخيلك،' دافع عنى واحمنى من هذه الصلافة والبذاءة." وعندما سمع إمبارك كلمة 'دخيلك' خطف مشعابا من واحد منهم كان يقف بالقرب منه، وراح يضربهم ليبعدهم عنى، وحال بينى وبينهم.

تركونى وحدى فى المخزن وهنا قمت، وعلى وجه السرعة، بترتيب أشيائى واخفيت أسلحتى. وهنا عرَّج علّى فهد، وهو فى طريقه إلى قهوة عبيد: قلت له: "حمود لم يخرج بعد، ولكنه سيأتى بعد فترة زمنية قصيرة." - إمبارك: "والله، أنا أقول إن الأمير سوف يرسل على الفور فى طلب قطع رأسك!" ماجد (الذى مر بنا فى ذات الوقت وهو أيضا فى طريقه إلى قهوة عبيد): إخ! يا إمبارك، هل سيفعل الأمير ذلك بالفعل ؟" ثم ابتسم الصبى ابتسامة تنم عن فضول طفولى دنئ فى مواجهة منظر من مناظر الغطرسة والكبر. وبينما كنت أمشى مع فهد، تخلف إمبارك ليبتعد عنا، ثم مر من خلال بوابة القصر، وربما كان ذاهبا إلى الأمير. - تنهد فهد، عندما أصبحنا خلف الباب، وقال: "يا خليل، أشكر الله، قد لا تمر الأمور على خير، ولكن حمود سوف يصل هنا على وجه السرعة." لم يمض وقت طويل، حتى جاءونى ليقولوا لى 'الأمير يطلب منى الحضور إليه ' قلت: لا تخدعونى، إن إمبارك هو الذى يطرق بصورة مستمرة." فهد: "لا، أذهب يا خليل، إنه الأمير الذى يطلبك:"

عندما خرجت من القهوة وجدت أن المنادى كان إمبارك ، الذى راح بتهديداته وتحذيراته المعهودة يستحثنى على ركوب راحلتى على وجه السرعة." رددت عليه، سوف التقى حمود قبل كل شىء:" وتركنى إمبارك بناء على ذلك. وأغلق الباب خلفى، وعدت إلى المخزن، واطمأننت أن عفشى كان على ما يرام؛ ومر علىّ فهد مرة ثانية. وبعد فترة وجيزة دخل حمود، وحيانى ثم أمسكنى من يدى. تساءلت، 'هل تم ذلك بناء على أمر من الأمير ؟' حمود" والله، يا خليل، أنا لا أستطيع أن أفعل أى شىء مع الأمير؛

هو hu يحكم Yahkam علينا aleyna بمعنى أن حكمه يسرى علينا جميعا." - "بعض أشيائى، وأشياء أخرى، جرى إحضارها إلى هنا." - " هاً! العيال أخذوها من المخزن، وسوف نعيد هذه الأشياء مرة ثانية إلى مخزنك." وعندما تكلمت عن حادث سرقة رجله الذى يدعى عليا - كان قد انضم بالفعل إلى قافلة الحج - تعجب حمود قائلا "قطع الله أنفاسه!" - "لو حاول تحسين صورة ذلك اللص لما كان عربيا على الإطلاق." ما الذى كنت تقصده بالنقود التى أرسلتها لى مؤخرا؟" - " هذا كرمى، يا خليل، فلماذا ترفضه؟" - " أهذا ثمن الدواء، وأتعاب الشهر الذى راعيت خلاله طفلك، الذى عادت إليه صحته حاليا؟" - "لقد أرسلت لك النقود مقابل ذلك، ونحن لدينا كمية كبيرة من حبوب الكنين؛ هل تشترى منى حفنة لقاء ريالين فقط؟" كان الرجل يغتسل استعدادا لصلاة الظهر، وبينما جلس الرجل القوى للتحدث معى تأخر الوقت." هناك شيء ياحمود." - " ما هو ذلك الشى يا خليل؟" ثم بدى عليه الفرح والسرور. "ساعدنى على الخروج من هذه الورطة، بحق العيش والملح الذى بيننا." - "وما الذى يمكن أن أفعله؟ إن محمداً يحكم علينا جميعا." - " حسن، تكلم مع إمبارك بأن لا يفعل شيئا لحين حلول موعد مجلس المساء، حيث سأتكلم مع الأمير." - " سوف أقول له ذلك،" ثم ذهب حمود للمسجد.

التقيت الأمير نفسه فى المسحاب (الميدان العام) بعد الصلاة؛ وكمال يقال، فإن الأمير يمشى ومعه جماعة من الشبان الأراذل المتشددين، كما يسير معه أيضا عشرة من سيّافيه. - كنت أحس، كلما التقيت الأمير مصادفة هو وصحبته فى الأيام الأخيرة، فى شوارع حائل أنه كان يرد علىّ التحية بنظرة كانت تثير فىَّ الشك والقلق. وعندما التقيته، أقبل علىّ بنظرته المعتادة، وهنا قلت له بلا تردد"أروح" Aruh بمعنى" أنا سأرحل". ورد على الأمير قائلا: "روح" Ruh . "هل تسمح لى بالمجيئ إليك للحديث معك؟" - "مشغول!" Meshghrul (*) .

(*) نطق دوتى الكلمة على هذا النحو ، نظراً لتعذر نطق الإنجليز للتتابع الصوتى الذى يتكون من صوت "الغين" متبوع بحركة طويلة . (المترجم)

وعند انعقاد مجلس المساء، تقدمت من خلال الجالسين واقتربت من الأمير، الذى جلس وهو يحاول الظهور بمظهر الشجاعة أمام شعبه؛ كان الأمير يتحدث فى ذلك الوقت مع شيخ كبير من شيوخ البدو، الذى كان يجلس إلى جواره. وهنا وجّه محمد بن الرشيد نظره إلىّ، ومبلغ علمى أنه كان مستاءًا كما كان محياه يوحى بالغضب، وهذا يعد فألا سيئا عند العرب."(قال) ماذا عندك؟" - "أنا على وشك الرحيل، ولكنى تمنيت أن يكون رحيلى بعلم وبتأكيد منك. لقد أساءوا معاملتى اليوم فى هذا المكان. أساءوا معاملتى على نحو أثار فىّ الخوف. لقد راح عبيدك يجرّوننى هنا وهناك، ووصل الأمر إلى حد أنهم خلعوا عنى ملابسى؛ وكان ذلك بتحريض من إمبارك، الموجود هنا: فقد هددنى هو الآخر، ووصل به الحال إلى أن يبصق فى وجهى." وهنا سأل الأمير، بصوت منخفض عن إمبارك "ماذا فعل؟"

ورد إمبارك ملتمسا لنفسه العذر. وأردفت قائلا، "وهو يضطرنى الآن إلى الرحيل بصحبة ذلك الرجل الحطيمى؛ وأنا أتوقع حدوث مكروه لى." " لا (قالها الأمير وهو يضرب صدره بيده)، لا تخش من أى شىء أو تخافه؛ ولكننا سوف نسهر ونعمل على سلامتك، كما سنعطيك جواز سفر،" - وهنا قال الأمير محمد بن الرشيد، لسكرتيره نصر، الذى كان يجلس عند قدمى الأمير - "أكتب له وثيقة بسلامة السلوك والتصرف."

قلت "لقد أحضرت لك من بلدى تلسكوبا ممتازا." وثمنْ ذلك التلسكوب يتراوح بين ثلاثه وأربعة جنيهات؛ وخطر ببالى 'أن ابن الرشيد إذا ما قبل هديتى، فسوف أتمكن من أن أطلب منه جملا'. ولكنه عندما قال: "لدينا الكثير من التلسكوبات ولسنا بحاجة إليها، رددت على الأمير بكلام صحراوى صحيح قائلا: ويش Weysh عاد aad ، بمعنى' يا للغرابة!' وهنا تراجع محمد بن الرشيد منكمشا فى مجلسه، كما لو كنت قد أهنت كبرياءه أمام الناس؛ ولكنه بعدأن استعاد رباطة جأشه، قال، بصوت ودى ونظرات حانية، "اجلس." محمد بن الرشيد من النوع الجواد الكريم، ولربما ذكره الغريب بالأحوال السيئة التى مر بها. وبعد أن انتهى نصر من كتابته، على ورقة بيضاء مربعة الشكل، تسلمها للأمير الذى ختمها بخاتمه النحاس الأحمر بعد أن مهرها ووقع عليها.

سألت نصرا، "اقرأ عليّ المكتوب فى هذه الورقة." وقرأ على، "لكل من تصل هذه الورقة إلى يديه، ولكل من يخضع لحكم ابن الرشيد يجب أن يعلم الجميع أن الأمير يرغب فى ألاّ يُعارض yaarud عليّ aley أحد بمعنى 'يجب أن لا يسيئ' أى أحد من هؤلاء الناس إلى ذلك النصراني." ويقف ابن الرشيد فجأة، ويقف المجلس معه أيضا ثم يتفرق الناس. سألت، أثناء انصراف الأمير، "متى سأرحل عن هنا؟ " - " عندما تشاء وكما يحلولك ." - " أأرحل غداً ؟" - " لا، اليوم." كان الأمير قد أعطانى ظهره، وبدأ يتجاوز المسحاب (الميدان العام).

"عجل" يصيح إمبارك: ولكنه عندما علم بعدم تناولى الإفطار اقتادنى إلى القصر، حيث المضُيف، ثم بعد ذلك إلى غرفة خلف المضيف حيث يوجد المطبخ العام، ليسأل الطباخين عن الطعام الجاهز عندهم. وهنا وجدت الجميع يرحبون بى، وهنا قدم لى مفرّج شيئا من التمر، إضافة إلى شيء من الدقيق والسمن كى استعملها على الطريق إلى خيبر، وتلك هى المئونة المعتادة التى تقدم من عند الأمير، ولكنى رفضت قبول تلك المئونة. هذا المطبخ عبارة عن صالة متواضعة، أرضيتها من الطين، ويوجد فيها بركة ماء ومجرى لتوصيل الماء. ويجرى سلق الأرز هو والشعير فى أربعة أو خمسة أوانٍ من النحاس الأحمر: كما أن فى المطبخ أيضا ثلاثة أوانٍ أخرى من النحاس الأحمر تستعمل فى سلق اللحم فى الأيام التى يوزع فيها تتسع للحم جمل بكامله. يالبساطة مطبخ القصر هذا فى الجزيرة العربية البدوية، البلد الذى ينظر فيه إلى غير الجوعانين على إنهم من أصحاب الولائم والعزائم! كان خدم المطبخ عبارة عن رجل واحد ضعيف، ربما كان من الخدم أو العبيد، والذى كان من بين المرضى الذين كانوا يترددون عليّ، وتحت رئاسته أربع أو خمس من النساء؛ هذا بالإضافة إلى بعض الصِّبية، الذين يحملون صوانى الطعام المعدنية لتقديم الطعام أثناء عشاء الضيوف. - وعندما رجعت إلى المسحاب (الميدان العام) حضر إلى واحد من البدو ليحمل أمتعتى: ومع ذلك ترجّى ذلك البدوى إمبارك أن يسترد الريال العربون ويتركه يذهب لحال سبيله. وكان الأمير قد أمر بدفع أربعة ريالات أجرا لمن يقوم بتلك الرحلة"، سواء سافرت أم لم أسافر، وقبلت ذلك المبلغ فى ضوء ذلك الذى سُرق من المخزن الذى كنت أقيم فيه؛ كما قبلت أيضا الريالات الأربع التى قدمها لى حمود ثمنا للدواء.

" وبينما كنت أسير مع إمبارك قاصدا السوق، الذى ستبدأ منه الرحلة قلت له: أقسم يا إمبارك أنك لن ترسلنى إلى الموت." - "لا، والله، وأنا على يقين من أنك لن يحدث لك مكروه." - "وهل سيواصل الأعراب التزامهم بأوامر بن الرشيد بعد أن نقطع رحلتين من الطريق؟" - " أوامرنا تسرى على أولئك الأعراب! وهنا قال إمبارك للبدو الرحل: يجب أن توصلوه إلى قاسم Kasim بن ibn باراك Barak (واحد من كبار شيوخ منطقة حطيم الوسطى، كانت خيامه مضروبة على بعد سبعين ميلا، فى اتجاه الجنوب)، وسوف يقوم ابن باراك بتوصيله إلى خيبر." - وهنا خرج بائع الأدوية، الذى هو من أهل المدينة (المنورة)، وهو أيضا رجل طيب من أهل الحجاز، خرج من دكانه وتقدم نحوى ليودعنى ويتمنى لى سلامة الوصول، "قال الرجل: ثق أنه ليس فى الأمر أى شكل من أشكال الغدر أو الخيانة، ولكن يجب أن لا يغيب عن بالك أن الناس (فى كل من حائل ونجد) هم من البدو." - "(قال لى الرجل البدوى) يا أنت عجّل وهيا بنا نسارع إلى الخروج من حائل، لا تتوقف، ولا تتراجع، وإلا قتلوك."

ونظرا لأنى لا أستطيع ركوب الجمل قبل أن يبرك، فقد قام ذلك البدوى بركوب الجمل وهو واقف، وهنا صاح ذلك البدوى السعيد قائلا: "ناولنى يدك!" ليساعدنى على الركوب. وهذا هو الشاب إبراهيم، أحد رجال الأمير، والذى يقع دكانه عند طرف المدينة، وسبق لى التعامل معه - ها هو يخرج من دكانه ونحن نمر عليه ليودعنى، ويمشى معى شيئا من الطريق. وراح إبراهيم يتكلم بكل الجد إلى البدو طالبا منهم الاهتمام بى، وحذرهم أننى إذا ماحدث لى مكروه، فإن الأمير سوف يقطع أعناقهم." تعال وخذ من ماء السماء، وهنا تناولت قربتى، وأعطيتها لواحد من الرجال، ورجوته أن يذهب ويملأها بالماء." قال الرجل: أنا أملأ قربة الكافر! لا، أنزل بنفسك، يا نصراوى Nasrawy واملأها أنت بنفسك." وهنا قام إبراهيم بنفسه بملئ القربة، وعلق القربة فى مقدمة السرج (عدة) الجمل. ومضينا فى طريقنا وسرعان ماغربت الشمس. وكان رفاقى فى تلك الرحلة ثلاثة من الرجال- صاحب الجمل المسكين، الذى أركبه، وهو رجل رابط الجأش مبتسم الوجه، ومعه جاره المتشدد الذى كان يطلق علىّ دوما اسم النصراوى (وليس نصرانى Nasrany)، وكان معنا شخص آخر من الحطيم، وهو رجل متزمت

شديد التمسك برأيه، ولا يقول سوى الحق وبطريقة سافرة ومباشرة. كانت فترة الشفق قصيرة جدًا إلى حد أن الليل داهمنا وداهم مسيرتنا بصورة مفاجئة، وأطبق علينا كل من الصمت والوحدة بعد جلبة المدينة وضوضائها. وبعد أن أجبت على كل أسئلة رفاقى البدو ملتزما فى ذلك بآداب الصحراء، "صاحوا قائلين: أوه! لماذا يطارده أهل حائل؟ والله، ، إن أهل حائل هم النصارى بحق وحقيقة! " وواصلنا مسيرنا فى الطريق المظلم مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة إلى أن أصبحنا على مقربة من قفار (*) Gofar ؛ وعندها نزلنا عن مطايانا لتناول قسط من الراحة فى الصحراء.

مع طلوع نور الصباح، اتجهنا صوب قصر يقع خارج الواحة، كان عبارة عن غرفة أو غرفتين مبنيتين من الطوب الأحمر، وفى ذلك القصر كانت تعيش أسرة فقيرة من معارف المرافقين لى. كنا فى أواخر شهر نوفمبر (الحادى والعشرين من الشهر على حد علمى)؛ كان الليل باردًا وبخاصة أننا كنا على ارتفاع يقدر بحوالى ٤٠٠٠ قدم. وضع ساكنوا ذلك القصر التمر أمامنا وصلحوا لنا شيئا من القهوة؛ هؤلاء السكان لم يكونوا من البدو الرحل أو مستوطنين، ولكنهم كانوا من البدو المستقرين. وبعد أن ضعف هؤلاء الناس وتحطموا بسبب حياة البدو المترحلين، ومن باب تحاشيهم لمصائب الصحراء، تحول هؤلاء البدو إلى سكان يعيشون فى بيوت من اللبن، وفى واحدة من قرى الجبل، كما تحولوا أيضا إلى سيَّادين، أو إن شئت فقل: تجارا للممنوعات مع الأعراب. راح هؤلاء «السيَّادين» أو تجار الممنوعات يشترون التمور والقمح عند الحصاد، ثم يبيعون هذه المحاصيل فى فترات لاحقة «للحبوت»، أو إن شئت فقل: للجماعات القبلية التى تأتى للتسوق. وعندما يدخل فصل الربيع يتنازل هؤلاء السيَّادون عن البيوت التى يعيشون فيها ، ويحملون تجارتهم وسلعهم على الحمير، ويذهبون للاتجار مع الأعراب. هذا يعنى أن أولئك السيادين يتجولون طوال أشهر عدة، إلى أن ينتهوا من بيع حمولاتهم؛ وعندما يدخل الصيف الحار يعودون إلى الواحة ومعهم مكاسبهم المتواضعة من السمن ومن النقود . اشترى رفاقى من أولئك السيادين قسما

(*) تعد قفار من أهم بلدان جبل شمر ، وتقع إلى جنوب حائل بما يقرب من خمسة عشر كيلومترًا . (المترجم)

من احتياجاتهم الشتوية من التمر، وذلك بسعر أقل من السعر السائد فى حائل. هؤلاء الناس، الذين لم يرثوا شيئا من هذه الدنيا، كانوا يتحدثون معى حديثا مفعما بالحنان الإنسانى؛ كان كل كلامهم خلوا من الإشارة إلى أى شكل من أشكال التعصب فى الإسلام. نساء هؤلاء الناس، بادرن من تلقاء أنفسهن، بأخذ عباءتى (بشتى) من فوق كتفى وأصلحنه بعد أن تمزق فى مساء اليوم السابق فى حائل ؛ كما قام رب البيت بوضع مشعابه فى يدى، وكان ذلك المشعاب من خشب اللوز. وبينما كنت أجلس معهم، قام رفاقى بتحقيق مآربهم الخاصة. وبعد فترة وجيزة دخل علينا جزار قادما من حائل. (كنت قد اشتريت من ذلك القصاب، فى مناسبة سابقة، ثلاثة أرطال من لحم الضأن، نظير أربعة بنسات). وراح ذلك القصاب يمتدح النصرانى بصوت عالٍ أمام هذه الجماعة من الناس.

لم يكتمل استعداد الرحال إلا بعد الظهر بساعة واحدة؛ وعندها حمّلوا التمر الذى اشتروه ورحنا نستأنف المسير. وفى المنطقة، وراء قفار، سرنا عبر سهل من صخور الجرانيت؛ كان جبل أجا Ajja يوازى الطريق الذى كنا نسير فيه فى الناحية اليمنى. وعند الساعة الخامسة توقفنا وسلقت لهم بعض الأرز (التمن) الذى سبق أن اشتريته، ولكن سرعان ما غربت الشمس فجأة، وهنا عجل الرجال وسارعوا إلى أداء صلاة المغرب، قدر استطاعتهم، وبطونهم تصرخ من الجوع؛ ومع ذلك انهوا الصلاة، وراحوا يستعيدون مرحهم. – مرت علينا جماعة من جُمّاع الحطب جاءت من حائل. كانت رأس سميراء Sumra حائل المزدوجة ما تزال تطالعنا على بعد حوالى خمسة وعشرين ميلا. وبعد أن ركبنا مطايانا واستأنفنا مسيرنا، مررنا فى الظلام بجدران ونخيل بلدة القصر el. Kasr ، التى تبعد مسافة ثلاثة عشر ميلا عن قفار، وتقع فى أحضان صخور جبل أجا ؛ وبعد مسير ساعة من تلك البلدة نزلنا عن مطايانا طلبا للنوم.

شاهدت، فى الصباح، أطراف سلاسل جبل أجا الجرانيتية (الصورة رقم١) وهى تنعكس عليها ظلال السحب، بالقرب من بقايا البازلت الذى انصهر فى الزمن القديم؛ كما شاهدت أيضا قباباً سوداء فوق قمة الجبل وتشبه البراكين. وبعد ذلك بساعتين

وصلنا منطقة من الجرانيت يطلقون عليها اسم المختلف el. Mukhtelif هذا هو جبل أجا Ajja عن يميننا على بعد مسافة قصيرة. فى هذه المنطقة التقينا شابا من بلدة القصر راكبا ناقته ويبحث عن جمل شارد من الجمال التى تستعمل فى جلب المياه من الآبار. كانت حبارى الصخور فى كل مكان تصدح وتطير فى كل أنحاء هذا القسم الجرانيتى المرتفع من البلاد، والذى تفوح منه رائحة الغابة الجنوبية الطيبة الرائحة.

عند الساعة الرابعة مررنا بديرة البديعة Biddia البعيدة، فى وسط السهل، والتى تطوقها جبال منخفضة من الجرانيت والبازلت. هذه المستوطنة الصغيرة، التى تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب غرب بلدة القصير، أنشأها منذ زمن ليس ببعيد أولئك الذين ضاقت عليهم أرض مجوج؛ هذه المستوطنة لا تشتمل إلا على بئرين وأربعة عوائل. وعندما سألت المرافقين لى عن هذا المكان، انفجروا فى السعال والضحك، وأشاروا إلى أن تلك المنطقة لا يكثر فيها سوى السعال والروماتيزم ورشح الأنف أو العين. - ومرت علينا جماعة من الشمر كانوا يركبون الإبل. كانت تلك الجماعة قد وصلتها أخبار خليل، وتكلموا معنا بطريقة ودية، وأخبرونا أن أمامنا، وعلى بعد مسافة قصيرة، منزلا من منازل أعرابهم (حيث يمكن لنا تناول العشاء والنوم). وسمعنا من هؤلاء الشمر هذه الأخبار الطيبة عن الصحراء التى سنمر خلالها، وسمعنا منهم أيضا أن،" الماشية الصغيرة جرى فطامها، وأن الأعراب لديهم المزيد من اللبن؛ وأنهم يسكبون الحليب (لكل من يريد أن يشربه) إلى أن يحين أذان الظهر!" وصاح واحد منهم وهو يقول لى: " ولكن لماذا تسافر بصحبة هؤلاء الكلاب؟" - أو بالأحرى، بصحبة هؤلاء الحطيم."

كان هناك ثعبان ضخم أبيض، أو إن شئت فقل: حنشا أبيضا، يرقد على طريق الممر: كان صاحب ذلك الحنش، وهو رجل شرس، قد وضعه من باب الحقد على النصرانى والكراهية له، إلى حد أنى عندما رأيت هذه الدودة، رحت أبعد عنها الجمل الذى كان على وشك أن يدوس عليها؛ وهنا استعمل الرجل حربته وقضى بها على ذلك الثعبان السام. وبعد اختفاء ضوء النار رأح المرافقون لى يتسلقون كل الأماكن المرتفعة

بحثا عن خيام الأعراب السوداء. وغربت الشمس وواصلنا السير أثناء الليل، على أمل أن تطالعنا نيران خيام البدو. وبعد مسير دام ثلاث ساعات توقفنا، ونحن نستشعر الإرهاق والتعب وبلا عشاء، كى ننال قسطا من النوم فى الصحراء. كان الليل باردا ولم يطرق النوم جفوننا؛ كان ارتفاع الأرض فى هذه المنطقة حوالى ٤٠٠٠ قدم.

حملنا أمتعتنا وبدأنا الرحيل قبل طلوع الفجر. وعقب طلوع النهار مباشرة آلتقينا بعضا من الشمر وهم يرحلون قاصدين منزلا آخرا. قطعان الشمر ضخمة فى هذه الديرة، وهذه القطعان كلها من الأغنام، كما أن إبلهم تصل إلى أعداد كبيرة وتتجول فى كل أنحاء السهل. حضر إلينا اثنان من الرعاة كى يقفا منا على آخر الأخبار: "صاحا متسائلين، ما هى أخبار القرى؟" – وعندما عرفا، من أنا، قال أحدهما الذى كان يمسك حربة فى يده بعد أن رفعها لصاحبه: أرجع أنت إلى الخلف، وسوف أقتله أنا. "لا، لا تفعل ذلك، بالله عليك ! (صاح أولئك الذين كانوا يرافقوننى متعجبين)، نظرا لأن هذا (الرجل) فى حماية وأمن بن الرشيد، ونحن يتعين علينا توصيله، على رقابنا، إلى قاسم Ch(k)asim بن باراك Barak . "هؤلاء البدو من الحطيم لايبدون أيه مقاومة فى مواجهة الشمر الذين لهم اليد الطولى عليهم؛ وسفرى بصحبة أولئك الحطيم كان يشبه تماما سفرى لوحدى أو بمفردى، اللهم باستثناء أنهم كانوا مثل العيون لى فى الصحراء ليس إلا.

قطعت شوطا كبيرا سيرا على قدمى طوال المسيرة البطيئة التى كانت الإبل محملة فيها بأحمال أكبر من طاقتها؛ وأثناء هذه المسيرة اشتكى ذلك المترمت الذى نادانى باسم نصراوى، نصراوى !من عجزه عن مواصلة السير ماشيا على قدميه، وألح على حتمية أن يركب فوق الجمل الذى استأجرته أنا. وبالرغم من ضيقى ذرعا بما يقول ، لم أقو على معارضته ، مخافة أن يتحولوا إلى أعداء لى إذا ما استعادوا ذكرياتهم عن حائل. شاهدت رمل الجبال الذى نقلته الريح وهو مكدس على شكل كثبان رملية على جوانب الجبل وكانت تطوقنا من كل جانب؛ كانت جوانب ذلك الجبل من الجرانيت مع وجود بعض صخور البازلت. – ووصلنا بطريقة مفاجئة وغير متوقعة إلى منزل من

منازل الشّمر. وهنا همّ شيخ ذلك المنْزل خارجا من خيمته للقائنا؛ هذا الشيخ كانت تغلب عليه (الملامح البرية غير المتحضرة، ولم يكن يضع غترة على رأسه، اللهم باستثناء حبل الرأس المصنوع من الصوف (العقال) والذى يطلق الشمر عليه اسم المعصوب Maasub . طلب منى أن أعطيه دخاناً (تبغاً)؛ ولكنى أبلغتهم أنى ليس معى أى شىء من التبغ، نظرا لأن كيس التبغ هو والزناد كانا قد سقطا منى وأنا فوق الجمل، وأنا على مقربة من هذا المنزل.، "(صاح الشيخ) أعطنا تبغاً، وأنزل لتشرب معنا القهوة، وإذا جاءت إجابتك بالنفى، فسوف نُنَوِّخ nokh (نُبرِّك) جملك ونأخذ منك الدخان بالقوة." - "(قلت) كيف ذلك! ألا تؤمنون بالله! لقد حلفت لكم بالله أنى ليس معى أى شىء من التبغ، وأنه لعيب منك (وعار عليك) أيها الرجل أن تعنف غريبا، وهل تفعل كل ذلك من أجل ملئ غليون بالتبغ، ليس إلا." ثم تركنى أمضى لحال سبيلى، ولكنهم اضطرونى إلى الحلف بأنى ليس معى شيئا من التبغ.

أثناء مسيرنا فى فترة العصر، وعندما وصلنا إلى بلاد الحطيم التقينا واحداً من الشيوخ راكبا ناقته: كان ذلك الشيخ يستطلع منطقة المراعى التى فى ذلك الجزء من الصحراء. تعرف المرافقون لى على ذلك الرجل الذى قال: إنه سوف ينقلنى هو بنفسه إلى خيبر نظير توما (مقابل) يحصل عليه. كان ذلك الرجل واحداً من أولئك الأشخاص، الذين يتعين علىّ لقائهم على وجه السرعة، كان اسم ذلك الرجل عيادة Eyada بن ibn عجوين Ajjueyn ، وهو شيخ من شيوخ الحطيم. وهنا أشار على المرافقون لى بالذهاب معه: 'إنه رجل محترم، على حد قولهم، فضلا عن كونه رجلا يمكننى أن أغامر بالذهاب معه فى أمن وسلام.' - تحركات العرب الأولى تكون صادرة من قلوبهم، وهى غالبا ما تكون أفضل ماعندهم، ولكنها تكون الأقل أهمية، وبالتالى فإن قبول مثل هذه التحركات تتطلب المزيد من اليقظة والحرص؛ ولكنى دار بخلدى فى ذلك الوقت كلام الأمير، - أننى يتحتم علىّ الذهاب إلى قاسم بن باراك شيخ بنى راشد 'الذى سيقوم بتوصيلى إلى خيبر،' وأن منْزل قاسم لم يعد يبعد عنا كثيرا. هذا القاسم Kasim أو شاصيم Chasim أو إن شئت فقل: هذا الجاسيم Jasim ، نظرا لأن هذا الاسم ينطق بصور مختلفة، وذلك اعتمادا على القبيلة التى تنطق هذا الاسم، قال عنه أولئك الذين كانوا يرافقونى، إنه شيخ كبير، "وهو شيخ شبيه بابن الرشيد" فى بلاده.

غربت الشمس ونحن نقترب من أولى خيام الحطيم، وعندها نزل المرافقون لى عن مطاياهم وأنزلوا أحمالها عنها. بلغنا أن بيت جاسم كان مقاماً عند مقدمة صخرة من الصخور، وهنا ركبت جملى من جديد وبصحبتى رفيقى صالح ،على جمله الخالى من الحمولة، على أمل الوصول الى بيت جاسم. وأثناء مسيرنا قال صالح:" إذا ما وصلنا إلى هناك يجب أن ننزل عن الجمل بسرعة وخفة؛ حتى يأخذ الأعراب عنك فكرة مفادها أنك متعود على حياة الصحراء." كانت خيمة جاسم، لا تعدو أن تكون خيمة صغيرة وممزقة؛ شاهدت فرسه مربوطة إلى جوار الخيمة، ولم يكن داخل الخيمة سوى الحريم. خرجت إحداهن لإحضار الشيخ، وسارع صالح بوضع جوالاتى على الأرض: وركب الجمل وبدون استئذان كان على وشك أن يرحل؛ ولكنى أمسكت جمله من لحيته وجعلته يبرك على الأرض." لماذا تتركنى هنا، يارفيقى؟ يا صالح يتعين عليك توصيل رسالة الأمير بكاملها للشيخ جاسم؛" - ورحنا نشاهد الشيخ وهو يقدم علينا من بيت مجاور.

كان جاسم رجلا نحيلا، فى منتصف العمر. فى البداية، قال: إنه لن يستطيع استقبالى. '(تساءل) كيف ! أوفد الأمير ذلك الغريب إليه، كى يقوم بتوصيله إلى خيبر، فى الوقت الذى فيه نزاع بينه وبين أهل خيبر!' ثم قام بعد ذلك بتوبيخ صالح الذى كان 'سيتركنى عند خيام غريبة .' - وهنا دار بخلدى، مدى سوء حالى، لو أنهم تركونى وسط صحراء الجزيرة العربية، التى تخشى فيها مقابلة البشر أكثر من خشيتنا مقابلة الحيوانات البرية!" أنت، يا جاسم، لقد سمعت كلام بن الرشيد، وإذا لم تنصع لهذا الكلام، فها أنذا قد نزلت عند بيتك وأنا متعب؛ ثم قلت: دعنى أستريح هنا هذه الليلة، وأنا دخيلك، وسأبيت تحت سقفك."

أدخلنى الشيخ جاسم إلى خيمته وطلب منى أن أطمئن وأشعر بالارتياح: ثم صب جام غضبه على صالح، ثم أمسكه بين يديه ودفعه إلى الأمام - تلك هى مظاهر العنف عند الحطيم - ثم جرده من عباءته (بشته). "صاح الشيخ جاسم: أغرب عن وجهى! ولكن جملك سيبقى معى ، حيث سأستعمله فى توصيل هذا الغريب إلى خيبر؛ الله يلعن أباك، أنت يا من تساهلت فى حق رفيقك وألقيت به على الأعراب." تلقى صالح كل تلك

الإهانات بصبر، نظرا لأن البدو الرحل عندما يغلبون على - أمرهم يصبحون بلا حول أو طول ولا يقوون على المقاومة. وقام جاسم بوضع سيفه على زور صالح، وطلب منه أن يقول له كل شيء بلا كذب، على أن يقول له في البداية اسم القبيلة التى ينتمى إليها. وهنا اعترف أمام الشيخ جاسم بأنه من البجايدة Bejaida ، التى هى قبيلة فرعية من قبيلة البشر Bishr ؛ هذا يعنى أن صالح هذا كان من العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة)، ولكنه كان يعيش حياته مع حطيم النومسى Noamsy ، الأمر الذى جعل الناس ينظرون إليه كواحد من الحطيم. وهناك عائلات فقيرة كثيرة من العنوز ومن حرب تربط نفسها بهذا المصير المتواضع، ولكنهم يكونون فى مأمن من العداء؛ والممنوع على مثل هذه العائلات هو عدم الزواج من الحطيم. وهنا تركه جاسم يذهب لحال سبيله، ونادى على أهل البيت لشب النار، ثم تناول حِجْرًا من علف فرسه ووضعه أمام جمل صالح؛ ثم عاد وجلس فى الخيمة، ووجهه يظهر عليه البشر والسرور. "قال جاسم ، من الذى سيقوم الآن ويحضر لنا البن كى نصلح فنجالاً لهذا الغريب؟ - ما اسمك؟" - "خليل." - "حسن، قل لى يا خليل، ما الذى يمكن - أن أفعله فى مثل هذا الحال، لأنى أقسم بالله، أنى حائرلا أعرف ماذا أفعل؛ إن مابيننا وبين أهل خيبر والإمبراطورية العثمانية هو النزاع بعينه وقطع الأزوار: إذن، كيف يقول الأمير إنى يتعين على توصيلك إلى خيبر؟"- دخل علينا الجيران لشرب القهوة، وأجاب أحدهم على السؤال قائلا: "لو أعطانى خليل أربعة ريالات فسوف أقوم بتوصيله إلى حافة نخيل خيبر وأذهب بعد ذلك لحال سبيلى." جاسم:" ولكن خليل يقول بحق أنه سيكون خارج خيبر."

أرانى شاربو القهوة وجها طيبا؛ "إخ! (قال جاسم) يا خليل ألم تشتكِ لى من أن الرجل تخلى عنك، ذلك الرجل الذى جاء معك، والله، لو فعل ذلك لكنت قد قطعت رأسه وألقيته فى هذه النار: لعنة الله على العنوز Anuz [أمة العنزى] جميعا." - "حسن، إذا مااتضح أن خيبر شديدة الصعوبة، فأرجو أن ترسلنى إلى حناس، شيخ النومسى؛ لقد بلغنى أنه يخيم هنا بالقرب من هذا المكان، وسوف يستقبلنى استقبالا حسنا." - "سننظر فى هذا الأمر فى الصباح." وضعوا أمامى طبقا يكاد يكون فارغا من الأرز وبلا سمن، ومعه قليل من اللبن القديم المتعفن، - وهذا أبشع وأصغر تحية شاهدتها

أو عرفتها تحت تلك الخيام المصنوعة من الصوف الخشن، لم يكن لدى هؤلاء الحطيم لبنا طازجا، نظرا لأن إبلهم كانت عذاب، أى بعيدة عن المنزل الذى يخيمون فيه، وكانت تلك الإبل ترعى فى ناحية بيضة Baitha نثيل Nethil فى اتجاه الغرب.

أطبق الليل علينا بظلامه، سحبه الكثيفة وطقسه المتدنى، وأبرقت السماء من ثلاثة جوانب دون أن يصحب البرق رعد. وهنا قال البدو الرحل: "هؤلاء هم الملائكة!" - هذا الكلام الذى صدر عن هؤلاء البدو جعلنى أتأمل رؤية البدو الرحل فى ميدان بيت لحم. "همهم البدو فيما بينهم، أن العاصفة فوق وادى الرماح،" - الذى قالوا: إنه لا يبعد عن هذا المكان سوى مسافة نصف رحْلة من رحْلات الإبل. وتعجب هؤلاء البدو الرحل، لأنى أعرف اسم هذا الوادى الكبير من وديان منتصف نجد: قالوا: إن بداية ذلك الوادي تقع بالقرب من الحيات، داخل ديرتهم، التى تبعد مسير ناقة ليوم واحد، - هذا يعنى أن هذه المسافة تقدر بحوالى خمسة وأربعين أو سبعين ميلا عبر أرض منبسطة. وتساقط المطر البارد علينا على شكل قطرات من خلال الثقوب التى كانت فى قماش الخيمة: وعندما تأخر الوقت قال جاسم: "نم أنت، أما أنا فيتعين على البقاء مستيقظا طول الليل وعيناى على جمله الموجود هناك، مخافة أن يأتى ذلك الرجل العنزى لسرقة الجمل ويهرب به."

وعندما استيقظت مع طلوع الفجر كان جاسم ما يزال يشب النار؛" قال لى: صباح الخير! حسن، سوف أرسلك لحناس؛ وسيقوم بتوصيلك إليه ذلك الرجل الذى صاحبك أثناء مجيئك." - "لقد خدعنى بالأمس، فهل لن يخدعنى اليوم؟" بل إنه ربما تخلى عنى فى الخلاء." - " ولكنى سوف أجعله يقسم حتى يدخل الخوف إلى قلبه." بدأت النساء تفد علىّ عندما علمن أنى مداوى، ومعهن المريسي أو اللبن المجفف كى يشترين منى دواء؛ وقلن لى: إن ذلك اللبن المجفف سيكون من بين المؤن لرحلتى. جاءت أخت جاسم، إلىَّ مع هؤلاء النساء وجلست إلى جوارى. قالت: جاسم متضايق من الرِّحل rihl أو حمى الملاريا، وما هو الدواء الذى معى لمثل هذا المرض؟ كان الخمار الذى ترتديه هؤلاء النساء من البفتة زرقاء اللون ويتدلى فوق الجزء السفلى من الوجه؛

وكانت عيناها جميلتين بشكل جذاب، بالرغم من ضعفها وهزالها وشحوب لونها، ومن هنا خطر ببالى أن تكون جميلة جداً ورائعة؛ ومالت برقة كى تتفحص عقاقيرى بيدين ماهرتين لامرأة عاقلة فى المسائل البسيطة. هذه المرأة عندما ترى دواء لا تعرفه كانت تقول بصوت عذب لطيف، "أعطنى إذن ما تريد أنت، أعطنى فقط ذلك الذى ترى أنه مفيد." وبالرغم من جمالها، وبالرغم أيضا من كونها شقيقة للشيخ جاسم، إلا أن أحدا من البدو لم ينجح فى الزواج منها؛ والسبب فى ذلك أن الحطيم ليسوا من سلالة الأعراب."

عندئذ وصل صالح، وتهلل فرحا وبشرا عندما وجد أن جمله أعيد إليه، ووعد بتحقيق كل ذلك الذى سيطلبه منه الشيخ جاسم؛ وأقسم صالح يمينا مغلّظة بأنه سوف ينقلنى إلى حنّاس على الفور. ركبنا الجمل ومضينا فى طريقنا؛ ولكن أثناء سيرنا فى الطريق شددت حكمة الجمل (اللجام) وألزمت صالحا بقسم الصحراء الذى يقول: على aly العود Wa, el-aud والرب Rubb المعبود el-mabud، والذى يقضى بأن ينفذ، من يقسم به، كل الأشياء التى تعهّد بها: وما لم يقسم صالح بذلك القسم فلن أركب معه أو بصحبته. ولكن صالحاً نظر إلى الخلف وهو يرتعد وصاح قائلا: "أقسم بالله، أننى التزم بهذا القسم، كل مافى الأمر، هو أن تُعجِّل حتى نتمكن من اللحاق برفاقنا، الذين ينتظروننا عند الخيام التالية."

استأنفنا مسيرنا معهم من جديد، وهنا قال صالح: " أنا لم يعترنى فى حياتى كلها مثل هذا الخوف، وبخاصة عندما وضع جاسم سيفه على عنقى!" سرنا مسافة ساعة ونصف الساعة وصلنا بعدها إلى منزل من منازل الحطيم، مكون من بيوت عدة: وعندما مررنا على ذلك المنْزل انتحى صالح جانبا وعرّج على هؤلاء الحطيم ليسألهم عن الأخبار. وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى جزء من الجبل كانت فيه خيمتان وحيدتان. وهنا قال الرفاق : إن الإبل (التى تحمل أحمالا أكثر من طاقتها) أنهكت تماما، وقالوا أيضا: إنهم سوف يطلقون تلك الإبل ترعى مدة ساعة. وعندما وصلنا إلى المكان المقصود توقف أولئك الرفاق.

شاهدنا فى الخيمة الأولى زوجة عجوز: وراحت تلك الزوجة تحضر لنا بالتدريج، ونحن جلوس فى مكان بعيد عن الخيمة، طبقا من شرائح اللبن والسمن، ثم أحضرت لنا، بعد ذلك طبقا كبيرا من "لبن الخض" الذى يفيد تماما فى وقت الحرارة الشديدة. "قال صالح متسائلا: ألا تستطيع أكل هذا الطعام؟ - الحطيم لديهم الكثير من هذا الطعام، وهم طيبون وكرماء." وقف الرجال بعد تناول الإفطار وحملوا أشياءهم فوق الأبل، - ولكنهم لم يحملّوا حقائبى! - ومضوا قدما. تكلمت مع الحطيمى الكبير، الذى كان رجلا محترما، ولكنه هز كتفيه وفرد راحتى يديه نحو الأعلى ورد على قائلا: "ما الذى يمكن أن أفعله؟ هذا الأمر يتعلق بصالح وحده، ووالله لن أتدخل فى هذا الأمر؛ ولكن لا تخف، لأن الناس هنا طيبون، ولن يصيبك مكروه وأنت بينهم." "قال صالح: عيادة Eyada بن عجوين Ajjueyn موجود أيضا على بعد مسافة قريبة." - " ولكن ماذا عن الأمير؟ وجاسم ليس هو الآخر ببعيد عنا؟" صالح :"فيما يتعلق بجاسم فنحن نلعن أباه وأمه؛ ولكن لا تشغل بالك بهذه الأمور، لأن الحطيم أناس طيبون، وسوف ينتهى الأمر نهايه طيبة." - التصارع مع الحطيم أمر لا طائل من ورائه؛ وهناك احتمال كبير أن يكونوا قد نشروا على الناس أننى نصرانى، وأنا بنفسى كنت رفيقا طيبا بين هؤلاء الناس، - لم يكن فى هذا المكان سوى امرأتين، وقد رحلتا عن المكان.

- "قالت الزوجة العجوز: صحيح أن عيادة قريب من هذا المكان، فقد سمعت بالأمس نباح كلابهم." فى الخيمة الثانية، كانت ترقد ابنة زوجها المريضة؛ فى حين كان الرجال يرعون الماشية فى الصحراء. بدى أن الزوجة العجوز كانت تمتعض عند ماعرِفت أن صالحا تخلى عنى؛ وأخيرا جاءت إلىّ تلك الزوجة العجوز وأنا أجلس وحدى" ثم قالت: "لا تحزن! أنا ana خالتك Rhalatak" . وبعد ذلك مباشرة خرجت تلك الزوجة العجوز لتبلغ خبر وصولى إلى الرجال الموجودين فى الصحراء. وبالقرب من هذا المكان وقع بصرى على حدود فيضان بركانى، وكان على شكل نوع من أنواع البازلت: وعندما غربت الشمس، اختفيت عن الأبصار، - مخافة أن يرى الناس الغريب وهو لا يؤدى الصلاة وبالتالى يعرفونى جميعا.

عـاد الزوج إلى المنزل بعـد ذلك بفترة وجيزة، وهو رجل أصم اسمه ضيف الله: وقـد رحب الرجـل بى ترحيبا طيبـا، وتبعه ثلاثة أبناء كبار ومعـهم إبلهم عائدين بها إلى البيت؛ وكان معهم أيضا قطيع كبير من الأغنام والماعز، كما كان معهم أيضا عدد كبير من الحملان والتيوس. ووجدت (بالرغم من مظهرهم الحطيمى الذى يوحى بالفقر) أنهم فى بحبوحة من العيش. وأحضر لى ضيف الله، عندما كنا نتحلق حول نار المساء، سلطانية من حليب المساء، بعد تسخينه؛ - " ليس لدينا، قال الرجل، أى شىء يؤكل، وليس لدينـا تمـر أو أرز، أو خـبـز، ولكن اشـرب هذا الذى أعطانا الله إياه، علمـا بأنـه سيكون عشـاءًا متواضعًا ." شـكرت الرجـل ودعوت له بالبركة وقلت له: إن هذا هـو أفضل أنواع الغذاء. "أجابنى الرجل قائلا: نعم، إنه بعد غليه يدخل العظم تماما. " وعندما علم ذلك الرجل بخبر تخلى رفاقى عنى تعجب الرجل قائلا: 'بالله لو كانوا هنا، لقطع أعناقـهم.' كـان ذلك الرجل رقـيق الحـال، غـاية فى الكرم والاحـترام؛ فـقـد وافق بصعـوبـة بالغـة على أن يمـلأ غليـونه بالدخان مرة واحدة فقط، وكنت قد عثرت على هذه الكمـية القليلة من الدخـان فى أعـماق حـقائبى، بالرغم من أن هذه الكمـية كـانت مصـدر إسـعاد كبير لهم؛ ولم يمانـع الرجـل من تلقيه هو وأولاده الصغار أى شىء من الضيف (المهجور) الذى ساقه الله لهم هذا اليوم. هؤلاء الناس كانـوا من العـرب البسطاء، غير المتشددين فى الصلاة، ولا تتردد على ألسنتهم أسئلة حرجة أو محرجة عن الدين، ولكنهم كانت قلوبهم عامـرة بإنسانيـة الصحـراء.' (قـال مضيفى الطيب: إنـه سـوف ينقلنى فى الصباح إلى عيـادة بن عجـوين، الذى سيقوم بدوره بإرسالى إلى خيبر.'

كان الليل حالك الظلام، وانفجرت السحب المنخفضة علينا بالمطر والبرق. قلت لضـيف الله، "الله ينزل بركـاته من جـديد على الأرض." - رد على الرجل ردًا يوحى بالتدين "نعم، صـدقت." - يا لحسن هذا المكان ! وأنعم بالسلام الذى يسوده ويخيم عليه! هذه البقعة الصغيرة من أرض البدو والتى تقع أسفل قماش الخيمة المصنوع من الصوف الخشن، ويتساقط المطر من خلال ثقوبه، وذلك بالمقارنة مع بلدة حائل!

مع طلوع الصبح، حلبت النســاء الماشية الصغيرة؛ وكنا نجلس عندما كانت الزوجة العجوز تهدهد قربة الحليب بين ركبتيها إلى أن انفصل الزبد عن الحليب؛ والنساء يجدن الزبد على شكل كتلة عند فوهة السميلى (القربة). وسرعان ما شاهدت ذلك الزبد وهو يغلى على النار لتحويله إلى سمن، ونادونى كى أتذوق رغاوى السمن مستخدما فى ذلك إصبعى. هن يقمن الآن بإعداد وجبة صغيرة من الرغوة عند تحويل الزبد إلى سمن، وذلك بعد سكب السمن. ويجرى بعد ذلك خلط الرسوب المتبقى من الزبد بشىء من الحليب ثم يقدم بعد ذلك للضيف؛ وهذه هى أحلى الأكلات فى هذه الحياة البدوية المتواضعة. بعد ذلك أحضرت لى تلك الزوجة العجوز شيئا من السمن (كل ما أعطته حيواناتها الصغيرة فى صباح ذلك اليوم) ، ووضعته داخل جلد صغير (ربما كان وزنه لا يزيد على بنت (*) واحد): قالت، إن تلك كانت هديتها لى: وسألتنى ما إذا كنت أسمح بأن أترك لهم شيئا من الدواء؟ أعطيتها جرعات من الكنين. وأحضرت لى سلطانية كبيرة من لبن الخض؛ وبعد أن شربنا منها ما يكفى، قام ضيف الله بتحميل جوالاتى على جمل من إبله. وركبنا، واتجهنا جنوبا عبر الخلاء (الصحراء).

سرنا مدة ساعة وصلنا بعدها إلى منزل عيادة، وكانت الخيام البدوية المصنوعة من الصوف الخشن منصوبة فى تجويف على شكل رف يطل على منظر طبيعى من الأرض الجرداء الخراب فى الناحية الجنوبية: شاهدت ظلاما شاسعا خلف ذلك المنظر، - هذا السواد كان عبارة عن حرة أخرى (أو بالأحرى حرة خيبر) - كما شاهدت أيضا جبالاً من صخور الجرانيت وردية اللون كانت الأحجار الرملية، تمتد على شكل لسان بين الجبال البللورية ومحملة بالحمم البركانية، وتمتد لتصل خيبر من الناحية الجنوبية. - "قال ضيف الله: عندما نصل إلى خيامهم على مختلف مواقعهم، فسوف تتولى أنت الحديث إلى الناس: قل لهم إنك مداوى جئت من حائل، وأنك تود الذهاب إلى خيبر؛ ومقابل ريالين اثنين سوف تجد شخصا يوصلك إلى هناك."

(*) البنت: مكيال للسوائل يعادل ثمن جالون. (المترجم)

وصلنا إلى مبتغانا، وهناك قدمنى ضيف الله للشيخ عيادة؛ (قال) إننى كنت مداويا بارًا، - وبعد ذلك أخذ جمله وانصرف لحال سبيله. كان عيادة واحدا من شيوخ الحطيم، وكنت قد رأيته قبل يومين وهو يستطلع الصحراء: - ولربما فهم عيادة عندئذ (من كلام الرجل المتشدد) إننى لم أكن مسلما حقيقيا، والسبب فى ذلك أننى عندما ألقيت عليه التحية، وقلت له: إننى سوف أذهب معه إلى خيبر، استقبلنى استقبالا خشنا. كان الرجل صاحب بنية قوية، كما كانت ملامحه توحى بأصل مهجن أو أن شئت فقل خلاسى، مثلما سبق أن لاحظت بين بدو الفهجات، الذين هم أيضا من الحطيم. عيادة: "حسن، لقد قلتها بالأمس، وأنا لايمكننى أن أرسلك إلى خيبر." - كان هناك بعض الرجال يجلسون أمام خيمة عيادة - " يا هو! قال الرجل، من منكم سيقوم بتوصيل هذا الرجل إلى خيبر، ويحصل منه على ثلاثة ريالات." ؟ أجاب واحد منهم قائلا: "سوف أنقله إلى هناك، إذا ما أعطانى هذه النقود." وافقت على ما قاله ذلك الرجل، وهنا ضمن الشيخ أن ذلك الرجل لن يتخلى عن رفيقه، مثلما فعل غيره من قبل." لا، ثق بى، هذا غروسيب Ghroceyb ،واحد من الشيوخ، وهو رجل شجاع ومقدام." - " وأنت ياغروسيب ، أقسم بحياة هذا الساق من العشب، أنك لن تتخلى عنى، أنا رفيقك، إلا بعد أن توصلنى إلى خيبر!" - " أقسم على أنى سأوصلك إلى خيبر ، اللهم باستثناء إذا ما وافتنى المنية." عيادة" "إن لديه ناقة أيضا، وهذه الناقة تستطيع الطيران كما لو كانت طائرا من الطيور." غروسيب: "ألا ترى أن الشمس قد طلعت! هيا بنا نقضى النهار هنا، وغدا سوف نبدأ رحلتنا." - "لا، ولكننا سنبدأ اليوم،" أجابنى الشيخ، على الفور، إلى حد أنى كنت أتعجب من سلوكه غير الكريم، كما تعجب غروسيب أيضا من ذلك الاستغراب. لم يعزمنى الشيخ على الدخول إلى خيمته، ولكنه اكتفى بأن أحضر لنا خارج الخيمة سلطانية كبيرة من لبن الخض. وهنا تجمع الحريم حولى، وهن يحملن فى أيديهن سلاطين صغيرة مملوءة بشرائح اللبن المجفف (المريسى) ، ورحن يطلبن منى أدوية. لم أصادف أناساً غير الحطيم لديهم رغبة قوية فى شراء أدوية من المداوى. وبعد رحيلى ، وعندما جرب الحريم أدويتى، قلن: إن خليلا كان رجلا أمينا صادقا؛ وقد أفادنى تقريرهن هذا طوال أشهر بعد ذلك، عندما عاودت المرور على هذه البلدة مرة ثانية.

أبلغنى غروسيب أن المسافة من هنا إلى بيضة Baitha نثيل Nethil تقدر بحوالى نصف رحلة من رحلات الإبل ، وأن المسافة إلى حائل تقدر بحوالى ثلاث رحلات، وإلى تيماء حوالى أربع رحلات، وإلى قرية العلا حوالى أربعة رحلات ونصف الرحلة ؛ وأننا سوف تمضى علينا ثلاث ليالى قبل أن نصل إلى خيبر. وبعد أن قطعنا مسافة ميل هرولة؛ كان هناك ابنا لتلك الناقة، وكان يرعى أمامنا فى الصحراء، وعندما رأى أمه، جرى بكامل سرعته كى يلاقى أمه الناقة، وراح يتبعنا وهو يجأر ويخور، - وراحت الناقة الأم ترد على خواره بخوار مماثل كان يصدر من حلقها الكبير؛ ولكن غروسيب نزل عن الناقة وراح يبعد وليدها عنها. مشينا فى سهل من الرمل. وبالقرب منا ظهرت أمامنا تلك الصخور سوداء اللون - الحَرة، ومن فوقها بعض التلال وقمم التلال، والناس هنا يطلقون على هذه المنطقة اسم الحلّى el- Helly : لاحظت أن تلك القمم هى والتلال كانت عبارة عن تلال قمم بركانية! كان هناك جبل طويل غير مهم، يطلقون عليه اسم البُتْرة Bothra ، يمتد محاذيا للطريق من ناحية الشمال، ولم يراودنى أى شك فى أن ذلك الجبل كان من الجرانيت. وراح غروسيب يشجع ناقته بأغنية لطيفة! كانت تصدر واللسان تحت اللهاة، - وأنا لم أسمع هذه الأغنية من قبل؛ كما أن هناك تباينا فى القبائل، فيما يتعلق بالنداءات التى ينادون بها الإبل فى صحراء الجزيرة العربية.

دخلنا تلك الحرة السوداء. وتحول حقل الحمم البركانية إلى أمواج كبيرة وأخاديد كبيرة أيضا، وتحول المكان من حولنا إلى متاهة من الصخور البركانية والسهول الرملية القصيرة الناتجة عن البراكين. - وهذا قسم آخر، أو إن شئت فقل عضو آخر من أقسام أو أعضاء الجزء البركانى من غربى الجزيرة العربية، والذى يمتد، بقليل جداً من الشروخ والصدوع، من تبوك، خلال سبع من دوائر العرض، إلى أن يصل إلى حدود مكة.

عثرنا على مياه طينية، فى تجويف (على إثر المطر الذى سقط مؤخرا)، وهنا نزل غروسيب من فوق الناقة ليملأ القربة بالماء. وقبيل العصر شاهدنا قطيعا من الماعز يتجول بين الصخور البركانية. كان راعى ذلك القطيع واحداً من الحطيم، وقد تعرف

على غروسيب، وأشار لنا على المكان الذى نصبت فيه بيوت الشَعر، والذى كان عبارة عن مكان منخفض لم يكن يبعد عنا كثيرا. هنا وصل غروسيب إلى أهله وأقاربه؛ ونزلنا عند خيمة شقيق غروسيب. ويصل ارتفاع الحرّة فى هذه المنطقة إلى حوالى ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. كانت الحريم هنا محجبات مثل الحريم فى مخيم جاسم، وكن يرتدين براقع تتدلى فوق جباههن. وفى المساء حيونا بإناء كبير من التمن (الأرز) المسلوق، كما سكب لنا المضيف قربة كاملة من لبن الخض غليظ القوام.

كان من بين هؤلاء الرجال رجل يمتهن الصيد حرفة له؛ ومعلوم أن بدو الحطيم وبدو الشرارات يتفوقون على سائر البدو فى هذه المهارة، وهم يجيئون بعد الصلوبة فى هذا المقام، ففى الموسم الماضى استطاع ذلك الصياد، اصطياد نعامتين باع جلديهما (لتاجر الرياش الدمشقى الذى يجئ إلى هذه المنطقة بصحبة الحج كل عام) نظير ثمانين ريالا: أى بواقع أربعين ريالا لجلد النعامة الواحدة ! (أى ما يعادل ثمن جمل واحد من الجمال الجيدة) - وهذا يعد ثمنا مدهشا فى مثل هذه البلاد. وأنا لا أعرف شيئا عن سلالة الحطيم النسبية فى الجزيرة العربية. والحطيم ليسوا من أصحاب المزاج البشوش، وهم يفتقرون إلى الطلاقة الذهنية كما يفتقرون أيضا إلى شهامة البدو. تحدث غروسيب عن ناسه فقال: "جد الحطيم هو راشد ونحن - حطيم المنطقة الوسطى - يطلق علينا اسم بنى راشد . وهؤلاء الحطيم الموجودون على ساحل البحر الأحمر، أسفل منطقة الوجه، يطلق عليهم اسم الجرابيس Gerabis ، وهم من سلالتنا بطبيعة الحال، ولكنهم ليسوا على وفاق معنا. وبنو راشد كثيرو العدد شأنهم شأن بنى وهاب (حوالى ٦٠٠ بيت ولا يزيد عددهم على ٢٠٠٠ نسمة). وتحدث غروسيب عن الشرارات الشبيهين بالحطيم فقال: "يجوز لنا الزواج منهم كما يجوز لهم أيضا الزواج منا، - ولكننا نتبادل معهم سرقة الماشية؛ ويصل تعدادهم إلى حوالى ٨٠٠ بيت." كما أبلغنى أيضا أنهم فى الأيام السابقة، سرقت منهم بعض الإبل عن طريق غزو قام به النعومسى على الجرابيس، وأن الشيخ بن نومس Nomus (والد حنَّاس) هو الذى رتب لاستعادة الإبل المسروقه قائلا: "والله إنهم من سلالتنا."

فى الصباح الباكر حلب غروسيب ناقتنا وأحضر لى ذلك الحليب الدافئ؛ وبعد ذلك، وفى ضوء التعب الذى سيصيب الناقة جراء الرحلة الطويلة من ناحية، وعدم تناول أى شىء من العلف من الناحية الثانية، فإن ضرعها سيجف ولن يكون به أى شىء من الحليب، وهنا أحضر البدوى شيئا يغطى به ضرع الناقة؛ [فى مثل هذه الأوقات على أمل أن تحمل تلك الناقة فى أنثى] . ونادتنا خيمة أخرى لتناول طعام الإفطار، حيث قدموا لنا تمرا مقليا فى السمن، كما قدموا لنا أيضا سلطانيات من لبن الخض. كانت المنطقة بكاملها من الصخور البركانية، وتحتم علينا قضاء ليلتين فى الخارج بعيدا عن الأعراب، وفى الليلة الثالثة كنا قد وصلنا إلى خيبر.

كانت تلك الأيام مظلمة وسحبها من النوع الرمادى فى هواء الجزيرة العربية ذهبى اللون. واصلنا مسيرنا على وجه السرعة سالكين فى ذلك مسارات (جدران الإبل Jiddran) انمحت بفعل الزمن وتآكلت فى الصخور النارية من ناحية وفى الصحراء المكونة من الصخور البركانية من ناحية أخرى. والبشر هم والحطيم يأتون إلى هذا المكان فى مطلع العام ومعهم ماشيتهم، وذلك بحثا عن عشب الربيع الذى ينمو بين الصخور البركانية وفى الحفر الصغيرة، وفى القيعان البركانية الرملية. وقبل دخول وقت الظهر، كنا قد أصبحنا فى منطقة التلال السوداء (التى يطلقون عليها اسم الحليان hillian) التى سبق لى أن رأيتها أمامنا بالأمس؛ هذه التلال كانت عبارة عن أقماع أو قمم أو فوهات براكين خامدة. كان المسار الذى نسلكه يقع أسفل أعلى تل من تلك التلال، والذى قد يصل ارتفاعه إلى أربعمائة أو خمسمائة قدم. بعض هذه التلال كانت له قمتان، – وهذا لا يظهر إلا فى التلال التى يحدث انكسار فى أحد جوانبها. بعض التلال الأخرى كانت تبدو مهشمة عند القمة. كل شىء هنا يشبه ذلك الذى شاهدناه فى حرة العويرض. مررنا بعد ذلك عبر سهل ناعم من الصخور النارية؛ وعند سفح تل آخر من تلك التلال شاهدت صخورا يميل لونها إلى الاصفرار وناعمة الملمس وتقع أسفل الصخور البركانية. من هذه المنطقة استطعنا رؤية قرية خرَّام Kharram ، التى تبعد عنا مسير يوم واحد فى اتجاه الغرب؛ كانت قرية خرام تقع خلف الحرَّة داخل حدود النفود صفراء اللون؛ كان الرمل الأبيض يمتد على شكل انجرافات طويلة على جانبى الجبل المرتفعين.

كانت تلك الأرضى البركانية المرتفعة تحتوى على بعض البرك الناشئة عن مياه المطر؛ وفى واحد من الأماكن سمعت صوت مياه تتساقط! وصلنا إلى بركة جديدة باردة الماء، كانت تبدو مثل بحيرة جبلية فى ضوء الشمس التى مالت إلى الغروب! من هذا الماء الصحراوى الغريب كان ينساب نهير برى كان يحدث ضوضاء شبيهة بضوضاء الطواحين. بعد أن واصلنا مسيرنا طوال فتره النهار، وجدنا أنفسنا، نوقف راحلتنا فى مكان مستور، يسمح لنا بشب النار. لم يسبق لرفيقى أن وصل إلى هذه المسافة فى ذلك البحر من الصخور والحمم البركانية، ومع ذلك استطاع تعرف العلامات الأرضية. انصرف رفيقى ليعود ومعه قبضة من العشب الذى حصل عليه من الفجوات التى بين الصخور، ليقدمها لناقته الصائمة؛ ورحت أنا بدورى أجلب بعض السيقان الجافة لأضعها مشتعلة تحت الإناء، الذى سكبت فيه شيئا من الماء وبدأت أسلق شيئا من التمن (الأرز). وعندما عاد غروسيب طلبت منه أن يقوم هو بعملية الطبخ؛ ولكنه قال: "ما الذى يمكن أن أعمله؟ أنا ، أقسم بالله، لا أفهم ذلك المطلوب منى." - " ومع ذلك، فأنا لم أر فى حياتى كلها بدويا لا يستطيع الوفاء باحتياجاته فى رحلة من الرحلات." - " أنا آكل ذلك الذى تعده الحريم، ولكنى لم يحدث فى حياتى كلها، أن اشتركت فى صنعه ." - هذا الغورسيب لم يحضر معه سوى قبضتين أو ثلاث قبضات من شرائح اللبن المجفف (المريسى)! كان غروسيب يعانى من آثار حمى قديمة، ولذلك لم تكن شهيته مفتوحة للطعام. كان ذلك المكان يمثل أكثر النقاط ارتفاعاً، فى أنحاء الجزيرة العربية التى مررت بها، إذ كان يصل ارتفاعه إلى ٦٠٠٠ قدم تقريبا. واعتبارا من ذلك الوقت بدأت أفهم حقيقة تقسيم المياه بين قيعان الوديان الكبيرة فى شمالى الجزيرة العربية؛ وعلى وجه التحديد، فإن وادى الرماح ينحدر نازلا من الحرَّة متجها صوب الشمال الشرقى، وصوب وادى الحمض **el-Humth** . كانت تلك الليلة معتدلة، أمضيناها فى حماية الصخور البركانية غير المشذبة، كما لو كنا نقيم بين الجدران، حيث شعرنا بالدفء إلى أن طلع النهار علينا.

ركبنا الناقة عند الغسق؛ ولكن السماء بدت بعد طلوع النهار بفترة طويلة، كما لو كانت مغلقه علينا، مثل قبر من القبور، بسحابها المظلم. كانت منخفضات

الصخور البركانية تشغلنا وتسيطر على انتباهنا؛ وكنا في كثير من الأحيان نجد أنفسنا قد وقعنا في شيء من الخطأ وبخاصة بين رفوف الصخر الحادة، أو كنا نفاجأ في بعض الأحيان، بأننا أمام جروف شديدة الانحدار. الحقل البركاني هنا عبارة عن فيضان من الأحجار التي تصلبت؛ هذه هي رءوس طويلة متدحرجة، تشبه أعراف الأفراس، تبرز عن سائر كل ماعداها: هذه الرءوس بحكم ارتفاعها عن كل ما حولها، نجد أن الكثير منها منقسمة طوليا، وهذه هي الجحور المجوفة تتساقط هنا وهناك على شكل شظايا ضخمة وعلى شكل أكوام من الركام كما لو كانت عناقيد من الحبال؛ القمم هنا تبدو وكأنها أعراف من الصخور الزجاجية التي يطلق الناس عليها هنا اسم "لابا" laba (ويجمعونها [لوب lub)]؛ واللابا عند الناس هنا [كما ورد في الجزء الاول] هي كل ما هو شبيه بالمعدن المنصهر - وليس لدى الأعراب هنا أي موروث عن أن هذه التربة كانت في يوم من الأيام غارقة في معدن منصهر أو جبال تحترق. ومع مضينا قدما شاهدت صخورا شامخة لها حمرة الذهب قابعة فوق الصخور البركانية السوداء المخيفة التي تثير الرعب والفزع؛ تلك الصخور الشامخة التي كانت كلها من الحجر الرملي وقد تبعثرت عليها أشعة الشمس في الصباح. في قيعان الصخور البركانية المستورة، التي كانت تنمو فيها أشجار السنط التي يؤخذ منها الصمغ، في تلك القيعان شاهدنا وافزعنا طيور طيهوج الرمال (التي يطلقون عليها هنا اسم "القطا" gatta) ؛ هذه الطيور جافة اللحم ولا يستساغ أكلها، وذلك على حد قول البدو الرحل. وفي أحيان كثير يشاهد الناس هنا لمعانا كثيرا فوق حقول الصخور البركانية نتيجة انعكاس الشمس عليها، الأمر الذي يجعل الناس يحسبون ذلك اللمعان ماءًا، يقع على مسافة بعيدة؛ ولكنه، في واقع الأمر، لا يعدو أن يكون طينا جافا يلمع بفعل اختلاطه بالأملاح.

رفع غروسيب يديه تضرعًا؛ لم يكن غروسيب ملما تماما بالصلاة، ولكنه راح يتمتم من داخله طلبا للنجاة والسلامة من هذا الممر الخطر. "يارب، جَنِّبنا الأخطار! ولا تجعل هذا اليوم هو آخر أيامنا، واحفظ علينا ناقتنا!" لم يكن رفيقي يعرف أنني مسلّح. واصل غروسيب مسيره، وهو يحمل بندقيته الفتيلية، وكان سيره يتراوح بين المشي

والهرولة، واضعا نصب عينيه المسار الذى يتعين على الناقة السير فيه، كما كان يتحسب لمرور عدو لنا علينا بطريق المصادفة. وفى إحدى المرات فاجأنى غروسيب، عندما استدار فجأة، وأنا أدون بالقلم الرصاص [قراءة من قراءات جهاز قياس الارتفاع] "قال رفيقى: هل كل شىء على ما يرام يا خليل؟ هل تمكنت (بفضل أحرفك السرية والسحرية) من معرفة إن كان هناك خيرا أم شراً؟ ألا تستطيع كتابة شىء ما (وصفة سحرية قوية) تفى بهذاالغرض؟" وعندما رآنى غروسيب أركب الناقة دون اكتراث أو اهتمام، وعندما رآنى أروح فى النوم بسبب التعب والإرهاق، بدأ يشعر بالارتياح والطمأنينة. كانت طمأنينتى فى الجزيرة العربية راجعة إلى مسدسى الذى كان يتسع لست طلقات، لأنى كنت أرى أن ذلك المسدس كاف للدفاع عنى وعن من هم معى فى حالة تعرض حياواتنا للخطر، يضاف إلى ذلك أن غروسيب كان هو الآخر رجلا شجاعاً. كانت بندقية غروسيب ثقيلة الوزن على كتفى رجل قوى، وتكلمت معه طالبا منه تعليق تلك البندقية عند مقدمة سرج الجمل بحيث تكون أمامى أنا، رفيقة فى السفر؛ ولكنه اعترض على ذلك وقال: "أنا لا أعلق حبل الكتف على مقدمة السرج؛ لابد أن يكون تعليق البندقية سهلا ويسيرا حتى يمكن تناولها واستعمالها على وجه السرعة فى حالة الخطر."

تجاوزنا حدود الحرَّة بعد طلوع الشمس بساعتين، وخرجنا من ذلك الحقل من الصخور البركانية إلى أرض من الحجر الرملى. هذه الأرض البركانية التى انفقنا سبع عشرة ساعة فى عبورها يطلق الناس عليها هنا اسم حرَّة الاثنان el-Ethnan ، وذلك نسبة إلى التل الصخرى الكبير الذى يسمونه جبل اثنان el-Ethnan ؛ وحطيم النومسة يعيشون فى هذا المكان. وفى خلال ساعة واحدة نزلنا إلى سهل منخفض من الصخر الرملى أحمر اللون، ومن هذا المنخفض وصلنا إلى شق عميق يطلقون عليه اسم "الشُّطب" es-Shotb ؛ وقد اضطرنا ذلك الشق إلى تقصير خطى الجمل وبخاصة أثناء تجاوزه للرفوف الجبلية. شاهدنا فى قاع ذلك الشق أشجار السنط التى يؤخذ منها الصمغ، كما شاهدنا فى القاع أيضا شجرة لم أستطع التعرف عليها، كانت أوراق تلك الشجره تشبه رماد الجبال. "اسم هذه الشجرة هنا هو الثرو thirru ، ونحن

لا نعرف لها فائدة،' هذا هو ما قاله غروسيب. وخلف تلك البيارة كانت هناك بعض الصخور البركانية الدقيقة المبعثرة فوق تربة الحجر الرملي، وقد جاءت تلك الصخور من الحقل البركاني الموجود في الأعلى. وعندما دخل الظهر كنا قد تجاوزنا منطقة الصخر الرملي ووصلنا من جديد إلى الحرة الرئيسية الموجودة في الخلف، والتي بدأت الاتصال بالحرة لتكونا شيئا واحداً يمتد ناحية الشرق؛ وفي هذه المنطقة مررنا بعدد قليل من فوهات البراكين القديمة. هذا المكان بكامله، والذي يسمونه هنا حرة Harrat خيبر (*) Kheybar – يمتد فيما بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ويستغرق مسير أربعة أيام من حيث الطول وليس العرض؛ وهذه المسافة، التي تصل الى ما يقرب من رحلة ناقة إلى المدينة (المنورة) تقدر بحوالي مائة ميل كحد أدنى. وعرض هذه الحرة أقل من طولها، ولكنها يمكن اجتيازها من منتصفتها خلال يوم واحد فقط.

قال غروسيب متسائلا: "ولكن هل من الضروري ذهابك إلى خيبر؟ – تواهي Tuahi ، ألا تسمعني يا أنت؟ أليس من الأفضل أن أوصلك إلى قرية الحيات el-Hayat؟" – كان رفيقي يخشى الذهاب إلى خيبر، نظرا لوجود الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك: لأن المسئولين هناك (وقد عرفت ذلك فيما بعد) ربما اعتبروه عدواً واستولوا على ناقة ذلك البدوي المسكين، ثم يضعونه في السجن؛ ولكن قرية الحيات، كانت حرة وليس للدولة فيها وجود وتحت إمرة بن الرشيد. وقد عرفت، فيما بعد، أن غروسيب، كان قد ارتكب حادث قتل، وأنه قد يلقى القبض عليه والإمساك به وفاء لذلك الثأر؛ يضاف إلى ذلك، أنه رافقني في هذه الرحلة المؤلمة طلبا لأربع ريالات ليس إلا. كان بوسعنا، عندما انطلقنا من منْزل عيادة، أن نجعل الحَّرة عن يميننا ونمر من خلال السهول الرملية المريحه [التي تجولت فيها في فصل الربيع] الموجودة أسفل الجبال الجرانيتية؛ ولكن غروسيب رفض السير في ذلك الطريق، نظرا لأن المكان أو الطريق المكشوف يشكل خطرا كبيرا لذلك الرجل، ولكن هذا الخطر يقل إذا ماسلك الطريق الصخري الذي سلكناه.

(*) ورد ذكر هذه الحرة في معجم البلدان لياقوت الحموي وأطلق عليها اسم حرة النار . (المراجع)

وبعد أن سرنا مدة ساعة من الشطب Shotb وجدت أن الارتفاع فى تلك المنطقة كان يقدر بحوالى ٥٠٠٠ قدم. وقبيل العصر، وعن يميننا حيث توجد أطراف المكان الذى ينزل فيه أصدقاء غروسيب، وبعد أن عاد إلى موطنه مرة ثانية "اكتشف أن الغريب كان رفيقا جيداً، ولم يكتشف ذلك إلا فى نهاية الرحلة، وعندما أوشكنا على دخول خيبر كان بوسعى أن آخذ ناقته أيضا"!

تجاوزنا حقول القمح فى حورده Hurda بلا أخطار ثم وصلنا بعد ذلك إلى عنق الحرة البازلتى الذى يحيط بوديان الواحة والذى يطلقون عليه هنا اسم "الفجيرة" el-Figgera (وجمعه "الفجار" el-Fuggar) الخيبرية. ركب غروسيب معى على الناقة وجعلها تسرع الخطى وتجرى بسرعة، نظرا لأن ضوء النهار بدأ يخبو. شاهدت حطام مبان قديمة وأسوار قديمة أيضا فى منطقة الفجّاره: بعض هذا الحطام كان عبارة عن أحواش صغيرة من كتل البازلت السائبة، التى يستعملها البدو فى تجفيف تمورهم بفعل أشعة الشمس وحرارتها، وذلك قبل تخزين تلك التمور فى جوالات. وبعد مسير حوالى ميل وصلنا إلى طنف الجبل، وعنده شاهدت غابة من النخيل فى وادى من وديان خيبر الموجودة فى الأسفل، أو إن شئت فقل: تحتنا، ولكنى لم أتمكن بعد من رؤية القرية. غربت الشمس ونحن نسير فى ممر منحدر. عن يميننا كان هناك برج خال من أبراج المراقبة، وهو أحد سبعة أبراج أنشأتها مؤخرا الحكومة التى كانت تحتل المدينة (المنورة) فى ذلك الوقت، لمراقبة قبيلة عنزة [البشر والفجير] المعادية لها. هذه العلامة الأرضية التى من صنع البشر كانت عندى غير آدمية، وذلك على العكس من بقية الحرّة الموجودة خلفنا؛ والسبب فى ذلك، أننى خطر ببالى عندئذ أن مدائن صالح، ومعها التخوُّف من الجنود الأتراك الذين لم يتقاضوا رواتبهم منذ مدة طويلة. كما كان جفاف الصحراء المشمسة جميلا بالنسبة لى، وكم كان الأمن متوفرا من خلال بيوت الشعر، فى القرى التى تجولت خلالها! هذه القلاع لا توجد بها حاميات أو قوات فى فصل الربيع وفى فصل الخريف أيضا.

مررنا عبر بيارات النخيل في قاع من قيعان الوادي الذي يطلقون عليه هنا اسم وادي Wady جلاّس Jellas ، تيمنا باسم فخذ من أفخاذ قبيلة عنزة في قديم الزمان، ذلك الفخذ الذي تخلى عن خيبر منذ زمن بعيد، والذي يعيش حاليا - كما سبق أن أوضحنا - مع الرولة في الشمال. الأرض المنخفضة هنا عبارة عن طين ومياه راكدة وهنا بدأنا نواجه نوعا من البخار الخانق المزعج. وفي المنتصف مررنا بغدير ينساب وسط حوض أخضر. كانت التربة مهملة على جانبي ذلك الغدير، ولم يكن فيها سوى بقايا لبعض الأعشاب وجذوع النخيل. كانت التربة مغطاة بقشرة من الملح لاذع المذاق، الذي يطلقون عليه اسم "السُّمخة" Summakha [ويكتبونه سبخة" Subbakha] ، وكان ذلك الملح مشوبا بنوع من الصدأ الوسخ: ومن هنا جاءت الأسطورة الخرافية التي مفادها أن "الأرض تطهر نفسها من دماء اليهود الكثيرة، التي أريقت في المعركة التي دارت في خيبر." وهذه هي الناقة وقد بدأت تتوقف في كثير من الأحيان، تحوطا لعدم وجود أرض ثابتة تحت أقدامها. دخلنا فيما بين الأسوار التي بناها أصحابها من صخور البازلت، ومن مخلفات النخيل المتعفنة ومن كتل الطين. - يالغرابة هذه الوديان الخيبرية في الجزيرة العربية الخالية من الماء! وهنا بدأ يتملكني إحساس بمكروه سيحدث لي في هذا الجو الذي يوحي لي بالموت في كل يوم.

صعدنا فوق أرض صلبة إلى مدخل قرية خيبر، وهو ما يسمونه جرية Jeriat بشر، التي تقع تحت صخرة بازلتية طويلة متبقية من قلعة الحصن el-Husn القديمة. وعلى الأرض المنحدرة على الناحية اليسرى كان يوجد مبنى صخري قديم مربع الشكل، وهم يقولون هنا أن ذلك هو المسجد المتبقي من أيام محمد (ﷺ) ؛ وأن أصحاب النبي مدفونين هنا، هؤلاء المسلمون الأولون، أتباع "الرسول" الحي، والذين سقطوا في معركة الاستيلاء على خيبر.

التقينا امرأة زنجية عند بوابة القرية في فترة الغسق، وسألتها إن كان بو Bou (أبو Abu) راس Ras في القرية؟ - وكنت قد سمعت عن أبي راس هذا من المغاربة في حائل وأنه رجل أمن وسلام: كان أبو راس هذا تاجرا زنجيا مغربيا طاب له المقام في

هذه المنطقة؛ كنت أتطلع أيضا إلى الحلول ضيفا عليه. ولكنه كان قد غادر خيبر، اعتبارا من تاريخ دخول الدولة (الامبراطورية العثمانية) إليها - والذى أصبح الآن، على حد قول الناس هنا، شبعاناً Shebbaan ، بمعنى أنه حصل على ما يكفيه من ثرواتهم المتواضعة، - ليعيش به فى قرية الحيات el-Hayat الحرة الواقعة تحت الحكم النجدى. - ردت علىّ هذه المرأة الزنجية بثقة تامة، وتمنت للغريبين مساء طيبا، قائلة: "هى لا تعرف شيئا عن هذا الموضوع ، ولا يمكن أن تقول عنه أى شىء."

الفصل الرابع

خيبر "بلد الرسول"

الليل في خيبر. عبد الهادي. أحمد. حزام البواردي. خيبر في ضوء النهار. جنود المدينة. محّرم. سرور. مثول النصراني أمام حاكم القرية. العم محمد النجومي. أمان. الأحباش. المساء في مقهى الجنود. إبراهيم، القاضي. رواية عبد الله عن الإنجليز. عربية الحجاز. إمرأة زنجية محترمة. منزل العم محمد. أم كيدة التربة المالحة. وديان خيبر. الألبانيون. نسب خيبر. اتهام النصراني. القرويون يخافون من أسحاره وتعاويذه. مصادقة العم محمد. العمل في البئر. الصيد. قصر النبي. الاسمية. نشر الدم. كرم شيخ الهجرة. الحطون. جحور على الحرة. مجيء السحرة إلى خيبر للبحث عن الكنوز. صخرة الحصن.

تجاوزنا البوابات المصنوعة من خشب جذوع النخيل لندخل إلى شارع قرية العبيد Negro في الحجاز، ونزلنا من فوق مطايانا أثناء فترة الشفق أمام رجل من معارف غروسيب. هذا المضيف، عندما سمع صوت ضوضاء انشغالنا أمام منزله ناداه غروسيب، فنزل ومعه أخوه لاستقبال الضيوف. حملوا جوالاتي على أكتافهما، واصطحبانا إلى الدور العلوي من خلال سلم من الطين، والدور العلوي كما هو الحال في قرية العلا، عبارة عن غرفة يطلقون عليها هنا اسم صُفّة Suffa . والدور الأول، في هذه الواحة الرطبة، عبارة عن مكان يحتفظون فيه بالأدوات البستانية، فضلا عن كونه أيضا حظيرة لذلك العدد القليل من الماعز التي تبيت فيه أثناء الليل. رب هذه العائلة، كان اسمه عبد الهادي، وهو عبارة عن شاب صغير لم يصل بعد إلى منتصف العمر، وهو ينحدر من سلالة زنجية خالصة. – هؤلاء السكان من أهل الجزيرة العربية الذين يشبهون الزنوج يكونون مليحي الوجه في معظم الأحيان.

كانت غرفة مضيفنا العلوية تطل على الشارع الجانبي ولها شباك طويل، يقولون له هنا "طاقة" taga ، وكان يمتد من أعلى سقف الحجرة إلى أرضيتها؛ أما سقف المنزل فكان من جريد النخل المفكك السائب، ومن فوق ذلك السقف كانت هناك شرفة المنزل المبنية من اللبن ويمكن الصعود إلى هذه الشرفة عن طريق سلم نقالي مكون من ثلاث عوارض من خشب النخيل. كان منزل عبد الهادى واحداً من المنازل، أو إن شئت فقل: من الأكواخ الجيدة والسبب فى ذلك أن عبد الهادى هذا كان رجلا ميسور الحال. وخيبر، على ما يبدو، كانت قرية إفريقية فى الحجاز. فرش عبد الهادى سجادته ورحب بنا، ووضع أمامنا تمر خيبر، الأصفر اللون، وصغير الحجم. هذا التمر الخيبرى يجرى حصاده قبل أن يكتمل نضجه [والسبب فى ذلك هو عجلة أصحاب هذا التمر من ناحية، وكذلك عدم توفر الشفقة بين الناس هنا من الناحية الأخرى!] وهذا التمر له نكهة تشبه نكهة الدواء والعقاقير، ولكنه" أبرد" من معظم أنوا ع التمور التى فى البلاد؛ يضاف إلى ذلك أن هذا التمر الخيبرى صحى أيضا . بعد الجهود التى بذلناها فى الحرة فى تلك الأيام، لم نكن نود أو نرغب فى تناول الطعام؛ طلبنا شيئا من الماء كى نروى ظمأنا: والناس هنا يعلقون قراب الماء عند أعلى درج السلم، ويصنعون فى الأرض حفرا تحت هذه القراب، حتى يمكن أن تستقبل نقاط الماء التى تتسرب من تلك القراب. وقد قالوا لى، إن الماء الذى يجرى جلبه من البئر الموجود تحت البازلت، له مذاق مثل مذاق مياه الخنادق؛ وربما كان ذلك المذاق قريب من مذاق الكبريت. كنا قد تركنا ناقتنا فى الشارع بعد أن قيدناها من ركبتها .

جاء أشخاص كثيرون لزيارتنا فى المساء علموا بنبأ وصول الغرباء؛ - كان الزوار من الرجال السود. حكى غروسيب لهم عن حكايته فى الغزو؛ ورد عليه أولئك الزنوج، "والله! هذا باستثناء أننا فى الصباح نتجمع لرعاية تلك الماشية - !" بدأ هؤلاء الزوار يخافون على حقول القمح البعيدة، كما بدأوا يخافون أيضا من أن يسطو أحد على ماشيتهم. كان بصحبة هؤلاء الرجال السود الذين جاءوا لزيارتنا فى المساء رجل أبيض، تنم ملامحه على أنه من العسكر، وكان يحمل معه فانوسا إضافة إلى غليونه الذى يصل طوله إلى ياردة كاملة: استنتجت أن ذلك الرجل الأبيض كان من السكان

المخلطين فى المدن. جلس ذلك الرجل صامتا وراح يدخن وعيناه جاحظتان، وكان يطيل النظر إلينا طول الوقت؛ ثم مر على الشبوك Chibuk وسألنى عن الأخبار. هذا الرجل الأبيض لم يكن على وفاق مع عبد الهادى، وكان يحرك الفنجان الثانى ويلوح به، بعد أن قدمه له المضيف. استمر ذلك الرجل الأبيض فى التدخين ولكن بصورة معتدلة، فى الوقت الذى كان فانوسه مشتعلا؛ لمدة ساعة [من أجل أن يُبلَّغ ملازم خيبر العفن بوصولنا] . وهنا قال لى رفيقى هامسًا: "ذلك هو أحمد؛ كان من قبل يعمل بالجندية وهو حاليا واحد من تجار خيبر." – ومحمد النجومى، هو شقيق أحمد، وقد أصبح أحمد المدافع الفذ عنى فى خيبر اعتبارا من صباح اليوم التالى لوصولى إليها: أحمد ومحمد النجومى هذين من مواطنى المدينة (المنورة). كنا قد أوشكنا على انتصاف الليل عندما همت صحبة شرب القهوة بالانصراف؛ وهنا همست لغروسيب: "هل سيقدمون لنا العشاء، أو، أليس هذا هو موعد النوم؟ مبلغ علمى أنهم ذبحوا من أجلك؛ فقد شاهدتهم يحضرون خروفا، وأتوا به إلى الشرفة منذ فترة طويلة." – " من هو شيخ القرية؟" – " العبد الهادى هو شيخهم، وسوف نجد أنه رجل طيب." كذب رفيقى مثل البدو الرحل (المخادعين)، لكى يلتمس لنفسه عذر عدم توصيلى إلى قرية ولاد على.

فى نهاية المكان نزل مضيفنا هو وأخوه من فوق سطح المنزل، وهما يحملان صينية معدنية عليها طعام من الذرة (وربما كان نوعا من السرغم): نظرا لأن الجراد كان قد أتى على نباتات القمح فى فصل الربيع، كانت الذرة هى المادة الغذائية الوحيدة التى تبقت لهم فى خيبر.

ومع طلوع نهار اليوم التالى نزل غروسيب إلى الشارع على وجه السرعة؛ "قال: مع السلامة، فى أمان الله ، وأرجو أن تسامحنى على أى خلاف حدث بيننا، يا خليل؛ "وتناول غروسيب يدى اليمنى (وفى تخوف من الغريب) انحنى على يدى وقبلها . وهنا تسلق هادى، شقيق مضيفنا، عنق ناقته ليركب فوقها فى النهاية؛ هذا الشاب الزنجى قوى البنية ومعه بندقيته الفتيلية الطويلة معلقة فى كتفه، كان فى مقدمة الركب وليس عليه سوى التونك فقط ومن فوقه الحزام hazam أو إن شئت فقل الجبخانة. توجد فوق

هذا الحزام أيضا أكياس تستعمل عبوات فارغة، كما يوجد أيضا فتيل وزناد، وفى الحزام أيضا خطاف يعلق الرجل فيه حذاءه - إذ جرى العرف أن يمشى الناس هنا حفاة الأقدام. هذا الحزام، أو إن شئت فقل الجبخانة يجرى تزيينها بأزرار من النحاس الأحمر، وتزخرف أيضا بسلاسل معدنية؛ هناك بعض الشبان الذين يظلون محزَّمين طول الوقت بتلك الأحزمة التى هى من معدات الحرب والقتال. ويقال دائما عن القبائل التى تكون مزودة بالأسلحة إن "لديها الكثير من المحزَّمين." - وكان هادى قد انصرف للوقوف على نتائج الغزو الذى جرى بالأمس.

جاءنى على الفور عدد من القرويين يطلبون الدواء: كانوا جميعا مشحونين بالكلمات الموجعة؛ كانوا جميعا قد جاءوا للشحاذة وليس للشراء. وهنا تركتهم جالسين وخرجت لاستطلاع المكان ، لأنى كنت فى خيير.

أرسل مضيفنا ولده ليكون لى مرشداً؛ هذا الولد مشى بى فى حارة من الحارات، ثم طلب منى الدخول من عتبة بيت من البيوت لكى يرينى عينا من عيون الماء. دخلت البيت: - كان ذلك البيت مسجداً! ولذلك تراجعت خارجا منه على وجه السرعة. عندما سمع الأب (الذى كان قد أعطى تعليمات لولده من قبل) من ولده عندما عدنا إلى البيت، أننى تركت المكان بلا صلاة، نزل الرجل وقفل باب المنزل الرئيسى. وعاد الرجل وتناول مسدسه من الجدار وهو يقول: "هيا بنا نخرج سويا وإنه سوف يفرجنى على البلد." وعندما أصبحنا فى الشارع اقتادنى الرجل من خلال طريق يؤدى إلى أحد البساتين، إلى خارج المكان.

مررنا بطريق مسوّر خلال النخيل ومنه إلى مكان واسع فيه عشب برى ورماله من النوع البركانى الأسود، والناس هنا يطلقون على ذلك المكان اسم الصفصافه es-Sefsafa : فى هذه المنطقة أرانى بداية المجرى المائى الذى ينبع بقوة من تحت الفجَّارة. الماء الذى يخرج من هذه العين مالغ المذاق وله رائحة الكبريت مثل الماء الذى فى قرية العلا، وشاهدت فى ذلك الماء أسماكا صغيرة اللون ظهورها خضراء اللون وأسماكا أخرى بطونها فضية اللون: - والناس هنا يطلقون على كل أنواع الأسماك اسم

"الحوت" hut . "قال مرشدى: هذا هو المنْزل (الصيفى) للدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، وهم ينصبون فى هذا المكان خيام العسكر." جلسنا على الأرض، وحملق الرجل فى وجهى، ثم سألنى، "هل أنا أخشى الدول وأخافها؟" "هل حكومة الدولة هى الأفضل أم حكومة بن الرشيد؟" - لقد خلصتنا الدولة من البدو، - ولكنها تحملنا أعباء كثيرة."

مررنا بمدفن من المدافن (جبّانة) أرضه من الصخر البركانى الأسود وعليها قشرة من الأملاح: كانت الأكوم الدالة على اللحود معلمة بشواهد القبور المصنوعة من البازلت الغشيم. أرض الجنائز هذه ترتفع من فوق الأجساد التى تحتها، مثل التربة البستانية فى فصل الربيع، إذ فيها بعض النباتات الجديدة. المنظر كله مخيف فى خيبر! - لا شئ فى هذا المكان لا يملأ عين الغريب بالقلق وعدم الارتياح.

- " قال رفيقى، أنظر هذا نبع سيدنا على! - شاهدت بركة دافئة الماء ونبع ينساب منه الماء أيضا. - هنا، قتل سيدنا على [زوج فاطمه الزهراء] مرحاب Marhab (*)، بأن فصل رأسه عن جسده، كما أن حد سيفه شق تلك الصخرة، التى تراها هناك منفصلة على الأرض: " - وعليه رجعنا إلى الوراء. - " ثم قال: وهنا أيضا مسجد (سيدنا) على." ومبنى المسجد جميل، وهو مبنى من كتل البازلت الغشيم، والمؤكد أن هذا المسجد قديم. هذه القرية يتعلم أطفالها القراءة والكتابة يوميا على يدى الشيخ المسئول عن الدين.

وبعد أن سرنا حول الدائرة، "قال: هيا بنا نذهب إلى الأمير." هذا هو الاسم الذى أطلقه ذلك القروى على الأغا aga أو إن شئت فقل الحاكم أو الوالى الذى يترأس حوالى عشرين فرداً من عجيل المدينة (المنورة). هؤلاء العجيل، أو إن شئت فقل: الجمّالة، الذين يركبون النياق كانوا من عرب نجد من قبل؛ ولكنهم الآن، بحكم تأخر وصول المرتبات التى تأتى من الدولة (الامبرطورية العثمانية) فقد توقف أولئك النجديون عن القيام بخدمة النقل تلك. هؤلاء العجيل عبارة عن مجموعة مخلطة من مجموعة قليلة من

(*) مرحاب : أخر شيخ من شيوخ اليهود فى خيبر . (المراجع)

النجديين (معظمهم من قرويى القصيم، ومن البدو الرحل المساكين)، ومن الأحباش، والأتراك، والألبان، وكذلك المصريين، ومن الأكراد وأيضا من الزنوج. والعجيل فى خيبر، يمشون حاليا على أقدامهم: فقد ماتت بعض نياقهم، أما البقية الباقية من تلك النياق فهى حاليا فى مرعى بعيد بصحبة البدو الرحل. هؤلاء العجيل يصرفون يوميا مخصصات تعيينات لتلك النياق: الحى والنافق منها على حد السواء؛ وإلا كيف يمكن لهؤلاء التعساء البقاء على قيد الحياة؟ وبخاصة أن، هؤلاء العجيل لم يلمسوا شيئا من أجورهم (اللهم باستثناء شهر أو شهرين) طوال هذين العامين الماضيين. كانت هناك قلة قليلة من الرجال المسلحين فى خيبر يقومون بأعمال الضبطية zabtiyah ، أو إن شئت فقل: يقومون بأعمال الخدمة الشرطية. – قال رفيقى عبد الهادى: "أغا هذه الجماعة الضبطية، كردى الأصل."

نزلنا إلى شارع جانبى، إلى صُفّة، كانت عبارة عن غرفة يتناول الجنود فيها القهوة: كانت السيوف والبنادق معلقة على شماعات ومشابك مثبتة فى الجدران المبنية من اللبن. وعقب دخولنا الى تلك الصفة، دخل أيضا بعض الجنود؛ كل أولئك الجنود كانوا من الأحباش أصحاب البشرة السمراء وكانوا يرتدون (مثل أهل المدن) لباسا أبيض اللون. كانوا عائدين ومعهم بنادقهم، بعد اختبار مهارتهم، ورحبوا بنا بطريقتهم الخاصة التى يشتهر بها أهل المدينة (المنورة)، ثم جلسوا لتصليح القهوة. كنت أتعجب ونحن نشرب القهوة سويا أنهم لم يطرحوا على أى سؤال! وهنا وقفنا ورحلنا عن المكان. وبينما كنا ننزل على الدرج المبنى من اللبن، سمعت صوتا أجشًا من بينهم يقول: "لقد فهمت، إنه عدو adu ؟" – وسمعت إجابة تقول: " ولكن دعه وشأنه فترة من الوقت."

كان من المناسب عندئذ تعريف الناس بنفسى هنا . وعندما سألتهم أين مكان الأغا الكردى؟ تعجب مضيفى عبد الهادى قائلا: "ألم تره! لقد كان جالسا فى منتصف المكان الذى يحيط بالمدفأة." إنه عبد الله Abdullah السروان es-Siruan ، رئيس طاقم المدينة (المنورة) العسكرى: كان والده من "الأكراد"، أما هو فقد كان رجلا أسودا

حبشي الملامح، لم يصل بعد إلى منتصف العمر، – وهو ولد امرأة عبدة (حبشية). كنت جديدا على مسألة تمييز هذا العالم الحجازى، وعلى تمييز التصرفات المدنية الخاصة بالحرمين. فى الشارع شاهدت وجهين أبيضين وهما يخرجان من مدخل أحد المنازل؛ كانا من الجنود المرضى، كما أن الرجال الذين كانوا يتكئون على عكاكيز طويلة مصنوعة من جريد وجذوع النخيل، كان يبدو عليهم الشحوب والوهن فى محيط اسوداد الأشياء المخيف فى خيبر: هؤلاء الرجال جاءوا لينضموا إلىّ، باعتبارى رجلا أبيضا، وواصلوا المسير دون أن ينبسوا ببنت شفة. كان واحداً منهم يدعى محرمًا وله لحية شعثاء؛ أما الثانى فكان مصريا. وعندما رجعنا إلى البيت مرة ثانية قام عبد الهادى بإغلاق باب بيته؛ ثم صعد إلى الدور العلوى وقال: "خبرنى، هل أنت مسلم؟ وإذا كانت الإجابة بلا، فسوف أحمّل أغراضك على بقرة وأرسلك الى مكان أمين." – " أيها المضيف، أنا من الإنجليز؛ دولتى، وربما تكون قد عرفت ذلك، صديقة للإمبراطورية العثمانية، وأنا من أولئك الذين تسميهم أنت النصارى."

خرج عبد الهادى من منزله فى فترة العصر وترك باب منزله مفتوحًا! وعلى الفور دخل من الباب شخص يدعى سالماً وهو من بدو العجيل، جاء يطلب منى دواء، كما جاء أيضا شخص حبشى آخر يدعى سرور Sirur ؛ – هذا الحبشى الذى اسمه سرور هو الذى قال عنى أنى عدو. – قال سالم: " نصف ريال مقابل الجرعات التى تعطى لعلاج الحمى!" (الأملاح والكنين). غمغم الحبشى قائلا: 'ولكنك سترى على الفور أنى ينبغى على أن أقدم تلك الجرعات مجانا.' وأردف الحبشى قائلا:" هذا الرجل لا يفهم الدنيا حق الفهم، لأنه لا يستطيع تمييز الناس ومعرفتهم على حقيقتهم: يا أنت ! من أى بلد تكون؟" – "أنا أعيش فى دمشق." – " ها! وذلك هو بلدى، ولكنك لاتتكلم العربية بطريقة سليمة؛ أنا أعتقد أن لدينا نصرانيا هنا : آه ! ما الذى أتى بك إلى هنا؟" – "أود زيارة البلاد القديمة لليهود." – "بلاد اليهود! ولكن هذه هى ديرة dirat الرسول er-Rasul . "ومن هنا فقد تخلوا عنى. ثم عاد عبد الهادى، "قال عبد الهادى: ماذا يمكن أن نفعل؟ لأن الناس، وأنا أقسم بالله، مقتنعين بأنك لست مسلمًا." – "هل ينظرون إلىَّ على أنى عدو! وماذا عن الأغا.....؟" – "آه ! إنه جبَّار jabbar ، إنه طاغية كريه ومكروه أيضا.

"ومضى مضيفي إلى حال سبيله وجاءني سرور، الحبشي، مرة ثانية؛ - لقد كان موفداً من قبل الأغا. سألني سرور، "ماذا أكون؟" - "إنجليزى من أولئك الذين يناصرون الدولة (الإمبرطورية العثمانية)." - " إذن، أنت نصراني؛ صلى على النبى، - هيا، تكلم! "وبمساعدة شخص آخر من العجيل راح ذلك الحبشي الوحشى يدفعنى إلى الدِّرج (السلم). قال بعض القرويين الذين وصلوا إلى المنزل: إن سرور من الشرطه، ولذلك وافقت على السير معهما. "(قال الواقفون): حسن، أحضره، ولكن بلا عنف." - "قل لى قبل أن نبتعد عن هذا المكان: هل ستقتلنى بعيدا عن المنزل؟" كنت قد تناولت مسدسى وأخفيته تحت ثوبي، عندما استشعرت دلائل الخطر.

فى نهاية الشارع التالى كان هناك شخص يجلس على مصطبة من اللبن هو الذى سيقوم بالحكم على، - كان ذلك الشخص هو ذلك الكردى الحبشى أسمر اللون الذى قالوا عنه إنه هو أغا الجنود الموجودين فى خيبر. - كانت تسير خلفنا مجموعة من القرويين، ولكنهم جميعا كانوا يسيرون بلا صياح . - خطر ببالى، يا لهذه الأرض التى أنا عليها الآن! ومن هم أولئك الذين يتخذوننى (بسبب اسمى المسيحى الحلو) عدوا للجنس البشرى؟ - صاح سرور بصوته المدوى، موجها كلامه لذلك الشخص الذى كان يجلس على المصطبة الطينية "لقد ألقيت القبض عليه وأحضرته- إنه نصرانى!" قلت: "ماهذا ! إننى إنجليزى، وأنا من أمة صديقة، فلماذا تعاملونى بهذه الطريقة؟ رد قائلا: والله لقد كنت خائفا اليوم، هل أنت إنجليزى فعلا ، ألست مسكوفيا؟ " - "لقد قلت ذلك بالفعل!" - "ولكنى لا أصدق ماقلت، وكيف لى أن أثق بك؟" - "عندما أجبتكم هنا فى خيبر بأنى نصرانى ، ألا يحتم ذلك أن أكون صادقا فى بقية الأشياء التى قلتها؟" - "إنه يقول كلاما طيبا؛ ارجع يا عبد الهادى، وأحضر أمتعته، وتأكد من أنك لم تترك أى شىء منها." كان الشارع موحلا على إثر سقوط الأمطار؛ وعليه تكلمت مع عبد الله، الذى هب واقفا، واقتادنى إلى مكان مفتوح فى القرية المبنية من اللبن، وهم يطلقون على ذلك المكان من القرية اسم 'السحيم' es-Saheym الذى معناه 'الإناء الصغير؛ - "(أردف عبد الله السروان، - كان الرجل أميا)، أقسم بالله، أننا إذا ما وجدنا معك أى نوع من الكتب، أو ذلك الذى يسمونه، - خرائط البلدان، فإنك لن ترى مثل هذه الأشياء

بعد اليوم؛ وسوف ترسل كل هذه الأشياء للباشا فى المدينة (المنورة). ولكن أليست معك آله، - آه! أنا أفكر فى اسم هذه الآله حاليا، - لقد وجدته! مقياس الهواء؟ - ومن أين جئت أنت؟" - "أنا جئت من حائل؛ وأنا معى أيضا وثيقة سفر من ابن الرشيد." أعطى عبد الله الوثيقة لصبى من الصبية الذين يتعلمون فى المدرسة فى فترة الصباح ، - والسبب فى ذلك أن الواقفين كبار وصغاراً لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة. عبد الله: استدعوا هنا الشيخ صالح، ليقرأ ويكتب لنا." جرى بعد ذلك إحضار حصير مصنوع من ليف النخيل من منزل من المنازل، ثم فردوا ذلك الحصير لنا على المصطبة الطينية. جلست على ذلك الحصير مع عبد الله. - وشاهدت جمعا من القرويين السود وقد وقفوا جميعا وراحوا يطيلون النظر إلينا.

وصل صالح، شيخ هذه القرية الزنجية * - وهو رجل كبير السن أعرج - ومعه محبرة طويلة مصنوعة من النحاس الأصفر، ويمسك فى يده جزء من ورقة كبيرة. سروان: "أكتب يا صالح الأشياء التالية حسب الترتيب.[أحضروا خُرُج الجمل الكبيرة الخاصة بى ووضعوها أمام سروان] أخرجوا الأشياء الواحد بعد الآخر؛ وعندما أنادى عليك أن تدونها يا شيخ صالح. أبدأ: لجام جمل، قربة، جوالات من التمر، لبن مجفف وتمن (أرز)؛ - ماهذا؟" - "صندوق دواء." - "افتحه!" وبينما كنت أرفع غطاء الصندوق تراجع كل هؤلاء السود إلى الوراء وراحو يكتمون أنوفهم. كان سرور يتناول فى يده كل ما يصادفها، بوصلة مربعة، - كانت البوصلة ملفوفة فى قطعة من القماش." فك هذه البوصلة!" قال عبد الله. قلّب الرجل البوصلة فى يده ثم قال، "أوه ! هذه هى صابونة" ، ومما أراحنى أن عبد الله . مرر البوصلة على أنها صابونة. ولكن عبد الهادى شاهد شيئا ما، فمد يده فجأة وأخذ مشطا؛" ها! ها!" صاح المضيف (الذى كان يحمينى

(*) القرية الزنجية : يرجع سكان تلك القرية إلى بلاد التكرور ويرتد فى السودان الغربى . وكان هؤلاء الزنوج المسلمون يأتون إلى الحج فيجتازون الصحارى ويصلون إلى الحبشة ومن مينائى مصوع وسواكن يتجهون إلى جدة ومنها إلى الحرمين الشريفين . ويعود بعضهم بعد تأدية فريضة الحج إلى بلادهم ولكن السواد الأعظم لا يجدون فى أنفسهم القدرة على القيام برحلة العودة فيقررون الإقامة فى مدن الحجاز وهناك يتعاطون أحد الأعمال وتقوم نساؤهم بصنع الخزف وبيعه فى الأسواق . (المراجع)

ويحتوينى حتى تلك اللحظة؛ ولكن عقله الذى تحسن مؤخرا تحول فجأة إلى التشدد - والقرية هنا تطلق على عبد الهادى كنية "أبو Abu صُمَّاخ Summakh" بمعنى "أبو خشخش") ما هذه الآلة الخطيرة، - ها! نصرانى؟ ياعبد الله، أطلب منه أن يعلل وجودها معه؛ وحاول أن تميز إن كانت تلك الآلة نوعا من الجن ابتكروه لأذى المسلمين!"

جاء الدور بعد ذلك على علبة صفيح كبيرة فتحتها أمامهم: كانت العلبة مملوءة بالشاى، مشروبى الوحيد. "حسن، يمكن أن تغلق هذه العلبة مرة ثانية، "قال عبد الله وجاء الدور بعد ذلك على حزمة من الكتب." أها! تعجب الرجل الكبير، الأشياء السابقة - ألم تدونها يا شيخ صالح؟ - كل شىء سيدون، ماعدا الكتب! - لا يمكن لك أن تحصل على هذه الكتب مرة ثانية." وهنا عثروا على بكرة من النحاس الأصفر هى شريط من شرائط القياس. "ها! صاح الرجل، خبرنى، ويجب أن تقول الحق والصدق (علمنّى alemny بالصحيح b'essahihh) ، أليس هذا هو مقياس السماء؟" قلت له، معى هنا ورقة عبارة عن منشور سفر دوّار من وإلى سوريا." - "ثم قرأ عليه المنشور الشيخ صالح." حملق الشيخ صالح فى الوثيقة المكتوبة فترة من الوقت؛ - "لقد عرفت ما فيها، ولكنى لا أعرف على وجه الدقة الأسماء التى فيها، لأنها مكتوبة باللغة التركية، [كان الخط عربيا ولكنه مكتوب بالخط الفارسى !] ، وهنا فى أسفل الورقة يوجد خاتم الباشا." - ثم قرأ اسمه." هو! هو! (صاح سرور) هذا الباشا كان منذ زمن طويل؛ وقد توفاه الله، أنا أعرف ذلك جيداً ." - وهنا صدرت عنى تنهيدة. وهنا تعجب عبد الله متسائلا "لماذا كل هذا؟" اعتمد على المولى (أى الله)."

- الذى أدى إلى ارتباكى فى النهاية، هو إخراجهم لجراب المسدس من قاع الجوال! - كانت كل أمالى معلقة على ذلك السلاح." أها! جراب مسدس ! تصايحت أصوات كثيرة، وراح الجميع يوجهون إلىَّ عيونهم التى كانت تنظر إلىَّ شذرا ، أوه! يا أنت أين المسدس؟" لم أرد عليهم بشىء ، - وفى هذه اللحظة من لحظات التشوق والانتظار تعجب أحد الواقفين وهو يقول :" من الواضح أن ابن الرشيد أخذ منه المسدس." - "رد القرويون السود الذين كانوا يقفون من حولى قائلين : نعم،

لقد أخذ ابن الرشيد منه المسدس؛ لقد أخذ بن الرشيد المسدس منه، أرجو أن تصدقنا، يا عبد الله." – المسدس بين أمثال هؤلاء الناس، يعد شيئا ثمينا ويحفظونه في جراب مزخرف؛ ولم يخطر ببال هؤلاء الناس أني يمكنني أن أحمل مسدسا بلا جراب تحت القميص الذي أرتديه. بعد ذلك خطر ببالي، 'هل سيقومون بتفتيشي تفتيشا ذاتيا؟' – ولكن التفتيش الذي من هذا القبيل يعد انتهاكا صارخا وسافرا؛ بالإضافة إلى وجود عدد كبير جداً من الشهود. يبدو أن سرور وافق على كلامهم، ولكني وجدته يقلب الأمر في ذهنه وكأنه يقول: 'ما الذي حدث لمسدس النصراني؟' هذا السلاح الثقيل، الذي أحمله دوما معلقا ومتدليا من عنقي، لم يكن يضايقني بأي حال من الأحوال؛ يضاف إلى ذلك أني لم أستطع أن أخلع عني عباءتي (بشتي) (التي كانت تستر المسدس) في ذلك الجو المشبع بالرطوبة. – وعليه سألني سرور،" هل معك نقود، وأين تخبئها؛ وسيكون هذا من مصلحتك، – وأنا يمكن أن أكون على ودٍّ معك بعد ذلك يضاف إلى ذلك أن هذه النقود يمكن إثباتها أيضا في الكشف؛ وخبِّرنا إن كان لديك شيء آخر لا نعرفه؟ – وأنتم، يا أيها الرجال، تأكدوا من أن إبرة لن تضيع من أمتعة ذلك الرجل!" – "إليّ بتلك العلبة الصفيح التي شاهدتم فيها الشاي: كيس نقودي في وسط تلك العلبة الصفيح، – وسوف تجدون فيه ستة ليرات "أحصى اللص تلك الليرات الست، بكثير من الفرح، في راحة يده؛ وبعد أن قفل كيس النقود وضعه في صدره، وسوف توضع خُرجه وجوالاته في الحفظ والصون في منزلي."

جاءني شخص يدعى أحمد، كنت قد شاهدته في الليلة السابقة؛ كان ذلك الأحمد يجلس هادئا بين النظارة، وطوال ذلك التفتيش، كان يومئ لي كثيرون إيماءات تنم عن الود." ما ma عليك aleyk ، ما عليك ، اهدأ، قال أحمد: لن يحدث لك مكروه." – عبد الله : "يا عبد الهادي ،اسمع له وخذه للإقامة معك؛ وهو أيضا يستطيع أن يعالج المرضى." رد العبد قائلا: "هل استقبل الكافر مرة ثانية! – المطلوب منه هو النطق بالشهادة وسوف استقبله عن طيب خاطر." – "إذن، يجب أن يقيم مع الجنود؛ وأنت، يا أمان – وهو حبشي من أفراد العجيل – خذه معك إلى سكنك: وسوف يأخذ خليل معه مؤنه وصندوق الدواء."

رأيت ذلك الرجل الضخم يقف مرتفع القامة والهامة خلف ذلك الحشد من الناس - فقد وصل ذلك الرجل إلى خيبر منذ وقت قصير - كان ذلك الرجل يرتدى ملابس واحد من الشيوخ ، وكان يحمل سيفا، وخطر ببالى أنه ربما كان شخصا بارزا من بين الجنود غير النظاميين. جاءنى ذلك الرجل، وهو يدب بقدميه (بطريقتهم المفاجئة المعهودة)، ووقف أمامى بابتسامة تنم عن إنه رجل قوى؛ وراح ذلك الرجل يتكلم معى بطريقة ودية وشيقة. تعجبت عندما رأيت اسمرار بشرة ذلك الرجل، - ولكن يبدو أن هذه السُّمْرة أمرا شائع بين أهل الحجاز، - وهو بدوره لم يرقى حياته من قبل رجلا فى مثل هذا البياض والاحمرار؛ كان ذلك الرجل، هو محمد النجومى، شقيق أحمد النجومى، الذى أصبح لى اعتبارا من اليوم التالى، بمثابة والد لى فى قرية خيبر. "قال عبد الله، انصرف الآن مع الجندى." - قال بعض الواقفين: "ما عليك، ما عليك" عبد الله: " ستبقى هنا مدة أيام قلائل، وسوف أرسل مكتوبا للباشا (باشا المدينة المنورة) ومعه الكتب والأوراق ." - " هو! صاح سرور قائلا: وأنتم يا أيها الناس، أقول لكم إننا سوف نرسل إلى الباشا؛ وإذا ما جاء من الباشا ما يفيد بقطع عنقه، فسوف نقطع رأسك أيها النصرانى." " قال بعض الواقفين: لا تشغل بالك بما يُقال، وبخاصة ما يقوله ذلك الرجل، - إنه وحش." كان ذلك الفتوة الحبشى مكروها فى خيبر، والذى لم يكن يتشجع إلا على الحريم فقط، وقد اكتشفوا أنه خَنُوف أو إن شئت فقل: خوَّاف، وبخاصة فى العمليات الحربية التى دارت مؤخرا.

صاحبت أمان إلى تلك الصُّفَّة الصغيرة التى كان يعيش فيها مع رفيق له فى البيت المجاور. كان الاثنان حبوشا Habush (أى من الأحباش) ، أو إن شئت فقل من أرض الجالا Galla . هذان الحبشيان خفيفا الحركة وحسنهما يشبه حسن النساء؛ كانت سيماء وجهيهما طيبة أيضا؛ بشرتهما تميل إلى اللون الأصفر الضارب إلى اللون البنى، أو قد تكون بنية بلون النحاس، أو قد تكون من اللون البنى الغامق، أو قد تميل هذه البشرة إلى السواد؛ وهذا يعتمد على المكان الذى يعيشون فيه، - والبلد هنا واسع شاسع. يضاف إلى ذلك ، أن أصوات هؤلاء الأحباش عذبة، وهم لا يتكلمون لغة حبشية واحدة، الأمر الذى يجعل لغة القبائل البعيدة غير مفهومة لبقية القبائل الأخرى.

لم يستطيع أمان أن يفهم كلام رفيقه فهما تاما (ومن ثم فقد كانا يكلمان بعضهما البعض باللغة العربية) ، ولكن من الواضح أن أمان كان يتكلم لغة واحدة مع سرور. علمنى أمان كثيرا من مفردات لغته: ولكنى لا أذكر حاليا من تلك الكلمات سوى كلمة "بيزان bisan التى معناها "ماء" وبالرغم من أنهما أُحْضِرا إلى الحجاز على أنهما عبدان يوم أن كانا طفلين إلا أنهما لم ينسيا بلديهما ولا لغتهما: هناك أعداد كبيرة من الأحباش فى كل من مكة والمدينة (المنورة) ، إلى حد أن اللغة الحبشية يجرى الحديث بها من منزل إلى آخر. بعض النساء الحبشيات العبدات الجميلات أصبحن زوجات فى العائلات المدنية، بل وفى العائلات الراقية والكبيرة، بعض آخر من تلك النساء الحبشيات يعملن ممرضات وخادمات فى المنازل؛ يضاف إلى ذلك أن أطفال الحضر يربون بين هؤلاء الخادمات الحبشيات . - هؤلاء الرفاق المساكين طلبوا منى الهدوء، وطمأنونى أن كل شىء سوف ينتهى نهاية طيبة، بعد قليل من الصبر: واحدة منهن وضعت أمامى الخبز، وخرجت من بيتها لتقترض للضيف شيئا من التمر. قالوا: "فيما يتعلق بالزنوج (العبيد) هم ليسوا أناسا وإنما هم ثيران، وقردة، ويتملكهم الشيطان، فضلا عن كونهم بخلاء." - هؤلاء الأفارقة الذين يشبهون الساميين يحتقرون السودان(*) ، أو إن شئت فقل : عرق الزنوج الذين ينحدر منهم العبيد، احتقارا شديدا. سمعتهم يقولون فى خيبر :" يا الله! هل يمكن أن يكون أصحاب هذه الرءوس الصوفية من أبناء آدم؟"

سمعنا صوت محمد النجومى وهو يصعد الدَّرج (السُّلم) . قال: "هذه أول مرة أجىء فيها إلى هنا، ولكنى أجىء "إلى هنا من أجلك." بعد حلول الليل خرجنا سويا، ورحنا نضىء الطريق أمامنا باستعمال جريد النخل المشتعل، وقصدنا إلى قهوة الجنود. أشار لى عبد الله، الذى أغناه كيس نقودى اليوم، أشار لى بالجلوس إلى جانبه. استغرق حديثهم وكلامهم شوطا كبيرا، وراح محمد النجومى يجاهر بمقولته الشهيرة: كل Kull واحد Wahed على aly دينه dinu ، بمعنى "لكم دينكم ولى دين!" -

(*) "السودان"هنا عكس "البيضان." (المترجم)

ثم أردف بعد ذلك بشرحه الذي يقول: "هذا يعني أن اليهودي له شريعته ، وأن النصراني له شريعته، والمسلم له شريعته أيضا؛ إي ، وقد يكون الكافر رجلا أمينا في عقيدته." كان النجومي واحدا من الشخصيات البطلة، فقد كان يجلس وسيفه على ركبتيه، منحنيا وموافقا على كل كلمة يقولها ذلك الوغد الأسود الذي يدعى عبد الله : هذه هي آداب الحضر الأتراك. وفي بعض الأحيان (وعندما سمعوا مني أني لا أعرف اللغة التركية) كانوا يتكلمون مع بعضهم البعض باستخدام هذه اللغة . كان محمد النجومي يجيب بعد كل قول رحيم يصدر عن ذلك المسئول الأسود، بالعبارة الدينية التي تفيد المدح [بالرغم من أن ذلك كان يبدو من قبيل التهكم] ، التي تقول : الله ullah يبيِّض Yubeyith وجهك Wej-hak بمعنى "بيَّض الله وجهك في يوم القيامة!" كانت في صوت ذلك الرجل القوي هنة من هنات أصوات النساء، - وحيثما كانت هناك نكهة صغيرة من الصفات الوراثية في الأم، أصبح ذلك مصدر حسن وجمال في الرجل. لم يكن محمد النجومي شبيها بالعرب تماما، نظرا لأنه كان يفضل الحديث المرح المشوب بالرحمة والحنان : وبالرغم من أنهم كانوا متيمين بالمرح السخيف، إلا أني لم أعثر بين أهل الجزيرة العربية على رجل مرح يشيع البهجة والسرور:

كان محمد وأحمد ابنين لتاجر من تجار المؤن والتموينات الأكراد في المدينة المنورة؛ أما أمهما فكانت من نساء قبيلة حرب في منطقة الفراع؛ والفراع هذه واحدة من مستوطنات أمة البدو في الحجاز، في المنطقة مابين الحرمين. شربنا القهوة مع الجنود؛ إلا أن الحماية الطيبة لم تكن متوفرة هنا في بيوت الشَّعر (الخيام) ، بسبب التضييق الحضري، والاستبداد التركي فضلا عن الطاعون المصري الذي يجعل الناس عالة على المجتمع. وتوصل هؤلاء الناس إلى اتفاق مفاده أن النصارى لهم الحق في التجول في أي مكان فيما عدا أنهم لا يحق لهم زيارة الحرمين: وقال البعض: " أليس هناك المزيد من دين خليل في جدة؟ والطريق يقطعه المسافرون في ليلة واحدة إذا مابدءوا من مكة." كثيرون من أهل الحجاز ينطقون مكة Mecca على إنها "مكي" Mekky] . قال عبد الله في النهاية: "والله، إن خليلا رجل أمين، فهو يقول الصدق ، وأنا أحبه." هنا بدأت أشعر بالقلق، وأرسل معي عبده لينير لي الطريق وأنا عائد إلى مسكني.

وعندما سمعت، بعض الشائعات، نظرت إلى الخلف، ورأيت ذلك الزنجى الحافى وهو يرقص خلفى فى الشارع وقد شهر سيفه .

قال لى عبد الله ونحن نشرب قهوة الصباح : إن من حقى المشى كيفما أشاء فى كل أنحاء قرية خيبر؛ وتساءل المنافق الأسود 'هل استرحت بما فيه الكفاية؟' وعندما جاء المساء، قام بعض من جنوده بإنارة الطريق لنا مستخدمين فى ذلك جريد النخل إلى أن وصلنا إلى كوخ رجل يدعى إبراهيم Ibrahim القاضى el-Kady . وبينما كنا جالسين فى صُفَّة إبراهيم هلَّ علينا كثير من كبار القرويين. قدم إبراهيم أفضل ما عنده من تمر، وشب النار، وبدأ فى تجهيز القهوة، وأتى لحاكم القرية بغترته وقد ملأها بالتبغ الأخضر.

بعدئذ فغر عبد الله شفتيه السوداوين – ليتكلم لهم عن عثوره علىَّ فى خيبر، غريب، أو إنسان لم يسبق رؤيته فى حياواتهم." قال: ماذا يكونون أولئك النصارى ؟ – استمعوا جميعا! النصارى أمة قوية: ألم يقتل اثنين أو ثلاثة من النصارى فى جدة منذ بضع سنوات؟ – حسن، ماذا حدث بعد ذلك ؟ جاءت بوارج كبيرة من بلادهم وقصفت المكان بالقنابل: ولكنكم أيها الخيابرة لا تعرفون ماهى السفينه! – السفينة كبيرة، يصل حجمها إلى حجم الحصن (الحصن القديم بالذات) . بدءوا يقصفونا بمدفعيتهم، ونحن، يا من كنا فى القلعة رحنا نحن الآخرين نفتح النار عليهم؛ ولكن آه ! أين كانت القلعة؟ وهل تظنون، أن أحداً بقى فى المدينة؟ لا، لقد هربوا جميعا؛ ولولا أن الله صد عنا هذا الخطر، لما استطعنا مقاومتهم. ومن هم أولئك الذين يحاربون جدة؟ أقول لكم هم الإنجليزى، شعب هذا الخليل: الإنجليز أصحاب، أيدى طويلة، إى والله، إنهم جبابرة!

"اسمحوا لى بأن أروى لكم حكاية؟ – حدثت فى مدينة الشام مجزرة ومذبحة للنصارى(*)؛ ربما سمع عن هذه المجزرة أصغركم سنا، ولا أدرى إن كنتم قد سمعتم عنها فى خيبر. أنصتوا جميعا! أود أن يعرف كل واحد منكم مدى خوفى على نفسى،

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى مذابح الشهيد فى سوريا ولبنان (١٨٦٠) . (المراجع)

وهذا هو السبب الذى يجعلنى أبذل قصارى جهدى فى المحافظة على خليل [كان الحاكم العثمانى المناب فى خيبر قد استسمح الجمهور الأسود فى عدم الإقدام، على قتلى بالأمس! [أقول لكم: يا أيها السادة، إن النصارى أمة قوية؛ - ونحن يجب أن لا نفكر كثيرا فى مسألة التعجيل أو عدم التعجيل بقتل النصارى فى الشام ويجب أن تعلموا أن باشا الشام هو باشا الباشوات كما أنه حاكم على إقليم أو منطقة كبيرة، - والشام مدينة كبيرة إلى الحد الذى يجعل المدينة (المنورة) قرية صغيرة إذا ماقارناها بها؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك الباشا هو مشير أيضا mushir ، أو إن شئت فقل: إنه ماريشال جيش السلطان فى سوريا - هذا الباشا كان ملحقا، من حيث القيادة على السلطان! وهذا هو مايجب أن تعرفوه وتعلموه جيداً. أقول لكم إن هذا الباشا قيدوا يديه خلف ظهره واقتادوه كما لو كان مجرما عاما أمام كل الناس؛ وكان ذلك طبقا لما جاء فى الفرمان الذى أصدره السلطان - ويجب أن تعلموا جميعا أن الفرمان الذى يصدر عن سلطان الإسلام لابد من إطاعته وتنفيذه - قطعوا رأس ذلك الباشا! وتبع ذلك العقاب الذى أنزل بالباشا، عقابا مماثلا أنزل بأولئك الذين لعبوا الأدوار الرئيسية فى مذبحة النصارى؛ - ويجب أن تعلموا أن كل أولئك كانوا مسلمين! آه يا أصدقائى ! يجب علينا جميعا أن نحكم عقولنا، ولكن معرفتكم بالدنيا قليلة." - وهنا رد عليه واحد من أولئك العبيد السود قائلا: "إخ على ! عبد الله يقول هذا الكلام؛ الخيابرة لا يعرفون شيئا ! وهل نعرف نحن أى شىء آخر غير زراعة هذا النخيل؟ يضاف إلى ذلك أن أفكارنا لا تتعدى الحرة ولا تتجاوزها؛ وإذا ما قام أحد منا برحلة فإن هذه الرحلة تكون إلى المدينة (المنورة): كما أن قلة قليلة من أهل خيبر هم الذين زاروا حائل فى السنوات السابقة!"

سروان: "أنتم تعرفون الآن، مدى قوة النصارى عند السلطان، وتعرفون أيضا الخطر الذى أتعرض أنا له! ولدى الكثير الذى يمكن أن أقوله لكم عن هؤلاء الإنجليز، بل إن هناك بعضا من سفن السلطان يتولى الإنجليز قيادتها. ألم يسمع أحد منكم عن سفينة حربية كبيرة جاءت من اسطمبول، وعلى متنها خزانة كبيرة لدفع رواتب الجيش، وأن تلك السفينة ضاعت وضلت طريقها على الساحل الموجود فى الخلف؟

حسن قائد هذه السفينة كان إنجليزيا! رجل له وجه فظيع ومخيف، وله شارب كبير، يمكنك أن تلفه خلف أذنيه. لقد رأيت ذلك القائد بعيني، وأنا أقسم بالله، أنه لو قدر لأحد منكم أن يراه لخاف من النظر إلى وجهه. كان ذلك القائد يشرب. - وأنتم يجب أن تعلموا أن تلك هي عادة الإنجليز! وهم يشربون "الخمر" التي هي محرمة على المسلمين. جاء الحراس إلى ذلك القبطان وهو سكران، بعد دخول الليل، وقالوا له "سيادة القبطان، لقد سمعنا أصوات أشياء تتكسر، لقد دخلت السفينة في منطقة شعاب مرجانية، أصدر الأوامر بالابتعاد عن هذه المنطقة." رد عليهم قائد السفينة قائلا: "أربككم الله جميعا! استمروا في طريقكم." وبعد ذلك بفترة وجيزة جاء الخفر إلى القبطان وقالوا له: "أيها السيد، نحن الآن داخل منطقة من الشعاب المرجانية!" وقال لهم: "أية شعاب مرجانية؟ أقول لكم أبحروا إلى جهنم!" - كان الرجل قد فقد عقله بسبب السكر. وهنا اصطدمت السفينة الكبيرة بالصخور ، وضاعت تلك السفينة في الظلام بين الأمواج، وغرقت السفينة وعليها ثمانمائة شخص بالإضافة إلى ذلك القبطان، - وأمكن بعد ذلك انتشال صناديق النقود عن طريق الغواصين.

"أعتقد أنه من المناسب الآن أن أقول لكم من هو قنصل Konsul الإنجليزي: القنصل هو ممثل مقيم لأمة الإنجليز في المدن الرئيسية، - ولكنكم تعلمون جيداً، أنه لا يوجد قنصل في الحرمين، نظرا لأن الدخول إلى هاتين المدينتين (مكة والمدينة) مقصور على المسلمين وحدهم. هذا يعني أيضا، أنني إذا ما قتلت إنسانا، واحتميت بعلم القنصل، فإن أحداً لا يستطيع إلقاء القبض عليَّ وأنا في القنصلية، - ترى ما سبب ذلك؟ السبب في ذلك أنني تحت أو في حماية القنصل. ولعلكم تعلمون، أن تلك القوة التي للإنجليز ليست نابعة منهم وإنما هي نابعة من الفرمان الذي أصدره السلطان لهم. هل تسمحوا لي بأن أحكي لكم حكاية عن زيارة قمت بها للقنصل في جدة: كان ذلك القنصل إنجليزيا ، وهذا يعني أن ذلك القنصل كان قنصلا لأمة خليل! ولو قدر لخليل أن يذهب إلى القنصلية، وكان بحاجة إلى القنصل، فإن ذلك القنصل سوف يتحتم عليه إعادة خليل إلى محل إقامته في بلاده، - والرحلة بالبر إلى بلاد خليل تقدر بمسير اثنى عشر شهرا ، أليس كذلك يا خليل؟ في فصل من فصول الشتاء حدث

أن كنا معسكرين فى مكة، وأوفدنى الباشا لإحضار خمسمائة جوال من الأرز للجنود. وقصدت إلى جدة بصحبة واحد يعرفه البعض منكم: وبينما كنا جالسين فى منزل الحكومة، سمعنا أن القنصل الإنجليزى كان واقفا على الباب، وأنه يود مقابلة الباشا. وهنا أصدر الباشا إشارة، بأننا ينبغى ألا نقف عندما يدخل القنصل الإنجليزى، – هل تعرفون سبب ذلك؟ السبب أن القنصل كان نصرانيا! سمح للقنصل بالدخول، وبقينا نحن جالسين فى أماكننا. رحنا نتكلم مع بعضنا البعض؛ وكان ذلك القنصل يتحدث العربية بطلاقة، – وعلى نحو أفضل من خليل. وعندما علم القنصل أننا جئنا فى عمل رسمى، يتصل بالحكومة، وعندما عرف أيضا أننا أغراب فى جدة، دعانا القنصل إلى بيته؛ – وهذا البيت هو ما يطلقون عليه اسم الكونسلاتو el- konsulato أو إن شئت فقل: القنصلية. وذهبنا لزيارة القنصل فى القنصلية فى اليوم التالى؛ كان مبنى القنصلية مبنى فخما! واقتادنا من غرفة إلى أخرى. وحياة الله! تجاوزنا خمسة أبواب قبل أن نصل إلى القنصل، – خمسة أبواب!" – "عندئذ كان الرجل يبدو وكأنه خائف على نفسه ! (ضحك النجومى)، ألا يكفى باب واحد ؟" – "ولكنى أود منكم أن تفهموا قيمة ذلك النصرانى، – وماذا عن خدمة القهوة عند ذلك القنصل؟ صدقونى، ياسادة، إن أدوات القهوة كانت كلها من الفضة! صينية القهوة كانت عبارة عن طبق كبير ورائع من الفضة! هل بدأتم تفهمون ماأقول؟ – إذن، كيف سيكون حال حكومتهم! ولكن ثروة هؤلاء الإنجليزى لا تصدق!" – (أدار عبد الله رأسه الأسود.) النجومى: "النصارى لابد أن يكونوا "قويين" guwiyin (أقوياء) ؛ وهذا طيب تماما. وأنت تقول: إنهم لا يؤذون أحداً، إلا بعدأن يبادر الآخر بالأذى؛ يضاف إلى ذلك أن الإنجليز أصدقاء للسلطان، وخليل إنجليزى بالطبع: أليس الأمر كذلك ياشيخ خليل؟" عبد الله: "يضاف إلى ذلك أن قوّاسى (حملة الرماح) القنصل كانوا أكثر بهاء من قوّاسى الباشا! وأنا أقسم بالله، أن الرءوس الفضية التى توجد فى أعلى عصيهم، كانت أعظم وأبهى من الرءوس الفضية التى على عصى الباشا نفسه، – أقصد باشا مكة!"

بالرغم من جهل عبد الله بالتعليم المدرسى، إلا أنه كان يتكلم بذلك الكلام العامر بالإقناع الشعبى أو السوقى والذى يتكلم به القضاة الأتراك، ولكنهم يخفون وراء هذا

الكلام المعسول، القسوة فى استعمال السيف واللجوء إليه. والعرب هم والأتراك الذين تتمثل كتبهم فى وجوه البشر، وفى تجربتهم الحية مع الجنس البشرى، كما تتمثل أيضا شروحهم وتفسيراتهم أيضا فى الأقوال العامة الشائعة وفى آلاف الأمثال القديمة الخاصة بعالمهم الشرقى،لا يمسون حقيقة الأمور البشرية مسًا تاما. هؤلاء العرب والأتراك يتمرسون على السياسة القديمة وهم فى شبابهم، وبالتالى لا يصبح لديهم مايتعلمونه بعد ذلك؛ ولكنهم تعلموا جيداً كيف يتكلمون. هذا هو عبد الله، هو وحامية المدينة، ومعهم الخيابرة السود كلهم يتكلمون عربية المدينة (المنورة). وكلامهم الحضرى الشحيح ضيق الأفق يشبه الكلام السورى، ولكنه عامر وزاخر ببعض الكلمات العربية الطنانة: والناس هنا فى خيبر لا تعرف لغتهم التنوين. وخطر ببالى، أو بالأحرى عرفت، أن محمد النجومى هو أردأ من يتكلم عربية المدينة (المنورة) بين المحيطين به، وربما يكون قد تعلم لغته من والده، وهو من الغرباء أيضا، أو ربما كانت تلك اللهجة (الحجازية) هى لهجة قرية حرب التى كان يعيش فيها: كان أخوه يتكلم اللغة أفضل منه. والمدينة بالرغم من تباين سكانها (إذ إن نصف عدد سكانها من الهنود)، إلا أنها، فى بعض أحيائها وضواحيها تكاد تكون مدينة عربية بحق وحقيقة.

كنت أسيرا لعبد الله، ولذلك كان يتعين على المثول أمامه كل صباح وكل مساء. حاكم القرية هذا جعلنى أضيق ذرعا بفناجيل قهوته، يضاف إلى ذلك أن عناصر الضيافة ومكوناتها فى مكتب ذلك الرجل، كانت بابتسامة جذابة على وجه ذلك الرجل الأسود؛ وذلك لمدة ثلاثة أيام حسب مقتضيات عرف الضيافة التى تستمر مدة ثلاثة أيام فقط. كان جنود الحامية يسكنون فى مناطق حرة من قرية خيبر، هذه المناطق فيها الكثير من المنازل الخالية التى يؤجرها أصحابها، فى فصل الصيف، إلى أولئك التجار والبائعين الذين يفدون على قرية خيبر من المدينة (المنورة). كان عبد الله يسكن فى واحد من المنازل الجيدة، منزل أرملة سوداء، كان الناس يتحدثون عن خفة ظلها وخفة دمها كلاما يوحى بالتقدير والاحترام. كان البدو الرحل القادمين للتسوق، عندما ينزلون عن دوابهم أمام بيتها، يجدونها تهب لاستقبالهم استقبالا سخيا كريما؛ وكانت، إذا ما سمعت عن محتاج، فى قرية خيبر تبادر بإرسال ما تستطيع لمثل هذا الإنسان.

كانت تلك الأرملة تؤجر بيتها مجانا، نظرا لأنها كانت امرأة موالية ومخلصة، وكانت ترى أن من المنطق ومن العقل أيضا أن توفر مكانا لضابط الدولة (الإمبرطورية العثمانية). وبالرغم من أن هذه الأرملة كانت جذابة عندما كانت فى منتصف العمر، إلا أنها رفضت أن يكون لها زوج ثان قائلة 'إنها ليست سوى وصية وراعية على التركة التى لديها والمتمثلة فى ولديها الاثنين.' وكانت تلك الأرملة قد أعدت العدة لتزوج هذين الصبيين فى السنوات القادمة. وعرف خيبر وتقاليدها تقضى برهن بعض أحواش النخيل لتكون مهراً للعروسة؛ ومع ذلك فإن التربة (التى لا يمكن أن تعطى ربا فاحشا)، لا تقلت فى معظم الأحيان، أو فى نهاية الأمر، من أيدى مالكها أو إن شئت فقل: صاحبها. ولكن هذه الزوجة الزنجية الأمينة خطرت ببالها أساليب أفضل جديدة: قامت تلك الأرملة ببيع بلدين (حقلين) ونزلت إلى المدينة (المنورة) ومعها ثمن هذين الحقلين؛ واشترت من المدينة فتاة حبشية شابة، مهندمة وجميلة لتكون زوجة لولدها الأكبر: وراحت تطعم تلك الفتاة وتغذيها باعتبارها ابنة لها، إلى أن يصل الاثنان إلى سن الزواج. والخيابرة يفضلون الزواج من بنات القرية (السوداوات)؛ ولكن النساء الحبشيات يفضلن الرجال البيض.

دعانى عبد الله ذات مرة إلى تناول العشاء: وقد أعد لذلك العشاء طعاما مدنيا مكونا من لحم الماعز ومعه البسلة أو الفاصوليا الفرنسية. وعندما انتهينا من تناول الطعام ابتسم الرجل إلى كل من كانوا حوله وقال متفاخرا: "حق الله Hag ullah ! عندما وجد أن خليلا أكل معه عيشا وملحا، وأنا لم أضمر لذلك الرجل أى شر أو مكروه!" وفى يوم آخر ، عدت وأنا مكروب ومهموم فى فترة العصر، بعد أن تناول الجنود القهوة ورحلوا عن المكان؛ ولكنى وجدت قليلا من القهوة، متبقيا فى الدَّلَّة، فوضعتها على بقايا النار وصببت لنفسى ورحت أشرب القهوة. – وهنا تعجب عبد الله الذى كان ما زال جالسا فى القهوة ومعه رجل أو اثنين، وقال:"أنا عندما أرى خليلا يشرب هذا الفنجال، فو الله لا أجد فى قلبى ما يمكن أن يضمر لذلك الرجل غلاً أو حقداً:" – كان ذلك هو المنافق الأسود المجرد من الانسانية!

محمد النجومى، الذى كانوا يسمونه فى البلدة العم Amm محمد - من منطلق أن الرجل الأبيض يصبح "عما" للسود - لم ينسانى مطلقا؛ وفى يوم من الأيام ، وبالتحديد فى فترة ما قبل الظهر، سمعت صوته العذب عند بداية الدَّرج (السلم): "يا شيخ خليل يا شيخ خليل ، أين أنت تعال ، فأنا أريدك." اقتادنى محمد النجومى إلى بيته، الذى كان يقع فى الشارع التالى، عند نهاية ممر مظلم، ومن هناك صعدنا إلى صُفَّة محمد النجومى. كان الضوء elh-thow يدخل تلك الصُفَّة (الحجرة) من فتحتين صغيرتين فى أعلى الجدار المبنى من اللبِّن، وفى بير السلم بالقرب من سطح المنزل: كانت تلك الصُفَّة (الغرفة) عارية من الأثاث وكئيبة. - "أجلس، يا شيخ خليل، هذا هو مكانى المتواضع؛ نحن نعيش هنا عيشة البدو، ولكن الحمد لله، على هذه النعم الكثيرة والجزيلة: " كان العم محمد يسكن فى هذا المكان بوصفه تاجرا. وكانت زوجته واحدة من نساء قبيلة بشر؛ وكانت تلك الزوجة قد أعدت لنا طبقا ممتازا من الكعك الطرى، القُرصَ gors ، المخلوط بالزبد ومحلى بعسل النحل. "قال محمد النجومى: هذا العسل يأتينى من البدو، من خلال عملية البيع والشراء، وأنا لى من بين هؤلاء البدو أصدقاء يحضرون لى ذلك العسل ويجلبونه لى من الجبال." والناس هنا يرون أن الدهن والحلى هما شفاء [فى الكتاب العبرى المقدس - دهن الحيوانات محرَّم أكله - والأشياء الدسمة، مثل الحليب والعسل ، أو الزبد والعسل، أو زيت الزيتون والعسل] . وهناك قبيلة من الرجال المتوحشين غير المتحضرين تعيش فى جبل Jebel الروضة Rowda (قبل ينبع) ؛ رجال هذه القبيلة يتمتعون "بطول العمر وبالحيوية الدافقة فى سنى شيخوختهم، وهذا (على حد قولهم) راجع إلى أنهم كانوا يتغذون بلحوم البدون، والعسل البرى." بعد أن أكلنا، "قال هذا الرجل الطيب: أنا وأنت أخوان الآن؛ وأنت يا شيخ خليل إذا ما شعرت بالجوع تعال إلى هذا المنزل وتناول الطعام، واعتبر هذا المنزل، من الآن ، مثل بيتك تماما: افتح الباب، واصعد إلى الطابق العلوى، وإذا لم أكن فى البيت أطلب من هذه المرأة أن تأكل تمرا أو كعكة من الخبز، وسوف تجهز لك ماتطلبة." قال لى محمد النجومى: إن الزنوج القرويين كانوا ينظرون لى فى بداية الأمر باعتبارى جنديا من جنود الدولة ؛ ولكنه قال لهم، "لا" لو كان ذلك الغريب جنديا، لذهب ونزل عند منزل

سروان أو عند بيتى." وعندما، بدءوا يعرفوننى فى اليوم التالى ، سرى نوع من الرعب والفزع بين السكان السود. "قالوا: إننى ساحر جاء ليسحر قريتهم؛" وقالت الحريم: "أوه ! انظر ! يا لحمرة هذا الرجل!"

عم محمد: "هذا يوم عيد (عيد Ayd الضحية eth-thahia)، هل تصاحبنى ونخرج سويا لزيارة معارفنا؟" – رحنا نتنقل من بيت إلى آخر، بين أصدقاء محمد النجومى: ولكن أحدا منهم لم يذبح أى شىء من الماشية فى ذلك اليوم، – يشيع عن أهل خيبر أنهم بخلاء؛ ومع ذلك قُدّم لنا الطعام فى كل بيت من البيوت التى دخلناها، وكان ذلك الطعــام مكـون من الخبـز المخمـور ومعه شىء من السمن." قال صديقى، أنا أحذرك يا شيخ خليل، إننا سوف يتعين علينا أكل هذا الطعام عشرين مرة قبل دخول المساء."

"قال عبد الله السروان: فى تلك الأيام التى نرسل فيها قوات وجنود إلى المدينة (المنورة) لن تتمكن من معالجة الجنود المرضى؛ ولدينا من الجنود المرضى اثنان فى أم Amm كيدة Kida ، وجندى ثالث هنا أيضا – وأنت يا سرور معك سالم رافقا خليل، وخذا معكما أسلحتكما، وهيئا لخليل زيارة محُرم Muharram ." – "أنا لا أستطيع المشى أكثر من ذلك." – "المسافة لا تزيد عن مدى دانة من دانات المدفعين عندما تطلق من الصفصافة Sefsafa ".

– وصلنا إلى الصفصافة ونزلنا منها إلى المنطقة الواقعة خلف الفجّارة، إلى وادى يقولون له: وادى Wady السُليمةّ es-Sillima ، الذى سمى بهذا الاسم نظرا لوجود الكثير من أشجار السنط التى يطلق على الواحدة منها اسم السُليم Slim . وأعين العرب تستطيع التمييز بين أربعة أنواع من الأشواك الصحراوية: الطلح Tolh (أشجار سنط الصمغ) ، وأشجار سنط السُمُّارة Sammara ، وأشجار سنط السُليمة Sillima ثم أشجار سنط السيّالة Siala ؛ وأوراق كل هذه الأنواع من أشجار السنط متشابهة، ولكن مجموعاتها الخضرية مختلفة ومتباينة. وحداتو الصحراء يقطعون خشب الطلح ليستفيدوا منه فى الأعمال الخشبية، والسبب فى ذلك أن هذا النوع من الخشب ثقيل وغشيم؛ أما أنواع الأخشاب الأخرى فهى من النوع الهش ولا تصلح لأعمالهم. أشجار

سنط السَّمارة تصلح أخشابها للوقود؛ ورائحة أخشاب هذه الأشجار طيبة، وهى تحترق وتعطى حرارة صافية ولا يتخلف عنها رماد كثير، يضاف إلى ذلك أن بقايا نار هذا النوع تظل مشتعلة إلى صباح اليوم التالى. وقد تفاخر الاثنان وامتدحا ذلك الوقود الجيد، - "نحن نؤمن أن الله أعطاكم الكثير من الأشياء الجيدة فى بلادكم، ولكن المؤكد أن أشجار سنط السَّمارة غير موجودة فى بلادكم!" ووادى السلَّيمة ينزل منحدرا من الحرة الواقعة خلف جبل عطوة Atwa ، مبتعدا عن منطقة الأرض البازلتية التى يطلقون عليها اسم خشم Khusshm الصفصافة es-Sefsafa ونازلا إلى وادى الزيدية Zeydieh ، أو أن شئت فقل: وادى قرية خيبر الكبرى هى والقلعة القديمة. وادى السلَّيمة فى هذه المنطقة عبارة عن مستنقع له لون الصدأ، تعلوه قشرة بيضاء اللون من الملح، الصمَّاخ (السَّبخة)، تفوح منها رائحة نفاذة، وتنمو عليها فى بعض أجزائها نباتات السَّمار الحادة التى يطلقون عليها هنا اسم الجيرت el-girt التى تؤذى سيقان المارة العارية . - وهذا هو الجانب المميت ، بالنسبة للرجل الأبيض، فى أراضى وادى خيبر!

وأنت عندما تتحاور مع القرويين هنا، عن تلك المستنقعات وعن ذلك الجدب المحيط بهم، تراهم يقولون: "لدينا من هذه الأرض ما هو أكثر مما يمكن أن نفلحه ونزرعه." وتربة الصمَّاخة، التى ليست أردأ أنواع التربة، قابلة للعلاج، إذا أمكن خلال موسمين أو ثلاثة إزالة طبقة الملح باستعمال الفئوس: وبعد ذلك يصبح بالإمكان زراعة الأرض المالحة، وبمرور الوقت يصلح حال مثل هذه التربة شيئا فشيئا. الناس هنا يشاهدون طبقة ملحية لامعة فوق قيعان الحرة الطينية الصغيرة؛ ومع ذلك، ليس من بين عيون الماء الكثيرة فى خيبر، وبخاصة أن مياه هذه العيون دافئة ولها طعم الكبريت، عين واحدة ماؤها مالح المذاق: هذه العيون تنبع من أسفل بعض الطبقات الطينية وأيضا من أسفل طبقات البازلت التى يصل عمقها إلى خمسين قدما، عند حافة الفجَّارة. ووديان خيبر الكبيرة تتجمع ، مثل جريدة من جريد النخل، عند حدود الحَّرة: وهذه الوديان عبارة عن أشياء زائدة عن الحاجة لكل من يريد الانتفاع بها فى منطقة الصخور البركانية - ولكن كيفية تكونت تلك الوديان بأمر لا يمكن تخمينه أو القطع به -

التى تمتد إلى المنطقة الموجودة فى الأسفل. وتمتد تلك الوديان إلى أن تصادف نوعا من الصخور (الرملية) التى تبدو للناظر إليها وكأنها (محروقة) ومتغيرة اللون.

مررنا على طرق مسوّرة خلال مناطق النخيل وفوق الغدران التى فى تلك المناطق، إلى أن وصلنا إلى قرية أم Amm كيدة Kida : أو إن شئت فقل قرية Jeriat ولاد على Aly . والمنطقة الواقعة، على ضفة الوادى البازلتية العالية، هى واحدة من المناطق القديمة، وهى أكثر اتساعا وتشرح الصدر، وهواؤها أفضل من هواء القرية نفسها. وبالقرب من البوابة، صعدنا إلى صُفَّة، كانت بمثابة ثكنة للجنود؛ كانت أسلحة الجنود معلقة على الجدران، وشاهدت على الأرض ثلاث مراتب مصنوعة من القش. - رحب بنا الرفاق الأتراك على طريقة الترحيب بالغرباء الذين يكدون طلبا للأجر، كان من بين هؤلاء الرفاق اثنان لهما وجهان شاحبان، وقد رأيتهما أول مرة فى خيبر؛ أما الشخص الثالث ويدعى محمد فهو كردى، وهو من مدينة من المدن القريبة من تفليس Tiflis (فى أرمينيا الروسية). كان محرم رجلا طويلا، وملامحه أوربية بشكل واضح. محمد، هذا أمضى أربعين عاما من الخدمة العسكرية فى الحجاز، فى المنطقة المحيطة بكل من المدينة (المنورة) ومكة، ولم يتحسن حاله : سألته عن مكان فستانه Fustan ؟ ورد على وهو يتنهد مبتسما ،"جاء يوم كنا نلبس فيه التنورات الداخلية، كما كان الكثيرون من الأرناءوط من الرجال ميسورى الحال فى المدينة (المنورة)؛ ولكن هؤلاء الأرناءوط تفرقوا وأصبحوا الآن فى عداد الأموات ." ومع ذلك كان محمد يلبس طاقية كبيرة حمراء اللون، كانت تبدو له شيئا عظيما وسط ذلك البؤس الشديد فى خيبر! خانت ذلك الرجل قواه، وعاوده المرض هنا: أعطيته الرَّاوند الريباس ولكن بجرعات قليلة ومعه شىء من الكنين. محمد، هذا المسكين، كان يشعر بالارتياح عندما يتحدث معى عن بلاد Beled الروم el-Rum ، أى بلاد الإغريق أو إن شئت فقل بلاد الهلاس(*) Hellas الواقعة على حدود بلاده؛ كما سمع أيضا عن وجود الإنجليز فى كورفو(**).

(*) بلاد الهلاس هى بلاد اليونان ، ويعتقد الإغريق أنهم ينتسبون إلى هلاس - جدهم الأكبر - ولذلك فهم يطلقون على أنفسهم اسم الهيلنيين . (المراجع)

(**) كورفو : إحدى الجزر اليونانية . (المراجع)

كان المصرى فلاحا جلفا، ولكنه كان ممتنا تماما للدواء الذى أعطيته إياه: وقد أخبرنى ذلك المصرى أن بعض الإفرنج، وبخاصة التجار منهم، كانوا يأتون كل عام إلى قريته الواقعة على النيل طلبا للحبوب، وقال لى أيضا: إن قريته تلك تبعد عن القصير مسير أيام عدة؛ والقصير ميناء من موانئ البحر الأحمر، وهو مقابل لميناء الوجه على الضفة الأخرى: كان ذلك الرجل يشعر بالفخار عندما يحكى لى عن أفراد أسرة محمد على." وعندما سألته ، هل كان إسماعيل باشا، الخديوى، حاكما جيداً؟" رد على قائلا: "إخص! ذلك رجل ملعون." - قلت لمحمد، الكردى، " أنت الوحيد من بين الغرباء، الذى لم أسمعه يتأوه أو يتوجع فى خيبر." - ولكن الآخرين ردوا عنه قائلين ، "هو أيضا من أولئك الذين يصابون بالمرض ، وهو لم يغادر فراش المرض إلا منذ فترة قصيرة جداً."

كان الكردى واحدا من جنود الشرطة ولذلك كان يتحرك دوما مصحوبا بقعقعة السلاح. أخبرنى أنه عمل ذات مرة فى خدمة إحدى العائلات الإنجليزية فى تفليس! كما حدثنى أيضا عن بِشْر تلك الأسرة ونقائها الأخلاقى ، الذى امتدحه بشكل كبير . سبق لذلك الكردى أن تعلم الحديث والتفاهم باللسان التركى، وأنه يعرف القليل من عربية المدينة (المنورة)، وأنه سوف يحيينى فيما قبل الظهيرة، بأسلوب أهل المدينة، مستخدما فى ذلك العبارة التى تقول "كيف Keyf أصبحت Usbaht بمعنى [هل استيقظت من نومك معافاً ؟]، كان هناك بالإضافة إلى هؤلاء اثنان آخران من أفراد العجيل، الذين كانوا يتمركزون فى منزل من منازل أم Umm كيدة Kida : كان من بينهم (رجل نجدى من القصيم) يعرفنى! إننى سبق أن تحدثت معه فى دمشق، أثناء موسم الحج، عندما كنت متجها إلى مدائن صالح. - هذا الرجل سبق له أن وعدنى على الفور، وبيمين مغلَّظة، أن يضمنى إلى جماعته، وأن يوصلنى لا إلى مدائن صالح ، بل وإلى المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) إذا ما كنت أنا راغبا فى ذلك ! لم يكن الرجل يهتم بمشروعى أو الهدف الذى أبتغيه. هذا الرجل وهو يلتقينى هنا، فى خيبر ، فى الجزيرة العربية، وبينما كنا ننزل إلى الشارع قال:" إنه أنا ! وهل أنت لا تعرفنى؟"

بالرغم من" ثراء" محرّم ، وبالرغم من مجيء الحكيم إليه من القرية كي يصف له الدواء والعلاج، إلا أنه لم يقدم لنا القهوة؛ وهذه هي صورة الألبانيين دوما في عيون العرب. (سمعت كلا من عبد الله ومحمد النجومي وهما يقولان): أنا لا أحب الأرناءوط، لأنهم لا يحبون إلا أنفسهم، فضلا عن شقوتهم، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأرناءوط لا يودون في البلاد التي يكونون فيها أغرابا، أن يساعدوا بعضهم البعض." وبعد أن تركناهم طلبت من المرافقين لي أن يصحبوني إلى مكان نستطيع فيه تناول الإفطار، نظرا لأني لا أستطيع العودة وأنا صائم . طرقوا بابا من الأبواب، وصعدنا إلى صفة من صُفّات أحد الأكواخ. - الناس هنا في هذه الهجرة (الكفر) يعيشون عيشة نظيفة، وهم هنا ليسوا شبيهين تماما بالزنوج مثل الغالبية العظمى من سكان هذه القرية: هؤلاء الناس شركاء في الأرض مع العلايدة، أو إن شئت فقل: مع أولاد على. فرش لنا مالك الأرض الحصير وأتى لنا بالتمر؛ وجلس إلى جوارنا وقد بدى على محياه وظهر على وجهه بشر المضيفين العرب وترحابهم: وكما هي عادة العرب بدأت تنهال علينا أعداد كبيرة من الأشخاص كيما يجلسوا مع الغرباء ويتسامرون معهم. كانوا جميعا من ملاك الأرض ولكنهم لم يخرجوا للعمل في أراضيهم بأنفسهم، لأنهم كان لديهم العبيد، أو إن شئت فقل: العيال الذين كانوا يحلون محلهم في فلاحة الأرض والمزارع . وعندما رأيت هؤلاء الأشخاص الذين يشبهون العرب إلى حد بعيد، وعندما رأيت تلك الوجوه النحاسية في القرية، وعندما رأيت أيضا أن بعض الشباب هنا كانوا يمشطون خصل شعرهم على طريقة البدو الرحل ، تساءلت إن كان لدى هؤلاء الشباب بعض التقاليد والأعراف التي ورثوها عن أسلافهم. وردوا على قائلين: "نحن من قبيلة جهينة؛ ولكن أليس في كتبك شيء عن خيبر؟" - "أليس الخيابرة من السودان؟ - وإلا فمن أين جاءوا بتلك الشفاة وتلك الأنوف؟" - "لا، نحن أفراد من قبيلة جهينة ، نحن أعراب." قالوا أيضا: "نحن قوم Kom (سلالة) مرحاب Marhab ." سرور: (بدافع من الحقد)، "هيا، تعالوا يا أهل أم Umm كيدة Kida ! واجعلوا ذلك الغريب يتحسس أنف (خشم) كل واحد منكم، ومن ثم سيخبركم عن السلالة التي تنتمون إليها، كما سيخبركم أيضا عن البلد الذي ينتمي إليه كل واحد منكم." ويندر بين الخيابرة الذين يكونون

فى بحبوحة من العيش أن يتخذ الواحد منهم لنفسه زوجة بدوية. – وبعد ساعة، قدم لنا الرجل الطيب وجبة ساخنة، كانت مكونة من الذرة العويجة المسلوق. وأهل قرية بشر يجدون فى كلام أهل هذه الهجرة (الكفر) اختلافا عن كلامهم، بالرغم من أن هذا الكفر لا يبعد عنهم أكثر من ميل واحد ولذلك فهم يتعجبون "من الطريقة التى يتحدث بها سكان هذا الكفر!" – "المريض الثالث من أفراد العجيل، كان فى منزل من منازل القرية، وكان نجديا من بريدة: وكان قد أرسل إلى خيبر بسبب سوء عمله؛ حيث أصابه فيها الجوع والحمى. وهنا تساءل عبد الله الذى كان يستولى على خمس أجور الجنود، وطلب منى أمام الحاضرين جميعا " ما الذى يمكن أن يفعله لذلك النجومى الذى جاء من بريدة؟" – "أعطه شيئا من العصيدة واللحم، إنه يكاد يموت جوعاً."

الضيف فى البلدان العربية يرى دائما فى المضيف النية الحسنة، والضيافة تستمر طوال ثلاثة أيام، تتوقف بعد ذلك مثلما يطوى الإنسان بساطا من البسط.، ففى كل يوم ، وبخاصة فى الصباح، وبعد أن أكون قد قدمت نفسى لطاغية القرية فى القهوة، كنت أنصرف لاستنشاق الهواء فى الفجارة فوق الصفصافة. كنت أجلس هناك فى شمس الشتاء، بعيدا عن رطوبة الوادى المهلكة، وكنت طوال جلوسى أدخل فى موجة من التأمل حتى يتسنى لى تمضية الوقت؛ وكنت أقرأ البارومتر الذى لم أكن أنظر إليه كثيرا، كما كنت أستطلع موقع خيبر من حولى (الصورة رقم ٢)، كما كنت أستطلع أيضا الجبال حمراء اللون وأرجوانية اللون التى كانت تمتد فيما وراء المنظر الطبيعى لأرض الجزيرة العربية التى أمامى. وذات يوم بعد أن سجلت قراءة البارومتر، وضعت الأوراق القديمة على الأرض ووضعت من فوقها بعض الأحجار، مخافة أن تخدعنى الريح وتداهمنى: ولكن رؤيتى لم تكن مطلقا على ما يرام، كما كانت هناك أعين تراقبنى، بالرغم من أنى لم أر أحداً من الرجال. وعندما ذهبت إلى ذلك المكان فى يوم آخر، فتح رجل نار بندقيته علىّ من فوق أسطح أحد المنازل فى أم كيدة. وفى صباح اليوم التالى، وعندما رأيت رجلين يقتربان ومعهما بندقيتيهما الفتيليتين، عدت إلى القرية مرة ثانية: ووجدت عبد الله جالسا وفى عينيه دلائل الشر وسوء القصد والنية." قال: ما هذا الذى أسمعه منك! – لقد شاهدك أطفال أم كيدة وأنت تدفن بعض

الأوراق، وأنا لا أعرف ذلك الذى دفنته.! لقد أخذوا تلك الأوراق، وأوصلوها إلى الهجرة (الكفــر) ، وقد أحس الناس بالقلق والاضطراب نحو تلك الأوراق؛ وقد جاءنى، واحد من الشيوخ، وهو رجل محل ثقة، ليشتكى لى مما حدث. ما هى طبيعة هذه الأوراق؟ [يعتقدون أن تلك الأوراق هى من قبيل السحر والشعوذة:] - وقد قام الشيوخ بدفن تلك الأوراق على نحو يبطل ما فيها من أسحار." يضاف إلى ذلك أن بدويا قصد إلى عبد الله ليتهم النصرانى بأنه "كان جالسا فوق الحرة ويمسك فى يده ورقة."

أبلغنى عبد الله، أننى أثناء عودتى بالأمس، من نفس الطريق الذى سبق أن سلكته، عبر المزارع، كان هناك شابان من قرية أم كيدة، يجلسان خلف السور الطينى وأصابعهما فوق زنادى بندقيتيهما الفتيلية ومستعدان لفتح النار، وكانا يتجادلان حول اغتيالى أو عدم اغتيالى؛ وقال أحدهما للآخر ، " دعنى أنا لوحدى، وسوف أصوِّب إليه نيران بندقيتى:" ولكن رفيقه رد عليه قائلا:" لا، لا تقتله الآن، إلى أن نتبين الأمر تماما بعد ذلك؛ يا خليل؟ ما هذا الذى أسمعه عنك؟ إن كبار الناس يأتون إلىّ يشتكوك! وأنا أقول لك الحق، إن هؤلاء الناس لا يحسون تحوك بحسن النية أو الطوية. انتبه إلى ذلك الذى أقوله لك، وإياك أن تقرب بوابات القرية مرة ثانية؛ - أقول لك ثانية، لا تذهب إلى هناك! أنا قادر على حمايتك وأنت فى القرية أثناء النهار: أما فى الليل فعليك أن تلزم غرفتك ولا تخرج منها، مخافة أن يصيبك مكروه؛ وهنا سيُلقى علىّ باللوم. والله أعلم - وهنا التمعت فى عينى عبد الله علامات سوء النية والطوية - ومن أدرانى قد يكون هناك من يهجم عليك بسكين! وإن هى إلا ضربة أو طعْنة واحدة، يا خليل، وتنتهى حياتك وتصبح فى عداد الأموات! ولكن القاتل لم يره أحد، وقد لا يعرف أحد حقيقة ما جرى. لا تزور معارفك إلا أثناء النهار فقط، ولا تدخل سوى البيوت الصديقة. قلت لك لا تتخطى البوابات، ولكنك إن تجاوزت تلك البوابات، وإن قُتلت فى يوم من الأيام، فأنا برئ مما يحدث لك! ألا تستطيع النظر من خلال أسوار القرية؟ إن طلقة واحدة تصدر من وراء تلك الجدران الطينية كفيلة بالقضاء على حياتك ، هنا فى هذا المكان، يوجد من يستطيعون القيام بذلك، وسيصبح ذلك كما لو كانوا يفتحون نيران بنادقهم على الغربان، والسبب فى ذلك أنك غريب، وهم أصبحوا الآن ينظرون إليك على أنك عدو؛ وأنا أقسم بالله أنهم لم يفعلوا ذلك أو يقدموا عليه لحد الآن، ولاءً لى وإرضاء لخاطرى."

عبـد الله، الذى ولد فى الأمـاكن الوعـرة والمظلمـة من المدينة (المنورة) لم يحـاول الذهاب إلى مـا وراء خيـالات، القرويين الزنـوج المجنونة؛ وكان يعير أذنيـه التى تشبه أذنى الحـمـار لكلام هؤلاء الزنوج العـامـر بالخـرافـات. هددنـى ذلك الشـقـى، فى يوم من الأيام، أننى إذا ما تجولت مرة ثانية خـارج أسوار القرية، فسوف يضـعنى فى السجن. قلت له: " إذا كان هنـاك من يعتقد أن هؤلاء الناس لديهم مـايتـهمـونى به، فـأرجوك أن تستدعى هؤلاء الناس.وتستدعينى أنا أيضا؛ وأمر بفتح الموضوع أمامك وفى وجودك." – ولكن يبدو أن الشك الخرافى الذى دار حول تلك الأوراق المكتوبة كان يخيم على ذهن حـاكم القـرية ! وفى يوم آخـر وبينمـا كنت فى القـهوة فـى منزل إبراهيم، قلت للقـرويين الحاضـرين:" هل ما يقوله عبد الله السروان صـحيح، وأن الخيابرة يظنون بى الظنون؟" وردوا على: "نحن لا نعرف عنك إلا كل خيـر." وأردف إبراهيـم قائلا: "الغـريب ضـيف، مهما كان وأيا كان، بصـرف النظر عن مسـألة دينه." – ومن بين هؤلاء القرويين السود فى ديرة Dirat الرسـول er-Rasul ، يقـول القـهـوجى وهو ينقل صـينية القـهـوة (إلى يده اليسرى)" صلى Sully على aly النبى en-Neby !" وهنا يردون عليه جميعا قائلين "عليه الصـلاة والسـلام." وهـم عندمـا يتنهـدون، وعندمـا يتـثـاءبون، وعندمـا يتمـددون يقـولون متـعجبين "يا Ya رسول Rasul الله Ullah ! وهـم عندمـا يجلسـون لشرب قـهوة الصبـاح يروح الفلاحـون الزنوج يحكون الأحلام التى شاهدوهـا فى الليلـة السابقة، ويستـخلصـون من تلك الأحـلام نذرًا: وفى أحيـان كـثيـرة فإن تلك الشـفـاة الغليظة التى تتجـادل حـول أصولها وأنسابها، تعزو لنفسها النبالة والأصالة،

قـال لى عم Amm محـمـد وهو يبتسم، " ألا تعرف أن كل الخيـابرة يـرتعدون منك خوفا؟" – "وكيف يخافون من رجل واحـد، مسكين ولا حـول له ولا قوة ، وغريب أيضـا؟" – "هـم يقولون عنك: أنك سـاحـر! سبـحان الله ! أنا خـائف منك، يا شـيخ خليل؛ وما رأيك فيمـا يقـول أولئـك الحمير لى؟ – "أهو ! ياعم محـمـد، كيف لك بالأكل مع هذا الرجل! أم إنك لا تخـاف من أن يسحـرك؟" – هل هناك مثيل لذلك الحقد الحيوانى الوحشى؟ وأنا أقـول لهم إننى بالرغم من تناولى الطعام معه إلا أنى لا يصيبنى مكروه: ومع ذلك هم يقـولون: "ثـق تماما أن خليلا نوع من السـحـر، وأنه ليس مولودا من طبيعـة بشرية،

إنه ليس من أولاد آدم: – ولكن ماذا يكونون هم أنفسهم؟ أبناء القردة؛ وهم عندما يقولون: "إنه نصراني! أرد عليهم، وأنا أيضا نصراني!"

كان ذلك هو حال الود الذى كان ينمو ويزداد يوميا بينى وبين ذلك الشخص المحترم. فى البداية كان يدعونى، فى أحيان كثيرة، إلى تناول الطعام معه؛ وبعد أن رآنى مجردا من الأشياء الضرورية (إذ كان عبد الله قد حصل على كيس نقودى) أخذنى إلى منزله كى أعيش معه، طوال فترة النهار. كنا نخرج سويا فى بعض الأمسيات، – "(أو على حد تعبيره) نَنَوِّر الحكى والقهوة، – بمعنى طلبا للدردشة الطيبة وشرب القهوة، فى منازل الأصدقاء . أثناء الليل، ونظرا لأن منزله كان مكونا من غرفة واحدة علوية، فقد كنت انسحب لأنام فى صفة أمان Aman . ومع طلوع الشمس كنت أذهب إليه كل يوم: وبعد أداء الصلاة كنا نتناول سويا الإفطار، وعندما كانت شمس الشتاء ترسل أشعتها الذهبية الصغيرة، كنا نأخذ عددنا: العتلة الحديدية، والفاس، والسلّة، ثم نذهب إلى بستان من بساتينه؛ كان كل ذلك من ابتكار محمد، حتى لا يجعلنى أفارقه. كان يحمل أيضا (ومن أجلى أنا) سيفه الذى علاه الصدأ، وعندما كنت أبتعد عن القرية الكئيبة كنت أحس بالهواء المنعش النقى، كما كنت أجد لنفسى عزاء كبيرا فى صحبة هذا الرجل، وسط كثير من المخاوف.

كرّس العم محمد نفسه لحفر حفرة ماء فى أرض النخيل المجاورة للمناطق التى يقيم الجنود فيها فى فصل الصيف؛ والماء الجوفى هنا على عمق صغير فى قاع وادى خيبر، غير أن التربة المرتفعة هناك، هى والمنخفض الضحل الموجود تحت الفجّارة يحتم عليه تكسير مقدار ذراع كامل فى كتلة من البازلت. أمضينا الأيام فى ذلك العمل الذى لا طائل من ورائه: ونظرا لأن العم محمد كان يرى أن ضيفه يكابد هذا التعب والإرهاق، فقد كان يشعر بالقلق وعدم الارتياح عندما كنت أحاول تناوب الحفر معه، "هيا نجلس سويا، يا شيخ خليل لتناول قسطا من الراحة! نسمة nesma : لا، ما الذى يدفعك إلى أن تحول عمل التسلية إلى عمل جاد، وما هو ذلك الذى يدفعك إلى إنهاء هذا العمل قبل دخول فصل الصيف؟"

العتلة الحديدية الجيدة تساوى خمسة ريالات فى خيبر؛ أدوات الزراعة (فى المدينة) المنورة يجرى جلبها من المنطقة الساحلية. كانت طبقة البازلت المتقشرة سهلة التكسير: ولكن أسفل هذه الطبقة كانت توجد كتل الصخر (المتبلورة)، الأمر الذى يحتم رفعها وتكسيرها باستخدام قوة الأذرع؛ والذى لا شك فيه أن كل آبار خيبر جرى حفرها بهذه الطريقة! - كان من النادر فى فصل الشتاء وصول أية جماعة من جماعات البدو الرُحل إلى قرية خيبر طلبا للتسويق: بعد ذلك نادت زوجة عم محمد، أو ولده عليه وعاد الرجل إلى القرية للاتجار مع تلك الجماعة.

كان العم محمد - بَحكم حدة بصره غير العادى - صياداً بحق وحقيقه عن سائر كل الصيادين الموجودين فى خيبر. فى بعض الأحيان، وعندما كان العم محمد يجد نفسه ضعيفا بسبب ذلك الطعام المكون من الذرة العويجة، والذى يضطر إلى تناوله طوال (مجاعة) فصل الشتاء، فقد كان يندفع أثناء الليل وليس عليه من ثياب سوى قميصه، ويحمل بندقيته الفتيلية، عند منتصف ليل الشتاء القارس البرودة، ومعه نعلته: كان العم محمد، مع طلوع النهار، يرى الأرض البركانية الواسعة كلها. وعندما كنت لا أجد ذلك الرجل فى الصباح ، كنت أجلس ساكنا بلا حراك فى صُفتَّه، وأنا تراودنى المخاوف لحين عودته إلى المنزل مرة ثانية؛ وغالبا ما تكون هذه العودة عند الظهر. لم يكن قد مضى من الخريف بأمطاره سوى ثلاثة أيام، وهنا بدأت بادرات النباتات فى الظهور؛ وهذا هو الغزال والماعز البرى قد هجر هذا الجانب من الحرة: وبالتالى لم يعثر العم محمد على أى من تلك الحيوانات. - والناس فى خيبر يطلقون على من يصطاد الحيوانات البرية اسم "قناص" gennas أما كلمة "صياد" Seyad فهم يطلقونها على من يصطاد باستعمال الصقور والكلاب، للإمساك بالأرانب البرية.

"أخذنى العم محمد معه إلى الحَّرة ذات مرة، لكى يرينى بعض النقوش القديمة؛ كانت تلك النقوش بالخط الكوفى، ومحفورة فوق صخرة من البازلت، وكلها عبارة عن لفظ الجلالة "الله" واسم الرسول "محمد" . هناك كثير من النقوش العربية القديمة على صخور (من الحجرالرملى) فى الوادى وعلى بعد مسير نصف ساعة خلف ذلك المكان .

لم أعثر على أى نقش من النقوش العربية الوثنية، سوى ثلاثة نقوش كل منها عبارة عن مجموعة صغيرة من الأحرف. (راجع اللوحه رقم ٢٨ .) هذه النقوش الوثنية محفورة على شرفة من البازلت، أسفل خشم الصفصافة، ومع هذه الأحرف توجد أيضا صور بعض الحيوانات: فقد وجدت صورة للثور البرى، ولكنى لم أجد صورة للفيل، ووجدت صورة للزرافة، وصور لحيوانات ضخمة أخرى من القارة الأفريقية، التى حكى لى أمان Aman أنه شاهدها هناك.

فى عصر أحد الأيام ذهبنا إلى الفجًارة فى اتجاه الهجرة (الكفر) الثالثة من هجرات خيبر، التى يسمونها "العزمية" el-Asmieh أو إن شئت فقل: قرية Jeriat الفقير el-Fejir . وبعد أن قطعنا مسافة ميل كامل فى وادى Wady زيدية Zeydieh ، أسفل حرف منخفض من حروف الجبل المكون من الحجر الرملى، تجاوزنا مبنى منعزلا عتيقا – وجدران ذلك المبنى مبنية من الأحجار الغشيمة – التى تحظى بشئ من التوقير عند هؤلاء المتدينين، وهذا المبنى العتيق يطلقون عليه اسم قصر Kasr النبى en- Neby . وهم، هنا، يقولون : إن "محمداً ، أثناء عودته ذات مرة من دمشق، شد هنا لجام ذلوله (ناقته)، وكان سيبركها فى ذلك المكان، ولكن النمل تجمع من حوله، فركب ناقته، واتجه للإقامة فى أم Umm كيدة؛ وأنه من المكان الذى بركت فيه الناقة انبجست تلك العين التى يشربون منها حاليا. هذا المسكن القديم من مساكن الجزيرة العربية هو مجرد غرفة أرضية لها باب وشباك. والخيابرة يقومون على أمر صيانة ذلك المبنى والمحافظة عليه، فهم يقومون بإعادة بناء الأحجار التى تنهدم، ويجددون أيضا سقف هذا المبنى إذ يستبدلون دعامات النخيل القديمة بدعامات جديدة من حين لآخر. والنجومى له قطعة من الأرض تزرع بالقمح فى هذا الجانب من الوادى: وقسم كبير من تلك الأرض لا يكلفه شيئا – قالها وهو يضحك – سوى سيف قصير قديم وجراب للسيف. وعلى حدود حقل القمح كانت هناك مجموعة من المقابر التى دفن فيها أولئك الذين ماتوا بسبب وباء الطاعون ، قبل ذلك بسنوات قلائل، – ذلك الوباء الذى مرض أخوه أحمد خلاله إلى أن توفاه الله؛ أكوام تلك المقابر أصبحت تغطيها الصُّمخة حاليا. العم محمد (ذلك الرجل اللطيف إلى حد ما) خطر بباله الآن أن يقوم بنقل تلك الرفاة والعظام ،

وهو يقول: "إن ذلك سوف يوسع أرضه، وأن ذلك سوف يمكنه من زراعة المزيد من القمح فى تلك الأرض." ولكن الرجل الطيب وعد ألا يفعل ذلك إلا بعد أخذ رأيى. عثرنا على جمجمة تحت نخلة من نخيل الدوم، بين الصخور البرية، - " قال الرجل وهو يتأمل الجمجمة: ها! هذه جمجمة واحد من البدو الذين ماتوا فى العمليات الحربية التى دارت فى العام الماضى ؛ وربما يكون كلب قد حمل هذه الجمجمة وأتى بها إلى هنا."

مشينا بمحاذاة مسارنا فى الوادى الواسع (الذى هو هنا مكون من اتصال واديى السلَّيمة والزبدية مع بعضهما)، لزيارة بقايا قرية من القرى، فى منتصف الوادى، وجلسنا فوق صخرة من صخور البازلت: كان يطلق على ذلك المكان القديم اسم ، القُرية" el-Gereyeh . - كانت جدران شوارع تلك القرية الضيقة مبنية من أحجار جلبها الناس من الحَرة. كانت تلك المبانى القديمة صغيرة الحجم، ولم يكن أى مسكن من مساكنها أكثر من غرفة ضيقة وأرضية الغرفة مرتفعة كما لو كانت درجة من درجات السلم، - كانت تلك الغرفة محددة حسب الأعراف العربية لوضع النعال فيها بالقرب من باب المبنى الرئيسى. هذا المكان لم يكن اختياره من منطلق صلاحيته للدفاع ، ولكن ليطل منه أكلة التمور على وديان النخيل فى جو من الهواء النقى. هؤلاء السكان القدامى، الذين كانوا يقيمون على مسافة طويلة على جانبى طريق التجارة العظيم يحتمل أن يكونوا من المساكين: وبالرغم من أننا فتشنا خلال الهجرة (الكفر) المهدمة، فلم أر مظهرا واحداً من المظاهر الزينية أو أى نقش من النقوش. لم نعثر سوى على هاون كبير، فى الشارع، كما عثرنا أيضا على بعض كتل البازلت، التى كانوا يقشرون القمح فيها قبل أن يسلقوه. وربات البيوت الإسرائيليات يقشرن المن فى هاون أيضا؛ وهذا هو قول مأثور عندهم "بالرغم من أنك تقشر الأحمق فى الهاون، مع حبات القمح باستعمال يد الهون، إلا أنه لن تنسلخ عنه حماقته."

وصلنا إلى بداية وادى جلاَّس Jellas، حيث شاهت مساحات واسعة من الأراضى المائية التى يمكن زراعتها، وهناك حطام قرية أخرى فوق القَّجارة البازلتية المجاورة، واسم هذه القرية، على حد قول العم محمد، هو قرية Geriat أبو Abu روباى Robai .

هذا الحطام الذى شاهدناه كان مثل ذلك الحطام الذى شاهدناه فى القُرَّية el-Gereyeh ؛ كما رأيت أيضا هناك برجا مربعا مكتملا مثل الهرم بين حطام تلك القرية، – هذا البرج لم يكن سوى كومة من الطين والتراب من الداخل، وربما كان قبرا من القبور. أسفل هذه القرِّية القديمة توجد عين ماؤها سائغ للشاربين. نظر العم محمد حولنا؛ ثم قال:" والله لقد كان القدماء أعقل من الناس الذين هم على قيد الحياة الآن)، لأنهم كانوا يبنون منازلهم على قطع من الأرض المرتفعة وفى الهواء الطلق!" رأيت العزمية el-Asmieh غير بعيدة، على نقطة مرتفعة من الفجارة: ولكن عند هذه النقطة كان مفروضا أن يعود إلى الخلف. النجومى: "لا، لن ندخل، مخافة أن يُقال، إننا دخلنا لنأكل خبز أى أحد من الناس." – "ومع ذلك ، هيا بنا نرتاح مدة ساعة فى منزل الشيخ، ونشرب القهوة، ثم ننصرف بعد ذلك." هذه الهجرة (الكفر) قديمة: والعائلات القليلة الموجودة فيها شركاء فى الارض مع الفكارة Fukara – إنهم ليسوا من الخيابرة، ولكنهم مستوطنون جاءوا من قرية الحيات el-Hayat ، حيث توجد ممتلكاتهم بالفعل. والحيات هذه قرية من قرى الزنوج فى نجد، وأهل هذه القرية أصحاب عقول حرة عن أولئك الذين يعيشون فى خيبر التى تقع فى الأرض المنخفضة. والنخل الذى ينمو هنا فى التربة الحلوة أشد عوداً وقوة من النخل الذى ينمو حول قرية البشرBishr .

صعدنا الصخرة إلى أن وصلنا إلى بوابة القرية، كان أول من التقانا رجلا حيانا بطريقة متحضرة قائلا:" مرحبا بالشيوخ، وماهى أخبار القرية؟" اكتشفنا أن قهوة ذلك الشيخ كانت عبارة عن وجار فى وسط الشارع ، أو إن شئت فقل: مجرد نار فى حفرة فى الشارع، وبجوارها حصير من سعف النخيل هذا الشيخ – بل وكل سكان قرية الحيات – كان رجلا يتمتع بكرم وضيافة الجزيرة العربية؛ إلى حد أن الناس كانوا يقولون عنه، فى خيبر،" إنه يذبح شاة، إذا ماجاءه (غريب) حتى وإن كان طفلا." أحضر لنا ذلك الرجل الطيب تمرا طيبا، وجلس بحسن نية ليصلح القهوة لضيوفه. سألته عن سبب نثر الدم المتجلط على ركن من أركان بيته الجديد؟ تعجبوا واندهشوا عندما وجدونى أسألهم وأوجه لهم أسئلة من هذا القبيل (وأحسوا فى دواخلهم أننى كنت غريبا عليهم بحق)! خطر ببالهم أننى كان ينبغى أن أعرف أن ذلك هو دم التيس

الذى جرى ذبحه (للجان) من أجل الحفاظ على سلامة العاملين،" مخافة، على حد قولهم، من أن يُجْرح أى واحد منهم،" ولما كان أهل العزمية el-Asmieha من ملاك البيوت الميسورين ، فقد كانوا يستأجرون العمال من القرية.

– وبعد فتره نهضنا واقفين كيما نرحل عن المكان، ولكن الرجل الطيب أمسك بعباءتينا واضطرنا إلى الجلوس ثانية. كان من بين أولئك الذين جاءوا للتحدث مع الشيخ مزارع كان شريكا لزيد السبيكان es-Sbeykan ، الذى كان صديقا لى يوم أن كنت بين بدو الفكارة. وبالرغم من أن الإيجار السنوى لمزارعهم قد تصل قيمته إلى مئات الريالات إلا أن هذا الفلاح المسرف كان واقعا تحت طائل مديونيات قديمة: قال العم محمد:"لم يكن معه فى بعض الأحيان ،ريالا واحداً حتى يشترى به لنفسه قميصاً جديدا !" – قال لى عن مضيفنا: شيئا لا يصدقه عقل! "إنه يحصل على ما يتراوح بين، ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ ريال فى العام (أى حوالى ٤٠٠ جنيه إنجليزى)، وأنه يصرف هذا المبلغ بكامله. وبلاده ("والبلد" فى لغة أهل خيبر هى" مزرعة النخيل") بلغت من التعدد حداً كان يصعب معه على ذلك الرجل تذكر بعض أسماء تلك البلاد (المزارع): وأنه عندما كان أى شخص غريب يجيء للإقامة والاستقرار فى تلك البلاد، كان ذلك الرجل الطيب يعطيه ثمار اثنين أو ثلاثة من تلك البلاد نظير مراعاته للنخيل المزروع فقط؛ هذا الرجل يغدق كثيرا على معارفه من الفقراء، سواء أكانوا من القرويين أم من البدو الرحل؛ هذا بالإضافة إلى كرمه الحاتمى." ونخيل وديان خيبر لا يحصى ولا يعد: والبعيد من ذلك النخيل متروك للبدو، ولكنه لا يعطى سوى ثمارٍ برية.

بعد أن جلسنا مدة ثلاث ساعات، إلى أن دخل وقت العصر، نادى علينا مضيفنا، نحن ومن كانوا جالسين معنا حول وجار القهوة، واصطحبنا إلى غرفة فى الداخل؛ حيث وضع أمامنا دليلا واضحا على كرمه وحسن ضيافته: فرشوا أمامنا سماطا عليه طبق مكوَّم عليه فوق كومة من الذرة المسلوق ، لحم تيسين. قال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة المضيف ، أن ما يقدمه أقل مما يجب، واعتذر أنه بعد مجيء الجراد لم يتبق له سوى هذا النوع من الذرة العويجة. وقف الرجل لحظة، وراح خلالها يلح على ضيوفه

كيما يشرعوا فى تناول الطعام وأردف الرجل قائلا: "بالهناء والعافية" : وهو لن يجلس معنا، نظرا لأن الشهامة عندهم، أن يكون المضيف خادما لضيوفه. - هذا الذرة العويجة له ساق تشبه ساق القصب، وفى أعلى تلك الساق يوجد رأس يحمل كثيرا من الحبوب؛ وهم يحصدون ذلك النوع من الذرة فى مطلع الخريف، وسيقان ذلك الذرة طعام جيد للإبل. حبوب هذا النوع من الذرة جافة وهم لا يأكلونه فى السنوات العادية وإنما يبيعونه للبدو الرحَّل: وربات البيوت الصحراوية ينقعون هذا النوع الرخيص من الحبوب فى لبن الخض كى يصنعن منه نوعا من العصيدة أو الثريد. كانت زوجة العم محمد البدوية تعد لنا كل يوم وجباتنا اليومية من ذلك النوع من الحبوب. ومع ذلك كان هناك كثيرون من القرويين يعزفون عن تناول الطعام المصنوع من ذلك النوع من الحبوب ؛ وكانوا يكتفون بالتمر غذاء لهم، بالرغم من عدم وجود ما يكفيهم من ذلك التمر. (الزنوج) الخيابرة: يقولون إن تمر الوادى فى بطونهم " يشبه اللحم الطرى."

وعندما عدنا إلى الفجَّارة من جديد ، بدأ العم محمد يتبين ما إذا كانت البادرات النباتية قد بدأت فى الظهور: ثم قال فى نهاية الأمر،" لن يجىء الربيع هذا العام!" – لو كانت الأعشاب الخضراء قد نبتت فى الأرض لكان قد استدعى بعضا من الماعز التى يحتفظ بها عند الحطيم، ولمضى قدما، متجولا مثل البدو الرحل فوق الحرَّة: ثم قال بعد ذلك: ولكنت أنا بصحبته أيضا. – لقد خرج فى العام الماضى مع زوجته البدوية ومعهم الغالبية العظمى من الجياطين (وواحد الجياطين "هو "جطونى" وهو المعسر المعوز) الخيابرة: وصنع الجميع لأنفسهم خياما من الحصير الذى يصنعونه من سعف النخيل؛ كما كانوا يقيمون فى أماكن مجوَّفة. كان العم محمد يلف معى فى كل أنحاء الموقع، أو إن شئت فقل المصر Masr ، الذى كان يطل على وادى جلاَّس الذى يشبه السهل: بحثنا عن النقوش، ولكننا لم نجد سوى حطام وبقايا الأسوار القديمة كما هو الحال فى الفُجاَّر المحيطة بخيبر. – تعجبت عندما رأيت ذلك الرجل شديد البأس، وهو يشتكى، فى كثير من الأحيان من الإرهاق والتعب! وأنه لم يكن يقوى على العمل مدة طويلة فى البستان: هفواته فى شبابه، وتعاطيه المخدرات، هى التى جعلت قواه تخور، يضاف إلى ذلك أن حمى خيبر كان لها فعلها هى الأخرى. وبينما كنا نمشى، كان الرجل ينظر

إلى الأرض بحثا عن الطلقات، التى استعملت فى العمليات الحربية التى دارت فى العام الماضى.

مررنا مرات كثيرة ببعض القباب التى تشبه السلطانيات والمبنية من الحجر الجاف، المأخوذ من أحجار الحمم البركانية، ولا يزيد طول الواحدة من تلك القباب وارتفاعها على ستة أقدام؛ البعض من تلك القباب له بعض الحدود الدائرية المصنوعة من الأحجار والموضوعة حول هذه القباب (راجع الصورة رقم٣) . أليست هذه القباب من المدافن؟ أليست هذه القباب مثل الرُّجوم الموجودة فى حرة العويرض، ومثل النواميس الموجودة فى سيناء ؟ الدفن فوق أرضية من البازلت يحتم البناء فوق مثل هذه الأرضية. والطريقة القديمة فى الدنيا كلها تقضى بدفن الأسلاف الموتى فى حفر فى الأرض أو فى الحجر. قلت للعم محمد،"ما رأيك ياعم محمد، أليست هذه القباب قبورا؟" - "إخ! قد تكون كذلك؛ وأنا أذكر أننى كنت أشاهد، عظاما فى هذه القباب، أثناء قيامى بالصيد."

فى المساء أرانى العم محمد قطعا من الأحجار الزجاجية، التى كان يعثر عليها بين الحين والآخر فوق الحَرّة، - وكان مفعما بالأمل أن تكون تلك القطع من الماس. قال هذا الرجل الطيب والبشر على وجهه، بعد أن خاب أمله، "فى أضعف الأحوال، ستكون هذه البللورات جميلة إذا ما ركبت فى الأقراط التى تعلقها النساء فى آذانهن." هذه هى الشرقية Orientalism ، الإغراق فى الأحلام، هذه هى شرقيه العرب، - الثراء فى يوم من الأيام، أى قبل أن يموت الإنسان، وذلك بفعل تأثير النجوم، وبدون عمل: وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يعيش - على هذا الجانب من القبر - معيشة مثيرة للحس والجنس، ويتحول إلى مالك عقار ثرى. وحتى العم محمد أيضا، كان يصدق مع الآخرين أنى بوسعى أن أكشف لهم شيئا إذا ما أردت أنا ذلك: ولهذا السبب نفسه فإن عبد الله، بعد جفوته الظالمة معى، راح يحاول خطب ود النصرانى. كان عبد الله، فى بعض الأحيان يهددنى، وعلى شفتيه ابتسامات النفاق، كان يهددنى قائلا: "اعترف، يا خليل ! وأننى كنت جاحداً لأنى لم أتذكر عطفه؛ لأنه لم ينقذ حياتى فى البداية، فى الوقت الذى

كان يستطيع (وبسهولة تماما) تكسير وعائى بطلقة واحدة من مسدسه: اعترف، يا خليل! وإلا، أدى العقل الآثم إلى تعليقى على مقدمة الحصن.' - "حيث توجد بعض الأحجار البارزة. "رد عليه الشيخ صالح العجوز، إى، والله! وإذا ما استطاع المرء تفسير تلك العلامات فلربما قادته إلى كنز من الكنوز." - توجد فى جدران الحصن الجافة القديمة، المبنية من البازلت الغشيم، خمسة أحجار بيضاء، بالقرب من الطرف الجنوبى فوق القرية، وهذه الأحجار الخمسة موضوعة بطريقة كما لو كانت نجوما فى مجّرات. - 'وأردف طاغية القرية، إننى إذا ما خسرت محاباته لى، - وما الذى يمكن أن ينقذنى عندئذ؟ - وأننى يجب أن أخرج معه فى الغد لنصعد فوق الحصن؛ وسوف تكون الأدوات فى انتظارنا هناك. - وأننى ما لم أكن من أولئك السوّاح، الذين لا يشاركون فى كشف الثروات المخبأة فى هذه الدنيا، فذلك يعنى أن هؤلاء السواح ليسوا أهلا لهذه المهمة؛ كل همهم هو استغلال هذا العالم والعيش فى ثراء وغنى: وإذا لم أكن واحداً من الذين فى هذه الدنيا (العالم) فما هو السبب الذى يجعلنى أحسدهم وأحقد عليهم عندما يودون الحصول على الفضة؟'

- يا أسفاه ! كيف لى بإقناعهم بعدم وجود أشياء من هذا القبيل؟ فى الوقت الذى حاول فيه بعض الغرباء رفع الغطاء عن كنوز خيبر الخبيئة: وكان من رأيهم أن ذلك النصرانى الصامت، الذى جاء من بلد بعيد، لابد أن يكون متعمقا فى العلوم القبالية (*) والسفلية. أضاف الشيخ صالح تلك الحجة الواهية التى مفادها أن"كل الغرباء يودون زيارة خيبر! - وهل هناك أى سبب آخر للإصرار على هذه الزيارة غير البحث عن الثروة والكنوز فى خيبر؟'

حدثونى مرارا عن رجل مغربى جاء إلى هنا للكشف عن الكنوز المخبأة: - الناس هنا يؤمنون دوما بأن المغاربة هم سادة فن السحر. 'هذا المغربى ذبح [للجان] فى جوف الليل ديكا أسوداً ؛ وتلى المغربى عزائمه وأسحاره، ونزل إلى جانبه مخلوق ضخم

(*) العلوم القبالية : وهى العلوم التى تشتمل على علوم الفلك فضلاً عن أمور أخرى تتعلق بالشعوذة والغيب التى يمارسها اليهود . (المراجع)

أسود اللون. واصل المغربى القراءة، ونزل من بين نخيل الوادى عجل مخْصىّ ضخم أسود اللون (لم يكن من بين ماشية القرية، وإنما كان شبحا)؛ واهتزت الأرض؛ وارتفعت كما لو كانت تنتفخ، وراحت تنفتح فيها فتحات وتنغلق فتحات أخرى؛ وداخل ذلك الرحم الأرضى ظهر كنز هائل. وعندئذ أمر الرجل الحكيم عبده الأسود أن يقطع قدما من أقدام العجل الأسود باستخدام سيفه: ولكن قلب العبد لم يطاوعه على ذلك، الأمر الذى أدى إلى وقف هذه العملية السحرية، - وأن كل هذا الكم من المعدن الثمين تحول (على حد قول من شاهدوا ذلك) إلى تلك المادة الهشة مثل أصداف البحر. وهنا ألقى المغربى كتابه فى البئر، وصعد على أثر ذلك دخان من البئر، وأمر المغربى أن يتلقى ذلك الدخان بعباءته (بشتة)؛ وهنا سقط عليهم مطر عبارة عن قطع من الذهب الخالص. - ثم حدثت بعد ذلك تعزيمة سحرية أخرى أثناء الليل فى حقل من الحقول القريبة من قرية أم Umm كيدة Kida : شوهدت الأرض، فى تلك التعزيمة السحرية، وهى تنتفخ وتتكور؛ ولكن الساحر لم يستطع فى هذين الحالين الوصول إلى مايبتغيه.

جاء إلى هذا المكان فى تلك السنوات يهودى، من أولئك الذين يبحثون عن الكنوز، وقد مات ذلك اليهودى ميتة شنيعة فى وديان خيبر [راجع الجزء الأول] وسمعت بعض الناس يقولون: إن ذلك اليهودى جاء إليهم من ينبع، - وقال آخرون إنه جاء من قرية العلا.

ذات يوم صعدت بصحبة سالم، الذى هو من عجيل البشر، إلى الحصن (الصورة رقم ٤) ؛ وقد حكى لى أيضا عن " يهودى آخر" الذى قرأ تعزيمة سحرية أثناء الليل: واهتزت الأرض وتثاءبت؛ ولكن تلك التعزيمة لم تكتمل بسبب تدخل بعض القرويين فى الوقت غير المناسب، - وتحول كل ذلك المعدن اللامع إلى أصداف طباشيرية هشة أمام أعين أولئك القرويين، قال لى إن اليهودى سبق له أن زار خيبر بصحبة البدو. والحصن، أو إن شئت فقل صخرة القلعة البازلتية، تقف منعزلة فى وادى الزيدية Zeydieh ؛ وعلى الحدود الجنوبية لتلك الصخرة هناك قرية من قرى (البشر) مبنية من اللبن. ويصل طول الجزء المسوَّر من تلك القرية إلى حوالى مائتى خطوة، وعرضه حوالى تسعين خطوة:

وأرض هذه القرية عبارة عن قالب عميق [ربما كان من المبانى (الطينية) القديمة التى انصهرت وتحللت] فوق تلك الصخرة غير المستوية . وبينما كان السروان يحفر هناك (لترميم الجدار القديم بدعامة من اللبن، وبناء مهجع للجنود) ،عثر على بقايا أوانى مكسرة، وقشر بيض، ونوى بلح، وروث بعض الخيول. - وشاهدت رأسين لهرمين قديمين من الطين، (انظرالصورة رقم٤) محملين بطريقة غريبة على جانبى الحصن، وهما بارزتان أصلا من أرض الوادى الذى يرتفع عن مستوى القرية، كانت الأجزاء السفلى من هذين الهرمين محاطة بقميص من الأحجار المبنية بالطريقة الجافة . هذان الهرمان مبنيان من الطوب اللبن وهما يغطيان بئرا قديمة؛ وذلك تحسبا لنقص الماء إذا ما داهم القرية خطر من الأخطار.

"قال سالم، اتجهنا إلى ذلك المكان وفتحنا منه النار على البدو [أفراد قبيلته!] ورد البدو علينا بفتح النار أيضا علينا من الفجّارة التى فى الخلف. لا أعرف، كم قتلنا منهم، نظرا لسقوط البعض منهم صرعى بين النخيل، وبعد هروب البدو لم يحاول أحد تعقبهم أو مطاردتهم؛ ولكن خلال يوم أو يومين كانت رائحة الجثث المتعفنة لا تطاق وفظيعة: وجرح رجل واحد من رجالنا." - " يا سالم، أنا أعرف أنك واحدٌ من العواجى: خبّرنى هل فتحت النار على أفراد قبيلتك ؟" - "إى! لقد فتحت النار عليهم، كما فتح النار عليهم شخص آخر اسمه إياد Eyad ، وفتح النار عليهم ، أيضا شخص اسمه مرجان Merjan، وفتح النار شخص رابع أيضا من الجطون. ونحن الذين نأكل خبز الدولة (الإمبراطورية العثمانية) يجب أن نحارب من أجل الدولة، حتى وإن كانت تلك الحرب على أهلنا وذوينا: - ولكن لماذا جاءوا لإعلان الحرب علينا؟" - فى عصر ذلك اليوم، شاهدت ذلك الجطونى يشرب القهوة فى مقهى عبد الله ؛ وقال السروان: "ألا ترى، يا خليل، كيف أنهم جميعا تحت إمرتى وقيادتى! هذا البدوى قتل أفراد قبيلته فى الحرب، آها ـ ها ـ ها!" - "إى والله، وإذا ما أمرنى عبد الله بالوقوف الآن وقطع عنق أى انسان فسوف أنفذ ذلك على الفور."

الفصل الخامس

الخبابرة

سحرة خيبر. دخيل الله، المنهل. إبراهيم. عمال البستان. عاداتهم فى العمل مع بعضهم البعض بلا أجر. بناء المنازل. القروين الزنوج أجلاف ومبذرون. المجاعة فى الأرض. خيبر "أرض الثروة ". استيلاء العنوز على خيبر القديمة. المشاركة القديمة بين البدو والقرويين. سرور. حقوق القرويين فى الأرض. الزراعة خفيفة. العصارى والأمسيات فى خيبر. سر طعن القساوسة الأسيوين لأنفسهم وتشليخ أنفسهم. القرويون الخارجون لجمع الحطب يداهمهم الغزو. 'عمل الإمبراطورية العثمانية هو اغتصاب ليس إلا'. احتلال الإمبراطورية العثمانية لخيبر. تحصيل الضريبة من البدو. يوم عراك مع الأعراب. دناءة العقيد التركى. خيانة الفكارة. الخيابرة يتعيشون من إبل خصومهم (البدو الرحل). قطع أذن المقتولين. جنود المدينة (المنورة) فى خيبر. الكوليرا. تلال التجوال. رأى خرافى، فى شرقى، خيبر . رسالة عبد الله لحاكم المدينة (المنورة). حكايات عبد الله. استبداده فى خيبر. التمرد والعصيان فى القرية. أهل القرية. نظارة عبد الله. منصب الدخيل. على الشيخ المتدين، عدو حتى الموت. تحذير النجومى لعبد الله، كلام فى دفاع كريم عن النصرانى النعامة طائر وجمل. العم محمد أنقذ غرباء آخرين.

عندما كنت عائدا إلى مسكن أمان فى ساعة متأخرة من فترة المساء، كنت أجد الباب موصداً! وكان يتحتم علىَّ الوقوف فى الشارع، وفى يدى جريدة النخل المشتعلة، وأروح أدق الباب وأنادى كى أوقظ أمان من النوم؛ كان يصحو من نومه وينزل ليفتح لى الباب: وهو يقيم حاليا وحده فى المسكن نظرا لأن رفيقه الحبشى، قد تخلى عنه لسوء تفاهم بينهما. وبالرغم من أنى كنت أسأل أمان يوميا ، عن السبب الذى يجعله يوصد

الباب دونى؟ إلا أنه لم يجب علىَّ بأى شىء؛ ولكن فى إحدى الليالى اعترف لى ذلك الرفيق المسكين، أنه بعد فترة الشفق تمتلكه المخاوف من الحَزَابين الخيبرية التى تشبه الأشباح؛ ثم قال لى وهو يشير إلى واحدة من الدعامات المصنوعة من خشب النخيل، "قال: أقسم بالله، يا شيخ خليل، أن حيزبونة من تلك الحزابين كانت تجلس على دعامة مثل هذه الدعامة، وكانت تذهب أثناء الليل إلى المدينة (المنورة) وتعود ثانية قبل طلوع النهار، ولا يعرف أحد أى شىء عن ذلك؛ والسبب فى ذلك أن تلك الحزابين يجب أن تعود إلى منازلها قبل أن يستيقظ الناس من منامهم." - " كيف يمكن لساحرة متزوجة أن تتسكع خارج البيت أثناء الليل، ولا يعرف زوجها الطيب شيئا عن ذلك؟" - " هى إذا ما تناولت بين أصابعها شيئا من تراب الأرض ونثرته على جبهة ذلك الزوج، فإنه ينام ولا يصحو قبل طلوع النهار. ولكن عندما يعرف الإنسان أن زوجته ساحرة ومن الجن، فإنه لن يجرؤ على الكشف عن ذلك، ولا يجرؤ أيضا على منعها مما تريد عمله، إلا أنها قد تتسبب فى موته ميتة شنيعة! ومع ذلك فالناس يعرفون السواد الأعظم من تلك الساحرات، ومنهن واحدة، قالها بصوت هامس، هى جارة لنا. هذه الحزابين تبدأ، عندما يحين موعد النوم، فى التجول خلال طرقات القرية: وأنا أحذرك من ذلك يا شيخ خليل! - لأن شيئا قد يحدث ولا يكون فى حسباننا! وأنا أشعر بالقلق عليك أثناء عودتك إلى المنزل فى الليل." - "لدى رغبة شديدة فى مشاهدة تلك الحزابين." - "إخ ! لا تتكلم مثل هذا الكلام الغبى الأحمق، - اللهم إلا إذا كنت على علم ببعض العزائم والأسحار التى تمكنك من طرد هذه الحزابين. لقد سمعت أن دخيل الله Dakhilullah التقى تلك الحزابين ذات مرة، وصاح فيهن مرددا كلمات أجراها الله على لسانه، وهى من القرآن، وهربن منه على إثر ذلك، وهن يصرخن من أن آلاما وأوجاعًا من جهنم بدأت تنهال عليهن. - هذه الحزابين متباينة الأعمار: ولهن شيخ يحكمهن، وهذا الشيخ رجل بطبيعة الحال، وقال أمان: هذا الشيخ هو أيضا معروف للجميع." - " ولكن، لماذا لا تعاقب تلك الحزابين؟" - " والله، هذا راجع إلى الخوف من حقدهن! تلك الحزابين تتجمعن فى الساعات الميتة من الليل، وهن يجلسن فى أماكن البراز والروث، ويخلعن ثيابهن، ويمسحن أجسادهن بلبن الأبقار [الذى يعده الناس فى الجزيرة العربية دواء]؛

ثم يصحن بعد ذلك ،'نحن خارجين عن دين الإسلام؛ ويتجولن فى الشوارع المظلمة المعتمة، ويتزوجن ممن يعودون إلى بيوتهم متأخرين، إذا ما التقوهم أثناء عودتهم! وهن يجبرن ذلك المتأخر على مضاجعتهن؛ وإذا ما رفض ذلك قمن بمسخه إلى حيوان - ثور، حصان، أو حمار: ثم يفقد عقله وصوابه، ثم يموت فى النهاية. وهن، والله، يأكلن قلب (وهو ليس على يقين من ذلك) ذلك الذى يُسَلِّم لهن، ويمصصن دم جسده الحى؛ ويتحول بعد ذلك إلى غبى أحمق، ويتحول إلى رجل متهور بقية حياته.

كانت قلة قليلة جداً من سكان خيبر هى التى لم تحكى حكايات عن ليلة خطيرة كانت تهدد حياتهم القيمة بالخطر والفزع. هذا هو العم محمد، عندما جاء إلى خيبر فى البداية، وكان رجلا قويا، وقلبه لم يخذله أبدا، كان ينتظر فى أحيان كثيرة وراء شباك صُفَّته علة يرى تلك الحزابين. يضاف إلى ذلك أنه تعلم الكثير من النصوص التى تحميه من تلك المغامرة الصعبة، وقد تعلم تلك العزائم والرقى من كتاب ما يزال بحوزته إلى الآن؛ كان الهدف من وراء انتظار العم محمد خلف الشباك، هو القفز فجأة من على السلم عندما يسمع صوت الحزابين أمام باب المنزل. وبالرغم من كل هذه المراقبة اللصيقة، وذلك على حد قوله، لم ير مطلقا أية حيزبونة من تلك الحزابين؛ وأصبح الآن من أنصار أولئك الذين يناصرون الرأى (الذى لا يعقل). "(قال" والله، يا شيخ خليل، نحن غراشيم ghrashemin (سُذَّج) وجهلــه أيضــا؛ وأن تلك الحكايات التى ينسجونها من أدمغتهم التخينــة الســوداء، قد لا تكون سوى نوع من الشرك!" - ولكن الشيخ صالح قال ذات مساء، "لقد رأيتهن أنا بنفسى! كان ذلك يوم أن كان والدى على قيد الحياة، وعندما كنت أنا طفلا، وقد حدث ذلك عندما كنت عائدا إلى بيتى فى وقت متأخر، من بيت مجاور لبيتى: ويا لهذا الذى رأيته فى الشارع! - والله، رأيت امرأة (ذكر اسمها) وهى عارية تماما، ورأيت بطنها الكبير، كما شاهدت عينيها وكأنهما شرر من نار. تراجعت إلى عتبة الدار، ولم يكن أمامى وقت أو إحساس - ولم أكن أعرف شيئا لأنى كنت جاهلا وغير متعلم - وكل ماقلته هو الله Ullah أكبر akbhar ! وهرعت إلى عتبة غرفة والدى: وهناك أغمى علىّ؛ ووجدنى الجيران على هذا الحال! إى! لقد عرفت تلك الحيزبونة معرفة جيدة، - وأنا لا يمكن أن أكون قد أخطأت فى ذلك، والبعض منكم سنه تسمح بتذكر تلك الواقعة."

كـان دخـيل الله، مـثل والده من قـبله، هو العـابث الوحـيد بحـزابين القـرية . هذا الرجل البسيط، كان كلما حزبه الأمر، يخرج أثناء الليل، وهو يصيح بملئ فيه، داعيا إلى الله ونبيه محمد خلال طرقات القرية. وفى إحدى الليالى، وعندما خرج دخيل الله من بيته شاهد رجلا كانت القرية كلها تتكلم عنه همسا بأنه "شيخ الحزابين،" شاهده وهو يسير أمامه فى الشارع. جرى دخيل الله، وقفز على ظهر الرجل، وراح يضربه على رأسه ويقول صائحا فى أذنيه: "قل، أيها الملعون ! لا إله إلا الله؛ قل لا إله إلا الله!" هذا الرجل المندهش، الذى ظن أن الحيزبونة أمسكت بعنقه، - أخذ يجرى إلى نهاية الشارع ومن فوقه دخيل الله، ثم سقط فى النهاية مغمى عليه؛ ولكن دخيل الله، استخلص منه الشهادة قبل أن يتركه،" لا إله إلا الله" . - بالرغم من بساطة حال دخيل الله، إلا أنه لم يخش النتائج ولا العواقب التى تترتب على الإساءات التى يقدمها للناس؛ وذلك من منظور أن الدين المنقذ هو الذى يحافظ عليه.

ذات ليلة استيقظت من نومى على نداء كان يدوى ويتردد فى شوارع القرية! - وسمعت صوت أقدام قوية وهى تدب خلال الأسواق الساكنة. كان دخيل الله، هو صاحب ذلك الصوت، وكان ينادى قائلا، يا Ya عبيد abeyd الله Illah ،لا La إله ilah إلا ill الله Ullah ! وراح يمشى خلال الصُّحْن، واستمر على هذه الشاكلة إلى أن خبى صوته واختفى ولم يعد يسمعه أحد. كان أمان يجلس فى البرد.فى ضوء القمر، استمع أمان إلى ذلك النداء بخشوع ثم قال لى،" دخيل الله كان ينادى على المسلمين." وبعد فترة من الوقت، وعندما انتهى دخيل الله من المرور فى ذلك الجزء من القرية، سمعنا صوتا قويا يقول ويردد الكلام نفسه، وبدأ خطوه القوى يقترب منا مرة ثانية. لم يكن يفصلنا عن جيراننا سوى جدار من كتل الطين : كنت أسمع أولئك الجيران وهم يعدلون جمار نيرانهم؛ كما كنا نسمع أيضا أصوات العائلات التى تقيم فى المناطق المحيطة بنا؛ كانت كل هذه العائلات تردد الكلام نفسه فى خشوع قائلة، لا إله إلا الله! نظرت إلى الشارع وشاهدت ضوءًا أحمرا فى كل شباك من الشبابيك؛ لقد أطفأوا جمارهم، لم يعودوا بحاجة إليها بعد أن أوشك النهار على الظهور، إضافة إلى أن أحدًا لن ينام بعد ذلك.

– قال أمان الضعيف وهو يتنهد تنهيدة توحى بالتقوى والصلاح ،"آه! يا لحلاوة العقيدة! صدقنى أيها الرفيق العزيز ، العقيدة شىء يفوق كل ما يمكن أن يجيش بالنفس ويصدر عن القلب؛ ولكن الله سيحفظك ويرعاك، لأنك ينبغى ألا تموت بلا دين. كم سيكون الأمر جميلا إذا ما رأيتك مسلما، وأصبحت واحداً منا؛ ولكنى أعلم أن الوقت بيد الله: ستنفذ مشيئة الله. – ولكن آه! يا لروعة العناية الإلهية، يا شيخ خليل، التى أتت بنا إلى هنا! أنا ولدت فى مكان يبعد عن هنا مسير ستة أشهر ، أما أنت فقد ولدت فى مكان أبعد من ذلك بكثير؛ ونحن عندما نتكلم نفهم بعضنا بعضا!" – هذا الرجل الحبشى كان له قلب طيب؛ ولم ألاحظ فيه أى أثر من آثار البربرية أو الهمجية أو عدم التحضر: لقد تربى فى أرض أجنبية فى مدرسة الفقر والمعاناة.

يظل دخيل الله رجلا بليدا طوال النهار بعد هذا الصراع الليلى والروحى فى نفس الوقت. وفى أحيان أخرى نرى هذا الزنجى (العبد) الأسود الساذج، هارباً بين البدو الرحل، بسبب خوفه من بعض الأشخاص فى القرية، الذين اختلف معهم فى مسألة خاصة بتمليك الأرض. كان دخيل الله جارا لنا، وكان فى متاعبه يلجأ إلى شهامة محمد النجومى. كى يدافع عنه ويحميه! وكان ينظر إلىَّ دوما نظرة طيبة نظرا لأنى كنت من أصدقاء محمد النجومى. وكنا ونحن نخرج فى الصباح متجهين لقضاء أعمالنا، نرى دخيل الله جالسا على مصطبة بيته وغارقا فى التأمل. – كان العم محمد يسأل دخيل الله، وفى صوته شىء من الحدة والتهكم:" لماذا كل هذا؟ انهض ! واذهب إلى عملك ،أيها الرجل." كان دخيل الله يرد على محمد النجومى رداً حزينا قائلا: لا ! – سألت محمد النجومى عن بقاء دخيل على هذا الحال فرد على رغما عنه، ' دخيل الله منهلى MENHEL . هذا يعنى أن ذلك الرجل عندما تتملكه العاطفة والانفعالات الدينية، فإنه لا يتحملها أو يطيقها أو حتى يقوى عليها؛ ويتحتم عليه بعد ذلك أن يدور فى الشوارع فى القرية ويدعو الناس إلى توحيد الله والصلاة على نبيه.

بعد ذلك بأيام قلائل، يذهب المرضى إلى دخيل الله ويطلبون منه؛ وكان يرد عليهم [حسبما علمته الأرواح] ويصف لهم الدواء والعلاج. ويحكى لى العم محمد أنه فى اليوم

الثانى من الأسبوع التالى لتلك النوبة، يقوم المرضى أو من ينوب عنهم من أصدقائهم باللجوء إلى دخيل الله وهم يحملون إليه البن و البخور؛ - "(خاطب زوجته قائلا) يا امرأة، لا تنسى ! فى اليوم السابع بعد اليوم أن تأخذى ابنتنا المريضة إليه، وتحملى إليه هدية من التمر، وسوف نسمع ما يقول." - فى ذلك اليوم رد العَرّاف عليها قائلا، إن طفلة محمد النجومى سوف تموت نظرا لقسوته على أهل بيته؛ - ولكن اطلبى من الوالد أن يضحى عن حياة ابنته بذبح شاة أو خروف. وهنا رد العم محمد عندما سمع هذا الكلام متعجبا وفى صوته نغمة الاحتقار، تكهنات ذلك العبد ما هى إلا وسوسات Waswassat (أى ترديد بعض الأقوال الدينية الغامضة عن طريق الهمس . يضاف إلى هذا أننى قد بدأت أصدق ، أنا والشيخ خليل ، أن كل ذلك ليس له فى الدين أى أساس) دخيل الله هذا، حمار، وغبى، وهو يقول لزوجتى: إن قسوة كلامى، سوف يترتب عليها وفاة طفلتى الصغيرة كما أن ابنتك أيضا يا خليل سوف تموت أيضا، نظرا لأن أدويتك هى التى أنقذت حياتها، وبالتالى أصبحت كما لو كانت طفلة من أطفالك."

كانت ابنة محمد النجومى تعانى من مرض الدوسنتاريا والحمى؛ وكان والدها ووالدتها ينتابهما الخوف كل يوم لاحتمال وفاة الطفلة، وبالتالى كان محمد يتحرق شوقا إلى بقاء هذه الطفلة على قيد الحياة: نصحتهما بإخراج ابنتهما من خيبر وإرسالها إلى البدو. - كنت أتجول كل يوم فلا أرى أى طفل فى خيبر ! كان القرويون يردون علىَّ ،" الأطفال (البزران) (*) bizran يموتون فى هذا الجو! - هذه إرادة الله." أشد الفصول وباء فى خيبر، والذى يطلقون عليه اسم الحميم hamim ، يتمثل فى ذلك الشهر الكئيب ساكن الهواء شديد الحرارة (شهر دخول حرارة الصيف)، الذى تظهر فيه بادرات البلح الجديد فى أشجار النخيل . - وهذا يحدث فيما بين شهرى مارس وأبريل، أى بعد نقل القمح من الحقول والأجران. - وإذا ما داهمت حمى الوادى الزنوج الكبار، فإنها تصيب الواحد منهم بالضعف والوهن مدة يومين.

(*) البزران : الصغار . (المراجع)

كان إبراهيم شابا ميسور الحال له عقلية أهل الجزيرة العربية، وسلوكيات مهذبة؛ وفيما عدا بعض الأصوات التى كانت تخرج من بلعومه أثناء الكلام، يصعب على من يستمع إليه تذكر لونه. لم يكن إبراهيم متعلمًا، وعندما كنت أمتدح قراءة ولده كان يتنهد ويقول،" لم يتبق لى من أولادى سوى هذا الطفل." كان إبراهيم ميسور الحال، وكان متزوجا من أربع زوجات، بالرغم من أن كل شخص متزوج فى هذه القرية يحيا مع واحدة فقط من زوجاته. والزوجات يعشن مع بعضهن البعض فى منزل واحد؛ وهذه الزوجة هى أم أطفاله: وفيما يختص بالرجال هنا فإنهم ليسوا مثل البدو فى تصرفاتهم، يضاف إلى ذلك أن الخيانة الزوجية لا تشيع بين هؤلاء الناس. يزاد على ذلك أن النساء هنا ليست محجبات؛ والوجوه الواهنة الضعيفة غير البضة (وكلها وجوه أثيوبية) تشيع هنا فى خيبر، والناس هنا فى خيبر لا يفصلون بين الرجال والحريم: والمنزل الخيبرى لا يعدو أن يكون مجرد غرفة علوية، وفى حالة وجود بعض الضيوف القرويين، أو الأصدقاء من البدو الرحل، فإن النساء الزنجيات (العبدات) يجئن للجلوس حول وجار القهوة، ويشاركن فى الحديث الدائر؛ وغالبا ما يكون ذلك بصوت مرتفع، وفهم واضح وقاس. والضيوف عندما يأوون إلى صفتهم أثناء الليل، فإن الحريم يخرجن للنوم مع حريم الجيران . - 'قال إبراهيم ، يا أسفاه ! لم يكن الأمر معى على هذا الحال من قبل؛ إذ كانت زوجاته مع طفله طول الوقت وعلى مر السنين، وقد ولد لهن الكثير من الأطفال: ولكن هؤلاء الأطفال كانوا يموتون فى فترة الحميم. أما الآن فقد توقفت حريمه عن الإنجاب، ويراودهن كثير من الشكوك عن الحسد والحاسدين؛ إذ أن هناك عددا كبيرا من السحرة والحزابين فى خيبر!' - وقد عمل بنصيحة الحكيم. - فقد طلبت منه إرسال ولده، فى شهور الحر؛ إلى قبيلة صديقة فى الصحراء.

هذه القوة، أو إن شئت الوجد أو الانفعال النفسانى كان يتملك دخيل الله، على حد قول العم محمد، فيما يتعلق بالصلاة؛ وربما كان العم محمد يعنى بذلك روح الصلاة نفسها. هذا الصراع الروحى نفسه كان فى والده من قبله: كانت الحزابين تهرب بفعل رنين صوته الدينى :" كان بوسع ذلك الرجل تمييز رائحة الحزابين وهن يمررن من أمام منزله، وكان ينقض عليهن ، حاملا الباب بين يديه." - ذات يوم جاء

دخيل؛ بمحض إرادته لمساعدتنا فى الأعمال البستانية؛ ظل يعمل معنا إلى وقت الظهيرة، ولكن قواه خارت بعد ذلك: وعليه أدى صلاة الظهر بسلاسة دينية غاية فى البساطة، وتناول شيئا من التمر ثم رحل عنا وتركنا لوحدنا. هذا الإنسان المسكين طلب منى معالجة عينيه من الرمد. - وعندما قلت للعم محمد فى وقت لاحق "عرافك مصاب فى عينه!" ضحك الرجل ضحكة تنم عن الحقد والغل.

عثرنا ونحن نحفر البئر، على عروق من الجبس، وعروق من الجص (الجص عندهم هو الصلصال الفخارى الذى تصنع منه الغلايين) أسفل تراب الوادى الناعم، وكانت تلك العروق فيها أثر من الصلصال الذى يراه الناظر إليه مختلطا مع بقية المكونات بفعل الحرارة البركانية القديمة. - "قال محمد، التربة طيبة [كنت قد سبق لى الحديث عن الجلوجيا،] والواضح أن هذه التربة عبارة عن طبقات ." - بعض الناس هنا قد يأخذون ذلك الصلصال الأبيض المتين على أنه نوع من الصابون وقد يستخدمونه فى غسل ملابسهم القطنية: ولكن الأفضل عندهم هو استعمال سيقان نبات الرمض - er.rimth لهذا الغرض. استعملنا ناتج حفر البئر فى بناء مصطبة جدارية، أو إن شئت فقل: ضفيرة thofira ، وغربلنا عليها التراب الناعم (الجريولا Jerula) ، واستخدمنا فى ذلك سلة عامل النخيل التى يسمونها "المورة" muara . محمد النجومى، يود أن يحول هذه الأرض إلى بستان من بساتين المدينة (المنورة) يزرع فيه - النباتات التى تستعمل أوراقها أو بذورها أو جذورها فى الطبخ، علاوة على أشجار الفاكهة؛ التى لم تكن مزروعة فى خيبر فى ذلك الوقت، - ولن يزرع أيضا النخل الذى يطلقون عليه اسم الحلوة، ولا الكروم [لأنها قد لاتجود هنا] : والسبب فى ذلك أن البدو سبق لهم - أن اجتاحوا، بسبب همجيتهم، كل هذه الأشجار.

كان لدى العم محمد النجومى نوع من الصلف الحقيقى يجعله يستعرض نفسه كمواطن ورجل مخلص وموالٍ، وكان يزهو عندما يراه الناس بصحبة ضابط الدولة (الإمبرطورية العثمانية): هذا "القونضام" quondam ، أو إن شئت فقل: "المقاتل" كان يحتفظ لنفسه بحصان فى خيبر، وكان الهدف الأساسى من وراء الاحتفاظ بذلك

الحصان، هو امتطاء صهوته طوال شهور الاحتلال العسكرى، كما لو كان شيخا من الشيوخ، بصحبة كبار ضباط الدولة (الإمبرطورية العثمانية). وهو الآن يرى أن الوقت مناسب لدعوة ضباط المدينة (المنورة) لزيارة أرضه، التى سيزرع فيها النباتات العشبية التى تستخدم فى المطبخ؛ هؤلاء الضباط عندما يجلسون على المصطبة وأرجلهم تتدلى إلى الأسفل، سوف يشاركون محمد النجومى فى ثماره الصيفية. كان محمد من الطينة نفسها التى شاهدتها فى كثير من البلدان: رجال أقوياء، وأجسام ضخمة، ولكن سرعان ما تصاب تلك الأجسام بالوهن والضعف، كما أن أصحاب هذه الأجسام لهم أصوات عذبة، وتكاد تكون أنثوية فى كثير من الأحيان. كان محمد النجومى شخصية بشوشة، وواثق من نفسه، ومتسامح، وشفوق، ويخشى الله ويخافه، وتسهل إثارته أيضا: كان قلبه عامرا بالبشر الإنسانى. ولما كان محمد النجومى من محبى الجنس البشرى، فقد كان مسالما، ولم يكن بسيطا وماكرا ومخادعا، ويعرف كيف يروغ ويزوغ؛ - كان لهذا الرجل طابع بسيط، يغلب على كل الأمور الصعبة والمحيرة، كما كان راض أيضا عن سير الحياة ووتيرتها؛ كما كان يتسم بالرجولة والصلابة، ولكن هو نفسه لم يكن يمكث طويلا فى أى مشروع من المشروعات.

كنت كلما ذكّرت محمداً بالمهمة التى كنا نقوم بها، بعد أن نكون قد هجرناها أياما عدة، - أراه يرد على ببشر وترحاب، أنه عندما يتأكد من مغادرتى لخيبر سالما غانما، فسوف يحضر واحداً متيناً من شباب القرية، وينهى العمل المطلوب منا خلال ساعات قلائل. - كنت أحضر ملئ عباءتى من قحوف النخيل لأشعل فيها النار فوق الصخور حتى يسهل بعد ذلك تكسيرها أثناء حفر البئر: وهم يلجأون هنا إلى هذه الطريقة حتى يتمكنوا من تعرف وصلات صخور البازلت، التى يجرى بعد ذلك تبريدها بالماء. ولّدت شرارة وأشعلت النار فى جزء من سعف النخيل؛ ثم أشعلت بعد ذلك نارا كبيرة. "أها! هل أشعلت نار جهنم؟" - كان هناك حاكم فى المدينة (المنورة) اسمه جهندم Jehendem باشا! وبعد أن هدأت النار، لم نجد شيئا نرفع به الماء." يا أسفاه! قالها وهو يضحك ، لقد خبت جهنم دون جدوى:" بعد ذلك، وبناء على طلبى، قام بطلاء أو تبطين المقطف المصنوع من سعف النخيل، بالطين واستعمله فى صب الماء على

الحجر الساخن. بالرغم من أن محمد النجومى كان قد تخطى عامه الخمسين، إلا أنه كان شبابا فى مرحه، كما لوكان لم يصادف أية متاعب فى دنياه.

الناس هنا لديهم عادة من عادات العالم القديم، وهم هنا يعملون لدى بعضهم البعض بدون أجر، هذا بالإضافة الى عادة أخرى تحتم على الشباب تناول الطعام عند من يعملون عنده. والإنسان هنا فى خيبر عندما يكون بحاجة إلى من يعمل عنده، تراه على الأرجح ينادى شابا من معارفه "تعال واعمل عندى اليوم" - سواء أكان ذلك العمل حفرًا، أم حرثا، أم بذرا أم حصادًا، أم ريا أم بناءً. - والعمال هنا يتوقفون عن العمل عند الظهر (وهذا هو موعد انتهاء يوم العمل فى خيبر) ويتبعون صاحب العمل عائدين إلى بيته، حيث تكون ربة البيت قد أعدت لهم غداءً؛ - هذا الغداء ينبغى ألا يكون تمرا، وإنما شيئا من الخبز أو من الوجبات التى تعدها ربات البيوت من حبوب القمح. كان محمد النجومى ينوى أن يبنى لنفسه بيتا، نظرا لأن البيت الذى يسكن فيه حاليا ليس ملكا له. - "قال: ومع ذلك، لابد أن يكلفنى بناء هذا المنزل بعضا من جوالات القمح، كى تكفى لسد رمق البطون الجائعة طوال أيام عدة . كان محمد النجومى يقول فى معظم الأحيان، الناس لا تعرف كنه الحياة التى نحياها هنا فى خيبر، اللهم باستثناء عدم نقاء الهواء هنا فى خيبر. وأنا هنا أحسن حالا من المدينة (المنورة) ، التى ندفع فيها أجرا للسقاء الذى يجلب لنا الماء ويسقينا، كما ندفع أيضا ثمنا لحطب الوقود، إضافة إلى أن كل واحد يتعين عليه شراء العلف اللازم لحصانه."

فيما يتعلق بالبيت الذى يود بناءه لنفسه، أبلغنى محمد النجومى أنه سوف يستدعى أفضل العمال من بين العيال، وأنه سوف يقول لهم: " أنا أبنى بيتا، تعالوا اليوم لتصنعوا معى قوالب الطوب اللبن، وقوالب الطوب اللبن "هنا عبارة عن كمية من الطين تعادل نصف الكمية التى يمكن أن يحملها فأس واحد من الفئوس، ويقومون بتكوير تلك الكمية من الطين باستخدام أيديهم، ويتركونها تجف فى الشمس طوال عدة أيام قلائل؛ ثم يقلبونها بعد ذلك على الوجه الآخر. وبعد أن يجف الطوب فى الشمس على امتداد عشرة أيام، وعندما تظهر على سطح الطوب الصمخة البيضاء، ينقله الناس

بعد ذلك لاستعماله فى البناء؛ والبناءون يقومون بتجهيز الملاط اللازم لبناء ذلك الطوب. وهم يصنعون أساسات المبانى هنا من ثلاث طبقات من الحجارة [انظر الجزء الأول ص ١٧٦] ثم يبنون الطوب اللبن فوق ذلك الأساس بسمك طوبتين، ولكن بدون حرفية أو اهتمام كبير، ذلك لربط ذلك الطوب بالأساس الحجرى؛ ثم يقومون بتلييس الجدران بطريقة عشوائية؛ وهذا يكفيهم تماما. والشباب عندما يخرجون لجمع الدعامات والبحث عنها، يبحثون عن سيقان النخيل التى أسقطتها الريح فى البلاد (الحقول)؛ واذا ما عثروا على شىء منها أخذوه، نظر لأن أخشاب النخيل المتساقط تعد عائقا فى خيبر. وهنا يقوم الشباب بربط ساق النخيل الذى يكون من هذا القبيل، بحبل من الحبال، على أن يقوم عشرون من هؤلاء الشباب بجر تلك السيقان إلى أن يحصلوا على ما يكفيهم. والدرج (السلم) هنا يبنونه من الحجر والملاط؛ وأرض الصُّفَّة تبنى أو تصنع من الطين المضغوط فوق حصير مصنوع من جريد النخيل؛ وفى منتصف البيت يوجد وجار القهوة الذى يبنونه من الطوب اللبن، ويكون ارتفاعه شبرا من أجنابه المختلفة. عند هذه المرحلة لا يحتاجون إلى ما يزينون به منازلهم سوى شىء قليل من الحصير.

الزنوج (العبيد) هنا فقراء فيما يتعلق بوديان النخيل، إضافة إلى أن طابعهم بائس، كما أنهم أجلاف كما أنهم مسرفون: ومع ذلك يقال إنهم فى موسم حصاد التمر يمكن أن يكونوا أجواداً . وكل عائلة من العائلات قد تملك أحواشا عدة من أحواش النخيل وأراضى الحبوب، ولكن هذه الوديان وتلك الأراضى لا يفلحها الناس كلها، ولذلك يشيع الفقر والعوز بينهم، حتى فى سنوات رواج المحصول ووفرته." قال محمد: حقولى لا تتعدى عشرة بلاد - ، ولا يوجد هنا فى خيبر من عنده أقل من هذا العدد، بل هناك الكثيرون الذين لديهم خمسين أو ستين بلدا: ومع ذلك ليس هناك من بين كل هذه البلاد ما هو أفضل من بلادى (حقولى)؛ وكل هذه البلاد تفتقر إلى الرعاية والفلاحة الجيدة. وأنا أشكر الله ، أن بيتى عامر دوما بالطعام والمأكل؛ ولكن نصف هؤلاء الناس الآخرين لا يكون لديهم ما يكفيهم فى معظم الأحيان ." - كنت أعرف شابا مبذرا كان ثريا بمعنى الكلمة، ولكنه تدهور حاله وأصبح فقيرا الآن. لقد أنفق أثمان بساتين نخيله على شراء مزيد من الزوجات؛ ونظرا لأنه كان سكيرا، فإن إقامته

مع أية واحدة منهن لا تدوم سوى أسابيع قليلة: اكتشفت أن البائعين البدو الرحل فى الأسواق لا يثقون بذلك الرجل حتى ولو بما قيمته ريال واحد من السمن، على أن يسدده (تمرا) فى موسم الحصاد وعندما يحين موعده! - والصاع هنا فى خيبر هو الصاع نفسه الذى فى المدينة (المنورة) ، وهذا هو أكبر مقياس من نوعه فى الجزيرة العربية كلها. والصاع قد يعادل ربع جالون فى تيماء، وما يزيد قليلا على ربع جالون فى حائل، وقد يصل إلى ما يقرب من نصف جالون فى قرية العلا، أما فى خيبر فقد يصل إلى ما يزيد على الجالون أو إن شئت فقل: جالون وثمن جالون؛ والمدجة medeja (مكيال يصنع من سعف النخيل) يساوى عشرين صاعا، والمجلَّد mejellad يساوى خمس مدجات. والناس هنا يطلقون على جلد الحيوان المملوء بالتمر اسم "الحاشية" hashiah ، كما فى المدينة (المنورة).

حدثت منذ سبع سنوات مضت مجاعة فى الصحراء. وقد حدثت تلك المجاعة بعد أربعة فصول جافة من فصول الشتاء، إلى حد أن فصل الربيع لم يكن يظهر بعد تلك المواسم الأربعة؛ وترتب على ذلك نفوق نصف أعداد ماشية البدو. ثم جاء بعد ذلك كثير من أهل القبائل الفقراء بحثا عن منجد أو مغيث فى الوديان؛ وقد حكى لى العم محمد أن الخيابرة استضافوهم وخففوا عنهم إلى أن تحسنت الأحوال. قال العم محمد؛" كنت ترى البدو، قبل الغروب بساعة واحدة، وهم يزحفون على الشوارع، زرافات ووحدانا، إلى صُفَّات الناس؛ وكانوا يجلسون فى صمت حول وجارات القهوة فى انتظار موعد تقديم العشاء." - هذا الإحسان العام لا يمكن الحصول عليه طبقا للقوانين الشائعة أو المعمول بها فى البلدان الأخرى! - أما رب البيت الذى كان لا يرغب فى تقديم ذلك الإحسان فكان يقول، "لماذا أيها الضيف دائمًا معى، وتعرقل مجىء شخص آخر، ما الذى يجعلنى أراك هنا يوميا؟ تردد على البيوت الأخرى!" بالرغم من خصوبة الأرض هنا وثرائها إلا أن الخيابرة لا يتوفر لهم من النقود سوى القليل جداً. قيل عن الشيخ صالح العجوز، الذى كانت بساتين نخيله أكثر عددا من بساتين الناس الآخرين "أنه كان يضع فى كيس نقوده ما يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ ريال." وخضرة وديان خيبر وثرائها يضرب بها المثل فى الصحراء، يضاف إلى ذلك أن رجال القبائل يولِّدون

اشتقاقا كبيرا وجميلا من الاسم خيبر نفسه: " وهم يقولون ان خيبر ليست سوى خير kheyr البَرّ el-barr ، بمعنى ثراء الأرض ووفرتها."

يقول الموروث الثقافى، إن مضارب أعراب العنزى كانت قليلة جداً عقب الإستيلاء على خيبر الموسوية وكسر شوكتها، وأن تلك المضارب كانت فوق المدينة (المنورة) فى المنطقة مابين وادى الحمض Humth ووادى الرماح [الذى يتجول فيه حاليا ولاد على هم والحطيم ومعهم جزء من أمة حرب] . - كان عُقَيْلَة Okilla أحد عبيد المرحاب Marhab، وأمير خيبر القديمة، قد جمع البقية الباقية من قروييه، ونصَّب نفسه شيخا عليهم. وفى عام من الأعوام وأثناء مرور العنوز ومعهم ماشيتهم، ضربوا خيامهم بالقرب من وديان خيبر (الصديقة)، فى مكان يتوفر فيه الماء الغزير. دخلت واحدة من عذراوات العرب خيبر لتناظر بنات القرية: وفى القرية غرر بها شاب من الشبان، فأغواها واغتصبها؛ - كان ذلك الشاب ولد الشيخ عُقيلَة! عادت الفتاة الشابة المسكينة تبكى إلى دارها؛ - وكانت ابنة لواحد من الشيوخ. وسرعان ما شاعت تلك الخيانة فى منْزَل البدو الرحَّل ! ولم يحتمل البدو أو يطيقوا مسألة العنف الذى لقيته تلك العذراء! وهذا هو ما قاله البدو الرحل جميعًا.

أرسل شيوخ العنزى يطلبون من شيخ خيبر تفسيرا لذلك الذى حدث؛ ورد عليهم ، بعد فترة وجيزة رداً مفاده أنهم ينبغى عليهم أن لا يسقوا بعد الآن من ذلك المكان. وفى صباح اليوم التالى ركب شيخ القرية عُقيلَة ومعه عدد قليل من الخيالة إلى المكان الذى كان البدو الرحل ينزلون فيه وتحداهم وقاتلهم. وهاجمه البدو هجوما ضاريا؛ وسقط عُقيلَة فى ذلك القتال ومعه عدد كبير من ناسه وأهله. قام البدو عندئذ باجتياح كل شىء ؛ غزوا القرى، وقطعوا على أنفسهم عهدا بألا يزوجوا مطلقا بناتهم للخيابرة وإلى أبد الآبدين - واعتبارا من ذلك التاريخ أصبح الخيابرة أمة سوداء. - وترك البدو القرويين يفلحون وديان النخيل، نظير الحصول على نصف الإيراد؛ وانتقلوا بعد ذلك إلى الصحراء الجرداء.

كل الممتلكات فى خيبر تقوم على مشاركة البدو فيها؛ ويدخل فى ذلك أيضا بيوت القرويين التى يجرى اقتسامها أيضا فيما بينهم وبين البدو الرحل الغائبين.

وفى منتصف فصل الصيف تنزل قبائل العنزى (التى مازالت فى الجنوب) لتحصيل نصيبها من محصول التمر. هذا يعنى أن كل بلد (حقل) إنما هو ميراث إرث مزدوج؛ إذ يكون هناك دوما مالك بدوى وشريك قروى أسود، ويجوز لكل منهما أن يقول هذا البلد (الحقل) ملكى. القرويون هم الذين يقومون بالزراعة: ويحق لهم أن يبيعوا نصيبهم وحقوقهم للآخرين ، ولهم الحق أيضا فى أن يهملوا ممتلكاتهم وحيازاتهم، دون أى اعتراض من البدو؛ وليس من حق القبلى أن يجعل شخصا آخرا يحل محل القروى. والقروى عندما يبذر الحب فى التربة، يصبح المحصول كله ملكا له؛ هذا يعنى أن ذلك البدوى الغائب لا يكون له نصيب فى ذلك المحصول: ومع ذلك إذا ما كان البدوى (نظرا لوجود قلة قليلة من القبليين المعدمين) يسكن أو يقيم فى خيبر وأصبح من المستقرين (أى أصبح جطونيا jatuny) ، فقد يفعل الشىء نفسه، أى يدخل بالنصف أيضا مع شركائه الزنوج (العبيد) فيما يتعلق بميراث البذار. القرية التى يعيش الناس فيها هنا تحتوى على خمسة عشر بدويا (من بدو البشر) الذين يتصرفون على هذه الشاكلة: هؤلاء البدو كانوا معدمين ومفلسين فى الصحراء جاءوا واستقروا على تلك الأرض الطيبة الجيدة التى بقيت فى أيديهم وملكا لهم. هؤلاء البدو القرويون لا يهمهم الخيابرة، الذين يعيرون محاريثهم، وثيرانهم، وأدواتهم الزراعية لأولئك الجطونيين (البدو المستقرين).

حق رجال القبائل الغائبين فى الأرض لا يزيد عن تملك النخيل ليس إلا. هذا النخيل عندما يموت أو يتحلل يتعين على القروى استبداله بغيره، على أن يقوم البدوى بدفع ريال واحد عن كل نخلة للقروى: لكن إذا ما كان الشريك فقيرا ولا يستطيع تعويض القروى، فإن ذلك يعطيه الحق فى عدم زراعة الأرض، أو قد يزرعها حبا لحسابه الخاص. ومع ذلك يظل البدوى محتفظا بملكية الأرض، ويجوز لشريكه البدوى المترحل، أن يطلب من البدوى المقيم، فى أى وقت، أن يقوم بزراعة النخيل، نظير نصف المحصول، ويعترف بمديونيته للبدوى فى المحاصيل المستقبلية أو القادمة . والشركاء القرويون الجيدون يحتاطون لتحل مزارعهم؛ فهم يحرصون على أن يكون لكل جذع قديم من جذوع النخل بادرة صغيرة تنمو إلى جانبه حتى يتسنى أن تكون هناك نخلة

أخرى إذا ماتحللت النخلة العجوز أو ماتت. ومع ذلك فإن البلاد (الحقول) هناك لا تعرف من النظام الشيئ الكثير، فالفسائل تنمو على نحو مخيب للآمال، وعندما يدخل موسم نقلها إلى المزارع سرعان ما تسقط وتتحلل.

يزاد على ذلك أن القرويين يتملكون ملكية فردية بعض الأراضى الشاسعة التى لم يسبق زراعتها بالنخيل (من قديم الأزل)؛ كما هو الحال فى حقول القرويين القريبة من قصر النبى، وكذلك القاع المرتفع من الأرض ذات التربة الحلوة (غير العميقة)، التى يطلقون عليها اسم الهوردة Hurda التى يوجد فيها عدد كبير من الآبار؛ وهم يقولون: إن عدد تلك الآبار يصل إلى حوالى "ثلاثمائة بئر" أى أن هناك عدداً كبيرا من الآبار. بذلك نكون قد رسمنا صورة للثروة العقارية المتمثلة فى الأرض؛ وأنا إذا ما وافقت على البقاء فى خيبر، فإن كل رب من أرباب البيوت هنا، وعد بأن يهبنى بلداً من بلاده: وفى بداية الأمر أعطانى العم محمد تلك الأرض التى كنا نعمل فيها سويا، وفيها خمسة عشر عوداً، أو إن شئت فقل: خمسة عشر نخلة: وقد اشترى العم محمد نصيب القروى بستين ريالاً . أما الشيخ صالح فقد أعطانى البلد (الحقل) الثانى، ولكنه مثل كرمه، لم يكن حقلا كبيرا. وكل حوش من أحواش النخيل محاط بسور عال. وسبب بناء ذلك السور العالى راجع إلى أن البدو (فى موسم التمر) كانوا يتصرفون تصرف الأوغاد ويتسلقون تلك الأسوار ويسرقون التمر أثناء الليل وأطراف النهار. والسور الذى يبنى حول البلد (الحقل) يكون على نفقه القروى نفسه، كما أنه هو الذى يبنيه بنفسه؛ أما البدوى فلا يعطيه إلا ريالا واحداً عن كل مساحة من ذلك السور، يصل طولها إلى جريدة واحدة من جريد النخل.

والبدوى، إذا ما اضطر - بسبب دفع دية لقتيل - إلى بيع ميراثه من الأرض كيما يفى بتلك الدية، فإنه يبيع ذلك الميراث لواحد من أفراد القبيلة ولا يبيعه للزراع الزنوج. والقبائل أو بطونها عندما تهجر أرضا أو تتخلى عنها وتصبح ضمن أعراب ديرة أخرى، كما هو الحال مع السباع، والرولة، والجلاس Jellas ، فإن ذلك التخلى يكون للعنوز الذين يبقون فى المنطقة؛ ومع ذلك تظل حقوق تلك القبائل معلقة. ويحق لأى

غريب في خيبر استغلال تلك الأرض الخالية في أي بلد (حقل) من البلاد وذلك على سبيل المشاركة مع القروي. في مثل هذا الحال، تبذر حبوب الغريب في الحقل، أما الرعاية والعناية فتكون على القروي. - الحرث، والري والحصاد؛ ثم يجري اقتسام محصول الحبوب بينهما مناصفة. وهذا هو ما يفعله أحمد، وهذا هو أيضا ما يفعله سرور الذي كان شخصا ميسورا؛ والأحباش لهم ثلاثة قطع من الأرض المزروعة بالحبوب هذا العام، والحبشي يشرب الحليب من قطيع الماعز المملوك له؛ وسرور كان الرجل الوحيد من بين الجنود البؤساء الذين أثروا في خيبر. "قال ذلك الفاحش: إخ ! وهو يرفع عينيه إلى السماء، لعل الله يبقيه هنا عامين أو ثلاثة أعوام أخر! - وعندها سيكون قد ارتاح تماما وأصبح من الميسورين."

- حدث (وهذا من المستغربات) أن عمل ذلك السرور Sirur بالجندية في القلعة التي كانت في مدائن صالح؛ هذا العبد من عبيد الأرض (على حد قول أمان Aman) الذي كان تابعا للحاج نجم، استطاع نقل نفسه من مدائن صالح: كما أنه كان يعرف أيضا كلا من تيماء هي وقرية العلا. وعندما حاصر البدو ذلك السرور في بوغاز قرية العلا ذات مرة، قال ذلك المداهن: إن "ربَّه نجَّاه": - وبذلك تحول ذلك السرور إلى شاهد رغم أنفه على كل ماقلته أنا، عن تلك الأماكن. - أنا لم يطل صبري إلا مع ذلك العبد المطمور؛ كان دفاعي يقوم، بالرغم من أن ذلك قد يكون من قبيل العجلة والتسرع، على تكسير تلك الروحانيات. عندما كان عبد الله يدخل المقهى، فإن جمهور الحاضرين، بما فيهم محمد النجومي، كانوا يقفون تحية لحاكم القرية الأسود، في حين كنت أظل أنا جالسا في مكاني. - كان العم محمد، يردعليّ عندما كنت ألومه في المنزل أنه "لم يكن يسلك ذلك السلوك الفظيع من أجل عبد الله وإنما من أجل الدولة (الإمبراطورية العثمانية)". - وعندما كانوا يستاءون مني، كنت لا ألقي بالا لذلك الاستياء. كان عبد الله، في مثل هذه الظروف، وأثناء جلوسه صامتا، ومرتبكا إلى حد ما، ينتظر أن يقوم أحد الحاضرين بانتقادي وتجريحي، وحبذا لو كان ذلك من فتوة من أمثال سرور؛ - ولم يكن أحد يشعر بالحب ناحية السروان. دخل الشيخ صالح المقهى ذات يوم من بعدي، - (افسحوا مكانا "صاح صوت سرور المدوي) للشيخ صالح، انهض! افسح المكان

للشيخ صالح يا خليل." - "قلت: صالح يستطيع أن يبحث لنفسه عن مكان آخر." عبد الله هذا، الذى كان يحس فى داخله أنه عبد، لا يمكن له أن يجادل النصرانى الأبيض فى أمور من هذا القبيل؛ وهنا قام الشيخ صالح بالجلوس فى المكان المجاور للمكان الذى أجلس فيه. وهنا تمتم سرور وغمغم، فاتجهت ناحيته وقلت له بوضوح،" لقد تجولت فى أماكن كثيرة، سنوات كثيرة، ولم أصادف خنزيراً من أمثالك، فى أى مكان من الأماكن التى ذهبت إليها." اندهش الجمهور الحجازى الجالس من كلامى؛ وحملقت غالبية الحاضرين فى النار المشتعلة، وتأملوا فى دواخلهم أن النصرانى لم يخطئ فيما قال. سحب عبد الله نفسه، وابتعد قليلا عنى فى جلسته، ثم نظر إلى الأسفل؛ كان النجومى حاضرا، وهو يخشاه. تظاهر سرور بأنه لم يسمع ذلك الذى قلته أنا ثم" (سأل الجالسين الآخرين) ما هذا الذى يقوله؟ خبرونى بذلك الذى قاله خليل؟" ولكنهم، بصفتهم عرب، والموضوع يتعلق بخلاف من الخلافات، حافظوا على هدوئهم؛ وعندما وجد أن أحداً لا يحبه لم ينطق بعد ذلك ولو بكلمة واحدة . - "قال العم محمد، هذا العبد، لم يكن له قلب فروج، أثناء عودتنا إلى المنزل!"

الفلاحة عندهم من النوع الخفيف. الفلاحون يخرجون من منازلهم بعد شروق الشمس، وبعد تناول الإفطار، حيث يتجهون بعد ذلك إلى مزارعهم. والفلاحون يحرثون هنا باستعمال المحراث الذى يجره ثور صغير وهم عندما يحرثون فدانا من الأرض، فى الساعات القليلة التى تسبق وقت الظهيرة، يظنون أن العمل الذى قاموا به يعد كافيا تماما ! المحراث الذى يستعملونه هنا لا يزيد عن كونه سلاح حاد يقلب التربة إلى عمق شبر تقريبا. وفى اليوم التالى للحرث يقومون ببذر البذور بواسطة تلك الأيدى التى قامت بالحرث؛ وهم لا يزَحفُّون الأرض، وهذا هو كل مايفعلونه إلى أن يحين وقت الحصاد، هذا باستثناء تلك الساعة من الأسبوع الخاص بالماء العام، والتى يفتحون خلالها ماء الغدير لتروى حقولهم؛ هذا الماء القادم من الغدير هو الذى يملأ كل حفر الرى أيضا. هذا هو العمل الذى تقوم به الأسر فى حقول خيبر بالرغم من توفر الأرض الزراعية وكثرتها. وفى فصل الربيع يقوم أهل خيبر بتذكير النخيل أى بنقل حبوب اللقاح من النخيل الذكور إلى النخيل الإناث . كما يقوم أهل خيبر بتقضيب أو إن شئت

فقل : تقليم النخيل فى موسم الربيع أيضا: والقروى يجرى ذلك التقليم باستعمال منجل حاد، ويتسلق جذع النخل عن طريق حزام يصنعونه من ليف النخيل. صالح، شيخ خيبر، كان رجلا معاقا، كان يجلس دوما فى بيته، كما كان عبد صغير السن يقوم على فلاحة أرضه وأملاكه. كانت يدا حصين Haseyn - لم يكن ذلك الصبى قد بلغ بعد السادسة عشرة من عمره - تكفيان للقيام بكل الأعمال التى يحتاج إليها والده. خيبر من هذه الناحية مختلفة عن سائر واحات نجد [اللهم باستثناء واحة الهوردة Hurda من حيث أنها ليس فيها أعمال تتعلق بالآبار؛ وهم هنا قد يقضون الأسبوع كله فى العطلة ويخرجون من تلك العطلة أيضا وهم صفر الأيدى. وعندما تشتد حرارة الجو فيما قبل الظهر يعتقدون أن من حق خلق الله أن يرتاحوا من عناء الدنيا، - والشمس تكون حارة أيضا على وجوههم السوداء فى فصل الشتاء أيضا؛ وهم يعودون إلى منازلهم كى يستظلوا بظلال الشوارع، ويأكلون التمر فى صُفّاتهم. والناس هنا يجلسون خارج منازلهم على مصاطب من الطين؛ وقد يشاركون بعضهم بعضا فى تزجية وقت الفراغ فى ألعاب يطلقون عليها اسم البيات biat : فى هذه التسلية يحمل الصغار بنادقهم الطويلة ويذهبون لصيد طيور النخيل. - والناس هنا يلعبون لعبة البيات هذه بسبعة صفوف فى كل صف منها سبعه حفر . أما النساء الزنجيات (العبدات) فيجلسن على سطوح منازلهن يقضبن جريد النخل وهن يغنين أثناء القيام بذلك العمل.

بعد غروب الشمس يقوم الشباب الصغار بالنفخ فى مزاميرهم التى هى عبارة عن زوج من البوص، ويتجولون فى شوارع القرية: هؤلاء الشباب يتجمعون فى معظم الأمسيات فيما يسمونه صحن القرية، الذى يطلقون عليه أيضا اسم الرّحبة er-Rahabba . ثم يحضرون بعد ذلك الطنبورالكبير، ويشبون النار فى بعض من جريد النخل حتى يتسنى لهم إضاءة المكان وهم يرقصون. - يتقدم الشباب الصغار إلى الأمام، وهم يرفعون سيقانهم السوداء إلى ارتفاع معلوم، ويجرى ضرب ذلك الارتفاع مرات عدة، ويضرب الشباب سيوفهم بشدة فى غمدها ويروحون يديرون حدود سيوفهم من حول وجوههم السوداء اللامعة. هؤلاء الشباب يتقدمون إلى الأمام لتدريب القدم المرفوعة ويضربون الأرض؛ ويلف الشباب أجسادهم، ويعاودون ما يفعلون، وهم يغنون،

– هذه الرقصة باستعمال السيف قد تستمر ساعة أو ساعتين؛ وفى مثل هذه الظروف يكون هناك متفرجون، يشاهدون ذلك الذى يقوم به الشباب اللطيف من شباب القرية، والذين يسارعون بالذهاب عند أول صوت للطنبور إلى صحبة القرية تاركين وراءهم صُفَّات أمهاتهم: أو إلى رقصة البنات. وفى أحيان كثيرة، وأنا عائد إلى بيتى قادما من منزل العم محمد، وفى يدى الشعلة التى هى عبارة عن جريدة مشتعلة من جريد النخل، كنت أشاهد أولئك الشباب وهم يلعبون تلك اللعبة الحربية؛ ومن يحملون مسدسات من أولئك الشباب، يفتحون النار، ثم يستلون سيوفهم القصيرة اللامعة، ويصيحون صياحا عاليا، ويجعلون تلك السيوف القصيرة تصطدم بالتروس: كنت أراهم جميعا وأسنانهم السوداء تلمع فى ضوء النار وينادوننى قائلين "ها! ها! ياخليل!"

كان الشباب يرقصون تلك الرقصة فى ليالى كثيرة فى صحن القرية، وكان الضوء الصادر عن الراكية التى يشبونها يتناهى إلينا من خلال النافذة، ومعه النغمات العالية التى تصدر عن الطنبور، والأصوات الغوغائية التى تصدر عن هؤلاء الزنوج، الأمر الذى كان يقلقنا، ولكنه كان المصدر الوحيد للتغيير والتسلية فى خيبر. – وهنا لم يكن أمان المريض يقوى على احتواء غضبه: "قال: أسقط الله عليهم نار جهنم! إخص! من غير الخيابرة يقوى على تحمل هذه الضوضاء الوحشية؟" وفى عيد الأضحى يعزف الطنبور طوال النهار ويستمر الرقص خلال شوارع البلدة، وفى صحن القرية أيضا. وعندما كنت أعثر على رفيقى جالسا على المصاطب العامة "قلت: يا لهذا التأمل والتفكير العميق الذى أنت فيه! أليست لديك قدم خفيفة تمكنك من المشاركة فى هذا الاحتفال؟ حاول إسعاد نفسك، أيها الرجل، وأنت على قيد الحياة. "كان ذلك الحبشى المسكين يضحك للحظة ثم ينسى حزنه بعد ذلك؛ ثم يرد على بعد ذلك وقد ارتسمت على وجهه نظرة تعبر عن الألم والأسى، "أنا تركى مثلك تماما: والأتراك من عادتهم الابتعاد عن نشاطات الاستخفاف التى يقوم بها البشر."

قال لى العم محمد عن الخايبرة:" إنهم أهل ahl هوا hawa وهم وهاميين Wahamy بمعنى هوائيين أى أصحاب نزوات." وحتى هو (العم محمد) باعتباره (مسلما من الحضر)

يلومهم على العزف على المزامير لأن الصوت الصادر عن ذلك البوص المثير إنما هو عمل دنيوى خطير على مسمعهم الدينى: ومع ذلك فإن الطنين الفظيع الذى يصدر عن الطنبور يروق لسامعهم على نحو عجيب. قال لى العم محمد: "الطنبور هو الصوت الموسيقى [نغمات الأرغن] فى الدين الإسلامى." - والرعاة هم وأطفال البدو الرحل يعزفون باستخدام سيقان من العشب الأخضر أثناء فصل الربيع الجميل؛ وهم يطلقون على تلك اللعبة الموسيقية التى يصنعونها من سيقان تلك الأعشاب، اسم الهوّامه hawwama .

كان الأخ الثالث الأصغر من إخوان محمد النجومى، والذى قتل قبل عامين فى الغزو الذى قامت به جهينة على الطريق القادم من المدينة إلى خيبر، كان فى أواخر أيام حياته التى ابتدأها بالطقوس الدينية الآسيوية الغريبة، التى ما يزال بعض الدراويش يمارسونها فى البلاد الإسلامية. هؤلاء الدراويش لهم مدرسة فى دمشق، كما عثرت على البعض منهم فى وادى بردى Barada . هؤلاء الدراويش يجرحون أنفسهم عندما يتملكهم الغضب؛ هذه الإصابات يتضح أنها إصابات سطحية بعد انتهاء نوبة الغضب. هؤلاء الناس أثناء احتفالاتهم بالعيد والمناسبات الدينية التى يعلن عنها الصوت الذى يصدر من الطنبور، والتى تتقدم وتزداد حدة بصراخ الناس وصياحهم، يشقون بطونهم ويغرسون الأسياخ فى خدودهم ويغرسون السكاكين خلال الأجزاء الثخينة من أجسادهم. كل ذلك نراه رأى العين وهم يفعلونه؛ وتراهم بعد ثلاثة أيام وقد تعافوا وعادت إليهم عافيتهم! وحكى لى العم محمد، "أن ذلك ربما كان بفعل دواء من الأدوية، وأن ذلك لم يكن من قبيل الدجل أو الاحتيال، - وأنه قد تأكد من ذلك من أخيه، الذى لم يكذب عليه أبدا".

فى أحد الأيام وأثناء قيامنا بعملنا فى الحديقة عبرت جماعة من القرويين الفجّارة سعيا إلى جمع الحطب. فى حين بقى دخيل الله ومعه شخص آخر ليقوما بمراقبة الصفصافة من فوق صخرة من الصخور، والمعروف أن الصفصافة فيها ثكنة صيفية من ثكنات الجنود المتواضعة، التى بنيت من الطين كى يقيم فيها جنود المدينة (المنورة).

انقضت ساعة: ثم نادوا بعد ذلك على محمد النجومى، "لقد شاهدا دخانا كما لو كان صادرا عن اطلاق النار فى اتجاه المكان الذى تجمع منه الجماعة الحطب." وهنا أمسك العم محمد ببندقيته الفتيلية، وترك معى عباءته وغترته، وسار عارى الرأس، لا يرتدى سوى قميصه، ويسير حافى القدمين، وانضم إليهما لإنقاذ أولئك الذين كانوا يجمعون الحطب. رآهم أناس آخرون فراحو يجرون معهم، وأصاب الذعر القرية كلها. نادى عبد الله السروان العجيليين التابعين له وطلب منهم حمل السلاح والسير وراءه؛ وحمل كل خيبرى سلاحه، واتجهوا جميعا نحو الحَرّة، وهذا هو أمان راح هو الآخر يتبعهم متعثرا بحكم ضعفه، وكان وجهه يوحى بأنه فى أواخر أيامه، وراح يسير بين الصخور الوعرة حاملا سلاحه الثقيل: ولكن عبد الله السروان طلب إلى ذلك العسكرى المسكين العودة إلى مهجعه الذى كان يرتاح فيه.

كان بلد (حقل) العم محمد مفتوحا إلى حد ما؛ وقد حذرنى مرارا من الذهاب وحدى إلى ذلك الحقل، مخافة أن تصيبنى طلقة قاتلة تأتينى من بلد من البلاد المجاورة: ولكنى إذا ماعدت ناحية البلد فلابد أن أقابل تلك الرءوس الجامدة، وهى تهرع إلى القتال حاملة سلاحها؛ يضاف إلى ذلك أن العم محمد كان قد ترك معى ملابسه، ووجدت أن من غير المناسب أو اللائق أن يعود ذلك الرجل الشجاع ويمشى خلال شوارع البلدة وهو لا يرتدى كامل ملابسه. بقيت أعمل فى البستان: وطوال تلك الساعات الطوال التى خيم الصمت علىّ خلالها، كنت بمثابة العابد الذى ينزل فى معبد من المعابد، وكنت شاهدا حقيقيا ومخلصا علىّ حياة الطبيعة الساكنة. وبينما كنت أراقب الفئران الكبيرة الآكلة للأعشاب وهى تأتى من بين الجدران الأربعة المهدمة: كان كل واحد من تلك الفئران يمسك ساقا، ويحمله عائدا به إلى جحره ثم يعود مرة ثانية لجلب المزيد من القش وعيدان الحشائش.

قبيل العصر، سمعت ضجيجا يشبه الضجيج الناتج عن العمليات الحربية، وظننت أن العدو ربما كان يقترب من اقتحام القرية: كانت الطلقات هى وأصوات إطلاق النار تبدو كما لو كانت فى منتصف البلاد (الحقول). – عندئذ عاد العم محمد وهو يلهث،

وتعجب عنـدما وجدنى فى الحقل. وعندما شاهـدت نظراته المتوترة سألته على الفور، "ما أخبار المعركه؟" – لم يكن سوى مجرد غزو، ولقد طردناهم؛ كان هناك إطلاق للنار من مسافة بعيدة، – لم يصب أحد بأذى . وكانت تلك الضوضاء الناتجة عن إطلاق النار (فى الهواء) مجرد إشارة على تراجع أولئك العيال: ألا يتعين عليهم أن يضفوا على ما قاموا به شيئا من الشجاعة ويهدئون من مخاوفهم قبل عودتهم إلى منازلهم: – والآن، كيف حالك يا شيخ خليل، هيا بنا نعود إلى المنزل ونأكل شيئا من التمر."

عدنا بعد العشاء إلى قهوة الجنود؛ الذين راحوا يتسامرون ويحكون عن تلك المغامرة. لعن عبد الله السروان البدو هم وأقاربهم؛ وحزن على رجله السوداء الرقيقة التى تجرحت بفعل خشونة سطح الحّرة. رد النجومى، بلسانه التركى اللطيف، بكلام يحمـــل الكثير من التهكم عنـدما يصـدر على لسان رجـل مثـل محمـد النجـومى، "يا مسكين! قلبى معك، يا عبد الله؛ هذه الصخور البركانية الحادة أدمت قدمىّ الحافيتين وجعلتهما تنزفان." ألقيت باللوم على ذلك النفاق عندما كنا جالسين فى المنزل، ولكن النجومى رد على وهو مبتسم،" أنا لا أرمى مطلقا من وراء ذلك إلى مداهنته بكلام معسول، لأن هذا هو أسلوبهم: هذا العبد، ذلك اللعين، هذا الأحمق المستبد، وأيا كان حاله ، أليس هو هنا بمثابة الضابط الممثل للدولة (الإمبرطورية العثمانية)؟"

كان جمّاع الحطب أو إن شئت فقل: الحطّابين قد التقوا بغزو قادم من قبيلة بشر Bishr ، وكان موكب ذلك الغزو قد اقترب تماما من أولئك الحطابين. وعندما وصلت نجدة إغاثة الملهوف، ابتعد البدو وتوقفوا (عندما شاهدوا بنادق طويلة بين أفراد تلك النجدة) وجرى القرويون لإنقاذ حميرهم : لم يحدث بعد ذلك سوى إطلاق النار من مسافة بعيدة بواسطة البنادق الفتيلية ، وهنا بدأ البدو الرحل يبتعدون عن الحطابين. لم يبق فى القرية كلها سوى الشيخ صالح الأعرج . وعندما سمع عبد الله عن بقائى فى البستان قال:" كان يمكن أن تقتل هناك، أيها الغبى؛ وأنت إذا ما قتلت فى يوم من الأيام بهذه الطريقة، فسوف يلقون علىّ باللائمة: إياك وأن تفعل ذلك مرة ثانية، وإلا وضعتك فى السجن! – وأنتم يا أيها الناس، مطلوب منكم أن يقول كل واحد منكم

رأيه، - ولا تنسوا أننا نحن الدولة (الإمبرطورية العثمانية)! أنا أطلب منكم أن تقولوا: كيف يمكن لنا لجم صلافة هؤلاء البدو فى المستقبل؟" نام عبد الله وفى ذهنه هذا الموضوع ، أثناء شرب قهوة الصباح، وجدناه يصيح قائلا :" لقد وجدتها وخبط على وركه، عسى as الله Ullah ، يتمم temmem ، بمعنى نعم، لعل الله يتم علينا مانفعل ؛ أنا ana سأوريك werrik بمعنى سأثبت لك، أننى أعرف قيمه منصب الحاكم فى خيبر! أقول ،إنه سيكون هناك عشرون خيالاً متمركزين فى قرية خيبر: سيكون ذلك هو مطلبى عندما أكتب رسالتى القادمة إلى باشا المدينة (المنورة)!"

جمع الحطب هنا يكون دوما محفوفا بالمخاطر؛ والسبب فى ذلك أن الخيابرة لا يرضون بحرق جريد النخيل، كما هو الحال فى معظم الواحات، مما يجعلهم يخرجون للبحث عن حطب السمَّارة (ويأخذون معهم حميرهم لينقلوا عليها ذلك النوع من الحطب، كما يأخذون معهم زوجاتهم أيضا لتحمل كل واحدة منهن حملا على رأسها) ويعدن بذلك الحطب إلى بيوتهن قادمات من الحرّة. - وقد بدأ الناس فى القرية - يهمهمون ويغمغمون، لأن عبد الله السروان فرض عليهم أن يأخذ لنفسه شيئا من هذا الحطب وشيئا آخر للجنود.

مضى على الدولة فى خيبر خمس سنوات حتى ذلك الحين: سألت القرويين الواعين عن الفرق بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة. أجابونى، أنه بالرغم من أن الزكاة المفروضة من قبل ابن الرشيد أعلى قليلا من تلك الزكاة المفروضة من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) إلا أن جباة بن الرشيد، الذين هم عبارة عن مجموعة من الجمَّالة المسلحين، كانوا يهلون على الخيابرة فى موسم حصاد التمر فقط : وأنهم كانوا يقيمون مع الخيابرة أياما قلائل، وبالتالى كان استبدادهم وطغيانهم قصير الأجل، فى حين أن استبداد الدولة وطغيانها المقيم والدائم يحزنهم ويثير أشجانهم بصورة مستمرة. وأسَّر لى إبراهيم القاضى "شغلهم Washughrol-hum بس bes النهب en-nahab بمعنى "أن شغلهم الشاغل هو السلب والنهب." - وبالرغم من ذلك فإن الدولة تحمى القرويين من البدو، الذين كانوا يسيئون معاملة القرويين، بأن كانوا

يقيدونهم ويضربونهم، ويقولون لهم إنهم هم وآباءهم عبيد، وأن مهمتهم تتمثل فى إحضار العلف للبدو ولمواشيهم. وفى أحيان كثيرة كان البدو يدخلون بيوت القرويين، ليجعلوا من حبوبهم غنائم لهم؛ يضاف إلى ذلك أن البدو كانوا يغتصبون النساء الزنجيات، كما كانوا يتصرفون فى جميع الأحوال كما لو كانوا سادة للقرويين: والبيت القروى الذى يدخله أولئك البدو يتحتم على من فيه إن يزبحوا خروفا أو تيسا فى أضعف الأحوال لعشاء هؤلاء البدو. وفى موسم حصاد التمر، فى فترة ما قبل الاحتلال التركى، كان مشهل العوّاجى قد سطا على منزل الشيخ صالح! - وانشرح صدر الشيخ صالح عندما سمعنى وأنا أدين ذلك الكرم والضيافة الفظة التى يقدمها ذلك الشيخ البدوى الكبير.

على أيدى ابن الرشيد ورجاله النجديين تحسنت الأحوال بعض الشىء: ذلك أن النجديين عندما كانوا يعثرون على سيف مزين أو بندقية فتيلية مزينة بين أهل القرى، كانوا يأخذونها "ليضموها إلى سلاح الأمير،" وكانوا ينفذون ما يريدون عن طريق الضرب واللكمات القاسية؛ ولم يكن الخيابرة يحصلون من حائل على أى نوع من التعويضات! - وفى النهاية قام القرويون فى أم كيدة، بعد أن نفذ صبرهم وبعد أن أساء النجديون معاملتهم، بإرسال مندوبين إلى باشا المدينة (المنورة) يرجونه بأن يدخلهم ضمن حماية الدولة (الإمبرطورية العثمانية): - وقد شجعهم على ذلك شركاؤهم من أولاد على.

هذا الباشا الطيب - الذى لا أتذكر اسمه الآن - كان من الشخصيات غير الفاسدة أو إن شئت فقل: من الشخصيات الخيرة، وهذه أشياء نادرة بين الباشوات الأتراك. كان ذلك الباشا قد قام مؤخرا بتوزيع المصاحف على كل من يستطيع القراءة فى تلك الأماكن. - وحظيت حكاية القرويين السود بأذن دينية صاغية من قبل باشا المدينة (المنورة) : استمع الباشا إلى أحزان هؤلاء الناس وإلى اسم (ابن الرشيد) ذلك الشيخ الكبير الذى كان يغلبهم على أمرهم، وقالوا للباشا أيضا: إن واديهم يقع فى نطاق المنطقة الخاضعة لقيادته ؛ ووعدهم هذا الباشا الطيب بشىء من الخلاص والإنقاذ.

واعتبارا من ذلك التاريخ بدأ الأتراك يفكرون فى الاستفادة من خيبر، ذلك الاسم الذى لم يكن معروفا حق المعرفة فى المدينة (المنورة). وفى صيف العام التالى أرسل الباشا إلى خيبر بعض سرايا المشاة، مع فصيل خيالة، وفرقة من العجيل، - ربما كان ذلك فى العام الميلادى ١٨٧٤ . وصلت هذه القوة إلى خيبر خلال خمس رحلات، ولم يجدوا فى خيبر من يقف فى وجههم أو يعترض على دخولهم إلى تلك القرية.

نزل البدو إلى الوادى فى سلام، وحصدوا تمورهم مع الخيابرة: ولكنهم فى يوم رحيلهم شاهدوا خفرًا من الجنود، متمركزين عند بداية الطرق، ليفرضوا على البدو ضريبة بواقع نصف ريال عن كل حمل جمل من التمور! لم يسبق للبدو مطلقا أن سمعوا فى الصحراء عن فرض أية ضريبة عليهم من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية)؛ هذا بالإضافة إلى أن أحدا منهم لم يكن معه أى شىء من النقود! وكان أولئك البدو المساكين قد أنفقوا، فى سوق الحصاد؛ تلك النقود القليلة التى جلبوها معهم، فى شراء ملابس لهم وفى أشياء أخرى يحتاجونها.

كانت القبائل قد جاءت إلى خيبر فى العام الثانى من احتلال المدينة المنورة: ولكنهم عندما وجدوا الخفر والحرس يتساهلون ويقل عددهم بدءوا يماطلونهم ولا يدفعون الضرائب." قالوا: اتركوا الدولة تحصل هذه الضرائب، إذا ما كانت بحاجة إليها." - كان من رأى حكومة المدينة (المنورة) توسيع المعسكر الصيفى فى خيبر؛ ولكن البِشْر كانوا يقفون ضد ذلك التوسع، وذلك عن طريق تحريض ابن الرشيد. وفى مطلع الصيف الثالث، خرجت كتيبة، ومعها خيالة، وجماعة من العجيل الراكبين، متجهة إلى خيبر. ونصبوا خيامهم فى الصفصافة؛ كما جرى الاستيلاء على الحصن ثم جرى ترميمه بواسطة العجيل، كل ذلك كان تحت قيادة عبد الله السروان.

اقترب موعد حصاد التمر، ونزل العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) من الحرّة، وسبقهم الفكارة. كان منزلهم السنوى فى الصُفُّوك es suffuk ، أسفل العزمية؛ وفى هذه المنطقة بنى كبار الشيوخ من أمثال مظلق، رحيل، وزيد بيوتهم الصيفية من اللَّبن. لقد سبق لهم أن أقسموا للبشر على الوقوف إلى جانبهم، فى وجه كل من الدولة وأولاد على.

فى تلك الليلة ركب الضباط الأتراك خيولهم وذهبوا لزيارة الفجير فى مخيمهم. وسرعان ما اجتمع مجلس الشيوخ ورجال القبائل فى بيت الشيخ مطلق المبنى من اللبن، " للاستماع إلى كلام الدولة." – ورد مطلق هو والشيوخ ،" لقد جئنا إلى هنا لحصاد ثمار نخيلنا؛ وإذا كنتم فى حرب مع البشر، فنحن لسنا معكم أو معهم." – "هل تعدون بذلك؟" – " هذا وعد منا لكم." – وعندما عاد الضباط حددوا مكانا لأولاد على يمكثون فيه إلى طلوع الصباح؛ وطلبوا منهم مراقبة الفجير، وأن يكونوا على استعداد إذا ما دعى الداعى للوقوف ضد الفجير ومقاومتهم.

أثناء شروق الشمس كان الأعراب يبدون لمن ينظر من الحصن كما لو كانوا بعضا من الجراد" الذى يقفز فوق الحّرة؛ وقد أطلق عبد الله السروان إنذارا عن طريق الطنبور. كان الجنود الموجودون فى الصفصافة قد ناموا على أذرعهم! – كان قد تم إرسال ثمانين من العجيل، ليقوموا بدور المبارزين والمشاكسين، ضد البدو. وعندما بدأت أصوات طلقاتهم تتردد، فوق الفجّارة، طلب العقيد الذى كان يتولى القيادة، من جنوده ألا ينصرفوا من حوله. ثم دخل ذلك العقيد فى غرفة مبنية من اللبن، التى كانت فى الأصل مسكنا له، وحبس نفسه فيها و(نظرا لأن نوافذ الغرفة كانت منخفضة وقريبة من الأرض، حتى تسمح بدخول الهواء الطلق) استلقى منبطحا على الأرض!

– وعاد البدو بصياحهم وغنائهم؛ كان البدو، مسلحين بالرماح والسيوف كما أن قلة قليلة منهم هى التى كانت تحمل بنادق فتيلية. وهنا قام أفراد العجيل الذين كانوا قد تفرقوا فوق الحرّة الوعرة بالتراجع أمام البدو ، حتى يتجمعوا مرة ثانية، – وانتظروا بعد ذلك فترة قصيرة؛ ثم عادوا بعد ذلك على شكل كتلة واحدة ضد البدو الرحل. وراحوا يجرون على الجانبين ويفتحون نيران بنادقهم، وطال مدى تلك المعركة البعيدة؛ وأثبت العجيليون أنهم هم الأفضل. فى النهاية سقط واحد من جانب البدو، وهذا الواحد كان من الشخصيات الرئيسية، أو إن شئت فقل: واحد من الشيوخ الكبار: وهنا توقف الأعراب عن إطلاق النار، نظرا لأن بارودهم أوشك على النفاد، ثم بدءوا يلوذون بالفرار. عجل مسهل Misshel (شيخهم الكبير) بإنقاذ نفسه مستخدما فى ذلك ناقته؛ ولم يتوقف، على حد قولهم؛ إلا بعد مسير يوم كامل.

وفيما يتعلق بالعقيد الذى كان فى الصفصافة، فقد بادر إلى النهوض والوقوف ثم الخروج من الغرفة بعد أن توقفت الضوضاء الناتجة عن إطلاق النار. هذا الجبان سمع ألسنة جنوده وهى تلعنه وتسبه. أين الكلب خائن الدولة، الذى لم يرسل لهم لدعم تلك القلة، الذين حاق الخطر بحياواتهم فوق الحّرة. - هذا الرجل يقال إنه فقد كتيبة فى اليمن، ويقال إنه اشترى رتبة العقيد من ماله الخاص.

كان القرويون الخيابرة المسلحون (الذى كان العم محمد رئيسا لهم) الذين كانوا فى الحصن، قد فتحوا نيرانهم على زملائهم الذين كانوا على الأرض، الأمر الذى أدى إلى سقوط أحدهم جريحا؛ وهنا فقط توقفوا عن الرمى بالرصاص. - توقف بدو الفكارة بدافع من الحياء؛ ولكنهم عندما وجدوا أن البشر Bishr انكسروا ولاذوا بالفرار، سارع بدو الفكارة بالنزول إلى أرض القتال وجعلوا من خيام البشر Bishr ومن أوانيهم غنائم لهم. لم يغفر البشر للفكارة هذا العمل، ولم يعودوا يشعرون تجاههم بأى قدر من الشفقة أو الرحمة، - وخسروا ما حصلوا عليه إذ سلموه للدولة؛ وفى حالة أخرى مماثلة، حدث ذلك للفكارة أنفسهم! - كان ذلك العمل الذى قام به بعض البشر Bishr عملا غريبا وغير طبيعي بالمرة! هذا البعض وقف إلى جانب الدولة، هم والقرويون السود، فى مواجهة إخوانهم البدو الرحل. يضاف إلى ذلك، وقد شاهدت ذلك بنفسى ، أن بعضا من أفراد العجيل، كانوا من قبيله بشر، ومع ذلك اشتركوا فى القتال ضد أفزاد قبيلتهم.

وقع واحد من أولئك الخونة، فى هذا العام نفسه، فى أيدى أفراد قبيلته؛ ولكن بعد أن توسل إليهم تركوه يمضى لحال سبيله وعفوا عنه؛ واعتبارا من ذلك التاريخ أرسل يقول: إن أى مذنب من أفراد القبيلة بوسعه أن يعود إليها فى أى وقت يشاء، ولا يخشى شيئا: - يالسهولة الأعراب فى الصفح عن أى نوع من أنواع الخيانة! وهم يعللون كل ذلك بالضرورة. هؤلاء الرجال خدموا بضع سنوات مع حكومة المدينة (المنورة) ، وقد وصلت متأخرات أجورهم ورواتبهم إلى مئات الريالات؛ وكانت آمال حياتهم المستقبلية معلقة على تلك المبالغ. كان شقيق زوجة العم محمد، وهو جاطونى

(من البشر Bishr) يرعى ماشية القرويين فى وادى جلاّس؛ ولكنه عندما سمع صوت طلقات الرصاص ذهب ليشارك فى جانب أهله من البدو الرحل. وعندما دخل المساء، ذهب العم محمد إلى وادى جلاس ومعه سرية مسلحة من شباب الخيابرة، لإحضار ماشــية القريــة؛ واقتاد معــه شقيـق زوجتــه إلى خيبر مرة ثانيــة. قــال العم محمد: إن الأعراب خارت قواهم، فى حين أن من كانوا معه كانوا أصحاب أجسام قوية لأنهم كانوا من شباب الزنوج ، وكانوا أيضا أشد بأسا، وقدرتهم على الحرب والقتال أكبر وأفضــل من قــدرة الأعراب البدو. ولو قدر لهـؤلاء البــدو أن يواجهـوا العم محمــد فإنه سيقول لهم: "أنا محمد النجومى، وهؤلاء الذين معى هم الخيابرة، جاءوا ليأخذوا ماشيتهم،" وبالتالى سوف يتركوه يمر، لقد كانوا شركاء وأن تلك المعركة كانت مع الدولة المستبدة.

بعد دخــول الليـل، ســمع المراقبــون فوق الحصن، صوت غناء قادما من بعيد، من بين أشجار النخيل: - كان بعض البــدو يحصــدون تمــورهم فى وادى زيديــة. وهنا ذهب العم محمد على رأس جماعة من القرويين لمداهمة أولئك البدو ومفاجأتهم. وجـدوا إبـل هــؤلاء البدو باركة خــارج المزارع؛ واستلوا سيوفهم وراحوا يهددونهم. بعد ذلك قام النجومى هو والخيابرة. بعد أن صاحوا صيحة القتال الله Ullah أكبر akhbar بالقفز فوق جدران البستان، وأطلقوا نيران بنادقهم. عندما سمع البدو الرحل، وهم داخل البيارة، أصوات إطلاق النار وصياح أعدائهم وهم يندفعون نحوهم، فروا ناجين بأنفسهم، ووقفوا عند الجانب البعيد من بيارة النخيل. - وعاد العم محمد هو والقرويون محملين بلحوم إبل الأعداء؛ الأمر الذى أسفر عن عشاء مائة أسرة خيبرية على حساب شركائهم البدو: - وبذلك تكون تلك العملية الحربية قد انتهت إلى هذه النهاية؛ ولكن هذه العملية ستظل راسخة فى أذهان هؤلاء الناس.

فى صباح اليوم التالى أرسل العقيد فى إحضار رءوس أولئك البدو المنهزمين الذين أطلق عليهم اسم 'المتمردين على الدولة.' - كان أمان قد أحصى ثمانين رأسا فى الصفصافة، - وهذا درس لقنه الحُكّام الهمج لرعاياهم! وقام مندوب البريد بحمل أذان

أولئك القتلى بعد أن جرى رش الملح عليها، داخل جوال إلى المدينة (المنورة): - وسوف يحصل الجنود الفقراء على خمسة ريالات مقابل كل زوج من الآذان. ولم يمت من العجيل سوى فردين فقط: كان أحدهما ضعيفا وداسه الناس على بعد مسافة قصيرة، - وجدوا جمجمة رأسه مهشمة بفعل قضيب معدني من القضبان التي يحملها البدو؛ ولكن أحداً لم ير تلك الفعلة. كان ذلك الرجل ألبانيا وعماً لأمان Aman ، لأنه هو الذي دفع ثمن أمان عندما كان طفلا، لسائق عند أحد التجار في جدة: وقد أطلق ذلك الرجل سراح أمان في سن مبكرة، وبقي أمان يحتفظ في داخله بالحب والولاء تجاه رب بيته، أو إن شئت فقل: عمه. أخذني ذلك الحبشي المسكين إلى القبر الذي دفن فيه "عمه" وابتلى نفسه بالهم والغم، وسط هذا البؤس الشديد الذي يخيم على حياة أولئك الأعراب في خيبر. .

حكى لي أمان أنه هرب في البداية، عندما ساء حال العجيل، إلى أن غالبه الضعف وأصبح غير قادر على الحركة: وعندما صادف أول مكان مجوّف نزل فيه مختبئاً بين الصخور، وراح يدعو الله أن يستره ويخفيه عن أعين الأعداء؛ ولكنه عندما نظر إلى الوراء شاهد بدويا ضخم الجثة وفي يده رمح طويل، يتسلل محاولا الوصول إليه. وهنا فتح نيران بندقيته وفر خائفا دون أن ينظر وراءه. سمع بعد ذلك الأعداء وهم يقفزون من حوله، بينما كان يجري بأقصى سرعة فوق الحّرة متنقلا من صخرة إلى أخرى؛ "أعمى الله عيونهم حتى لا يرونه." قال عن العقيد: "كان اسطمبولي، رجل ملعون، لم يكن يهمه أبدا موتنا جميعا؛ وأنه كان عقيدا نظير مادفعه من نقود! كل شيء يباع ويشترى في الدولة حاليا!" - هم يدعون أن ابن الرشيد أرسل ثلاثمائة رجل من الشمر لمساعدة البشر Bishr : لقد عثروا أيضا على بعض الأنابيب الخضراء في المكان الذي جرى فيه إطلاق النار، وأن تلك الأنابيب الخضراء كانت "خراطيش فارسية فارغة من عند ابن الرشيد."

كان العم محمد، ذلك المواطن المخلص من مواطني المدينة (المنورة) على علم تام بالأمن العام في المدينة منذ بداية احتلالها: وابتداء بذلك التاريخ بدأ العم محمد في

شـراء النـخيل، ويسـعى لتـوطين نـفسـه فى خـيـبـر. - يضـاف إلى ذلك أن الجنود هم أنفسـهم من فـلاحى البسـاتين ؛ والقرويون يقـولون: "نحن لا نستطيع اقتـيـاد المسلحين إلى الضـباط، ونحن إذا ما وجهنا الاتهام لأى جندى من جنود المعسكر تراهم يقـولون: "أنت مخطئ". ثم يصرفونا إلى حال سبيلنا وهـم يحتقرونا ويسخرون منا: "وجنود المدينة (المنورة) غالبيتهم من الشوام. حكى لى العم محمد الذى كان يحتقر لهجة أولئك الجنود الشـوام، عن المغامـرة التى قام بـها بعض هـؤلاء الجنود الشـوام الذين تسلقـوا أسـوار بسـتانه. هؤلاء الأوغاد، عندما شـاهدوا ذلك الرجل وهـو لا يرتدى سـوى تـوبك وغتـرة، حسبوه واحداً من الأعراب. البعض منهم كان يود الاستيلاء على حماره؛ ولكن هؤلاء الأوغـاد أصـابهم الاضطراب عندمـا راح ذلك الرجل القـوى يطـاردهـم بعـد أن اسـتل سيـفه، وراح يجـرى وراءهـم إلى أن وصلوا إلى منـزلهم: وعند منـزلهم، اكتـشـف أولئك الأوغاد أن الرئيس وقف لتحية ذلك الرجل! وبالرغم من توسل الرئيس إلى العم محمد، إلا أن أولئك الأوغاد جرى اقتيادهم وجلدهم.

تأسس فى خـيـبـر نظام أفـضـل من النـظـام السـابـق؛ فـقـد جـرى تركيب بوابات لشـوارع القـرية، وتحتم على ربة البـيت أن تكنس يومـيـا أمـام أبواب منـزلهـا، وإلا قـام السـروان بجلدها؛ وقد أبلغنـى عبد الله السـروان أنه ضـرب العديد منهن. كانت الطرق من قـبل تـغص بأنـواع مـخـتـلفـة من البـراز المـعـدى، أثنـاء الحـرارة الشـديدة فى فـصل الصيف؛ والغريب أن الجندى الذى كان يمر من تلك الشوارع ويتنفس أو يلتقط أنفاسه فيـهـا كان سرعـان ما يـصـاب بالأمـراض. وفى العـام الأول مات الجنود كلهم تقـريبا، بسـبب وبـاء الكوليـرا وحـمّى الوادى. ومن رأى الـعم مـحـمـد أن عـشـرة فـقـط من هؤلاء الجنود هـم الذين بقـوا على قـيـد الحيـاة ليـدخلوا مـرة ثانيـة من بـوابات جـدران المدينة (المنورة)! والفـلاحـون الزنوج يرددون حـاليـا وهـم يضـحـكون المثل الذى يقـول: "خـيـبـر Kheybar قبر العسكر." "قال أمان Aman بلغته العربية الألبانية ، وهـو حزين: خيبر هـى قبر Kabr الدنيا el-dunnia . "وفد على خيبر قادما من المدينة (المنورة) طبيب عسكرى لعلاج المرضـى بالأدوية الجديدة التى كـانت معه ؛ ولكنه هو نفسه أصـيب بالمرض فى صـباح اليوم التـالى ودفنوه فى الأرض على عمق ياردة واحـدة، فى كفنه وكان ذلك قبل

دخول وقت الظهيرة، في التربة السبخة - مات الرجل في خيبر "اقسم عبد الله السروان، لقد نظفت البلدة، وها هم الناس يشاهدون ما فعلته أنا، وهم ممتنين لي."

خيبر لا تبعد عن المدينة (المنورة) سوى مسير رحلة طويلةٍ من رحلات النياق، ومع ذلك فإن هذا الاسم الذي يقع خارج نطاق العامة، يكاد يكون، على حد قول الناس، غير معروف في المدينة المقدسة؛ أو إن ذلك الاسم كان يرتبط في أذهانهم بنوع من الغرابة التي تضفي عليه طابعا خلافيا، - ومن ذا الذي لم يسمع في خرافات الحج عن يهود خيبر؟ في المدينة (المنورة) هناك باب مجلّد بالحديد (هذا الباب يقفل في الوقت الحالي باب الثكنات التي يقيم فيها الجنود)، يقولون عنه: إنه بوابة قلعة خيبر القديمة: "يقولون: سيدنا علي، ألقى الصحائف من يديه، عندما استولى على ذلك المكان؛ وأن واحدة من تلك الصحائف سقطت على تل في المدينة (المنورة)، ولكن الصحيفة الأخرى سقطت في بغداد." الشيء نفسه يقال عن جبل أحد القريب من المدينة (المنورة)، الذي يوجد فيه قبر (سيدنا) حمزة عم النبي، وأن ذلك الجبل كان منذ قديم الأزل في خيبر، ولكنه عزِّل منتقلا إلى المدينة المقدسة: وهناك من يقول منهم: إن جبل حمزة كان في بغداد من قبل. والمسلمون الخلص مقتنعون على هذا النحو:" جبل حمزة يقع في المدينة (المنورة)؛ ولكنه كان من قبل في مكان آخر؛ ومن ثم يكون ذلك الجبل قد تحرك إلى هناك!" في إحدى المرات كنت أمزح مع العم محمد،" سيدك علي رمى رمية قوية! إن تلك الرمية تصل إلى عشرين ضعفا من أطول المسافات التي تصل إليها دانات المدافع الموجهة إلى المدينة (المنورة)." - "ولكن ليس هذا هو كل ما في الأمر، يا خليل، لأنهم يقولون: إن سيدنا علي وقف ذات مرة ورفع عالم الكون." - " وأين كان سيدكم على آنئذ؟ ألم يتعين عليه أن يكون خارج الكون حتى يستطيع رفعه؟" رد النجومي على تساؤلاتي قائلا: "أنا أفكر حاليا في هذا الأمر، يا شيخ خليل، وأنا أميل إلى رأيك، إن هذه الأقوال هي مجرد خرافات وليست من الدين في شيء." صنعت للعم محمد كرة أرضية من الطين الذي كان ناتجا عن الحفر، وصورت له البحار والقارات عليها. وانشرح صدر العم محمد لذلك العمل، ولكنه لم يكن من السهل عليه تتبع كلامي، والسبب في ذلك أنهم هنا ينظرون إلى العالم وكأنه أرض منبسطة: ألقى الرجل عدده من يديه وراح

يضحك." ألم يقل الخيابرة، وبحق، عنك يا شيخ خليل، أنك ساحر؟ - ولكن حيّاك، هيا بنا نعود الى المنزل ونتناول شيئا من التمر."

المؤكد أن اليهود فى ذلك الزمن كان لديهم رأى أو فكرة خرافية عن خيبر؛ قال البعض منهم لى (فى الشرق) إن يهود خيبر هم بنو ريشاب (*) Rechab . - كما أن المستشرقين فى أوروبا كانوا يسألونى "ألا يوجد يهود حاليا فى خيبر؟" لقد تعرفت على مبشر لليهود فى الشرق الأدنى (الليفانت)، كان على وشك أن يركب حماره ويمضى قدما إلى خيبر، لولا أن داهمه المرض؛ وأن ذلك المبشر كان متحمسا لإدخال تلك الأغنام الضالة فى دين النصارى! ولكن إياك أن يخاطر أحد بحياته مرة ثانية من أجل خيبر! - وأنا أرى أن تلك التحركات قد تنقذ البعض من الموت: وأنا أعترف أن الله كافأنى على عملى! لأن من يريد أن يقرأ حكاية خيبر يجدها فيما يروى عن أولئك اليهود. حكى لى تجار القصيم أن"هناك أحفادا ليهود خيبر فى بغداد، وأن أولئك اليهود يعدون نبلاء (أصلاء asily) بين اليهود؛ هناك بعض آخر من أولئك اليهود فى الهند وهم من الأثرياء؛" - ولكنى اكتشفت أن كلام هؤلاء اليهود غريب على آذان التجار اليهود (البغداديين) المحترمين فى مدينه بومباى.

فى الأسبوع الثالث من الأسر الذى كنت فيه فى خيبر، كتب عبد الله السروان، الذى يتخلق بروح العبيد، رسالة إلى باشا المدينة (المنورة). ولما كان حاكم القرية أمى، فإن الشيخ صالح كان هو الذى يقوم بدور الكاتب، ولذلك راح يكتب ما يمليه عليه عبد الله،" فى يوم من أيام الشهر الماضى، وعندما كانت بوابات خيبر مفتوحة فى فترة الصباح، وجدنا غريبا خارج البوابة ينتظر الدخول. وقد أبلغنا أن البدوى الذى وصل معه أثناء الليل تركه عند البوابة وانصرف لحال سبيله. وعندما سألنا عن جنسيته؟ أجاب إنه 'إنجليزى'؛ كما اعترف أيضا بأنه نصرانى. ونظرا لأنى لم أعرف كل ملابسات هذا الأمر فقد وضعته فى الحجز، كما استوليت أيضا على أمتعته، التى عثرنا فيها على

(*) ريشاب هو الجد الأكبر لليهود الذين استوطنوا خيبر . (المراجع)

بعض الكتب علاوة على ورقة من ابن الرشيد. وعليه فنحن تحت أوامر معاليكم، وفى انتظار أوامر معاليكم." - "قال عبد الله، هذا جيد تماما، اختم هذه الرسالة يا صالح. هل سمعت ذلك الذى كتبته أنا، يا خليل؟" - " لا تكتب سوى الحقيقة. متى عثرتم على أمام بوابة خيبر؟ لقد جئت راكبا على الملأ، إلى خيبر." - "لا، ولكنى لابد أن أكتب بهذه الطريقة، وإلا وجه الباشا اللوم إلى قائلا، 'لماذا جعلته يعانى أثناء الدخول؟' بقى ذلك الحطيمى فى المكان طول الليل، بالإضافة إلى أنه كان جومانيا! يضاف 'إلى ذلك أن ناقته كانت تربط فى الشارع، وأنا لم أكن أخشاه أو أخافه: - أوه يا ربى! أين كان عقلى؟ [قال اللص مغمغماً] كان بوسعى أن آخذ ناقته ! انتبهوا، يا كل الحاضرين هنا! من الآن فصاعدا مطلوب منكم جميعا أن تعلمونى بوصول أى غريب إلى هذا المكان، وذلك حتى يتسنى لنا القبض عليهم على الفور إذا ما اكتشفنا ما يشينهم أو يدينهم."

كان عبد الله السروان قد استولى أو صادر، فى تلك الأيام، ناقة شخص يتيم، - وقد أدى ذلك إلى كراهية الناس له جمعياً - هذا اليتيم كان بلا حول أو طول، إلى حد أنه كان يشرب حليب ناقته بنفسه: وعليه كتب عبد الله السروان رسالة أخرى للباشا، "لقد صادرت ناقته نظير الضرائب المتأخرة، وسوف أرسلها لسعادتكم؛ هذه الناقة تساوى خمسة عشر ريالا هنا فى خيبر، وقد تباع بخمسين ريالا فى المدينة (المنورة) ." وفى ورقة ثالثة دوّن عبد الله السروان الحساب الخاص بضريبة العشور المستحقة للدولة: كانت كل مستحقات الحكومة فى المدينة تصل إلى حوالى ٣٦٠٠ ريال. [من أجل هذا المبلغ كان يتعين كل عام إرسال كتيبة من الجنود (لتلقى حتفها) إلى خيبر] . ولما كان رجال عبد الله لا يعملون طول الوقت فقد دونهم فى كشف المرتبات على أنهم أربعين فرداً. وعندما كان أحد يموت منهم، فإنه كان يحتفظ لنفسه براتبه إلى نهاية مدة خدمته. لم يكن يحضر اصطفاف جنوده إلا مرة واحدة كل عام؛ ولكنه بشىء من الخداع والغش، وذلك عن طريق استئجار أو إجبار بعض القرويين، على ارتداء الزى العسكرى مدة يوم أو يومين، كان يستطيع الإفلات من مرور كبار الضباط وتفتيشهم عليه؛ هؤلاء الضباط هم بدورهم مرتشون، وبالتالى فهم يستخفون بأعمال الغير الإجرامية. أضاف عبد الله تحشية لرسائله." آمل من معاليكم ألا يغيب عن ذهن

سعادتكم حال أولئك العسكر الجوعانين العراة، وهم يتطلعون إلى معاليكم أن تنظروا إليهم نظرة عطف وغوث." وهم لم يتقاضوا رواتبهم منذ حوالى اثنين وثلاثين شهرا - يا لحال هؤلاء التعساء الذين غبنتهم الحكومة العثمانية، وجعلتهم يتحولون إلى لصوص ها هم الآن يفتحون قلوبهم المكلومة والمتعبة ويدعون الله ثم الباشا أن يسمعوا عن وصول خزينة khusna جديدة، أو إن شئت فقل: صندوق الرواتب، من اسطنبول إلى المدينة (المنورة). كانت تلك سنوات عمليات حربية مسرفة كانت تدور فى أوروبا، والتى سمعنا عنها أخبارا متضاربة ونحن فى هذه المسافة البعيدة. وعليه ختم عبد الله السروان رسائله التى أمضى فيها هو وكاتبه ثلاثة أيام، إلى أن بدء يستشعر الألم والصداع من جديد.

كانت تلك الأيام توحى عندى بالموت أكثر من الحياة؛ ولم يكن ذلك الوغد، المدعو عبد الله يسارع إلى تخليصى مما أنا فيه. كانت أمور القرية الحكومية يجرى تدبيرها والتعامل معها أثناء شرب القهوة؛ والويل إذا لم يصل صالح فى ساعة مبكرة، وكان عبد الله قد أرسل فى طلبه مشدداً على حضوره. هذا هو الشيخ التعيس الذى له قدم أقصر من القدم الأخرى يجيئ على وجه السرعة، وهو يضرب بعكازه سطح الأرض على نحو يسمعه الشارع كله، فى الوقت الذى يجلس الجمهور فيه صامتا، ودم الغضب يغلى فى وجه عبد الله الأسود. وعندما وصل الشيخ، "لماذا لم تحضر إلى هنا قبل هذا الموعد يا شيخ صالح؟ كان يقول ذلك بنغمة وبنبرة تجعل ذلك الرجل العجوز يرتعد خوفا؛ لم يرد صالح حتى ولو ببنت شفة، سوى أن راح يجهز محبرته ويجهز أقلامه. شيخ القرية هذا لم يكن لديه متسع من الوقت كى يدبر شئونه وأموره الخاصة؛ ومقابل كل هذه المتاعب لم يكن الشيخ يتقاضى كل عام من حكومة المدينة (المنورة) سوى عباءة (بشت) قرمزى اللون: ولكن مصيره أصبح مرتبطا بالدولة التى كان يرحب بها ويحييها؛ وقد يخسر كل شيء، بل وربما خسر حياته أيضا، إن قدر لابن الرشيد دخول خيبر مرة ثانية.

من عادة أولئك الشرقيين الجلوس طوال اليوم فى صالات القهوة، ولا يرتاحون سوى برهة قصيرة عند الظهر. ومن وجهة نظر أولئك الشرقيين، فإن تمضية الوقت

بعيدا عن المشاركة فى الأحاديث المشتركة والعامة بين الرجال، هى فى نظرهم ليست من أعمال الرجولة؛ يضاف إلى ذلك أنهم لا يسعون إلى علاقات منطقية ومعقولة مع الحريم. وهم يرون أن الحريم للخدمة المنزلية؛ وعندما ينتهى نهار اليوم الطويل، يخطر ببال رب البيت الدخول للجلوس مع الحريم. كان عبد الله السروان يشرب القهوة ويدخن التبغ فى قهوة الجنود؛ حيث كان يحلو له، فى معظم الأحيان، أن يحكى للجالسين معه حكايات عن شجاعته فى قديم الزمن وعن الرواج الذى شهدته المدينة (المنورة): وكان يدور على لسانه ذلك الحديث الذى يجرى تجاذبه فى صالات شرب القهوة، والذى يقوم على انتقاء الكلام، كما ينبض أيضا بالنشاط والحيوية. وفهم هؤلاء الشرقيين يشبه القمر، الذى يكون بدرا فى ذلك الجانب الذى يشع منه ضوء ضعيف؛ ولكن هناك ظلام كامل وموات كامل أيضا على الجانب العلمى. حكى لنا عبد الله السروان عن مهارته يوم أن كان خيَّالاً شجاعا، - وأنه رمى الرمح، وأقسم بالله، إلى ارتفاع يطاول عنان مآذن المدينة (المنورة)؛ وحكى لنا كيف كان يمشى مشية الجنتلمان فى المدينة، وكيف أنه كان يصلى كل صلواته فى الحرم النبوى؛ كما حكى لنا أيضا عن عدم ركوبه للنياق، نظرا لأن الطبيعة خلقته فارسا بالفطرة. قال إنه شارك فى إحدى الحملات التى أرسلت إلى الحجر؛ وأنه عندما عاد اكتشف كفرا (هجرة) على أحد الجبال، وأن أهل هذا الكفر، كانوا حتى ذلك اليوم، ثم أقسم بالله، لم يروا غريبا فى كل حياتهم. وقال لنا: إنه التقى بعض الرجال المتوحشين وهو فى طريقه إلى ينبع، - وأن ذلك حدث على جبل الروضه؛ وأن أهل التلال هؤلاء [وهم من الجهاينة] كانوا يمشون عراة اللهم باستثناء سترة من القماش يسترون بها عورتهم. وأن واحداً من هؤلاء الناس القدماء، والذى يبلغ من العمر تسعين عاما، جرى أمام حصان عبد الله السروان، وكان يقفز مثل عنزة برية تجرى بين الصخور؛ وأن كل ما كان يريده ذلك الرجل هو أن يكون مرشدا ودليلا للغريب. كان عبد الله السروان يتفاخر بأنه كان يشترى الخيول المكسرة نظير مبالغ صغيرة، ثم يبيعها بعد ذلك بأثمان أكبر بكثير من ثمن شرائها؛ كان نجم عبد الله السروان ساطعا فى المدينة (المنورة). كان له فى المدينة صندوق طوله أربعة أذرع وعمقه ذراع واحدة، وعرضه ذراع واحدة أيضا؛ وفى أيام

رواجه ويسره كان ذلك الصندوق يمتلئ بالريالات، وبقدر ما كانت تلك الريالات تصله بطريق سهل، كان هو الآخر ينفقها بطريق أسهل. كان لعبد الله السروان عبدا حبشيا في المدينة (المنورة)، وأن ذلك الصبى الحبشى كان يرتدى ملابس بهيجة الألوان، وكانت لديه قطع من المسكّرات فضلا عن النقود الأمر الذى كان يجعله يندهش ويتعجب؛ ولكن في يوم من الأيام، علم عبد الله السروان بدناءة ذلك العبد ودونيته، فاستل عبد الله سيفه وراح يطارد ذلك العبد فى الشارع إلى أن أصابه بجرح، وباعه فى اليوم التالى لواحد من عشاقه نظير خمسة ريالات. - وفيما بين هؤلاء الشرقيين يبدو أن من حق رب البيت قتل خادمه أو إصابته أثناء نوبة غضبه دون أن يحاسب على ذلك، والقانون هنا يسكت ويتغاضى عن ذلك؛ وحسبما قال سيدنا موسى: 'إنه متاع شخصى.'

كان عبد الله السروان يتكلم، فى بعض الأحيان، عن حظه العاثر، لكى يستعرض أمامنا جسارته الإجرامية. أحضروه ذات مرة أمام المحكمة العسكرية بسبب العصيان والتمرد وتكسير الأوامر؛ وأمر الباشا بتجريده من الأسلحة التى يعلقها فى حزامه. - وفيما بينهم ليس هناك أقسى من وضع اليد بالقوة على شخص أى أحد من الناس. وعندما اقترب 'النبّال' 'استل عبد الله السروان واحدا من مسدساته، وأطلق طلقة، ولكنها أخطات النّبال؛ واستل المسدس الثانى،" (قال للباشا): هذا لرأسك أنت؛" ورد عليه حاكم المدينة (المنورة)،" هل هو رجل أم شيطان ؟" ثم جردوه بعد ذلك من سلاحه وقيدوه." بقيت فى الحجز أسابيع عدة، ويالرعب ذلك السجن، إنه مجرد حفرة، وأرض رطبة، والهوام الزاحفة! ووالله، كنت أرشى السجان كل يوم وأعطيه ريالا، لكى يفك قيدى لفترة قصيرة، حتى يتسنى لى حك نفسى؛ ولكن مع مجيء الباشا الجديد، سرعان ماعدت إلى سابق عهدى مرة ثانية." حكى لنا وهو يتعجب من بعض المذنبين الذين يجرى وضعهم فى سجن المدينة أثناء الليل، وكيف أن هؤلاء المجرمين قد جرحوا أطرافهم وهم يحاولون إخراجها من تلك القيود، ثم نجحوا فى الهرب؛ كما حكى لنا كيف أن واحداً من هؤلاء المجرمين قطع عقبه حتى يتمكن من إخراج قدمه من القيد والهرب مع رفاقه! - هذا الكلام ورد ذكره عند هيرودوت، عندما كان يتحدث عن سجين إغريقى، عجز بعد ذلك عن إثبات جدارته أو رجولته: - والسبب فى ذلك "ألا يحاول

الفـأر تخليص نفسـه حتى وإن أدى ذلك إلى أن يتـرك وراءه طـرفـا من أطـرافـه فى المصيده؟"

حمل عبد الله العلم وكان قد سبق له المشاركة فى الحملات التى شنها العجيل من المدينة (المنورة). وتفاخر الرجل مرتين بأن الأعداء طوقوه، وفقنى wafukny ربى ruby، بمعنى ولكن الله نجاه. - كان بوسع عبد الله السروان الحديث أيضا فى شىء من الاحترام والتقديس عن بعض المدن والبلدان الشرقية العامرة بالحياة الإنسانية الطيبة. "قال: يحكى أنه كان هناك رجلان متساويين فى الثراء واليسر، وكان أحدهما مهندما على الدوام ، فى حين لم يكن الآخر مهندما - وماذا حدث بعد ذلك ياسادة؟ - سأحكى لكم. كان الأول زوجا لامرأة جيدة دؤوبة، أما الآخر فكان متزوجا من امرأة حمقاء. - ومن هى أحسن النساء؟ سأحكى لكم، - انتبهوا فهذا كلام النبى (ﷺ)، - " إنها تلك التى يمكن أن تلزم السكوت والصمت!" كان لديه أيضا بعض الحكايات عن عباد الله الطيبين، وعن الإسلام شبيهة [بما نقرأه فى الأساطير الإغريقيه عن الآباء الآراميين] : - يحكى أن رجلا مباركا أمضى حياته كلها فى عبادة الله؛ إلى حد أنه كان ينسى تناول الطعام. وجاء أمر الله؛ وراح النمل المجاور له يمشى فوق لحمه الحالم، ويرمى ما يحمله من ذرات فى فم ذلك الولىّ ويتعهده بالرعاية. مرض عبد الله عدة أيام على إثر إصابته بحمى الوادى، كما مرضت زوجته أيضا بالمرض نفسه.

كان عبد الله قد سبق له أن أخذ زوجته معه إلى خيبر؛ كانت زوجته امرأة شابة سمراء اللون وابنة شقيق الشيخ. كان عبد الله يود الحصول على دواء منى، ولكن ضميره لم يطاوعه على الوثوق بالنصرانى؛ ولذلك تحول إلى الشيخ صالح طالبا منه العون والمساعدة، وكان لدى الشيخ صالح كتاب قديم عن العلاج وعن السحر والرقى والشعوذة. قرأ الشيخ صالح فى ذلك الكتاب "أن الإنسان ينبغى أن يشرب ملء فنجال من فناجيل القهوة، من الزبد مع شىء من الفلفل على الريق فى الصباح؛" وكتب الشيخ صالح حجابا أيضا لعبد الله السروان، على أن يربط ذلك الحجاب على شكل عقدة فى غترته. - "هل هذا الملعون melaun مريض؟ تعجب العم محمد، يا ليت ربنا يأخذه!"

لم يكن أحد يطلب منى دواء سوى البدو: وفى فصل الشتاء كانت الحمى لا تنتشر فى خيبر على نطاق واسع.

طوال فترة مرض عبد الله، كان ينحى جانبا مهام منصبه ، وكان ينتهز تلك الفرصة ليحكى لنا حكايات شرقية لا نهاية لها عن المدينة (المنورة): - هناك ترويح عند الحضر، شبيه بالمسرحيات العامة والشعبية التى يمضى فيها المواطنون الأوروبيون ساعات طيبة. الأمر أكبر من ذلك ويتعلق بمسرات قلب الفارس القديم عند الشاعر الإنجليزى النبيل الذى يحكى عن " الرجل الفقير الذى يصعد تدريجيا ويصبح غنيًا". ولكن حكايات هؤلاء الأعراب الشرقيين الطويلة تكبر فى الآذان الأوروبية (بسبب الرتابة) لتصبح مجرد صلصلة من الأصوات المرتبكة. وحكى لنا عن ارتقاء ابن حظيظ من الحضيض إلى الزواج من بنات الملوك؛ وكان يضمن حكايته كثيرا من الوقفات المفرحة على الطريق، - الأخطار واليأس، والهدايا المتمثلة فى الأحجار الكريمة، وقوة الطلسمان، والعثور على الكنوز المخبأة والمقابلات السعيدة التى تنتظر المحبين المفترقين؛ كما كانت تلك الحكايات تحتوى أيضا على صوت البوق والنفير وعلى المعارك، ثم تجىء بعد ذلك الأيام السعيدة الآمنة. - ومع ذلك فإن أساطيرهم تبدو لنا بدائية ولا رابط فيها، وهى (مثل كل فنهم) تعد شيئا لا يرضى ضميرنا، نظرا لأن هذه الحكايات تبدو لنا غير منطقية. كان العم محمد يتذوق تلك الحكايات التى كانت من اختراع عبد الله السروان؛ وكانت تلك الحكايات من مظاهر الترويح عند أهل المدينة (المنورة) بل إنها كانت مليئة بالسحر والأعاجيب فى نظر الحبشيين . وعندما كانوا يمتدحون طريقته فى الحكى ،" قال لهم، كم سيكون ذلك أجمل وأحسن لو أنى حكيت لكم الحكاية باللغة التركية ، " (التى هى لغة طنانة ويتكلمها أهلها بملئ الفم). وإذا ما تصادف وجود أحد من البدو الرحل، كنت ألاحظ اشتياقهم وتعطشهم إلى سماع تلك الحكايات ؛ هؤلاء البدو الرحل لم يجدوا منقذا لهم فى تلك المادة العليلة التى تصدر عن ذهن عبد الله السروان المريض، بالإضافة إلى أن هؤلاء البدو الرحل لم يفهموا جيدا مصطلحات أهل الحضر الغريبة عليهم.

هؤلاء الخيابرة الذين اعتادوا على طغيان البدو قصير الأمد لم يكونوا مفصولين عن النِّير اليومي للدولة (الإمبراطورية العثمانية). هؤلاء الناس لم يجدوا لأنفسهم ملجأ أو ملاذا في منازلهم، نظرا لأن عبد الله السروان كان يستدعيهم عندما وحيثما يشاء، من أمام وجاراتهم؛ يضاف إلى ذلك أن حريم أولئك الرجال كن يُضْرَبن أمام أعينهم وعلى مرأى منهم؛ - وهو يفرض عليهن حاليا الإتيان إليه ببعض الحطب! كان عبد الله السروان يرسل في طلب كبار المتذمرين في القرية، ويتظاهر أمامهم بالشجاعة، ويحاول استرضاءهم عن طريق كلام الحكام الأتراك المعسول. "أليس الجنود يسكنون ويتموضعون هنا بأمر من الدولة لكم، في هذه القرية؟ وأنا أقول لكم، أيها السادة: إن هؤلاء الجنود يتطلعون إليكم في الحصول على الوقود اللازم لهم، - ما الذي يمكن أن يحافظ على بقاء نار هذه القهوة مشتعلة سوى الحطب؟ وهذا يعد تكريما لخيبر، فضلا عن استقبالكم والترحيب بكم في المقهى. انتبهوا - كان الرجل يبدو خطرا بالرغم من ابتساماته ، وكان دائما يكرر ذلك المثل الذي أذهلني: هل تدرون ما هي السلطة العسكرية؟ السلطة العسكرية مثل الحجر، الذي إذا ما سقط عليه أي إنسان انكسر، أما الدولة إذا ما سقطت على أي إنسان فأنها سوف تقطعه إربا إربا. أنا أتحدث إليكم كصديق، الدولة لها فم مفتوح عن آخره [إنها حكومة مجرمة تبتلع رعاياها] ، وهذه الحكومة تصيح دوما هات hat - هات hat - هات hat - أتدرون ما هذا؟ أيها الخيابرة، أنا رجل معتدل ومتزن، وأنا أستحق أن أكون بينكم: ولكنكم إذا ما استثرتموني وجعلتموني أضع عليكم أعباءًا جديدة، فسوف ترون ذلك بأنفسكم وسوف أعرضه عليكم ! كان أفضل لكم ألا تشتكوا من مسألة الحطب تلك، لأني أرى الآن أن أفرض عليكم ضريبة نظير الدخان الذي تزرعونه. - لقد اقتنعت بأني إذا ما أخذت حقلا واحدا من بين كل ثمانية حقول، فسوف أحصل من خيبر على ما قيمته ألف ريال، ولكني تنازلت عن ذلك لكم. ثقوا أيها السادة، أن كل ما سأفرضه عليكم سوف تقبلونه عن طيب خاطر، وبهذه الطريقة يزيد قدري وترتفع مكانتي في المدينة (المنورة). "

خيبر مقسمة إلى ثلاث مشيخات. الشيخ العطوي، وهو رجل قوي البنية، رئيسا للحي العلوي الذي يقع أسفل الحصن رد عن نفسه وعن حيه بأنهم لن يقدموا الحطب

بعد اليوم". أرسل عبد الله فى طلب الشيخ العطوى؛ ولكن العطوى لم يذهب إليه. أدخل عبد الله اثنين من رجال العطوى السجن: عطوى قال: إن ذلك لا يصح؛ وبناء عليه حمل رجال حى العطوى العكاكيز والسيوف القصيرة وأقسموا على كسر باب السجن وإطلاق سراح الرجلين المسجونين. كان نصف عسكر العجيل الموجودين فى خيبر، عاجزين، بسبب المرض، عن حمل أسلحتهم؛ واستطاع الزنوج الأشداء، فى حالة هياجهم، أن يتغلبوا على رجال السروان الضعفاء الذين يرثى لهم - وهنا أرسل عبد الله السروان فتوته سرور، بصوته الجهورى، لتهديد أولئك المتمردين: ولكن ذلك الحبشى الجبان اندهش عندما نظر إلى وجوههم العابسة، ورأيته وهو يتسلل عائدا إلى منزله ومنه إلى عبد الله؛ الذى قال لوالد زوجته القروية، بعد أن علم بهياج البلدة: "وحتى أنت لن تسامحنى؟" ورد الرجل عليه، "رأسى مع رأسك!"

وهنا نادى عبد الله، الذى وهب حياته للموت من أجل الدولة، على رجاله وطلب منهم حمل السلاح؛ وتناول مسدسيه اللذين كان يحتفظ بهما على الجدار، ونزل إلى الشارع وقد تملكته شراسة العسكريين الأتراك؛ وصمم على إقناع المتظاهرين، وإذا لم يقتنعوا فسوف يسفك الدماء ويهدرها . - وجد أن ثورة الزنوج قد هدأت بعض الشىء: ونظرا لأنهم لن يقدروا على قتال "الدولة" فقد بدءوا ينصرفون بطريقة هادئة: كما وعدهم عبد الله بإطلاق سراح السجينين.

دخل عبد الله القهوه، - ثم نادى على الشيخ العطوى للمرة الثانية؛ وحضر إليه العطوى ومثل أمامه، - وراح يقدم بعض الأعذار المقبولة، " قال: إنهم لم يهتموا بالأمر، بالرغم من أنهم قدموا شيئا من الحطب من أجل خاطر عبد الله، ولولا ذلك لما أجبرهم أحد على تقديم ذلك الحطب". تحول عبد اللـه ناحيتى وقال: " ياه! لعلك رأيت الآن يا خليل، كيف أن الخيابرة شياطين! ألم تكن خائفا من هذا الهرج والمرج؟ أنا هنا فى خيبر أمثل الدولة، وهؤلاء الجنود تحت إمرتى؛ ولكن ماذا كان يمكن أن يكون مصيرك، ما لم أكن أنا هنا اليوم؟" - "لقد أوانى سقف مضيفى، ثم تجيئ بعد ذلك نية الناس الحسنة." "صاح عبد الله، قل للخيابرة: يلتزموا، ولا يسببوا له أية مضايقات أو متاعب؛

وإلا، وأنا أقسم بالله، سوف يرتدى حذاءه ويركب عائدا إلى المدينة (المنورة)! وهنا سيقوم الباشا بإرسال حاكم جديد إليكم، ولن يكون ذلك الحاكم سهلا معكم مثلى، وإنما سيكون واحدا من أولئك الذين يقصمون ظهوركم ويبتلعونكم: أما فيما يخصنى، فوالله سوف أعود إلى منزلى وإلى أطفالى فرحاً."

سألت العم محمد عن تلك الأسواق (الأحياء) الثلاثة (التى كانت ثلاث طوائف إن صح التعبير) الموجودة فى خيبر؛ وهذا هو ما قاله لى هذا الرجل عن تلك الأحياء الثلاثة، لتكون مثالا على حياة أهل الجزيرة العربية المشتركة. [راجع الجزء الأول] - أقارب الخضيران KHUTHERAN، وهم يمثلون أكثر من نصف سكان خيبر، ورئيسهم الشيخ صالح: وهم ثلاثة أنساب الكّران el-Kirran، وهم حلفاء الشيخ صالح؛ ثانيا الجرار el-jerrar، الشيخ عوّاض Auwad ؛ - ومنصب الشيخ عواض وۋاثى، وهو يقوم بدور المحُكّم فى القرية، هذا الرجل كان أميا. وكان أسود البشرة مثل بقية الناس، ولكنه كانت فيه أصول عربية، وكانوا يطلقون عليه فى خيبر اسم المغربى؛ قال لى: إن أرض أجداده هى مدينة سوس فى المغرب. - النسب الثالث هو النُّعاَبه Noaba، الشيخ إبراهيم ووظيفته فى القرية هى تحديد الدية، أو إن شئت فقل المدّة فى حالة القتل . النسب الثانى هو المحلف muhallaf وهو تحت رئاسة الشيخ العطوى، ويشتمل على أربعة طوائف هى: الحدايد، والجواد Guad والشيفات Asheyfat والَشرُّان. والنسب الثالث هو العم محمد، لم يجر تسجيله، اللهم إلا إذا كان يضم أولئك الذين يسكنون فى أم كيدة، التى يطلق على ساكنيها اسم العطيفات؛ والعطيفات ينقسمون إلى طائفتين: السلُوت Sellut - وهم ثلاث قرابات الحنانية، الحيارة، والعفارة - ثم المجاريد Mejarid وهم ثلاث قرابات الشلالى، والزّيادة ثم التويم. وعند البشر أو إن شئت فقل: فى قرية خيبر الرئيسية يوجد حوالى مائتى منزل أو أكثر من ذلك؛ وفى أم كيدة يوجد حوالى ثمانين منزلا؛ وهجرة العزمية فيها حوالى عشرة أو اثنى عشر منزلا. وسكان وادى خيبر بكل قراه ووديانه لا يزيدون على ألف نسمة.

كان عبد الله، الذى لم يكن يعرف سوى الخصائص البسيطة للأعداد يحصى عدد هؤلاء السكان على أصابعه بالعشرات، ولكنه لم يكن يستطيع مواصلة العد، وبخاصة عندما يتطرق العد إلى الآلاف. - وعندما كان يحاول تسليم فاتورة تركية عن الخدم والخدمة قال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة قد تغاضى عن كيت وكيت من الأمورالصغيرة، حتى إذا ما اكتشف الباشا خطأ فى أرقامنا يكون لدينا ما نعوض به ذلك الخطأ." كان ذلك الحاكم الأمى يعلن ذلك على الناس، وكان يخاطب الحاضرين ويسألهم" هل يوافقونه ،أيها السادة؟" لم يكن عبد الله يخرج مع الشيخ صالح للجلوس معه فى شرفة بيته إلا فى الحالات الخاصة جداً. كان عبد الله قد استاجر دخيل (ليس المنهلى)، الذى هو واحد من أفضل القرويين السود، ليحمل معه ميزانية حكومته، نظير أربعة ريالات، ويذهب معه إلى المدينة (المنورة). دخيل هذا الذى كان يعمل، إلى جانب محمد النجومى، صياداً فى خيبر، كان هو الآخر يسافر ماشيا على قدميه: ونظرا لخطورة الطريق سافر دخيل إلى المدينة لابسا ملابسه (بالرغم من أن الوقت كان منتصف فصل الصيف) التى كانت عبارة عن تونك من البفتة؛ وخلف وراءه القسم العلوى من ملابسة.

مرت علىَّ أيام ثقيلة فى خيبر إلى أن عاد دخيل إليها مرة ثانية؛ وبدأ أولئك السود من البشر ينظرون إلى النصرانى نظرة تنطوى على الشر والشك، - لأن الباشا قد يقضى بإعدامى. كانت نظرات عبد الله التركية توحى بالغدر والخيانة؛ وكان ذهن عبد الله معلقا بين تشدده الدامى من ناحية والخوف من ذكرى جدة ودمشق من الناحية الأخرى: كان سرور، ذلك الوحش، هو مستشار عبد الله. - معروف أن الأحباش يكنون كراهية لا تعرف الحدود لكلمة نصرانى: وربما كان ذلك راجع إلى أن القبائل المجاورة لحدودهم تدخل فى عراك مستمر مع المسيحيين الأحباش.

كان لعبد الله مستشار آخر يقول له "عمى" - علىَّ ذلك الشيخ المتدين، مؤذن الصلاة، وناظر مدرسة القرية. الناظر إلى وجه الشيخ على، يراه مليئا بالتباين الغريب، وكان يخال لى شخصيا أنه مصاب بمس من الجنون: - كل المتشددين هنا هم من أصحاب الوجوه المشوهة وشكلهم بائس، ومزاجهم عجيب وغريب. سألت العم محمد،

وتذكر الرجل أن والدة علي ماتت بسبب شيء في عقلها. كان علي يهمس دوما في أذن الحمار عبد الله، أن النصراني عدو adu الدين ed-din، (قال): إن حكم الله يقضي أن أموت بسيف المسلمين. ولعل عبد الله يقتلني! يصيح وجه القرد؛ إذا لم يقوى هو على القيام بذلك القتل بنفسه، فإن عليه أن يكلف من يقوم بتنفيذ ذلك . وإذا ما ترتب على ذلك أي نوع من الضرر، فإن مهمة المؤمنين بالدرجة الأولى هي مراعاة طاعة الله.' – أبشع ما في الأمر أن صالحا شيخ القرية، ذلك المستشار الحصيف العجوز، كان يقول لعبد الله: إن عليا معه الحق فيما يذهب إليه!

عندما سمع محمد النجومي عن تلك المشاورات التي يجريها عبد الله لم يتورع عن إظهار احتقاره واستيائه. قال عن علي: "الكلب، العبد! إن قيمته كلها لا تساوي أكثر من عشرة ريالات [معتبرا أياه، في موجة الاحتقار والازدراء، مجرد عبد من العبيد] : أما فيما يتعلق بذلك الحمار المدعو عبد الله، ذلك الطمّاع، فإن والده اشترى المرأة التي أنجبته بخمسين ريالا!" – ولكن تصرفاتهم تلك شجعت أصحاب النفوس الضعيفة في القرية، وبلغني بعد ذلك أنهم بدءوا يهددون بفتح النار على الكافر ليردوه قتيلا، على أن يتم ذلك أثناء سيري في المسارات (المسورة) بين مزارعهم. من هنا امتنع العم محمد عن عدم اصطحاب سيفه معه عندما نكون سويا. واحتقارا للقرويين السود قال العم محمد " إنهم قردة، وليسوا من أبناء آدم؛ آه! من منهم الذي يجرؤ على التدخل في أموري؟ حتى ولو كان ذلك الأمر مجرد كلب أو فرُّوج في منزلي ! ولكن الشيخ خليل يأكل معي كل يوم في طبق واحد." وأردف ذلك الرجل القوي يقول:' إن من سيضع يده على خليل سوف يقسمه العم محمد الى قسمين؛ وإذا ماجرؤ أحدهم على رش خليل بالماء، فسوف يرشه هو بالدم!'

عندما جلسنا مع عبد الله، وجدناه يبتسم للنجومي بطريقته التركية؛ وكان العم محمد هو الآخر يبتسم ابتسامة طيبة في وجه عبد الله. "(قال): ولكن ليعلم الجميع أني لا أخاف الدولة، ولا ستين دولة؛ وأنا هنا، يا عبد الله، مثلما قالت النعامة للبدوي ذات يوم، 'إذا كنت قادم لاصطياد الإبل، ألست أنا طائر؟ ولكن قرِّب مني هنا، انظر يا سيدي.

أنا جمل بالفعل.' وعليه إذا كان الأعراب سيسببوا لى المتاعب فأنا دولانى، - أنا واحد من مواطنى المدينة (المنورة) - حيث أستطيع حمل سيفى فى الشوارع [وهذا مقصور فقط على الضباط وعلى البدو والذين يزورون المدينه]، والسبب فى ذلك أننى خدمت الدولة. وإذا ماحدث ما يعكر الصفو بينى وبين الدولة، فأنا رجل حربى، وقد أتوجه إلى الفراع [فراع بنى عمر Amr]؛ تلك هى قرية أمى، وهى فى الجبال [التى على الدرب الأوسط] الواقعة بين عمومتى، وليست هناك دولة يمكن أن تأتى بى من هناك إلى هنا، يضاف إلى ذلك أننا لا نعترف بالدولة فى ذلك المكان؛ لأن المدخل إلى تلك القرية ضيق كما لو كان بوابة فى جبل، الأمر الذى يمكن ثلاثة رجال فقط من السيطرة على ذلك المدخل ويمنعون آلافا من الدخول من خلاله." - بهذه الطريقة دافع النجومى عن دورى الوحيد، طوال تلك الأيام والأسابيع والشهور التى مكثتها فى خيبر؛ - رجل واحد فى مواجهة ألف رجل ! ومع ذلك، فإن العيش وسط تلك الألسنة النابحة، والذى يتعين عليه أن يعيش بينها ومعها، يجعل قلبه الطيب الأمين يهلع خوفا فى بعض الأحيان (وهذا القلب يقظ كما هو الحال فى العرق البدوى المترحل). ولكنه استسلم لذلك المزاج الشعبى إلى حد أنه كان يتحاشاتى فى بعض الأحيان، عندما نكون على مرئى من الناس: والسبب فى ذلك أنهم كانوا يتصايحون معه يوميا ويقولون له: إنه يأوى نصرانيا! - "قال لى:آه ! يا خليل أنت لا يمكن أن تتصور وتتخيل مدى حقدهم وغلهم!"

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى حابى النجومى فيها الغرباء على نحو أثار قلق ومتاعب الخيابرة. - وهذا هو واحد من تجار المدينة (المنورة) جردوه من ملابسه وأصابوه بجرح فى الصحراء أثناء قيامه برحلة إلى خيبر؛ ووصل الرجل إليها عاريا من ملابسه. لم يكرمه القروييون السود؛ وجلس مواطن المدينة على المصاطب العامة ينتظر، دون جدوى، أن يدعوه رب من أرباب البيوت. فى النهاية مر أحمد على ذلك التاجر؛ وعندما شاهد الغريب رجلا أبيضا، - وواحدا لابد أن يكون (فى بلده) من مواطنى المدينة (المنورة)، فقال له:" ما الذى يمكن أن أفعله، يا ابن مدينتى؟ ممن أستطيع أن أقترض بضعة ريالات لاشترى لنفسى ملابس؟" أحمد:"فى آخر هذا الشارع يجلس رجل أبيض! اطلب منه؛ أنت داكن البشرة، إلى حد أنى حسبتك واحداً

من البدو!" اقتاده العم محمد فى رفق وحنان إلى منزله وكساه: ويقى ذلك الرجل الجريح مع من أحسن إليه هو وأحمد طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر إلى أن تمكنا فى النهاية من إعادته ، إلى المدينة المنورة، وأنا عندما أذهب الى المدينة المنورة، ويسمع ذلك الرجل عن مجيئى، يبادر بالمجيء إليَّ ويأخذنى إلى بيته، ويقيم لى وليمة ويفرح ويهلل لمقدمى." - هذا الورع الإنسانى الذى تمثل فى هذا الرجل كان من قبيل شكره وحمده للعناية الإلهية التى جعلته ميسور الحال، وغفرت له جهل شبابه.

فى عام آخر، - كان ذلك فى زمن حكومة بن الرشيد - عندما كان النجومى يشترى ويبيع التمر والملابس القطنية فى سوق الحصاد فى خيبر، جاء له، فى تلك الأيام، بعض العنوز وهم يقتادون بائسا عاريا، من حبل لفُّوه حول عنقه، وكانوا يدورون به فى شوارع المدينة: كان ذلك الرجل من الحطيم؛ وكان البدو يصيحون فيه وهم غاضبين، لأنه منع الخوة، التى تقدر بعشرة ريالات! وقد أحضروه ليروا إن كان هناك أحد فى خيبر يعرفه ويدفع عنه تلك الخوة؛ وإذا لم يجدوا من يدفع عنه فسوف يقتادوه إلى خارج البلدة ويقتلوه. كان ذلك المسكين يتوسل طلبا لإنقاذ حياته وقال:"النجومى سوف ينقذنى:" ولذلك جاءوا به إلى الرحبة، التى كان مسكن النجومى فيها فى ذلك الوقت، ثم نادى الحطيمى بأعلى صوته. وجد محمد النجومى أنه لا يعرف ذلك الرجل الحطيمى: ومع ذلك قال للعنوز: "فكوه." - " لن نفكه إلا بعد أن نحصل على الريالات العشرة." - "ولكنى أقول لكم: فكوه، جبرا لخاطرى." - "لن نفكه." - "إذن أصعد يا أحمد وعد إلى ومعك عشرة ريالات من الصندوق." "أعطيته قربة ماء، وتمرا ودقيقا يكفيه فترة الرحلة، وتركته يذهب لحال سبيله. بعد ذلك بأسبوع عاد إلى ذلك الحطيمى ومعه عشرة ريالات، ومعه خروف سمين هدية لى."

كان محمد قد تعلم (من جار له) فى المدينة مهنة التوفكشى(*)، وقد برع تماما فى هذه المهنة؛ وكانت إنسانيته طاغية دوما. كان بدوى يحمل، فى موسم الحصاد، جوالا

(*) التوفكشى: كلمة تركية الأصل معناها "من يصنع البنادق ويصلحها ويصونها" . (المترجم)

من التمر ويصعد به سلم محمد النجومى؛ وانزلقت رجل هذا الرجل فانكسرت. وقام محمد بذكائه الفطرى، الذى يسمونه هوس hawas ، بجبر العظام، وراح يتعهد ذلك الرجل ويرعاه إلى أن اكتمل شفاؤه؛ وإلى يومنا هذا ما يزال ذلك البدوى يحضر لمحمد النجومى، كل عام، هدية من السمن والحليب المجفف. عثر محمد النجومى، فى مرة أخرى ، على شخص مجروح وكان ينزف نزيف الموت: خاط فتحة جرح ذلك الرجل بخيط من الحرير، وأعطاه جرعة ساخنة من الزعفران، كما أعطاه كمية من الفنجين، حوالى أوقيتين أو ثلاث أوقيات، قال لى: إنها كافية. وتوقف النزيف وشفى الرجل.

الفصل السادس

حياة المدينة فى خيبر

أسرة العم محمد الكردية. حياته بدءا من شبابه. ولده حَصين. دينه الصادق السهل. هو زاجر فى بيته. أحمد. ثعلب أسود. أنواع الغزال. النجومى رامى ماهر. بصره العجيب. جاهلية شبابه. محوّر المعادن. قتل شقيق. قلبه يحترق لهفة إلى الثأر. قتل رامى بدوى بنيرانه فى مهمة من المهمات. معركة دائرة. إصابته بجرح. رجال الباشى بازوك أشباه الشياطين. المعترين فى دمشق. كرم العرب وضيافتهم الدينية. حكاية سورية عن دب. المدن الإسلامية والمدن المسيحية. ذهاب محمد فى صباه، ضمن عصابة، من المدينة، للسطو على قافلة من قوافل الحجاج. إنقاذه لحياة حاج. لهابة حرب، مجموعة من اللصوص. حكايات اللُّهابة. المسلمون غير الكاملين فى الحج. العثور على مسيحى فى المدينة. وفاة الشهيد. راهب فى المدينة. محمد يشاهد مسيحيا آخرا فى المدينة. يهود ونصارى. 'ابن من يكون المسيح؟' محمد يرد تحية الرجال العدول، منذ شبابه. كهف الشهداء فى بدر فى موقعة حنين. دخيل يعود فى غير موعده. الشكوك تحوم من حول حياة النصرانى. طيبة العم محمد وسواد قلب عبد الله. وصول دخيل فى الليل. كلام عبد الله المتعجرف." الإنجليز أصدقاء للسلطان وليسوا متمردين عليه. "أندلسية العرب. خطاب من الإنجليز إلى باشا المدينة. خطاب عبد الله. إعطاء شىء من الاهتمام للدواء.

كان والد العم محمد كرديا من أعالى سوريا، وبالتحديد من قرية بيلان Beylan، بالقرب من أنطاكيــة (حيث توجد الأسرة لحد الآن)؛ اسم هذه الأسرة باللغة الكردية هو Yelduz بمعنى 'نجم' ولذلك فالعم محمد يطلق على نفسه فى الجزيرة العربية لقب 'النجومى'.

كان النجومى الأب مورّد موّاد غذائية فى المدينة (المنورة) مع الباشى Bashy بازوك (*) Bazuk . كان النجومى الأب يجلب القوافل الحاملة لتلك المواد الغذائية بنفسه من مدينة ينبع ويمر بها من ذلك الممر الخطير؛ تزوج ذلك الرجل الطيب من امرأة من قبيلة حرب، هذا الزواج خلّص النجومى الأب من الأمة الكردية؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل كان شهيرا بكرمه الرجولى والإنسانى مع البدو كلهم وبلا استثناء. كان النجومى الأب يحصل على ثمن بضاعته من كشوف مرتبات الجنود (التى كانت تتأخر دوما)، مع إجراء شيء من التخفيض؛ وكان النجومى الأب يبيع تلك الأوراق المالية للتجار بالسعر السائد. ثم أصبح النجومى الأب تاجرا كبيرا من تجار المدينة المقدسة.

كان النجومى الأب جنديا بمعنى الكلمة كما كان أيضا أباً صارما وقاسيا؛ وعندما توفى ذلك الرجل لم يترك لأولاده الثلاثة الذين كانوا جنوداً مع الباشى Bashy بازوك Bazuk سوى البنادق والأسلحة التى كانت فى أيديهم هى والخيول؛ - كان لدى النجومى الأب ستة أو ثمانية خيول فى الإسطبل. ترك النجومى أولاده وهم يخدمون فى قوات الدولة (الإمبراطورية العثمانية)، وتمنى على أولاده أن يكونوا شجعانا: قال لهم إن ذلك يكفيهم فى هذه الدنيا. وقد أعطى محمد النجومى كل بضاعته هى والمنزل لأم هؤلاء الأبناء بالإضافة إلى معاش آخر أعطاه للزوجات الأخريات؛ كما عين النجومى الأب واحداً من أقرب أقاربه للدفاع عن تلك الزوجة إذا ما جار أولاده عليها. - باع الأولاد الخيول، وسرعان ماضيع محمد النجومى، وهو أكبر هؤلاء الأبناء، ثمن تلك الخيول فى العربدة: وطمعا من محمد النجومى فى تعويض ماخسره راح يلعب القمار وألعاب الحظ. وبعد أن أساء التصرف فيما معه، وبعد أن أضاع وقته وماله، وجد نفسه صفر اليدين: وقد أدى ذلك إلى إفقار أخويه.

وبعد أن جرى تسريح قوات الباشى بازوك، انخرط كل من محمد وأحمد النجومى فى عمل متواضع؛ أصبحا كنّاسين فى المعبد أو إن شئت فقل: أصبحا زبّالين،

(*) الباشى بزوك: مصطلح تركى معناه "قوات بلا قائد أو رئيس" وقد ترجمت هذا المصطلح السيدة/ زهرة تلك، وهى تركيه الجنسية وتعمل سكرتيرة بالسفارة التركية بالقاهرة . (المترجم)

إذ كانا ينقلان يوميا الزبالة على الحمير وكانا يتقاضيان ثمانية بنسات أجراً على ذلك. يضاف إلى ذلك أنهما كانا يعملان باليومية نظير ست بنسات ليقوما بتقليم النخيل، وري المزارع، والحفر، وبناء الجدران والأسوار في البساتين. وعندما ضاق محمد ذرعا بتلك الأعمال قصد أصدقاء والده، واقترض منهم مائة ريال. وبدأ يتجر في الملابس القطنية؛ ولكن مكسبه اليومي بلغ من الصغر حداً عجز معه محمد النجومي عن الوفاء باحتياجاته ومتطلباته المعيشية، وفي النهاية وصلت ديون ذلك الرجل إلى أكثر من أربعمائة ريال.

اشترى محمد النجومي بالكراونات القليلة المتبقية معه فرسا مكسورة، ثم اتجه بها إلى قرية خيبر؛ وفي خيبر راحت الفرس ترعى (دون كلفة عليه) في الوديان الرطبة، وتحسن حالها وشفيت في نهاية المطاف؛ وباع محمد النجومي تلك الفرس بضعف ثمنها في المدينة (المنورة). وفي خيبر أيضا اشترى محمد النجومي بقرة، وحصان وأصبح مالكا لعبد أيضا؛ وباع محمد النجومي هذه الممتلكات بالطريقة نفسها، وكرر هذه العملية مرات ومرات: – ثم تحول إلى تاجر للملابس والقماش والتمر أثناء فصل الصيف في سوق خيبر. وعندما وجد أن حاله قد تحسن في الوقت المناسب، وزاد ما في يده من مال، سدد مائتي ريال من دينه القديم. دام حال هذا الرخاء اثني عشر عاما مع محمد النجومي، وبذلك أصبح شيخا لتجار فصل الخريف (الذين يجيئون من المدينة المنورة)، ثم استقر الرجل في خيبر: لأنه سبقت له الإقامة فترة من الوقت في كل من قرية الحياة، والمدينة (المنورة) .

في العام التالي لدخول الدولة (الإمبراطورية العثمانية) خيبر حضر أحمد النجومي ليعيش مع شقيقه في خيبر. لم يتحسن حال أحمد في المدينة (المنورة)؛ التي كان يقضي وقته فيها في المقاهي، محولا ما لديه من نقود قليلة إلى دخان؛ وكان أحمد قد بلغ من الفقر حداً عجز معه عن دفع ريال واحد، هو أجرة العودة من المدينة (المنورة) إلى خيبر مما جعل أخيه محمد النجومي يتقدم لدفع ذلك الريال؛ – وصل أحمد إلى خيبر مكروبا إلى حد أنه كان يقول: إن عزاءه هو أن أخيه الطيب سوف

يدفنه بيديه!' – استطاع محمد ، بفضل تجارته الصيفية، شراء (حق القروى) كل عام، فى بلد (حقل) من البلاد نظير أربعين أو خمسين ريالاً. كان محمد النجومى يمتلك أيضا ثلاثة منازل، اشتراها من ماله، كما اشترى أيضا فرسا نظير ستين ريالاً. كان لدى محمد النجومى سبع بقرات، وعندما كانت تلك الأبقار تلد، كان يبيع بعضا من تلك العجول، ليسدد مائة ريال أخرى من ديونه. وهذه بضع عنزات قليلة، حصل عليها منذ سنوات، من تجارته مع البدو الرحل، تحولت إلى قطيع من الماعز؛ وكان رجلاً من الحطيم يرعى تلك الماعز مع قطيعه فى الصحراء. وازدهر حال أخيه أحمد أيضا: "قال محمد النجومى: هل تعلم أنه يعيش حاليا فى منزله الخاص! أحمد أصبح الآن تاجرا رائجا، كما اشترى لنفسه بلدا أو اثنين."

حصين Haseyn ، ولد العم محمد الوحيد، تربى مع جدته أم والدته فى المدينة (المنورة)؛ وكان والده قد أرسل له مؤخرا يطلب منه الحضورإلى خيبر. وفى العام التالى اختار الأب محمد النجومى زوجة بدوية لولده الذى يبلغ من العمر ستة عشر عاما. كان محمد النجومى يزجر ولده ويعنفه فى كل وقت وحين لأن والده، على حد قوله، كان يفعل الشىء نفسه مع أبنائه: – كان النجومى يتطلع من وراء ذلك الزواج المبكر إلى تقوية نفسه عن طريق الأحفاد. هذا الرجل الطيب قال: إنه سوف يقسم تركته إلى ثلاثة أقسام: قسم منها لنفسه، والقسم الثانى لأخيه أحمد، والقسم الثالث لولده الوحيد حصين. كانت أم حصين قد ماتت وهى فى شبابها، ونظرا لأن النجومى كان يحبها حبا جماً فقد بقى بلا زواج طوال سنوات عدة: كانت زوجة أخرى من زوجات النجومى قد ماتت هى الأخرى فى سن مبكرة؛ – كانت هذه الزوجات من حريم المدينة (المنورة) وعندما كان محمد النجوَمى فى المدينة (المنورة) كانت له جارة تترد عليه لتطبخ له طعامه، وتجلب له الماء والحطب. أخيرا، وبعد أن لامه الناس على وحدته تزوج من امرأة بدوية؛ ولكن هذه الزوجة لم تطق أو تتحمل الخدمة الشاقة مع ذلك الرجل الحضرى، ونظرا أيضا لأنها كانت حبيسة وديان خيبر، فقد رجت محمد النجومى التخلى عنها وتركها لحال سبيلها وتطليقها: وحقق الرجل لها ذلك الذى كانت تطلبه: كانت ربة البيت التى كانت معه فى ذلك الوقت من القبيلة نفسها. وسعيا من

محمد النجومى إلى تقوية نفسه، قال: إنه يود شراء عبد زنجى متين، وذلك بعد زواج ولده حصين. وفى العام الثالث فكر محمد النجومى فى تحرير ذلك العبد، وتزويجه، وإعطائه عددا من النخيل يعيش منه هو وزوجته: هذه الأسرة المحررة ستكون خدما لمحمد النجومى، وأنصارا لأطفاله إلى أبد الآبدين.

قلب ذلك الرجل كان يتدفق مرحًا، حتى فيما يتعلق بالدين. تراه يقول: "يحكون عن الجنة وعن جهنم، ولكنى أسألهم: 'كيف تعرفونهما، ياسادة؟ هل رجع لنا أحد من هذين المكانين؟" بالرغم من كل ذلك، كان محمد النجومى متدينا وورعا، ولم يكن مجرد رجل شكلى فى الدين. سألنى، "هل ما يقولونه فى عقيدتك هو، فى الأساس، واجب الإنسان تجاه ربه؟" - "أن تحب الله حبا جماً، وأن تحب جارك مثل حبك لنفسك." - " ولكن هذا أمر سهل، يا خليل ! الله (سبحانه وتعالى) يعلم أنى أحبه! أتمنى ألا يضيق ذرعا بطلباتى الكبيرة منه (فى صلاتى): وأنا بحق أحب جارى مثل حبى لنفسى!" كان الرجل يصلى الفجر، والظهر، بعد أن يغسل أعضاءه التناسلية من ماء ينبوع الصفصافة التى يوجد بالقرب منها مصلىً، محدد ببضعة أحجار: كما كان يصلى أيضا فى المساء ويكتفى بذلك؛ لأنه كان يقول لى: 'لقد تعبت من الصلاة.' وفى فترات العصر كان الرجل يقرأ شيئا من القرآن وهو جالس فى منزله.

فى أيام الجمع كنا نذهب إلى عملنا البستانى فى نفس المواعيد المعتادة.؟ كان المتعصب يهمس بالقليل أو بلا شىء من دينه (الرسمى)؛ والسبب فى ذلك أنه كان يأوى فى بيته عددا من أعداء العقيدة، أو إن شئت فقل: ساحر. سمعت زوجته البدوية وهى تؤنبه مبتسمة، "يا محمد، أذهب إلى المسجد فى بعض الأحيان، لأن الناس بدأت تتهامس وتقول أنك لا تصلى! "وبالرغم من أن النجومى كان يحتقرهم ويحتقر حقدهم، إلا أنه أصيب بشىء من الارتباك؛ والسبب فى ذلك أن إهمال مظاهر الدين، يتساوى تماما مع إهمال أولئك الأشخاص الخرافيين للشخص نفسه - تعجب محمد النجومى بتهكمه المعهود،" كل إنسان مقتنع بعقيدته! - وأنا أقول: هل الله رجل، وأنه ينبغى أن يعاقب الفقراء، لمجرد أنهم لم يعرفوا الطريقة الصحيحة التى يعبدون الله عليها؟

[خلاص ابن آدم الأبدى خاضع لفكره الضعيف، والاختراع المستحيل للحقيقة المقدسة، فى المسألة المرتبكة لترائى هذا العالم بلا أساس منطقى أو تفاهمى!] واذا ما قدر أن يكون الله رجلا، ألا يكون رجلا طيبا! ولكن الله كله خير، كل الخير؛ ومن هنا أنا أرى أن الله سوف يرحم الجنس البشرى كله."

محمد النجومى، بالرغم من كونه رجل محترم ومحبوب، إلا أنه كان جنديا فى أسرته. وأنا عندما ألقيت باللوم على محمد النجومى قال:" أنا أُعنِّف زوجتى لأن المرأة يجب أن تظل خاضعة، وإلا فسوف تحتقر زوجها." كان يؤنب دوما زوجته البدوية الصبورة الجادة بأن يقول لها: 'ملعونة Malaunat الجنس ej-jins . كان محمد النجومى ينتوى الزواج من امرأة أخرى تكون من اختياره هو وحسب هواه؛ والسبب فى ذلك، على حد قوله: أن هذه الزوجة ليست جميلة؛ واشتياقا منه أيضا إلى إنجاب المزيد من الأطفال، بالرغم من أن هذه الزوجة أنجبت له أطفالا ثلاث مرات خلال خمس سنوات، - ولكن اثنين منهم ماتا بسبب هواء خيبر: "قال: الزوجة يجب أن تكون من أصل طيب، ويجب أن تكون كريمة وحرة." كان يعنف ابنه وزوجته بصورة مستمرة؛ ولم يكن العم محمد شخصا معتدلا إلا مع ضيوفه فقط. شاهدته ذات مرة - وتلك هى سلوكيات المدينة غير المتحضرة - وهو ينهض واقفا ليضرب ولده ! ووقفت البدوية بينهما لتحمى ابن ضرتها، بالرغم من عدم إشفاق ذلك الولد عليها. أمسكت ذراع النجومى ومع ذلك، أصابت قوته تلك المرأة المسكينة بخدش؛ - "وقالت : والله، وهى تبتسم ودموعها تنهمر عندما وجدت أن العاصفة قد مرت، يدك ثقيلة يا محمد، وأنا أظن أنها كسرت شيئا من عظمى." كان حصين يتحمل عن طيب خاطر، فى كل الأحوال، إساءة والده إليه، مررنا ذات يوم على حصين وهو يحرث الأرض فى بلد من البلاد، وعندما امتدحت عمله الجاد ابتسم والده محمد التجومى؛ ولكنه عندما تنكر موروثاته الصعبة قال،" لا، إنه عاطل، وسوف يلعب مع صبيان القرية، وسوف يذهب للبحث عن الأصحاب والأصدقاء." - كان محمد النجومى يشرع فى تعنيف ولده عندما يجيئ إلى صفة والده فى الصباح ويقول له:" ما هذا ! أنت لانفع منك، هل ينبغى لشاب أن ينام إلى أن تطلع الشمس عليه؟" كان والده لا ينتظر عليه إلى أن يأكل التمرات

القليلة التى فى يده؛ ولكنه كان يصرفه على الفور إلى عمله حيث يقوم على رعاية الأبقار فى الحلحال، أو يعزق الأرض، أو يحرثها، أو لإحضار الحمار، أو للبحث عن فرس والده الضالة، أو يقوم بعملية رى النبات. على امتداد الأسبوع والشهر والسنة، لم يتوفر لحصين الجلوس فى المنزل حتى ولو لمدة ساعة واحدة؛ ولكنه كان يتعين عليه تحاشى رؤية والده له. فى بعض الأحيان كان محمد النجومى، يرسله قبل طلوع النهار، وهو صائم، إلى مسافة بعيدة فوق الحرة، مع بعض صبيان القرية لإحضار بعض من الحطب؛ ويرجع الصبى ليتناول طعام الإفطار فى أواخر فترة العصر. وإذاً تصادف، فى أى يوم من الأيام، وعثر محمد النجومى على ولده حصين فى القرية قبل غروب الشمس، فقد كان يطارده بعبارات الغضب على مسمع ومرأى من كل الناس؛ "وقح! لماذا عدت إلى المنزل مبكرا وقبل الأوان؟ (أو، لماذا لم تأت أبكر من ذلك؟) ها! لا تقف أمامى أيها الثور، - أنهج enhaj بمعنى [أغرب عن وجهى] - ستجرى الآن طلبا للهو واللعب، اركض! أجرى! أى ابتعد عنى واذهب لحال سبيلك. أأنت الذى تعين علىَّ أن أزُوجه؟" حصين: "ماالذى تريد منى أن أعمله، ياوالدى؟" - " انكشح من أمامى! عاقب الله ذلك الوجه! "وكان يتفل وهو يقول: (كلاما من ذلك الذى يستعمل فى ثكنات الجنود فى المدينة (المنورة) مثل عكروت akerut ، خره Kharra ، أو كان يطرد ولده وهو يقول: لعنة الله عليك laanat ullah aleyk . كان حصين يعود إلى المنزل لتناول طعام العشاء قبل دخول الليل بوقت قصير. وبعدها كان والده يصيح فيه:" ها! يا مبذر ،أنت لم تفعل شيئا اليوم سوى اللعب فى الحلحال! - كان يطيل النظر إلىَّ كما لو كنت ثورا أو بقرةً!" - "لا، ولكنى يا والدى، فعلت ذلك الذى طلبته منى." - " هل تتجرأ وترد علىّ، أيها الفُروج ! عجِّل بتناول العشاء، بسرعة، ثم انكشح من هنا." حصين ذلك الشاب المراهق، لم يكن يتناول طعامه مع والده أو مع الضيوف؛ ولكنه كان يأكل بعدهم مما يتبقى منهم، مع جارة والده، التى كان حصين يطلق عليها، حسب أعرافهم، اسم خالتى Khalaty .

والذى لا شك فيه، هو أن محمد كان يحب ولده حصين، عندما كان طفلا صغيرا، وكان مبعث ذلك هو الحب والدفء العربى؛ ولكنه الآن يرى أن الشدة تصلح ولده وتحوله

إلى الأحسن. ولكن كلام محمد النجومي الجارح وصياحه في الشارع جعل الناس يتقولون عليه في قرية الزنوج؛ وترتب على ذلك حدوث شيء من الفتور في العلاقة بينه وبين شقيقه أحمد النجومي. ولكن المواطن أحمد كان هو أيضا مُعَنِّفاً وضاربا، لزوجته الخيبرية التي كانت شقيقة لزوجة محمد النجومي، الأمر الذي جعل هذه الزوجة تهجره وتتخلى عنه: كان لاحمد النجومي زوجه أخرى في المدينة (المنورة). سألته عن سبب عدم وجود تلك الزوجة معه هنا في خيبر، لترتب له شئون منزله؟ أحمد: "آآت بزوجتي لتسكن في هذه القرية! هذه القرية لا يعيش فيها سوى السود والعبيد فقط، وإلا لكنا قد أخذنا هذه القرية منهم منذ زمن بعيد!" قال محمد النجومي: أحمد ليس لديه قلب حساس." كنت قد نصحت العم محمد أن يهتم بصحة ولده، ويسعى إلى تعليمه القراءة والكتابة. "إي، قال والده، أتمنى أن يتعلم القراءة في المصحف، في الوقت الذي تزوج فيه، لأنه سوف يتعين عليه البدء في المداومة على الصلاة (كرجل من الرجال)."

كان يقول: إن أحمد ليس بذكي أو ألمعي بما فيه الكفاية، والسبب في ذلك أنه ينفق كل ما معه على البيع والشراء وعلى شرب القهوة والدخان. محمد النجومي [من منطلق التشابه بينه وبين طائفة الحدادين] لم يكن يتعاطى القهوة أو الدخان. "كان محمد يتفكه متسائلا، أهذا رجل حكيم أو عاقل، ذلك الذي يشرب القهوة ويصبغ أمعاؤه؟" ومع ذلك، كان يتحتم على أحمد أن يتذكر ، في غمرة عطف أخيه، أن ذلك هو الذي عرّاه في البداية: بل إن الأخطاء التي ارتكبها حاقت به هو، في حين تاب الخطّاء الكريم من ذنوبه! تلوث محمد، في ريعان جهل الشباب، يوم أن كان في المدينة المنورة، بالشرور التي وضع بذورها أعداء الجنس البشري. وبعد ذلك بسنوات استطاع محمد النجومي شفاء نفسه بدواء عنيف، يسميه هو" سم الفئران" بلغته العربية، مما أدى إلى عدم ثبات أسنانه؛ وقد أطلعني محمد على قطعة من ذلك السم الذي كان عبارة عن رصاص أحمر (أكسيد الرصاص). وبالرغم من أن بنية محمد القوية استطاعت مقاومة الكثير من الشرور، وأنواع الحمى المنتشرة في خيبر، إلا أن ذلك المرض العضال بقي في جسده (خاملا) وأدى إلى اسوداد مفاصله. ولما كان أحمد يعيش مع محمد في خيبر، ويمد يده إلى طعام أخيه، فقد انتقلت إليه العدوى من يد محمد المحسنة الحانية،

وبالتالى تحول أحمد من رجل صحيح معاف إلى رجل واهن الجسم بالشكل الذى هو عليه فى الوقت الراهن.

كان زنوج القرية الوقحين يلجأون إلى منزل أحمد طلبا لشرب القهوة والاستماع إلى حكمته الحضرية؛ وكانوا يحسون بالقلق والضيق لأن أخاه كان يطلق عليه اسم المجنون فى البلدة" قال لى: "يا شيخ خليل، ما رأيك فى الشيخ محمد؟" "أنا لم أعثر على رجل أفضل منه بين كل هؤلاء الناس الذين فى هذه القرية." - "ولكنه رقيق، ويتصرف تصرف الأطفال." وعندما مرض أحمد مرض الموت أثناء الوباء الأخير أحضر محمد النجومى ثورا إلى باب المنزل وأقسم على ذبحه إذا ما شفى الله أخيه. وشفى أحمد: وذبح محمد الثور، نذرا لله، ووزع لحمه على أصدقائهم؛ - وكان ذلك شيئا كثيرا على رجل ضعيف الحال! فى تلك الأيام كان محمد يذبح ضحيته السنوية التى كانت عبارة عن عنزة، التى نذر أن يذبحها يوم أن مرض ولده حصين. أحضر محمد العنزة عندما عادت المواشى إلى المنزل فى المساء؛ وفى البداية تناول بعضا من الجمار، التى وضع عليها شيئا من البخور فى مبخرة، وراح يبخر الأضحية. سألته عن سبب ذلك التبخير؟ وأجابنى: "حتى تروق الأضحية عند الله (سبحانه وتعالى)؛ وأنتم ألا تفعلون الشيء نفسه؟" ثم تمتم محمد النجومى ببعض الدعوات، ووضع رأس الأضحية نحو القبلة؛ ثم ذبحها باستعمال سيفه. وعندما سمع منى أن ذلك ليس من عاداتنا، - أن يقوم كل واحد منا بذبح أضحيته، راح يتأمل مع نفسه، وهو يحسب أننا شعب لا قلب له.

ذات صباح، وجد ولد محمد النجومى، عندما ذهب لرى الأرض، ثعلبا غارقا فى بئر الماء . - أخرج حصين ذلك الثعلب الغارق وطرحه على الأرض؛ وعندما وصلنا إلى هناك ولم نستطع رؤيه ذلك الحيوان، "قال محمد، لا عجب، إذ ليس هناك ما هو أمكر من الثعلب؟ ولربما يكون الثعلب هو الذى خنق نفسه، ورماه حصين زاعما أنه ميت!" - ولكنا وجدنا الحصينى (الثعلب) تحت بقايا أعشاب محترقة، وميت فعلا. ومن أنفه إلى فروه كان لونه اردوازى مثل لون بازلت الفجّار !اللهم باستثناء أن لون بطنه كان يميل

إلى الابيضاض. سحب العم محمد تلك الجثة الميتة، ممسكا بأحد أرجل الثعلب الأمامية بشيء من ليف النخيل.

حكيت لذلك الرجل الطيب، كيف أن الشيوخ في بلادي، يسارعون بخيولهم وهم- يرتدون عباءات حمراء، إلى اصطياد ثعلب من الثعالب، وهم راكبين على ظهور خيولهم، أملا في الحصول على فرو ذلك الثعلب - ويصل ثمن أفضل فرو من تلك الفراء إلى إيجار قرية بأكملها - كما أخبرته أيضا أن مائة من الكلاب اللئيمة تسبق هؤلاء الصيادين في عملية الصيد تلك؛ ويروح أولئك الصيادون يقفزون فوق الجدران وفوق الحفر معرضين بذلك أعناقهم للخطر أثناء هذه المغامرة: ومن يحضر نفوق الحصيني (الثعلب) يكون هو الرجل الشجاع. وظل ذلك الرجل من رجال الجزيرة العربية يتفحص وجهي بعينيه كما لو كان يقول : "أتستهزأ بي!" ولكنه سرعان ما عاد إلى روحه المرحة متسائلا، "يضحك، أهذه هي مطاردة الثعلب؟" - ولم ير الرجل في ذلك أية رقة أو طرافة. ويبدو أن ذلك الرجل الطيب من رجال المدينة المنورة دخل في نوبة من التأمل الروحي، "لماذا أعطى الله اليهود والنصارى ذلك الثراء السطحي، فيما يتعلق بتلك الاستعمالات غير المجدية؟، قال: الذئب أيضا من الحيوانات التي يقتلها الناس: حكى لي، أنه في إحدى المرات، وبينما كان يرعى ماعز والدته في الفراغ أيام شبابه، وبينما كانت عذراء (من قبيلة حرب) ترعى غنمها معه على جانب التل، شاهد ذئبين يقتربان من السهل ويتقدمان نحوه؛ وهنا اختبأ محمد النجومي ليرى ذلك الذي سيفعله هذان الذئبان. ترك الذئب العجوز زميله عند سفح الصخور؛ وراح الذئب الآخر ينتظر مجيئه: تسلق ذلك الذئب ، مثل صياد ماهر، وهو يتوقف بين الحين والآخر، وينظر من حوله وفي كل الاتجاهات. كان قطيع الماعز يرعى دون اكتراث بين الصخور العالية؛ ووجد محمد النجومي أن الذئب يستفيد من سطح الأرض ومن الريح أيضا، وعلى نحو لا يمكن أن يفعله الإنسان. تخير الذئب عنزة سمينة من ماعز تلك العذراء، واستدار الذئب حول صخرة من الصخور ليقفز بعد ذلك على تلك العنزة ويعضها من حلقها: - وفي لحظة كانت طلقة بندقية محمد النجومي قد وصلت إلى قلب الذئب على الفور؛ ثم سارع محمد بعد ذلك إلى ذبح العنزة المصابة (حتى يصبح لحمها شرعيا).

إلى جانب الحيوانات المفترسة، فى صحراء الجزيرة العربية، تحدث محمد النجومى أيضا عن القُرطة، gorta ، ' التى هى نوع من القطاط يصل حجمها إلى حجم الثعلب، والقرطة هذه ليست فهدًا أو نمرا: وهذه القرطة تعيش فى الأعشاب وتختفى بينها فى النفود كى تقفز فوق الغزال الذى يمر عليها . " كما حدثنى أيضا عن حيوان آخر، تكلم عنه بشىء من الشك، واسمه الظرمبان eth-thurramban ، - الذى اعتبرته أنا حيوانا خرافيا أو أسطوريا." هذا الحيوان أسود اللون وحجمه أكبر من حجم الثعلب؛ هذا الحيوان ينبش القبور كى يتغذى على جثث الموتى." ادعى النجومى أنه شاهد واحدًا من تلك الحيوانات فى يوم من الأيام ، ميتا فى حفرة من الحفر. وابن آوى الآكل للفاكهة لا وجود له فى صحراء الجزيرة العربية. وتطرق محمد النجومى إلى ذكر غزال النفود الصغير الذى لا يشرب الماء مطلقا، ويطلقون عليه اسم العفرى el-affery ؛ وتكلم أيضا عن غزال الحرَّة الذى يشرب الماء، وأكبر حجما من العفرى، ويطلقون عليه اسم الإدمى el-iddimy قال لى أيضا: إن الغزال الوليد الذى يكون عمره ثلاثة أيام فقط يتفوق على الإنسان ويسبقه فى الجرى. هناك أيضا البدون كبيرة الحجم وذات القرون تعيش على الحرَّة. وقد اصطاد محمد النجومى فى العام الماضى بدنة ضخمة، وصل طول قرنها إلى خمسة أشبار ويصل سمكه إلى قبضة يد [أى أكثر من أربعين بوصة] ، كما أن الجزء المسطح من ذلك القرن يصل طوله أيضا إلى قبضة يد. وقال لى أيضا: إنه وأربعة رجال آخرين كادوا يعجزون عن حمل أرباع العنزة البرية هى وتلك الطريدة إلى خيامهم ومنازلهم.

كان محمد النجومى رام بمعنى الكلمة. وعندما وصلنا، فى صباح أحد الأيام، إلى منطقة البئر، وكانت بندقيته الفتيلية بصحبته، كان هناك ثلاثة غربان واقفين على شجرة من أشجار السدر Sidr، وكانت تلك الغربان تقلقنا بأصواتها المخيفة." يا لهذه المخلوقات اللعينة!" قال العم محمد، وهو يجهز بندقيته استعدادا لإطلاقها، وقال: إنه سيجرب ما إذا كان نظره يتناقص: وعندما صوب بندقيته إلى الغربان طارت ماعدا واحد منها بقى فى مكانه على شجرة السدر، - وفتح محمد النجومى طلقة بندقيته على الغراب من مسافة بعيدة. ثم وضع عظمة بيضاء على الجدار المبنى من الطين، كانت

تلك العظمة كبيرة وبحجم راحة يدى، وفتح طلقة بندقيته على تلك العظمة ليصيبها فى منتصفها من مسافة تصل الى حوالى مائة خطوة. وفتح النار مرة ثانية، لتخترق رصاصته حدود الثقب السابق! أعطى محمد الغراب لبعض الخيابرة، الذين جاءوا يتفرجون؛ وشب القرويون الزنوج نارا فى بعض من جريد النخيل وشووا الطائر بريشه ووزعوا لحمه فيما بينهم. - قال النجومى، الطيور على إلافها تقع! وهذا الغراب يكفيهم ويناسبهم تماماً.

كان محمد النجومى يتمتع برماية جيدة لا تتأتى إلا لبصر غير عادى، الأمر الذى كان يمكنه من رؤية النجوم فى فترة الظهيرة، فى كثير من الأحيان: قال: إن أخاه يستطيع أيضا رؤية النجوم أثناء النهار، وأن هناك عددا كبيرا من الناس يستطيعون ذلك. قال لى أيضا: إنه شاهد، فى بعض اللحظات، ثلاثة أو أربعة نجوم صغيرة تدور حول واحد من النجوم الجوّاله [أقمار المشترى!] سألته بعد ذلك." ألم تر مطلقا نجما جوالاً يشبه القمر؟" - "حسن، لقد رأيت. نجما لم يكن مستديرا دوما، وإنما كان يشبه نصلا معلقا فى السماء." - لو كانت تلك الرؤية متوفرة لناظرى النجوم الأوربين، لما انتظرت الأجيال المسيحية اختراع تلسكوب جاليليو! [لوضع حجر الأساس الأول - بدون استعمال الأيدى - لصرح علومنا الذى يستعصى على الدمار] . كان محمد النجومى يرى القمر كبيرا دوما، كما كان يرى القمر كله دفعة واحدة: وعندما كبر ذلك الرجل فى السن أصبح يعانى من طول النظر.

قام العم محمد، فى أحد الأيام بصناعة البارود، وأعطيته (من صندوق أدويتى) رطلا أو رطلين من النترات. جهز العم محمد الفحم النباتى من خشب زيت الخروع، الذى ينمو فى خيبر على شكل أشجار: وبعد إشعال ذلك الخشب تماما وضع فوقه إناء وراح يقلل الاحتراق. وهنا بدأت كعكة البارود تجف، وراح يقطع تلك الكعكة باستخدام سكين: وربما يكونوا قد عرفوا بحكم الخبرة والتجربة أن ذلك النوع من البارود أأمن لبنادقهم الطويلة الضعيفة، التى يضعون فيها شحنات ثقيلة من ذلك البارود. ولما كان ملح البارود أبيضا، فقد ظن أنه من النوع الممتاز، وأنه لم يسبق له مطلقا أن رأى

نترات على هذه الدرجة من النقاء. وذهب العم محمد لاختبار ذلك البارود فى الصفصافة. - ولكن التفجير الحاد أدهشه تماما، بالإضافة إلى أن الكبسولة انفجرت هى الأخرى. عاد العم محمد ليقول لى: "الملح الإنجليزى كان قويا، ويتمنى لو أن لديه المزيد من ذلك الملح.

الرماية فى بلد وعر كهذا أمر طيب جداً. كان عبد الله السروان يمتدح نفسه أيضا فى الرمايه؛ - لكنه قال لنا: الفرق كبير جداً بين الرماية، وإطلاق النار على شخص من الأحياء!' فى مرة من المرات، وأثناء القيام بحملة على البدو، سألته شخصية من شخصيات المدينة المنورة،' هل تستطيع أن تجعل الرصاصة تنفذ أو تدخل فى جسم ذلك الرجل الواقف هناك؟' "(قال لنا): فتحت نار بندقيتى، ولكنى أقسم بالله! أننى أخطأت ذلك الرجل؛ والسبب فى ذلك أن قلب الإنسان ينكمش ويتراجع عندما يصوب نيران بندقيته إلى إنسان آخر. - حتى وإن كان ذلك الإنسان عدوا؟ - ولكن هيا بنا إلى سطح المنزل، ونقوم كلنا بمحاولة الرماية." وضعوا صفحة من الورق الأبيض لتكون هدفا لهم على بعد ١٢٠ ياردة، وعلى ارتفاع ستين قدما عند مقدمة الحصن. وضع عبد الله السروان ركيزة من الغاب؛ وحاول موازنة بندقيته الفتيلية الطويلة فوق تلك الركيزة، وبدقة شديدة، ثم فتح نيران البندقية؛ ولكن طلقاته وصلت إلى نقطة بعيدة عن الهدف، ولم يسقط داخل الهدف شيء من تلك الطلقات! - هذه هى الطريقة التى يمكن بها الكشف عن أولئك المتباهين، الذين يعربون عن رغباتهم وأمانيهم، كما لو كانوا مؤدين بالفعل، ولا يلقون للطبيعة بالا.

كان العم محمد يعانى من وخزات ضميرية قديمة؛ وسألنى (معتبرا إياى رجلا متفقها فى علم اللاهوت)، 'إن كنت قد استخلصت أن الله قد غفر له هنات شبابه؟' ومع ذلك كانت للعم محمد، فى بعض الأمور التى لم تكن واضحة بالنسبة له، أحكام دينية صارمة. سألنى أثناء حديثنا سويا، وهل بوسعى مسخ المعادن وتحويلها إلى معادن أخرى؟' وأردف قائلا: 'لقد شاهدت ذلك ورأيته؛ والأمر لا يعدو أن يكون مجرد إضافة مسحوق من نوع معين. كيف، يا شيخ خليل، وأنت رحّال من بلاد بعيدة وليس معك

شيء من هذا المسحوق؟" أبلغني أيضا،" عندما كنت أقيم في قرية الحيات [التي كان يعمل فيها حدّاداً للبنادق وحدّادًا للسيوف أيضا مع الأعراب] طرق واحد من الهنود باب داره. [ربما كان واحداً من الحجاج الهنود] ؛ - هناك بعض الهنود المسلمين، الذين يبيعون العقاقير، ويركزون عيونهم وانتباههم على أرض محمد الصحراوية. [قال لنا الهندي إنه يبحث عن بعض الأعشاب البسيطة التي لا تنمو إلا في هذه الديار الصحراوية. وبعد أن استراح ذلك الرجل قليلا في منزلي قال لي: 'يا محمد!' وقلت له: 'ما هذا؟' وقال: حتى الآن، وأنت تتحمل كل اتهاماتنا، والآن سوف أطلعك على شيء طيب؛ هل لديك هنا أي وعاء من النحاس الأحمر؟' أحضرت له وعاء، ثم طلب مني مقص جز صوف الأغنام. 'قال: الآن، هل هناك أحد غيرنا نحن الاثنين في هذا المنزل؟ اذهب وأغلق الباب جيداً.' فرد النحاس الأحمر على شكل لوح وكنت أنا الذي أنفخ له النار: وعندما بدأ المعدن يلين وينصهر صب عليه الدواء الذي كان معه، - كان ذلك الدواء يشبه قليلا من التراب كانت إلى جواره القوالب المعدنية وبدأ يصب فيها المعدن المنصهر؛ وعندئذ نتجت عن ذلك تلك النقود الفضية الهندية، التي يطلقون عليها اسم الروبية rupi . قال الهندي، 'سوف نقتسم هذه النقود فيما بيننا.' - "لكن قل لي: هل كانت تلك النقود من الفضة بحق وحقيقة؟" ، " كان رنينها جيداً، وكانت تشبه قطع الفضة إلى حد أنها كان يمكن تداولها؛ أنا لا أقول إنها كانت فضة خالصة."، "ماذا فعلت؟ لقد كنتم أنتما الاثنان مزيفان من مزوري النقود!" - " يا خليل، لقد فعل لي الرجل ما يرضيني وفعلت له أنا أيضا ما يرضيه: ولكني لا أكتمك القول: لو كانت الدولة هناك، لأصبحنا نحن الاثنين في خطر إنزال العقاب بنا."

كان مقتل - أخيهما الأصغر، الذي قتله اللصوص عندما أتى مع جماعة من المدينة لزيارة أخوته في خيبر، ما يزال يشكل ذكرى أليمة في نفس محمد النجومي؛ - ستظل تلك الذكرى تؤرقه إلى أن تسنح له الظروف بالثأر لأخيه وبيديه هو شخصيا! كان غزو من المنقورة Mongora ، أو إن شئت فقل: من أعراب البلي يصل عدد أفراده إلى خمسة أضعاف الجماعة المسافرة، قد قام بالهجوم على تلك الجماعة المسافرة أثناء سيرها في الطريق: وقام ذلك النجومي الصغير، الذي كان في ريعان شبابه، بلعب دور

الأسد بين أفراد الجماعة، إلى أن سقط على إثر إصابته بطلقة من أحد المسدسات. المعروف أن رجال المنقورة، أو إن شئت فقل أعراب البلى لا يأتون إلى خيبر؛ وبناء عليه، راح محمد النجومى يرسم خطة فى داخله، تقوم على قتل أى فرد من أفراد تلك المنقورة فى أى مكان يلتقيه فيه وبعد ذلك بعام عثر محمد النجومى على واحد من أولئك المنقورة ، واقتاده ، عن طريق الاحتيال، إلى مكان مهجور؛ وقال له بعد ذلك بوقت قصير: " أيها الملعون! أنا سوف أقتلك بهذا السيف." – "إخص! قال البدوى، اسمح لى بالكلام يا سيدى، لماذا تقتلنى؟ هل تسببت لك أنا فى أى أذى؟" – " ولكنك ستموت اليوم ثأرا لشقيقى، الذى قتله البعض منكم فى غزوة من الغزوات، وهو فى الطريق إلى خيبر." – " الله شاهدى! أنى ليس لى يد فيما حدث ، لأنى لم أكن من بين أفراد ذلك الغزو." – "ومع ذلك سأهدر دمك ثأرا لدم أخى، طالما أنت واحد منهم." – "لا، إسمعنى، يا محمد يا نجومى! وسوف أقول لك اسم الرجل الذى قتل أخاك ، – وأنا أقسم لك بخالقنا! بأن الرجل الذى فعل ذلك معروف لى تماما؛ وهو تحت إمرتى ورهن إشارتى. أنقذ حياتى. وإن أحيانا الله، سوف، أجعل المذنب يدفع الثمن، وسوف أجعله يدفع مدَّة (ديَّة) مقدارها ٨٠٠ ريال." وهنا أحس محمد النجومى، بعد أن هدأ، بأنه ليس من العدل أن يقتل إنسانا لم يسئ إليه. وقال بعد ذلك : لقد عفوت عنه، على أمل أن يرسل له المدَّة (الدية) سالفة الذكر. وتعاهدا على ذلك وتركه محمد النجومى يمضى لحال سبيله.

"ذلك البلوِّى اللعين! (أقسم) لم أره قط بعدُ ذلك، أما الآن، – ها! أيا كان من سألقاه منهم، فسوف أقتله." حاولت إثنائه عن عزمه – " ولكن هناك نارا مستعرة فى قلبى، ولا يمكن أن تخمد تلك النار إلا بعد أن أثأر لوفاة شقيقى." – "أليس من الأفضل أن تمسك بواحد من أفراد تلك القبيلة، وتقيده عندك لحين دفع المدَّة (الديَّة)؟" ولكن العم محمد لم يستمع إلى ما قلت؛ العرف فى (جنوب) الجزيرة العربية لا يعترف باحتجاز أحد مقابل فدية: والعرف عندهم أن يقتلوا الأسير على الفور، أو يعطونه قربة ماء ويتركوه يذهب لحال سبيله، وعليه لعنة الله." سيقولون له: روح Ruh بمعنى ارحل عنا أيها العدو! ومت إذا كان فى ذلك إرضاء لله فى الصحراء." وهم يعتقدون أن الرجل الحر

لا يمكن أن يكون متاعا شخصيا ولا يمكن أن يجعلوا منه غنيمة أيضا. والنساء لا يؤسرن في المعارك الحربية التي تدور في الجزيرة العربية، بالرغم من أنه في كثير من الأحيان، قد يحصل رجل مسكين الحال وشجاع على زوجة جميلة بهذه الطريقة، دون أن يتكلف مصاريف الزواج.

أجاب محمد:" ولكني ثرى الآن – الحمد الله على ذلك، ولست بحاجة إلى النقود؟ كل ما في الأمر أني أود أن أطفئ نار هذا القلب التي تشتعل في داخلي!" – " لماذا لا تعفو عنه عن طيب خاطر، حتى يعفو الله عنك ويكفر لك عن سيئاتك." – " أأنت الذي يقول ذلك! – يا شيخ خليل لقد فعلت شيئا في شبابي ، ومازال ضميري يؤنبني عليه؛ ولكنك يا من تبدو رجلا من أصحاب العلم (الديني) تقول لي: ما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب في هذا الثأر. – لقد قام الباشي بازوك [من المدينة المنورة] بحملة على قبيلة عتيبة ، Ateyba ، وكنت أنا واحداً من أولئك الذين اشتركوا في تلك الحملة. استولينا في بداية الأمر على كثير من الغنائم : وبعد ذلك، تجمع البدو حولنا من جميع الأجناب [لديهم عدد كبير من الخيالة] ، وبدءوا الضغط علينا، وهنا تخلت قواتنا [نظرالأن الجنود كانوا يركبون حميرا سورية بطيئة] عن القتال وانسحبت من المعركة. تقدم الأعراب وراحوا يضربوننا في ظهورنا وسقط البعض منا قتلى؛ وكان هناك واحد من الرماة يشكل مصدر قلق كبير لنا. كان ذلك الرامي يركب فرسا، رديفة، ويحمله صديقه أو زميله ويروح يجري به ناحية الجنب في اتجاه المقدمة: ثم نزل ذلك القناص بالقرب من دغل من الأدغال، وراح ينتظر الوقت المناسب لفتح نيران بندقيته. وبعد أن فتح النار، جرى الخيال الذي كان يقف بعيدا عنه لينقله إلى مكان آخر: جريا إلى مكان بعيد، وعمّر القناص بندقيته من جديد، كل طلقة كان يطلقها ذلك القناص كانت تصيب خيالاً من الخيالة، بل إنه قتل فرسي: وهنا أمر الأغا بحملي على ظهر حصان العبد الذي يقوم على خدمة ذلك الأغا.' قال : أنت أيها الشاب الصغير، ألا تستطيع الرماية، أجرى مع عبدي وخبئ نفسك؛ وعندما تجد الوقت مناسباً، افتح النار على ذلك العتيبي، وإلا فإنه سوف يقتلنا جميعا" – 'الله، يا أيها النقيب، أنا لا يمكن أن أقاتل ماشيا، فقد تتخطاني القوات وتتجاوزني مخلفة إياي وراءها؛ – 'لن يحث ذلك، نفذ فقط ذلك الذي أمرتك به.'

"قال محمد النجومي، مضينا قدمًا مسرعين: وعندما كان أولئك البدو يمرون بحصان من الخيول: كنت أنتقل إلى دغل من الأدغال، وأنزل واستتر به وأعمرً بندقيتي من جديد. مر ذلك القناص وراح يبحث لنفسه عن ساتر مثلما كان يفعل من قبل؛ ونزل من فوق حصانه، وكنت أنا جاهزا، في تلك اللحظة، لفتح النار. وهنا جرى رفيقه الذي كان يحمله لنقله بعد إصابته ، وحمله بين ذراعيه فوق سرج الحصان، فترة قصيرة من الزمن، ثم ألقى به على الأرض ثانية، – فقد فارق الحياة! وتوقف العرب عن مطاردتنا." سألته، 'ما السبب الذي جعله يلتحق بالجندية، إن كان يتشكك في قتل عدو من الأعداء في الميدان؟، – "آه! كان ذلك من أجل الطمع toma : فقد كنت حديث السن وجاهل."

كان العم محمد يحس أيضا بتأنيب الضمير لاغتيال رجل آخر؛ ولكنه كان يتحدث عن تلك الواقعة بلا قلق أو انشغال. في إغارة جديدة طارد محمد النجومي واحدًا من البدو، صبيا بدويا كان يجري مسرعا ويقاتل سيرا على الأقدام؛ جرى ذلك الصبي البدوي ناحية محمد النجومي، كي يأخذ منه بندقيته، – التي يصل ثمنها إلى حوالي اثني عشر ريالاً ؛ وعندما وجد الصبي البدوي ، أن خيالا من خيالة الدولة قد أدركه، فتح نيران بندقيته ناحية الخلف، واخترقت الرصاصة سمَّانة رجل محمد النجومي الذي رُد على الملعون، على حد قوله ، ترانج trang ! – بطلقة من مسدس: وسقط ذلك البدوي الشاب مضرجاً في دمائه على الأرض، وهو يرفس بقدميه، ويحفر في الرمل بين سكرات الموت. بردت رجل محمد النجومي، وعندها أدرك أنه أصيب في رجله: لم يستطع النزول من فوق حصانه، ولكنه نادى صديقا له وطلب منه أن يأخذ بندقية البدوي. قام والد محمد النجومي [الذي كان يشارك في تلك الحملة] بشق حذاء الخيالة، الذي امتلأ بالدم ثم ربط الجرح: ووضع محمد النجومي على جمل من إبل الإمداد والتعينيات وأعاده إلى المدينة (المنور)؛ والتأم جرح محمد النجومي خلال أربعين يوما.

أطلعني محمد النجومي أيضا، على عظمة في رسغه الأيسر ضاعت بسبب طلق ناري؛ حدث ذلك له في فترة لاحقة. – كان العم محمد قادما ضمن قافلة من المدينة (المنورة)،

وكانت تلك القافلة تضم عشرة من الإبل كانت محملة بالقماش وتقصد قرية خيبر. وأثناء الرحلة، طلع عليهم غزو قوى من قبيلة حرب: وهنا بدأ أفراد القافلة يجرون ويسرعون من خطو الإبل، وراح الأفراد أنفسهم يركضون بأقصى ما وسعهم الجهد، وهم يفتحون نيران بنادقهم على العدو، من خلفهم. جروا أميالاً كثيرة، على هذا النحو، فى ضوء الشمس الحارق، إلى أن بدأت قواهم تخور، وأوشك بارودهم على النفاد. كان البدو قد استولوا على القسم الأكبر من إبل التجار المحملة بالأقمشة. وكان محمد النجومى قد تخلى عن جمله وجمل صديق له، عندما أطاحت رصاصة بجزء من الرسغ فى ساعد ذراعه الأيسر." قال: رأيت ذلك الذى فتح ذلك الطلق النارى! وفتحت نار بندقيتى على ذلك الملعون، واخترق الطلق الذى فتحته عليه يده وكسرها تكسيرا." - وهنا نادى الأعراب على النجومى (عندما علموا أنه من أهليهم)، "ماذا! محمد ولد أختنا! عد إلينا ولا تخف شيئا، وخذ جملك من بين هذه الإبل." رد عليهم محمد النجومى، " لقد تسلمت جملى بالفعل،" وقالوا له: "امض فى أمن وسلام." - سألته " كيف، وهو قناص بمعنى الكلمة، لم يستطع قتل المطاردين كلهم، خلال ساعة من الزمن." - "لكن، اعلم يا خليل، أننا طوال ذلك الجرى وذلك القتال كنا نفتح النار دون النظر إلى أى شىء."

هذه هى جماعة أخرى من جماعات السوق التى تنتمى إلى بدو الحطيم، كانت تحمل سمنا وجبنا، أثناء مرورها مؤخرا على قرية خيبر، وطلع عليها الغزو واستولى على ما معها عندما كانت على مقربة من المدينة (المنورة)! وعلى حد قول محمد النجومى، " والله، نحن لا نعد الرجل رجلا، فى هذه البلاد، إلا إذا أصابه جرح من الجروح!" لقد تجولت مدة تزيد على العامين، فى مضارب البدو، ولم يحدث لى مكروه: وقال بعض رفاقى: "يبدو، والله، أن الحظ الحسن كان يساند خليلا طوال رحلته."

الباشى بازوك خدمة عسكرية شاقة، يستطيع من خلالها الرفاق الأجواد الإثراء خلال فترة زمنية وجيزة؛ والسبب فى ذلك أن السفن، والنقود، والسلاح، والعتاد، كل شىء يعد ملكا لأفراد الباشى بازوك، وبخاصة ذلك الذى يضعون عليه أيديهم أول مرة

فى خيام البدو الرحل، يضاف إلى ذلك أن أفراد الباشى بازوك يحصلون أيضا على قسم من غنائم (الحكومة) وبخاصة من ماشية البدو. كان هؤلاء الأفراد، فى تلك الأيام، يشكلون جماعة متهورة من الرجال، تعيش فى المدينة (المنورة)؛ كان أفراد تلك الجماعة يلبسون أغطية رءوسهم البيضاء اللون ويمشون مثل الغنادير، أوالشُبوب' Shubub ؛ والشُبوب' بلغة القوم تعنى 'الرجال فارعى الطول،' الذين كانوا يمثلون سيف الدولة (الإمبراطورية العثمانية): وقال العم محمد: كل واحد منهم تعرفه باسم الباش بازوك، وهو سيد نفسه.' قلة قليلة من أفراد ذلك الباش بازوك، هى التى كانت تعرف لها أبا أو أما غير قائدهم؛ لم يكن أفراد الباش بازوك، يعترفون بأية سلطة أخرى غير سلطة قائدهم. أخبرنى محمد النجومى، على سبيل المثال، عن تصرفاتهم وسلوكياتهم السيئة، إنهم عندما كانوا يقومون بغارة، فى صباح يوم من الأيام، أثناء فصل الحر، وكان رفاقه [مع الحضر القساة الذين لا يرحمون] قد شربوا، بل وأتوا على البقية الباقية من الماء فى قرابهم، ولذلك عجلوا بالوصول إلى وريد من الوردان. كان الوقت ظهرا عندما وصلوا إلى بئر الماء ونزلوا عنده، واتجه أولهم إلى البئر ومعه حبله ودلوه المصنوع من الجلد، كى يجلب شيئا من الماء: ولكن بينما كان ذلك الرفيق يشعر بالعطش الشديد، وراح يرفع الدلو الثمين الى شفتيه، "صاح جندى آخر، يا ملعون! أحشائى من الداخل تشبه جهنم، وها أنت تشرب قبل أن أشرب أنا؟" - وفتح نار مسدسه على صدر ذلك الرجل، وخطف الدلو من ذلك الرجل الذى كان يحتضر: ولكنه عندما رفع الدلو إلى فمه، حالت طلقة أطلقها جندى آخر، بينه وبين الماء، واستطاع ذلك الرجل الاستيلاء على ذلك الإرث الثمين؛ ولكن هذا الشخص الثالث مات بالطريقة نفسها. وخلال موجة القلق الشيطانى سقط من بين أفراد الباشى بازوك سبعة أفراد، الواحد بعد الآخر، وكلهم كانوا يتصارعون بلا عقل أو منطق، كما لو كانوا حيوانات، على من يشرب أولا من ذلك الماء المميت. وهنا أبعد القائد الرجال كلهم عن البئر، وجعلهم يقفون على شكل صف؛ وراح هو يجلب الماء بنفسه وينادى عليهم الواحد بعد الآخر ليقدم لهم الماء الذى يشربونه. وعندما عادت هذه الجماعة الى المدينة (المنورة) لم يتكلم أحد منهم عن تلك المجزرة الجهنمية. وما سبب ذلك؟ - " أليس هؤلاء هم الباشى بازوك؟ (قال العم محمد)

عندما يموت أى أحد منهم فإنهم لا يسألون عنه، يضاف إلى ذلك أن غالبية هؤلاء الباشى بازوك كانوا أغرابا على المدينة (المنورة)."

فى كل البلدان العربية - التركية، هناك بعض التوجهات التى لا تدخل فى إطار الاعتدال الذى تتسم به الحياة المدنية؛ والأشخاص الذين من هذا القبيل يقعون على بعضهم البعض، ويحيون حياة تسيب واضطراب. هذه النوعيات فى الأراضى المسيحية تراها تتردد على الخمارات والحانات المرخصة؛ ولكن هذه النوعيات فى العالم الإسلامى يودى بهم سكرهم وعهرهم إلى أن يكونوا خارجين على القانون. المعترون(*)، فى دمشق ، على سبيل المثال، لا يدخلون ضمن الأعداء الشعبيين، والسبب فى ذلك أن المواطنين الأسوياء يندر أن يصابوا بأى أذى نتيجة الأخطاء التى يرتكبها هؤلاء المعترون؛ وعابرو السبيل، خلف البوابات أثناء الليل هم وحدهم الذين يتعين عليهم المرور من بين أسوار البساتين المبنية بالطين، وهذا بحد ذاته يشكل خطرا عليهم. وأفضل الأشياء هنا فى المدينة هى الدِّيكة، وأرذلها هى السياط - فى المواطن التى يضعف فيها القانون - التى تلهب ظهور الخطائين. والمعترين، فى دمشق، يُؤجِّرون أنفسهم (وأحيانا يفعلون ما يفعلونه مجاملة لأصدقائهم) فى المشاجرات نيابة عن الآخرين كما يؤجرون أنفسهم للثأر لغيرهم .

وعندما يواجه المعترون muatterin معترين آخرين ، فإنهم ينظرون إليهم شذرا ويكلمونهم كلاما جارحًا ، وينشب العراك بينهم مرات كثيرة أثناء النهار. ومع دخول حرارة الصيف، وعندما يبدأ نضج المشمش [فى غوطة دمشق]، يخرج هؤلاء الخارجون على القانون، أثناء الليل على شكل عصابات، ليدخلوا البساتين: وهم يقومون بتكسير الجدران المبنية من الطين، ويروحون يقطفون تلك الثمرة اللذيذة كى يتعشون بها. هؤلاء المعترون يُسَرُّون عن أنفسهم، فى الأماكن التى من هذا القبيل، بصحبة النساء المهجورات، ويروحون يشربون الكحول الحارق (الذى يجرى تقطيره من ثمار الكروم فى

(*) المعترون : طائفة من الطوائف التى كانت معروفة فى بلاد الشام بخروجها على القانون وكانت تشكل ما يمكن تسميته بعصابات الخطر . (المراجع)

بيوت كل من المسيحيين واليهود). هؤلاء المعترون بوهيميون فى حياواتهم، أما العرب ففيهم رقة إنسانية بالرغم من تفاهتهم؛ وإذا ماجاءهم غريب، وهم يأكلون أو يشربون، فإنهم يطلبون منه الجلوس ويتخوفون من عدم مشاركته لهم فى الطعام - وإذا ما استرق معتر السمع على معتر آخر، فإنهما يتبادلان السب واللعن فيما بينهما: والشائع أن المعترين، فى مثل هذا الحال، يمتنعون عن شرب ذلك الشراب المحرم، ويبدءون فى التحامل على بعضهم البعض - والعراك الذى يدور بين المعترين يستهدف الحصول على حريم الخصم.

تدخل القرابة والكفالة ضمن كرم العرب وذلك فى بلدانهم المضطربة غير المستقرة أو غير الآمنة. هذا هو برُّ وتقوى الحياة العربية، هذه هى قدسية وحرمة دين الجزيرة العربية، التى لا يمكن لنا التطلع فيها إلى غير ذلك. - حدث ذات يوم، أن كنت عائدا، عندما كنت فى سوريا، من رحلة من الرحلات، سألت أحد القرويين أن يدلنى على الطريق. كان الوقت ظهرا؛ كان ذلك الشاب الذى مررت عليه يأكل خبزا وجبنا، توقف الشاب قليلا وقطع قطعة من الخبزة التى كانت فى يده، وقدم تلك القطعة بابتسامة مريحة للغريب: وعندما هززت رأسى، قطع قطعة من الجبن ووضعها فى فمى فى صمت؛ وهنا فقط أدركت أن الوقت قد حان للكلام. - يضاف إلى ذلك، أن الغريب إذا ما دخل كَرْمةً أو بستاناً، اعتبر ضيفا على ذلك البستان أو الكرمة؛ وفى أشهر الصيف، إذا ما تصادف وكان الرجل الطيبُ فى البستان، فإنه يقدم لذلك الضيف بعضا من الفواكه الطازجة كى يسرى عنه ويشرح صدره.

هناك حكاية طريفة يرويها الناس دوما فى جبال انتلبانس (*) Antilibanus ، حيث توجد أعداد كبيرة من الدببة - وأنا أصطاد تلك الدببة فى حلبون Helbon [التى ورد ذكر نبيذها عند حزقيال، فى حركة مرور دمشق] . - من عادة القرويين السوريين النوم خارج منازلهم فى بساتينهم كى يحرسونها فى شهور الصيف الدافئة. سمع أحد

(*) جبال الأنتيليبانوس : سلسلة جبال تقع على الحدود السورية اللبنانية . (المراجع)

هؤلاء القرويين دبا كان يجوس فى الظلام، رفع القروى نفسه بسرعة بين أغصان الشجرة المجاورة له، التى كانت واحدة من أشجار اللوز. جاء ذلك الدب صاحب الأسنان الحادة وتسلق تلك الشجرة التى يجلس فوقها ذلك الرجل الذى كان يرتعش خوفا؛ وبدأ الدب يمد فمه ليلتقط حبات اللوز الخضراء. عندما وجد الأعرابى أن ذلك الدب سيكون ضيفا عليه، صاح الرجل قبل أن يفكر قائلا، 'كل ! Kul ومرحبا بك!.' تراجع إلى الوراء ذلك الدب عندما سمع صوت ذلك الرجل الذى لم يلاحظه؛ انكسر فرع الشجرة بسبب وزن الدب الكبير! – سقط الدب على رأسه، وانكسرت عظمة عنقه. وبعد حوالى ساعة أو ساعتين، قام ذلك الرجل الذى شاهد الدب راقدا مثل الحجر طوال تلك الفترة، فى ضوء النجوم، وتشجع على النزول إلى الأرض: وعندما وجد الدب ميتا، قام بقطع حلقه، وسلخ الجلد الموجود حول أذنيه؛ وقام ببيع ذلك الجلد، فى الصباح، إلى اسكافى لكى يصنع منه نعالا للأحذية [راجع حزقيال السورة رقم ١٦ الآية رقم ١٠]، والقرويون هنا لا يأكلون الدب. – والله، لقد حدث ذلك لهذا الرجل المسكين طبقا لما يقوله المثل الصحيح 'توفير السرعة!' أنا أعرف بعض الأطفال الذين كانوا يعنفون الدب ويؤنبونه ويضربونه بنفس الطريقة التى يضربون بها اللصوص، وكانوا يطردونه من بستان والدهم عن طريق مطاردته وإلقاء الأحجار عليه. ولكن الدب الجريح خطير بمعنى الكلمة، والدببة (بحكم السن) وعندما تفقد أسنانها تتحول إلى أكلة للحوم البشر. يا ويل من لم يلاحظ الأخلاقيات الإنسانية فى ذلك المخلوق البشع، مقطوع الأنفاس، الذى يستعمل أقدامه مثل استعمال الأيدى! حدث أن جاءت دبة ومعها وليدها، إلى ذلك الجليد والثلج السميك، فى فصل الشتاء، أو بالأحرى جاءت إلى قرية بلودان Bludan فى تلك الجبال نفسها. طارد الناس الدبة هى ووليدها باستعمال الكلاب، وأمسكوا بوليدها؛ قالوا لى: إن الأم المتوحشة راحت ترميهم بالحجارة!

استمعت إلى كثير من الحكايات الغريبة فى دمشق عن المعترين muatters فى الأزمان السابقة، بل وحتى فى أيام آبائنا، وعندما كانوا – هم وبعض الرهبان الفرنسسكان يعانون عندما يتجولون هناك – لم يكن أى فرنجى Frenjy ، يستطيع الذهاب إلى هناك دون أن يكون متنكرا. لم يكن النصارى يحصلون على أى تعويض،

بل إن الممثل المقيم للسلطان لم يكن له أى سلطة على هؤلاء المعترين؛ يضاف إلى ذلك أن تصحيح الأخطاء الجسيمة كان يجرى على أيدى المعترين القساة الذين اشتهروابالعنف. - ومع ذلك فإن هذه المدينة الإسلامية التى يصل تعداد سكانها إلى ١٢٠,٠٠٠ نسمة عامرة بأعمال هؤلاء المعترين السلمية (التى لا تعرف الإفراط)! والذى لا شك فيه أننا نتفوق عليهم فى الاضطرابات الانفعالية، كما نتفوق عليهم أيضا فى الفنون وفى التعليم، كما أننا لدينا قوانين أفضل وندين أيضا بالدين المسيحى.

كان محمد النجومى واحداً من أولئك الجهّال المشاكسين فى المدينة (المنورة)، وكان يشارك أيضا فى تجاوزاتهم الإجرامية . حكى لى واحد من أصدقائه، أنه ذات مرة، "كنا تسعة عشر رفيقا خرجنا لنتربص بالمغاربة الملعونين، وقد تعهدت لهم أن تكون أنت الرقم عشرين، نظرا لأنك رجل قوى وتستطيع الرماية بالبندقية." - والحجاج عابرو السبيل، عندما يكونون خارج مكة، يصبحون محرومين من الحماية ومن أية ضمانات! والبدو الرحل الإسماعيليون (المسلمون) لا يتورعون عن السطو على الحجاج القادمين من بلدان بعيدة تلبية ووفاء بما يأمرهم به دينهم (*).

هؤلاء الشباب المجرمون من شباب المدينة (المنورة) خرجوا خلسة من المدينة دون أن يعلم آباؤهم بذلك، واحدا بعد الآخر، ومعهم أسلحتهم، وكان ذلك فى فترة المساء. ومن المكان الذى تجمعوا فيه، أخذوا يتجولون على درب الحج، فى وادى الحمض el-Humth ، على بعد مسافة قصيرة من المدينة (المنورة). ومعروف أن قافلة الحجاج المغاربة تمر خلال الحجاز وهى مسلحة، كما لو كانت تمر خلال أرض معادية؛ والسبب فى ذلك أنهم يرفضون دفع أية إتاوة للبدو. - فى السنوات الأخيرة، قام المغاربة الشجعان بإحراق قريتين من قرى قبيلة حرب، فى المنطقة ما بين الحرمين، نظرا لأن أهل هاتين القريتين سبق لهم السطو على القافلة المغربية.

(*) من الواضح أن المؤلف جانبه الصواب فالدين الإسلامى لا يشجع على السطو . ومن المرجح أن عمليات السطو التى كان يقوم بها البدو إنما ترجع فى جانب منها إلى اعتقادهم أنهم من نسل سيدنا إسماعيل وأنهم بعملياتهم هذه إنما يستردون الحق الذى حرم منه باعتباره الدين الأكبر لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) . (المراجع)

– مر الحجاج الذين كانوا يرتدون البرانس البيضاء: وفى مؤخرة القافلة كان هناك بعض من الحجاج المتأخرين. هاجم الشباب هؤلاء الحجاج المتأخرين وهم يصيحون صيحة الأعراب. وهنا استدار المغاربة، الذين لم يكن عددهم يزيد على ثلاثة رجال، وفتحوا نيران بنادقهم، وجرحوا واحدًا من أولئك الشبان العشرين: ثم اتخذ أولئك الشبان من جانب الجبل ساترا لهم. – وفتح الشبان نيرانهم وسقط واحد من المغاربة الثلاثة؛ وهرب رفاق ذلك المغربى. وطاردهم الشبان الصغار المغامرون، وأمسكوا بواحد منهما؛ ولكن الثانى، تخلى عن جمله واستطاع أن يسبقهم وهو يجرى على قدميه.

استولى أولئك الشبان على جمال المغاربة الثلاثة؛ والتفوا من حول المغربى الأسير، وراحو يصيحون، "هذا هو الملعون الذى أصاب زميلنا؛ وحياة الله سوف يموت." عندئذ حملق المغربى فى وجه محمد النجومى، وأطال النظر إلى وجهه الذى يوحى بالأمانة والطيبة، وألقى بسلاحه حول عنقه وهو يقول:" يا سيدى، أرجوك وأتوسل إليك، أنقذ حياتى، وخلصنى من هؤلاء ." محمد: "نعم ، أيها الرفاق، أنا أقول: إن المغربى المقتول يعد مقابلا كاملا لذلك الرجل الذى أصيب منا،" – ولكنهم لم يوافقوا، فقال لهم: " لقد منحته حمايتى: – مرحبا! يا مغربى، – وأنا سوف أعمل الآن على سلامة هذا الرجل إلى أن يلحق بأهله." – وعندما اقتربوا من القافلة المغربية قال المغربى لمحمد النجومى: "لا تتقدم أكثر من ذلك، خشية أن يصيبك مكروه وأنت بينهم؛ بارك فيك الله ورسوله." – محمد: "كيف! لقد أنقذتك من رفاقى، وأنت ألا تستطيع إنقاذى من رفاقك؟" – "انصرف، يا سيدى الطيب؛ أنا قد أستطيع تخليصك من أصدقائى، ولكنى لن أستطيع تخليصك من رفاق ذلك الرجل الذى قتلتموه."

عندما عاد محمد إلى رفاقه كانوا قد قسموا الغنيمة؛ وأنكروا كلهم عليه نصيبه منها، وهم يتصايحون عليه، "لكنك وقفت ضدنا وفى وجهنا! كما أنك أخللت بحقنا فى الثأر." – "حسن، وزعوا الغنيمة فيما بينكم، وسيكون الله (سبحانه وتعالى) هو الحكم بيننا!" – كان محمد لم يخرج بعد بندقيته الفتيلية من كيسها المصنوع من الجلد.

قال العم محمد: وسرعان ما سقط الحكم على أولئك الرفاق المنحلين: فقد مات سبعة منهم فى الوباء الذى جاء مع عودة الحج (أى بعد ذلك بشهرين) من مكة. أما البقية الباقية منهم فقد ماتوا وهم فى شبابهم، وانتهوا جميعا نهاية سيئة؛ واليوم لم يبق منهم أحد على قيد الحياة. - الأحداث التى من هذا القبيل، والتى تقع وتلتقى مع الخرافات الشعبية، تسمع الناس يرددونها كدليل وبرهان على العدالة السماوية فى كل الأديان.

المغاربة الذين يقطعون الرحلة البرية قادمين من أقصى الغرب يمضون أحد عشر شهرا فى تلك الرحلة التى يقومون بها إلى مكة! وفى سنوات معدودات فقط [كان ذلك عندما نزعت فرنسا سلاح الجزائريين] كانوا يدفعون الإتاوة لأهل الجزيرة العربية الحاقدين الذين يضمرون الكراهية. هذه هى العوف **EL-Auf** (تلك العشيرة الكبيرة من قبيلة حرب) متهمة بانتهاكات قامت بها على الحجاج أثناء انتقالهم بين الحرمين، هذا بالرغم من أن شيوخ العوف يحصلون على صرة سنوية من قوافل الحكومة القادمة من سوريا ومن مصر. والسكان البدو الذين يعيشون فى تلك الصحراء الملتهبة - أكثر بؤسا من الشحاذين. ويقال: إن بطن اللَّهابة **Lahabba** ، من عشيرة عوف يرثون هذا العمل الصارخ عن أهليهم! - أى السطو على قوافل الحج. وهم ليس لديهم إبل، نظرا لأنهم لا يستطيعون إعاشة تلك الحيوانات فى ذلك البلد المخيف: وخيام هؤلاء البدو فى الجبال، التى لا يملكون فيها سوى عدد قليل من الماعز. هؤلاء البدو ينزلون كل عام فى موسم الحج؛ وهم يتطلعون إلى الاستيلاء على ما يمكنهم الاستيلاء عليه فى تلك الأيام القلائل، حتى يمكن أن يعيشوا عليه هم وأسرهم إلى أن يحين موعد الموسم القادم. واللَّهابة عندما يتحدث إليهم أحد حول هذا الموضوع يقولون: "إنهم يخشون الله! وأن هذه الحرفة التى يحترفونها إنما ورثوها عن آبائهم: وكيف لهم بالعيش، بغير هذا الطريق، فى هذه الديرة، التى وضعهم الله فيها؟ - هم وزوجاتهم وأطفالهم! إن ذلك الشيء الذى يأخذونه من الحجاج هو بفعل الضرورة، ووالله إنه لصدقة."

استنكر الضباط الأتراك مرات عدة أعمال هؤلاء اللصوص، لدى الباب العالى [طبقا لكلام الشرق - ولدى حكومة السلطان، التى نطلق عليها اسم الباب، ومن باب

السخرية والاستهزاء الباب العالى] ؛ ولكن الرد يكون واحداً فى كل الأحوال، - بالرغم من أن النتيجة والآثار تكون بالشكل المقدَّم، إلا أن هؤلاء الأشقياء واللصوص جيران لرسول الله (ﷺ) وأن السيف يجب ألا يشهر بين المسلمين على مسامع النبى (ﷺ).

الحكايات التى يدونها الناس هنا عن بدو اللَّهابة كثيرة مثل الحكايات التى يحكونها عن يهود خيبر أيضا. وهذه حكاية من حكايات عبد الله السروان عن أولئك اللهابة: - "يحكى أن لهابيا عجوزا لم يكن الناس يمتدحونه بالحرص أو بالشعوذة أو خفة اليد؛ وأنه كان هناك شاب هو الأفضل بينهم: - "قال: ما فائدة هذا الكافر؟" ورد عليه الرجل أشيب الذقن قائلا: "أنا أختارك أيها الشاب لتكون لى رفيقا، عندما نذهب للسرقة فى موسم الحج القادم؛ وعندها سوف يتضح من منا نحن الاثنين سيكون الأفضل." - أخيرا حان الوقت: وخيم الحج فى المساء أمامهم." (قال العجوز): يا شريكى، خفرهم مازالوا مستيقظين؛ سوف ننتظر إلى منتصف الليل، عندما يدخل هؤلاء الناس فى سباتهم العميق."

- "نزل الرجلان، وطلب كبيرهما من صغيرهما اختيار خيمة من الخيام. وهنا تجرأ أشيب اللحية، ودخل الخيمة، وأخرج منها ما يريد ووضعه على كتفى الصغير، وطلب منه العودة على وجه السرعة. - ثم همس أشيب اللحية، متسائلا، "من منا نحن الاثنين، هو الأفضل؟" - "أستطيع القول إنى مثلك تماما أيها الشريك." قال العجوز هامسا: "حسن، هيا بنا إلى العشاء؛ هذا هو أرز فى أوانى الحجاج؛ مد يدك، وسم بالله!" بعد أن شبعا استدار أشيب اللحية إلى العجوز وقال: "قل لى من منا الآن هو الأفضل." - "أنا لا أشك مطلقا فى كل ذلك، وأنا لا أشك مطلقا فى أنى نافع مثلك تماما، أيها الشريك؛ وهنا أمسك العجوز بالإناء، وألقى به على حجر من الأحجار!، ومع الصوت الناتج عن تكسر الإناء - والحجاج ينامون وهم متشككين فى كل شىء، ويضعون أسلحتهم تحت رءوسهم - استيقظ الحجاج من الخوف والفزع. كان اللص صغير السن وخفيف الحركة وخفيف اليد أيضا؛ ولكن أيدى الحجاج الممتدة فى الظلام

استطاعت الإمساك به، وسحبوه فيما بينهم. - ولكن الثعلب العجوز كان يرقد فى الخارج منبطحا على صدره (تماما مثلما ينام البدو) وكان يتنفس أنفاسا طويلة فى ضوء القمر! 'قالوا عندما شاهدوه، إنه رجل مسن مسكين، - واحد من بؤساء هذا البلد، الذين يجيئون للشحاذة من منزل الحج، كى يأكل بعضا من كسر الخبز' أما فيما يتعلق باللص صغير السن، فقد أوسعوه ضربا، وقيدوه بأحزمتهم وربطوه فى عمود الخيمة لحين طلوع النهار. وعندما وجد العجوز أن الحجاج قد ناموا مرة ثانية، تقدم وفك قيد شريكه، وهمس، 'خبّرنى، أيها الشاب، من الأفضل منا نحن الاثنين؟' رد عليه الشاب (وبعد أن أصبحا بعيدين عن المنطقة) 'إى، والله، يا والدى، أنت الرجل الأفضل.'' - انهى عبد الله حديثه بمثل، له مقابل إنجليزى 'قد يسبق الشاب العجوز ولكنه لا يتفوق عليه.'

ضحك العم محمد وقال: "ولكنى أقول لك إن الحجاج ليسوا بهذه السذاجة. كان هناك واحد من المغاربة، وكان يقسو على أولئك الحجاج؛ ووالله، مع أول مجىء له كان يتفوق على البدو من حيث الفطنة والذكاء. ذات ليلة، وبينما كان رفاقه نائمين، أحس بلفحة من الهواء؛ وعلى إثرها ارتفع جانب الخيمة من ناحيته. فتح الرجل عينيه، ورأى رجلا يحمل بعضا من أمتعتهم؛ وهمس اللص إلى لص آخر كان خارج الخيمة ، تعال ! خذ هذه وعد إلى سريعا، وسوف أجهز لك المزيد.' - وأخرج ذلك المغربى سكينة، وسكن بلا حراك وراح يتنفس نفسا طويلا كما لو كان نائما: ولكنه عندما وجد اللص يمر من فوقه وقف خلفه وطعنه طعنة مميتة! قطّع المغربى اللص إربا إربا؛ ووضع أطرافه ورأسه فى جوال، ووضع فوقها عرّاقة قديمة. وعندما عاد اللص الآخر تكلم المغربى همسا،' انتبه، يا شريكى، لأن هذا الجوال ثقيل.' تقدم البدوى إلى الإمام، ليضع حمله فى مكان أمين؛ وعندما طلع النهار لم يتجارأ على العودة. - قال لنفسه: 'ولكنى أعجب لذلك الذى وضعه شريكى فى هذا الجوال الأخير؛ وعندما فك الحبال، وجد تلك الأجزاء من رفيقه غارقة وملطخة بالدم داخل الجوال!"

فى سيل الحياة الإنسانية الخرافية الذى يبدأ فى الحجاز كل عام، هناك بعض المسلمين غير الكاملين؛ من ذلك مثلا أن بعض التركمان الذين يفدون من الأراضى

المرتفعة، ليسوا مختتنين! كان واحد من أولئك التركمان المساكين يخدم والد العم محمد النجومى فى المدينة المنورة. زوجة هذا الرجل التركمانى، التى أنجبت له طفلين فى المدينة المقدسة (المنورة) تأكدت من مسألة عدم الختان تلك، عندما كان يبدل ملابسه فى يوم من الأيام. صاحت المرأة :"يا للهول، ويا للعار!" وأسرعت لتخبر سيده، النجومى العجوز الذى أرسل فى طلب خادمه المسىء، وطلب من أحد الناس الذهاب لإحضار الحلاق و"(يصيح فى الجندى الغاضب) تعال Taal يا ya ملعون melaun ،أه ! ما هذا الذى أسمعه عنك؟" وطلب النجومى الأب من ذلك التركمانى أن يقوم بختان نفسه تنفيذا لأمر الله (سبحانه وتعالى). وعندما تبسمت لتلك الحكاية، قال محمد النجومى:" لو كنت حاضرا لما ضحكت مثلما تفعل الآن ! نظرا لأن والدى كان رجلا مرحا بحق وحقيقة"

كان مفروضا، أن يصل دخيل قبل الآن، قادما من المدينة المنورة . ونظرا لعدم مجيئه حتى تلك الساعة، فقد ظن كل من عبد الله السروان والعم محمد النجومى أن ذلك ربما يكون فألا سيئا فيما يتعلق بى، أنا شخصيا؛ وهنا تذكرت ذلك الكلام المتشدد الذى قاله أمير الحج التركى فى قرية الحجر. هذا يعنى أن حياتى كانت فى قبضة ذلك الرجل، وفى بلاد يصنبح مصير الرجل الأوروبى فيها بعيدا جداً عن متناول أصدقائه. أبلغنى العم محمد أن قضيتى سوف ينظرها الباشا فى وجود المجلس، الذى ينعقد مرتين كل أسبوع؛ وأن كبار السن هم والمواطنين المهمين سيكونون هم القضاة فى هذا الموضوع.

سمعت أيضا حكاية غريبة من كل من محمد النجومى وأمان Aman ، ومفاد هذه الحكاية أن مسيحيا حضر إلى المدينة المنورة فى العام الماضى! وعندما سأله الناس، "من أنت، يا سيدى؟" رد عليهم، "أنا نصرانى." – "وماذا تصنع هنا فى المدينة المنورة؟ أليست هذه مدينة الرسول؟" – " كيف ! تقول أنت أن اسمها المدينة وحسب؟ – أود الذهاب إلى خيبر، وأين خيبر أيها الرجل؟ اشهد ushhud ، وقل الله Ullah واحد GOD THE ONLY وأن محمدا MOHAMMAD رسول الله HIS MESSENGER ، وإلا فإن الناس هنا سيقتلونك." – " أنا لا أقول مثلما تقولون لأنى نصرانى." صاح البعض،

اتركوا الرجل لحال سبيله، وأحضروه بلا عنف أمام الباشا؛ وكل شيء سوف يسوى حسب القانون، وليس بطريقة عشوائية، بالرغم من أن هذا النصراني يستحق الموت."

أدخلوا تابع المسيح السجن، في مدينة محمد (ﷺ)؛ ولكن "شيخ الدين" ذهب إلى الباشا وطلب العفو عن حياة ذلك الغريب المسيحي، وطلب من الحاكم أن يتذكر ما حدث في جدة وفي دمشق! "قال: إذا ما حدث مكروه لهذا الرجل، فقد يصل فرمان من اسطمبول يطلب منا جميعا المثول لاستجوابنا، وقد تقطع رءوسنا." وافق الباشا على ذلك الرأي، وأمر بتجهيز حرس مرافق من الجنود لتوصيل النصراني إلى ميناء ينبع؛ الذي يبعد مسير ست رحلات عن المدينة المنورة.

أُحْضر المسيحي إلى المدينة المنورة مرة ثانية، وخرج من بوابة المدينة ومعه الحرس. ولكنهم عندما وصلوا إلى مكان مهجور، قال واحد من أولئك العسكر: "أشهد USHHUD يا نصراني، ياكلب لن تجرؤ على الامتناع هنا؛ قلها أيها الملعون، وإلا والله " وراح العسكري يصوب بندقيته إلى النصراني . رد عليه النصراني قائلا: " لقد سمعتم تعليمات الباشا وأوامره أيها الأصدقاء، والتي تقضي بتوصيلي في أمان إلى ميناء ينبع." – " مت إذن أيها الكافر " – من هو الذي ينبغي على طاعته الآن؟ اعلم أنني عندما أقتلك، فأنا أنفذ أوامر الله: اشهد USHHUD وعندها لن أقتلك." – "لكم دينكم ولي دين، أنت تطيع الله، وأنا أطيع الله؛ عش بدينك وأتركني أعيش بديني أنا أيضا." – "وماذا يعني ذلك؟ يهودي أنت لا دين لك " "(قال المسيحي): أيها الأصدقاء، هيا بنا نمشي ؛ وتكلموا مع ذلك الرجل ليتوقف عن كلامه المؤلم." ولكن الجندي: "وهو على بعد أقل من خطوة! أنطق أيها الكلب بشهادة المسلمين ! وإلا سيكون هذا هو محل موتك أيها النصراني الكافر؛ "وهنا وجه الجندي بندقيته إلى صدر المسيحي." (صاح) اشهد ushhud ، يا يهودي ! كلب! كافر! شيطان!" – وعندما لم يرد عليه الغريب فتح نار بندقيته عليه وأرداه قتيلا [+ ١٨٧٧] . – وعندما علم الباشا بذلك النبأ، أدخل الجندي السجن؛ وفي السجن، على حد قول كل من أمان Aman والعم محمد، ينتظر ذلك الجندي الرد الذي سيصل عن الخطاب الذي أرسله الباشا إلى اسطنبول؛ والذي

سيكشف إن كان يرضى الباشا عن إطلاق سراح ذلك الجندى أو الحكم بإعدامه. "قالوا: وهذا هو الذى يشغل بال عبد الله السروان، ويجعله مرتجفا وخائفا: وهم لن يجرؤا على الإقدام على أى شيء ضدك مخافة مساءلتهم جميعا عن حياتك."

- لكن، من كان ذلك الشهيد المسيحى ؟ ذلك الطفل من أطفال النور، إذا ما قورن بغلامهم كان حنطى البشرة، "قالوا: رجل أسود ولكنه لم يكن عبداً abd ، زنجيًا:" - ونحن نعرف أن البحارة الصقليين هم والصيادين الذين يعملون فى الشعاب المرجانية يحسبهم الناس من السود على الساحل المغربى. [انظر الجزء الأول ص٦٨١] .

حكى لى محمد أنه التقى ذات مرة رجلا أجنبيا فى المدينة المنورة، وعندما سأله أي رجل أنت؟' أجابه 'أنا نصراني.' - 'لا تقل هذا الكلام بعد اليوم وانتبه إلى نفسك؛ أنا لن أخونك أو أشي بك، والله معك.' "ما هى علاقتى أنا بنصرانيته ؟ أليس ذلك بين العبد وربه؟" وفى مرة أخرى رأى محمد رجلا [يقول عن نفسه ؟ إنه] راهب rahab مسيحى، يتجول هنا وهناك فى مدينة الرسول وهو يرتدى ثوب الراهب. قال لهم الراهب إنه جاء من القدس ليصلى عند قبر النبى محمد!" أردف النجومى، لقد سمعت أن سيدنا محمد(ﷺ)، عندما وجد بعض الرهبان يسكنون الصحراء، وأنهم كانوا يصومون ويصلون بصورة مستمرة، وأنهم كانوا يتغنون باسم الله (سبحانه وتعالى)، أمر وأوصى بألا يسىء أحد إليهم."

كان العم محمد، يتحدث فى كثير من الأحيان، حديثا حرًا مفرحاً مع المتشددين من أهل القرية عن تعامل نبيهم مع الرهبان ومعاملته لهم: كانت إنسانيته تقر بأننا منقسمون بطريقة غير إنسانية، وأنه اكتشف فى ذلك المواضع التى يتباوس فيها الدينان." لكن قل لى، يا شيخ خليل: لو كنت أنا فى بلدك ثم قلت : 'أنا مسلم'، فهل سيجردونى من ملابسى ويجلدونى، وربما يقتلونى؟ ولكن ماذا يمكن أن يحدث، لو غيرت دينى وأصبحت نصرانيا؟" وهنا قال محمد، 'إنه لابد أن يتعلم الإنجليزية أثناء وجود خليل معه، فمن ذا الذى يمكن أن يتنبأ بالمستقبل، فهذه الدنيا متقلبة جداً، وأن تعلم تلك اللغة قد يخدمه فى يوم من الأيام.' قلت له: إن النصارى سيستفيدون كثيرا من

قوته ومن رمايته، ومن حصافة عقله، ومن مرحه، ومن أمانته التى تتسم بالإنسانية والرجولة." ولكن قل لى، يا شيخ خليل: هل سيسمحوا لى بالزواج عندما أجيء إلى بلادكم؟" وتعجب عندما سمع منى أن اللغة العربية غير معروفة (للناس) فى بلادنا البعيدة.

تساءل أحمد بينما كنا نتناول القهوة فى صُفَّته،" هل بينكم أحد من اليهود؟ وهل يتحدثون بالشر عن نبيكم؟" – "لقد سمعت أنهم يقولون: إن المسيح (رد هنا أحمد "عليه السلام") وُلد من الزنا! ومع ذلك فهم لا يكسرون القوانين ونحن نعانى من عيشهم بيننا." – "آه! آه! (حملق أحمد متعجبا، وحرك يديه، كما لو كان يحاول استلال سيفه) خبِّرنى، إنهم لا يقولون ذلك فى العلن! ديننا يأمر بقتل كل من يجدف أو يفترى على الله هذا الافتراء المباشر، وإلا سيغضب الله عليه." كان أحمد رجلا شديد الحساسية ولكنه طيب الطابع أو السريرة، وكان يغضب. كنت عندما أصل إلى صُفَّته أراه يرحب بى دوما، ويتكلم معى كلاما لينا هينا، ويناولنى المخدة وهو يقول: "كوُّع Koowy بمعنى "أتكئ على هذه المخدة واستريح"؛ وكنت عندما أصمت أراه يقول: لى "أهرج" eherrj بمعنى "تحدث معنا يا شيخ خليل". كان أحمد يكشف عن شيء من الطلاقة فى التعليم الدينى والإنسانى: وخبرة وجارات القهوة الحياتية اليومية هى التى تدخل كل يوم فى آذان هؤلاء الأعراب الكبيرة." قال لى: بالرغم من أن النصارى لا يصلون مثلما نصلى نحن، إلا أن دينهم يقوم على عبادة الله. لم يكن هناك نبى واحد فى الدنيا كلها وإنما كانت هناك مجموعة من الأنبياء، – البعض يقولون: إن عدد الأنبياء وصل إلى ثلاثمائة نبى؛ وحسب تعدد الأنبياء فى الزمن القديم تعددت أيضا الطرق الموصلة إلى الله. نحن المسلمون؛ ولكن لعلنا لا نقسوا على أصحاب الأديان الأخرى، أكثر من قسوة الله عليهم، لأنه من بين النصارى، يوجد من هم عادلون فى عقيدتهم ومن هم كاملون فى عقيدتهم أيضا، تلك العقيدة التى علمهم إياها نبى الله عيسى."(عليه السلام)

وفى يوم آخر، وبعدما عثر أحمد على ضالته فى القرآن، سألنى بنغمة من الحقد، "قال: من كان والد عيسى(عليه السلام)؟" فرددت عليه أنت تقول: والد المسيح؟ هذا، على حد

قول الفقهاء، لغز لا تستطيع أية لغة من اللغات، حلَّه: وهذا يعني القول بأنه ليس له والد في فهمنا العام، فيما عدا القول بأنه الله، أي خالق كل المخلوقات، أو ذلك الذي تقولونه أنتم ، عيسى من روح الله." - أشار لي محمد بعينه بألا أقول أكثر مما قلت مخافة أن يحدث شيئا من التهور من جانب أخيه، نظرا لأني على مسمع منهم خرج مني شيء من التجديف. وعندما أجبت على كلام أحمد شقيق محمد النجومي قائلا: [سلِمت] Seelimt بمعنى [أوفق على ماتقول]؛ "(رد أحمد) إي ! ظننت أن خليلا قال [أسلمت] islimt [أصبحت مسلما] وتمنيت على الله أن يكون ذلك هو ما قاله خليل. إي! يا خليل، لماذا توجد فروق بيننا ؟ وبذلك تصبح حياتك في خطر يومي، هنا وفي كل مكان؟ - ولكن عندئذ سوف نرسلك إلى أي مكان تشاء، وأنت في أمن وسلام؛ وسوف نصحبك إلى المدينة المنورة لزيارة قبرالرسول (ﷺ)." - وفي مرة أخرى قال: "إن الرجل الذي يحيا تدين كامل، ويصلي في الحرم المدني، وعندما يصل إلى المكان الذي يحييه المسلمون بوقار على إنه قبر النبي(ﷺ) بقولهم السلام عليك يا رسول الله فإن النبي (ﷺ) يسمع تلك التحية ويرد عليه من قبره (ﷺ) وعليك السلام.

روى لي أمان Aman عن معجزة تقع كل عام في كهف في بدر حنين، حيث يدفن أولئك "الشهداء" الذين سقطوا في أول معركة للنبي (ﷺ) مع مواطني مكة (الملحدين)." ففي يوم محدد، وعندما يقصد الناس تلك الأماكن في موسم الحج، يسمع الناس همهمة كما لو كانت أصوات أولئك الشهداء داخل الكهف. والذين يمكن لهم الدخول إلى ذلك الكهف هم أولئك الذين يحافظون على حياواتهم نقية وخالصة من الجرائم المشينة: ولكن، قالها أمان هامسا: الملوثين، والمذنبين من أمثال عبد الله السروان، صاحب القلب الأسود، الذي يضايقك هنا ! - لا يمكن لهم الدخول إلى ذلك الكهف؛ والسبب في ذلك أن الطريق لا يستقيم أمامهم، كما يتعثرون في منتصفه؛ كما لا يسمعون أيضا أصوات أولئك الشهداء الأخيار." - وراح أمان يأسى ويندم، وهو يتأمل مثل سائر المتدينين المساكين هنا، والذين يتمتعون بضمائر طبيعية يقظة، ذلك الفساد الإجرامي الذي ينتشر حاليا في كل الأرجاء التابعة للسلطان. قالوا وهم يتنهدون، على مسمع ومرأى مني، " ياأسفاه! السلطان لايعلم أنهم يسرقون: ضباطه

وموظفـوه يخونون الأمـانة ، ونظرا لأن ذلك لا يصل إلى علم السلطان، فإن الأمـر يمر بلا تعويض.

كان تأخر وصـول مراسل عبد الله، قادما من المدينة المنورة بمثابة سـحابة كبيرة حبلى بالكثير من القلق لى أنا شـخصيا وسط ظلام خيبر. ذات يوم، تحدثت إلى العم محمد النجومى أثناء قيامنا بعملنا فى بئر الماء،" مالذى ينبغى علىَّ عمله إذا ما وصلتنا اليوم أخبـار سيئة؟ وبالرغم من أنك تضع هـذا السـيف بين يدى، إلا أنى لا أسـتطيع مقـاتلة ثلاثمـائة شـخـص." – " قـال الرجل الطيب، اجلس ودعنا نتـدبر الأمر، يا خليل: أنت الآن قلت كلمــة صــادقــة تمــامــا ، لقـد جـعلت تلك الكلمــة قلبى يئن ويتـوجــع، وأنا لا أسـتطيع الاسـتمرار فى العمل أكثر من هذا؛ حيَّاك hyak بمعنى "هيا بنا نعود إلى المنزل." – بالرغم من أننا لم يمض علينا نصف ساعة فى منطقة البئر. – كان العم محمد صامتا تماما عندما جلسنا سويا فى صُفَّة منزله: ثم "قال: اسمعنى يا خليل ،إذا ماجاءنا خبر مشئوم من البـاشـا ، فسوف أخلصك من عبد الله السروان عن طريق دفع الثمن، ووالله سيكون ذلك كما لو كان رجل يشترى عبداً؛ سـأدفـع فرسـى ثمنا لذلك، فهى تساوى ستين ريالاً، وعبد الله السروان يرغب فى الحصـول عليها. إنه ملعون، يا خليل؛ – وبعـدها سـوف أجـعلك تركب مع بعض البـدو، وهـم من الناس الذين أثق بهم ويثـقـون بى أيضـا ، وأجعلك تمضى لحـال سبيلك." – "أنا لا تعجبنى نظرات عبد الله السروان التى تنطـوى على الغـدر والخيـانــة." – "سـأذهب إليـه اليـوم وأختبره؛ وسوف أعرف مـا يدور بخلده، نظرا لأنه لن يخـفى عنى شـيـئـا. وإذا مـا وجـدت أن الخطر مـحـدقـا، فسـوف أخطفك، وأضـعك وأخفيك فى مكان مستور من الحَرة، بحيث لا يعثر أحد عليك فى ذلك المكان؛ وسوف أترك معك قربة ماء وبعضـا من التمر، لتتمكن من البقاء فى ذلك المكان بضـعـة أيام حفاظا على سلامتك ،إلى أن تصل إلينا الأنباء القـادمـه من المدينة المنورة، وطوال هذه المدة سوف أرسل لك، أو بالأحرى سوف أتردد عليك أنا بنفسى."

مـر اليـوم علَّى ثقـيـلا: نهض الرجل الطيب بعـد العـشـاء، وتناول سـيـفـه وعبـاءته (بشته) وتركنى فى غرفة العشاء، وقال لى: إنه ذاهب "لجس نبض الملعون": غاب الرجل عنى

مدة ساعة. وعاد ذلك الرجل القوى ونظراته الودية توحى بالحسم والحزم: وجلس الرجل أرضا كما لو كان قد انتهى للتو من معركة شرسة، ثم قال:" يا خليل، ليس هناك أى خطر عليك فى الوقت الراهن؛ وقد قال عبد الله اليوم، فى حقك كلاما طيبا، - 'يبدو أن خليلا، لا يخش الله أو يخافه؛ إنه لا يثق بى، وها أنذا قد قلتها بالفعل، - إذا ما كتب لى الباشا بما يفيد قطع رأس خليل فسوف أجعله يركب ناقة من النياق، وأتركه يذهب لحال سبيله؛ وسوف نضع أختامنا على الورق، وسوف أستشهد بأهل خيبر. نستشهد بهم على ماذا؟ أن خليلا خرج من السجن وهرب. - بلِّغ خليل أننى لم أنس الشام أو جدة، وبلِّغه أيضا أننى لا أخشى الباشا أو أخافه، والذى حدث بالأمس لابد من تذكره اليوم والغد، وأعمل ألف حساب وحساب لاسطمبول، حفاظا منى على حياتى."

وصل المراسل أثناء الليل. وسمع العم محمد عن وصوله، وقصد على الفور إلى منزل دخيل ليسأله عن الأخبار .؟ " قال المراسل: ليس هناك سوى خبر واحد، وهو أن الباشا أرسل فى طلب كتب ذلك النصرانى."

فى الصباح استدعانى عبد الله السروان إلى منزله، وطلب من الشيخ صالح أن يقرأ علىَّ رسالة حاكم المدينة، التى كانت قصيرة تماما ،"أرسلوا لنا كتب ذلك الغريب كلها وأرسلوا إلينا أيضا الورقة المكتوبة من ابن الرشيد ! ويجب أن ترسلوا الناقة أيضا." وطلب السروان منى الذهاب مع مضيفه إلى صندوق كانوا يضعون فيه جوالاتى، كى أحضر الكتب والأوراق على ألا أترك منها أى شىء. وقد نفذت ذلك، باستثناء طلبى الاحتفاظ بالورق السائب، طالما أن الباشا لم يطلب إحضاره، - ولكنه لن يطلب ذلك. قلت: "أنا أيضا سوف أكتب رسالة للباشا؛ وها هو جواز سفرى الإنجليزى وسوف أرسله للباشا مع بقية الأغراض." صاح صيحة أدهشتنى وبصوت يوحى بالغضب المسعور قائلا:" لا، لا تفعل ذلك!" وأنى 'إذا ما تكلمت كلمة أخرى فسوف يفرغ مسدسه فى رأسى،' ثم لعننى، ولعن 'الإنجليز، ، وأبو الإنجليزى. - كان ذلك الوغد على وشك أن يضربنى، لولا تخوفه من كل من النجومى ودخيل اللذان كانا حاضرين. "تعجبت قائلا: ها، أهكذا تتلاعب بحياتى!" وهنا انطلقت عاصفة هوجاء من

فم ذلك العبد الأسود: "صاح، هذا النصراني! الذى يعيش إلى اليوم بفضلى، يقاطعنى فى كلامى؛ كان بوسعى أن أنسف مخه بطلقة واحدة، والله، من مسدسى، فى بداية الأمر!"

قال العم محمد عندما وصلنا إلى المنزل: "واقع الأمر أن عبد الله السروان ملعون، وما لم نكن موجودين معك اليوم لما أفلت أنت منه مطلقا اليوم." – وهنا استشعرت مدى وحشية التخلّى عن قنصلية الليفانت ! إلى حد أنى عرّضت حياتى لأشكال قاسية من الموت.

حتى العم محمد كان يستمع إلىّ وهو قلق عندما كنت أقول له: إننا لسنا من رعايا السلطان. – والسلطان الذى يعد خليفة Khalif ، لرسول الله (ﷺ)، هو السيد القانونى الوحيد، من وجهة نظرهم، لهذا العالم كله؛ وأن كل من لا يدينون له بالطاعة فهم من العاصين asyin ، أى من الناس الثائرين والمتمردين. هذا الرجل الطيب (محمد النجومى) كان يأسف، على حد فهمى، لسماع الكلمات التى لها علاقة بالتمرد والعصيان، تجرى على لسان خليل. سألنى إن كنا قد تعلمنا الاحتفاظ فى بلادنا (البعيدة) بجماعات من الجند المدربين، مثل عسكر السلطان؟ رددت عليه، أن فنوننا هى التى سلحت ودربت قوات السلطان وجيشه، ولولانا لأصبحوا عارين ومكشوفين تماما." رد على، هذا طيب جداً، وطالما أن الإنجليز ليسوا من العاصين، فإنهم يتعين عليهم العمل فى خدمة السلطان."

وعندما عددّت عليه بلدان الغرب، سألنى إن كان هناك بعض من المسلمين يعيشون فى تلك البلاد. قلت له: إن طغمة من المغاربة، قامت منذ زمن بعيد بغزو الأندلس شديدة التنميق. كانت الأندلس واحدة من المقاطعات الإسلامية الزاهرة: وكانت النباتات العربية تنمو فى التربة الأوروبية الخرافية إلى أطوال ممتازة؛ وكانت البلابل bulbul الجميلة تعشش فى تلك النباتات، التى تنمو فى أرض الشمس الغاربة وتفرح بذلك النبيذ المناسب . ومع ذلك عجز العرب عن الاستفادة من تلك التربة الذهبية استفادة كاملة، وهنا نزل أبناء اخوتهم الأشداء من الجبال، والذين سبق للأجداد أن

جردوهم من ممتلكاتهم، نزلوا من الجبال وأعادوا احتلال بلادهم. وعندما قلت ذلك، رد العم محمد "والله قويين guwiyin! ، إذن لابد أنهم كانوا شعبا قويا. أنت يا خليل، زرت بلادا كثيرة؛ وتتجول حيثما تشاء، طالما أن هذه رغبتك، ولكن إياك وشبه الجزيرة العربية (جزيرة العرب Tezirat el-Arab) . لقد شاهدت فيها ما يكفيك؛ ويا لها من أرض لا يحكمها قانون! بل إنها خطرة علينا نحن أيضا الذين ولدنا فيها؛ ويا لجهل أهلها وتزمتهم مع كل دين من الأديان الأخرى. أين كنت أنت عندما خلصكم الله من كل هذه المتاعب ؟ حتى أن تصادف لى الذهاب إلى تلك الأصقاع، أمكن لى الالتقاء بك. خبرنى ما هو العنوان الذى يمكن أن أرسل عليه رسائلى إليك، إذا ما خطر ببالى أن أكتب لك فى يوم من الأيام؛ وإذا ما كتبت على الرسالة الشيخ خليل، بلاد الإنجليز، فهل ستجد مثل هذه الرسالة طريقها إليك؟

"هذه هى ورقة، وقلم بسط، وهذا هو الحبر: عبد الله لن يسمح لك بالكتابة إلى الباشا، ولكن أكتب أنت وسوف أرسل أنا الرسالة مع دخيل، الذى لن يرفض لى طلبا، وسوف يمر دخيل علينا فى الغد. انتبه وأنت تكتب للباشا أن تطريه وتمدحه ببعض العبارات الطنانه." – " سوف أكتب بأسلوب بسيط، حسب ما يمليه على ضميرى." – "إذن، فأنت مجنون، ومسألة الضمير هذه ليست جيدة، وهى التى تخيفك وتمنعك من مساعدة نفسك فى وقت الخطر." – خبرنى، هل الباشا شاب صغير متسرع القرارات، أم إنه رجل من قضاة اسطمبول؟" – "إنه رجل أشيب اللحية، معتدل العقل، كما أنه مصلح يعمل مع الضباط، ومن ثم فهم لا يرحبون به. ومع ذلك فأنا أقول لك امدحه، لأننا لا نحصل على أى شىء بغير هذا الطريق؛ ويزداد الحصول على المطلوب كلما زاد الإشفاق والحنان." كتبت باستعمال القلم الرصاص رسالة باللغة الإنجليزية، – لأن محمداً قال لى: إن هناك مترجمين فى المدينة المنورة. ربطت مجيئى إلى هذا المكان بالحج، باعتبارى قادما من سوريا لزيارة مدائن صالح؛ وأننى عشت طوال هذه الفترة مع البدو، إلى هنا؛ وشكوت للباشا الحاكم من الاحتجاز الخاطئ فى خيبر، بالرغم من أنى أحمل جواز سفر من والى سوريا؛ يضاف إلى ذلك أن بعض البدو التابعين للدولة Dowla ، والذين يعرفونى، شهدوا بصحة كل ماقلته. وطلبت السماح لى بمواصلة رحلتى وأن يكون برفقتى أناس مأمونين.

كنت جالسا فى قهوة الجنود، عندما كتب عبد الله السروان رسالته الجديدة للباشا، "الطاعة العمياء لمعاليكم: وأنا أرسل لمعاليكم كتب الغريب وأوراقه. وقد أرسلت الناقة لمعاليكم مع بعض الأعراب المسافرين إلى المدينة المنورة؛ ولكن الناقة هربت منهم وعادت إلى خيبر: والناقة حاليا مريضة، وقد لا أرسلها لكم بسبب مرضها." - : هل كتبت كل ذلك يا شيخ صالح؟ - إن شاء الله، لن يبقى باشا المدينة المنورة فيها أكثر من ذلك؛ لأنهم يقولون :إن باشا جديد قادم إلى المدينة." لم يستطع كل من سمعوا تلك الخرافة أن يمنعوا أنفسهم من الضحك؛ باستثناء السروان الذى كان ينظر إلى ذلك نظرة حزن وغم، نظرا لأن الناقة كانت تعطيه كل يوم سلطانية كبيرة من الحليب، فى زمن القحط هذا فى خيبر. ختم عبد الله السروان الرسائل بخاتمه، ثم ناولها لدخيل، الذى رحل بها قبل دخول وقت الظهيرة. قام العم محمد، أثناء شروع دخيل فى رحلته، بوضع قطعة من النقود (أخذها منى) فى يد دخيل، ثم وضع بعدها رسالتى وجواز سفرى البريطانى فى الكيس الذى يحمله دخيل على ظهره، والذى تظاهر بأنه لم ير ذلك الذى حدث: لم يتوان ذلك القروى عن مساعدة الغريب (والذى يعد ضيفا شعبيا أو عاما) الذى وجده مهموما فى قريته بفعل الاستبداد الإجرامى من جانب عبد الله السروان.

تسطير الخطاب إلى المدينة المنورة أثار القلق فى ذهن عبد الله السروان، إلى حد أنه أصيب بالحمى من جديد: " يصيح، ساعدنى على وجه السرعة أين كتابك يا شيخ صالح! وأنتم أيها البدو الذين يجلسون هنا، أليس لديكم دواء ناجح فى الصحراء لما أعانيه؟" راح الشيخ صالح يبحث فى كتابه القديم، إلى أن عثر لعبد الله السروان على وصفة جديدة. - وفى مرة أخرى شاهدت صالحا وهو يحاول علاج ناقة مصابة بالجرب؛ كان يجلس وأمامه سلطانية فيها ماء، وراح يتمتم على الماء ثم تفل فيه، ثم راح يغمغم ببطئ وتفل مرات عدة؛ وبعد حوالى نصف ساعة من ذلك العمل حملوا الماء لتشربه الناقة الجرباء - وقد أوضحنا أن التفل يعد أمرا مهما فى طبابة هؤلاء الناس.
- ترى، هل هذا من قبيل تفلهم على الجان الحاقد الحسود؟ الآباء يطلبون من أبنائهم التفل على الجان: والأب العربى يقول لطفله الرضيع وهو بين ذراعيه: "اتفل على بابو babu ! اتفل يا حبيبى."

الفصل السابع

أرض الأحباش - تراث المدينة الأدبى

الإمبراطورية الحبشية. أرض الأحباش. العمليات الحربية التى قام بها الأحباش (الوثنيون) والأحباش (المسيحيون). إفرنجى مرتد أو رحال فى مكة وفى المدينة. مشروب السوبيا. امرأة أرملة كريمة فى (الطائف)." النصارى هم أبناء البحر." وادى بيشة. وفاة محرم . اتهام النصرانى. بيع بضائع محرم. على، العدو (اللدود) للنصرانى. القُرا. العوازم. ثقيف . النجومى فى حائل. غزو الرومان لبلاد العرب القديمة. أغسطس يرسل إليوس جالوس، على رأس جيش للاستيلاء على ثروات اليمن السعيد موسم الحج . إنذارات بالخطر . أخبار عن الحرب . ضفائر النخيل . أحجار كيرن المشغولة بأيدى العرب . مبنى قديم فى الحرة . ينبغ . وديان خيبر - حرات المدينة . الطحال الحوردة . المنازل الصيفية من الطين لبدو أولاد على. الخيابرة يمتنعون عن أكل بعض أنواع اللحوم. وفاة عقيلى آخر - 'السحرة ينبشون' قبره. حكايات الجان. رجل يتزوج زوجة من الجن فى المدينة.

لم يغالب النوم جفونى طوال ساعات طويلة من الليل أمضيتها وأنا أتحدث مع رفيقى أمان Aman، ذلك الرجل الحبشى صاحب العقل الساذج الصديق. وعندما سألته عن أرض الجالاً العظيمة "قال: الحبش EL-Habash هى أكبر إمبراطوريات الدنيا؛ فمن من السلاطين يمكن مقارنته بسلطان الحبش!" - "حسن، نحن لم نعثر سوى على ملك صغير، على ذلك الجانب، عندما استولى الإنجليز على المجدلة Magdala ، بلدة ذلك الرجل الفقير." - تذكر أمان، أيام طفولته عندما أحضروه مع قطيع العبيد، أنه مر على بلدة المجدلة تلك. 'قال: ذلك الملك لا يمكن أن يكون أكثر من مجرد حاكم أو باشا، تابع

للسلطان الكبير، الذى تبعد عاصمته مسافة مسير عام كامل، حيث يسكن فى قصر من العاج. وحكام وأمراء مقاطعاته الكثيرة يهبون له جزية إمبراطورية، - وليس لها وقت محدد؛ ولكن جرى العرف على جباية تلك الجزية مرة واحدة كل ثلاثة أو أربع سنوات.'

هذه الأسطورة هى ركن من أركان العقيدة عند الأحباش كلهم، وهى تستوى فى ذلك مع الأسطورة التى يقوم عليها السواد الأعظم من عقائدنا؛ وربما تكون تلك الأسطورة قد نشأت فى ضمير الأحباش غير المنطقى بسبب الجدل الواهى غير الدقيق الذى لا يتخذ المنطق أو العقل أساسا له: - 'كل أرض تخضع للحكام، يتعين أن يكون فيها حاكم من أرض الحبش. - وأرض الحبش هى أكبر بلاد الدنيا؛ ولكن سلطان الأرض الأكبر هو أكبر السلاطين: ومن ثم فإن السلطان يسكن فى سكن فاخر ثرى ويأخذ ثروات العالم (الإفريقى)، والمكان الذى يعيش فيه يكون مصنوعًا من العاج!' أردف أمان قائلا: ' البلاد ليست مستقرة على شكل قرى؛ ولكن منزل كل واحد من البشر عبارة عن مسكن مستدير من الحطب وجذامات القش، وهذا المنزل واسع وكبير وله إطار خارجى جيد؛ والمسكن يقع فى منتصف الأرض التى يختارها صاحبه من بين أراضى التلال المحيطة به. هذا الشيء الذى يصنع من حزم الحطب قد يدوم سنوات عدة؛ [ولكنه يكون معرض دوما لأن يكون طعاما للنار فى أية لحظة من اللحظات] . والناس هنا يزرعون من التربة مايشاءون؛ والحبوب عندهم لا تقاس بالوفرة أوالندرة. والناس هنا لديهم ثروة كبيرة من البقر، إلى حد أن من يمتلك مائتين أو ثلاثمائة من تلك الأبقار يدخل فى عداد الفقراء من الناس. والثيران عند هؤلاء الناس لها أجسام كبيرة، لها قرون كبيرة أيضا: والأحباش يحلبون من تلك الماشية كمية كبيرة من الحليب تكفى الشرب وعمل الزبد؛ والناس هنا أيضا يشربون البيرة التى يصنعونها من القمح الوفير عندهم. وبالرغم من أن الأرض هنا تشبه التلال إلا أن لباسهم الوحيد هنا [وهم فى ذلك يشبهون البلاد المصرية والإثيوبية القديمة] عبارة عن قطعة من القماش يسترون بها عورتهم؛ وهم هنا لا يحتاجون إلا إلى الهواء المعتدل. والصيف الحار لا يضايق الناس هنا على الإطلاق؛ والناس يكونون هنا مفعمين بالنشاط والحيوية فى فصل الشتاء. وبلاد هؤلاء الناس عامرة بالأسود، ولكن رحمة الله خففت من خطر

تلك الحيوانات البرية المفترسة؛ لأن تلك الأسود تمرض بالحمى بين الحين والآخر، وإلا دمرت الدنيا كلها! هذه الأسود تفترس الكثير من ماشية هؤلاء الناس؛ ولكنها لا تؤذى الجنس البشرى إلا لماما. والرجل عندما يرى أسداً فى طريقه يتعين عليه المضى قدما فى طريقه دون خوف، بل ويمر أيضا على ذلك الحيوان المفترس ويتخطاه؛ بحيث لا يوجه ناظريه إلى الأسد، نظرا لأن ذلك قد يثير غضب ذلك الحيوان المفترس. هذه البلاد فيها أيضا أفيال وزراف؛ وخيولهم كبيرة الحجم ولها قامات مرتفعة. – وقد سمعت من تجار العبيد أن الحصان فى بلاد الحبش يمكن شراؤه بما قيمته ريال واحد!

بلاد الحبش لا تستعمل النقود؛ قال: إن الناس ليسوا بحاجة إلى شراء أى شىء من الأشياء: وهم يحصلون على البضائع الأجنبية التافهة من تجار العبيد؛ وأن تلك التوافه هى من قبيل الخرز والمرايا المستديرة المصنوعة من القصدير أو الصفيح. وهذه هى البضائع التى يجلبها تجار العبيد معهم إلى هذه البلاد، – هذا بالإضافة إلى الملح الذى ينقصهم أو يفتقرون إليه وسط هذا الإنعام الكبير. وصخرة الملح، الذى يحملها رجل واحد، تكفى أن تكون ثمنا لشراء عبد واحد من العبيد بين هؤلاء الناس. والملح يجرى استخراجه من سواكيم (*) Suakim (بالقرب من البحر الأحمر، ومقابلة لجدة على وجه التقريب)، وعلى مسافة مسير ستة أشهر. والحبش كرماء مع الأغراب، الذين يستطيعون المرور عبر أراضيهم حسبما يشاءون. والقتال عندما ينشب بين القبائل المجاورة، يصبح الغريب آمنا على نفسه فى المكان الذى يقيم فيه؛ ولكن إن تعين عليه الانتقال فذلك يحتم عليه الابتعاد عن منطقة النزاع، وينأى بنفسه عن الخطر، بالذهاب إلى قبيلة أخرى، وبذلك يصبح فى مأمن من الخطر بين أفراد تلك القبيلة الأخرى. وبلاد الحبش مترامية الأطراف وعامرة بالأمن والسلام؛ والغريب إذا ما نزل عند أى كوخ من الأكواخ يستقبله الناس بكرم حاتمى. ويسألونه إن كان يود أن يشرب شيئا من بيرتهم أو من حليب أبقارهم؟ وهم يذبحون للغريب ذبيحة ويعطونه اللحم الذى يمكن أن يطهيه هو بنفسه [نظرا لأن الحبش يأكلون اللحم نيئا] .

(*) سواكيم : الاسم الصحيح سواكن ، كما هو معروف . (المراجع)

هؤلاء الناس لديهم أشجار البن البرية فى بلادهم، وهذه الأشجار ضخمة مثل أشجار البلوط؛ وهذا النوع هو أفضل أنواع البن: وحبة هذا البن كبيرة جداً. وهم يجمعون قرون البن التى تسقط من تلك الأشجار على الأرض، ويحمصون حبوب البن مع شىء من السمن. والقهوة لا يشربها سوى كبار السن، وشربها يكون نادرا: وهم يعتقدون أن صغارهم يجب ألا يعتادوا على شرب ذلك المشروب الحريف. والنساء هنا يصنعن الزبد، بطريقة خض الحليب فى أوانى يصنعونها من القرع كبير الحجم المجوف: وهم يحفظون مشروباتهم كلها فى أوانى من هذا القبيل. ذرات الذهب يمكن مشاهدتها أيضا فى الرمال التى تجرفها السيول؛ ولكن ليس هناك من يجمع تلك الذرات. ومن بين هؤلاء الناس [كما هو الحال فى الجزيرة العربية] توجد طائفة من الحدادين؛ والحبش لا يختلطون مع هؤلاء الحدادين عن طريق الزواج. هؤلاء الحدادون يحصلون على أجورهم على شكل ماشية.' وأنا لم أتيقن من أمان، من دين هؤلاء الناس: 'لم يستطع إخبارى بذلك؛ قال: إنهم يصلون، وهو يعتقد أنهم يتجهون فى صلاتهم صوب مكة.' وهو لا يتذكر إن كان لدى هؤلاء الناس شيئا من الكتب فيما بينهم.

قام بعض أفراد القبيلة المجاورة بسرقة أمان فى فترة العصر عندما كان يحرس بيرة والده. هؤلاء الغزاة ذهبوا فى الليلة نفسها للإقامة فى كوخ كانت تعيش فيه امرأة أرملة. وعندما سألت تلك المرأة الطيبة ذلك الصبى الأسير عن والديه، قالت للضيوف: إن أقارب ذلك الطفل هم من معارفها وأنها سوف تفتديه بمائة ثور؛ ولكنهم رفضوا ذلك العرض. وبعد ذلك بأيام قلائل باعوه إلى تاجر من تجار العبيد: وبدءوا يسوقونه ضمن قطيع الأولاد والبنات ليبيعونهم فى بلاد بعيدة وغريبة. هؤلاء الأطفال الذين يتكونون من أسرى من الذكور والإناث يمشون ستة أشهر حفاة الأقدام إلى أن يصلوا إلى البحر الأحمر: تقدر تلك المسافة بما يقرب من ١٢٠٠ ميل. وفى كل ليلة يصلون خلالها إلى محطة من محطات تجار العبيد يتناولون العشاء المكون من اللحم والبيرة. وكان تجار العبيد يسيئون معاملة أولئك الأطفال والبنات بالإضافة إلى التعب والإرهاق الذى ينتابهم جراء تلك الرحلة الطويلة التى يقطعونها سيرا على الأقدام.

"إلى أية أمّة" ينتسب هؤلاء الناس الذين يجلبون العبيد؟" - لم يستطع الرد على هذا السؤال: كانوا رجالا بيضا، وعلى حد قوله، من المسلمين؛ ولكنهم ليسوا من أهل الجزيرة العربية، لأنهم لم يكن موطنهم مدينة جدة، التى كانت فى ذلك الوقت، المدينة الرئيسية للعبيد الأفارقة، بالنسبة للإمبراطورية التركية: جدة التى يوجد فيها القناصل الأفرنج (الفرنجة)! ولكنك سوف تجد هذه الوجاهات فى الوحدة الشاحبة داخل قصورهم، مما يؤثر (العياز بالله!) على بساطة وسذاجة أطفالهم حديثى الولاده، - وهم يقولون لك، إنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا! ولكنى أقولها مرة ثانية، فى آذانكم التى لا تسمع، جدة هى المدينة الرئيسية للرق التركى، وإلا فإن المسلمين كلهم كذابون.

- أخيرا وصلوا إلى مفيض النيل الذى كان يستقر فى منخفض جبلى كبير، حيث نقلوهم على "طوف" مصنوع من البوص وجلود الماعز. قال: إن رحلتهم طويلة جداً نظرا لكثرة التجاويف والمنخفضات فى البلاد. وأنهم فى أغلب الأحيان يختارون بعض الوديان المنخفضة، التى تبدو للناظر إليها من أحد الأجناب وكأن المسافة قصيرة بين ذلك الجانب والجانب المقابل له؛ ومع ذلك فهم يسيرون فى النزول وفى الصعود يوما أو يومين لكى يقطعوا مسافة من هذا القبيل ومن عادة كبار السن فى بلاد الحبش القول إن: "النيل يأتيهم متدفقا إلى وديان عميقة ملتوية قادما من بلدان مكشوفة تبعد عنهم شهورا كثيرة."

" أمان، ليتنا نذهب، عندما أحصل على حريتى، إلى بلاد الحبش! لن يكون الحال هناك مثلما هو هنا، حيث ندفع أيدينا اليسرى نظير بقرة واحدة!" رفع ذلك الحبشى المسكين نفسه على كوعيه، وبصره زائغ ويوحى بالحزن، وراح يبتسم وكأنه كان يرى بلاده مرة ثانية: أخبرنى عن اسمه باللغة الحبشية، عندما كان طفلا، يعيش فى بيت حبشى. سألته إن كان يضمر حقدا أو غلا فى قلبه لأولئك الذين سرقوا حياته وباعوها للعبودية فى أنحاء الأرض." ومع ذلك، هناك شىء واحد عوضنى عن كل ذلك يا شيخ خليل" - هذا الشىء أننى لم أبق فى الجاهلية مع الوثنيين! - يالروعة العناية الإلهية! التى أتت بى إلى بلد الرسول، والتى جعلتنى أعرف الدين! آه، ليتك تشارك فى تلك

المتعة! - ومع ذلك، فأنا أعرف أن كل شيء بإرادة الله، وأن ذلك سوف يحدث أيضا فى الوقت الذى يحدده الله (سبحانه وتعالى)!" أخبرنى أيضا أن قلة قليلة من الحبش هم الذين يعودون إلى بلادهم بعد أن يحصلوا على حرياتهم. - "وأنت، يا أمان، هل ستعود إلى بلدك؟" "قال: آه! لقد اعتاد جسمى على الهواء هنا، كما اعتاد هنا أيضا على أسلوب مختلف للحياه."

هناك قتال مستمر على حدود بلاد الحبش مع أولئك الأحباش الأبيسنيين Abys-sinians الذين يعيشون على تلك الحدود؛ ومن ثم فإن هؤلاء الأحباش الأبيسنيين يمنعون الناس من المرور عبر أراضيهم ومعهم أسلحتهم إلى المناطق التى يعيش فيها الحبش. والحبش شعب محارب وهم يتسلحون بالرماح والتروس ولذلك فهم يهجمون على عدوهم هجوما شرسا أثناء القتال. - والحبش فيهم شيء من الرقة والكياسة تظهر عليهم حتى فى البلدان التى يكونون فيها عبيداً.

حكى لى أمان حكاية حياته التى بدأها عبدا وأنهاها حرًا فى الحجاز. وقد عاش فترة من الزمن فى جدة كان يعمل فيها خفيرا للجمارك على ظهر السفن الموجودة فى المرفأ؛ كانت معظم تلك السفن عبارة عن سفن شراعية محملة بالأرز البنغالى، وتضم أطقما من سكان ذلك البلد ولكن تحت قيادة قباطنه من الإنجليز. كان أمان يتحدث بقلب مفتوح عن كرم البحارة "النصارى". ذات يوم كان يراقب ويحرس سفينة تجارية وصلت مؤخرا قادمة من الهند، وكان من بين ركابها شخص "نصرانى"، كان "يبكى ويبكى، ولم يستطع أصدقاءه منعه من البكاء." وعندما رآه أمان، سأله عن سبب بكائه، فرد عليه الغريب وهو محزون "أتركنى! لقد سألت الله أن أزور مدينة بيته الحرام، وأصبح مسلما: أليست مكة قريبة من هنا؟ ساعدنى أيها المسلم الطيب، على الوصول إلى هناك، والصلاة فى الأماكن المقدسة! - لكن آه! هؤلاء يمنعونى من ذلك." وعندما دخل الليل أحضر أمان زورقا؛ وحمل ذلك الغريب إلى البر، وأعطى صاحب الزورق أجرته.

أنزل ذلك البحار، الذى كان من أهل مدينة جدة، ذلك الغريب على الشاطئ؛ وتأكد من إركابه على جحش صغير اتجه إلى مكة، - واحد من تلك الحمير التى تجرى أثناء

الليل، وتقطع المسافة التى تزيد على خمسة وأربعين ميلا وتفصل ميناء جدة عن المدينة المقدسة، - ومع طلوع فجر اليوم الجديد، دخل "الفرنجى" مكة! - توقف بعض المواطنين، الذين التقاهم الغريب أول مرة، توقفوا ليسألوه، "سيدى، ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ - ويبدو أنك نصرانى!" رد عليهم قائلا: "كنت نصرانيا، وقد سألت الله، - أن يمن على بدخول المدينة المقدسة وأصبح مسلما!" وهنا اقتاده أولئك المواطنون إلى منازلهم وهم فرحين، وختنوه: وأقام ذلك الرجل بعد ذلك سنوات فى كل من مكة والمدينة . - ظن أمان أن رعاته جمعوا له مبلغا من المال؛ ثم تحول ذلك الرجل إلى تاجر يعمل فى الأسواق. - من ذا الذى يمكن أن يترجم هذه الحكاية هى والحكايات الغريبة الأخرى؟ التى نسمعها تروى بين هؤلاء الناس.

شرب أمان ذلك المشروب المسكر الذى قدم له مع التعيين (الطعام) الذى صُرف له على ظهر المركب؛ وطوال حياة الجندية كان أمان يصنع هو وزميله (فى السر) مشروبا روحيا عن طريق غلى الأرز ثم تركه يتعفن بعد ذلك: وكانا يطلقان على ذلك المشرب اسم سوبيا Subia ، والناس هنا فى حرارة الحجاز الشديدة يعدون تلك السوبيا شرابا منعشا . ولكن ذلك الرجل التعيس واصل إيذاء ضميره، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إضعاف صحته ومرضه على نحو يستحيل معه العلاج. وعندما استلم ذلك الرجل متأخرات راتبه، قصد إلى سوق العبيد فى جدة، واشترى لنفسه عبدة، من أهله، لكى يتزوجها، ودفع ثمنا لها خمسين دولارا . - لم ينجبا سوى بنت واحدة: وفى مرة أخرى وعندما كانوا ينتقلون من مكة إلى جدة سقطت تلك الابنة من فوق ظهر الجمل؛ وماتت هذه الابنة بفعل الأذى الذى أصابها جراء ذلك السقوط. لم يبد على أمان الشفقة عندما أهاجته تلك الذكرى! كانت زوجته مسرفة إذ كانت تبدد كل ما كان يجلبه إلى المنزل، الأمر الذى جعل أمان يتخلص منها ويرسلها لحال سبيلها: وراحت تلك المرأة تكسب عيشها من الخياطة، ولكنها توفت خلال فترة وجيزة؛ - " قال: يرحمها الله!" - وعندما حصل أمان على متأخرات راتبه بعد ذلك، بقى عاما كاملا بلا عمل فى مكة، أمضاه فى الشرب والتدخين، الأمر الذى جعله يبدد ما معه من بقية من مال فى المقاهى، إلى أن أجهز على كل شىء؛ وهنا وجد نفسه ينضم إلى سلاح العجيل هذا .

أمـضـى أمـان أحلى لحظات حيـاته، فى منطقـة الطائف دونًا عن سـائر مناطق الحـجـاز كلهـا. "(قـال): إخ! يا لجـمـال الطائف!" كـان يتكلم بحب دافق عن الشـريف العظيم [الذى توفى فى ذلك التـاريخ على وجـه التـقـريب]، هذا الأمـيـر كان له طبيـعـة تحظى بحب النـاس له. وراح أمـان يحكى عن حـديقـة الشـريف، [التى كـانت بمثـابة الحديقة الوحيدة فى الجزيرة العربية الصحراوية ! [والتى كانت فى منطقة الطائف، كما راح يحكى أيضا عن أسد كان موضوعا داخل قفص هناك، وأن ذلك الأسد كان وديعا للشريف وحده. قال إن زوجات الشريف العظيم، كن كلهن من الحبشيات! وتكلم أيضا عن امرأة محسنة أخرى كانت أرملة فى الطائف، وكان بيتها الكريم يقع على جانب الطريق؛ وكانت تستقبل كل المسافرين باعتبار ذلك من وشائج الكرم العربى والضيافة العربية.

ومنذ وفاة "عمه" المسن، بدأت آمال أمان فى الحياة تتضاءل، - فقد تحول إلى رجل محطم فى منتصف العمر؛ ومع ذلك كان أمله كبيرا فى "شقيقه". هذا الأخ لم يكن شقيقا، وإنما كان زنجيا من بين الخدم الذين كانوا يخدمونه، وهؤلاء يعدون أخوة طبقا للعادات السائدة فى أسر الجزيرة العربية. بلغه أن أخاه الزنجى قد حصل على حريته، وأنه كان يعيش فى القدس فى ذلك الوقت، وخطر بباله أن يسافر إلى سوريا ثم يعرج على القدس،إذا شاء الله، بحثا عن ذلك الأخ. كان أمان على وشك الموت بسبب مرض السل ومرض آخر فى الحويصلات الهوائية، وهذا المرض خاص بالقارة الإفريقية الضخمة ولا يعرف الناس عنه شيئا فى علم الطب فى أوروبا: - ومن يمرض بذلك المرض فى خيبر، يصبح احتمال وفاته كبيرا. فى ذلك العام لم يتبق سوى كمية من الذرة تكفى لإطعام المرضى من السكان: " قال أمان المسكين: هذا [اللقيط] سامحنى الله، قال: إننى قلت إن ذلك الذرة يكون شبيها بالخشب إذا ما أكله أحد من الناس. "كان أمان يجلس، وفى عينيه نظرات أولئك الذين يتأملون الحفرة أمام أقدامهم، وهم فى منتصف العمر، وقد لف نفسه بعباءته (بشته) طوال اليوم وهو جالس فى الشمس يدخن التبغ. - الشخص المريض تكون حياته حافلة بالأضرار، كما يكون قلبه مشحونا بالغضب؛ الذى يجره إلى القطيعة والاغتراب، يا أسفاه! كما يقل من حوله أيضا

الحنان الإنسانى الذى كان يحظى به من قلة قليلة من أصدقائه المحيطين به. فى الليل لم يكن لدى ذلك الحبشى غطاء يحميه من البرد؛ ولذلك كان يصحو أثناء الليل بين الحين والآخر ليشب النار ويدخن التبغ.

كانت زوجات الخيابرة يتصدقن على الجنود المساكين: إذ من مظاهر الكرم عند حريم الجزيرة العربية الإحسان إلى الغرباء الموجودين بينهم. من غير النساء يمكن أن يملأ قربة ماء الرجل من البئر، أو يطحن له القمح، ويحضر له حطب الوقود؟ لا أحد يعطى النساء أجرا عن تلك الأشياء، لأنهن يفعلن ذلك من باب الكرم.. والزوجة الطيبة التى تخدم رجلا غريبا، مثل أحمد، هى التى تحصل مرة أو مرتين فى العام على جلابية جديدة ومعها ريال واحد أو ريالين، يكون هو على استعداد لإعطائها لتلك الزوجة. كانت زوجة جارنا، وهى زنجية صغيرة السن، تخدم أحمد المريض، وذلك من باب الإشفاق النسائى وكانت تجلس فى معظم الأحيان لتلاحظه وتقوم على أداء ما يطلبه فى الصُفَّة التى كنا نقيم فيها. عندئذ راحت جُمَّار Jummar (كان ذلك اسمها) تحملق فىّ وتطيل النظر إلى بعينين مندهشتين؛ هذه الغرابة وذلك الرعب كانا يتمثلان لها فى ذلك الاسم 'نصرانى' ! ذات يوم قالت: فى نهاية المطاف، عندكم Andakom حريم hareem ، فيه Fi ؟ بمعنى "هل هناك نساء فى بلادكم؟ " – "يا الله ! أمهات، وبنات، وزوجات ! – ألست أنا ابن امرأة: أم أنك تعتبرينى أيتها المرأة السخيفة، ولدا Weled لذيب eththib [بمعنى ابنا لذئب]؟" – "نعم، نعم، لقد ظننت ذلك: ولكن والله، يا خليل، هل يولد النصارى مثلنا؟ عجبا! إنكم لا تخرجون من البحر!" – وعندما حكيت تلك الحكاية للعم محمد، سخر الرجل من تلك السذاجة. "إذن، فسوف يجعلون منك يا خليل، نوعا آخرا من مخلوقات الله، المخلوقات البحرية! هؤلاء الناس الحمقى والأغبياء يغمغمون بلا فهم عندما ينطقون الكلمة SEA الدالة على 'بحر': و'البحر' عند هؤلاء الناس يعنى أنهم لا يستطيعون تحديد كنه ذلك المخلوق " كانت جمَّار عندما التقينا بعد ذلك فى الشارع ترفع رأسها مما كان يثير ضحك العم محمد: الذى أصبحت بالنسبة له فيما بعد ولد Weled الذيب eth-thib وعندما كنت أتخلف عن الطعام، كان العم محمد يقول وهو مسرور:" يا خليل، أنت هنا لست ولد Weled

الذيب !eth-thib ؟ قال أحد الواقفين في يوم من الأيام: عندما كنت أتسلق صخرة صاعداً إلى قمتها: ما Ma في fi حيل hail بمعنى 'ليست لدى القوة.' رد محمد قائلا: "بالرغم من ذلك، فقد أنجزنا شيئا ما، لأن ابن الذئب كان يساعدنى." " قلت متعجبا: أنا لست ابن ذئب ولكنى ولدك Weyladak، بمعنى [ابنا من أبنائك]" "رد الرجل الطيب، قائلا: والله! وهو مندهش ويبتسم، أنت إبن لى فعلا."

كنا أناسا من أمم كثيرة نعيش في خيبر: فقد كان منا الأكراد والألبانيون والحبش، والعرب، والزنوج والنصارى. قال بدوى من العوف، عندما كان يجلس بالقرب من وجار القهوة في بيت عبد الله السروان:" جميل حقا أن يرى الإنسان تشكيلة مختلفة من البشر! ولكن ماذا نفعل في النصارى؟ - وطالما أنهم ليسوا مسلمين فهم ليسوا أيضا من أبناء آدم." رددت عليه "كان هناك نبى اسمه نوح، أغرق الله الناس في زمنه؛ ولكن نوحا مع أبنائه سام وحام، ويافت وزوجاتهم ركبوا معًا في السفينة: وهم آباء الجنس البشرى. والأكراد، والأتراك وكذلك الإنجليز هم من أبناء يافت؛ وأنتم أيها العرب من أبناء سام؛ وأنتم أيها الخيابرة من أبناء حام، وهذا البيشى أيضا." - "(تعجب الزميل) إخص! وأنت تكرر هذه الكلمة مرة ثانية - !" عبد الله: "لا تندم، لأنى أنا أيضا (رئيسك) من أبناء حام." هذا البيشى، وهو زنجى من الذين يعملون مع العجيل، سمى بذلك الاسم تيمنا بذلك الجزء الذى جاء منه في الجزيرة العربية؛ وهذا الجزء هو وادى Wady بيشه Bishy (فى اليمن) [وفي رأى بعض الباحثين الشرقيين] ينسب ذلك الوادى إلى "نهر بيسون Pison" الذى ورد ذكره في الكتاب العبرى المقدس، راجع كتاب 'جغرافية الجزيرة العربية'] . وشريف مكة يسحب السواد الأعظم من جماعته العسكرية (الزنجية) من هذا الوادى، - وهم يطلقون على الواحد منهم البيشى، وبالتالى فهم يقومون بالعمل الذى يقوم به العجيل. هذا اليمنى يتكلم لغة الحجاز الدارجة الوضيعة؛ التى تبدو فظة وشاذة على آذان سكان نجد وأهلها.

بلغنا، من جديد، أن محرمًا Muharram أصابه المرض؛ وقال عبد الله السروان: "اذهب إليه، ياخليل؛ فقد عاونته أدويتك كثيرا على الشفاء." - وجدت محرما طريح

الفراش، ونبضه ضعيف وسريع: وكان ذلك هو اليوم الثانى الذى امتنع محرم فيه عن تناول الطعام؛ كان يعانى من الحمى ومن آلام حويصلية، وليس لديه الاستعداد للإنفاق على الأشياء الضرورية. أقنعته بأن يسلق لنفسه دجاجة، ويشرب شربتها مع شيء من الأرز، إذا لم يكن يستطيع تناول الطعام؛ وأعطيته ستة حبيبات من حبيبات الراوند الريباسى مع حبيبة واحدة من مسحوق اللودا نوم (*)، مع قليل من الكنين يأخذه فى الصباح.

لم يستدعونى فى اليوم التالى لزيارة محرم. فقد كنت فى الحَرّة مع العم محمد، وفى المساء كنت جالسا فى غرفتنا بصحبة أمان: تكلمنا فترة طويلة وإلى ساعة متأخرة من الليل، نظرا لأن برد الشتاء كان يداهمنا من الشباك المفتوح، وبالتالى حال بيننا وبين النوم. وعند منتصف الليل فاجأنا صوت جاء فى غير موعده؛ كان هناك رجل ينادى بصوت عال فى ركن من أركان المكان، على العسكر الذين يقيمون فى ذلك المكان،' فقد طلب عبد الله السروان منهم الحضور إليه.' وأصيب الجميع بالرعب والفزع فى خيبر، وخطر ببالى أن يكون ساعى البريد قد حضر عائدا من المدينة (المنورة) ومعه أمرا يقضى بإعدامى. تكلمت مع أمان الذى توقف عن نفخ النار، لينظر من الشباك ويستطلع منهم الخبر؟' نظر أمان من الشباك وقال:' إيه Ey الأخبار Kabar يا ya ، بمعنى' يا أنت، يامن توجد هناك، ما الخبر؟' ردوا عليه بكلام لم أفهمه، ثم قال أمان وهو يسحب نفسه بعيدا عن النافذة: "الله ullah يرحمه Yarhamhu ، – يقولون إن محرماً مات، وأنهم موفدون للتجهيز للدفن، وللتحفظ على بضاعته وأشيائه." – "كنت قد أعطيته مؤخرا شيئا من الأدوية! وماذا لو قال أهله الناكرين للجميل: 'إن خليلا قتله.' ! لو جاء أحد منهم الآن فسوف نوصد الباب تماما، وهل لك فى أن تعيرنى بندقيتك." – "قال الرجل المريض الجالس أمام النار: يا خليل ثق بالله، ولا تخش شيئا إن كنت لم ترتكب شراً: ما هى علاقتك بهؤلاء الناس؟ إنهم كلاب، قردة، ثيران كما أن نسائهم ساحرات: لكن ارقد استأنف نومك."

(*) اللودانوم: هو مستحضر أو صبغة الأفيون وهو يستخدم لتسكين الآلام. (المترجم)

اتجهت فى الصباح إلى قهوة الجنود ولم أجد فيها سوى عبد الله السروان، الذى كان قد عاد لتوه من تشييع جنازة محرم." ما هذا؟ صاح عبد الله، يا خليل، لقد مات محرم، وهم يقولون :إن أدويتك هى السبب: وإذا لم تكن على معرفة بالأدوية، فلا تعطى منها شيئا لأحد بعد اليوم. - يقولون: إنك قتلته، وهم يقولون : إن محرما قال ذلك قبل أن يموت. [تأكدت من رفاقه بعد ذلك أن ذلك الرجل التعيس لم يتكلم مطلقا عن أدويتى.] محمد الكردى يقول: إنك بعد أن أعطيته الدواء غسلت يديك بماء دافئ." تعجبت على وجه السرعة،" محمد يكذب!" - هذه كلمة خطيرة. وعندما كنت فى سوريا، جرى سحب مسيحى مهم بواسطة المسلمين فى مدينة طرابلس، التى كان يعيش فيها، واقتادوه أمام القاضى، لمجرد أنه تلفظ بتلك الكلمة فقط على مرأى ومسمع من الناس؛ ولم يكن قد قال تلك الكلمة إلا فى حق خادمه المسلم المزيف، والذى كان اسمه محمد. وهنا أوفده القاضى، فى قارب كى يلقى محاكمته فى بيروت؛ ولكننا سمعنا أن ذلك الرجل المسيحى، أطيح به سراً من فوق ظهر القارب، أثناء رحلته الليلية، التى دامت ساعات قلائل! - نظر عبد الله إلى بعينين تقولان 'التجديف فى حق النبى يعنى الموت لمن يفعله!' - 'رددت، محمد الكردى يكذب لأنه لم يكن حاضراً.' - "قال عبد الله فى النهاية ونظراته توحى بالحزن: أنا لا أستطيع القطع بذلك يا خليل، فقد مات الرجل؛ وعليه لا تعطى دواء لأى أحد من الناس؛" وعندما دخل عليه العسكر قال: "خليل غاضب بسبب مسألة محرم؛ - دعونا نتكلم فى موضوع آخر.

هنا حضر كل من محمد الكردى ومعه الرجل المصرى: لقد أحضروا الميت ودفنوا حاجيات ذلك الرجل الذى كان حيا بيننا بالأمس! - جاءوا بحشيته، وملابسه، وغطاء رأسه الأحمر، وبقربة الماء. وحضر عبد الله بيع هذه الأشياء؛ كما كان هناك طلب على ريالين ونصف الريال نظير تغسيل الجثة ودفنها. تساءل عبد الله،' ماذا عن نقود محرم؟ نظرا لأن كل ما يملكه محرم لابد أن يرسل إلى ورثته؛ أليس لمحرم هذا ولد فى ألبانيا؟' أقسم رفاق الميت أنهم لم يعثروا على ما يزيد على عشرة ريالات فى حزام الرجل. سرور:" كان لديه أكثر من خمسين ريالاً! لقد كان محرم ثريا." قال آخرون شيئا مشابها لذلك (كان أمان يعرف أن محرما معه ما يقرب من سبعين ريالا).

عبد الله: "حسن، لن أدخل فى التكهنات؛ - كفى، إذا كنا لا نستطيع القطع بذلك الذى حدث لنقود هذا الرجل. - من الذى يشترى هذا المعطف المطرز، الذى يساوى عشرة ريالات فى المدينة (المنورة)؟" صاح أحد الحاضرين،" أنا أشتريه بنصف ريال." سرور:" ثلاثة أرباع الريال!" قروى: "أنا أزيد عليهم قرشين." عبد الله : "إذن لن يأخذه أى أحد منكم؛ سوف أستبقيه.لورثته، ماذا بعد ذلك. كتشينة، أو بمعنى آخر ورق لعب: - (وقال بابتساماته التركية) كسب محرم معظم نقوده، يوم أن كان حيا، بهذه الطريقة، مسكين ذلك الرجل! - من الذى يشترى هذا الورق؟ - أظن أن ذلك الورق من صناعة بلد خليل. الصور التى على الورق [نهر، غابة، وكنيسة ألمانية] ماذا تعنى" يا خليل؟ ألن يشترى أحد ذلك الورق؟ - إذن، سيشترى خليل هذا الورق." - "أنا لن ألمس ذلك الورق." كانوا، عندما تركتهم، يزايدون على بيع بطانية ذلك المقامر المسكين، وحشيته وملاءته الملونة.

إذا ما تردد اسم ميت أمام المسلمين فإنهم يرددون قائلين: 'يرحمه الله!' ولكنى عندما التقيت أحمداً فى الطريق ونحن فى منطقة المدافن قال: "مات محرم وهو مدين لى بريالين، الله يرحمه!" - كنت مهموما للغاية؛ وها هو سوء القصد ينغص علىّ حياتى بالرغم من الإحسان الذى قدمته لذلك الشخص الذى يدعى محرم! فى كل يوم كان، ذلك الجحش ، ينهق فى أذنى الجحش عبد الله السروان قائلا،' كان الوقت مناسبا لإعدام عدو الدين، كما كان يقول له أيضا: إن التأجيل [تأجيل إعدامى] يعد من الخطايا: 'وكان يزعم أمام عبد الله أنى أنا الذى تسببت فى وفاة محرم. ويوما بعد يوم كنت أرى نظرات السروان السوداء تتزايد وتزداد خطورة على خطورتها: "قلت للنجومى: الله وحده هو الذى يعلم، ذلك الذى يدور فى قلبه الأسود: قد يجيء الوقت الذى يدور فيه رأس هذا العبد، ومن ثم يفتح علىّ نار مسدسه." - "أنت جئت إلى هنا كصديق للدولة (الإمبراطورية العثمانية) وهذا الجحش الذى فى السلطة لا علاقة له بموضوعك على الإطلاق، أو حتى أن يتسبب لك فى هذا الأذى؟ والله، إن فعل معى مثل هذا الخطأ، نظر لعدم وجود أى علاج غير هذا فى بلدنا، فسوف أقتله وأهرب إلى الفراع Ferra . "وأعلن العم محمد على الملأ، 'ثقته بالشيخ خليل تصل إلى حد أننى إذا

ما أعطيته مشروبا حتى ولو كان سما، فإنه سوف يشربه!" وقال أمان الشيء نفسه، ولم يتوقف أمان عن استعمال أدويتى. وقال الناس الطيبون من الخيابرة إن "محرماً" لم يمت بسبب أدويتى، ولكنه وصل إلى نهاية عمرة، وأنه رحل بإرداة الله وأمره.

قال العم محمد: إن حرارة الصيف شديدة جدًا فى الفرا ع. والقروبون الذين من قبيلة حرب فى ذلك المكان، هم سود البشرة: وهم يسكنون بيوتا يبنونها من الطين مثل بيوت خيبر: والمنزل يبنى على مكان مرتفع، فى واحة النخيل. كان العم محمد يذهب فى أيام شبابه إلى ذلك المكان بصحبة إخوانه من المدينة (المنورة). والشمس التى تضرب هذه التربة الرملية لا تطاق: ذات مرة، وبينما كانوا ذاهبين إلى هذا المكان رأى محمد النجومى أخاه أحمد يترنح؛ وسرعان ما أغمى عليه. سحبه محمد النجومى إلى ظل شجرة من أشجار السنط، ورش قليلا من الماء على وجهه من القربة؛ وهنا أفاق أحمد.

قال: الفرا ع، كان ملكا للعوازم، وهم من الحطيم، من قديم الأزل. - والمؤكد أن هؤلاء الحطيم الذين منهم العوازم، أمة عريقة فى الجزيرة العربية (وهم ينتشرون حاليا فى مناطق واسعة من الجزيرة العربية (*)): وهم كانوا يقيمون فى بعض المواقع، قبل الأعراب الذين يسكنون هذه المواقع فى الوقت الراهن! آخر العوازم فى الفرا ع كان واحد مَن أثرى أثرياء الناس الذين يمتلكون أعدادا غفيرة من النخيل؛ تذكر العم محمد اسم ذلك الرجل. كان ذلك الحطيمى يستجيب دوما للجاجة القرويين من قبيلة الحرب، الذين يودون شراء أرضه، وهو يقول: "هل يعقل أن أبيع إرثى!" وفى النهاية - ولكى يعيش فى راحة بال - قال لهم الثعلب العجوز: "أنتم تعلمون، أن لى ابنة واحدة! من منكم أيها الشباب يمكن أن يكون صهرا لى أنا العزيمى؟ ومن ثم يرث أرضى." لا يعيش حاليا من العوازم الذين انقرضوا تماما، سوى ثلاثة أو أربعة أسر هى تخيم فى الوقت الراهن مع بنى راشد [حطيم] . بعض الناس، يعدون العوازم من الصلوبة، وذلك من باب الاحتقار والسخرية إلى اسم "العزيم" Azim ، وجمعه "عوازم" Auazim

(*) يوجد العوازم فى الوقت الحاضر فى كل من المملكة العربية السعودية والكويت . كما ينتشرون فى أماكن أخرى من دول الخليج العربية . (المراجع)

ينتمى أيضا إلى "الحزيم". والحزيم بطن من بطون قبيلة حرب، ولكن أعداءهم يحقرونهم ويقولون: إنهم من الصُلُوبة Solubbies ؛ ونقلا عن التقاليد والموروث الشعبى فإن العوازم يعدون غرباء معتدون. فى هذه المنطقة، وفى الناحية الغربية على وجه التحديد، توجد بطن من بطون قبيلة جهينة، وهم الثقيف el-Thegif ؛ الذين يقول الناس عنهم: إنهم يهود، وذلك من باب الاستهزاء بهم: – قد يعنى ذلك أن هؤلاء الثقيف من أعراب ما قبل الإسلام. وهناك قافية تتردد بين أهل المدينة تقول: الله ullah يلعن Yulaan ثقيف theqif ، قدّام Kiddam تجوف، بمعنى "يلعن الله (أولئك اليهود) الثقيف قبل الوقوف." ويقال عن جماعة صغيرة بين البشر، الذين يعيشون فى وادى سليمان: إن أفراد هذه الجماعة الصغيرة من الصلّوبة Slubba ؛ ولكن هذه الجماعة مسموح لها بالزواج من مختلف السكان. ما زال يتبقى فى الجنوب بعض من الحطيم الأثرياء فى منطقة تهامة الواقعة خلف مكة.

لم يسبق للعم محمد زيارة كل من قرية العلا وقرية تيماء. صحيح أن العرب جوالون كبار، لكن ليس خارج الطريق (الذى يقصدونه). والآن، وبعد أن أصبح غنيا – فقيرا، ويعيش حياة هادئة، فقد وعد نفسه بزيارة هاتين القريتين، حتى ولو كان ذلك من باب رؤية القريتين ليس إلا. سبق لمحمد النجومى السفر إلى حائل، عندما كان يقوم برحلة إلى قرية الحيات: فقد ذهب إلى هناك ضمن البدو. فى اليوم الأول لم يجعلوا لذلك الرجل اعتبارا كبيرا مجرد مواطن [وحدادًا] ، ولكن كفاءة هذا الرجل ورجولته بدأت تتبدى لأهل هذه القرية وتزداد يوما بعد يوم، عندما كان مسافرا مع البدو، نزلوا فى نهاية المطاف، عن مطاياهم، أمام كفر (هجرة) من كفور الشمر يقع خارج البلدة؛ لم يكن فى ذلك الكفر (الهجرة) سوى بيتين فقط، ولم يكن فى هذين البيتين سوى رجلين كبيرى السن، جاءا لاستقباله هو والبدو الذين كانوا معه. قال النجومى لمضيفه: "كيف لك بالسكنى هنا وسط هذه الصحراء؟" – "الحمد لله، نحن نعيش هنا بلا خوف، وتحت حماية بن الرشيد؛ وأبناؤنا يرعون الماعز على الجبال، ويقطعون مسافات طويلة طلبا للحصول على حطب الوقود." ذبح كل رب أسرة عنزة، وامتدح محمد النجومى كرم هاتين الأسرتين.

كان محمد النجومى معروفا لعدد كبير من الناس فى حائل؛ بعض معارفه كانوا يعزمونه يوميا لتناول الإفطار وتناول العشاء؛ وكانوا يعزمونه على تناول القهوة، ولذلك كان ينتقل من مقهى إلى آخر. وبينما كان محمد النجومى جالسا فى منزل أحد الأصدقاء دخل بندر فجأة ومعه عبيده ورفاقه – كل الأمراء الشبان لهم مثل هذه الحاشية – ليرى من هو ذلك الغريب. تساءل بندر، " ما هذا الأجنبى agneby ؟، " – ودون انتظار للرد، أدار ذلك الشاب الغريب ظهره ومضى إلى حال سبيله.

كان محمد النجومى قد شارك فى حملات الباشى بازوك التى وصلت إلى بلدة ينبع؛ كما شارك أيضا مع القوات التركية التى قامت بحملة على الرياض العاصمة الوهابية فى نجد. كان ذلك لمساندة المعركة التى شنها شريف مكة: فقد عسكروا طوال خمسة عشر يوما أمام تلك المدينة النجدية، ولولا استجابة ابن سعود لمطالبهم لكانوا قد حاصروه. خلال تلك المعركة سار الجيش عبر الخلاء (الصحراء) ومعه المدافع وإبل التموين والإمداد؛ وقال : إنهم عثروا على الماء فى آبار البدو، وأن ذلك الماء كان كافيا للماشية كلها، كما كان كافيا أيضا لأن يملؤا منه قراب الماء . صحراء الجزيرة العربية يمكن عبورها باستعمال قوات تبلغ من القوة حداً تستطيع معه تفريق وتشتيت تلك المقاومة التى يشكلها أولئك السكان المتزمتين الذين لا يجيدون فن القتال ؛ ولكن يتعين على هؤلاء الجنود أن يتحملوا الكثير ويعيشون على القليل . شن حكام مصر حربا على الجزيرة العربية طوال عشرين عاما؛ ولكنهم فشلوا فى النهاية، نظرا لأنهم أنفقوا الكثير من أجل السيطرة على بلد فقير. كان الجيش الرومانى الذى أرسله أغسطس Augustus بقيادة إليوس Aelius جالوس (*) Gallus ،

(*) أرسل القيصر الرومانى أغسطس فى عام ٢٤ ق. م حملة بقيادة إليوس جالوس حاكم مصر الرومانية للاستيلاء على اليمن ومن ثم التحكم فى طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ . وقد تعرضت هذا الحملة لأمراض وأوبئة فضلاً عما لقيته من متاعب لا حصر لها بسبب وعورة الطرق ، ومن ثم اضطرت الحملة إلى العودة لمصر . وقد ألقى الرومان تبعة فشل هذه الحملة على عاتق الأنباط الذين اتهموهم بخيانة مرشديهم والسعى عمداً لإهلاك جنودهم . وكان فشل تلك الحملة سبباً فى قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية فعدلوا عن فتح بلاد اليمن عسكرياً واكتفوا بالسيطرة على التجارة البحرية وتحسين علاقاتهم بالحميريين الذين كانوا يتحكمون فى سواحل بلاد العرب الواقعة على البحر الأحمر وسواحل المحيط الهندى وذلك طبقًا لما جاء فى كتاب الطواف حول البحر الأريترى Periplus Maris Erythraei . (المراجع)

كى يجعل من ثروات اليمن السعيد غنيمة له كان يضم حوالى ١١٠٠٠ رجلا من الإيطاليين ومن الحلفاء. مشى ذلك الجيش طوال ستة أشهر فى أرض خراب خالية من الماء! هذا الجيش ضلله أنباط بيترا الذين كانوا حلفاء للرومان. وفى نهاية تلك المسيرة الطويلة استولوا على نجران عن طريق اقتحامها: وعلى بعد مسافة تقدر بستة مخيمات فى اتجاه الجنوب، اصطدموا بعدد هائل من الناس كانوا قد تجمعوا على جانب أحد الغدران، لصد هجوم الروم. سقط فى تلك المعركة عدد كبير من العرب يقدر بالآلاف! ولم يسقط من الروم وحلفائهم سوى جنديين فقط. حارب أهل الجزيرة، بوصفهم رجالا لا يعرفون طريقة استخدام السلاح، باستعمال المقاليع Slings ، والسيوف والحراب والفئوس ذات الحدين. كان الرومان فى أبعد مواقعهم، على بعد مسافة رحلتين فقط من بلاد البخور. وعند العودة، قاد القائد البقية الباقية من جنوده، على امتداد أكثر من ستين رحلة إلى ميناء الحجر، ومات باقى الجنود بسبب البؤس والشقاء الذى لاقوه على الطريق الصحراوى المخيف: لم يسقط من الرومان فى القتال سوى سبعة جنود فقط! – واقع الأمر أن الشاعر الفارس الرومانى كان يستحق ما هو أكثر من الفضيحة التى لحقت به بعد ذلك ، لأنه لم يحقق أحلام جشع القيصر! أما الأوروبيون الذين انخدعوا بفعل كثرة كلام العرب، فقد كانت لديهم، فى كل عصر، فكرة خيالية عن ذلك البلد المجهول العامر بالمصائب.

هؤلاء الإيطاليون الذين بدءوا يطالعون الطبيعة القاحلة الجرداء فى الجزيرة العربية، والذين كانوا يستشعرون الضغينة والبعد لأنهم كان يتعين عليهم نقل الماء على الإبل، هؤلاء الإيطاليون أوكلوا كل ذلك إلى مكر وخيانة مرشديهم. واكتشف الجنرال الرومانى أن سكان هذه الأرض "شعب غير محارب، نصفهم يتعيش من التجارة والبيع والشراء، والنصف الثانى يتعيش من السرقة والسلب والنهب" [مثلما هو الحال فى الوقت الراهن (*)] . هؤلاء العرب القدامى كانوا يلبسون غطاء رأس، (راجع الجزء الأول) ، وكانوا يتركون خصل شعورهم تكبر وتنمو نموا كبيرا:

(*) المقصود بالوقت الراهن ، الزمن الذى كان فيه دوتى فى الجزيرة العربية . (المراجع)

والغالبية من هؤلاء الناس تحلق اللحى، ولا يتركون فيها سوى الشفة العليا، أما الجزء المتبقى من هؤلاء الناس فكانوا لا يحلقون شعورهم أولحاهم. – " يقول بلنى Pliny ، المؤرخ الرومانى، "إن هؤلاء البدو الرحل الذين يسكنون خياما من الشَعر هم من سكان الأطـراف ومناطـق الحـدود، ويثيرون الكثير من القلق والاضطرابات" [مثلما يفعلون فى الوقت الراهن] وهذا هو سترابون Strabo ، المؤرخ، يكتب نقلا عن لسان جاليوس Gallus نفسه، الذى كان صديقا له، والذى كان واليا Prefect رومانيا على مصر، يكتب واصفا صحراء الجزيرة العربية وصفا جيدًا يصعب أن يتفوق عليه أو يبزه أى وصف آخر." أرض رملية قفر جرداء، ليس فيها سوى القليل من النخيل وآبار الماء وتنمو فى هذه الصـحـراء أشـجـار السنط وأشـجـار الإثل والطرفـاء؛ والعـرب الجـائلون فى هذه الصحراء يسكنون فى الخيام ويرعون الإبل."

كان الوقت يصادف عودة الحج : وراجت (كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية) شائعة كانت توحى بالأوجاع والإنذارات! وخلال موجة مفاجئة من المطر (المدارى) أدى السيل العرم الناتج عن ذلك المطر، إلى تدمير ربع مساحة مكة على وجه التقريب؛ كما انتشر وباء الطاعون بين الحجاج: يضاف إلى ذلك أن شريف مكة العظيم، أصيب بالمرض أيضا، وهو يرافق الحج إلى المدينة (المنورة). – وعندما أتينا على ذكر كلمة "الوباء" el-Waba شحبت بشرة وجه عبد الله السوداء، وراح محمد النجومى يتكلم بصوت خفيت: " قائلا، سوف ينتشر عما قريب فى خيبر!" وأدلى العم محمد برأيه فى المجلس فى قهوة الحاكم،"بألا يخاف أحد من الموت، وأن يقوم الناس بأعمالهم اليومية المعتادة، ويلقون بهمومهم على الله وحده." عبد الله: "وهذا هو خليل، وهو حكيم: ما رأيك، يا خليل." – "يمكن أن يكون هناك حجر صحى." – "عسى As الله Ullah صحيح Sahihh ، – بمعنى، ربنا يلْطف؛ وسوف يتحقق ذلك؛ ولكن هل تعرفون ، يا سادة، أين سيكون مكان ذلك الخطر؟ – خلف منطقة عطو Atwa . "زد على ذلك أن الخلاف دب بين المغاربة فى مكة، فيما يتعلق بميراث أولئك الذين ماتوا بسبب الطاعون، – الذى سبق أن انتشر بينهم. وفى النهاية بكر المغاربة بالمسير قبل ثلاثة أيام، من رحيل كل من القوافل السورية والقوافل المصرية، إلى المدينة المنورة.

وعندما وصل المغاربة إلى المدينة المنورة منعهم الباشا من دخولها؛ قال: بوسعهم الحضور فى عام مقبل لزيارة النبى، ولكن المغاربة المشاكسين أرسلوا الرسالة التالية للباشا، أو إن شئت فقل: إلى الحاكم التركى للمدينة المنورة، "اسمح لنا بزيارة النبى بالطيبة وإلا سنزوره بالغصبية وبحد السيف. هل أنت نصرانى؟ عجبا لك يا من يمنع الحجاج من زيارة النبى!" - واستسلم الباشا لنداءاتهم، بأسرع ما يمكن. دخل المغاربة بهرجهم ومرجهم، وحبس سكان المدينة المنورة، أنفسهم فى منازلهم، وهم يرتجفون خوفا من انتشار الكوليرا بينهم خلال سويعات قليلة. وورد أيضا تقرير من الشمال مفاده أن قطار البضاعة احتجزه بدو الفكارة فى منطقة الأخضر el-Akhdar . - وهكذا نجد أن كل عام فى الجزيرة العربية لا يخلو من سيل كبير من الإنذارات والتحذيرات.

عاد إلينا بعض المتسوقين من المدينة المنورة بأخبار عن عقد هدنة فى الجهاد الدينى العظيم ضد النصارى (*): كان عدد القتلى فى المدينة المنورة يقدر بحوالى خمسة عشر قتيلا من الرجال. كان هؤلاء الرجال من جنود العقيدة الذين كانوا يقاتلون بمحض إرادتهم، نظرا لأن مبدأ التجنيد لا يسرى على الحرمين الشريفين. قال لى العم محمد إن عددا كبيرا من الرجال قدّموا أنفسهم فى بداية الأمر: واندفعوا من بوابات المدينة (وكان كل واحد منهم يحمل كفنه معه) وخيموا خارج المدينة المنورة؛ وكانوا قد اقسموا يمينا وقسما، ألا يدخلوا المدينة المنورة مرة ثانية إلا ومعهم نصر المسلمين. - الشىء نفسه حدث فى مطلع حرب القرم Crimean War (**) : عندما اندفعت أعداد كبيرة من الشباب وسجلت نفسها فى صفوف المجاهدين، وكان محمد النجومى، على وشك الانضمام إلى هؤلاء الشباب بفعل إقناع أحد أصدقائه له؛ ولكنهما عندما كانا

(*) الإشارة هنا إلى معاهدة سان استيفانو التى وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية والتى أنهت الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٧ . (المراجع)

(**) كريميا Crimea ويصح فيه أيضا القرم وهى شبه جزيرة طولها من الغرب إلى الشرق يقدر بحوالى ٢١٠ ميل و١٢٠ ميل من الشمال إلى الجنوب وهى تقع على الجانب الشمالى من البحر الأسود. (المترجم)

على وشك الإبحار أصابهما المرض ومنعهما من السفر: كما غرقت أثناء الرحلة السفينة التى كانت تقل أولئك الشبان إلى ذلك المكان!

استمعت وأنا أتألم للحديث الذى دار فى قهوة عبد الله السروان؛ والذى كان يدور حول قسوة المسيحيين على الأسرى المسلمين. حبس النصارى عددا كبيرا من المسلمين فى أحد المنازل. وشبوا نارا فى الحطب من حول جدران ذلك المنزل، وحرقوا أولئك المسلمين أحياءًا – وكان من عادة النصارى أيضا أن يحفروا حفرة فى الحقل ويملؤنها بالبارود، وينسفوا بها عددا كبيرامن المسلمين.، – "قال العم محمد: يا شيخ خليل ، أنا لم أتعجب من شيء أكثر من رؤيتى لك وأنت هادئ ومسالم؛ والسبب فى ذلك أننا نسمع أن النصارى أصحاب طبع عنيف وأنهم يثيرون الكثير من المتاعب."

اتجهت جماعة من حريم القرية إلى المدينة المنورة ليبعن ما لديهن من ضفائر سعف النخيل. هذه الضفائر عبارة عن لفات طويلة من سعف النخيل يمكن إخاطتها بعضها ببعض لصنع الحصير؛ كما يصنعون من هذه الضفائر أيضا القفف والمقاطف والزنابيل. وهم يصنعون تلك الضفائر من السعف الأخضر اللين الذى يوجد فى أعلى ساق النخلة. وهم يربطون سعف النخيل على شكل حزم، ويكوِّمون تلك الحزم إلى أن يحين موعد استعمالهم لها. قطع ذلك السعف يحدث أضرارا فى النخيل: والنخلة التى يجرى قطع سعفها بهذه الطريقة لا تعطى (على حد قولهم) فى الموسم القادم (أى بعد ثمانية أشهر) سوى نصف المحصول الذى كانت تعطيه كل عام؛ هذا يعنى أن موسم الخريف كان ينطوى على خسارة تقدر بعشرين قرشا (لكل نخلة من النخيل الصغير فى خيبر). يضاف إلى ذلك أن كل الضفائر التى يمكن الحصول عليها من ساق واحدة من سيقان النخيل، لا تساوى سوى ثلاثة قروش أى ما يعادل ست بنسات فقط! – ومع ذلك، فهذا عرف وعادة هنا بين الناس: ونصف هذه الخساره تقع على عاتق البدوى الغائب؛ يضاف إلى ذلك، أن ربات البيوت، اللاتى لا تتوقف أيديهن عن العمل، يرين أنهن يفعلن شيئا ما عندما يقمن بضفر ذلك السعف. لأن النقود التى تعود عليهن من ضفر السعف، إنما تكون ملكا لهن، وبالتالى يمكن للواحدة منهن أن تشترى بتلك

النقود مشلحا Mishlah (عباءة) خفيفا، وثوبا جديدا أيضا. ونخيل خيبر لا يعرف الناس له عدداً؛ وفى الواحات الأخرى فى الجزيرة العربية وكذلك فى المدينة المنورة (على حد قول الناس) لا يمكن قطع ولو سعفة واحدة من أعلى ساق أية نخلة من النخيل. أنواع النخيل كثيرة ومتعددة فى كثير من الواحات، والناس هنا يعرفون كل نوع من أنواع النخيل من شكله الخارجى العام: وهم يعرفون أن السعف الطرى فى بعض أنواع النخيل هو الذى يصلح لعمل الحصير. وضفائر السعف التى تأتى من خيبر تتمتع بسمعة طيبة فى المدينة المنورة: والباعة هم والتجار يقبلون الكثير من ضفائر السعف تلك سدادا لقيمة البضائع التى يبيعونها للناس فى فصل الخريف. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الباعة والتجار ينقلون من خيبر أحمالا كثيرة من نوى التمر، ويبيعون ذلك النوى فى المدينة المنورة بواقع خمسة قروش لكل صاع من النوى، أى ما يقرب من بنسين لكل ثمن جالون من ذلك النوى! ونوى التمر هذا يجرى جرشه وطحنه ليصبح طعاما للإبل فى أرض الحجاز المنخفضة التى تشويها الشمس: والناس فى نجد لا يهتمون بذلك النوى ويتخلصون منه.

عادت زوجة حمدان العفية، وهى واحدة من جاراتنا، من تلك الرحلة التى قامت بها جماعة من النساء إلى المدينة المنورة. كنت، فى ذلك الوقت، جالسا مع زوجها وبعض الناس الآخرين، فى منزله، وشاهدت تلك الزوجة وهى تحيى كل واحد من الحاضرين عن طريق إلقاء السلام عليه ثم قبلة حانية: فتلك عادة أمينة فى هؤلاء الناس، كما أن من عادة نساء البدو والذين يسكنون هذه المناطق، أن يقبلن معارفهن من الرجال بعد الغيبة الطويلة، وأن يتقبلن من هؤلاء الرجال العديد من القبلات بعد ذلك؛ وينظر الأزواج إلى ذلك دونما حرج، لأنهم إخوان. – أعراب آخرين شاهدتهم (فى سيناء) كانوا أغلى من ذلك بكثير، إلى حد أن المرأة عندما تلتقى ولد عمها فى الصحراء، تراهما يقفان على بعد مسافه ذراع بينهما، ووجهيهما يعبران عن الصرامة والجد، وهما لا يتلامسان إلا بأطراف أصابعهما. وبعد أن طبعت قبلة طيبة على العم محمد،" قال: إخ! ألم تقابلى أمى فى المدينة، وكيف حال تلك السيدة العجوز؟" – "إنها بخير، وهى ترسل لزوجتك وولدك حصين هذه اللفافة من الحلوى (حبوب وزبيب) .

ولكن يا محمد ! لقد كانت مشمئزة عندما بلغها أن نصرانيا يعيش مع ولدها في منزله؛ إخص ! قالت أمك لنا : ما هذا الذي تقله لي يا نساء خيبر؟ إن نصرانيا يسكن مع ولدي محمد؟ قولوا لمحمد يتخلص من ذلك النصراني بأقصى سرعة ممكنة؛ فما الذي يمكن أن يعود النصراني به علينا سوى غضب الله . رد عليها العم محمد بشيء من الوقار، يا شيخ خليل ، هل سمعت كلام السيدة العجوز؟ ومع ذلك فنحن إخوان ، فقد أكلنا سويا ، وهؤلاء البدو أصحاب تقاليع وخرافات . كانت أم العم محمد المسنة تحضر مع قوافل الصيف من المدينة المنورة لزيارة ولديها ولتمضية بضعة أسابيع مع ولدها محمد في خيبر.

لم يكن في الواحة حدّاد : وكان النجومي بعد أن تحسنت أحواله المادية قد تخلى عن حرفته القديمة . كان بعض الصلوبة Solubbies يأتون ،.راكبين حميرهم ، إلى خيبر قادمين من منازل الحطيم، وكانوا يأخذون معهم أعمال الحدادة والسمكرة التي يجدونها في خيبر، ليعودوا بها ثانية لأصحابها بعد أيام عدة، بعد أن يكونوا قد عملوا المطلوب فيها . والناس هنا لايصنعون سوى أحجار الرحى التي تستخدم لطحن الحبوب، وكل أسرة من الأسر هنا تستطيع صناعة أو عمل تلك الأحجار . وقد وجدت أن عمل حجر من تلك الأحجار لايستغرق سوى عمل نهارين فقط يتم خلالها اختيار حجر البازلت وقطعه بالشكل المطلوب . وبدو الفجير Fejir في ديرتهم يصنعون تلك الرحى من الحجر الرملي؛ يضاف إلى ذلك أن بعض القبليين الفقراء من قبيلة الفكارة يحضرون معهم تلك الرحى ليبيعونها في خيبر في سوق الخريف . من هنا فقد كنت أشاهد بدو الطوّارة Towwora وهم يحملون حجرين من أحجار تلك الرحى التي يصنعونها من الجرانيت في سيناء وينقلونها بعد ذلك إلى مصر . وبدو بني عطية في العويرض يصنعون تلك الأحجار من الجرانيت ومن الصخور البركانية . [الجزء الأول]. من بين أدوات الأسر في الجزيرة العربية تجيء قراب الماء التي يصنعونها من جلود الماعز، في المقام الأول . ثم تليها في الأهمية الرحى ، وهذان الشيئان هما ألزم ضروريات الأسرة في الجزيرة العربية. وطحن القمح من الأعمال المنوطة بها النساء والصوت الكئيب للطواحين الدوارة يبدو كما لو كان صوتا مريحا من أصوات الطعام

فى أية قرية من قرى الجزيرة العربية ، التى لاتسمع فيها طوال ساعات الشمس الحارقة سوى الصوت البشرى فقط . أصوات تلك الرحى يسمعه الناس قبل طلوع النهار فى منازل البدول الرحل ؛ ونظرا لثقل وزن الرحى ، ونظراً أيضا لقلة ذلك الذى يطحنه الناس بصورة عامة فإن تلك الرحى لاتوجد إلا فى بيوت المشايخ الكبار . ومن هنا فإن الكثيرين من الناس يطلبون استعمال تلك الرحى ، والذى يطلب ذلك الاستعمال أولا ، يتعين عليه أن يبدأ فى ساعة مبكرة ولقد شاهدت الأعراب الجائلين ، فى فصل الصيف الطويل ، وهم لايخلفون شيئا وراءهم ، سوى الرحى الثقيلة التى يتركونها فى مكان ما، حيث يمكنهم العثور عليها فى يوم ما بعد ذلك. والناس هنا يقولون إن ذلك يبدو كما لو أن الناس يقولون : «الناس جوعانين ، وليس لدينا شىء من الطعام؛ بمعنى أن الشيوخ من هؤلاء وأولئك قد تخلوا عن رحاهم». – وربات البيوت العربيات يصنعن خلطات لذيذة الطعم من الحبوب ، وهم لاي ضيفون إلى تلك الخلطات سوى قليل من الملح والسمن، وهذه الخلطات أفضل بكثير مما تصنعه البلاد الأوروبية الفقيرة من الحبوب؟

لدى العرب فى الصحراء المقدرة الطبيعية التى تمكنهم من عمل الأشكال التى يودونها من أحجار الصحراء. فقد شاهدنا البدو وهم يشكلون رءوس غلايينهم (العُرفى aorfy) بهذه الطريقة – كما أنهم يشكلون أيضا الأقداح التى يصنعونها من الحجر ويستعملونها فى طحن البن ، وهم يصنعون من الحجر أيضا خرزات كبيرة ويثقبون تلك الخرزات باستعمال مسمار كى يحولونها إلى رءوس يركبونها فوق عكاكيزهم وهراواتهم . وقد رأيت بعضا من تلك الكرات . وكانت مصنوعة من الرخام الأبيض الذى يجلبونه من صحراوات الشمال «من المنطقة المحيطة بالجوف»– شاهدت أيضا أنواعا أخرى من الرءوس يصنعونها من مادة أخرى يطلقون عليها اسم «العلك» el-elk؛ وهم يقولون إن ذلك العلك عبارة عن عصارة يحصلون عليها من نبات أو إن شئت فقل : عشب منخفض ينمو فى صحراء النفود ؛ وهذا العشب يطلقون عليه اسم الموتّى el-motti وربما كانت تلك المادة نوعا من الكاوتشوك ، أو إن شئت فقل : نوعًا من المطاط غير المجلفن.

كانت جماعة من الشباب فى القرية قد خرجت لإحضار بعض الأعلاف البرية، ولبيع التمر لحجاج موكب الحج الصاعد إلى منطقة "ستورة" Stoora . - وصل اثنان من أفراد هذه الجماعة فى ساعة متأخرة من فترة المساء (قبل الموعد المحدد)؛ "كان واحد من هذين الاثنين قد فقد صوابه، فى حين رفض الآخر الكلام لحين طلوع النهار." كان القرويون مشدوهين وشاردى الأذهان إلى أن يتمكن ذلك الرفيق من العثور على لسانه، وراح أولئك القرويون يتهامسون - طالما أنه ليس هناك حد للمصائب فى هذه البلاد - إن مكروها كبيرا قد وقع لهذين الشابين، أى أن البدو المعادين لهم قاموا بقتل عيالهم." وأن العويل العام لم يكن له داع فى تلك الليلة. وفيما يخص ذلك الذى عاد إليهم وقد أصابه مس من الجنون قالوا: "والله، هناك أسباب يمكن البناء عليها ومفادها أن المرء عندما ينام قد يتلبس الجان جسده." فى الصباح، اختفى ندم القرية وألمها كما لو كان سحابة من سحابات الأمس، وهذه هى طبيعة منغصات العرب كلها! - ذلك القلب الذى لا يحظى بالتغذية والغذاء الكامل، فى ظل هذا المناخ شديد الحرارة بفعل الشمس وقسوتها، يصعب أن يكون قويا فى تلك الأجساد العربية. هؤلاء الذين كانوا غائبين فى ستورة Stoora أصابهم دمار كبير، ومرت قافلة الحج، وبعدها بأيام قلائل كنا قد تخلصنا من الوباء.

يرافق باعة الأسواق جماعات البدو الرحل وهى تنتقل من خيبر إلى المدينة (المنورة) فى خمسة مسيرات. وطوال هذه المسيرات أو الرِّحلات، يمشى أولئك البدو إلى وقت دخول الظهر، وعندها ينزلون عن دوابهم ويتركونها ترعى فى المرعى؛ ولكنهم أثناء العودة وعندما لا تكون دوابهم محملة يقطعون تلك المسافة فى ثلاثة مسيرات فقط. معروف أن الطريق إلى المدينة المنورة تقطعه الإبل والنياق فى اثنتى أو أربع عشرة ساعة ؛ وفى كثير من الأحيان، كان العم محمد يقطع ذلك الطريق سيرا على الأقدام، فى يومين فقط من أيام الصيف. والقرويون يعدون ضيوفا فى المدينة المنورة، إذ يقضون الليل فيها، فى منازل معارفهم. هؤلاء القرويون عندما يبدءون الرحلة من خيبر يمشون مسافة تقدر بما يزيد على ثلاثين ميلا بيْن الأحجار البركانية فى الحرَّة، وبخاصه أن الحدود الجنوبية - الغربية لتلك الحرة تصل إلى وادى حمض Humth .

والسائر فى هذا الطريق يشاهد أطلال بنايات من الحجر [من عصور قبل عصر (النبى) محمد (ﷺ)] ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الأطلال اسم بيوت houses اليهود Jews ، وهناك الكثير من المبانى المشابهة لهذه البنايات، حول المدينة المنورة.

وعلى بعد سويعات قليلة من خيبر توجد آثار بعض السدود القديمة الكبيرة - منها بنى Beny البنت el-Bint ، بمعنى 'بناية البنت،' وهذه البناية موجودة فى وادى ثمود Thammud ، وهذا الوادى يشكل الرأس العليا بالنسبة لوديان Wadian خيبر كلها؛ وبناية الحصيد el-Hassid ، توجد فى قاع وادٍ من الوديان يحمل هذا الاسم نفسه. وسد وادى الحصيد الذى معناه 'وادى الحصاد' مبنى من طبقات كبيرة تتناقص مع ارتفاع السد: والأحجار السفلى فى هذا السد كبيرة الحجم وضخمة، ولكن البعض من تلك الأحجار جرى جرفها من أماكنها نحو الأسفل بفعل قوة السيول العارمة التى تجتاح هذه المنطقة فى فصل الشتاء. والطبقات العليا من ذلك السد فيها شروخ حتى يمكن مرور مياه الرى خلالها . ورأس السد تبلغ من الاتساع حداً يسمح بمرور اثنين من الخيالة وهما راكبان فوق جواديهما: - وبهذه الصورة راح العم محمد يعظم ذلك الأمر الذى يتحدث عنه. ذات مرة، وعندما كان العم محمد فى سنوات الشباب، دعاه رجل آخر من رجال المدينة المنورة، أن يشاركه، وينزلا لاستيطان منطقة قاع السد والاستقرار فيها :.وأنهما سوف يحضران مجموعة كبيرة من أصدقائهما، ويشترون أمنهم وسلامهم من أعراب (قبيلة حرب) [وهم أهل العم محمد ونويه] نظير خوة Khuwa سهلة وبسيطة . ولكن الأمر لم يتعد مجرد الكلام فقط نظرا لأن العم محمد لم يكن على استعداد لإهدار أفضل سنى عمره فى مغامرة غير محسوبة.

حكى لى أمان هو وبعض أصدقائه أنهم شاهدوا كثيرا من النقوش المسجلة على جانب الطريق فوق جبل (الروضة Rowda الواسعة) على الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع. وقالوا: إن فى الروضة أحجارا جيدة للبناء. والانحدار هنا يستمر مسير ساعة أو ساعتين على هذا الجانب من ينبع فى منطقة النخيل، والمسافة من منطقة النخيل هذه إلى ينبع البحر تستغرق مسير ليلة كاملة: والقرويون هنا يبدءون هذه

الرحلة عند غروب الشمس، خوفا من اللصوص وقطاع الطرق ، ويصلون إلى شاطئ البحر قبل طلوع النهار. وجهاينة(*) الروضة يشبههم المسافرون إلى المدينة المنورة بالقردة. وهم لا يلبسون سوى مجرد مريلة من الأمام ومن الخلف ومربوطة بخيط أو حبل . وينبع النخيل تشبه خيبر إذ إنها عبارة عن مجموعة من القرى المتجاورة ، ومقامة على واد طبيعي ، وهذه القرى يسكنها أناس من أمتى حرب وجهينة ، وهناك شارع يفصل بين قريتي جارJar والحصن Hosn، اللتان تنتميان لهما وهجرة (كفر) البوذناب el-Buthenab إلى بنى إبراهيم أو إن شئت فقل: البراهيميين -Bar ahimma، وهم من قبيلة جهينة، والسويجى Sweygy أو إن شئت فقل : السواقة Suaka ، هى وهجرة إمبارك Imbarak المجاورة لها من مستوطنات قبيلة حرب . وقرية جار هى وقرية حصن كانت بينهما وبين السواقة خصومة دامت أربع سنوات.؛ إذ كانوا يتنازعون حق ملكية مرعى من مراعى الأغنام . فى تلك الأجزاء يوجد موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم كسيبرة Kesyberra . وشريف السواقة Suaka رجل محترم وله وزنه وله منزل مقام فى منطقة الميناء ، ويحصل على صرة سنوية نظير رعاية الحج المصرى.

حكى لى العم محمد الذى جاب المنطقة البركانية كلها أثناء قيامه بالصيد ، حكى لى عن طبوغرافية وديان خيبر ، التى يقال عنها هنا إنها «سبعة وديان تقع إلى جوار بعضها البعض فى الحرّة(**). لم يكن ذلك الرجل يعرف شيئا عن غوامض الخرائط ، بالإضافة إلى أن الخريطة التى حكى لى عنها لم تكن دقيقة أو مقبولة : والوادى الرئيسى بين هذه الوديان هو وادى الجوراس el-Goras، هذا الوادى ، فى المنطقة السفلى منه ، يمتد على شكل قناة عميقة يطلق عليها (بداية من غدير Ghradir الطير el-Teyr بمعنى بركة الطير) اسم الطبج el-Tybj ، وهناك وادى السليسلة الأكثر انخفاضا الذى يمتد إلى أن ينساب فى وادى الحجاز القاعى العظيم، الذى يسمونه

(*) الجهاينة : من قبيلة جهينة . (المراجع)

(**) تقع مدينة خيبر قبل المدينة المنورة بقليل ، وتقوم على وديانها السبعة سبعة أحياء يشغل كل حى واديًا من وديانها الذى تتوافر فيه ينابيع المياه العذبة. (المراجع)

وادى حمض . بالقرب من منطقة حدية Hedieh ، عند قلعة طريق الحج. وادى الطبج Tubj ، يستقيم فى بعض الأماكن فيما بين صخور الجبال، الأمر الذى يتعذر معه مرور ركاب الإبل بين هذه الصخور ؛ وعندما تنهمر أمطار الشتاء، تتناهى إلى مسامع الناس أصوات هدير المياه . القسم الأكبر من خلجان هذا الوادى فيها الكثير من المواقع الأثرية والآبار التى كانت تشرب منها الهجر (الكفور) القديمة. والوديان الجانبية توجد فيها بحيرات ضخمة ينمو فيها الغاب والبوص ، كما ينمو فى القيعان العميقة نخيل الدوم وأشجار السدر.

ووادى القرى Koora يتصل بوادى حمض ، قبل قلعة السُّجوة Sujwa بمسافة قليلة على طريق الحج . وعلى مسير يوم على الدرب نفسه فى قاع ذلك الوادى وفى اتجاه المدينة المنورة ، هناك مكان يطلقون عليه اسم مليلية Mleylieh ، توجد فيه «مقابر بنى هلال»، ويمتد لمسافة طويلة وبه سلسلة من الأحجار الجبلية الكبيرة . حكى لى العم محمد أنه فى إحدى جولاته ، توقف مع بعض أفراد القافلة لقياس هيكل عظمى كشفه سيل الشتاء العرم، وأن ذلك الهيكل العظمى كان لواحد من الأبطال القدامى، ووجدوا أن طول ذلك الهيكل العظمى كان عشرين خطوة . وأن الموقع ربما يكون قاعا من الطمى ، وفيه رسوبيات عظمية لحيوانات ضخمة (ربما تكون حية أو منقرضة) ، كما شاهدوا أيضا المخلفات العامة الباقية من الكتل التى جرفتها المياه- والحنكية Hena- kieh ، قرية من قرى الزنوج ، وتضم أربعين منزلا ، وفيها حامية صغيرة من الجنود وتابعة للمدينة المنورة . والماء هنا يمكن الحصول عليه على عمق يتراوح بين عشر قامات وخمس عشرة قامة (*)؛ ومع ذلك أمكن مؤخرا الكشف عن بعض العيون المدفونة والمجارى المائية المدفونة التى جرى إصلاحها وإعادتها إلى العمل مرة أخرى . ويبدو أن المكان- فوق وادى حمض يضم العديد من بيارات أشجار النخيل، التى تقع إلى جوار بعضها البعض.

(*) القامة تساوى ستة أقدام . (المترجم)

قدم لى العم محمد بعد ذلك صورة طبوغرافية فجة للمنطقة البركانية التى تحيط بالمدينة المنورة. قال [انظر الخارطة الكبيرة] : "إن حرّة العنابس el-Anabis – تقع على بعد مسافة مماثلة فى الناحية الجنوبية وناحية الشرق أيضا؛ كما أن حرة لافات Lavat العقال el-Agal تقع ناحية الشرق. كما أن كل هذه الحرّات تعد حرة واحدة – هى حرّة المدينة المنورة." يقول البدو إن تلك الحرة تستغرق مسير رحلتين أو ثلاثة رحلات من ناحية الجنوب وهى فى هذه المنطقة عبارة عن طُفوح بركانية فيها الكثير من الرُّبى: وهى هنا تقترب من الحرة الرئيسية (ولكن فيما بينهما مساحة من السهول الرملية) تحت أسماء عدة مثل حرة بنى Beni عبدالله Abdillah وحرة الكشيب el-Kisshub (ويصح فيه أيضا Kesshub أو Kusshub) مكونة بذلك تلك السلسلة البركانية الشاسعة التى تهبط نحو الجنوب متجهة إلى مكة المكرمة، لتلاصق وادى فاطمة وتجاوره. – وأسفل خيبر، وفى اتجاه وادى حمض توجد بعض البرك (غدران)(*) فى الصحراء [انظر الجزء الأول] ويوجد فى تلك البرك كثير من الأسماك الكبيرة التى يقول العرب: إنها سمينة تماما، ولدى بعض الخيابرة شباك، ينصبونها فى فصل الصيف لصيد هذه الأسماك.

كان عبد الله السروان قد ربطه العم محمد بى بعد أن نشبت بيننا الصداقة الحميمة وهو يقول: "أنا أتركه بين يديك، وسوف أطلبه منك مرة ثانية؛" وعندما كان محمد النجومى يغادر منزله كنت أرافقه. والقرويون لديهم كثير من الأبقار الصغيرة التى يرعونها كل صباح على بعد ثلاثة أميال من الفجيرة Figgera ، حيث يوجد قاع كبير به مرعى رطب، يطلقون عليه اسم الحلحال Halhal ، وهذا الحلحال جزء من وادى الجّلاس Jellas . ذهبت ذات يوم إلى هناك بصحبة العم محمد لرعاية بعض أدغال النخيل المهجور وإحضار بعض الفسائل. المنطقة الوسطى من ذلك الوادى عبارة عن برك ينمو فيها نبات الغاب والقصب. الكلأ فى هذه المنطقة ليس من العشب

(*) استعمل المؤلف كلمة Ghradran ليدل بها على الكلمة العربية "غدران" Jhudran وواحدة "غدير" . (المترجم)

أو الحشائش بالرغم من أنه يبدو كذلك، ولكنه عبارة عن نوع من نباتات السمار غير الصحى الذى لا يصلح إلا للماشية المنزلية. هذا يعنى أن البقر اليمنى الصغير، الذى يمكن شراؤه من المدينة المنورة بواقع ثمن نعجة واحدة لكل بقرة، يمكن أن يموت فى هذه المنطقة إذا ما تغذى على ذلك السمار: يضاف إلى ذلك أن ماشية قرية الحيات التى تربت فى الأراضى الجافة والتى يتردد ثمن الواحدة منها ما بين اثنى عشر إلى خمس عشرة ريالا، لا تستطيع العيش أو يتحسن حالها فى خيبر؛ من هنا فإن البقرة الجيدة فى خيبر تساوى حوالى ثلاثين ريالا. وفى هجرة الطيور يشاهد الناس كثيرا من الطيور المائية فى الحلحال، كما يشاهدون أيضا طيور الخبارى فى فصل الصيف فى هذه المنطقة أيضا. ومن تلك الأدغال يصنع الرعاة القرويون مزاميرهم من الغاب الجاف الذى يحصلون عليه من الحلحال. وتكاد تضيع فى كل يوم من الأيام رأس من الماشية وسط تلك الأدغال الكثيفة، ويتحتم على الرعاة التخلى عنها عندما يحين موعد العودة بالماشية إلى المنزل فى المساء؛ والذى لا شك فيه أن الرعاة يعثرون على هذه الرأس فى صباح اليوم التالى. وربات البيوت القرويات يجئن إلى هنا حافيات أثناء الحر القائظ لكى يجمعن جريد النخل الذى (يستعملنه وقوداً وحطبا).

قطع العم محمد بعضا من سيقان النخيل ، وفى الحلحال تغذينا على قلب النخيل أو إن شئت فقل على الجمَّار Jummar ؛ والجمَّار هذا صحى تماما؛ والقرويون يجلبون ذلك الجمار إلى منازلهم على سبيل الحلا، وهم يطلقون على ذلك الجمار بلهجاتهم الزنجية اسم "الجن الخيبرى". كانت شمس الصيف ساخنة تماما فى ذلك المكان، ووسط هذه الحرارة التى تبعث على العطش أرانى العم محمد حفرة من حفر الماء؛ – ولكنها كانت مليئة بالطحالب السابحة ورفضت الشرب منها. "قال الرجل: يا خليل، نحن لسنا على مايرام،" وذكر الرجل اسم الله! وبرك على صدره وشرب من الماء جرعة كبيرة. فى بداية الحلحال عثرنا على صخرة مكتوب عليها بعض الكلمات بالأحرف العربية القديمة "محل Mahal الوعى el-Wai التى قرأها علماء وجار القهوة (الأميين) على أنها "مراعى الماشية؛ وبعيدا عن الطريق هناك موقع آخر فوق الفجّارة يطلقون عليه اسم سوق Suk الرولة er-Ruwalla . وهناك نبع يحمل هذا الاسم فى المدينة المنورة؛

كانت الحنكية تنتمى منذ قديم الأزل إلى قبيلة عنزة (الموجودة حاليا فى أقصى الشمال) وهناك حاليا بعض العائلات التى تنتمى إلى هذه السلالة . ليست هناك ماشية أكبر حجمًا من البقر فى خيبر ؛ والقلة القليلة من الماعز يرعاها تحت النخيل ، الأطفال الذين يطلقون عليهم اسم القياطين Geyatin .

فى يوم آخر صعدنا إلى الحرة لجلب شىء من الحطب . كان العم محمد أثناء قيامه بالصيد، قد شاهد بعض الأشجار النادرة ؛ وكانت تلك الأشجار تبعد عنا مسافة خمسة أميال . تجاوزنا الفجَّارة فى صباح الشتاء قارس البرودة ونزلنا بعد ذلك إلى وادى الجلاَّس ؛ وجاءنا حصين راكبا على ظهر الحمار . فى القاع عثرنا على بعض الحفر الواسعة التى كانت تحتوى على ماء بارد برودة الثلج . «قال محمد : سوف يقطع أطرافك ، أنت لن تستطيع عبور هذا الماء». وجدت أن الرجل كان على حق فيما قال؛ ولكن تلك الحفر كانت صلبة إلى حد أن الصبى ساعدنى على عبورها فوق حماره الذى كان غارقا فى ماء تلك الحفر إلى منتصفه . كان محمد قد سبقنا على ظهر فرسه، كان حصين يستحث الحمار عن طريق الضرب نظرا لأن والده محمد النجومى كان يستحثه ويشير إليه وهو قلق متعجل . والناس هنا يرون أن البقاء لوقت طويل فى مثل هذه الأماكن يعد أمرا خطيرا، ولذلك راح حصين مع كل ضربة يوجهها إلى جحشه الصغير ، يتلفظ بإهانة من تلك التى كان والده يوجهها إليه ؛ ووصلنا بعد ذلك إلى أشجار السنط. ورحنا نهيل أحجار الحرة من حول تلك السيقان الجافة ، الأمر الذى جعل جذوع تلك الأشجار تسقط أمامنا : - ورحنا بعد ذلك نلقى الصخور فوق تلك الجذوع كى نقطعها إلى قطع صغيرة ، حمَّلناها على ظهر الجحش وعدنا بعد ذلك إلى البيت.

سلكنا إلى المنزل طريقا آخرا، يمر بالقرب من قاع مرتفع وجاف ، شاهدت فيه بقايا أسوار من محوطات حقلية يطلقون عليها هنا اسم، أم ركبة umm Rukaba وتمتد إلى حوردة Hurda. هذه الحوردة من الأرض التى تجود فيها زراعة القمح ويصل عمق البئر هنا عشرة أقدام إلى صخر البازلت ؛ والماء الذى يخرج من تلك الآبار يكون عذبا

وسائغا للشاربين غير أنه يكون دافئا إلى حد ما . فى هذه المنطقة ، قام العم محمد مؤخرا بشراء حقل من حقول القمح له بئر خاصة به ؛ وبالأمس أوفد العم محمد اثنين من صبية البلد، ليوصلا ثورين إلى هذا الحقل وأوصاهما أن «يذهبا ويساعدا حصين فى الحوردة Hurda . «هذان الصبيان يعملان بجد ولا يأكلان أكثر من التمر الذى يجود به عليهما ذلك الرجل الذى أمرهما بالعمل ؛ هذان الصبيان يبيتان الليل ملفوفين فى عباءتيهما ، مستلقيان على الأرض الرطبة، بالقرب من نار كبيرة يشبونها فى حطب أشجار السنط والسمار، وهما ينامان فى كوخ من أغصان الشجر ، ويكونا قريبين من الماشية . وملاك هذه الأرض يرسلون له كل خمسة عشر يوما ثيرانهم لمدة ثلاثة أيام.

توجد فى وادى خيبر عين أو نبع يقال له عين Ayn سليليم Selelim؛ وقد ورد فى موروثهم أن يهوديا يدعى ابن Ibn سلَّم Sellem كان له بستان فى ذلك المكان ، وأنه دخل فى الدين الجديد فى المدينة المنورة ، وكان ذلك الرجل يدعى فى أيام خيبر (الوثنية) عبدالله Abdullah ابن Ibn سلاَّم Sellam. – وكان العرَّاف المغربى قد سبق له أن قال للناس هنا: إن معبداً قديما يحتمل أن يكون مدفونا فى ذلك المكان. قلت للعم محمد النجومى فى أحد الأيام: « هيا بنا نذهب إلى ذلك المكان فى هواء الصباح المنعش». ورد على :«بالرغم من أنه يخشى ألسنة الجيران ويخاف منها إلا أنه لن يخيب ظنى . كان طريقنا يمر من خلال وادى خيبر : وبينما كنا نسير فى طريقنا أسفل صخرة حمراء اللون، شاهدت منزلا منعزلا مبنيا من الطين، وكان ذلك المنزل عبارة عن غرفة واحدة فقط مبنية فوق الأرض. وقد أخبرنى العم محمد أن تلك الغرفة هى البيت الصيفى لواحد من البدو الأثرياء. ولكن بعد الانتهاء من بناء ذلك المنزل الجديد، وعندما تجاوز ذلك البدوى الثرى عتبة ذلك المنزل داخلا إليه مع أصدقائه سقطت على رأسه عارضة الباب الأفقية، ومات هذه الميتة المفاجئة! وفى منطقة عين سليليم توجد بعض البنايات الطينية– وهى عبارة عن البيوت الصيفية للعلايدة، شيوخ ولاد على. هذه البيوت التى يسكنها هؤلاء البدو الذين يعيشون أصلا فى الخيام، مكونة من طابق أرضى واحد، فيه عدد كبير من النوافذ حتى تسمح بمرور الهواء المنعش، [وهذه البيوت مثل بيوت البدو الصيفية الموجودة فى وديان النخيل المنخفضة فى سيناء] . زرت بيت

الشيخ مطلق؛ كان هناك بيت كبير لأسرة الشيخ، كما كانت هناك أيضا مساحه واسعة للمجلس، تشبه خيمة البدو، ومعزولة عن الشمس. - وهذه الحرارة الشديدة يمكن تحملها أثناء النهار داخل تلك البيوت المبنية من الطين، بدلا من الإقامة داخل الخيام الصوفية التي يعيش فيها الأعراب. بيوت البدو الصيفية هذه كانت أنظف بكثير من منازل القرية.

ماء العين نقي وخفيف، وعندما غمست فيه مقياس الحرارة وجدت أن درجة حرارته كانت ٨٢ْ فهرنهيتية. وعندما رأى العم محمد مقياس الحرارة وتفحصه، قال مندهشا، "آه! يا خليل، نحن غراشمين ghrashimin ، بمعنى 'نحن أجلاف وجهّال! "وعندما رأى العم محمد قطيعا من صغار الماعز بصحبة بعض الرعاة الصغار، الذين جاءوا ليحملقوا فينا ويطيلوا النظر إلينا قال الرجل متسرعا:" عجِّل يا خليل، وإلا سيذيعون هذا الخبر في القرية [زاعمين أننا كنا نبحث عن كنز من الكنوز]، ونحرم من أخذ قسط من الراحة بعد تلك الرحلة التي قطعنا فيها بضعة أميال." - "عجبا لذلك الرجل الشجاع الذي يخشى الألسنة السليطة! كانت مسألة مهادنة الدناءة والخسة والظلم عملية وضيعة." - "ومع ذلك ، هاهنا عالم من الزنوج المخبولين." واقع الأمر أن أحداً من هؤلاء العرب لا يمكن أن يجرؤ على الخوض في ذلك المد وينبرى لمعارضة تلك الحشود الحاشدة. - ومحمد النبي (ﷺ) هو الذي أبدى هذه الشجاعة الروحية الفائقة بين العرب!

كان عبد الله السروان قد أمر بوضع رفيقي الحبشي في غرفة محرم Muharram الذي توفي في أم كيدة؛ - السبب في ذلك أن أمان الذي حرره ضابط الصف الألباني الأصل، لم يكن بينهم سوى مجرد شخص ألباني يحمل رتبة أقل من رتبة ضابط الصَّف. عدت عندئذ إلى بيت خالٍ . كان عبد الله رجلا لعينا، ولربما يقتلني أثناء نومي؛ ثم يقوم بعد ذلك بإخطار الباشا، 'قد ينشرح قلب معاليكم أن تعلموا أن النصراني، عثر عليه صباح هذا اليوم قتيلا في مسكنه، وقد قتل على أيدي مجهولين.' كل أكواخ خيبر فيها سلم نقّالي، وفتحة مؤدية إلى سطح المنزل؛ وبالتالي يمكن المرور على أسطح

المنازل كلها عن طريق أسقف الشرفات، كما يمكن النزول أيضا نهارا أو ليلا إلى أى بيت من البيوت، عن طريق تلك الفتحات، ثم بعد ذلك إلى أية غرفة من غرف البيت : وهذه هى الطريقة التى يزور الجيران بها بعضهم البعض. لم أستطع قضاء الليل فى بيت محمد النجومى؛ لأنه لم يكن لديه سوى صُفَّة واحدة، الأمر الذى جعل ولده حصين يذهب للنوم خارج المنزل فى غرفة مستأجرة مع بعض الشباب الآخرين الذين هم فى مثل ظروفه. بعض أصحاب المنازل يفردون أثناء الليل، فى فصل الشتاء حصيرا فوق تلك الفتحات الموجودة أعلى المنزل، ولكن ذلك الحصير يمكن رفعه بسهولة ويسر دون أن يحس أحد بذلك ، ومعروف أن الناس هنا يكونون حفاة الأقدام. كان هناك بعض المجرمين على مقربة من المكان، نظرا لأن اللصوص سرقوا دجاج أحد الجيران أثناء الليل وهو واقف على شرفة المنزل الذى كنا نقيم فيه؛ وهنا خطر ببال أمان، أن اللص لابد أن يكون ذلك الرجل الحبشى الذى تعرفنا عليه من قبل : الواضح أن ذلك الحبشى كان غريبا بلا أدنى شك ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأحباش لا يأكلون من الدواجن سوى بيوضها! - وهذه مجرد خرافة من خرافات الخيابرة، الذين لا يستطيعون تبريرها أو تأكيدها؛ يضاف إلى ذلك أن الأحباش لا يأكلون الكراث الرومى (الكراث أبو شوشة عند المصريين).

كنت فى أحد الأيام جالسا مع أحمد النجومى فى منزله وجاءنا محمد الكردى لتناول القهوة معنا. تحدث الكردى معنا بشىء من السخرية والتهكم عن وفاة محرَّم: - فى عصر ذلك اليوم المشئوم "قال الرجل المريض،' اذهب يا محمد إلى عبد الله ،لأنى أفارق الحياة، وأنا لدى ما أريدك أن توصله له.' - 'أنا Ana نجَّاب Nejjab ، بمعنى هل أنا ساعى بريدك؟ إذا كان يعجبك ويرضيك أنك تفارق الحياة، فماذا يعنى ذلك بالنسبة لنا؟' - المصرى مريض. فى بداية الليل كان محرم جالسا معتدلا؛ ثم سمعنا حشرجة فى حلقه، - ثم سقط إلى الخلف وفارق الحياة! أبلغنا ذلك النبأ لعبد الله : الذى أرسل إلينا اثنين من العسكر، وقدمنا لهم عشاءا شحيحا. فقد وضعنا كل ما لدى محرم من أرز وسمن فى الوعاء؛ وجلسنا كلنا نحتفل فى حضرة [قديسنا] محرم، الذى لم يستطع أن يمنع ذلك التبديد الأمين لمؤنه." - رد الحاضرون

«كل ما لدى هذا البخيل مآله إلى النار» (بمعنى سوف يحرق فى نار جهنم) . سألت محمد الكردى ولكنه أنكر أمام الحاضرين؛ كما أنكر المصرى أيضا، أن أدويتى لم تكن أكثر من اللازم أو زائدة عن الحد، كما أنكر أيضا أن تكون تلك الأدوية هى السبب فى وفاته. - قال الكردى عن الجبال الموجودة عند الأفق فى خيبر، إنها ليست سوى مجرد أكواخ إذا ما قارناها بتلك الجبال الضخمة الموجودة فى بلاده.

توفى العليل العجيلى البرُيدى بعد ذلك مباشرة؛ ولكنى كنت قد توقفت اعتبارا من الحالة السابقة عن إعطاء الأدوية لأى أحد من المرضى. قال : إنه وجد أن أدوية النصرانى (جرعات صغيرة جداً من الراوند) كانت مريعة، إلى حد أنه توقف عن تعاطيها. ومات الرجل ودفنوه خلال يوم واحد . وعندما طلع النهار سمعنا فى القرية، أن قبر الجندى جرى نبشه أثناء الليل! - المؤكد أن من ذهب إلى ذلك القبر فى الصباح لابد أن يكون قد عثر على آثار أقدام النساء حول ذلك القبر الجديد. تساءل الناس من الذى فعل هذه الفعلة ؟ أجابوا، من فعل ذلك هن الساحرات الملعونات ! لقد أخذن الجثة لكى ينزعن منها القلب كى يستعملنه فى طقوسهن السرية المريبة. «مررت بنفس المكان بعد ذلك، بصحبة العم محمد ونحن فى طريقنا لأداء عملنا البستانى، ووجدنا أن الأمر كان مثلما قال الناس تماما هذه إن لم تكن آثار الأقدام التى شاهدناها هى لأطفال أشقياء - حمل أمان قطة سمينة لواحدة من جاراتنا، وقال لى وهو مشمئز: إن تلك الجارة أكلت لحم تلك القطة والتهمته التهاما، بالرغم من أنها كان لديها ما يكفيها من الطعام، فضلا عن مخزونات من أشياء أخرى كثيرة كانت فى بيتها؛ ويقال إن تلك المرأة كانت واحدة من تلك الساحرات.

ومن خلال الأمسيات الطويلة التى أمضيتها مع محمد النجومى تعلمت وعرفت الكثير من حكايات هؤلاء الناس الخرافية عن الجن والتى تروج فى منطقة المدينة المنور. قال العم محمد « الجان يخافنى ويخشانى ». نصف الجان Jan أو الجنون Jenun الذين يسكنون طبقات الأرض السبعة، هم من الأرواح الشريرة، أو إن شئت فقل من الكفار Kuffar أو من الكافرين Kafirun؛ والنصف الآخر يوصفون أو يقال عنهم إنهم

مسلمون» – قال محمد، إن صندوقا من صناديق والده، كان يحتوى على بعض الملابس المطرزة، سرق فى أيام شبابه. وأنهم أرسلوا فى طلب الساحر، أو إن شئت فقل المندل Mundel، لكى يكشف لهم الشخص الذى فعل تلك الفعلة. هذا المُندل، لابد وأن يكون سمسارا أو إن شئت فقل : وسيطا من خلال علمه الأسود، بين أبناء آدم والجان.

– قال الحكيم: «من هنا صاحب قلب جرىء وقوى ؟» رد النجومى الأب، «محمد ولدى صبى جرىء . وصب المندل ماء فى سلطانية وطلب إلى محمد الابن الجلوس إلى تلك السلطانية، وأن يثبت نظره عليها ، وبدأ المُندل يقرأ عزائمه وتعاويذه الأولى، ثم قال: «ماذا ترى الآن؟» – محمد : «الله ، أنا لا أرى أكثر من هذا الوعاء والماء (كان المُندل لا يزال يتلو عزائمه وتعاويذه على مسبحته): ومع ذلك ، فالأمر يبدو لى هنا كما لو كنت أنظر من خلال نافذة، ومن تحتى بحر، ومن الأسفل أرى سهلا واسعا، وأنا أرى حاليا، فى هذا السهل كما لو كان موكب الحج قادما ! –لقد نصبوا خيمة الباشا،– أنا أرى الباشا جالسا مع أصدقائه. – الدكتور فلان] هكذا سمى المندل نفسه [يحيك ويطلب منك أن تسأل ، إن كان بصحبتك أحد من الجن الذين كانوا موجودين عندما سرق الصندوق من يلدوزنى Yelduzely حصين ؛ وأن تسأل أيضا ما إذا كان ذلك الجن قد شهد تلك السرقة، وأن يسمى أسماء هؤلاء الذين قاموا بتلك السرقة؛ أجابه سلطان الجان، «لقد سألت على الفور رفاقى كلهم، لم يكن أحد منهم حاضرا تلك السرقة، ولم يسمع أحد منهم أى شىء عن ذلك، – واصل المندل تلاوة عزائمه وأسحاره على مسبحته، ثم قال مرة ثانية: «ماذا ترى الآن، أيها الشاب؟» – محمد : «الجماعة السابقة مرت علىَّ»، وها هى جماعة أخرى مماثلة تمر علىّ ». «قل : يا سلطان الجان ....، مثلما قلت من قبل . رد سلطان الجن ، «لقد سألت الآن كل هؤلاء ! وليس هنا أحد شاهد أى شىء أو سمع أية أخبار». المندل : «قل ، هل هناك أحد غائب؟» ، وجاء الرد، «ليس هناك أحد غائب». واصل المندل تلاوة تعاويذه وأسحاره وقال : « ما الذى تراه الآن؟ محمد: «الجماعة الثانية ابتعدت عن مجال رؤيتى؛ وهذه جماعة ثالثة قادمة.» قل : «سلطان الجان،... مثلما قلت من قبل.» رد السلطان ، «لقد طلبت منهم جميعا على الفور ،

ولا يوجد أحد منهم هنا". – "قل ثانية،' هل كل ناسك حاضرون ؟، – "سألت وهناك واحد منهم هنا." – "قل ثانية: 'هل كل ناسك حاضرون؟' " – سألت وهناك واحد غائب، – 'إنه في الهند.' – المندل: قل، 'أحضره إلى هنا وأسأله؛ "تكلم سلطان الجان، تكلم إلى جماعته، "من منكم سيحضر زميلنا المدعو، والموجود في الهند؟" أجاب واحد من الجن، "أنا، وفي خلال أربعة أيام، سوف أحضره." قال السلطان:" هذا وقت طويل." – وهنا قال العم محمد كلمة إلى جوار تلك اللعبة: "ألم تلاحظ، يا شيخ خليل؟ أن مسألة طلب ذلك الوقت الطويل كان نوعا من الحقد والحسد." – "قال الجن: "أعطني ثلاث ساعات؛ " ثم قال في المرة الأخيرة: "سوف أحضره خلال لحظة." – رد السلطان : "أحضره." – قال العم محمد، رأيته بعد ذلك، وهو يدخل كما لو كان رجلا عجوزا؛ كان أشيب الشعر، ويمشي أعرجا." سأله سلطان الجان،" هل رأيت شيئا، أو هل لديك علم بتلك السرقة؟" أجاب،" نعم، لأني بينما كنت أجلس على شكل كلب فوق تل الروث أمام البيت الفلاني، وذلك عند منتصف الليل، شاهدت رجلا يحمل الصندوق على ظهره؛ ودخل المنزل المجاور لذلك التل، وتبعته امرأتان." وكشف الجني أيضا شخصية هؤلاء الأشخاص وذكر أيضا أسماءهم.

– أرسل المندل في طلب هؤلاء الأشخاص ؛ – وكانوا معروفين في القرية بأنهم يعيشون على الحرام. وصل هؤلاء الأشخاص على الفور؛ ولكن عندما سئلوا عن السرقة أنكروا كل شيء مقسمين بدينهم، ثم رحلوا لحال سبيلهم. وهنا أحضر المندل ثلاثة من قراب الماء، ونفخ تلك القراب، وأبعد تلك القراب عنه! – وإن هي إلا برهة قصيرة حضر بعدها هؤلاء الاشخاص الثلاثة وهم يهرولون؛ ذلك الرجل الذي كان أمام النساء، وكانوا جميعهم يمسكون بطونهم، التي انتفخت إلى حد الانفجار."أوه، إنه أنا! صاح الرجل، أرجوك. سيدي، الصندوق معي، خلصني من هذا الألم وسوف أحضر الصنوق على الفور!" واعترفت نساؤه أيضا بذلك الذنب. – ثم راح المندل يتلو تعاويذه وأسحاره من جديد على مسبحته كي يعكس تلك الأسحار وقال لمحمد النجومي الابن:" ماذا ترى؟" -"أنا لا أرى سوى السهل الكبير؛ – ولا أرى الآن سوى هذه السلطانية والماء الذي بداخلها." – المندل: "انظر إلى الأعلى أيها الشاب! انهض ، وسر وتمشى حولنا ، إلى أن يحضر إلينا هؤلاء الأشرار الصندوق المسروق وما بداخله."

حكى العم محمد لى هذه الحكاية وكأنه قد صدقها تماما؛ بل إنه قال أكثر من ذلك: إنه ظل طوال فترة من الزمن يعتقد أن ما يقرب من نصف أولئك الذين لهم شكل الجنس البشرى يدخلون فى عداد الجن؛ كما كان يرى أيضا أن كثيرا من قطاط المنازل وكثيرا من كلاب الشوارع كانوا من الجان: ثم بدأ يتلاشى ذلك التأثير داخله ولم يعد يساوره بعد ذلك التصور. أصيب العم محمد بقليل من الدهشة عندما قلت له:" حسن، خبرنى، ما هى لغة ذلك الجان، وما هو طراز الملابس التى يرتدونها؟" أجابنى (وهو يبتسم ابتسامة ملئ شدقيه) بعد لحظة،" من الواضح أنهم يرتدون ملابس وأنهم يتكلمون مثل المسلمين."

– سألت أمانا Aman عن الجان؛ ونظر إلىَّ نظرة حزينة، ثم قال: "سوف أروى لك شيئا، يا شيخ خليل؛ هذا الشىء حدث على حد علمى فى مدينة جدة. يحكى أن عبدا، من أولئك العبيد الذين أعرفهم، كان جالسا إلى جوار بئر من الآبار يغسل ملابسه. وألقى بأول كمية من الماء بعيدا عنه، ثم تناول إناءه وذهب إلى البئر لجلب المزيد من الماء؛ وبينما انحنى على البئر، سقطت منه نقوده المعدنية. راح ذلك الشاب ينظر إلى النقود المعدنية التى سقطت منه؛ – وبينما كان يحملق داخل البئر سمع صرخة مفاجئة، وسقط على رأسه داخل البئر ! جرى بائع القهوة الذى شاهد ذلك المنظر، ناحية البئر؛ وبينما كان ينظر داخل البئر سقط هو أيضا بداخلها. هرول بائع من باعة الأعشاب إلى البئر نفسها؛ وعنما وصل إلى فتحة البئر نفسها؛ وراح ينظر داخلها ولكنه هو الآخر سقط فيها أيضا؛ وحدث الشىء نفسه لشخص آخر، وهكذا إلى أن بلغ عدد من سقطوا داخل البئر خمسة أفراد. وعندما تجمع عدد كبير فى إثر الصياح؛، تكلم من بينهم أحد الرجال البحارة،' أحضروا لى حبلا! وسوف أنزل بنفسى داخل البئر وأخرج هؤلاء الذين سقطوا فيه.' حشوا أذنى الرجل بالقطن [مخافة أن يتلبس الجان ذلك الرجل] ، وأعطوه فى يده مبخرة كان بها بعض البخور المشتعل؛ ثم أنزلوه ليكون فوق سطح ماء البئر: ولكنه عندما وصل إلى منتصف المسافة [الآبار القريبة من شاطئ البحر لا يزيد عمقها على قامتين من فوهة البئر إلى سطح الماء] وصاح الرجل يطلب من الناس رفعه مرة ثانية إلى أعلى البئر. سحب الناس ذلك البحار إلى الأعلى على

وجه السرعة ؛ وحكى لهم بعد أن استطاع التقاط أنفاسه، أنه شاهد قاع البئر وهو ينفتح ويغلق ! - كان الناس قد أرسلوا فى طلب واحد من المغاربة ؛ الذى حضر إلى المكان ومعه كتابة سحرية، - ألقى بها فى البئر، ليخرج على أثرها دخان من البئر قال المغربى بعد ذلك خلاص Khalas بمعنى انتهى كل شىء وأنه سوف ينزل إلى البئر هو بنفسه ؛ ربطوه من تحت ذراعيه ، ونزل البئر بلا خوف ، وربط حبلا من حول الجثث الغارقة ؛ وجرى بعد ذلك إخراج تلك الجثث الواحدة بعد الأخرى . كانوا جميعا أمواتا، اللهم باستثناء العبد الذى كان يتنفس بصعوبة بالغة : بقى طول الليل بلا إحساس أو كلام، ثم مات بعد ذلك . ومسألة عدم وفاة ذلك العبد على الفور ترجع على حد قول أمان، إلى خاتم كان يلبسه فى إصبعه وفيه فص أزرق اللون. [هذا الحجر له فضيلة تفريق أو إبعاد التأثير الروحى الضار؛ ولذلك فنحن نرى الناس يعلقون أحجارا زرقاء حول أعناق الماشية فى البلاد الواقعة على حدود خيبر] ولكن تلك الحفرة التى غرق فيها أولئك الرجال، جرى ردمها فى اليوم نفسه بأمر من الباشا الحاكم».

سألت العم محمد، «كيف تقول : إن الجان Jan يخشاك ويخافك ! هل بوسعك وضع يدك القوية على الشياطين ؟- » والله إنهم يخافون منى، يا شيخ خليل ! فى العام الماضى، تملك جن هذه المرأة زوجتى فى إحدى الأمسيات ، وكنا جالسين فى هذا المكان مثلما نحن جالسين حاليا، كنت أنا والمرأة وولدنا حصين. رأيته وهو يظهر فى عينيها، اللتان ثبتت خلال لحظة. وراحت تحملق ، وتبكى وتحشرج صوتها فى حلقها . [نظرت إلى هذه الزوجة المسكينة! التى ردت على نظرتى بنظرة توحى بالتحمل والصبر] . وهنا تناولت المسدس [من المألوف أن ترى مثل هذه الأسلحة الصغيرة مُعمرة ومعلقة على جدران الغرف [ثم أطلقت عيارا بالقرب من رأس الزوجة، وصحت فى الجن ، «آه يا ملعون Maleun أين أنت الآن ؟»» ورد علىّ الجن (من فم المرأة) فى رأسها ، «فى عينها- من أى جزء دخلت جسمها؟ - من إصبع رجلها الكبير. - إذن ، فأنا أقول لك أخرج منها من المكان نفسه الذى دخلت منه .» نطقت بهذا الكلام بشكل مرعب ومخيف وخرج الجان منها: «ولكن فى البداية، جعل محمد الجن يعد بأنه لن يتلبس زوجته مرة ثانية- هل يخاف الجن من الطلقات النارية؟» - «أنت ساذج تمام، إنها رائحة الكبريت ؛ والله إنهم لايطيقون تلك الرائحة».

هذه المرأة المسكينة كانت لها عينان كبيرتان وبيضاوان وكانتا تشعان بقليل من المرح. كنت أسمع حصينا وهو يقول لها : «هو ! هو! أنت يا صاحبة هاتين العينين ، أجلسي بعيداً ! لاتنظرى إلى بهذه الطريقة. »– «بين الجان [فقد سبق له أن رآهم، عندما كان تحت تأثير السحر فى المدينة المنورة] على حد قول العم محمد ، اختلافات مثل الاختلافات التى بين أبناء آدم . فمن الجن الطويل والقصير، والمتين والنحيف ، والصحيح والعليل ، والجميل والقبيح ، ومنهم الغنى ومنهم الفقير، ومنهم الصالح ومنهم الطالح، والأشرار من الجان هم أعداء الإنسان . ومنهم الذكور ومنهم النساء ، ومنهم الكبار ومنهم المسنين أيضا؛ وهم لهم أعمار محدودة ويموتون مثل بنى آدم».

– قال: «البعض من الجان أشخاص أشراف جداً : وقد يكون هناك جن فى العالم العلوى. هناك أسرة ، يقال لها بيت Beyt الشريفة es-Shereyfa فى المدينة المنورة، جيلها الثالث الحالى، منحدر من جنية Jinnia. الجد الكبير لتلك العائلة كان من حمّالى القوافل فيما بين الحرمين . كان ذلك الرجل يتأخر بعض الشىء عن مجموعة الإبل، كى يتمكن من استعادة الأشياء التى يحتمل أن تسقط من فوق الإبل. وبينما كانت القافلة تسير، فى إحدى المرات، سمع ذلك الرجل صوتا يحييه– قال الجن : (على حد قوله) «السلام عليك ، وهو على شكل رجل مسن ؛ أحسب أنك ذاهب إلى مكة. «نعم» – «وصلّ هذه الرسالة إذن لولدى؛ سوف تعثر عليه – إنه كلب أسود ، يرقد أمام طاولة القصّاب فى الشارع الفلانى . قرّب هذه الرسالة من عينه ، وسوف ينهض واقفا ، وهنا يتعين عليك أن تتبعه.»

«وضع الحمّال الرسالة فى جيب ثوبه العلوى، وواصل مسيرة . وعندما وصلت القافلة إلى مكة ذهب الرجل لإنجاز المطلوب منه. ثم عاد بعد ذلك إلى مسكنه؛ كى يلبس ملابس الخروج، ثم يخرج بعد ذلك لتمضية الوقت فى المقاهى. وفى تلك المقاهى سقطت الرسالة؛ وظن وهو يمشى فى الشارع أنه سوف يقوم بتوصيل الرسالة، – وجد الرجل كل شىء مثلما قال الجن؛ وتبع الكلب. واقتاده الكلب إلى منطقة خربة، ثم دخل منزلا مهجوراً؛ ثم وقف الكلب كما لو كان شابا جميلاً؛ ثم قال للحمّال ، أنا أدرك أنك حصلت

على تلك الرسالة من والدي؛ إنه يكتب لي عن شيء من الفضة (النقود): قبل العودة تعال إلى هنا في هذا المكان لتحصل مني على الرد.' - 'نحن سنرحل غداً عن هذا الخان؛ ويمكن أن تراني هنا .'

"كانت القافلة المحملة تمضي في طريقها ، وكان الحمال راكبا فوق ناقته، عندما التقاه الجن الشاب ، وقال له: 'هذه هي الرسالة المرسلة إلى والدي، ثم (أعطى له لفافة) هذه هي النقود التي تكلم عنها العجوز؛ قل له نيابة عني، أن هذا هو كل ما استطعت جمعه بحق من هذا المكان.' ألقى الحمال اللفافة داخل خُرجه مع الرسالة، ومضى قدما في طريقه.

"في منتصف الطريق' وقف ذلك الرجل الجني مرة ثانية على مرأى من الحمال، ثم قال: 'سلام عليك ! - هل رأيت ولدي، وهل أحضرت لي منه شيئا؟" هذا هو ما أرسله ولدك إليك .' قال الجن العجوز : 'أنت ضيفي اليوم' - 'ولكن كيف لي باللحاق بإبلي؟' - وهنا ضرب الجني العجوز الأرض بعصاه، وتثاءبت الأرض، من أمامه؛ ونزل إلى الأسفل وهو يقتاد ناقة الحمال ، ومعه الحمال أيضا ، تحت الأرض، إلى أن وصلا إلى مدينة ؛ اصطحبه فيها الجني أشيب اللحية إلى منزله. دخلا المنزل؛ وخلف الأبواب كانت تجلس زوجة الجني، ومعها بنتيها! - وجلس الجني في صالة بيته ليصلِّح القهوة للضيافة. وقبل دخول المساء شاهد الحمال الجني وهو يذبح ناقته! وشاهد لحم ناقته وهو يوضع في القدر؛ ثم قدم ذلك اللحم بعد ذلك للحمال في وجبة العشاء! - 'قال الرجل في نفسه : وأسفاه! لأني لن أستطيع اللحاق بعد ذلك بقفيلي Kafily .

" قال الجن له، استيقظ في الصباح إذا ما أردت الرحيل، وسوف نرافق بعضنا بعضا؛' - ثم أعادالجن إليه ناقته الذبيحة حية مرة أخرى!' قال الجني العجوز: سوف أعطيك أيضا هدية ، قالها وهما يمضيان قدما ؛ اختر أي شيء من الأشياء التي شاهدتها في منزلي؟' وهنا رد الحمال متشجعا،' بنتا من بنتيك .' - أرجوك أن تطلب شيئا غير ذلك .' - 'لا، والله ، ولن أطلب شيئا غير ذلك.' - 'عندما ستمر علينا في المرة القادمة، سوف أحضرك إليها.، - 'كم مهر العروس؟' - 'أنا لا أطلب منك سوى شيء

واحد، أن تتذكر سابقة من السوابق، هذه السابقة سهلة بحد ذاتها ولكنها غير سهلة على الرجل المتعجل: - أقول: إن كانت زوجتك ستبدى بعضا من الشجاعة على مرأى منك، فيجب عليك أن تتحمل ذلك، لأنه ليس سوى مجرد شيء مظهري." ثم أخرج العجوز الحمَّال الجنى إلى سطح الأرض، وتركه يمضى لحال سبيله ؛ وعندما بدأ الرجل رحلته، كان على علم ، وهو ينظر إلى الأعلى ، بجدران وأسوار المدينة المنورة !

"فى طريق العودة، تسلم الحمَّال عروسه، وأحضرها معه إلى المدينة المنورة. وفى المدينة المنورة أمضيا سبع سنوات من الزواج السعيد، وأنجبت له ابنين :، بعد ذلك ، وفى يوم من الأيام، أمسكت الزوجة سكينا وراحت تجرى فى اتجاه أحد الابنين وهى تصرخ ، كما لو كانت على وشك أن تقتله. شاهدها الحمَّال المسكين، وقفز لينقذ طفلها ؛ - ولكن بهذه الفعلة اختفت الأم الجنية وولدها إلى الأبد ! ومن ولدها الكبير انحدرت فى المدينة المنورة تلك الأسرة (التى سبقت الإشارة اليها): هذا يعنى أن ذلك الولد الجنى الأكبر كان أبا لأفراد هذه الأسرة التى ما زالت على قيد الحياة ." قال العم محمد،" الجن يمكن تميزه عن بنى آدم عن طريق غرابة العينين فقط؛ - وجفون الجن منحرفة إلى الجنب مع الأنف."

تحدث محمد النجومى أيضا عن قاض عادل من الجان أيضا وكان اسم ذلك القاضى يحظى بالاحترام والتقدير (على سطح الأرض) فى المدينة المنورة؛ كما تحدث أيضا عن جنازة ذلك القاضى فى الحرم، والتى شهدها هو بنفسه! "ذات يوم وعندما أنهى الإمام صلاة الظهر، وكان يتقدم الناس، ثم رفع صوته وهو يقول: رحمنا Rahamana ورحمكم Warahamakom الله، الصلاة esSulat على aly الجنازات el-Jenneysat الحاضرة el-hathera . - الجثة يمكن حملها إلى داخل الحرم (للصلاة عليها) فى أية ساعة من ساعات النهار ؛ أما إذا كان الوقت ظهرا، فنحن نسمع تأمين المصلين : إنهم يؤمنون بجرس جميل تتردد أصداؤه بين جنبات ذلك المبنى الكبير! - نظر الناس فى جميع الاتجاهات وهم يتعجبون مندهشين ، - لم ير الناس شيئا! - رد الإمام عليهم، 'يا مسلمين، لقد رأيت الجثة وهم يحضرونها إلى هنا ؛ وأنا أعلم أن تلك كانت

جثة القاضى العادل الجنى، - لقد مات اليوم ، والله، عندما سمع الناس اسمه تقدموا للصلاة عليه، لأن ذلك القاضى الجنى ذاع عنه أنه كان عادلا: - ألا تود سماع حكاية عن عدل ذلك القاضى ؟

«يحكى أنه كان هناك مدرسًا Muderris ، أو إن شئت فقل : رجلا متعلما فى المدينة المنورة، [واحدا متمرسا فى العلم العربى وفقيه فى القرآن] . فى إحدى الليالى عندما كان ذلك المدرس داخلا إلى فراشه للنوم ، سمع صوت صديق له فى الشارع يطلب إليه المجىء على وجه السرعة. وعليه تناول المدرس عباءته (بشته) واتجه إلى صديقه . قال له صديقه : «تعال معى أرجوك » - وعندما تجاوزا سور البلدة، أدرك ذلك المدرس أن ذلك جنا فى صورة صديقه ! اجتمع حولهما بعض آخر، وأدرك جيدا أنهم جميعا كانوا من الجان . - طلبوا منه البقاء معهم، وقال الجان : «نحن هنا لنقتلك.- لماذا تقتلونى ، أيها السادة، أسفى على ما تقولون ! - لأنك قتلت زميلنا اليوم.- إذا كنت قد قتلت أحدا من رفاقكم ظلما ، فحاكمونى حسب قوانينكم ؛ أنا استأنف الأمر أمام القاضى . رد الجان، لقد جئنا لقتلك ، ولكنك طالما استأنفت الأمر أمام القاضى، فسوف نقتادك إليه . ذهبوا جميعا إلى القاضى وأقاموا عليه الاتهام ؛ لقد قتل هذا الآدمى adamy اليوم واحداً من الناس، ونحن أقاربه وذويه لقد قتله عندما كان قريبنا نائما فى بيارة من بيارات النخيل، على شكل حية ، - نعم هذا صحيح ، يا سيادة القاضى ، لقد ضربت حية فى ذلك المكان وقتلتها ؛ وأنا استحلفك أيها القاضى، ألا يجب قتل كل الهوام الخطرة من قبل أى إنسان إذا ما كان فى يده حجر أو سلاح؟ ولكن أقسم بالله ! أنا لم أعرف أنه من الجان» . رد القاضى قائلا : أنا لا أرى فى ذلك أية قضية ؛ ولكن الخطأ يتمثل فى عدم حرص صديقكم الميت : ويجب ألا يغيب عن بالكم أن الثعبان دونا عن سائر الوحوش كلها هو أبغض الهوام عند بنى آدم ».

الفصل الثامن

الخلاص من خيبر

صهر العم محمد النجومى ، وصول مراسل من المدينة، النصرانى يقول : إن الماء زاد فى خيبر ، عين الريح أبو مدين ، درويش رحّال ، رسالة من باشا المدينة، عنف عبدالله ، هل يمكن لأحد أن يتخلى عن اسم دينه لفترة من الوقت ؟ العم محمد يقنع النصرانى بالسكن معه فى خيبر ، أبوكار، كل ذلك يجلب العار والخجل فى الإسلام ، الإنجليز فى الهند وفى عدن، عقيد فى المدينة يسرق كتب النصرانى العربية، عودة لص الإبل ، أجبان الحطيم ، الودُوك قرويو الحيات ، الإنسانية لا تحب أن تعامل بالمثل ، الله يعطى البرد على قدر الغطاء ، عبدالله يضرب القرويين المتمردين، ضيق الصدر، الرحيل عن خيبر ، حامد ، الحب والموت ، وداع العم محمد ، رحلة عبر الحَرة ، تعال إلى خيام الحطيم ، الحبارى، ريح عاصفة فى شهر مارس جبال الحُجور النسور، لقاء الحطيمُ النصارى يسكنون مدينة مطوقة بالحديد، صلوبة من منطقة قريبة من مكة ، الرفاق يبحثون عن الماء بعض الآبار العميقة «حفر الجان» طقس عاصف فوهات البراكين فى الحرة» ، أطال الله حياة ذلك الرجل (ابن الرشيد) !

بدأنا نتطلع من جديد إلى عودة دخيل قادما من المدينة المنورة ، وتحدثت مع محمد النجومى وطلبت إليه إرسال شخص للقاء دخيل على الطريق : لنعرف منه مسبقًا ما إذا كانت لديه أخبار عن حياتى (وهذه لايمكن أن يخفيها دخيل عنا) ، وبالتالى يمكن لذلك الرسول إبلاغنا إياها ، وبالتالى أتمكن أنا من الفرار وألوذ بالحَرة ، «رد العم محمد ، يخيب أمل عبدالله السروا إذا ما تقرر شيئًا فيه مساس بحياتك ! وأنا أقسم بالله، لو جاء دخيل بكلمة أو أخبار سيئة تهدد حياتك ، فأنا لدى شخص على أتم

الأستعداد ، ويرتبط بى ارتباطًا وثيقًا ، وهو من البدو ، وعن طريق هذا الشخص سوف أبعدك عن هذا المكان حفاظًا على أمنك وسلامتك . " كان ذلك الشخص شقيق زوجة محمد النجومى ، شخص شقى بالفطرة ، وليس لديه أى نوع من الضمير ، لص عتيد من لصوص الإبل وقاتل من أولئك الذين يزهقون أرواح الناس . كان والد ذلك الشخص شيخًا من شيوخ البشر المحترمين ؛ ولكن شاءت الأقدار أن تضيع منهم ماشيتهم فى نهاية المطاف . كان ذلك الشقى هو الشريك البدوى فى الحلحال Halhal ، ولكن ذلك لم يكن يعود عليه بأية فائدة ، ثم تحول إلى جاطونى gatuny فى خيبر ؛ إذ راح يسعى إلى مساعدة نفسه عن طريق تربية الماشية فى المناطق المعادية المجاورة – فى العام الماضى ، أبصر ذلك الشقى ، غريبًا مسكينًا فى سوق الصيف ومعه قطعة من قماش البفتة لا يزيد طولها على عدة شليلات (تكفى لعمل قميص احد) ؛ أبصر قطعة القماش تلك فى يد الرجل ، وسال لعابه لها وتمنى بشدة الحصول عليها لنفسه . وتتبع ذلك الشقى ذلك الغريب المسكين أثناء سيره فى الحرّة ، وهجم عليه فى الطريق وقتله ، وعاد ومعه قطعة القماش ، ثم عاد إلى القرية وهو يضحك : – لم يعمل ذلك الشقى حسابًا لدم ذلك الغريب! كان ذلك الشقى المتوحش يجلس مكشرًا عن أنيابه بينما كان العم محمد يروى لى هذه الحكاية ؛ ولكن ربة المنزل قالت وهى تتنهد ، " وا أسفاه ! شقيقى كافر ، وهو مخبول إلى حد أنه لا يخاف الله ." رد النجومى " ومع ذلك ساعد هذا الملعون على إخراجنا من الدمار الذى حدث لنا فى العام الماضى (أثناء القحط الذى حدث فى خيبر) ؛ فقد كان يسرق الأغنام والإبل ، وقد أكلنا منها مرات عدة : – هل يجب أن نترك الدسم كله لأعدائنا ، ونحن نموت أصلاً من الجوع ؟ قل لنا يا شيخ خليل : هل كان ذلك حلالا لنا أم حرامًا علينا ؟"

خطر ببالى ، أنى إذا ماتعين علىّ خلال الأيام القادمة ، أن أصبح هاربًا فى الحرة الشاسعة وبلا مأوى من الشمس ، وبدون علم مسبق لى بالعلامات الأرضية ، وفى وجود ماء لا يكفينى ثلاثة أيام ، وجسم هزيل ، فماذا سيكون أملى فى البقاء على قيد الحياة ؟ – وصل دخيل ، بعد ذلك بيوم واحد ، قادما من المدينة المنورة ، وعندئد (فإن ذلك كنت أخافه وأخشاه) كان العم محمد فى الخلاء لصيد الغزلان ، من الحرة ؛

يضاف إلى ذلك أنه لم يسبق له أن حذرنى أثناء الليل ، - وخلّف ضيفه وراءه (العرب يفتقرون إلى الفهم فى بعض الأحيان) ، فى وقت الخطر وبلا أى شكل من أشكال الدفاع . فى حالة غياب محمد النجومى ، لا أستطيع فى ساعات الخطر الداهم الهرب من تلك الأيدى الوحشية غير المتحضرة ؛ ولكن بعد تعرفى على المتقدمين من هؤلاء الناس ، كان لابد من وقوعى فى تلك السبخة وقوعًا لا علاج له . كان أحمد النجومى أيضًا شديد التدين ، إلى حد أنه لم يكن على استعداد للعب دور الكافر ضد أى أمر أو تشريع يأتى من المدينة المنورة : ومع أنى كان بوسعى الجلوس فى الغرفة ، فقد خطر ببالى أنه لن يرفض إفشاء الأمر لمراسلى عبد الله السروان : جلست عندئذ فى صُفة محمد النجومى ، لأكون قريبًا من الباب ، إلى أن تحن علىّ السماء بعودة ذلك الرجل الطيب إلى منزله - ولكن وصلت إلى هذه الصفة جماعة من بدو الحطيم ، قادمين من الحرة ، وهم من زبائن محمد النجومى ؛ وقد أحضروا معهم أجبانهم وسمنهم إلى منزل محمد النجومى ، كى يقوم ببيع تلك البضاعة نيابة عنهم . وجاء بصحبة هؤلاء الحطيم المشترون من أهل القرية السوداء ، وبقى باب محمد النجومى مفتوحًا . كنت طوال الوقت أنتظر فى كل لحظة أخر أوامر الاستدعاء الصادرة عن عبد الله ، واستمر ذلك الحال إلى منتصف الليل ؛ وعندما عاد العم محمد من الحّرة ، التى شاهد منها أولئك البدو الرحل ، ضرب بضاعتهم بالمشعاب وصاح قائلاً : " من يشترى هذا وبكم ؟ " ثم حدد بعد ذلك سعرا عادلاً : وتناول قلمًا من البوص وقطعة من الورق وراح يدون الأسعار الخاصة بمكاييل التمر التى سيجرى تسليمها بعد ذلك (أى بعد حوالى ستة أشهر) خلال موسم الحصاد . وبعد ساعة من الزمن لم يعد أمام العم محمد ما يشغله ؛ وبعد أن أغلق بابه ، قال : إنه ذاهب إلى عبد الله السروان لاستطلاع الخبر .

عاد العم محمد ليقول لى : إن الباشا كتب ما يلى ، نحن مشغولين حاليًا بمسألة الحج ؛ وبعد رحيل الحج سوف نفحص الكتب ونعيدها مرة ثانية : وفى الوقت نفسه يتعين عليكم معاملة الإنجليزى معاملة كريمة وتكرموا وفادته . " فى العصر استدعونى إلى منزل عبد الله السروان : رافقنى العم محمد إلى هناك ، وكان يحمل معه سيفه ، الذى يعد حجة قوية فى تلك الأرض الشجاعة ، لإقناع الناس بالاعتدال فى هذه البلدان

التى لاتعرف القانون . أعاد عبدالله السروان تلاوة ذلك الجزء الخاص بأوامر الحاكم فيما يتعلق بالكتب ؛ ولكنه لم يقل شيئًا عن بقية الرسالة، - عثرت بعد ذلك على دخيل فى الشارع؛ وقال لى : إن الباشا استدعاه شخصياً وسألنى عن ذلك الذى أبتغيه من وراء التجوال فى البلاد، وما إذا كان النصرانى يتحدث اللغة العربية ؟ ، (إنه يتكلم العربية بطلاقة) . وقد اكتشف دخيل ميل الباشا نحوى وانحيازه إلىَّ ، وسمع دخيل من الباشا أيضًا ، أن محمد سعيد باشا ، عندما سئل من حاكم المدينة المنورة ، أثناء موسم الحج . عن خليل : أجاب أنه «سبق له أن التقانى فى دمشق ، كما قال أيضًا: إننى كنت مع قافلة الحج فى العام السابق إلى أن وصلت مدائن صالح ؛ وتعجب من احتجازى فى خيبر ، على الرغم من معرفة الجميع أنى رجل إنجليزى ، ولم أقترف أى ذنب تجاه الدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، سوى أنى كنت دومًا أخاطر بالتجوال فى تلك البلدان بين أولئك البدو المترحلين (الخطيرين) .

انقضت البقية الباقية من أسابيع الشتاء، وهلت علينا حرارة فصل الربيع، الذى جددت الأشياء فيه نفسها : أوشك أن يدخل علينا شهر الحميم hamim ، وفى هذا الشهر (على حد قول النجومى) فإن حياتى الضعيفة الهزيلة التى يشبهها النجومى بفتيل مصباح يحتضر ، قد تنتهى فى خيبر . وها أنذا قد تحملت شهرين من الأسر والاحتجاز على يدى عبدالله السروان ؛ وها هو الهلال الثالث بدأ يظهر فى السماء، وكنت آمل وأتطلع إلى أن تخلصنى السماء من خيبر فى نهاية المطاف . وهذا هو قمح الربيع كبر واصفرت سنابله ، وإن هى إلا عشرين يومًا - إذا ما أبعد الله عنهم الجراد- يقومون بعدها بحصاد القمح .

كنت أتمنى لهم المزيد من الماء فى خيبر عندما أغادرها . كانت هناك مساحة يقدر عرضها بعشرين خطوة من الصفصافة القوية ، تشكل عقدة من الاندفاعات الطويلة ؛ فى تلك المنطقة كنت أتطلع إلى العثور على نافورة أو عين ماء جديد. استمع ملاك الأراضى المجاورة لخيبر إلى ذلك الذى كنت أقوله عن الماء ، نظرًا لأن الماء هو أم القمح والتمر أيضًا ، فى الواحات ؛ وردّ شقيق الشيخ على ما قلته بأنه سوف يحضر العيال فى الغد للحفر فى الأرض- ومع ضرب المعول الأول عثرنا على التربة المبتلة ،

وعثرنا أيضًا على صخر البازلت الذى ينزل الماء من خلاله : ثم تركوا عملهم، وقالوا إننا يجب ألا نتعجل ، لأننا بدأنا العمل يوم الأحد. تذكروا أيضًا كلامى، الذى مفاده أننا إذا ما عثرنا على عين من عيون الماء، فسوف يعطوننى بقرة حلوبًا . وفى صباح اليوم التالى تجمع عدد كبير من الشباب استعدادًا للعمل . ويبدو أنهم تراجعوا فى مسألة البقرة هذه، وبالتالى رأوا تأجيل العمل إلى ما بعد رحيل النصرانى ، لأنهم لم يضربوا سوى ضربة أو ضربتين فى أراضى المكسرة ؛ ثم انصرفوا بعد ذلك ، ومعهم العتلات crowbars ليجروا الحفر من جديد حول منطقة رأس البئر القديمة ، أملاً فى توسيعها . دخل سن العتلة الحديدية فى فتحات الصخر؛ وراح الكثيرون من هؤلاء الشباب يضغطون على العتلات ، وأفلحوا فى رفع بعض قطع صخور البازلت . الباقون من الشباب كانوا يتابعون الناس وهم يلتقطون أنفاسهم أملاً فى أن يقدموا لهم يد العون . كان النجومى يقف بين هؤلاء الشباب واستطاع تحريك قطعة ضخمة من البازلت . وعندما دخل وقت الظهر توقف الشباب عن العمل . استمر العمل ثلاثة أيام كانوا يعملون خلالها منذ الصباح إلى حين دخول وقت الظهر ؛ وفى اليوم الثانى ذبحوا عنزة ، ونثروا دمها على الصخرة . لم يسبق لى رؤية العرب وهم يعملون على هذه الشاكلة. والعرب لديهم عقول مليئة بالكلام الحكيم ؛ أجسام الزنوج بداخلها قلوب قوية، وقد رفعوا بدورهم صخرة كبيرة أيضًا ، وبحلول اليوم الثالث كانوا قد انتزعوا الكثير من الأحجار الضخمة . وتحولت رأس البئر القديمة إلى ما يشبه الحمام ، بل وصل الأمر بهم إلى أن يطلقوا على رأس البئر اسم الحمّام el-hmmam . وكنا قد نجحنا فى كسر وريد جانبى ترتب عليه زيادة سرعة انسياب الماء بمعدل النصف،– وتلك ميزة أبدية للزراع فى ذلك الوادى.

مياه عيون خيبر تفوح منها رائحة الكبريت وفيها شيء من السلاسة والنعومة فيما عدا ماء عين Ayn الريح er- reyih، عديم الطعم، والضفادع الصفراء تسكن فى تلك العيون وذلك إلى جانب بعض الأسماك الفضية الصغيرة . وأعشاب الفطر الأخضر تنتشر فى غدران المياه الدافئة ، التى توجد فيها قواقع صغيرة سوداء اللون، مثل تلك القواقع الموجودة فى وادى تربة Thirba وفى قرية العلا [وبالميرا]. تناولت بعض

الديدان وأريتها للعم محمد : تمعن العم محمد فى تلك الأصداف وقال : "هذا من الأعمال الإلهية الرائعة ؛ إنها صنعة كاملة ! وأنت على حق عندما تقول : إن "الخيابرة يكبتون مثل هذه الهوام الصغيرة!"

كنت قد تغلبت إلى حد ما على سوء حظى فى خيبر ؛ وأصبح بوسعى الآن تمضية الساعات فى الشمس بلا خوف ،وأنا جالس بجانب عين الريح ، ذلك المكان الجميل الذى يقع خارج منطقة النخيل ، والذى لا ترى العين فيه سوى الراحة التى تنجم عن اسوداد خيبر أمامى . آه ، من ذلك الارتواء الروحى الناجم عن ذلك الماء العذب الخفيف ، الى ينبثق ناعمًا ودافئًا [٨٦ فهرنهيت] من الصخر ! كما كنت أستمع أيضًا إلى انسجام الطبيعة المحفوف بالغموض ، الذى الذى لا يحسه الدنيويون من الناس ، فى ذلك السكون السعيد والوحدة المسعيدة أيضًا . وهذا هو الذباب كبير الحجم ، وكذلك بعض الهوام تهل على خزان الماء ، بفعل حرارة الصباح القادمة من الفجّارة ، والتى كانت محبوسة فى الصخور البركانية . وهذا هو السمك الفضى يسبح فى الماء ، كما أرى أيضًا أصدافًا بيضاء فى قاع ذلك العالم المائى . شاهدت هناك أيضًا الضّب الصغير بحراشيفه التى تلمع مثل الزجاج : شاهدته وهو جالس يتشمس ، فوق صخرة، عند حافه البئر ؛ وفى أحيان كثيرة كان ذلك الضب يتحرك ويطلق لسانه ليمسك بفريسة من الذباب لا تفلت منه مطلقًا . - كنت سعيدًا تمامًا عندما ملأت جمّار قربتى من ذلك الماء العذب . حقوق الرى الخاصة بكل قطعة من الأرض الزراعية مسجلة فى سجل شيخ القرية ؛ - وأيام الأسبوع بساعاتها مقسمة ومحددة بحيث يتيح لكل مشترك حق الانتفاع العام . والساعات ليست معروفة بين هؤلاء القرويين الأجلاف ، - بالإضافة إلى أنهم لا يحتفظون فى بيوتهم بشىء من المصنوعات المدنية . وهم يستعملون ذكاءهم فى تقسيم النهار ، وذلك عن طريق ظل عصى صغيرة يغرسونها على حافة قناة الرى ، - وتلك هى المزولة التى تقرأ عنها عند سيدنا أيوب الصدِّيق : خادم يرغب بشدة فى الظل ... أيامنا ظل على الأرض. ، وهم يحسبون الوقت أثناء الليل بطريقة غير دقيقة . وقد يغلقون أبواب القرية ؛ قبل عودة الفلاحين من رى أراضيهم ، ولكن هؤلاء الفلاحين يدخلون القرية من بيت من البيوت المجاورة لتلك

البوابات . يقول العم محمد : إن المزارعين فى المدينة المنورة يستعملون كأسا من المعدن ، مثقوب فيه ثقب صغير جدًا ، - بحيث يظل طافيًا على سطح الماء ولا يغوص فيها إلا بعد أن تمتلىء بالماء ، وعندها تكون قد انقضت ساعة من الزمن .

كان بين الخيابرة شخص يقولون له أبو Abu مدِّين Middeyn (بمعنى أو مكيالين)، وكان الرجل من أولئك الذين يتجولون فى أنحاء الدنيا . ونظر لقلة موارد القروى الزنجي ، ونظرًا لقلة فهمه ، فقد راح أبو مدِّين هذا يلعب دور الدرويش سيرا على قدميه ، ووصل إلى بلدان بعيدة . وها هو قد عاد مؤخرًا من بلاد فارس ! سألته عن مدة اغترابه خارج المدينة المنورة ؟ - الإجابة : " تركت زوجتى التى كنت قد تزوجتها حديثًا وهى حامل ، وكان أول من التقيته عند عودتى هو ولدى ؛ كان عمره يمكنه من السعى على نفسه ، - وأقسم بالله أنى لم أعرفه ! " هذا الدرويش الوقور المحترم كان يدخن القنَّب (شأنه فى ذلك شأن الدراويش المترحلين) فى قرية الزنوج ؛ كان ذلك الرجل يأكل القمح كما لو كان رأسًا من الماشية ، إلى حد أن أهل خيبر كانوا يطلقون عليه كنية أبو منقارين - وفى أحد الأيام ، وفى مقهى من مقاهى الأصدقاء بدأ أبو منقارين يسأل النصرانى ، على أمل أن يتظاهر ويتباهى أمام الجميع ، أو يفند أسفارى فى أضعف الأحوال : ولكن أحدًا من الحاضرين لم ينتبه أو يلقى بالا لأقوال أو كلام أبو مدِّين هذا .

فى عصر أحد الأيام وعندما ذهبت لتقديم نفسى لطاغية القرية ، شاهدت ست من الإبل كانت نياقًا ! وكانت باركة أمام باب دار عبد الله السروان ! كانت تلك النياق تمد أعناقها الطويلة على الأرض ، وكانت أصلاب تلك النياق بلا أسنام . هذا لا يمكن أن يحدث إلا من جنود المدينة المنورة الذين لم يتقاضوا رواتبهم ؛ وهنا انسحبت عائدًا إلى محمد النجومى . - بعض أفراد العجيل كانوا قد أوفدوا من قبل الباشا ؛ وقطع الرجال مسافة السبعين ميلا فى خمسة أيام ! - كان ذلك هو حال العجيل الذين كانت غزواتهم - على حد تفاخر أحدهم أمامى - تجعل الدنيا ترتجف خوفًا ! " هؤلاء العجيل يسئ إليهم رجال القبائل فى كثير من الأحيان . سمعنا أن هؤلاء العجيل فى إحدى الغزوات التى شنوها من المدينة المنورة ، قد "قتلوا أربعين رجلاً ، وجرى الاستيلاء على

أمتعتهم . وراحت البقية الباقية تولى الأدبار حفاظًا على حياتها . - عدت لاستطلاع أخبارا أولئك العجيل ، والتقيت عبدالله السروان فى الشارع فقال لى: «أخبار طيبة يا خليل، وقد أعيدت الكتب إليك مرة ثانية ، وقد كتب لنا الباشا ، «أرسلوه لابن الرشيد».

استدعانى عبدالله فى الصباح ؛ كان يتناول القهوة فى منزل جارنا حمدان - «هذه الرسالة لك (ثم ناولنى قطعة من الورق) وقد جاءت من يد الباشا شخصيًا ». وفتحت الورقة التى كانت مطوية بالطريقة الإنجليزية ، فوجدتها خطابًا من باشا المدينة المنورة! مكتوبًا [كتابة غير دقيقة] باللغة الفرنسية ، على النحو التالى ، وفى أعلى الرسالة «يوجد التاريخ المسيحى ، والرسالة موقعة باسم «صبرى» باشا المدينة المنورة شخصيًا.

الحادى عشر من شهر يناير العام ١٨٧٨

[المدينة المنورة] (*)

علمنا بوصولكم إلى خيبر من خلال إخطار السلطة المحلية ، ومن ثم يتوجب إحضار خطابات التوجيه والأوراق الأخرى على نفقتكم .

وبقدر الإمكان لدى دراسة كتب الحساب والأوراق المتفرقة وما وصل من الخرائط مؤخراً أيقنت بأهمية فكرتك فى الرحيل، وتصحيح الخريطة ، والتعرف على الظروف ، واكتشاف الآثار القديمة الرئيسية للعروبة بهدف نشرها على العالم ، فأنا جد راض عن دراستك المفيدة لكل الدنيا فضلاً عن أن هذا الجانب طيب بالنسبة لك أيضاً وإذ تيقن الآن أن من بين الناس الذين قابلتهم من البدو هناك من يفوق كثيراً من الشخصيات جرأة فأنا مضطر لتحذيرك لدى عودتك من الشيخ بن الرشيد لأنه خطير .

وإذ أرفق لك الخطابات التى كانت لدى والتوجيه الموجه إلى الشيخ من جانبى أتمنى أن يوصلك طريقك إلى هدفك *

صبرى

«قلت لعبد الله : زين تلك النقود التى هى ملك لى، أين الليرات الست !» اندهش حاكم القرية التركى الأسود، وتغير لون وجهه ، وبدت عليه الحيرة، ثم قال : «سننتظر

(*) الرسالة المعلمة بنجمة فى البداية وأخرى فى النهاية، وردت باللغة الفرنسية من حاكم المدينة المنورة التركى . وترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور فاروق عزب (المترجم).

فى هذا الموضوع". كان أفراد العجيل الستة قد جاءوا من المدينة المنورة بأمر من الباشا ، لإعادة كتبى ، وكانوا يعاملونى باحترام وتقدير ، وجاءوا ومعهم أيضًا أخبار مفادها أن الباشا سوف يرسل ستة وعشرين أخرين من العجيل إلى حائل بخصوص هذا الموضوع . كان رئيس هؤلاء الستة من العجيل ، وهَّابى من شرقى نجد ، وكان رجلاً متمرسًا فى الأسفار وغير متشدد ؛ عرض علىَّ مرافقتى إلى أى مكان أشاء ، وقال لى : إنه يعرف كل الطرق التى فى هذا الجزء من البلاد ، إضافة أيضًا إلى جنوب الجزيرة العربية .

وفى اليوم التالى وعندما لم يعيدوا إلى أى شىء من أشيائى . عثرت على عبد الله السروان يشرب القهوة فى منزل الشيخ صالح . "قلت : لماذا لم تعد إلىَّ أشيائى؟" – "سأعيدها إليك عند رحيلك" . "هل لديك ما يجعلك تؤخرنى أو تحتجزنى؟" لا تتزود فى الكلام (قالها ذلك الوغد الذى كان قد صرف نقودى) – عجيب أن يتكلم معى نصرانى بهذه الطريقة! – وإلا سوف ألطمك على وجهك" – "لو ضربتنى فسوف يكون ذلك خطر عليك . أيها الضيوف ، كيف للازم ومعه عشرة من الجنود يحكمون قرية كاملة ، وهو أصلاً لا يستطيع حكم نفسه ؟ هذا الشخص لا يحترم كلام باشا المدينة المنورة ، ولا يخاف من السلطان ، بل إنه لا يخاف الله (سبحانه وتعالى) نفسه . يا صالح ، يا شيخ خيبر ، هل تسمع تهديد هذا الجبان لضيف فى بيتك بالضرب والإهانة؛ وأنتم هل تتحملون ذلك أيها الضيوف ؟" – وقف عبد الله السروان ولطمنى لطمة شديدة على وجهى – "قلت لهم : صالح ، وأنتم أيها الجالسين هنا ، هل أنتم رجال أحرار؟ أنا رجل وحيد وغريب ، وضعيف عانيت طويلاً وظُلمت كثيراً – لقد شاهدتم جميعًا كل ما جرى ! على يدى هذا العبد ، وربما أدى ذلك إلى ابيضاض لحيتى : ولو قدر لى أن أشتكيه فى فترة لاحقة ، فقد يؤدى ذلك إلى طرده من منصبه هذا " . وهنا قام عوض Auwad القاضى ، الذى كان صديقًا لى ، ويجلس إلى جوارى، قام بتلطيف الجو ، عن طريق كلام مفعم بالمصالحة . "قال : عبد الله يلام على ما فعل : وخليل يلازم أيضًا . هذه الخلافات تنطوى على كثير من الأخطار ؛ وأنتما تتطاولاً بالكلام فيما بينكما. "عبد الله ": الآن ، هل آمر بادخالك السجن؟" – "أقول لك : أنى

لست تحت إمرتك ولا أخضع لقوانينك "؛ ثم نهضت واقفًا لأغادر المكان . شد عباءتى (بشتى) بقوة وهو يصيح قائلاً : "اجلس ، وهذا العسكرى - ثم نظر من النافذة واستدعى واحدًا من رجاله من الشارع - سوف يقتادك إلى السجن . "نزلت معه ، ومررنا من أمام مدخل بيت العم محمد ، ودخلت البيت ، وتركنى الجندى .

كان الباب مغلقًا ولكن ربة البيت البدوية ، وعندما سمعت صوتى نزلت تفتح الباب: وبعد أن تكلمت عما حدث ، تركتنى جالسًا فى المنزل ، وأخذت معها المفتاح ، وهرولت تلك الزوجة الطيبة لتخبر زوجها الذى كان فى غيط النخيل . وعاد محمد النجومى على الفور ، وخرجنا سويًا إلى منطقة المزارع : ولكن عندما التقينا فى الشارع رئيس العجيل الذين جاءوا من المدينة المنورة ، قلت له : "طالما أنى لا أشعر هنا بالأمن والسلامة فأنا أفضل أن أركب بصحبتهم إلى بوابة المدينة . لم يكن ذلك شيئًا جديدًا عليهم أن يروا إنجليزيًا فى هذا المكان ؛ ألم يكن هناك خزان للماء خارج البوابة الشمالية ويطلقون عليه اسم بركة Birket الإنجليزى el-engleysy ؟

سألنى محمدُ ما الذى كتبه الباشا ؟ كان يود منى أن أقرأ عليه الرسالة بلغة النصارى : "ووقف محمد ينصت إلىَّ باعجاب كبير. بُتا pitta بتا pitta بتا pitta ! أهذه هى لغة النصارى؟" ضحك محمد ؛ وكانت تلك مصدرًا لمرحه فى جلسات القهوة التى تلت ذلك . ولكنى اكتشفت أن الرجل الطيب كان ضعيفًا ضعف الماء فى نهاية كل هذه الأحداث السيئة : لم أكن أعرف أن هذا الرجل لديه هذا التفاهم السرى مع عبد الله السروان ، ووجدته على العكس من كلامه السابق غير راغب فى تسليم أشيائى قبل رحيلى ! بقى أفراد العجيل عدة أيام أُخر، وبدأ عبد الله السروان يضيق ذرعًا بوجودهم . أعطيت الوهابى ، رئيس العجيل ، رسالة إلى الباشا ؛ قام بتسليمها إلى الباشا فور عودتهم إلى المدينة .

خيبر من منظور المزاج الساخر لهؤلاء القرويين السود عبارة عن جزيرة Jezirat : هذا يعنى أن المجىء إلى خيبر أمر صعب ، بالإضافة أيضًا إلى صعوبة الرحيل عنها . الحَّرة الشاسعة التى تُطَّوق خيبر لا يظهر فيها أحد من العرب قبل دخول فصل

الربيع : وخيبر لا تقع على طريق عام ، والبدو لا يعودون إلى وديانهم وقراهم إلا فى موسم حصاد التمر . وفى سائر أنحاء المنطقة البركانية المحيطة بخيبر لم يكن فيها ، فى ذلك الوقت ، سوى بضع خيام قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة ، ويعيش فيها بعض من الحطيم وأقرب تلك الخيام كانت على بعد مسير رحلة كاملة - ولكن أحداً من هؤلاء البدو والمغلوبين على أمرهم لم يكن على استعداد ، تحت أى ظرف من الظروف لتوصيل النصرانى أو نقله مرة ثانية إلى حائل - فقد كانوا جميعًا مستائين من ابن الرشيد . هنا خطرت ببالى فكرة الذهاب إلى قرية الحيات (فوق الحَرّة) ، والتى تقع على طريق أولئك الذين ينتقلون بين بلاد بن الرشيد والمدينة المنورة : وبالتالى قد أوفق فى العثور على من ينقلنى إلى الجبل .

لامنى النجومى على كلامى الواضح الصريح قال : إننى ليس عندى ذكاء الرحّالة. "إذا قلت بين المسلمين أنك مسلم ، فهل سيقتلك شعبك عندما تعود إلى وطنك؟ - هل أنت خائف من ذلك ، يا خليل ؟" وتأسيساً على ذلك قال محمد النجومى : فى جلسات القهوة التى تلت ذلك ، "لقد عثرت على رجل لا يود أن يكون صديقًا لنفسه ! وأنا لم استطع إقناع الشيخ خليل بأى حال من الأحوال : ولكن لو أن المسلمين جميعًا لديهم مثل هذه العقيدة الراسخة فى الدين ، لما استطاعت الدنيا كلها مقاومتنا على الإطلاق . بائع شاب من معارفى لم يفعل هذا الشيء - والبعض منكم ربما يعرفونه وهو من أهل المدينة المنورة - عندما كان مؤخراً فى مدينة المشهد el - Meshed الشهيرة بأن كل سكانها من الشيعة . دخل عليه الليل ، وهو واقف فى الشارع ، ورأى بعض المارة ذلك الغريب أثناء وقوفه فى الشارع ، وبدءوا يسألونه بلهجة [الشمال الغريبة] "شو Shu بتكون bitekun أنت ent " بمعنى "من أنت؟" [هذا السؤال باللسان العربى" أنت ent مين min ؟ يا ya فلان Fulan] هل أنت سّنى أم شيعى ؟ ورد عليهم الملعون قائلاً : "أنا شيعى ، يا سادة " . قالوا : إذن مرحبًا ، أيها الأخ العزيز!" - وقام أفضلهم باصطحابه إلى منزله ، ليتناول معه طعام العشاء ويقيم معه . وفى الغد، أعاره رجل طيب آخر زوجة من زوجاته ، وطلب منها خدمة أخيهم الغريب طوال فترة إقامته بينهم؛ - وكانت تلك الفترة حوالى ثلاثة أشهر : وبعد تلك الفترة استأذن منهم ذلك الشاب ،

وعاد وهو يبتسم إلى المدينة المنورة " ومازال يعيش فيها مسلمًا خالصًا مثلما كان من قبل! وأنا أقسم بالله أنى لعبت هذا الدور الشيعى بنفسى عندما كنت شابًا!- ولعلكم شاهدتم هؤلاء الشيعة وهم يتدافعون على الحرمين . فى أحد الأعوام ، أعطت مجموعة من الشيعة أو إن شئت فقل : الحجاج الفارسيين ، والدى مبلغًا من المال نظير إقامتهم (وحدهم) فى بيارة النخيل. وعندما ذهبت إلى خيام هؤلاء الحجاج الفرس قالوا لى: "يا حاج محمد ، هل أنت شيعى أم سنى؟" وأجبتهم ، إخ! أنا شيعى يا سادة :" - "آه! لا تؤاخذنا فى السؤال ، أيها الأخ العزيز محمد؛ وتناول الغداء معنا اليوم :" وعليه راحوا يعزمون الحاج محمد على كل وجبة من الوجبات التى يتناولونها" وعندما كانوا يشربون الشاى حلو المذاق كنت أشرب معهم. وفى عصر أحد الأيام مر عليهم بدوى وبصق ، بينما كنا نتناول طعام العشاء! - وأقسم بالله ، أن الشيعة كلهم نهضوا واقفين من حول الطبق ، وصاحوا ، "أبعدوا ذلك الطبق بعيدًا عنا! أوه! أبعد الطبق ، يا حاج محمد ؛ لقد تلف الطبق نتيجة تفل هذا البدوى الهمجى." - (أضاف قائلاً) : من الذى يتصور أن يكون خليل مصدرًا للشر؟ لأننا عندما نخرج سويًا ، تراه يترك عباءته (بشته) فى أحد المنازل ، أو يترك مشعابه فى بيت آخر ، أو يترك عقاله فى بيت ثالث! وهو ينسى أيضًا غليونه ، وحذيانه ، فى منازل أخرى. آه من نسيان ذلك الرجل! قد يخطر بالبال أنه مصاب بفقدان الذاكرة بالنسبة للأشياء المحيطة به! - أهذا هو الجاسوس، أهذا هو الساحر؟ ولكنى جد أسف لأن خليلاً سوف يرحل عنا قريبًا جداً ، لأنه شيخ فيما يتعلق بالمسائل الدينية ، يضاف إلى ذلك أن خليلاً يعد أيضًا رجلاً طيبًا ومسالمًا" .

كانت أسرة النجومى تعاملنى بكثير من الود والعطف : فقد ساعدت أدويتى (بل أنهم يعتقدون أنها هى التى أنقذت) ابنتهما؛ كنت عندهم مثل ولد من أبناء الأسرة ؛ "والله wullah إنك in-nak مثل mithil ولدنا weledna يا Ya "خليل Khalil" على حد قول الاثنين. كان محمد يحثنى على الإقامة معه فى خيبر ، "التى وجدت فيها ، لأول مرة، بعد الأسفار الطويلة أصدقاء طيبين ، إننى لن يضايقنى أحد بسبب دينى فى خيبر ؛ وإننى يمكن أن أكون بائعًا فى سوق الصيف ، من باعة محمد النجومى ، وأقف على

طاولة من طاولات بيع العباءات (البشوت) والغتر ، وبيع قماش البفتة بالذراع لقاء نقود البدو الفقراء. وسوف يشترى لى عبدة حبشية واسعة العينين لتكون لى زوجة ". – وليس هناك نساء أجمل منهن فى شبه الجزيرة العربية؛ وهن يبدين جميلات فى ثيابهن البسيطة ، وغالبيتهن يتمتعن بطابع طيب ومزاج معتدل ؛ ذلك على الرغم مما يقال عن الأماكن التى يتواجد فيها الأحباش فى هذه البلاد ، وهذا الدم الوثنى فيه شىء من التواضع البين – كان ذلك هو محمد النجومى ، الرجل الطيب ، هذا الرجل الذى كان جديراً بأن يولد فى بلد أسعد حالاً من هذه البلاد .

كان الناس هنا ينتظرون أن يشن الآخر عليهم المزيد من العمليات الحربية : فى الوقت ذاته كان ابن الرشيد يتباحث سرًا فى المدينة ، لاستعادة خيبر . هذا هو أبو بكار Abu Bakkar ، تلك الشخصية الرئيسة ، التى تتولى قيادة العجيل فى المدينة المنورة ، وصل مؤخراً إلى حائل للتشاور مع الأمير ؛ وعاد ومعه خُرج ملئ فى جزء منه بالريالات ، جزية الأمير (المنافقة) للسلطان ، وفى القسم الثانى من الخرج نفسه – هدية أو عطية من ذلك الأمير الداهية لأبى بكار نفسه جزاء له على صداقته التى دامت ثلاثة أيام – كان أبو بكار هذا بمثابة باب Bab الأعراب el - Aarab بمعنى بوابة شئون البدو الرحل"، فى المدينة المنورة ؛ كان أبو بكار يتولى منصب الرجل الثانى ، إلى أن خلف والده فى هذا المنصب الكبير ، الذى يتولى بمقتضاه قيادة العجيل فى المدينة المنورة : كانت والدة أبو بكار بدوية . أبو بكار هذا ، كان ذلك الشخص الذى يتولى القيادة فى الفترة ما بين رحيل الباشا الحاكم وعودة الباشا الجديد إلى المدينة المنورة. يضاف إلى ذلك أن أبا بكار كان قائداً للحملات التى كان العجيل يشنونها على الأعراب؛ وكان هو بنفسه الذى يتولى قيادة قوات العجيل فى ميدان القتال . هذا المواطن الشجاع غير مكتمل البداوة سبق له اتخاذ زوجة لنفسه من بين كل قبيلة من القبائل المحيطة حوالى عشرين أو أكثر من ذلك : وبهذا التصرف استطاع أن يجعل الأعراب المجاورين له حلفاء وانسباء له .

كان أبو بكار يحضر إلى خيبر كل عام ومعه جنوده : وكان هو الذى يصدر الأمر بالتاريخ المحدد لبدء موسم حصاد التمر بواسطة كل من القرويين والبدو على حد سواء – وكان أبو بكار يصيح فى تلك المناسبة قائلاً : أفلح! eflah كان أبو بكار يرتبط مع محمد النجومى بعلاقة ودية ؛ وكان محمد النجومى ، ذلك الرجل الطيب ، يستفي دمن هذه الصلة الودية ، فى خدمة قضايا المقهورين . نظراً لأن ذراع العم محمد كانت بمثابة عكاز يتكىء عليه الضعفاء بالإضافة إلى أنه كان أبًا للفقراء والمساكين فى قرية الزنوج : وكان الجدعى والمجتاجون يفدون إلى مائدة طعامه كل يوم . وبعد رحيلى عن خيبر سوف يسافر العم محمد النجومى إلى المدينة المنورة ليدافع عن قضية دخيل الله، وقد يأخذ معه فى رحلته هذه شيئًا من المال – "الذى يتعين إعطاؤه للقضاة"! وعندما أجبته "أية عدالة هذه مع مثل هذه التصرفات؟" رد علّى وهو يشعر بالأسف والندم، "الإسلام el - Islam كله Kulluhu عيب ayb بمعنى كل ذلك عيب فى الإسلام .

سألنى محمد النجومى ، "مالذى يذكر للإنجليز؟" أجبته ، "إنهم حكام أجواد". ها! وما الذى يحكمونه طالما أنهم ليسوا متمردين (إنما أصدقاء) للسلطان؟" – فى هذا الجزء من العالم ، هم يحكمون الهند ؛ والهند إمبراطورية أكبر من دولة السلطان كلها، وهى البلد الرئيسى بين بلاد المسلمين." - "إخ! أذكر أنى سمعت هنديًا يقول ذات مرة ، أثناء موسم الحج : "أدام الله حكومة hakumat الإنجليز ، لأن الإنسان يستطيع التجوال فى أى مكان يشاء فى الهند ، وهو يحمل معه صرة من النقود ؛ ولكن هنا فى هذه الأراضى المقدسة فإن الحجاج يتهددهم خطر اللصوص وقطاع الطرق!" – استصغر العم محمد الهنود ، "قال : إنهم ليسوا شجعانًا ، وأنا لا أقيم للإنجليز وزنًا ، نظراً لأن الإنجليز لا يحكمون عدداً كبيراً من الهنود : وأنا بنفسى ساعدت على تهريب العشرات من الهنود Hinud ، " – وحكى لى محمد النجومى حكاية. " فى جاهلية الشباب : ذات صباح ، فى موسم من مواسم الحج ، وبينما كنت أسير خارج أسوار المدينة المنورة ، قاصداً بستان والدى ، رأيت جماعة من الهنود جالسين أمامى فوق تلة من التلال – كان عددهم ستة عشر شخصًا : وكانت تجلس فى وسطهم امرأة شابة – وكانت تلبس ملابس غالية ؛ لأنهم كانوا من الأشخاص المهمين . وصحت فيهم ورفعت

رمحى فى اتجاههم ، فبدءوا يقفزون ويجرون ؛ صاح الهنود ، ونهضوا كلهم دفعة واحدة وهربوا إنقاذًا لحياواتهم! - وخلفوا وراءهم المرأة الشابة وحدها ؛ وكان آخر من تخلى عنها رجل صغير السن - وربما كان هو خطيبًا لها وسيتزوجها." مدت هذه السيدة الجميلة يديها له وراحت ترجوه عن طريق الإشارات ، أن يأخذ منها مصاغها فقط : خلعت له خواتمها وأعطتها لذلك اللص (الشبيه بالبدو) ؛ - كان محمد قد خلع بالفعل أساورها الغالية من يديها! ولكن هذا الشاب التائب عندما أبصر جمالها الأنثوى وعندما أبصر البلاء والكرب الذى كانت فيه رق قلبه وتركها [دون أن يلوثها] دون أن يلمسها - والعرب لا يشعرون بالندم عندما يقومون بتلك الأعمال الشائنة ؛ هذا الرجل المحترم ، الذى تاب الله عليه ، لم يشعر بهذا الندم ، وهو فى سنوات التدين - والأمر يبدو لهم كما لو أن خير الدنيا كلها هو خير Kheyr الله ullah ، بغض النظر عن كون ذلك الخير فى أيدى كثير من الناس ؛ وأن ذلك الخير يمكن لأى شخص آخر الحصول عليه (سواء أكان ذلك بالخداع والمكر أو القتال) .

عندما فهم منى العم محمد أن للإنجليز محطة بحرية فى شبه الجزيرة العربية تراخت لحيته فى شيء من الإعجاب والانبهار ! ولو قدر لمثل هذا الكلام أن يقال فى قهوة الجنود فلن يصدقه أحد - إذ أن أحدًا منهم لم يسمع عن عدن Adden (ويصح فيه أيضًا Aden) : "قالوا : ولكن هل الموجودون هناك عسكر السلطان ، وليس عسكر النصارى ؛ وأشمأزوا من حماقتى - "هل تعتقد أن السلطان يمكن أن يحتمل وجود نصرانى فى أرض الأعراب [المقدسة]؟ لم يحدث أن كان الإنجليز فى عدن قبل ذلك على الإطلاق" . ولكن البعض قالوا : "خليل رجل رحّاله ، يقول الحق ، ويندر أن يقع فى الخطأ : لو كان الإنجليز فى عدن ، أليست عدن على هذا الجانب من جانبى البحر ، ولكنها توجد على الجزء (الإفريقى) البعيد". وهنا دخل البيشى (وادى بيشة يقع على بعد ١٢٠ فرسخ بالقرب من محطتنا البحرية فى الجزيرة العربية) وأكد ما يقوله

النصراني ، وأردف قائلاً : "نعم ، عدن خاضعة لحكومة الإنجليز." وصاحوا جميعًا ، " لابد أن يكون ذلك بإذن من السلطان! نظرًا لأن الإنجليز تستفيد منهم الدولة ، وليسوا من المتمردين عليها" (*) .

بعد مضى اثنى عشر يومًا على الرسالة التى سبق أن كتبتها للباشا جاء الرد لعبد الله السروان ، مع الجماعة العائدة من المدينة ، ويطلب الباشا فيها من عبد الله "أن يكون حريصًا فى تعامله وتصرفاته مع الإنجليزى، وأن يرسلنى على الفور إلى ابن الرشيد؛ وإذا لم يتيسر وجود بعض البدو لمرافقتى فى تلك الرحلة ، فبوسعه الاستعانة بجنود العجيل : وطلب إليه أن يعيد إلىّ ممتلكاتى على وجه السرعة ، وإذا كان أى شىء قد ضاع منها فليكتب له على الفور".! وهنا بدأ حاكم القرية الأسود يخاف على نفسه ؛ وراح عبد الله السروان يتجول فى القرية لتحصيل ذلك المبلغ الذى سبق أن صرفه أو أنفقه من الليرات الستة التى سبق أن أخذها من أمتعتى : وسمعت ، وأنا فى غاية الألم ، أنه باع بقرة اليتيم (من أجل تكملة المبلغ) .

استدعانى عبد الله السروان فى الليل ليسلم لى حاجياتى . رزمة الكتب والأوراق، التى سبق أن تلقاها قبل أربعة عشر يومًا عندما جاءت من المدينة المنورة ، وكان عليها خاتم الباشا وتوقيعه : وعندما فتحت الطرد ولم أجد فيه المصحف أو كتاب المزامير ؛ أين إذن خُرْج الجمل؟ غمغم عبد الله فى حلقه الأسود تُرى من الذى ارتكبَ هذه السرقة الوضيعة؟" وهنا أرسل عبد الله السروان شخصًا يستدعى دخيل ليشرب القهوة فى منزله . "قال الضابط الكبير : دعنى أرى ذلك الذى تحضره؟ ولو قدر لذلك النصرانى أن يُقطَعَ عنقه ، فأنا أرى أن يتبقى لى شىء ، قبل أن يؤول كل شىء إلى الباشا" – "قال دخيل ، أجبرنى ذلك الضابط الكبير ، ولذلك سمحت له أن يأخذ الكتابين ؛ وعندما رأى خرج الجمل الفارسى. "قال : هذا أيضًا يمكن أن يبقى عندى" – تعجب عبد الله السروان قائلاً : "الله يلعن أباه!" ورد كثير من العسكر (الجنود)

(*) من المعروف أن الإنجليز احتلوا عدن فى عام ١٨٣٩ واتخذوها قاعدة عسكرية لهم ، ولم يكن ذلك الاحتلال بإذن من السلطان العثمانى كما ورد فى السياق. (المراجع) .

قائلين :"الله يلعنه!" سألت ، "هل من فعل ذلك رجل فقير؟" عبد الله : تقول فقير! إنه غني ، الله يلعنه! إنه العقيد المسئول عنا يا خليل ، في المدينة المنورة : التي يعيش فيها في بيت كبير ، ويتسلم راتبًا حكوميًا كبيرًا بالإضافة إلى المكاسب الشخصية [غير الشريفة] التي يحصل عليها من وظيفته" - قال النجومي متعجبًا : "الله يلعنه!" ورد أمان (صاحب أرجح عقل بين هؤلاء الرجال جميعًا) : " يلعنه الله! لقد كسَّر عصبية الدولة!" وناموسها namus عبد الله : "آه! يا خليل ، إنه واحد من الكبار في المدينة المنورة ، وهو جوماني gomany أيضًا ! (بمعنى عدو لدود) . ماالذي يمكن أن نفعله إزاء ما نحن فيه حاليًا ، هل نرسل ثانية إلى المدينة المنورة ونبلغها بما حدث؟" قال قروي كان وصل قادمًا من المدينة منذ فترة قصيرة : "العقيد ليس موجودًا في المدينة المنورة في الوقت الراهن ، وقد بلغنا قبل أن نبدأ رحلة العودة بوقت قصير ، أنه توجه إلى مكة : " وهذا يستدعي تمضية عدة أيام أخر في خيبر بسبب الخطأ الذي وقع فيه ذلك الوغد التركي! بالإضافة إلى أن صبري باشا يحتمل نقله من المدينة المنورة!

جلست بالقرب من نار المساء التي شبها النجومي ، وصلَّحت شيئًا من الشاي ، الذي تعلم شربه مني هو وجارته البدوية المترحلة ، ثم سمعنا صوتًا ينادي عند الدرج (السلم) ؛ نزلت ربة البيت السعيد مهرولة لتعود إلينا ومعها شقيقها ، الذي كان غائبًا منذ مدة طويلة في عملية لنقل الماشية ، مع جاطوني آخر . هذا البائس عاد منهوك القوى ، ومكشرًا عن أنيابه : وبعد تناول الطعام ، راح يحكي لنا مغامرته" - "حدث ذلك في ديرة جهينة ، عندما وجدوا قطيعًا من الإبل ، وليس معه سوى طفل واحد هو الذي يقوم على أمر رعي ذلك القطيع . راحوا يسوقون ذلك القطيع طوال النهار وهم يجرون وراء الإبل ، واستمرت عملية السياقة هذه إلى ليل اليوم التالي ؛ وإلى ما قبل الفجر بهنيهات قصار ، وعندما كانت المسافة المتبقية للوصول إلى خيبر لا تزيد عن يوم ونصف اليوم ، هنا دخل القطيع عن غير قصد بين الخيام! - كان ذلك المكان عبارة عن منْزل من منازل قبيلة حرب . وهنا راحت الكلاب تنبح على الإبل المندفعة ، وهرع الأعراب من بيوتهم ، ومعهم أسلحتهم . ونزل هو ورفيقه على وجه السرعة من فوق الجمل وتخليا عن الإبل المسروقة كلها ، ولم ينقذا سوى بندقيتيهما الفتيليتين ، ونجيا

بنفسيهما مستترين بجانب من جوانب أحد الجبال . ومن ذلك المكان راح الاثنان يفتحان النار على أولئك الذين كانوا يطاردونهما ، وعلى أولئك الذين كانوا يفتحون النار عليهما . عاد أفراد قبيلة حرب إلى القهوة ؛ وهرب الجياطين geyatin إلى خيبر سيراً على الأقدام وهما فى غاية التعب والإرهاق!"

فى اليوم التالى عزم العم محمد النجومى نسيبه اللص لتناول العشاء . وبعد العشاء قام ذلك الشقى المهدود ووقف ليشعل غليونه ، ثم ذهب بعد ذلك مباشرة إلى المنزل طلبًا للراحة والنوم - عادت زوجة محمد ، فى وقت متأخر ، بعد أن انتهت من حلب ذلك العدد القليل من الماعز ؛ وعندما كانت تصعد السلم ، وقد أشعلت جريدة من جريد النخل لتضئ لها الطريق ، لاحظت عينا محمد النجومى الحادتان علامات التعب والاضطراب بادية على وجه زوجته - "أخ ! سألها ، ماذا بك يا امرأة؟ " أجابته بنغمة حزينة ، كما هو حال الساميين، " حسن ! [كلمة من كلمات الفأل الحسن] من رضا الله: إن شقيقى مريض جدًا ، وعنده مغص شديد ، وهو يرقد ويحس بألم شديد، كما لو كان سيموت ، ونحن لا نعرف ماذا نفعل له : - يبدو [أطرقت المرأة المسكينة برأسها إلى الأسفل] إنه يعانى من شئ من التسمم ؛ فهو بعد أن انتهى من تناول الطعام معنا، وغادرنا بدأ يحس بالألم أثناء عودته إلى المنزل!" - رد عليها محمد بشئ من الفكاهة ، "هذا حمق منك يا امرأة ، من الذى سمم ذلك الملعون؟ أنيرى لنا الطريق ، وإذا وجدناه يتألم فسوف نحضره إلى هنا ، وسوف يعالجه الشيخ خليل بشئ من الدواء" .

وجدناه أحسن حالاً ؛ وأحضرناه معنا . أعطيته بعض ذرات من مسحوق اللودانوم ، قام بابتلاعها بلا أدنى شك - وشاهدت بعد ذلك دواء من أدويتهم ، يستعملونه فى علاج المغص ، والذى ربما ينقذ الحياة بعد أن تفشل العقاقير فى ذلك . كان المريض يتألم وهو راقد على ظهره وكانت شقيقته تضغط على بطنه برقة وحنان الأم [وكانت تبلل يديها من حين لآخر بشئ من الزيت] ؛ ناولته أيضًا حساء من اللبن الحامض كى يشربه ، بعد أن خفقت فيه رأسًا من الثوم thum . وعند منتصف الليل عاد معافًا إلى منزله مرة ثانية : وهنا قلت للعم محمد : " الأفضل أن يموت الإنسان

مرة واحدة بدلاً من معاناة آلام القلب وأوجاعه بصورة مستمرة " - "لقد فاجأ ذلك الألم هذا الملعون مرات عدة ؛ ومن ذا الذى يمكن أن يخاف من الشيخ خليل؟ وأنت إذا ، ما طلبت منى أيها الأب الصغير ، شرب السم فسوف أشربه " . - ذهب ذلك البدوى القلق إلى حال سبيله ، وفى صبيحة اليوم الثالث كان يمشى على قدميه فى الحَرّة بحثًا عن الكرم (وليأكل لحمًا) فى قرية الحيات - التى تبعد عن هنا أربعين ميلاً .

طلب عبد الله السروان علاجًا من البرد " وأحضرت له شيئًا من الكافور . " قال عبد الله السروان : إخ! أليس هذا هو الكافور Kafur الذى يرشونه على أكفان الموتى عندما يحملهم الناس إلى مثواهم الأخير؟ - خمس نقاط من هذه المادة كافية بقطع خلف أى رجل من الرجال . ما الذى فعلته أنت كى تشربه يا عم محمد!" رد الرجل الطيب قائلاً : "أليس لدى حصين ، وتلك البنت الصغيرة؟ والله لو جعلنى الشيخ خليل عقيمًا منذ ذلك الحين ، لكنت راضيًا عن ذلك ، لأن خليل هو الذى فعل ذلك . "ذهل الجمهور الأسود ؛ "وقلت لهم : ناولنى تلك القارورة وسوف أشرب منها عشر نقاط بدلاً من خمس " . ولكن الحاضرين غمغموا قائلين : "إخص! وكان ذلك واحداً من أدوية خليل؟" .

حضر إلى خيبر بعض الحطيم ليبيعوا فى القرية شيئًا من جبنهم غير المكبوس - كان عبد الله السروان قد تخيل أن بوسعه أن يأكل من ذلك الجبن الحلو ، الذى يصنعه هؤلاء البدو الرحل المساكين ، دون أن يدفع ثمنًا لما يأكله من ذلك الجبن . أصدر عبد الله السروان أمرًا للعجيل بتحذير الحطيم من إحضار الجبن ؛ وعندما وصل الحطيم أرسل عبد الله عبده الأسود سرور ليطلب منهم شيئًا من الجبن للحاكم (شخصيًا) ، وإلا ، سوف أفرض ضريبة على كل الجبن الذى سوف يمر من خلال بوابة القرية ؛ وسوف أحصل لنفسى نيابة عن الدولة على قطعة واحدة عن كل ثمانى قطع من الجبن". وعندما سمع البدو المساكين ذلك الخبر ، حمّلوا أشياءهم على دوابهم ، وعادوا أدراجهم وهم يقولون : "والله، سوف لا يعودون إلى خيبر بعد اليوم".

جلس القرويون السود على مقاعد الشوارع ونظراتهم شاردة : وهنا انبرى النجومى من بينهم وهو يقول ، "أهذا هو ، ابن الجحش ، الذى أرسلوه إلينا ليحكم خيبر ؟ يا لهذا السوء ! وهذا هو عبد الله يزداد غباءًا يومًا بعد يوم . وأنا أتساءل ، من هم الأعراب الذين سيأتون إلى خيبر بعد اليوم ؟ من أين سيحصل الناس ، بعد اليوم ، على السمن والجبن؟ ولكنهم يتعين عليهم اليوم أن يأكلوا خبزهم وعصيدتهم حاف haf (أى بدون صلصة) . هل أبو Abu على Aly (عبد الله)! هو الذى يدير الدولة ؟ لقد كان الحال أفضل فى زمن ابن الرشيد وطوال سنى حكمه ! السمن الذى يضاف إلى كل من الوجبات الجافة هى والتمر ، هو الذى يجعل طعام الواحات صحيًا : وقد يبدو ، فى نظر أكلة اللحوم ، أن السمن غير ذى بال ، ولكن آكل الحم هذا يستعمل ثلث رطل من السم والزبد الذى ينفذ خلال العظم ليصل إلى النخاع ، لأنه ليس هناك من شئ عجيب مثل السمن . والقربة قد تحفظ الماء ، ولكن جلود الزبد (الآكة akka ، والماعون maoun ، والجرن Jurn ، والمدهونة medhuna) لا يمكن أن تحفظ الزبد النقى الخالص، إلا إذا كانت مبطنة من الداخل بمحلول سميك من التمر ." السمن صحة الإنسان فى الصحراء الميتة ؛ وأفضل أنواع السمن هو ذلك الذى تفوح منه رائحة الصنوبر – ومن عادة الزنوج أن يمسحوا بشرتهم السوداء بالزبد .

الأجبان الحطيمية غير المضغوطة لا تعدو أن تكون مجرد قطع من الرّوب أو إن شئت فقل : اللبن الرائب ، وهم يصنعون تلك الأجبان من ألبان النعاج والماعز ، ومع إضافة الملح إلى هذه الأجبان يمكن أن تظل صالحة للاستعمال الآدمى مدة شهر على وجه التقريب . هذه الأجبان لا تصنعها أية قبيلة أخرى من القبائل التى أعرفها فى نجد . "وهم يقولون: ليس من طبعهم أو عادتهم شرب المزيد من الحليب عما لديهم بالفعل : " وربما كان ذلك أيضًا من قبيل المهن الدنيئة فى نظر هذه القبائل . ومع ذلك فقد عثرت خلال أسفارى فى الجزيرة العربية ، على قبيلة من تلك القبائل إلى تصنع هذه الأجبان ، وهذه القبيلة قريش el - Koreysh ، أقارب محمد (ﷺ) : والقريش ينقلون أجبانهم البيضاء ليبيعوها فى كل من الطائف ومكة . السبيئون Sabeans ، أو إن شئت فقل : اتباع القديس جون John " هم وأهل الخليج الفارسى ، يصنعون أيضًا نوعًا آخرًا من الجبن : [وهم شهيرين أيضًا بالمصنوعات الفضية ، كما يشتهرون أيضًا بصناعة السيوف] .

هذه جماعة من الحطيم أحضرت معها أرباع ناقة من النياق السمينة ، وكانت تلك الناقة على وشك النفوق أثناء الولادة ؛ اشترى العم محمد منهم السنام (كي يبيع الدهن هو بعد ذلك) ، هذا السنام يصل وزنه إلى ما يقرب من مائة وزنة وهو مكون من كتلة من الدهن أبيض اللون ، وهو خال من العضلات : وبعد تقطيع ذلك السنام يحوله إلى دهن أو سم يطلقون عليه اسم الودك wedduk ؛ والذى يقولون : إنه أفضل من السمن فى طهى الطعام . بعد غلى السنام تمامًا ، جرى إنزال الوعاء عن النار وتركه يبرد على الأرض ، ولكن الدهن كان ما يزال يغلى ويتأجج . "قلت : من الساحر الآن ؟ الذى يستطيع الغلى بلا نار !" ضحكت زوجته البدوية وقالت : نعم ، محمد النجومى سحًار Sahar " . ورد النجومى قائلاً : "خليل لا يعرف الفضيلة التى فى الوُدك ؛ اسمعى يا امرأة ، هل أروى له حكاية الصلوبى Solubby ؟" – "نعم ، احكها لخليل" .

– يحكى أنه كان هناك صلوبى ومعه زوجته ، وكان لهذه الزوجة إلى جانب زوجها لمان Lemman ، أو إن شئت فقل : رجل سليط اللسان كان يشبع أمها بالطريقة نفسها ولكن ذلك الرجل الطيب صبرعلى ما هو فيه ، وكشف لهم عن سذاجته . وفى يوم من الأيام حمل الصلوبى بندقيته الفتيلية ، وقال لجارته الفاسقة ، "يا امرأة ، أنا ذاهب للصيد : ومن فوق ذلك التل الموجود هناك ، تستطيعين رؤية شجرة من أشجار الطلح ، وهذه الشجرة تنمو وحيدة فى الصحراء ؛ – عند هذه الشجرة ، يحضر رجال القبائل ، ليسألوا الروح عن أشياء فترد عليهم بصدق . هل سمعتى ما أقول! فى الصباح حمّلى أشياءنا على الجحش ، وانتقلى إلى هناك وانصبى بيتنا فى هذه المنطقة ، ثم انتظرينى هناك . إن حالفنى الحظ فسوف أعود لك ثانية فى اليوم الثالث : " ثم ترك المرأة بعد ذلك – وفى ظهيرة اليوم التالى لوصولهم إلى ذلك المكان ، جرت المرأة الشابة إلى الأمام – وكان قلبها مشغوفًا إذ كانت تود الحديث إلى شجرة السنط (الطلح)" "قل لى أيها الشوك السعيد : كيف أتخلص من زوجى العجوز السخيف ومتى يصبح اللمّان lemman لى وحدى ". كان ذلك الصلوبى العجوز يرقد منبطحًا على صدرره بين الأدغال ؛ ورد عليها وهو يغير صوته ، " يا امرأة ، غذيه على الودك طوال أربعين يومًا، وبعد هذه المدة سيفقد سمعه وبصره" . وعاد الرجل الطيب إلى بيته ؛ وراحت زوجته

تطهى له طعامه بالودك طوال أربعين يومًا ؛ وفى صباح اليوم الحادى والأربعين وعندما أحضرت له زوجته طعام الإفطار ، مد الرجل يديه وراح يتحسس الطبق : وعندما وقف تعثر وسقط بين الأشياء . - وجدت الزوجة وأمها أن عينى الرجل كانتا مفتوحتان وتحملقان ! وكان يأكل كما لو كان لا يسمعهما ؛ وراحتا تصيحان فى أذنه ، ولكنه لم يكن يسمعهما . وعند الظهر [وهو الوقت الذى ينام فيه البدو] ، جاء ذلك اللمّان يزحف لهما متنقلا من دغل إلى دغل ؛ ثم أشار إلى المرأة الشابة . قالت المرأتان، انهض وقف على قدميك ، وأدخل بكل شجاعة ؛ لأن الرجل الطيب فقد سمعه وبصره ؛ وهنا دخل اللمان لهما فى الخيمة . ولكن الصلوبى المسكين عندما شاهد خطيئتهما المذرية ، أمسك برمحه ، وغرسه فيهما وقتلهما."

اقترب يوم خلاصى من خيبر . وتقرر لدخيل ، ساعى البريد ، بناء على رغبته هو، أن يقوم بتوصيلى إلى حائل ، وذلك نظير قطعتين من الذهب : ولكن إعطائى له هاتين القطعتين سيجعل كل ما تبقى معى حوالى ثمانين شلنا - وهذا المبلغ يقل كثيرا جدا عن المبلغ المطلوب لنقلى إلى أرض صديقة . بعيدًا عن وسط الجزيرة العربية . عرض إياد Eyad ، أحد أفراد العجيل من قبيلة بشر ، نقلى على ناقته المريضة ، إلى حائل ، نظير مبلغ خمسة ريالات . فكرت فى البداية ، (فى الابتعاد عن ذلك الجوع الذى فى خيبر) فى الذهاب إلى قرية الحياة لشراء شئ من الطعام ؛ نظرًا لأن الجراد لم يخرب تلك القرية . هؤلاء الزنوج النجديون كرماء ، والشئ الذى يرى أهل الجزيرة العربية أنه أفضل من وفاة القبائل والبلدان ، هو أن يكون الحاكم رجلا عادلا وجديرا بالاحترام - كان شقيق زوجة محمد النجومى قد عاد مؤخرا من ضيافة استمرت ثلاثة أيام فى قرية الحياة : وأثناء وجوده هناك مع اثنين أو ثلاثة من البدو المتسكعين من أمثاله ، كان رب أسرة من أسر قرية الحياة يدعوهم لتناول الطعام ؛ وكان "كل مضيف يذبح لهم ثورا فى العشاء !"قال النجومى : هذا صدق ، نالثور هناك لا يزيد ثمنه على بضع ريالات قليلة" - "قال البدوى : لقد تحول مؤخرا قروى وقرية الحياة إلى أناس من البيض ؛ وقد حدث ذلك نتيجة زواج هؤلاء الرجال من النساء الفقيرات من كل من الحطيم وجهينة :"

كان إياد Eyad ، ذلك البدوى ، الذى أصبح واحداً من مواطنى المدينة المنورة ، بسبب التحاقه بالخدمة العسكرية ؛ هذا الرجل خبر مصائب الحياة خبرة تامة . فهو بحكم بدواته (يميل طابعه إلى إكرام الضيف) لم يوافق على أسرى أو احتجازى ؛ وفيما عدا ذلك كان مجرد متملق فاتر لعبد الله السروان. - عادت كل أوراقى إلَى فيما عدا شهادة سلامة الوصول الصادرة عن ابن الرشيد ، التى احتجزوها ولم يرسلوها لى ! وهنا بدأ عبد الله السروان ، الذى يحمل فى داخله قلب عبد ، ينادينى "العم خليل ؛ لأنه خطر بباله "ذلك الذى يمكن أن يحدث لو أن النصرانى تذكر الإساءات التى وجهها إليه ذلك العبد ، وبخاصة أن هذا النصرانى له مثل هذه السلطة مع الدولة - ؟ كم كنت سأرثى لذلك الآدمى ، لو أن دورينا كانا معكوسين فى خيبر ! وعد عبد الله بتوفير المؤن اللازمة لى على الطريق ، كما وعد أيضًا بدفع نصف أجر العجيل ؛ ولكنى رفضت هذا وذاك .

استاء العم محمد لأنى رفضت أن آخذ منه أى شئ سوى قبضتين من التمر " - كان العم محمد نفسه يعانى من شظف فى العيش ، يمكن أن يستمر لحين موسم الحصاد ، يضاف إلى ذلك أن القرية كلها لم يكن فيها حبة واحدة من القمح . تقاسمت أدويتى مع ذلك الرجل الطيب ، واشتريت له ثوبا (تونك) جديدا كما اشتريت له أيضًا جرابا جديدا لنبدقيته : هذا بالإضافة إلى بعض الريالات (التى لم يكن عبد الله السروان قد أخذها لأنها كانت فكة فى جيوبى) ؛ التى جرى إنفاقها بالفعل فى شراء القمح والسمن لمنزل العم محمد ، وكنت أتمنى أن يكون ذلك كافيا حتى لا يكون حال العم محمد أكثر إنكشافا عند رحيلى عنه ، وذلك جزاء له على طيبة قلبه وحنانه علىّ طوال احتباسى الذى دام طويلا فى خيبر . قال :"لا ، يا خليل ، دعنى أعيش على سعادة تلك الذكرى ، ولا تحرمنى من ذلك بمبادلة الأحسان بالإساءة ! كل ما أريد منك أن تقول فى بعض الأحيان : ربنًا يذكره بالخير. ، ألست أنا أبوك ، ألست أنت ابنى ، ألسنا شقيقين ؟ وأنت مسكين وسط أرض اكتشفت أنت أنها كلها معادية لك . رد على ذلك أن أحمد النجومى لن يطيق ذلك أيضًا ؛ ترى ماذا سيقول شقيقى ؟ وسوف يتهامس الناس فى خيبر." رددت عليه ، "لن أقول شيئا : "ثم وافق بعد ذلك . كنت أفيد من الكرم العربى بما يتفق وإمكاناتى : ولكنى أخطأت فى هذه المرة ، فى حق هذا

الإحسان المجرد من الهوى ، والحب الإنسانى ، الذى كان يتدفق من العم محمد ؛ هذا الإحسان وهذا الحب كان يختفيان ، اختفاء المسحوق الشمعى من فوق فاكهة الصيف ، مع ظهور التصرفات الوقحة . وعندما قبل العم محمد هديتى ، خطر بباله أننى نزعت عنه أعماله الطيبة !

كان العام الجديد قد وصل إلى منتصف شهر مارس ، وفيه تكون النهارات حارة بعد شروق الشمس ؛ وعند الظهيرة وجدت درجة الحرارة فى الظل ٧٨° فهرنهيتية. كان ارتفاع خيبر حسب قراءات الجهاز حوالى ٢٨٠٠ قدم . وإذا ما قارنا المدينة المنورة بخيبر ، فيما يتعلق بوقت حصاد القمح والتمر ، نجد أن المدينة المنورة يجرى فيها حصاد القمح والتمر فى تاريخ لاحق ، ومن هنا يمكن القول إن المدينة المنورة أكثر ارتفاعا من خيبر . والمدينة المنورة تحيط بها جبال شديدة الرياح ، والشتاء فى المدينة المنورة أبرد منه فى خيبر ، يضاف إلى ذلك أن المواطنين الأثرياء يلبسون عباءات (بشوت) مفَّراة ، فى حين يكون من السهل على الفقير أن يمشى مرتديا قميصه ليس إلا فى خيبر . كانت أيام منتصف فصل الشتاء ، عندما وصلت إلى خيبر ، مثقلة بحرارة أواخر فصل الخريف ، وكانت ساعات الليل تظل ساكنة الهواء لحين طلوع الصبح . وبعد انتهاء عيد الميلاد ، بدأت ليالى الشتاء تتسم بالبرودة المقبولة ، ثم تحولت تلك البرودة إلى برد قاس ، وأمضينا أسبوعًا (حسبما تبدى لنا) شديد البرودة (ولكن بلا صقيع . والعرب الذى يلبسون ملابس شبيهة بملابس العراة ، لا ينامون على أسرَّة، وأنهم أدنى من كثير من الوحوش ! وقلة قليلة من هؤلاء العرب هم الذين يفرشون من تحتهم قطعة من قماش الخيام . يضاف إلى ذلك ، أن هناك كثيرا من الأرواح المسكينة، وكثيرا من النشاء ، ليس لديهن العباءات التى يمكن أن يلفوا بها أجسادهم التى ترتعد بفعل البرد ؛ هؤلاء المساكين لا يفعلون شيئا سوى أن يلفوا أنفسهم فى حصير (بارد) من سعف النخيل . قال العم محمد : "ربنا يعطى البرد على قدر الغطاء ، والرجل شبه العارى لا يحس بردًا أكثر مما يحسه ذلك الذى يرتدى الملابس المناسبة." فى صباح أحد الأيام (كان ذلك موافقا لليوم الحادى عشر من شهر فبراير) ، وعندما كان الجو شديد البرودة ، إذ كانت درجة الحرارة ٥١° فهرنهيتية ومع ذلك فقد شاهد العم محمد فى بعض فصول الشتاء طبقة من الثلج فوق سطح مياه وادى المستنقعات .

هواء الشتاء يكون ساكنا ، ورطبا عندما تشرق الشمس ، وتكون السماء الزرقاء المشوبة بالابيضاض ، محجوبة بالسحاب الأبيض الخفيف .- وهذا موعد تذكير النخيل؛ إذ تبدأ طلاع tila النخل البيضاء في الظهور ، عند أعالي السيقان الجميلة . ووديان خيبر غير معروفة في الحجاز أو نجد ؛ ووديان خيبر هي نوع من أرض الوسط ، - ومع ذلك تعد خيبر قرية من قرى الحجاز . والأراضي المرتفعة من الحَرّة تابعة لنجد ؛ والصحراء المنخفضة من وادي حمض ، في المنطقة الواقعة خلف جبال الحجر ، يطلق أفراد قبيلة البشر ، عليها اسم تهامة Tehama [بمعنى أرض السهل الحار] ! - وليست هذه هي تهامة ساحل البحر الأحمر .

كان عبد الله السروان قد اشترى لي خرجا للجمل من بائع وصل إلى خيبر قادما من المدينة المنورة اتفقت مع إياد ؛ على أن نرحل عن خيبر في صباح الغد ، - وعندما أشرق علينا صباح ذلك اليوم السعيد اكتشف رفيقي أن ذلك اليوم كان يصادف الحادي والعشرين من شهر صفر القمري وأن ذلك ليس من الفأل الحسن لبداية الرحلة؛ وقال : من الأفضل أن نبدأ رحلتنا صباح اليوم التالي لذلك اليوم الحادي والعشرين .

رأيت رجلين جرى أحضارهما أمام عبد الله السروان ، من أم كيدة ، لأنهما رفضا الكنس والتنظيف الإجباري أمام منزليهما في شارعهما . وفرشهما عبد الله على صدريهما في حارة من الحارات العامة ، وعلى مرأى ومسمع من النساء اللاتي كن يبكين ، وعلى مرأى ومسمع أيضاً من الجيران في القرية ،- وبالرغم من توسل الشيوخ إليه أن يصفح عنهما ، راح عبد الله يضرب الرجلين ، بجريد النخيل الأخضر ؛ وراح الرجلان يصيحان إلى أن سال دمهما على الأرض . كان العم محمد ، في ذلك الوقت ، يقتاد بقرته إلى المكان المخصص لتجميع الماشية خارج بوابات القرية : وتألم قلبه شبه البدوي عندما رأى ذلك المنظر الوحشي (غير الإنساني من وجهة نظره) ! عاد الرجل وبصوت عال يعبر عن الاحتجاج والتمرد راح ينعت أبا علي Abu بأنه "حمار جداً ، ويهودي !" على مرأى ومسمع كل من التقاهم في شوارع القرية .

أشرقت الشمس ، كانت تلك ساعة خلاصي من "ضيق deyik الصَّدْر es-Sudr "الطويل الذي أصابني وألم بي في خيبر . قال عياد إنه يود الحصول على أجره كاملا

قبل بداية الرحلة ؛ لأنه سوف يترك هذا المبلغ مع زوجته . وقد علمت من منازل الأعراب ، أن البدوى رفيق يمكن الوثوق به بشكل عام ؛ ولكن إياد كان رجلا عفنا ، ومن ثم كنت قد عقدت العزم على إعطائه ثلث المبلغ أثناء الرحيل ، والثلث الثانى فى قرية الحيات ، والثلث الأخير عند وصولنا إلى قرية حائل . حاول عبد الله إقناعى ببعض الأسباب الخادعة ؛ ولكنى رفضت أن يكون إياد رفيقى ، نظرًا لأنى توقعت ، من خلال هذه البادية السيئة ، أن يكون رفيقا خطيرا . عبد الله : "لاداعى للصراع والخلاف ، وبوسعنا الاهتداء إلى شئ آخر غير الصراع والخلاف ، وفى كل الأحوال سوف أوافق فى النهاية"أنا أضمن إياد ، وإذا ما قصر فى شئ ، فسيكون ذلك على رأسى أنا ! إياد عسكرى من جنودى ، والدولة لها ذراع طويلة ، وإذا ما ارتكب معك أى خطأ فسوف أقطع رقبته . رواتب إياد المتأخرة إلى الآن تقدر بحوالى خمسمائة أو ستمائة ريال ، وهو لا يقوى على معارضة الدولة . قل لى عن الطريق الذى تود أن تسلكه إلى حائل ، وسوف أجعله يلتزم بذلك الطريق . وبوسعك أن تستريح يومًا هنا أو هناك ، حسبما تشاء أنت ، وبوسعك أيضًا أن تشرب شرش الحليب ، كلما عثرت على البدو ؛ وإياد راغب فى كل ذلك وراض عنه نظرًا لأن ناقته ضعيفة . هل ستمضى فى الرحلة خمسة عشر يومًا ؟ - وأنا سوف أعطيه ستة وعشرين يوما فى الذهاب والإياب ."

كان النجومى ، الذى كان يقف متفرجا علينا فى ذلك اليوم ، عالى الصوت وحاد الكلام ، وكان يقول رأيه بصدق وإخلاص على مرأى ومسمع من الجميع ، وكان ذلك يؤذينى بشكل واضح ! الأمر الذى جعلنى أنصرف مبتعدًا عنه بعد أن أصابنى شئ من الصداع . هذه الأراضى المتشددة يتعين على الرحالة أن يمشى فيها طبقا للريح لمواتية، ويتعين عليه المضى قدما قبل أن تفتر النوايا الطيبة : جعلت إياد يقسم أمامهم أن يكون مخلصا معى ، ثمى عددت له الريالات الخمسة فى يده .

وصل عبد الله فى ذلك ذلك الحين طلبا من صبى من أفراد العجيل ، اسمه مرجان Merjan ، يطلب السماح له أن يكون برفقتنا أثناء السفر . وقد عرفت عن ذلك المرجان إنه ليس خفيف الظل ، بل إنه يثير المتاعب ، وقد يتسبب فى تأخير مرورى على الطريق إذا ما حكى للبدو عن التقلبات التى حدثت لى فى خيبر . عبد الله : "إنه يطلب ذلك من باب عطفك أنت ، حتى يتسنى له زيارة أخته الشقيقة الوحيدة هى وأخيه الأصغر فى

حائل ؛ وبخاصة أنه لم يراهما منذ سنوات طويلة ؛ وافقت على ذلك الطلب . وندمت على ذلك فيما بعد ندما كبيرا :- قد تفرض الإنسانية غير الحكيمة نفسها علينا فى بعض الأحيان .

عنوز الجنوب هم أسوأ القبائل طبعًا (اللهم باستثناء القحطان) . كنت أكره من كل قلبى مداهنة إياد ونفاقه معى ، ومصادقته لأولئك الأشقياء . قلت لهم : بالرغم من الظلم الذى وقع على فإن الكلمة الأخيرة هى السلام - (وقد أحدث ذلك فرحًا باديا على وجه عبد الله السروان)- ورافقنى أمان فى تلك الرحلة . وكان النجومى قد سبقنا لإحضار فرسه ؛ على أمل لقائنا على الطريق ليصحبنى مسافة ميل من الطريق . اقتربنا من حجر كبير صعدت فوقه لأركب الناقة : وأمسك أمان يدى بيده الضعيفة ، ودعا الله أن يوصلنى سالما غانما إلى المكان المنشود . وهنا أوصى ذلك الحبشى المسكين إياد أن يدير باله علّى ، ومضينا بعد ذلك قدما فى طريقنا .

رافقنا فى الرحلة وغد من أوغاد القرية اسمه حامد . كان النجومى قد أوفد معنا ذلك الحامد ، ليحضر له بعض الماعز التى سبق أن أعطاها لبدو الحطيم كيما يقومون برعيها . (قال لى العم محمد) : إن والد حامد كان واحدا من أثرى أغنياء خيبر ؛ " ولكن ذهب الثراء وضاع منهم ، وأن حامدا هذا يتعين عليه تأجير نفسه للناس ، حتى يتسنى له سد رمقه ؛ اخترت ذلك الحامد لأنه لم يقل لى لا حتى ولو مرة واحدة . - كان أخوه يحب امرأة شابة فى القرية ، ولكن شيخا من الشيوخ طلب يدها ؛ وبالرغم من أن ذلك الشيخ كان متقدما فى السن ، إلا أن والدها أعطاها إياه كان ذلك الشيخ هو والد إبراهيم . وذات يوم وعندما وجد ذلك الزنجى الشاب أن الشيخ الكبير كان فى منطقة النخل ، وعندما لم يجد أحدًا قريبا جرى إلى ذلك الشيخ وكسر جمجمته بقضيب معدنى . وعندما لم يعد الشيخ إلى منزله ، حدث هرج ومرج فى القرية ؛ وراحو يبحثون عنه بين المزارع . ولم يعثروا على القتيل إلا فى صباح اليوم التالى ؛ عثروا على جثته ملقاه أسفل شئ من الحطب والقش ، الذى وضعه القاتل فوقها . وراح الناس يتساءلون طوال يوم أو يومين ، "سوف أكشف عن ذلك نظير مكافأة : "ووعده الشيخ بمكافأة قال الطفل : "هو شخص ، أنا رأيته وهو يقتل الشيخ ؛ وبينما كان يوارى جثته رآنى ، وهربت دون أن ألتفت ورائى ، وعدت جريا إلى القرية. "- كانت الدية كبيرة جد

ولكن الأب التعيس آثر التخلي عن كل أرضه تقريبا ، إنقاذاً لحياة ولده : وأعطى الأرض لإبراهيم ، ولد القتيل ؛ ولم يتبق شئ لذلك الرجل في شيخوخته ." سألته إن كان إبراهيم الذى نزل عليه الثراء ، يعيش هانئا ومرتاح البال ودون خوف من الأشقاء الصغار ، الذين حرمهم إبراهيم من ميراثهم ؟ "أجابني ، نعم ، إنهم أصدقاء أوفياء : والشبان الصغار يقدرون لإبراهيم قبول الدية ، وإلافذلك يعنى حتمية القصاص من شقيق من الأشقاء ."

التقانا محمد النجومي على بعد مسافة قصيرة ، - كان الرجل يمشي على قدميه قال لنا إن فرسه موجودة في بيارة النخيل ؛ وإذا ما أمكنه إحضارها فسوف يرافقنا إلى منطقة طبج Tubj ، كيما يقطع أعضاء التذكير من الجذوع شبه البرية هناك ، حتى يمكن بواسطتها تذكير النخيل الإناث الموجودة في القرية . (وللمعلومية فإن عضو التذكير في ذكر من ذكور النخل) يكفي لتلقيح عشر نخلات إناث . - "أيها الوالد محمد الله معك ، ويجزيك بقدر عملك " وأمك محمد النجومي بيدى وهو يقول : في أمان الله يا خليل . "وعاد العم محمد إلى بيته ، ومضينا نحن قدما في طريقنا ، وبذلك تكون الدنيا وقسوة الأديان قد فرقتنا إلى الأبد !

رحنا نقسوا على الناقة ذات الخف وهي تعبر منطقة المستنقعات ، وآخر الجداول والرذاذ . وهنا أكون قد صعدت خارجا من وديان خيبر الموبوءة ، ومن الأسر الذى لا يطاق لدى الدولة (الإمبراطورية العثمانية) لأشم نسيم الحرية من فوق جبهة الحَرة ! وطوال ساعة من الزمن ، بعد ذلك ، كنا بحذاء الكثير من الأقبية ، وكثير من الأحجار البازلتية البرية [انظر ص ١٢٠] ، التي كنت أحس أنها أكوام من التراب ، وبعد مسير دام عشرة أميال شاهدنا امرأة بدوية تقف فوق الصخور البركانية ، كما شاهدنا أيضاً خيمتين من خيام بدو الحطيم . وهنا أراني رفاقي من البدو قمم جبل يقع في اتجاه الجنوب يطلقون عليه اسم البيضة el-Baitha والذى يقولون عنه : إنه يقع على بعد مسافة قصيرة من المدينة المنورة .

في فترة العصر ، نزلنا عن ناقتنا وتركناها ترعى في المرعى ، وجلسنا إلى أن يدخل علينا المساء وعند غروب الشمس سرنا في اتجاه الخيام : ولكن إياد تركني مع حامد وناقته المحمّلة ، وذهب لينضم إلى مرجان Merjan كيما يضيفا نفسيهما في

البيت التالى . جاء رب البيت الذى نزلت أنا فيه ، عائدا من المرعى ومعه قطيعه من الماشية والإبل ؛ كان ذلك الرجل بلالحية . أحضروا لنا شيئا من لبن الخض ، وسمعنا صوت امرأة زنجية تنادى من القسم الخاص بالنساء وتقول : حامد ! حامد! كانت تلك الزنجية من القرية ، وكانت تقيم مع أولئك الأصدقاء من البدو الرُّحل فى الصحراء ، كيما تنعش نفسها باللبن الرائب أو المختر وأرخى الليل سدوله علينا ، ولكن الشاب خرج ومعه جحشه لإحضار شئ من الماء . عاد الرجل بعد ساعتين ، دون علم منى ، قاموا بذبح عنزه : وكان قد ذهب لجلب الماء من أجل هذا الغرض . ناداني الحطيمى الشاب – بأسلوب التملق الذى يصدر عن الأجناس المتدينة– ياطويل Towil العمر El-amr.

بعد الضيافة دخل إياد ، قال : يا خليل ، ألم تحتفظ لى ببضع لقمات بإعتبارى رفيقا لك ؟ "– " هل المفروض على الرفيق أن يتخلى عنى ؟ " وهنا راح يهادن ، ليسلك طريق غريبا فى ضوء الأخبار التى وقف عليها من الخيمة التالية ، "إننا يمكن لنا الحضور يوميا إلى منازل الأعراب ، وسنجد فى انتظارنا الحليب والمرطبات ؛ فى حين أننى، إذا ما قمت بزيارة قرية الحيات ، فإن الطريق المتجهة من هذه القرية ، ناحية الشمال تكاد تكون خلوا من البدو " – وهنا ينبغى علىَّ تفويت قرية الحيات ، هى والمؤن التى يمكن لى الحصول عليها منها : يضاف إلى ذلك أنى كنت أتفق معهم فى ساعات الخطر ! وقد ثبت أن عدم خضوعى لأولئك الرفاق الخونة ، كان أمرا محموداً .

رحلنا مع طلوع الشمس ، وكان عن يميننا ، فى الحّرة ، البيضاء el-baitha [وهو جبل أخر غير الجبل الذى يحمل هذا الاسم نفسه ويقع بالقرب من المدينة المنورة فى الحجاز] . قال رفاقى : إن هذا الجبل توجد فيه أعلى الشعبان Shaeban فى وادى الرماح er-Rummah ، غير أن السيول التى تسقط على ذلك الجانب تنحدر إلى وادى الحمض الكبير فى الحجاز . مررنا على كثير من الصخور البركانية الزجاجية الحادة . حلق أمامنا زوج من طيور الحبارى ؛ ولم يسبق لى رؤية هذا النواع من الحبارى ، من قبل الصحراء [وفى هذا الفصل من العام بالذات] : كان على ريش هذين الطائرين

يميل إلى الابيضاض الأشهب الداكن . بيوض هذا النوع من الحبارى لها (لون يجمع بين اللون البنى واللون الوردى وكذلك اللون الأسود) . وقد عثرت على هاتين البيضتين فى شهر مايو بعد أن وضعتها الحبارى الأنثى فوق صخرة جرداء فى الصحراء [بالقرب من بلدة معان] ؛ كانت البيضتان كبيرتين مثل بيوض طائر الرومى ؛ كما كان طعمهما لذيذ أيضا : هذان الطائران ربما كانا نوعا من أنواع الطيور الحبارى الكثيرة. "لحم هذا النوع من الطير يشبه القطن بين الأسنان." وهذا على حد قول إياد البشرى . راح كل من مرجان وإياد يحاولان جذب هذين الطائرين عن طريق الصفير ؛ وهنا سحب الاثنان بنادقهم من جرابيهما ، وراحا يتسللان أسفل الحبارى ؛ ولكن نظرا لأن البدو لا يهدرون الرصاص هباء ، فقد عادا من حيث ذهبا . وأنا لم أر مطلقا العرب وهم يستفيدوا من بنادقهم فى الصيد أثناء طيران الطير ؛ ومحمد النجومى كان هو الشخص الوحيد الذى كان يفتح نيران بندقيته على الحبارى أثناء طيرانها (وكان يصيب منها الكثير) .

اعتبارا من هذه المنطقة ، كانت الأرض من حولنا عبارة عن صحراء من الأحجار البركانية الحادة ، التى ليس فيها سوى القليل جداً من مدقات المواشى ؛ والبدو الرحل يمشون هنا بين كتل الصخر على غير رغبة منهم . وهنا شق حجر من الأحجار الحادة الإصبع الكبير فى قدم من قدمى حامد ... وهنا نزلت عن الناقة حتى يتمكن هو من الركوب ! ولكن هذا الزنجى استعار سكينا ، وبقرار وحشى ، مزق لحمه وواصل المسير، وأثناء وقفة المساء ضمّد الجرح الذى كان ينزف وقال : إن ذلك الجرح سيكون على ما يرام خلال المسيرات التالية . وأثناء مسيرنا هبت علينا رياح شهر مارس قادمة من اتجاه الشمال ، وكانت الأعشاب الجافة ، هى وسيقان الادغال الصحراوية الجافة تتصدر تلك العاصفة : كان مسارنا غير مأمون وخلوا من المأوى ومن الماء أيضاً ؛ وكان رتفاع ذلك السهل من الصخور البركانية يقدر بحوالى ٣٤٠٠ قدم . كان مرجان قد أصيب بمرض الطحال عقب الحمى التى اصابته فى خيبر ، ولذلك صاح فى فترة العصر ليقول لنا : إنه شاهد قطيعا من الماشية ، وراح يكيل لنا اللعنات لأننا لم نتبعه : هذا القطيع الذى شاهده مرجان لم يكن سوى مجموعة من الغزال . "قالوا فى النهاية : فين Fen الأعراب el-Aarab ؟ – نفيرا neffera بمعنى هذا كلام مغشوش وخادع ، ولكن

هذا هو أسلوب الحيميين ! فقد ضللونا فى الليلة الماضية ، الله يربكهم مثلما أربكونا .
"كان ذلك الزنجى قد أتى على الماء كله الذى كان فى قربتى : ففى المساء فك ذلك الزنجى رباط عنق القربة وكان على وشك أن يأتى على كل ما فيها من ماء ، ولكنى قلت له ، "لا ، لا تفعل ذلك ، لأننا قطعنا مسافة طويلة وأحسسنا بالعطش طوال اليوم ، وينبغى ألا يتميز أحد منا على الآخر فيما يتعلق بالماء . "وصاح البدو فيه" ألا يدور بخلدك أننا هنا فى" الصاحين Saheyn ؟ "نحن هنا فى الصحراء ، والصحراء ليست مكانا من الأماكن التى يتسكع فيها الخيابرة" وفى النهادية وعندما غربت الشمس ، عثرنا على قاع من القيعان ، وفيه بعض أشجار السدر "التى تحمينا من ريح الليل ، التى كانت تهب علينا وتخترق ثيابنا الرقيقة : هذه الريح حطمت بعض أغصان أشجار السنط الميتة ، مما سهل علينا الحصول على الوقود المطلوب لشب نار المساء ثم قمنا بعجن شئ من الدقيق بشئ من الماء المتبقى معنا ، لنصنع منه خبزا فى الجمار المتبقية من لنار . كانت ليلة شهر مارس تلك قارسة البرودة .

رحلنا عن المكان مع طلوع النهار ، ورحنا نسير بمحاذاة جبل الحجر الرمل : وياللفرح ! فعندما أشرقت الشمس ، لم نعد نرى العلامات الأرضية الدالة على خيبر ، فقد اختفت عن أنظارنا تماما . مررن على بعض الأقبية وبعض الجدران القديمة فوق تلك الحَرة الجرداء ، كما مررنا أيضًا على جبانه قديمة . "قال إياد : هلى ترى هذه القبور ، إنها مقابر الأولين auellin ، وهل رأيت أكوام الحجارة التى فوق تلك القبور ! "واصلنا مسيرنا فى المنطقة المكونة من صخور بركانية –" هذه الأرض صخرها من الحديد " وكنا صائمين ، إلى ما بعد العصر ، عندما عثرنا على آثار أقدام الإبل فى بعض أحواض الرمل الأسود . فى البداية قال رفاقى : إن آثار تلك الأقدام تدل على رحلة قام بها أصحابها منذ فترة تتراوح بين خمسة إلى عشرة أيام ؛ أوصلتنا مخلفات الماشية عبر الحرة إلى ناحية الغرب ، حيث توجد الأطراف البعيدة لجبل حجور Hej-jur.– آثار الأقدام سرعان ما تُصنع فى الصحراء بفعل الريح التى تجرف حبات الرمل من مكانها ؛ هذه الآثار قد تبقى فى مكانها لحين دخول فصل المطر . – فى أثر من الآثار التى جرى فتحها مؤخرا فى مصر " أمكن العثور على آثار أقدام العمال على تراب الأرض الناعم ؛ وكانت لرجال أعمارهم بلغت المئة عام ! ذهب البدو إلى تجويف

فى الأرض ، بحثا عن المطر فى حفرة من الحفر الصغيرة ، التى استطاعوا أن يملأوا منها قربة الماء ، كان الماء مختلطا بقدر كبير من الطحلب الأبيض ؛ وشربنا منه – ونحن نشكر الله – عن طريق تنقيته باستعمال الغتر التى نضعها على رؤسنا [ونحن عندما ننظر إلى الشعر الكثيف الذى يحيط بشقتى الجمل نعرف أن ذلك الحيوان يستطيع من خلال الفرشاة تصفية المياه غير النقية التى قد يشربها من الصحراء !] تسلق الرفاق البدو ، كل الصخور الممكنة ، بحثًا عن البدو الرحل : واصلنا المسير إلى غروب الشمس ، ثم نزلنا بعد ذلك فى أرض منخفضة فيها أشجار السنط وأدغال من تلك الأشجار ، وفى تلك الأرض المنخفضة عثرنا على دار من ديار البدو الرحل التى هجرها أصحابها منذ وقت قريب . كنا فى هذه المنطقة قريبين من حدود الحَرة .

وصلنا مسيرنا مع طلوع شمس الغد ، وأوصلتنا مخلفات الماشية إلى جحور Hejjur ذلاًن Thullan. وشيئا فشيئا بدأنا نصل إلى جانب الحَرة ، وحدود الصخور البركانية فى هذه المنطقة تشبه حافة صخرة من الجليد ؛ كان ارتفا ع الصخرة فى هذا المكان يصل إلى حوالى عشرين قدما ، وإلى جانبنا كان العمق يصل إلى حوالى ثمانية أو عشرة أقدام . مضينا خلف الحرة فوق منحدرات جرداء من الحصى نخرتها الأمطار ولكنها تتجه صاعدة نحو جبال الصحراء الجرداء التى يطلقون عليها اسم جبال Jebal الحجورHejjur . شاهدنا غزالا كان هاجعًا وهو يفزع هاربا من دغل كان أمامنا ؛ ووقف لحظة يطيل النظر إلينا ، كان يمكن أن يسقط خلالها بطلقة واحدة من شخص أوروبى، – ولكن البدو لا يكونون مستعدين دوما . وأثناء سيرنا ، شاهدت حفرة عمقها حوالى ياردة ، محفورة فى أرض الصحراء : رد على الرفاق قائلين : إنها حفرة مجدور mejbvr،– وأنهم سوف يشبون النار فيها ، وبعد أن يجمد الجمر يجلس المريض على الرمل الساخن : الأمر لا يعدو أن يكون هنا مجرد حمام من حمامات العرق . والعرب يخشون ويخافون الأمراض التى تتسبب فى قتل الغير ؛ يضاف إلى ذلك أن المصيبة الكبيرة التى وقعت لشيخ من شيوخ العنزى فى القصيم كانت ما تزال ماثلة فى

الأذهان. – فقد ابتعد عنه أهل قبيلته على وجه السرعة ؛ كما تخلى عنه أقاربه بل وأفراد أسرته .

بعد أن تركنا هضبة الحجر الرملى التى يطلقون عليها اسم الخطام el-khtam على الجانب الأيمن ، وصلنا إلى جبال جرداء ، التى كانت رُكبهُا وصخورها المنخفضة عبارة عن فخاخ ومصائد من حولنا ، كانت ألوان تلك الصخور بنية ، وصفراء ، ورمادية ،وإردوازية أيضاً ، حمراء وأرجوانية. وكانت النسور السوداء الصغيرة " العقاب el-egab، تطير من فوقنا ، وتنزلق انزلاق الظل ، الذى تتركه أجنحتها المفرودة على السواحل الصخرية . كما كانت الغربان وطيور الرخام تحوم فى الهواء ؟ ، فوق الديار التى هجرها البدو الرحل : إن نيرانهم لم تنطفئ بعد ، وهذا يعنى أنهم رحلوا فى هذا الصباح . وهنا تسلل الرفاق البدو ومعهم بنادقهم الفتيلية ، على أمل اصطياد غراب من الغربان ، ومنه يحصلون على عظمتين يستعلونها فى صناعة غلايين التدخين . سألتهم إن كاننت طلقة من طلقاتهم على امتداد حياتهم كلها قد أسفرت عن سقوط شعرة أو ريشة من تلك الطيور ؟ واحتجوا على سؤالى قائلين : "نعم ، والله ياخليل ؛ لقد اصطدنا القطا gatte فى كثير من الأحيان . "وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأنا نشاهد الأعراب هم إبلهم. ولحقنا بهم بعد الظهر بفترة قصيرة ، كانوا قد توقفوا للمرة الأولى . وعندما شاهد الشيخ بعض الأعراب يتقدمون ، بقى فى المؤخرة بعض الوقت ؛ وكان ذلك الشيخ معروفا لدى رفاقى . هؤلاء البدو الرحل كانوا من فراديس Feradessa ، بن سمرى ibn Simry ، وهم أصلا من الحطيم . جلسنا سويا ، وقام أحد الأولاد بحلب ناقتين من نياق الشيخ ، كى نشرب الحليب نحن الغرباء .

عندما عرف الشيخ أننى نصرانى راح يجعجع ويصخب ، بالرغم من كونى ضيفا على سلطانية الحليب التى قدمها لنا . "يصيح ، ما هذا رجل وثنى ؛ ماذا ! نصرانى ، لماذا جئت إلى هنا ؟ ألا تخاف من سكين الأعراب ؟ أم أنك ، تحسب أيها الرجل اليهودى ، أن تلك السكين لا يمكن أن تطال زورك ؟ – وسوف يظهر ذلك فى يوم من

الأيام . وأنتم يا رفاقه ، ألن تقطعوا عنقه ؟ أين أنتم ذاهبين – إلى حائل ؟ ولكن ابن الرشيد سوف يقتل هذا (الرجل) إذا ما عاد إلى حائل مرة ثانية :"الحطيم ليسوا أصحاب أذهان متحضرة ومتمدنة مثل البدو الحقيقيين ؛ والحطيم يقسون على ضيوفهم في معظم الأحيان ، في حين يحنوا البدو على ضيوفهم ويشفقون عليهم . وعندما اكتشفت أن ذلك الشيخ كان فظا رحت أحتقر جهله وازدريه إلى أن بدأ يخجل من نفسه ؛ وبذلك يستطيع الإنسان هزيمة السذاجة الحاقدة في قلوب العرب .

سقنا دوابنا إلى مخيم هؤلاء البدو ، وجلسنا أمام بيت من البيوت . وبعد ذلك قدم لنا رب البيت سلطانية من اللبن ومعها سلطانية أخرى من المريسي ؛ أطلقنا الناقة ترعى ، وجلسنا إلى جوار أمتعتنا في مهب الرياح والشمس الحارقة إلى أن دخل علينا المساء ؛ وعندما عزم علينا المضيف بالدخول إلى بيته ، وجدنا عشاءً جاهزا لاستقبالنا ، كان ذلك العشاء مكونا من الأرز المسلوق . كان ذلك المضيف واحدًا من جماعة الحطيم التي غزاها الجهاينة في الفترة الأخيرة بالقرب من المدينة المنورة . وفي صباح الغد رحل ذلك المضيف مع أهله ، أصبحنا نحن ضيوفا على بيت آخر ؛ لأننا سوف نرتاح في ذلك اليوم ، في منزلهم ، وقد أحصيت ثلاثين خيمة في ذلك المنزل. وعندما أعطيت مريضا من مرضاهم شيئا من الراوند انشرحت صدور أصدقائه وقالوا : الرائحة توحي بأن ذلك الدواء لابد أن يكون دواء طيبا بحق . "جاء إلينا أشخاص كثيرون لاستطلاع الأخبار : ولكن قلة قليلة من رجال الحطيم هي التي تبقى في البيوت أثناء النهار : والسبب في ذلك أن هؤلاء البدو الرحل أكثر اهتماما برعي الماشية من البدو أنفسهم .

سمعت البعض وهم يشتكون من ابن الرشيد ، – "إنه هو الذي أضعف الأعراب؛" رد عليهم إياد" نعم ، والله ، هو الذي يضعف القبائل." سألته ، "كيف يحدث ذلك ؟ هل في عدم وجوده كان هناك أمن وسلام في الصحراء ؟ – لولا ابن الرشيد لغزت القبائل بعضها بصورة مستمرة."إياد : "ابن الرشيد هو الذي يضعف الأعراب ، والسبب في ذلك ، أن ابن الرشيد يجرد القبيلة من كل شئ قبل أن تخضع له : وبعد ذلك ، يجعل القبائل تعيش في أمن وسلام ."زد على ذلك أن ابن الرشيد يفرض ضرائب على بدو الحطيم في الجنوب ؛ ونظرا لأن الدولة (الإمبراطورية العثمانية) موجودة أيضًا في

خيبر ، فإن حكومة المدينة المنورة تفرض عليهم ضرائب أيضًا . وقد ذهب عبد الله السروان ، هو والعم محمد النجومي مرارا لجباية ضريبة العشور ، قبل مجيئي إلى خيبر بفترة قصيرة . والغالبية العظمى من الحطيم تدفع إتاوة الخوة لكل أولئك الأقوياء الذين يحيطون بهم ؛ ونظرا لأن الحطيم يتخلصون من العداء بهذه الطريقة ، فهم أحسن حالاً من البدو الذين يعيشون في هذه الديار نفسها . ونياق الحطيم هي أفضل أنواع النياق ، وليس لدى البدو سلالات أجود من هذه السلالة ؛ (وسوف نعرف بعد ذلك أن الشرارات أقارب الحطيم لديهم أفضل سلالات النياق) . يضاف إلى ذلك ؛ أن الحطيم أقوى وأصلب عوداً من البدو الآخرين الذين عضهم الجوع بنابه ، كما أن نساء الحطيم أجمل من نساء البدو .

سألوا عندما كانوا في الخيمة أسئلة خارجة ، "ماذا يكونون هؤلاء النصارى؟ وما هو دينهم؟" قال واحد منهم:"سوف أقول لك الخلاصة كما سمعتها في [المدينة المنورة أو بلاد الشمال المتحضرة]: النصارى يسكنون مدينة مغلقة بالحديد ويحيط بها البحر من جميع الجوانب !"إياد : "لا تتكلم بهذه الطريقة ، مخافة الإساءة إلى خليل ؛ وهو ذلك الشخص الذي يستطيع بكلمة واحدة أن يجعل تلك الخيمة تسقط فوق رؤسنا . " "رد عليه ، إخ! هل بوسعه فعل ذلك بحق وحقيقة ؟" اكتشفت في منزل هؤلاء الحطيم اثنين يعانيان من مرض جلدي . وعندما سألت من أين أصيبا بذلك المرض ؟ أجابوني ، "من المدينة المنورة."

رحل البدو الرحّل مع طلوع النهار . وسرنا معهم في اتجاه الغرب ، في تلك الجبال ؛ وصعدنا خلال ممر وعر ، لم يكن فيه أي أثر لأقدام الإبل . وها هو حامد ، الذي كان قد تخلى عنا ، نراه قادما مع شخص أمكنه العثور عليه ليكون مرشدا له : "قلت ، وداعا ، يا "اخو akhu حمدة Hamada ". "نظر ذلك الوغد الخيبري إلى أعلى مسرورا مرتبكا في آن واحد ، لأني ناديته (كما لو كان رجلا شجاعا) باسم شقيقته ، وتمنى لي سلامة الوصول . واستوقنا في منتصف الطريق بعض الأصدقاء ، الذين أرادوا أن يقدموا لنا الحليب قبل أن نرحل عنهم . هذه المتاهة المريعة من الجبال الجرداء التي تعاني من العطش كانت تبدو لي بلا نهاية أو حدود ! والناس هنا يطلقون على هذه الجبال اسم جبال Jebal الحجور Hejjur الذي يمكن ترجمته باسم جبال

الأحـجـار : – هذه الجـبـال ملك لـ " ولاد " Welad على وللـبـشـر Bishr أيضـاً ، – ولكنهم سمـحـوا للحطيم بالإقـامـة فـيـهـا . الناس ، فى مـعظم السنين ، يعـثـرون هنا على الربيع وأدغال الرعى الجيدة ، فى منخفضات هذا الوادى . هذه السواحل يفيض عليـهـا السيل من وادى الجـحـور إلى وادى الحـمض . ونحن هنا بدأنا نتجـه غربا أكثر من ذى قبل . أما البدو فقد تحركوا فى اتجاه الجنوب ؛ وبعد أن تركنا هؤلاء البدو ، نزلنا فى ظرف سـاعـة من الزمن ، إلى قـاع واد من الوديان الرمليـة ، عـثـرنا فـيـه على منزل آخـر من منازل الحطيم ، ويضـم ثلاثـين خيمـة ، ويقـال له : منزل سـويدير Sueyder بن ibn سَمرى Simry . المنطقة هنا عـبـارة (عن نوع من الفخـاخ والمصـائد) ، والناس هنا يطلقون عليـهـا اسم يتـروهـا Yeteroha : وإياد لم يسـبق له زيارة هذه المنطقـة من ديرتهـم ؛ وهو لم يأت إلى هذه المنطقة سوى مرة واحدة فى حياته كلها . والناس هنا يقولون : إن هذه الجبال يغمرها السيل الذى يأتى من وادى خفوثة Khafutha ، الذى هو واحد من وديان خيبر .

عثر مـرجان هنا على بعض من أقـاربه ، عبـارة عن أسـرة أو أسـرتين من البـشـر يقال لهما البيجاريجة Bejaija أو البيجايدة Bejauda . – هناك كثير من العلائلات الفقيرة من البدو تعيش (حياة رغد) ضمن مجتمع الحطيم الذى ينعم بالأمن والسـلامـة . قـام رجل ، هو ابن عم مـرجان ، بوضـع يده على الناقـة ، وراح يسـحـبـهـا فى اتجـاه بيتـه الكريم المضيـاف . – كان ضيـوف الأمس قد أرسلوا خبر وجودى فى الديرة إلى شيخ مريض من شيوخهم ، يدعى ابن ibn حيزان Heyzan ، الذى أصيب بطعنة رمح فى غزوة من الغزوات . وكـان العم مـحـمـد قـد بـاع مؤخرا شـيـئـا من المرهم الذى أعطيـتـه إياه ، لبعض أصدقـاء ذلك الشيخ المريض فى خيبر ، واكـتشفـوا أن ذلك المرهـم كان ممتـازا ؛ وهنا أعرب بعض مـعـارفـه عن رغبـتـهم فى أن أذهب للكشف على ذلك المريض . وافقت على البقاء فى ذلك المكان يوما واحداً فقط ، إلى أن يعود مراسلهم .

عندما أخرجت كتاب الطب ومحبرة عربية طويلة من النحاس الأصفر ، تجمع من حولى الرجال والنسـاء ؛ كانت قدرتى على القراءة والكتابة عندهم من قبيل المعجزات والخوارق . تهامسوا "إنه يرى ذلك الذى لا نـراه نحن؛ – فى أضعف الأحوال أنت ترى أكثر مما نراه نحن المسـاكين !– إنه مكتـوب هناك!" كـان المضيف له بنتين جـذابتين ؛ راحتـا تتـعـجبـان اندهـاشا من بشرة ذلك الغريب البيضـاء . كانت الفتـاتان تتـصـرفـان

بطريقة سهلة ، ويتواضع الإناث ، ولكن نظرات عيونهما أذابت قلب مرجان ، ذلك الصبى الذى ليست له لحية ، وابن عمهما الذى هو متزوج بالفعل فى خيبر . هذا الحريم البدوى يلبس الخمار فى نجد ، والذى يتدلى من الفم نحو الأسفل ؛ وكل واحدة من هاتين الفتاتين تضع حلقة من الفضة فى فتحة أنفها اليمنى وتغطى رأسها بغطاء يتدلى على جانبى وجهها . خرج الرجل الطيب ومعه زوجته وهما يسحبان وراءهما أفرع كبيرة قطعاها من أشجار الطلح : - ونحن عندما نرى أثر الأغصان على الأرض فى الصحراء ، نعرف أن تلك إشارة إلى وجود منازل من منازل البدو الرحل فى هذه المنطقة . وصنعا من تلك الأغصان حظيرة للغنم أمام بيت ، وجرى بعد ذلك إدخال الماشية الصغيرة إلى تلك الحظيرة لتقضى فيها الليل . وهم يطلقون على تلك التحويطة اسم حظيرة hathira ، "وهم يقولون ، إن الشمر يطلقون على تلك التحويطة اسم سريفات Serifat . وهنا وضع المضيف أمامنا طبقا كبيرا من الأرز .

كان إياد خائنا ، وكان يتخيل دائما ، بعد أن حصل على أجره ، الطريقة التى تمكنه من التخلى عنى : فهو لا يريد أصلا الذهاب إلى حائل . "ياخليل ، هل أتركك هنا؟ والله إن الناقة مجهدة تماما من هذه الرحلة الطويلة."-"أعد إلى ثلاثة ريالات وسوف أتركك تذهب لحال سبيلك."- "آه ! كيف لى برد هذا المبلغ ، يا خليل ؟ أنت تعرف أنى تركت النقود لزوجتى ."-"إذن ، اقترضها من هنا."-"يا إلهى! من من هؤلاء الأعراب لديه نقود ، ومن هو ذلك الذى يمكن أن يقرضنى ريالا واحداً؟"- "لقد قلت ذلك كله فى خيبر ، قلت : بأنك ستخوننى ؛ اياد ، سوف يتعين عليك نقلى إلى حائل حسبما اتفقنا."-"ولكن هذا الطريق الذى نحن فيه لن يوصلنا إلى حائل ، لقدا ابتعدنا عن المسار الصحيح ؛ هؤلاء الأعراب ييممون وجوهم شطر العواجى ، فهيا بنا نمشى معهم، وليس بيننا وبين العواجى سوى مسيرتين فقط ، وسوف أتركك هناك ." - "سوء القصد والنية عند العرب عبارة عن هوّة تلوكها ألسنة المتهورين من العرب ! لا أمل بين هؤلاء العرب فى أى شئ فى الإنسان ؛ وسماء هؤلاء الأعراب بعيدة جداً ، وهى خالية من الإحساس بالآلام الإنسانية . ها أنا أستمع من ذلك الشقى ، تلك الحجج التى اعترض هو عليها عندما كنا فى خيبر ! ففى صباح الغد سوف يرحل إياد مع شروق الشمس : قلت : سوف نبقى هنا اليوم ، حسبما طلبت أنت بالأمس ، وبناء على

موافقتي على ذلك . لكنه حمَّل الأمتعة ! وهنا اقترب منى ذلك الرفيق الوغد وهو يمسك عصاه في يده ، وطبقا لما تعلمه من الجيش التركى - راح يهددنى كما لو كان سيضربنى بالعصا ، إذا لم أطعه وأتحرك معه : ولكن سرعان ما استسلم وتراجع عن موقفه .

عثرت ، في ذلك المنزل ، على أسرة صلوبية من وادى الصُّفيرة es-suffera الذى يشتهر بشدة الحرارة ، والذى يقع على بعد مسافة قصيرة من شمالى مكة . هذه الأسرة الصلوبية موجودة فى ذلك المكان الذى يبعدها ما يزيد على ثلاثمائة ميل عن موطنهم الأصلى ؛ ولكن هذه المسافة ليست كبيرة من منظور الصلوبة الذين يجوبون الأرض من أقصاها إلى أقصاها . قال لى الرجل : إنهم مع دخول الصيف ، سوف يخيمون بالقرب من مصدر من مصادر المياه فى الصحراء : ونظرا لعدم وجود ماشية لدى الصلوبة ، فإنهم سوف يعيشون معتمدين على لحم الغزال."طلبت منى دواء لعينك ، فهل يمكنك الصيد وعيناك مصابتان ؟"-"الذين يصيدون هم الشبان (العيال el-eyyal) ؛ أما أنا فأبقى فى البيت." اقتربت من خيمة كانت فيها زوجة حطيمية تغلى شيئا من اللبن ، فى إناء كبير ، كى تحوله إلى مريسى . جلست أرى ما تصنعه تلك الزوجة : كان الإناء يغلى . وسألتنى هذه الزوجة إن كنت أتسطيع متابعة التُّفل إلى أعلى بعينى ؟ "فقد سمعتهم يقولون : إن النصارى لا يستطيعون النظر إلى السماء." وراحت تؤنبنى وتقرعنى على "كفرى ودعائي لله ؛ "ولم أرد عليها بكلمة واحدة . ثم تناولت ملء مغرفة من المريسى ، وصبت عليها شيئا من السمن ، ووضعت المريسى فى سلطانية ، وطلبت من الغريب أن يأكل من السلطانية ، ثم أردفت عن طيب خاطر ، "آه!لماذا تعيش حياتك بلا دين ؟ ولماذا تجر على نفسك عداء الله وعداء الناس لك ؛ كل ما عليك هو أن تصلى وسيكون الناس جميعا أهلا وأقاربا لك ." - كان ذلك كلام هؤلاء البدو الرحل الذين يعيشون فى هذه الصحارى .

فى صباح اليوم التالى ، ونظرا لعدم عودة المراسل ، حمَّلنا أمتعتنا فى ساعة مبكرة . كانت الشمس مشرقة ونحن نمضى قدما ؛ وعند الطرف الآخر من المخيم عزم علينا رجل آخر من قبيلة بشر ، وطلب منا النزول عن دوابنا لاستضافتنا ، نظرا لأنه كان مستعدا لذلك - وهذا نوع من الكرم الصباحى الفريد ؛ ولكن طبق أرز ذلك الرجل كان من المفروض أن يكون عشاءً لنا فى الليلة السابقة . وبينما كنا نأكل ، جاءت إلينا

امرأة وهى تصيح وتطالبنى بشفاء ابنتها والبقاء هنا ، "- وأن نحل ضيوفا عليها ؛ وقالت : إنها سوف تعطى الحكيم جملاً إذا ما تحسن حال ابنتها." وهنا وجدت أن إياد كان منحازا إلى فكرة بقائنا فى هذا المكان ، مثلما كان مصرا على التحرك بالأمس ؛ ولكنى ركبت الناقة ومضيت قدما : بدأنا الرحلة دون أن يكون معنا أى شئ من الماء . والضيف لا يتعين عليه أن يطيل مدة الضيافة ، ولم نستطع أن نطلب منهم ملء قربة الماء الصغيرة ؛ ومع ذلك فإن المضيفين عندما يرسلون أحدا منهم إلى الوريد لجلب الماء فإنهم يرسلون أيضاً قربة ماء الضيف كى يجرى ملئها بالماء مع قرابهم .

مشينا قرابة ساعة أو ساعتين ، عبر جبال وعرة ، إلى أن وصلنا جبهة أطللنا منها على سهل واسع قاحل ، كان يمتد أمامنا فى اتجاه الشمال . لم يحضر إلى هذا المكان سوى مرجان الذى جاء إليه مرة واحدة فى طفولته ؛ كان مرجان يعرف أن خلف ذلك السهل توجد بعض حفر الماء ، – وأننا يتعين علينا العثور على تلك الحفر ، نظراً لأننا لم يكن معنا ماء نشربه . نزلنا إلى ذلك السهل وشاهدنا آثار أقدام ماشية صغيرة ؛ وكنا نتطلع إلى أن تهدينا تلك الآثار إلى مسقى من المساقى . كانت التربة فى هذه المنطقة تحتوى على كثير من البللورات اللامعة . وعندما نظر مرجان إلى العلامات الأرضية ، خطر بباله أننا تجاوزنا مصدر الماء ؛ وهنا قال رفيقاى :إنهما سيعدوان على ظهر الناقة ليبحثا عن ذلك المصدر ، وطلبا منى الجلوس فى ذلك المكان انتظارا لعودتهما : ولكنى أحسست ، أن قلبيهما الشريرين ربما أوحيا لهما و بعد أن قطعا مسافة ميل ، أن يتخليا عنى ويتركانى أموت عطشا فى هذا المكان.– وبعد أن برّكا الناقة أنزلا أمتعتى من فوقها . "قالا: إن الطريق مرهق ، إذا ما قطعناه سيرا على أقدامنا ، وقد يستغرق العثور على مصدر الماء وقتا طويلا ؛ بالإضافة إلى أن الرؤية تكون أفضل من فوق ظهر الناقة." "سوف أبحث معكما عن الماء"– لا ، ولكننا سنعود إليك على وجه السرعة."– حسن ، اذهبا ولكن اترك معى بندقيتك الفتيلية ، يا إياد ؛ وإلا فلن نفترق بغير هذه الطريقة." وهنا ألقى إياد بندقيته الفتيلية ، على غير رغبة منه وركبا الناقة وابتعدا عنى .

غابا عنى ساعة ونصف الساعة : ثم ، دهشت بعد ذلك ، عندما وجدتهما يعودان إلّى ، وقد أحضرا معهما الماء.– راح إياد يشتكى من أنى لا أثق به! "ووالله ، لم يسبق

لأحد أن أخذ منه بندقيته ؛ ولكن هذا هو خليل!"-"ولأنكما رفاق أمناء ، فستجدانى مؤدبا؛ - ولكن خبرانى ، هل فتحتما النار على أفراد قبيلتكم؟" نعم"بالله ؛ وأنا العراجى فتحت نار سلاحى على عواجى أخر ، وإذا كنت قد فعلت ذلك مع أبناء جلدتى وأهلى فما هو ذلك الذى لا يمكن أن أفعله أنا معك؟"-"كيف لى أن أثق بك عندئذ؟" مرجان:"أنت ، يا خليل ، تقول كلاما طيبا ، وهذا الإياد شخص لا يحسن التفكير."فيما بين الأعراب ، قد يعض الأصدقاء أصدقاءهم ، فيما بين الجد واللهو ، وهذا أمر مقبول بينهم . إياد:"هيا بنا نجلس ونشرب drink الدخان ؛ نظرا لأننا لن نواصل مسيرنا أثناء النهار ، تحسبا للأخطار ، وسوف نركز على السير أثناء الليل . اذهب يا مرجان وأحضر لنا شيئا من الحطب ، حتى نتمكن من إعداد خبزنا هنا قبل أن يدخل علينا المساء ، حيث يصبح شب النار أمرا غير مقبول . "نهض مرجان وهو منشرح الصدر ؛ "نهض مرجان وهو منشرح الصدر ؛ نظرا لأن ذلك هو العمل الذى يكلف به صغار السن ، من بين عابرى السبيل فى الصحراء .

وضع مرجان فى يدى ورقة ، أخرجها من حزام الذخيرة ، كى أقرأ عليه ما فيها . كانت تلك الورقة كمبيالة ، أوصكا بخدمته فى الحكومة : يستحق مرجان البجاجى ، فرد العجيل ، مبلغا من الريالات ، عن خدمة عام وبضعة أشهر ، ومخصوم من هذا المبلغ سبعين ريالا قيمة أو ثمن الناقة التى نفقت . ، "وماذا عن ناقتك يا مرجان ...؟"-" لقد نفقت ، وهم [وبخاصة عقيده الغشاش المخادع الذى يبلع مستحقات الرجال الفقراء على هذا النحو ، عندما يلتحقون بالخدمة فى الجيش ولا يكون لديهم إبل] قد دونوا أمام اسمى مبلغ سبعين ريالا مقابل الناقة النافقة ! والله ، إن تلك الناقة كانت تساوى أقل من عشرة ريالات . - وبذلك لن يتبقى لى سوى خمسة عشرة ريالا فقط ، والله هو الذى يعلم ، متى أحصل على هذا المبلغ." - "أنها خدمة مؤسفة." "نعم ، وظالمة . أيضاً ولكنى أفكر فى إنهاء خدمتى هذا العام." "بوسعك أيضاً أن تخدم مع ابن الرشيد ، الذى يدفع لكل رجل من رجاجيله rajajil ما قيمته كراون واحد ، منقوص منه أربعة ريالات مجيدية ، فى الشهر الواحد ، وهو لا يؤخر دفع هذا المبلغ بأى حال من الأحوال وهو يضيف إلى ذلك المبلغ ، منزلا للسكن وبعضا من التعيينات التى تستعمل فى المآكل ."-"نعم ، أنا أفكر فى عمل ذلك ، بعد أن أصبح فى حل من الدولة."

أمضينا ساعة على هذا الحال ، ثم استأنفنا مسيرنا ؛ كانت الأرض عبارة عن سهل رملى ، تحفه من ناحية الشرق جبال تقع على بعد مسافة كبيرة . وفى المنتصف بين التلال ، هناك مسقى صيفى تابع ليمًين Yemmen العواجى . فى هذه المنطقة توجد آبار يصل عمق البئر فيها إلى ما يقرب من عشر قامات ، وهم هنا يقولون : إن تبطين تلك الأبيار من عمل الجان Jan.- وهنا وجدنا أنفسنا ننتقل مرة ثانية من الأحجار البركانية إلى أحجار رملية (شديدة الحمرة) . وهنا ظهرت أمامنا فجأة تلة سوداء على بعد مسافة كبيرة أمامنا فى الحًرة ، وهم يطلقون على تلك التلة اسم جبل إثنان Ethnan وهذه الصحراء الرملية تابعة للعواجى ؛ تربة بيضاء ، تنمو فيها أفضل المراعى وشاهدت من حولنا منطقة كثيفة من الأدغال الخضراء ! ومع ذلك فإن ثلث تلك الأدغال لا يصلح أن يكون طعاما لأى مخلوق : وجدنا فى ذلك آثار أقدام النعام . "قالوا : هيا بنا نعجل المسير ، [فى هذه الأرض الخلاء]، " وطلب منى إياد أن أطّلع على كتبى ، كى أتبين منها الأخطار التى تنطوى عليها مغامرتنا ؛ فو الله wellah يضيق Yudayyik صدرى Sudry منذ أن جعلتنى أضع بندقيتى الفتيلية إلى جوارك ؛

توقفنا بعد طلوع النجوم بساعة ، فى مكان منخفض ، تحت دغل منعزل كبير ؛ وبركنا الناقة أمامنا ، كى تحمى أجسادنا من برودة الليل وريحه ، التى وصلت إلى حد الإعصار ، تلك البرودة التى تنفذ من خلال ملابسهم الحجازية الخفيفة إلى أجسادهم الضعيفة . هؤلاء الرفاق من البدو تناسوا مخاوف النهار طمعًا فى شب النار لطلب الدفئ : وراحوا يبحثون حولهم عن الحطب فى الظلام . وبينما كنت أحفر بيدى فى الرمل عثرت على شئ من روث الحيوانات (الجلة Jella) فى الرمل ، - كان هذا المكان مبركا قديما من مبارك الإبل ، أو مجرد مكان بات جمل فيه ليلة واحدة والذى لا شك فيه أن هذا المكان لابد أن يكون سبقنا إلى المبيت فيه ، أحد المسافرين ، الذى اتخذ من هذا الدغل الكبير لوكاندة له : كانت الريح قد تسببت فى دفن روث الحيوانات ، مدة عامين أو ثلاثة أعوام . ملأ مرجان عباءته بذلك الروث الجاف : سرعان ما اشتعل ذلك الوقود الثمين وراح يتوهج بحرارة حمراء فى وجارنا الرملى ، وصلحت شيئا من الشاى الذى لم يكونوا قد تذوقوه حتى الآن .

استمر برد تلك الريح طوال الليل ، فقد كانت لفحة البرد قارسة تماما . وبشق الأنفس استطاعوا منع تصلب أصابعم بسبب البرد ، أن يشبوا النار من جديد : واصل الرفاق جلوسهم ، - إذ لم تكن أجسامهم شبه العارية فيها من الدفء ما يساعدهم على السير في عكس اتجاه تلك الريح قارسة البرودة .- وهذه لفحة من الهواء تدوى من حولنا وتسببت في بعثرة الجمار هنا وهناك ، "إخص ! صاح إياد ، السكّير ، الله يلعن Ullah yulaan أبو obu ها الهبوب hal hubub بمعنى لعن الله هذه الريح الشديد وأردف قائلاً الله ullah يسلط yusullat على aly ها الحطب ha,l hattab ، بمعنى الله يجازي هذه النار . "نهضنا واقفين في نهاية الأمر ؛ وسبح الرفاق البدو بأجسادهم لمدة لحظة في تلك الحرارة ، وراح كل واحد منهم يعرض ملابسه لتلك الحراراة عله يصيب شيئا من الدفئ قبل أن تنطفئ النار . عواصف شهر مارس حملت ذرات الرمل إلى أعيننا ، وقذفت بها أيضًا داخل أفواهنا وبين أسناننا . وراح الرفاق يسيرون مترنحين، - ويممنا وجوهنا شطر الشمال الشرقي : وبعد مسير دام ساعتين توقفوا ليشبوا النار من جديد . كانت السماء ملبدة دوما بالغيوم والسحاب الخفيف . وانحسرت العاصفة قبيل الظهر ، وبدأ هبوب الريح يعتدل شيئا فشيئا ، من الاتجاه المعاكس ! وهنا نكون قد وصلنا إلى الحد الأسود للحّرة ، تحت تلة إثنان Ethnan العالية . تلة الإثنان هذه تقف منعزلة ، وسط صخور بركانية نارية ؛ والبدو الرحل يقولون : إن هذه الحلة hella الضخمة يصعب الوصول إليها . والناس هنا ، يرون في بعض الأحيان ، بعد مطر الشتاء ، بخارا خفيفا يتصاعد ويلتف حول الرأس البركاني : كما أنهم يشاهدون الشئ نفسه في صباحات الشتاء فوق بعض الصدوع المحددة في الحّرة ، - ورائحة ذلك البخار تشبه رائحة الماء الدافئ . وقد أكد العم محمد على ذلك الكلام أيضًا

في هذا الجزء من الأرض توجد (علامة أرضية) أرض على شكل وادى تمتد خلال الحّرة إلى قرية الحيات el-Hayat ، والناس هنا يطلقون على هذا الوادى اسم وادى مخيط Mukheyat . وفي مسيرة واحدة من مسيرات الصيف لا يكفي الماء الموجودة في قربتي سوى ثلاثة رجال إذا ما كانوا ظمأنين ، وتلك كانت المسيرة أو إن شئت فقل : الرّحْلة الثانية ؛ وقبل العصر شربنا القليل من الماء ، ولم يكن لدينا ما نأكله . ولكن ذهني كان يتطلع إلى رؤية المزيد من التلال المكونة من الصخور النارية الموجودة ضمن

الصخور البركانية السوداء التي أمامنا . ومعنى كلمة "حلة" hella أو "حلاَّية" hillaya ، فى رأى العم محمد هو الشئ الذى يظهر بشكل واضح ، - كما أخبرنى أيضًا أن هناك فى المدينة المنورة نوعا من التمر يحمل هذا الاسم أيضًا . أما إياد فقد قال : أن هذه الكلمة "حلة" Halla تعنى "تلة الحرِّة المكونة من مسحوق أسود وفضلات المعادن ، "وأن الحلّة hellayey تعنى "التل الصغير من تلال الحّرة ؛ وهناك أيضًا كلمة حُلى" hilli أو حلوات hellowat (والبعض يقولون "حليان" hillian) وهى تعنى تلال الحرِّة ، فى صيغة الجمع . " وسرنا فى اتجاه تلك الحليان التى سبق لى أن اجتزتها مع غروسيب . وعندما أوشكت الشمس على المغيب راح الرفاق يحيون (بإخلاص) الهلال الجديد .

كانت النجوم طالعة عندما توقفنا بين الحليان ، وكانت تلك الليلة توافق الليلة الثامنة اعتبارا من بدء مسيرنا من خيبر . خطر ببال رفيقى أن من الخطر شب النار فى ذلك المكان ، ولم يكن معنا أيضًا ما نأكله ؛ - قالوا : يتحتم وجود ماء على مقربة منا فى هذا المكان . هب إياد واقفا ليبحث عن ذلك الماء ، ولكنه لم يستطع العثور على موضع الماء أثناء الليل - "همهم قائلا : لقد غبت عن هذا المكان اثنى عشر عاما !"وقال: إنه يعرف العلامات الأرضية عندما يكون الجو نهارا! ثم خرج وعاد إلينا بقربتى وقد ملأها من ماء الحفر الضحلة التى تمتلئ بماء المطر على جانبى الطريق. (وعلى حد قولهم) طلعت عين شمس "بطول الرمح" على المرتفع ، وقد بدأنا نشعر بالانتعاش بعد أن شربنا الماء المختلط بالطين ، ثم بدأنا نستأنف مسيرنا على وجه السرعة" .

ساروا فى اتجاه الشرق عبر أرض بركانية الصخور ، إلى درغزود Thurghrud : التى هى هجرة (كفر) صغيرة تعيش فيها أسرة واحدة على آبار مستوطنة قديمة عند الحد البعيد للحّرة . إياد : "لقد عثروا فى الجيل الماضى على واحد أمثالك كان يتسلع هنا وهناك أو إن شئت فقل (يتجسس) yujassas على البلاد : "وقال إننى ينبغى أن أرى "ذر غرود" بدلا من قرية الحيات . مشينا فى مجرى سيل طويل وحوض من الرمل الأسود فى الصخور البركانية ، التى نبت فيه قليل من نبوت الربيع : وأطلقنا الناقة فى تلك الحدود الخضراء لترعى ، ورحنا نحن بدورنا نجمع العشب فى أيدينا أثناء مسيرنا ، وكنا نضع ذلك اعشب بين فكى الناقة . وفى الأماكن التى كانت تنمو فيها أشجار السنط ، كنت أجد قليلا من العشب تحت الجانب الأيسر من شجرة السنط ؛ أى فى

ذلك الموضع الذى يكون فيه ظل ضئيل ناتج عن أوراق شجرة السنط الصغيرة ، وأن ذلك الظل كان بمثابة حماية لذلك الجزء من الأرض من حرارة الشمس الحارقة ، كما أن رطوبة الخريف تكون آخر ما يجف فى ذلك المكان . كنت أسير فى المقدمة وشاهدت آثار لأقدام الإبل ! وناديت على الرفاق لأسألهم إن كانت تلك الآثار هى الآثار التى شاهدناها بالأمس : – قالوا : إن هذه الآثار ثلاثة أيام . ولم يستطيعوا أن يقطعوا إن كانت تلك آثار غزوة من الغزوات ، – هذا يعنى أن بدو العجيل هؤلاء ، لم يستطيعوا أن يتبينوا إن كانت تلك آثار أقدام نياق ، كانت تجرى مسرعة بركابها من فوقها ، أم أنها آثار أقدام إبل من إبل الرعى ! ولكنى عندما رأيت آثار أقدام البعارين الصغيرة تخيلت أن ذلك ربما كان قطيعا من الإبل ينتقل فيما بين المراعى . وقد حدث لنا ذلك من قبل عندما شاهدنا آثار أقدام ماشية ابن سمرة ، وهذا أمر عجيب أن يكون حكم الغريب أقرب إلى الصدق من حكم رفاقه من البدو . كنا نرى آثار الأقدام دوما أمامنا ، وعندما أوشك وقت الظهيرة على الدخول ، وعندما احتار الرفاق حول مسألة اقتفاء أثر تلك الحيوانات أم تجنب تلك الآثار ، وجدنا أمامنا قطيعا يرعى على بعد مسافة كبيرة أمامنا .

كان الرعاة يرقدون ووجوهم مدفونة فى المرعى الأخضر ، ولم يستشعروا وجودنا ، إلى أن عاجلهم صوتنا بخوف الصحراء . نهضوا فجأة ليرونا بأسلحتنا اللامعة ؛ ولكنهم عندما سمعوا كلمة السلام (سلام عليك) تشجعوا . وعندما حكى إياد تلك المغامرة فى فترة لاحقة ، "قال : لو كان هؤلاء الناس قوم gom ، كنا والله ، قد أخذنا كل هذه الماشية ولم نترك منها شيئا مطلقا . " وبعد أن جلسنا مع هؤلاء الرعاة سألنا كبيرهم ، "كيف تجرأ على إحضار إبله إلى هذا المكان ؟ "أجاب ، الله Ullah يطَول yetwil عمر umr ها الولد! ha weled بمعنى "أطال الله عمر ذلك الشاب [الأمير بن الرشيد] أطال الله عمره ، لأننا ، فى ظل حكمه نستطيع رعى ماشيتنا بلا خوف ، الأمر فى أيامنا هذه ليس مثلما كان عليه قبل عشر سنوات ، ولكنى أنا وشقيقى الصغير يمكننا رعى bil "(الإبل) فى طول هذه الأرض وعرضها . "ثم أرسل أخاه ليحلب لنا شيئا من الحليب ؛ ولما كنا مرهقين ، وجوعانين وعطشانين فقد شرب كل واحد منا

حوالى ثلاثة أو أربعة مكاييل ، أى ما يقرب من نصف جالون من الحليب لكل واحد منا ، شربها كلها دفعة واحدة : مرجان هو الشخص الوحيد الذى لم يشرب مقدارًا كبيرًا من الحليب نظرا لإصابته بمرض الطحال . كان الرعاة من الحطيم ، كانوا خارج منزلهم منذ بضعة أيام ، وبالتالى كانت نياقهم حلُوبا . لم يكن هؤلاء الرعاة يحملون أى شئ سوى مشاعيبهم وعباءاتهم ، وسلطانية واحدة فيما بينهم ، ولم يكن معهم أية مؤن أو أسلحة أخرى . وعندما يحسون بالجوع أو العطش يحلبون ضرع ناق من النياق ويشربون من الحليب ما يشاءون . وأرونا كيف نبحث عن البدو الرحل الموجودين على طريقنا ، ثم تركناهم ومشينا فى طريقنا بعد ذلك .

الفصل التاسع

الرحلة الصحراوية إلى حائل . طرد النصراني من هناك

ظهور عياد بن عجوين مرة ثانية. ضيوف غير متحضرين من الحطيم. غروسيب، وصالح مرة ثانية. أسماء الخيول عند البدو. نزاع مع الرفاق. ليلة ليلاء في الخلاء. زول، تعال إلى الخيام والترفيه البرى؛ روضة في الصحراء. شواء الصيادين التيه، أو الذلول الشبع في بلاد الشرارات. إياد بشخصه. مطير، بشرى مسكين. البريتشان، أحد شيوخ الشمر. تجديف حطيمي. البساطة الدينية عند البدو. صبى من البدو يبحث عن مكان الراعي. أول هجر جبل شمر. بيت كبير آخر في الصحراء. بين الكلب والذئب؛ القرية القصر. أخبار تغيّب الأمير عن حائل. بنو تميم Temim . حائل تتراءى لنا . قفار. تعال إلى حائل، المرة الثانية. عنيبر ينوب عن ابن الرشيد في المدينة. استقبال النصراني، تشدد ونية سيئة. عنيبر غريما . أحد أشراف المدينة في حائل. غريب يمني رأى النصراني في مصر. أخبار الحرب التي انتهت. شيخ العجمان الكبير. تشدد أهل المدينة في الصباح؛ ساعة ثقيلة. الرحيل للمرة الثانية عن حائل مع بعض المتاعب. تعال ثانية إلى قفار بنو تميم والشمر.

وصلنا خلال فترة العصر إلى هضبة من الحجر الرملي تقف مثل جزيرة من القمم الصخرية وسط الحرة البازلتية، ظن الرفيقان أننا كنا مخطئين، عندما نظرا إلى مسافة بعيدة عبر الأرض البركانية ولم يريا أحدا من الأعراب. من أرض مرتفعة أخرى حسبا أنهما رأيا قطيعا من الإبل على جبل بعيد: ولكني عندما نظرت من خلال نظارتي لم أر ذلك القطيع! سرنا في ذلك الاتجاه، وشاهدنا بدويا مترحلا جالسا على مقدمة صخرة

بركانية يرعى إبله. وقف ذلك الرجل وجاء للقائنا؛"يصيح الرجل ما هو! خليل، أجئت إلى هنا مرة ثانية ؟" تعرفت الصوت، وتيقنت أن الرجل هو عيادة Eyada بن ibn عجوين Ajjueyn، شيخ الحطيم، الذى عبرت من منزله بصحبة غروسيب Ghrocyb الحرة كى أصل إلى خيبر!

حيانى عيادة، ولكنه تساءل عن رفاقى، وكانا غرباء عليه ولزما الصمت. وتلك هى عادة الصحراء، عندما يلتقى البدو الرحل بعضهم البعض ويتشككون فى بعضهم البعض إن كانوا أصدقاء أم أعداء. جلسنا كلنا أرضا؛ وهنا قال ذلك الحطيمى الفظ:" يا خليل، من يكون هذان اللذان معك ؟"–"اسألهما بنفسك."–" حسن، يا شباب، من أية قبيلة أنتما،– أظن أنكما من خيبر ؟" ردا عليه،" نحن من العجيل وقد أوفدنا باشا المدينة (المنورة) لتوصيل خليل إلى بن الرشيد."–"ولكنى أرى أنكما من البدو تماما، وأنا أسألكما أى بدو ؟– أجاب إياد،"يا ya فلان Fulan– لأنى لم أعرف بعد اسمك، نحن لم نذكر الاسم لاحتمال أن يكون هناك نزاع بني قبيلتينا."–"أهو!أهذا هو ما تخشاه؟ لا تخشى شيئا [وعند الضرورة استخف بهما هما الاثنين]، إخ من يكون هذين الرجلين ؟– قال: حسن أحسب أنكم جميعا ظمأنين؛ سوف أحلب لك أولا يا خليل، ثم لهذين الرجلين من بعدك، هذا إن كانا يريدا أن يشربا الحليب!" وبعد أن شرب رفيقاى رد عليه إياد،" أقول لك الآن: إننا من البشر."– هذا يكفى، إننا أصدقاء؛ وأنت نصرانى يا خليل، فكيف استطعت أن ترى خيبر ؟"– إنها مكان لعين.""لماذا ذهبت إلى هناك، ألم أحذرك من ذلك ؟"–" أين غروسيب ؟"– إنه ليس بعيدا عن هنا وهو بخير، وأنا لا أعرف كيف حدث ذلك، وأنك كنت ستأخذ منه ناقته."–"هذا هو كلامه على علاته."–" (قال موجها كلامه لرفيقاى): الأرجح أن خليلا رجل صادق وأمين؛ والأدوية التى اشترتها منه نسائنا ونساء أعراب القصيم، يقولون عنها: إنها مؤثرة ومفيدة. فما رأيكما فيه ؟ أهو رفيق طيب ؟"–" نعم، هذا شىء لابد أن نقر به، بالرغم من أنه نصرانى! ولكن والله إن المسلمين هم الذين ينبغى أن نطلق عليهم اسم النصارى مرات ومرات". "واين ستمضون الليلة ؟" – "نحن نبحث عن الأعراب، ولكن دلنا، أين يمكن لنا

العثور على بيوتهم."-"(يقف الرجل ويشير بإصبعه) هناك فى الخلف، اسلكوا الطريق المنخفض، من هذه الناحية؛ ولا تنحرفوا عن الطريق وستصلون إليهم عند غروب الشمس. وقد أذهب أنا إلى هناك فى فترة المساء، ثم أركب دابتى معكم صباح باكر إلى حائل."- تعجبت من ذلك الشيخ الذى يرعى إبله بنفسه!

سرنا فى أماكن وعرة، بالقرب من الحد الشرقى للحرة؛ وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما عثرنا على خيام الأعراب التى نصبوها فى أرض منخفضة، كان هؤلاء البدو من الفريج Ferij (والتصغير فيرج Ferij، وصيغة الجمع"فرجان" Ferjan)، ومعناه الحاجز، وهم أيضا من الحطيم، والفريج هجرة (كفر) بدوية؛ ويغلب أن تكون الأسر المقيمة فى الهجرة التى من هذا القبيل، مرتبطة ببعضها بصلة القرابة. وهكذا نجد أن السواد الأعظم من القبائل البدوية المترحلة يفترقون عن بعضهم البعض طوال القسم الأكبر من العام، إلى أن يدخل على الجميع فصل الصيف؛ ثم يتجمعون وينصبون خيامهم على شكل منزل كبير حول مورد رئيسى من موارد المياه فى بلادهم، أو إن شئت فقل: فى ديرتهم.

نزلنا أمام خيمة الشيخ؛ ووجدنا داخلها سجادة تركية جميلة، كما لقينا منهم أيضا السلوك الحطيمى غير المريح، والكرم الحطيمى المتدنى. وضعوا أمامنا سلطانية من شرائح اللبن المجفف التى لا يمكن كسرها إلا بواسطه أحجار المطاحن (الرحى). بعد ذلك، قدم لنا هؤلاء المضيفون غير المتحضرين، والذين كانوا عبارة عن بعض الشبان المتشددين سطلين من ذلك الحليب المنعش فى تلك الصحراء:- ولم يحضر عيادة مثلما قال عندما التقيناه.

هؤلاء المضيفون كانوا قد سمعوا عن النصرانى، وعن رحلتى مع غروسيب، كما سمعوا أيضا عن حكاية قريبهم، التى مفادها (أن خليلا بالرغم من كونه رفيقا طيبا) إلا أنه كان يود أن يأخذ الناقة لنفسه عندما كانا قريبين من خيبر. وقال شخص آخر: إن الرحلة كانت خطيرة، وأن غروسيب تعرض أثناء عودته لخطر كاد أن يودى بحياته؛ لأنه واجه أثناء عودته انهمار المطر الشديد. مما اضطره إلى الاتجاه غربا والسير

فى أكثر المناطق البركانية الصخرية وعورة؛وبينما كان يسير فى مجرى سيل من السيول داهمته كمية كبيرة من الماء: وتعثرت ناقته وسقطت منه بندقيته الفتيلية: واستطاع بشق الأنفس الوصول إلى بر النجاة، كما استطاع أيضا سحب ناقته والعثور على بندقيته. فى الصباح استأنفنا المسير مدة ساعتين وصلنا بعدها إلى هجرة (كفر) أخرى من هجر الحطيم.- سوف نقضى اليوم كله فى الرحلة، ولذلك اتجهنا للنزول من فوق ناقتنا أمام بيت من البيوت؛ ومن باب المصادفة المحضة اتضح أن ذلك البيت كان بيت ذلك الرجل الذى يدعى صالحا! والذى سبق له أن تخلى عنى فى هذه المناطق عندما جئت إليها (قبل ثلاثه أشهر) قادما من حائل. وعندما خرج الرجل للقائنا، ناديته باسمه، تعجب هو الآخر عندما رآنى. كان صالح يتمنطق بحزام الذخيرة، استعدادا للذهاب مع رفيق إلى قرية الحيات سيرا على الأقدام، والتى تبعد مسير رحلتين؛ وكانا يستهدفان من تلك الرحلة-صنع خزنتين جديدتين لبندقيتيهما، بواسطة صانع ماهر (سمعا عن مجيئه إلى قرية الحيات). كان صالح وإياد قبليين، من فخذ واحد، ويعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل. كانت الخيمة القريبة من صالح واحدة من خيام كبار رجالات الحطيم، الذى كان يقوم بدور الرفيق الثالث لنا فى رحلة الخريف. دخل الرجل علينا بعد أن سلم علىّ وهو تبدو عليه القوة والشجاعة؛ واضطر صالح إلى تأجيل رحلة الذهاب إلى قرية الحيات من أجل عيون الضيوف. هذا المكان من الصخور البركانية يطلق الناس عليه هنا اسم الحربان **Herban**، وهو عبارة عن صخرة من الحجر الرملى أحمر اللون، تبرز من بين الصخور البركانية: وفى اتجاه الشمال شاهدت للمرة الثانية جبال بشرة **Bushra** ويصح فيه أيضا بثرة، **Buthra**. وبعد أن شربنا من اللبن، خلدنا للراحة بضع ساعات. طلبت منى زوجة ذلك الحطيمى الكبير قليلا من الدقيق وأعطيتها حفنة من الدقيق، كانت هى كل ما معى؛ ونثرت تلك الحفنة من الدقيق فى إناء السمن الذى كان يغلى وعزمتنى على تناول الرغوة التى نتجت عن ذلك. ثم قامت تلك الزوجة بوضع السمن النقى فى القربة المخصصة لذلك؛ ثم وضعت أمامنا ما تبقى من الزبد والدقيق.

عدت بسلام، وبالتالى لم أقل شيئا؛ كان بوسعى ألا أحيى صالحا متبعًا فى ذلك أسلوب التحضر الاسكندنافى،"أشكرك للمرة الأخيرة!" ولكن زوجته سألتنى،" هل صالح إنسان طيب، يا خليل ؟" كان قد أنجبا طفلا عمره ست سنوات الآن، طفل صغير، يشبه الدودة العارية، يرقد متقيا شر البرد بين ذراعى أمه،- وكان على عريه هذا طوال فترة الشتاء، على ارتفاع يقدر هنا، فى هذه المنطقة، بحوالى أربعة آلاف قدم! وأنا أعجب بحق، كيف يستطيع الناس البقاء هنا على قيد الحياة فى هذه الأيام السيئة. دخل علينا رجل كان يرتدى ملابسه على نحو لم يسبق لى أن رأيت عليه بدويا من البدو المترحلين، إذ كان يرتدى عباءة (بشتا) من الأقمشة التى جرى نسجها محليا من قماش الخيام؛ ولكن الريح كانت تنفذ من خلال ردائه الثقيل، الذى يشبه السجادة. عثرت على قطعة من البفتة أعطيتها للأم المسكينة، لتصنع لطفلها معطفا صغيرا.

عندما دخل علينا المساء وضع، صالح أمامنا تيسا مسلوقا وأكلنا حتى الشبع. وبعد تناول العشاء سألنى صالح حول ما إذا كنت راضيا أم لا ؟-مسكين! ربما كان صالح خائفا من ذكرياتى السيئة من ناحية أو من كتبى السحرية من ناحية أخرى. أتفق صالح مع كل من إياد ومرجان أنهما فى حالة مجيئهما من حائل مرة ثانية، فإنهما يتعين عليهما المرور عليه، على أن يقوموا هم جميعا بالذهاب إلى خيبر، التى سيقوم ببيع سمنه فيها نظير التمر، الذى يحصل عليه فى موسم الحصاد. وبالرغم من أن صالحا كان واحدا من البشر الأعداء، إلا أنه كان حطيميا من حيث الأسلوب، إضافة إلى أنه سيكون فى مأمن إذا ماكان بصحبة إياد فى خيبر.- ولكن كيف لهما بالعثور على تلك الخيام الثلاثة فى الصحراء بعد أيام عدة ؟ أشار صالح عليهما بما يلى؛" سوف ننتقل فى اليوم الرابع (عندما أعود أنا من قرية الحيات) إلى المنطقة الفلانية وعندما تأتى الماشية على العشب الذى فى هذه المنطقة، سننتقل إلى العلامات الأرضية الفلانية؛ وبعد مضى عشرة أو اثنى عشر يوما ابحثا عنا فى منطقة العلامات الأرضية كيت وكيت، وسوف نسقى ماشيتنا من المياه الفلانية أو العلانية."- كان صالح يتحدث إلى آذان تعى وتعرف كل الصخور والقمم ومجارى السيول والأراضى المنخفضة الموجودة فى تلك الصحراء: لقد سبق لإياد التجوال فى تلك المناطق أيام شبابه.

جاءنا بعض الشبان من الخيام المجاورة، ليتجمعوا معنا حول نار المساء. قال أحدهم: "خليل رجل رحالة من بلاد بعيدة؛ وحياة هذا الرجل تجوال في كل أنحاء الدنيا! ووالله، أظن أن هذا هو الأفضل ولكن من يسافر يكون بحاجة إلى المال. لو كان لدى المال، لفعلت مثلما يفعل هذا الرجل، وأزور أمما أجنبية أعرف كلامها، واقف على طرق معيشة الناس في البلاد المختلفة والغريبة: آه! يالحياتنا معه: نعم، والله، يا خليل، سأكون لك رفيقا مخلصا!" قال آخر: " لقد شاهدت الدنيا، خبرنا أين توجد الحياة الفضلى ؟"-" قال شخص ثالث: " في بيوت الشعر."- لا، لا! هذه أرض بؤس وشقاء، والأعراب مساكين." قال شخص رابع: " ومع ذلك، فالأعراب رجال شجعان، وليس لهم مثيل في الدنيا! ما رأيك في خيول الأعراب ؟ والله أليست هذه الخيول مثل الطيور ؟"

الحطيم ليس لديهم خيول وإن وجدت فهمي قلة قليلة؛ سألت عن أسماء تلك الخيول." قال صبي طيب: سأقول لك بعض هذه الأسماء:- السائرة Saera، البومة el-Buma، الرهدين el-Raheydin، الصغار، السبيقة Sabiga، هيها Hyha، عجيرة Ajerra، ساعفة Saafa،- بعض هذه الأسماء عبارة عن أسماء لأفراس من بني هلال؛- شطيفة Shottifa، القمرية el-Jimerieh، الشجيرة es-Shujjera" (الفر الأحلس،- السواد الأعظم من خيول نجد لها هذا اللون الأحلس (الكوميت) أو اللون الأحمر الكستنائي بكل درجاته؛ واللون الرمادي يندر هنا، كما أن اللون الأسود هنا يعد أشد ندرة). وكل ما سبق عبارة عن أسماء لأفراس؛ وأهل الصحراء لا يعيرون ذكور الخيل اهتماما من بين المواشي. طلبت منهم أن يحدثوني عن أسماء حميرهم.- فجاءت على النحو التالي دغريمة Deghreyma، الدهيسة ed-Deheysa، الجميرة ej-jammera، الخيبة el-Kheyba، الكوة el-Kowwa، الدوما ed-doma الوجلة el-Wajulla، المنسلة el-Minsilla، سورة Sowra، الجرذية el-girthieh الزمران eth-thumran الشعرة el-Shaara النجلة el-Nejjilla، الرخصة el-Rukhsa، اللهة el-Laha الحنابة el-Hannaba السعدة el-Suada ، الجرملة el-jirmella، الخصابة el-Khosaba، حبارة Habbara [هذه أيضا من أسماء الأفراس]." ياالله!- يصيح إياد الجحش، بعد أن نفد صبري، يالهذه الحماقة التي في خليل؟- أنت يا رفيقنا، هل تستمع إلى هراء من هذا القبيل! والله

إن الناس سوف تحتقرنا وتحتقرك!" قالوا أيضا: إن هذه الأسماء، هي أيضا أسماء لفروع من الحطيم: ابن Ibn براك Barrak، ابن ibn جيلادان Jellasan، ابن داموك Dammuk (من الخلوية - يقال إنهم من الصلوبة)، ابن سمر Simra أو الذيابة elh-Thiabba، المثابرة el-mothabara الفرادسة el-Faradisa ابن خزيان Hizyan، الخيارات، el-Khiarat، النعومس el-Noamsy، القابض el-Gabid

رحلنا بعد طلوع النهار. تجاوزنا تل حبران Hebran، لنصل بعد ذلك إلى نقيرة Niggera واسعة، أو إن شئت فقل: خليج منخفض يعد من عجائب الطبيعة في الصخور البركانية: أحضرني إياد لرؤية هذا المكان الذي يطلقون عليه اسم البيضي Baedi باعتباره عجيبة من أعاجيب الطبيعة. هذا المكان هو المسقى الصيفي لهذا الفرع من فروع قبيلة السباع التي تتجول في الجنوب مع المشهل Misshel؛ عندما ينصب بدو العواجي خيامهم في بيضاء النثيل. وفي الأرض البازلتية، الي يلطخها روث إبل البدو الرحل هناك بئران من آبار المياة القديمة. وعندما اقتربنا من حفرتي المياه هاتين طارت منهما حمائم اليمام البرى ونحن نحاول النظر داخلهما؛ هذا اليمام يعيش على ماء الصحراء، حتى عندما يكون مثل هذه الماء غير صالح لشرب البدو أو تعافه العرب. جلسنا مدة ساعة ممتعة نلنا خلالها قسطا من الراحة في ظل تلك الصخرة (وذلك من منطلق أننا كنا على علم بأن الأعراب الذين يقيمون على الجانب الثاني من الصخرة ليسوا بعيدين عنا): في هذه المنطقة تراءت بعض الأعشاب لعيني وكأنها بستان صحراوي!- هؤلاء الجيران الخضر، والوارثون الأجواد في كل أرض، للطابع الإنساني.

استرحنا إلى ما شاء الله؛ ثم ركبت الناقة بعد ذلك، وراح الاثنان يسيران على أقدامهما. كان مرجان متعبا وغاضبا عندما وصلنا إلى منتصف الرحلة. قلت له، أثناء مضينا قدما:" أمض قدما، أيها الصبي أو أسمح بأن أتجاوزك، إنك تسير بمحاذاة أقدام الناقة ؟ غمغم، واستدار وعلى وجهه نظرة حقد وكراهية، ثم راح يصوب بندقيته الفتيلية إلى صدري. وهنا قلت:"أعطني هذا البندقية، وسوف أعلقها لك على مقدمة عدة

(سرج) الناقة، وسيكون ذلك فى صالحك؛"تكلمت مع إياد ليأخذ البندقية من مرجان ويعلقها فى مقدمة العدة (السرج). كان الصبى قد وعد إياد،" أنه سوف لن يضايقنى مرة أخرى: سامحه، هذه المرة، يا خليل- لأنى أنا نزلت بالفعل من فوق الناقة- وأنا بدورى يتعين على تحمل المشاق معه؛ وهذه هى طبيعته بصورة مستمرة إنه مراهق."كفى، امض قدمًا وتجاوزنى؛ ولكن إن بدر ذلك منك مرة ثانية، ياولد فسوف أعرفك خطؤك. إياد، هل شاهدت فى حياتك كلها بدويا يتهدد حياة رفيقه ؟"-" لا، والله."-" يصيح الصبى المصاب بمرض الطحال، ولكن هذا (الرجل) نصرانى،- ومع النصرانى الإنسان لا يراعى القانون، أليس هذا عدو الله ؟" عندما نطق بهذه الكلمة خطفت منه بندقيته، وأعطيتها لإياد؛ ثم وضعت مشعابى على الصبى (نظرا لأن ذلك هو النظام الوحيد الذى يعرفونه فى المدينة المنورة) وأوقعته خلال لحظة واحدة، وأوسعته ضربا على ظهره. جاء إياد من الخلف، وأمسك ذراعاى، وبعد أن تخلص الصبى من قبضتى، جاء ورفسنى رفسة شديدة، واتخذ من عقالة سلاحا، وضربنى به فى وجهى: ثم أمسك بعد ذلك حجرا كبيرا، وتقدم لتحطيم رأسى، ولكنى حررت نفسى من إياد."(قال إياد متعجبا) لقد تصرفنا كلنا تصرفا غبيا وأحمقا، إخ! مالذى سيقوله الناس إذا ما تردد ذلك الذى فعلناه على مسامعهم فى يوم من الأيام ؟- وأنت يامرجان، خذ هذه بندقيتك، ولكن أغرب عن خليل؛ وسوف نتصالح مع خليل، ويركب الناقة مرة ثانية. الله! لقد كنا على وشك الإضرار بعضنا ببعض؛ ومرجان هو أضيق الناس الذين عرفتهم خلقا، وكان دوما على هذا النحو."

واصلنا تحركنا فى صمت؛ ولم أقل سوى أننا فى المنزل القادم سوف نتخلى عن مرجان. لقد كان مرجان سببا أيضا فى معاناتنا من العطش أثناء سيرنا على الطريق؛ وبالتالى يتعين علينا أن نقتسم معه الماء ونعطيه ثلث الماء الموجود فى قربة الراعى التى بحوزتى. الأفظع من كل ذلك أن هذا الصبى كان يعمل دوما على إفساد طيبة نفس إياد وذلك عن طريق همساته المتشددة، وكان يحاول دوما سحب إياد بعيدا عنى. وقد ندمت على إنسانيتى التى كانت فى غير محلها، وندمت أيضا على موافقتى على

الطريق الذى اقترحه عليّ أولئك الرفاق. ومع ذلك فقد كان تلميحى إلى الإساءات التى ارتكبها ذلك الصبى، أمرا مهما، من منطلق أنى عندما فعلت ذلك، كنت أفصح عن عدم خوفى منه أو منهما. والعصا التركية الغليظة ربما تعيد مثل هؤلاء الناس إلى جادة صوابهم؛ ولكن من الأهمية بمكان أن يهادن الإنسان العرب على أساس من الشروط المعقولة، التى مفادها أن هؤلاء أصحاب المزاج الأنثوى، إنما هم نوع من الأصدقاء الطيبين والأعداء اللدودين فى ذات الوقت.

الحرة فى هذه المنطقة، تشبه امتدادا هائلا من صخور البازلت: وأكوام القاذورات والنفايات تطفو دائما حول قيعان الصخور البركانية التى تشبه الآبار، والناس هنا يطلقون على تلك القيعان اسم النقار(*) Niggeras، وهى تكون مملوءة بالرمال التى تذروها الريح. وبعد ذلك مباشرة وصلنا إلى حافة حقل من حقول الصخور البركانية، حيث شاهدنا، عن يميننا، مسارا منحدرا متجها نحو ذرغرود، Thurghrud التى تبعد عن هنا مسافة نصف رحلة فقط." قلت، هيا بنا، سوف نذهب إلى هناك." ولكن إياد رد على،" الطريق اعتبارا من هذه المنطقة يمر بكثير من الصخور البركانية الخطرة! وكان يتعين علينا، ياخليل، الاتجاه منذ الصباح، نحو الشرق: ومع ذلك، سوف أتجه إلى ذرغرود، من أجل عيونك وخاطرك، بالرغم من أننا لن نستطيع الوصول إلى ذرغرود هذه هذه الليلة، وليس معنا ما نأكله." وهنا صاح مرجان فى إياد يطلب منه عدم الاستسلام أو الموافقة، وأنه هو أيضا لن يخرج من الطريق المؤدى الى ذرغرود إياد:" إذا مضينا قدما فى طريقنا، فقد نصل إلى الأعراب هذه الليلة: كان صالح، قد قال بحق: إن الأعراب يخيمون أسفل هذا الجبل من الخلف." وهذا هو أفضل الحلول أمام أناس مرهقين: وجهت كلامى لإياد بالمضى قدما، ثم نزلنا من فوق الحرة الى سهل من صخور الجرانيت، ليس فيه أى شىء من الحياة النباتية. قال إياد: إنهم يجدون المرعى هنا فى سنوات الوفرة؛ ولكن الأرض قاحلة فى الوقت الراهن نظرا لعدم سقوط أمطار الخريف على هذه المنطقة.،– قطعنا بعد ذلك بضعة أميال، ومررنا أيضا ببثرة Buthra ثلان Thullan.

(*) النقار ، واحدة نقيرة بضم النون وفتح القاف وتسكين الباء وهو الحفرة الصغيرة ، (المترجم)

"– احنا فين! تعجب الرفاق وهم ينظرون حولهم: لا يمكن أن يكون هناك أعراب فى هذه الصحراء؛ هل يمكن أن يكون صالح قد خدعنا ؟" غربت الشمس علينا ونحن ماضون في طريقنا؛ وتوقفنا فى حوض رملى من أحواض السيول لننام فيه. وقيدوا قدمى الناقة الأماميتين، وتركوها فى ضوء القمر؛ ولكن لم يكن هناك مرعى يمكن أن تفيد منه تلك الناقة. كنا مازلنا صائمين منذ الأمس، ولم يكن معنا ما نأكله، ولم يكن معنا من الماء شيئا. عثروا على بعض الجذور الجافة واستعملوها فى شب النار؛ كانت الأرض المنخفضة تسترنا، أسفل الجبال التى يطلقون عليها اسم إثماد Ethmad (واحد ثماد Thammad)

خيم الليل البهيم من جديد على بلاهتنا وبؤسنا الإنسانى ونحن فى الصحراء جالسين حول نار المساء، وأعاد بيننا رباط الصداقة التى انفرط عقدها فى الصباح. نسى مرجان آلامه وأوجاعه؛ ولكنه عندما أرانى بعض الانتفاخات،" قال: ألم تتعامل مع أصدقائك حول شىء من هذا القبيل، يا خليل ؟ لقد دخل البرد، وهاهى الانتفاخات قد بدأت تعاودنى مع دخوله."– لقد كان الخطأ خطأك أنت؛ وأنا أود منك أن تعى أننا عندما نسير فى طريق واحد لا يكون نصرانى أو مسلم، ولكننا نصبح رفقة rufaka (رفقاء أو رفاق) أو أخوان akhan"–" وهو كذلك يا خليل، أرجو ألا نتكلم فى هذا الموضوع أكثر من ذلك،" كان مرجان قد خرج من المنخفض– فى آخر عمل لنا فى ذلك المساء– لجلب الناقة المرهقة والفارغة؛ وقام بتبريك الناقة حتى تصد عنا ريح الليل، ثم أغمضنا عيوننا بعد ذلك.

ومع طلوع النهار، نهضنا من أسرتنا الثابتة وكنا على استعداد للرحيل. أمضينا بضع ساعات ونحن نسير فى ذلك السهل الميت؛ ثم وصلنا إلى منطقة من الصخور الجرانيتية باهتة اللون، التى لاحظنا فيها ذلك الطائر المغرد جميل الصوت الذى يطلقون عليه هنا اسم أم umm سالمة salema، وهو ينطلق وحيدا طائرا وسط وحشة تلك الصخور. لم يكن معنا ماء، ولذلك راح إياد يتسلق القمم المحيطة بنا بحثا عن الماء فى الجانب الأيمن. وعند الظهر أشار إياد فى تجويف صخرة من الصخور التى كان

يغطيها حجر مسطح؛ وقالوا: إن ذلك كان عملا من أعمال واحد من الصلوبة (صياد فى أغلب الأحيان).- ورحنا نذيب شرائح اللبن فى الماء، وشربنا المريسى وأحسسنا بالانتعاش بعد ذلك. ارتفاع هذه المنطقة يصل إلى ٤٦٠٠ قدم. واصلنا مسيرنا طوال النهار فى تلك الأرض الجرداء؛ وبدأت تطالعنا من الآن سهول قاحلة جرداء تحيط بها الصخور الجرانيتية والبازلتية. ولم نعثر إلا مرة واحدة على آثار أقدام رحلة rahla من رحلات العام الماضى.

راحا ينظران إلى الأفق، ويبحثان بدقة عن الأعراب: وقبيل العصر، صاح مرجان حاد البصر وهو يقول: " أرى زولا zol!" (جمعه أزوال azzual) وهو غير واضح المعالم، إذ يبدو لى كما لو كان شيئا لا يمكن استيضاح معالمه؛ وعليه قال لى مريض ضرير إنه "يرى زول zol الشمس." وهنا حملق إياد جيدا، وقال: بالله لقد حسب أنه رأى شيئا ما. والأزوال فى الصحراء يجرى تمييزها وهى تتحرك عند أبعد نقطة من خط الأفق، ولكن تلك الأزوال فى الصحراء لا يمكن تمييزها ما إذا كانت مخلوقات برية، أو ماشية، أو أعراب. وبعد أن راقب كل من مرجان وإياد ذلك الزول فترة من الوقت قالا: " نحن نرى رجلين يركبان على ناقة واحده!" وهنا فتح الاثنان جرابى بندقيتيهما وأضرما نارا، ونفخا الكبريت، ووضعا البارود على فتحتى اللمس فى بندقيتيهما. وجدت العجلة والاضطراب باديين على إياد! سألتهما: " لماذا تتصرفان هكذا ؟"-" لقد شاهدانا، وهما الآن قادمان نحونا!"- وهنا راح صديقاى يغنيان ويقفزان فرحا بتلك المقابلة، وتركانى مع الناقة؛ وهنا وجدت أن أسلحتى السرية تبعدنى عن الشكوك كلها. وعادا إلى بعد فترة وجيزه ليقولا: إن هذين الراكبين تراجعا عندما لمحا آثار بندقيتيهما.-" (صاحا) هيا بنا ولا داعى لبقائنا هنا مدة طويلة: "وركبا الناقة وابتعدا عنى. وسرت بعدهما ببطئ، وخطر ببالى أنهما قد يتخليا عنى.

خبى ضوء النهار فى نهاية الأمر، وقبلت الشمس الأفق، وتدنت آمالنا مع غروب الشمس: هنا يتعين علينا البقاء فى الصحراء، مرة ثانية، بلا طعام أو أنس من البشر. وراح رفيقاى البدويان يتسلقان الصخور كلها بحثًا عن البشر، فى حين كنت أركب أنا

على الناقة وأسير فى السهل فيما بينهما. وهذه هى الناقة تمضى صائمة لليوم الثانى؛ ولكن ها هى الصحراء بدأت تتعدل من جديد. وكانت الشمس على وشك الغروب عندما صاح مرجان،"إنه رأى قطيعًا." وهنا ركّبت إياد معى على الناقة، وراح يستحث ناقته علنا نصل إلى ما نريد قبيل دخول الظلام الحالك: عَدَونا قرابة ميل، وكان مرجان يجرى بجوارنا. وسرعان ما شهدنا قطيعًا ضخمًا يتجمع فى خليج صغير عند مقدمة جبل من الجبال. وكانت فتاة وصبى يرعيان ذلك القطيع؛ وعلى العكس من كل ما سبق أن شاهدته، كان ذلك القطيع خلوًا من الماعز. وربما يكون هذان الأخوان قد سمعا جلبتنا ونحن نمضى بين تلك الأحجار المفككة، أو ربما يكونا قد رأيا منظر ثلاثة رجال قادمين عليهم، نظرًا لأنهما كانا قد أدارا لنا ظهريهما! واللقاءات التى من هذا القبيل لا تكون خالية من الخوف إذا ما تمت فى الصحراء: لو كنا من العدائين لتوانيا وتباطآ؛ أدركناهما، ورحنا نستحث ذلك القطيع البطىء على السير طوال تلك الليلة. وقد راودت تلك الأفكار إياد أيضًا، لأنه لم يكن بعد قد ألقى عليهما السلام؛ وبادأت أنا الصبى قائلاً:-"السلام عليك!" وعندما سمع كلمة السلام استدار، وبدى عليه الود والمحبة؛ وهنا سأله إياد،"فين Fek المعازبة el-maaziba، بمعنى أين مكان اللهو والتسلية؟"- لم نكن قد شاهدنا الخيام. ورد علينا البدوى الشاب، بهمة ونشاط"الخيام ليست بعيدة."

لم نعرف القبيلة التى كان هذان الأخوان ينتميان إليها. وترك الصبى الصغير أخته تقود القطيع، وسبقنا ليدلنا على الطريق. كنا قد تجاوزنا موعد الصلاة ولم يؤد أحد منا تلك الصلاة:- وراحا الآن يركعان ويسجدان فوق الرمل فى الظلام، فى حين تجاوزتهما أنا، راكبًا على ظهر الناقة؛- وهذا الإهمال الدينى لا يُلحظ فى عابر السبيل المرهق، نظرًا لأن الإنسان يتعين عليه النزوع من فوق راحلته لأداء الصلاة. كان الشفق الأحمر يكسو الأفق عندما وصلنا إلى منْزل هذه الصبية وذلك الصبى؛ ولم يكن فى ذلك المنْزل سوى ثلاثة خيام. وكنا قد تم الاتفاق بيننا على ألا يدعوانى رفيقاى نصرانيًا. واستقبلنا المضيف استقبالاً طيبًا فى خيمة وفرش لنا بساطًا تركيًا زاهى اللون فى المكان المخصص لجلوس الرجال،- والذى لا شك فيه أن تلك السجادة كانت بمثابة

الفراش الذى كان ينام عليه هو وزوجته. ثم أحضر لنا بعد ذلك سلطانية كبيرة مملوءة باللبن، وطلب منا أن نروى ظمأنا: ثم تركنا برهة قصيرة (لإعداد وجبة الضيافة). وعندما سألت رفيقاى عن هؤلاء الأعراب، همس لى إياد قائلاً:"يبدو من كلامهم أنهم من قبيلة حرب."-"أى حرب؟"- لا نستطيع بعد القطع بذلك." وهنا همس مرجان فى أذنى،" هل تندم، يا خليل، على اصطحابى معاك؟ ألم تقودك عيناى إلى ترفيه وتسلية هذه الليلة"؟ وإلا كنت قد أمضيت هذه الليلة أيضًا فى الصحراء."

عاد المضيف إلينا، وأصر، فى لطف وهو يرجونا، أن يأخذ ماءنا لأنهم ليس لديهم ماء. ومنعه رفيقاى من ذلك، مستخدمين فى ذلك أدب الصحراء، بالرغم من أنهما كانا يعرفان أنه سوف يستعمل ذلك الماء فى طهى وجبة الضيافة لنا؛ ولكن الرجل الطيب تغلب عليهما فى النهاية" لأن ذبيحة العزمة، التى كانت طليًا عمره عام، كانت قد ذبحت بالفعل. وهنا تكلم الجانبان: كل عن قبيلته: هؤلاء كانوا من بنى Beny سالم Salem، من قبيلة حرب فى نجد؛ ولكن ديرتهم التى يقيمون فيها، تقع على السلطانى Sultany، أو إن شئت فقل: الطريق السريع الذى يربط ما بين الحرمين. كانت تلك أول مرة أجيء فيها إلى خيام تلك الأمة من البدو؛ ولم يسبق لى أن رأيت مضيفين من البدو يسلكون مثل هذا المسلك النبيل. وراح رب هذا البيت، والابتسامة تعلو وجهه، يملأ لنا السلطانية باللبن مرة بعد أخرى:- وروينا ظمأنا الذى تملكنا طيلة يومين، والذى لم يكن من السهل إشباعه على وجه السرعة. وعندما وجد المعّزب Maacib، أو إن شئت فقل: المضيف الطيب، أنى أنا الوحيد، الذى أشرب بنهم، راح يحثنى ويقول:"إغرتبق ighrtebig بمعنى" تناول شراب المساء،" وراح أيضًا يرفع السلطانية نحو فهى."قال: اشرب! فهذا خير الله، الحمد لله، ولن ينقص منا شيء! لا بد أنكم تعبانين ومرهقين لأنكم قطعتم رحلة طويلة وأنتم قادمين إلينا من الجنوب." إياد:"والله، إنها كلها صحراء، وكنا خُلا Khula (بمعنى وحيدين وبلا مأوى فى الصحراء) فى الليلة الماضية؛ وهذا هو اليوم الثانى، إلى أن عثرنا عليك فى هذا المساء."-"الحمد لله!" رد رب البيت الطيب. تكلم إياد عن الغزو مع رب البيت الطيب هذا." قال مضيفنا: وخليل هذا، ماذا يكون؟- إنه مشهدى Meshedy (مواطن من مدينة مقتل [سيدنا] على، أو مشهد Meshed على

Aly التى سبق الإشارة إليها)؛ أظن أن كلامه عفن Roten كما أن سحنته مثلهم."-"(رد رفيقى) نعم، نعم، هو مشهدى، إنه حكيم، وهو عائد حالياً إلى حائل."-"أحد أبناء عمه كان هنا منذ فترة وجيزة، وهو رجل محترم؛ لقد جاء من حائل لبيع القماش والملابس للأعراب،- وأنت، يا خليل، هل تعرف ذلك الرجل؟ كان يشبهك، والله، كما لو كنتما شقيقين."

جلسنا أرضًا لنيل قسط من الراحة. وبعد ساعة أو ساعتين، حمل إلينا ذلك المعزب الكريم هو وشقيقه الراعى، إناءً كبيرًا مملوءً بالأرز، وقد كوّما من فوقه ذلك الطلى الذى سبق ذبحه وطهيه؛ كان كرمهما الصحراوى أكثر مما يمكن أن يتحمله الإنسان العادى.- وضعوا الطبق البدوى على السجادة، أو بالأحرى على قطعة من قماش الخيام، حتى لا يتناثر الأرز ويقع على الأرض ويدوسوه بأقدامهم:- والبدو إذا ما رأوا ولو قليلاً من اللبن (على الأرض الجرداء القاحلة وسط هذا الشقاء) أمتقع وجه الواحد منهم. ولقد سمعت بعض أقوال نبيهم التى تحث على عدم سكب اللبن.- ونادانا ذلك المعّزب الطيب، وهو يقول: قم! Gum حياكم(*) Kyakom الله ullah والنبى We-en-Neb! بمعنى"انهضوا، وتناولوا الطعام، حياكم الله ورسوله". وأجبنا إلى طلبه، وتجمعنا حول الطبق، ونحن نقول: الله Ullah يحُيِّيك hy-ik:"- تركنا المضيف نتناول الطعام. ولكن إياد احتجز فى البداية ثلاثة من القطع الممتازة، للمعزب وزوجاته؛ قال: إنهم لم يستبقوا من الطعام شيئًا لأنفسهم." وقد جرى العرف بين ربات البيوت البدويات أن تحتفظن بشىء ما من الطعام لأنفسهن ولأطفالهن، ولكن إياد، ذلك الجنتلمان البدوى اللطيف، كان تأثره بالحضر أكثر من تأثره ببساطة الصحراء الصريحة." يقول المضيف العائد إليها: آه! لا، ما هذا الذى تفعله؟ الأمر لا يحتاج ذلك، ووالله لدينا ما يكفينا افلح! eflah بمعنى"كلوا! مدوا أيديكم وكلوا." يقول إياد"بالله عليك، أجلس معنا." قلنا جميعًا:" أجلس معنا يا معزب؛ فنحن لن نأكل بدونك." أبْدًا ebbedan، لا، أرجوكم، مستحيل."- ومن يشبع فى البداية، من بين كل الجالسين حول الطبق، يظل واضعًا يده على الطبق؛ فى حين أن سكان الواحات والحضر ينهضون واقفين، وينسحبون لغسل أيديهم، حتى

(*) ورد هذا اللفظ بنفس هذا الهجاء (Kyakom) وذلك لصعوبة نطق صوت الحاء على الإنجليز. (المترجم)

لا ينظرون إلى أولئك الذين يأكلون ببطئ، وإلى الجوعانين. والبدوى أثناء تناول الطعام، إذا كان قد سبق أن زار الحضر، يقوم بانتقاء لقيمات ممتازة ويقدمها لصديق بجواره:- وهنا، قام إياد بالتعبير عن وده لى.

البدو أكلة دقيقين؛ وأصابعهم ماهرة فى تناول اللحم، وهم يبتلعون لقيمات الأرز المسلوق أو القمح المسلوق بمهارة شبيهة بمهارة الطير، وهذه المهارة تنطبق على أعمالهم كلها. والإنسان عندما يتناول عشاءًا مع البدو، وبحكم كونه آكلاً بطيئًا، لا يجد أية غضاضة فى طريقة الأكل هذه، عندما يندمج بين هؤلاء البدو أثناء تناول الطعام: والسبب فى ذلك أن تمكين الطبيعة أثناء عبادة الخالق، يكون أهم بكثير من المبتدعات التى تدل على نفاق البشر. كنت كلما نادانى أحد من البشر أحسب أنه كان يفعل ذلك من باب الود والإخلاص؛ يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا يمتدحون ذلك الوضوح والصدق من جانب الغريب الذى يعيش بينهم. والعناية الإلهية بينهم هى التى لها الشكر فى الأول والآخر؛ ولكن الناس عندما ينتهون من تناول الطعام (فى هذه الديرة) ينهضون واقفين ويقولون أنعم Unaam الله Ullah عليك aleyk، يا ya معزّب maazib. ثم يرفعون الطبق، ومن بعده المفرش الذى كانوا يضعونه تحت ذلك الطبق؛ ثم يحضرون بعد ذلك طاسة الماء: لنشرب منها ثم نعود بعد ذلك للجلوس حول وجار القهوة. والمضيف بالرغم من كرمه وسخائه ليس لديه شيء من القهوة،- وعرب القهوة ليسوا على هذة الدرجة من الكرم السخى.

(وكما سبق أن قلنا) يتعين على المضيف الرحيل مع طلوع نهار الغد؛ والمضيف يتركه يذهب لحال سبيله صائمًا، ليمضى اليوم بطوله ماشيًا فى الصحراء. أما إذا كان الضيف من أصدقاء المضيف أو من معارفه، وإذا ما كان الموسم يصادف موسم الحليب، فإن رب المنزل يعطل أولئك الضيوف إلى أن تقوم جارته Jara بتقديم شيء من الحليب لهؤلاء الضيوف. كان معزبنا من بنى سالم، وكان رجلاً سخى الكرم، وعندما هممنا بالرحيل راح يؤخر رحيلنا بشيء من اللطف. قال: زوجتى تخضخض السميلة Semila انتظروا إلى أن تنتهى عملية الخض ويظهر الزبد، وبالتالى تستطيع أن تقدم لكم شيئًا من اللبن؛ أنتما الاثنان من البدو، ولكن هذا المشهدى* Meshedy ليس بدويًا،

(*) المشهدى : نسبة إلى مدينة مشهد الفارسية نظرًا لأن المضيف خطر بباله أن خليلا من أهل هذا البلد .(المترجم)

مثلنا، والواحد منا يستطيع السير طوال اليوم فى الصحراء دون أن يضع فى فمه شيئًا من الزاد."– حل علّى موسم الربيع التالى أثناء تجوالى فى الجزيرة العربية؛ وفيه بدأت الأرض تفيض حليبًا من جديد، ورحت استقبل ذلك الربيع الجديد بانحناء للطبيعة السماوية، (يصيح المُضيف الطيب، صاحب الصوت الرخيم المتميز فى الصحراء) قائلاً: اصطبح ustibbah! بمعنى– تناول مشروبك الصباحى."

– أنا أتكلم كثيراً عن الكرم العربى، والسبب فى ذلك أن الناس فى أوروبا يسألون مراراً وتكراراً عن هذا الموضوع؛ وأنا أرمى من وراء ذلك أن تعى الشخصيات المرموقة هذا الأمر. أتكلم عن كرم تلك الخيام المصنوعة من صوف الغنم، ووبر الجمال وشعر الماعز،– أتكلم عن البِشْر والترحاب بالمسافرين والغرباء فى أرض عامرة بالبؤس والخوف، أرض وقفنا على أنها شديدة التدين. ولقد سمعت ذلك الكلام يتردد على ألسنة سكان المدن،–"هذا من أجل الإبلاغ عن ذلك الذى يبثه الغرباء العابرين عن هذه المناطق فى بلادنا: والسبب فى ذلك أن المضيف الجار قد يسأل الضيف،"أين نزلت فى الليلة الماضية؟"

بدأنا نسير فى سهل صحراوى من الرمل، يطلقون عليه اسم شعبة Shaaba يحيط به عالم من القمم والصخور البازلتية، التى تحول بيننا وبين الرؤية فى أى اتجاه من الاتجاهات: سيول كل هذه التربة تنحدر نازلة إلى وادى الرماح. سرنا مدة ساعة ووصلنا إلى روضة واسعة. والمقصود بالروضة Rautha هنا أى مكان منخفض فى الصحراء، وهذا المكان المنخفض يتعين أن يكون فيه شئ من مياه المطر المحتجزة فى فصل الشتاء: والوابل الذى يسقط منحدراً من فوق المنطق المرتفعة يجرف معه رسوبًا ناعمة، وتربة هذه الروضة عبارة عن قشرة من الصلصال واللهم (الغرين). وكلمة روضة Rautua رياض riath [هى أيضًا اسم من أسماء الضواحى فى شرقى نجد]. سألت إياد،"أليست هذه التربة طيبة مثل واحة تيماء؟ إذن، ما سبب عدم استيطانها؟"–"رد على، أعتقد أن السبب فى ذلك هو عدم وجود الماء، أو ربما يكون الأولين Auelin قد عثروا فيها على بعض الآبار.": يضاف إلى ذلك أن الجد Gd أو إن شئت فقل الخبراء

Khobra ما هو إلا قاع من الصلصال الخالص في الصحراء، وتتخزن فيه مياه المطر على شكل بحيرة بعد سقوط الأمطار الغزيرة. والخبراء (ويصح فيه أيضًا الخبيرة Khubbera) هو الاسم القديم للواحة الرئيسية في نفود القصيم:– وقد وصلت إلى تلك النفود في فترة لاحقة.

استطاع إياد قتل أرنب برى بإلقاء حجر عليه؛ وليس هناك من هو أفضل من الأعراب في استخدام الأحجار؛ توقفوا وشببنا نارًا باستعمال الحطب. وأعراب الجنوب يندر أن يكون لديهم سكين، وقد استعار إياد منى مديتى ليذبح بها طريدته؛ ثم ألقى الأرنب البرى بكامله وقطعه وراح يقسمه بين الحاضرين: واكتشفنا أن لحم الأرنب البرى كان طريًا وله مذاق شهى. هذا هو مطبخ الصيادين: وهم لا ينتظرون سلخ الجلد عن الجسم، كما أنهم لا يحتاجون أى شئ من الآلات أو الأوانى؛ ولكن كل ما يوضع أمام الجائعين يكون شهيًا. فى تجويف جسم الأرنب عثر البدوى على قليل من الدم؛ وراح يلحس ذلك الدم بنهم مع شئ مما فى معدة الحيوان، وراح يردد مثل الصحراء الذى يقول:"يقول الأرنب البرى أنا مشقوق الشفتين." هم يفعلون ذلك عن جهل؛ كان العم محمد يفعل هذا الشئ أيضًا أيام شبابه، ولم يخطر بباله أن الدم محرم. قلت له:"عندما يُقْتَلُ حيوان، بالرغم من استنزاف الدم من زوره، ألا يبقى الدم كله فى جسم الحيوان؟– وأنتم تأكلون هذا الدم!" أجابنى، وهو يتعجب بحق،"نعم، أنت تقول كلامًا صحيحًا! الدم يبقى فى الجسم،– ونحن نأكله مع اللحم! نعم، أنا الآن أتبين الفرق." الأرنب البرى صغير، وبعد أن قسم جسمه الصغير إلى ثلاثة أقسام كان بمثابة إفطار غير مشبع لنا. وفى المكان نفسه عثر إياد على جحر جربوع (له فتحتان)؛ وهذا الجربوع من فئران الربيع التى يأكلها الناس فى هذه الصحراء الجافة؛ وهذا الجربوع من المخلوقات التى تعيش مختبئة تحت الأرض، وهو لا يزن أكثر من أوقيتين، ورجليه الخلفيتين طويلتان، وله ذيل طويل أيضًا، وشعره ناعم كالحرير، وبطن الجربوع أبيض اللون [انظر الجزء الأول ص ٣٧١]؛ وهذا الجربوع من ناحية الشكل يشبه فئران استراليا. استخدم إياد مشعابه فى هدم الجحر وأمسك بالفريسة المسكينة، ثم ذبحها باستعمال بوصة حادة وألقى به فى الجمر بعد ذلك؛ وبعد ذلك بلحظة راح يعطى كل

واحد منا جزءً من ذلك الجربوع، ولكننا امتنعنا عن الأكل. يقول الصيادون: إن الجربوع من الحيوانات المجترة؛ قال لي العم محمد: إن تلك الجرابيع تصطاد في معظم الأحيان، وهي تجتر طعامها في أفواهها.

أطلقنا الناقة ترعى، وواصلنا الجلوس في ذلك المرعى الذي يسر الخاطر. رفع مرجان الشدّاد كي يترك للناقة حرية الحركة"انظر ضحك، عجيب! ألا ترى سنامها قد ارتفع؟"- يبدو أن إنزال العدة عن الناقة، ومحاولتنا تغذيتها طوال المسيرات البطيئة، قد حسنا من حال ذلك المخلوق المريض. وعندما رأيت الوسم القديم الموجود على الناقة وعرفت إنها من ، تساءلت"هل هذا يدل على أنك سرقت هذه الناقة من الحطيم؛ دهش إياد عندما رآني أعرف الوسم وأفهم دلالته! وتفاخر بأن الناقة من سلالة أصيلة، أو إن شئت فقل: من بنات Benat التي et-Ti (ويصبح فيه أيضًا التيه et-Tih)؛ لقد اشترى إياد تلك الناقة من الحطيم؟؛ على إنها عشار، أو إن شئت فقل: حُبلى، نظير مبلغ أربعين ريالاً: كانت تلك الناقة تفوق النياق الأخرى من حيث السرعة في تلك الأثناء. أما الآن فقد تحولت إلى مجرد ناقة من نياق الجمل التي تعمل مع العجيل؛ وقد بلغ جشع إياد حدًا جعله يرسل تلك الناقة مرتين، وهي محملة بالزعف الذي تجد له النساء، ويرسله إلى المدينة المنورة لبيعه هناك؛ الأمر الذي جعل البدو يسخرون من إياد.- التيه Ti أو Tih، مخلوق بري خرافي، أو بالأحرى جمل ذكر، في صحراء بدو الشرارات."يقولون: إن ذلك جمل له ثلاثة أضلاع، وأنه يجري بسرعة خرافية؛ وبوسعه أن يسبق أي حصان من الخيول." ويقال إن بدو الشرارات يتركون جمالهم ضالة في الصحراء، حتى يمكن أن يغشاها ذلك التيه؛ وهم يقولون إنهم يستطيعون تمييز الذرية الناتجة عن التيه، من خلال مسألة الضلوع الثلاثة تلك. ونياق الشرارات [وهي سلالة عربية غربية] تتفوق على النياق الأخرى في غربي الجزيرة العربية: وجماعة ابن الرشيد المسلحة محملة، أو إن شئت فقل: تركب نياقًا شرارية خفيفة.- وجمال الحويطات أيضًا، هي الأخرى من النوع الممتاز في صحراء العريش.

كان إياد يحظى بطلعة فيها الكثير من الاحترام، إذ كان له وجه يشبه وجه اليهود، كما كانت له أيضًا لحية سوداء؛ وكان مهندمًا أيضًا، وله طلعة شيوخ الصحراء الشجعان. وكانت عيناه زائغتان دومًا، ولا يركز بصره على شئ بعينه: أما كلامه فلم يكن صادقًا، وإنما كان معسولاً وطنانًا. سألت،"لماذا لا يربى له قرنين من الشَّعْر؟- إن خُصلتي الحُب البدويتين يجب أن تزيدا من جماله الرجولي [العنزى]." إياد: لقد مررت بتلك المباهج الشبابية، إلى أن أطاحت طلقة بالقرن الموجود على هذا الجانب، وبعدها أطاحت رصاصة أخرى بالقرن الموجود على الجانب الآخر؛- ولكن ذلك الإنذار لم يمر علّي مر الكرم! نعم، بالله، أنا حاليًا خارج نطاق الذوق البدوى: ونحن فى يوم يأتينا الخير الربانى الكثير من عند الله، وفى يوم آخر قد يسطو علينا غزو معاد ويأخذ منا حلالنا! والإنسان إذا لم يكن لديه أصدقاء طيبين يقفون إلى جانبه كى يجمعوا له شيئًا من جديد، قد يتحتم عليه التسول والشحاذة من الآخرين.

تربى إياد بعيداً عن قبيلته، بين الشمَّر، وفى هذه الديرة بالذات التى نحن فيها الآن. كان أبوه شيخًا من الشيوخ الكبار، واحداً من أولئك الشيوخ الذين كان كل واحد منهم يركب فرسًا؛ فى حين كان إياد الصغير يركب مهراً صغيراً. وذات يوم قام غزو قوى من الحطيم بالاستيلاء على إبله من منْزله، وجرى إياد من بين من جروا لملاقاة ذلك الغزو. هؤلاء الحطيم (أولئك البدو الرحل الذين تربوا على الحليب) أصحاب أجسام قوية ومحاربين أشداء؛ يضاف إلى ذلك أنهم مسلحين تسليحًا جيداً، أفضل من تسليح البدو، كما أن الكثيرين منهم رماة مهرة. حمل إياد رمحه أمام اثنين من ركاب النياق، وقد أصابت طلقة من الطلقات خصلة شعره وأطاحت بها؛ كما خسر حصانه أيضًا، ولكنه لم يخسر حياته."إياد، لقد لعبت دور الأسد!"-"آها! ألم يخطر ببالك ما قاله الحطيم؟"بالله اتركوا ذلك الراكب الشاب الذى يركب المهر الصغير، واجعلوه يأتى إلينا هنا، ويضاجع حريمنا، حتى ينجبن أبناء شجعانًا."- كان يظن، منذ أن رأيناه، أن عيادة Eyada بن عجوين كان ضمن هذه الغزوة مع هؤلاء القوم.

"وهل ستشترى لنفسك حلالاً آخراً، عندما تحصل على متأخرات راتبك التى تقدر بمئات الريالات؟ سنراك غنيًا وشيخًا من جديد؟"-"تقول غنيًا، وشيخًا، هذا يمكن أن

يحدث لو كنت أنا غير ما أنا عليه حاليًا؛ رأسى مكسور، وأنا أفعل هذا وذاك مئات المرات بطريق الخطأ:- ولكن لن أصبح بدويًا مرة ثانية، لا! أنا لم أعد بعد أستسيغ المخاطرات التى من هذا القبيل: سوف أعمل بالبيع والشراء فى حائل. وأنا إذا ما قمت فى الأسواق ببيع قماش القمصان وقماش العباءات (البشوت) وكذلك أغطية الرأس (الغتر) أو إن شئت فقل المناديل mandils فسوف يقبل البدو جميعًا على الشراء منى؛ زد على ذلك، أن كونى بدويًا، يمكننى من التعامل مع البدو فى بيع وشراء الإبل والماشية الصغيرة. يضاف إلى ذلك، أنى سوف أكون رجل بن الرشيد (أى واحدًا من رجاجيله)، وأتلقى منه راتبًا "شهريًا، وأكون على يقين من المشاركة فى كل الغزوات، وأحصل لنفسى على نصيب من كل غزوة من هذه الغزوات!"-"قلنا، يا خليل، إن الحياة الأفضل هى أن تكون مع البدو." إياد:"لكنى لن أكون جزءًا من هذه الحياة،"وليس كل شئ خضيرة Khuthera وتونس Tunis؛"- ورفض أن يشرح لى معنى هذا المثل الذى تعلمه من الحضر.

- مطير Muthir، وهو جاطونى من البشر، كان واحدًا من المرضى الذين عالجتهم فى خيبر. وهو بالرغم من فقره المدقع فى الوقت الراهن، كان بدويًا ميسور الحال فى وقت من الأوقات؛ وهو مثل إياد، كان يتحول بصحبة" الشمر. وفى أحد الأعوام، وعندما انتشر الطاعون الحيوانى فى نجد، نفقت إبله كلها: وهنا قام ذلك الرجل بدفن خيمته ووضع حاجياته عند التاجر الذى كان يبتاع منه التمر (فى إحدى القرى الصحراوية)، ثم ترك زوجته، قائلاً لها: إنه سوف يذهب إلى ذلك الذى كان ما يزال متبقيًا له،- أو إن شئت فقل: إلى ميراثه من النخيل فى خيبر. وبعد ذلك بلغه أن جارته jara توفت. عندئذ كان قد مضت عليه سبع سنوات، ولم تكن لديه الشجاعة التى تجعله يعود ويطالب بحقه ورصيده؛ وقال: إن خيمته المدفونة لا بد أن تكون قد تعفنت وتلفت.

خضرة كل هذه الأرض الجرداء كانت عبارة عن عشب خشن قصير يشبه الشعير البرى الذى له سنابل فارغة. وهذا العشب الخشن يعد مرعى جيدًا للماشية؛ ولكن الماشية لا تأكل ذلك العشب إذا ما تقدم بها العمر نظرًا لأنه يكون خشنًا فى حلوقها بل ويتسبب فى وخز تلك المخلوقات. ولم أر شيئًا غير ذلك العشب فى موسم الربيع.

مضينا قدمًا؛ وبعد الظهر وصلنا إلى ست من خيام الشَّمَّر. كان الشيخ البريتشان Braitshan، وذلك الشباب الصغير معروفًا لدى إياد. وفرح رفيقاى عندما شاهدا دلال قهوة ذلك الشيخ موضوعة فوق نار الوجار؛ نظرًا لأنهما لم يذوقا القهوة (طوال أربعة عشر يومًا) وذلك اعتبارًا من بدء مسيرنا من خيبر. كان بيت الشيخ البريتشان كبيرًا ووسيعًا ومؤثثًا تأثيثًا جيدًا؛ وهذا البيت مبنى بطريقة الشمر والعنزى. وكانت هناك فرس ترعى على مقربة من البيت؛ وتلك إشارة إلى ثراء هذه الأسرة. كان الرجال الذين جاءوا من الخيام المجاورة معروفين لإياد؛ ولم أكن غير معروف لدى هؤلاء الرجال، فقد قال أحدهم بصورة مفاجئة: "أليس هذا هو خليل، النصرانى؟" – لقد قابلتنى، من قبل، فى حائل. وتحتم علينا تمضية ذلك اليوم مع هذه الأسرة، وأطلق رفيقاى الناقة لترعى. وفى العصر اقتادنا رجل كبير السن إلى خيمته لشرب القهوة؛ وكان لذلك الرجل ابن يعمل ضمن العجيل فى المدينة المنورة." قال: كنت هناك منذ فترة قصيرة، ووجدت ولدى هو ورفيقه يأكلان طعامهما حاف haf، أى بلا سمن! – والخدمة التى لا تستطيع أن تدفع للرجل معاشه تعد خدمة سيئة."

راحوا يتفكرون عندما وجدوا النصرانى بينهم: –"خليل، عدو الله، ومع ذلك فهو يشبه الرجال الآخرين!" رد عليهم إياد على سبيل المرح، "يبدو أن الإنسان يمكن أن يكون على ما يرام، بالرغم من كونه كافرًا!" ثم روى حكاية، تسرى مسرى المعجزات بين القبائل، –]. "كان ابن ناموس Namus (شيخ الناموس) قد قام ذات ليلة بغزو قوى؛ وتوقفوا عند طلوع الفجر لأداء الصلاة [يالتقوى هؤلاء اللصوص!] وعندما سجد الرجال قال واحد منهم: "ما جدوى التعب من وراء هذه الصلاة التى تواصلون أداءها عامًا بعد عام؟ – مصلون كثيرون، ومصلون يتمتمون بعبارات الصلاة كل يوم، ولا يتحسن حالى مطلقًا؛ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد قطع للنفس: إخ! إلى متى يتعين علّى أن أحرث بأنفى تراب هذه الصحراء؟ – وأنا الآن، أطلب منك يا الله أن تعطينى اليوم ناقة وقربة لحمل الماء، يبدو لى وكأنى أود أن أضربك بهذا المشعاب!" – تصادف قبل غروب الشمس أن كانت الغنيمة التى حصل عليها ذلك الحطيمى من بين الماشية

التى سرقوها فى ذلك اليوم، عبارة عن ناقة وقربتى ماء، وعليه قال ذلك الرجل عندما كان بجوار نار المساء:"يجب أن تعلموا- أيها الرفاق، يا من كنتم تلومونني عندما كنت أصلى فى الفجر، كيف خاف منى ربى فى ذلك اليوم!،"لم يكن ذلك الرجل الذى رأيناه، من البدو، وإنما كان واحداً من الحطيمان.- والمعروف أن لسان البدوى الفقير قد ينزلق فى كثير من الأحيان، فيما يتعلق بالدين، ويظل الناس يذكرون سذاجة مثل هذا الرجل خلال الأحاديث التى تدور بينهم فى الصحراء. وعليه إذا ما أتى أحدهم على ذكر اسم ابن الرشيد، تجد رجلاً قبلياً يصيح قائلاً صلى Sully الله Ullah عليه ulayhu وسلم Yusellim،"- محيِّيًا إياه كما لو كان واحداً من الأنبياء الكبار.

- كنت قد تعرفت على مبشر سورى فى واحدة من القرى الواقعة خلف الأردن، وكان ذلك المبشر قد سبق له أن قال ذات مرة لقبلى (مهلهل من بنى صخر) وذلك من باب السخرية والتهكم من السذاجة الفظيعة التى تسود بين البدو،:"ألم تسمع يا أنت؟- عن ذلك المد العجيب الذى يجرى فى العالم؟- ألم تسمع أن الله قد هبط مؤخراً فى دمشق!" البدوى:"تقول إن الله هبط مؤخراً فى الشام!- ألن تذهب لزيارة ربك!" أ"إخ! يا ليتنى أذهب أقابله؛ لكن انتبه يا سيدى- إلى ما يلى! الشام تبعد عن هنا مسافة تزيد على سبع رحلات وكيف لى بترك الماشية وحدها فى هذه الصحراء؟"

بينما كنا جالسين دخل علينا صبى غريب قادم من الخلاء: كان يمشى حافى القدمين ويحمل فى يده مشعابا صغيرا ولم يكن معه زاد ولا ماء، وكان يمشى متنقلا من فريج إلى آخر. منازل البدو الرحل هنا، أثناء موسم البيع، لا تبعد عن بعضهما كثيرا فى هذا الصحراء، يضاف إلى ذلك، أن ذلك الصبى كان بوسعه معرفة الطريق بحكم أنه كان من الشمر. هذا الصبى الذى يتراوح عمره بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كان يبحث عن مكان راع من رعاة الماشية؛ هذا الصبى كان فطنا، نظرا لأن أما عطوفة ومحبة هى التى قلبه قبله الصغير. عندما كان أحد يسأله عما هو قادم من أجله، كان يتوقف ويتمعن الأمر ثم يجيب إجابة رجولية، وبكلمات قليلة تتسم بالحكمة والعقل. سألناه عن الأجر الذى يمكن أن يتقاضاه ؟ قال:" الأجر المتعارف عليه،- أربع

عنزات فى نهاية العام، وعباءة (بشت) ومعطف." (وهذه الأشياء تساوى جنيهين). ولم يشترط طعاما من نوع معين أو من حجم معين أيضا: فالطعام ليس معاملة سيئة. وحسب حسبة صغيرة على الرمل، فوجدت أن ذلك الصبى عندما يصل العشرين من عمره سيكون لديه حوالى خمسين عنزة، أو أربعة من الإبل.

سمعنا أن ابن الرشيد لم يكن فى حائل.." قالوا:إن الأمير يقوم بغزو (أى فى مهمة) فى الشمال مع الرجاجيل ؛ وقالوا أيضا: إن الأميرين (حمود وسليمان) يرافقانه، وأنهم مخيمون فى الحينية Heyennieh،"- والحينية هذه مكان من أماكن الآبار فى النفود فى ناحيج الجوف. وقالوا أيضا: إن أمراء الشمر حصنوا ذلك المكان ببيت من الحجر؛ وأن رجلا أو اثنين يبقيان فى ذلك المكان على سبيل الحامية التى تقوم على حراسته، وأن مهمة تلك الحامية تتمثل فى فتح النار على الغزو المعادى: حتى لا يتمكن أحد من أخذ ماء من تلك الآبار، وألا يمر أحد من هناك دون موافقة من ابن الرشيد. بلغنا أن عنيبر كان هو القائم بأعمال الأمير أثناء تغيبه عن حائل.- كانت السماء ملبدة بالغيوم ونحن جالسين، ثم سقط علينا الوابل فجأة. وهنا طلعت الشمس مرة ثانية، وهنا راح الحريم يجرين فرحا ومرحا كى يملأن قرابهن، من المياة التى تتساقط أسفل صخور الجرانيت. طلب الشيخ ملء أوانى القهوة، وأعطانا سطلا من الماء العذب كى نشرب ونرتوى.- وهنا قامت والدة بريتشان بسلق طبق من الأرز ليكون عشاء لنا: كان كرم البدو فيما يختص بالحليب ضئيلا،- ولكن ذلك شيئا مألوفا فى بيوت المشايخ الخاصة بتناول القهوة.

عندما رحلنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد كنا نسير فى منطقة معروفة تماما لإياد. كانت الأرض المجوفة الى تلت ذلك عبارة عن حوض من نبات القرع، الذى يصل حجم الواحدة منه إلى حجم البرتقالة ولونه مثل لونها أيضا. مشينا مدة ساعتين وصلنا بعدها إلى قطيع من الإبل: كان رعاة ذلك القطيع شابين من الشمر. سألانا عن الأرض التى كنا قد تجاوزناها، هل فيها ربيع، كما سألانا أيضا عن النباتات التى يمكن أن ترعاها الماشية هناك ؟ وهنا اتجه واحد منهما إلى ناقة حلوب كى يحلب لنا شيئا من

اللبن؛ ولكن الراعى الثانى نظر إلى وقال:" أليس هذا هو خليل، خليل النصرانى ؟" [لقد سبق له هو الآخر أن رآنى فى حائل]! كنا، فى هذه المنطقة، عند بداية مستوطنات الجبل؛ وعندما نظرت إلى اليسار، رأيت منظرا يسر الخاطر، بين أرضين مرتفعتين، كان ذلك المنظر لقطعة من الأرض مزروعة قمحا. قال رفيقاى:" هذه قصة Gussa، كفر (هجر) من كفور القمح، ويستطيع الرائى مشاهدة بعضا من النساء خلف ذلك الكفر؛ هؤلاء النساء يخرجن من ذلك الكفر يجمعن شيئا من العلف الأخضر للإبل الى تعمل فى بئر الماء." تحرك من منطقة مجاورة لتلك النساء، شابٌ كان يحمل فى يده منجلا؛ وجاء إلينا ليعرف الأخبار الجديدة منا، نحن الغرباء.- هذا الشاب وهؤلاء النساء لايمكن تمييزهم بسهولة عن البدو! وبعد أول كلمة نطق بها، طلب منا أن نملأ له غليونه بالدخان ؛-" قال: هيا، تعالوا معى إلى قصورنا؛ وستجدوا فيها التمر والقهوة، اجلسوا هناك واستريحوا." وحمل على عنقه داخل عباءته (بشته) ذلك العشب الذى كان قد جمعة وراح يعدو أمامنا فى اتجاه المستوطنة ، وجدنا قصورهم عبارة عن أكواخ بائسة متخفضة كل منها مكون من غرفة واحدة.- القصة عبارة عن بيت ريفى كبير تابع للأمير، ولا يسكنه الأمير سوى ثلاثة شهور فى العام كله، وذلك بغية رى حقول القمح (ويجرى رى حقول القمح من آبار فى هذه المنطقة يصل عمق الواحد منها إلى ست قامات فى هذه الأرض الناشفة)، ويستمر تواجد الناس هنا إلى موسم الحصاد؛ ثم يعود الفلاحون بعد ذلك إلى قراهم: ومكان زراعة القمح هذا يقع فى وادى صغير.

لم يكن فى هذا المكان سوى ستة أسر تضم ما يتردد بين خمسة عشر وعشرين شخصا قلما يزورهم التراقيون. وضع على Aly مضيفنا، أمامنا شيئا من زبد ولبن الربيع: ورحت أعجب من مبالغته فى الترحيب بنا- كما لو كنا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد! ثم قال لىَ بعد ذلك: إنه رأى ترقيا فى منامه، وأن ذلك التراقى كان يجلب لهم التبغ!- وهنا تعرف على أحدهم! وقال:" أليس هذا هو خليل، النصرانى ؟ ومعه ورقة من ابن الرشيد، مفادها أن أحد يجب ألا يسئ إليه؛ ولقد رأيت هذه الورقة بنفسى وهى مختومة أيضا بخاتم الأمير."" تعجبوا، يالحلاوة الدخان ونحن نتذوقه من جديد!-

والله. إننا شراريب Sherarib (بمعنى مدخنين عتاة)".قلت:" لديك أرضا، فلماذا لا تزرع الدخان ؟"-" نحن، نستعمل الدخان؛ ولكن بذر حبوب الدخان، والعناية بنباته في حقولنا، أمر مكروه Makruhal" وعندما تركناهم عند الظهر، نصحونا بالمرور على العجيلة Ajella، وهي ديرة أخرى شبيهة بهذه الديرة، وتقع على أطراف المنطقة وهي أيضا مستوطنة من مستوطنات زراعة القمح؛ وقالوا لنا: إننا سوف نصل إلى تلك المستوطنة قبل دخول الليل.- ورأيت خلف غيطان القمح نخيلا صغيرا في مجرى السيل: ولكن نقص الماء تسبب في موت الكثير من ذلك النخيل. والشائع هنا أن عشبا من أعشاب العصارة ينمو في أي حفرة (ربما كانت حجراً من حجور الحيوانات البرية) من حفر الصحراء الصلدة، بالرغم من أن التربة الجرداء تظل على قحولتها: وراح فلاحوا القصة يزرعون نخيلهم بالطريقة نفسها حتى لا يروونها؛ وكانت ملكية تلك النخيل بيهم وبين البدو.

سرنا في الطريق الذي دلونا عليه، خلال أرض رمادية اللون من الجرانيت، فيها من البازلت قدر كبير عن المناطق التي مررنا بها من قبل. أراني إياد علامات أرضية في اتجاه الشرق، تدل على أبار السقف es-Sakf، وهي مسقى صيفي من مساقي الشمر. وأسفل تل من الجرانيت شاهدت مسارات منخفضة، مثل المسارات التي في الحرات؛ وشاهدت في مكان آخر ثمانية أو أكثر من ثمانية من الأحجار الجرانيتية، موجودة على شكل صف واحد.- في هذه الجبال المهجورة كان يوجد بيت من بيوت الأصنام.

بعد أن أبصر رفاقنا القمة الجرانيتية التي كانت تعلونا ووجدوا أنها مشوهه اللون، تسلقوها بحثا عن الماء؛ وعندما عثروا عليه ملأوا قربة الماء. ومع غروب الشمس وصلنا إلى ممر أجوف، أغلب الظن أنه كان يؤدي إلى العجيلة Agella. كانت الصحراء هنا عبارة عن محال، وهبت علينا ريح شديدة، وغطت السحب النجوم بنوع من الظلمة جعلتنا لا نميز الأرض من تحت أقدامنا. وهنا تحتم على رفاقي البحث عن مكان آمن، ننام فيه إلى أن يطلع النهار؛ ولكني شجعتهم على مواصلة السير والمضي قدما، حتى نتمكن من الوصول إلى المستوطنة في تلك الليلة. سرنا مدة ساعتين، وشاهدت أعمال

بناء بعض المنازل، بالرغم من أن أصدقائى ردوا على بأن ذلك كان مجرد نوع من الصخور بيضاء اللون؛ بعد ذلك تناهت إلى مسامعنا أصوات نباح الكلاب، ومررنا من أمام خيمة منعزلة من خيام البدو المترحلين. ووصلنا إلى" ديرة" العجيلة. لم يكن فى تلك الديرة سوى كابينتين كل منهما مكونة من غرف أرضية أبار وقطع من الأرض لزراعة القمح. كانت الريح شديدة، ونادينا عندما وصلنا أول جدار من جدران هاتين الكابنتين؛ وخرج لنا رجل حيانا بتحية المساء. وقدم لنا الرجل شيئا من الوقود (الحطب)، وشببنا نارا بالقرب من منزله ورحنا نتدفأ بها: ثم أحضر لنا مضيفنا بعد ذلك التمر والزبد واللبن، وقال: إنه آسف لعدم استضافتنا داخل منزله، كما اعتذر أيضا عن أن الوقت كان متأخرا الأمر الذى لا يمكن معه طبخ أى نوع من أنواع الطعام. حمل ذلك الرجل الأوانى الفارغة وعاد إلى داخل منزله، ليتركنا ننام حتى الصباح.

قالوا: إننا مررنا بمستوطنة صغيرة اسمها حفيرة Hafirat زيلول Zeylul؛ لم يسبق لرفاقى أن جاءوا إلى تلك المستوطنة من قبل. وحائل من هذا المكان لم تعد تبعد عنا كثيرا، على حد قول إياد؛" سنبدأ فى المسير غدا مع بداية الجهمة jehemma، أى فى الوقت الذى يمكن فيه التمييز بين الكلب والذئب،- والتى أوشكت على الدخول علينا، ياخليل، وفى تلك الفترة يكون بوسعك يا خليل، القول بأن الكلب كلب والذئب ذئب (أى مع طلوع الفجر)."- كانت الريح الشمالية العاصفة (فى تلك الليلة من ليالى شهر مارس) شديدة البرودة، وعندما طلع النهار كانت فرائصنا ترتعد؛ ورفض الرفاق التحرك قبل اكتمال طلوع الشمس كى يستشعروا شيئا من الدفئ. وفى هذه الليلة حصلت على قدر من الراحة أوفر من ذلك الذى حصل عليه أولئك الذين استضافونا؛ والسبب فى ذلك أننا كنا نسمع طوال الليل، ونحن جالسين فى البرد، أصوات السوانى (السواقى) التى لم تنقطع طوال الليل، بل واستمرت إلى طلوع النهار. مرجان:" هل البدو وعمال الزراعة أصحاب الحياة الأفضل ؟ تكلم يا خليل، أجب، فنحن نعرف أنك نشأت بين البدو."- سوف أبيع نخيلى، إن كان لدى نخيل، لأشترى بثمنه إبلا، وأعيش مع البدو."- قال الرجل:" وأنا أيضا سأفعل الشيئ نفسه."

ومع مضينا قدما أثناء العجاج ajjaj، أو إن شئت فقل: الريح المحملة بالرمل

والغبار، كانت أعيننا تصاب بالأذى. وقد رافقنا ولد صغير كان عائدا إلى القصر، الذى يتعين علينا المرور عليه اليوم:- هذا يعنى أن أى إنسان يمكن له أن ينضم إلى أية جماعة من الجماعات المسافرة فى بلاد الجزيرة العربية كلها إذا ما أراد ذلك. الصحراء فى اتجاه الشرق عبارة عن سهل ملئ بالقمم والصخور الجرانيتية، التى لها رءوس من البازلت؛ وفى أحيان جد نادرة تكون تلك الرءوس عبارة عن إبر صخرية متهاوية إردوازية اللون. قبل دخول وقت الظهيرة بدأ يطالعنا منظر القصر أسفل قرية أجا Ajja، الذى كان مرجان ينطقها إجه ejje، بحكم اختلاف لهجته: كنا قد تجاوزنا المحال (الأرض الجرداء) وبدأت تطالعنا خضرة الربيع التى كانت تكسو وجه الصحراء. هذه هى دوائر من التربة العارية تحيط بالقرى الصحراوية، والتى لا يجرؤ البدو على رعى ماشيتهم فيها دون أن يسبب ذلك لهم متاعب مع الأمير: حقوق المرعى هذه يطلقون عليها اسم الحمى hma [راجع الجزء الأول ص ٥٠٢] رأينا فى هذه المنطقة شابا من شباب القصر، راكبا حمارا ويتجول هنا وهناك لجمع الحطب، ولإحضار شئ من العلف لإبل الآبار. تقدم ذلك الشاب نحونا ونادى علينا مرحبا بنا، ونزل من فوق حماره؛ ليسحب من فوقه قربة فيها لبن مختثر- صب لنا شيئا منه كى نشربه، وراح يقول لنا:" أنتم أيها المسافرون ربما تكونون ظمآنين ؟" تناول كيمة من التمر ثم وضعها أمامنا على الأرض، وعزم علينا بجرح صيامنا: ثم ركب حماره من جديد والسرور يبدو على محياه، قال:" سنلتقى مرة ثانية فى المساء، فى القرية."

ترك الرفاق الناقة ترعى، فى حين جلسنا نحن على رمل السيل بلا أى ظل يحمينا من ضوء الشمس وحرارتها، لنأخذ قسطا من الراحة (..)*.

كانت طلاع tola النخيل، أو إن شئت فقل: الأغصان الحاملة للثمار فى النخيل، لم تظهر بعد؛ كما شاهدنا أيضا عيدان القمح الخضراء: وبذلك يجىء حصاد القمح فى جبل شمر بعد حصاده فى كل من خيبر والمدينة المنورة.

قبيل العصر، مضينا فى طريقنا فى اتجاه إسوار (بستان) القصر، وقد جرى تحصين تلك الأسوار بأبراج تشبه المنارات وهى من بقايا عصر سابق. قال إياد: نحن

(*) عبارات غير لائقة تمس المقدسات الدينية رأينا استبعادها دون إخلال بالسياق العام. (المراجع).

إذاما بدأنا تحركنا باكر فى ساعة مبكرة، فلربما وصلنا إلى حائل، فى هذا hazza الحال hal، بمعنى فى هذا الوقت تقريبا. كان القرويون يرتاحون فى منازلهم، تحاشيا لحرارة النهار، ولم يكن فى القرية التى كانت مبنية من الطين، وتحيط بها أسوار مهدمة، وأرض تشبة الكهوف مغطاة بغبار وتراب قذر تتسلط عليه أشعة الشمس. والأوربيون ينظرون إلى القذارة العربية بشئ من الكراهية والاشمئزاز: ونحن ننظر إلى مثل هذه القذارة من منظور أنها من مخلفات الوثنيين. وقادنا بعض الأطفال لتوصيلنا إلى البلدة. وفى وسط هذه البلدة هناك مكان صغير واسع فيه مجرى مائى جيد سقينا منه ناقتنا: ماء هذا المجرى عذب، ولكنه دافئ بعض الشئ؛ شأنه فى ذلك شأن المياه الجوفية كلها فى الجزيرة العربية. ثم اتجهنا بعد ذلك للجلوس، خلف الجدار الغربى الذى بدأ ظله ينكسر على الأرض؛ ورحنا نتأمل المنظر من أمامنا؛ ورحنا نترقب عسى أن ينادى علينا أحد من أرباب الأسر.

وقف الرجال على أعتاب أكواخهم ليلقوا نظرة على البدو : وهنا جاء أحد الأفراد – يبدو أن هؤلاء القرويون يتناوبون المراقبة – ووقفت لمقابلة ذلك الرجل سألنى من أنت ومن أين جئت ، وإلى أين أنت ذاهب ؟ " جلست بعد أن أجبت على تساؤلاتع وتركنا لحال سبيلنا وذهب هو أيضا لحال سبيلة ، ولكنة عاد إلى مرة ثانية وقال سُم sum بمعنى " قم" هنا وقفت وتبعته أدخلنا ذلك القروى إلى حوش كوخ وجلسنا على الأرض فى ذلك الحوش فأحضر الرجل لنا شيئا من التمر ومعه قليل من الزبد وقليل من شرش اللبن وبعد أن انتهينا من الأكل عاد إلينا وجرى استدعاؤنا بعد ذلك إلى المقهى العام أو إن شئت فقل مقهى القرية كان الناس هنا يعرفوننى أيضا ، نظرا الأن البعض منهم. سبق أن رانى فى حائل. حاصرنى أولئك الفلاحون العابسون بسيل من الأسئلة الدينية؛ إلى أن ضقت ذرعا بتشددهم الذى لا يعرف العقل.

القصر، أو إن شئت فقل قصر Kasr الأشُروات el-Asheruwat، عبارة عن قرية تضم ما يتردد بين مائتين وخمسين وثلاثمائة نسمة؛ جبانة القرية الكبيرة التى تقع خارج القرية، عبارة. عن برية من شواهد القبور المصنوعة من الأحجار الغشيمة

وقد تعاقبت عليها أجيال كثيرة، الآبار هنا يصل عمقها (على حد قول البدو) إلى ثلاثين قامة!

هنا بدأنا نسمع أخبارًا مؤكدة عن الأمير؛ فقد انتقل مخيم الأمير إلى حازل Hazzel، وهذا الحازل عبارة عن عيض aed أو إن شئت فقل جاو jau (مكان للسقيا يقع فى أرض مجوفة) على بعد مسافة قصيرة، فى اتجاه الشرق، من الشقاقى Shakaky فى بلاد الرولة (التى كان الربيع فيها على أشده فى هذا العام)، "وكان الشمر كلهم معه، علاوة أيضًا على ماشية الأمير." علمنا أيضًا أن الأمير لم يترك حائل إلا منذ فترة قصيرة، وأن عودة الأمير إلى حائل ومن معه ستكون فى غضون بضعة أسابيع. هناك أيضًا الطلعات الرعوية، وكذلك الطلعات التدريبية التى يقوم بها أمراء الشمر. وفى تلك الطلعات يمكث أولئك الأمراء مدة شهر أو شهرين يعيشون خلالهما عيشة البدو؛ ولكن ذلك التجوال الذى يجرى على غير هدى ينتهى بنشاط مفعم: وهم نظرًا لوجود ماشيتهم معهم، فإنهم يقومون بغزو كبير، وبصحبتهم كل من الرجاجيل والبدو، يفاجئون بهم أعدائهم؛ وبعد ذلك يعودون إلى حائل (ومعهم غنيمة فى أغلب الأحوال)- قالوا لنا: إن الصحراء فى المنطقة الواقعة فوق القصر عبارة عن محال. يضاف إلى ذلك أن القصر، كان فى الجزء الغربى من قرية أجا Ajja؛ زد على ذلك أن قطيع لأمير من الأفراس والخيول كان قد أرسل إلى المرعى فى المنطقة الواقعة حول مجوج Aogug. تساءل إياد، "عما إذا كانت هناك أية أخبار عن أفراد العجيل العشرين القادمين من المدينة المنورة؟"

القرويون فى القصر، هم من بنى تميم: اسم بنى تميم هذا من الأسماء العريقة فى الجزيرة العربية. وهم بدو قرويين من قديم الأزل، والقبليون المستقرون منهم كانوا معتادين إلى حد ما على الحياة البدوية؛ أما الآن فهم قرويون دمًا ولحمًا. وبنو تميم أشد بأسًا من جيرانهم البدو. ولكنهم ممسكون وليسوا كرماء. وفى المساء راح أولئك القرويون يتحدثون معنا بلا توقف نحن الغرباء، ولم يقدموا لنا أى شئ من القهوة. وعلى جانب من أجناب المقهى الخاص بهم، كانت هناك كومة من الزلط، هذه الكومة يقولون لها: منام manam أو إن شئت فقل: المكان الذى ينام فيه المسافرون، وهذا المنام

عبارة عن مسكن حجرى غير مريح لأولئك الذين يفدون على هذا المكان من الأماكن الفارهة فى الصحراء؛ التى يوجد فيها رمل ناعم وطرى فى كل مكان. أما تلك الليالى التى تحملنا بردها فى الصحراء المفتوحة، فقد تحولت هنا إلى ليالى دافئة أمضيناها هنا خلف الجدران التى كانت تحمينا من ذلك البرد.- وعندما رحلنا عن المكان قبل طلوع النهار، رأيت كثيرين من أولئك الفلاحين نائمين خارج الأكواخ وملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم)؛ كانوا يتمددون مثل الكلاب فى تراب شوارع القرية.

شاهدنا مع شروق الشمس؛ رأس سميراء Sumra حائل Hayil. وأجاب إياد على أسئلة الرجال كلهم."نحن نصاحب خليلاً إلى حائل، وذلك بأمر من باشا المدينة المنورة؛ نحن نحمل معنا خطاب الباشا إلى ابن الرشيد؛ ولكننا لا نعرف ذلك المكتوب فى تلك الرسالة،- والتى ربما تنص على قطع رقابنا جميعًا!"- قلت فى نفسى أيضًا:"الأتراك خائنون!"- لكن هل ينبغى علّى فض ختم الباشا؟ لا! لأنى يجب أن انتظر، بعد فترة وجيزة، شيئًا طيبًا من تلك المخاطرة. هذه الرسالة المختومة، الصادرة عن حاكم المدينة المنورة، جرى فتحها بعد عودتى من الجزيرة العربية، فى واحدة من القنصليات البريطانية؛ ولم يكن فيها من شئ سوى تزكيتى عند"الشيخ" The Sheykh بن الرشيد؛ كما طلب الباشا منه أيضًا أن يعيننى على المضى قدمًا فى رحلتى.

كنت أمشى ساعتين أثناء النهار، ومثلهما فى العصر، وذلك حتى يتسنى لرفاقى الركوب؛ وحفاظًا منى على الناقة المريضة كنت أتسلق عدتها (سرجها)، وهى واقفة، كما لو كنت واحداً من البدو: ومع ذلك، فإن تلك الإنسانية التى كشفت لهما عنها، فى حدود إمكاناتى، أدت إلى تحجر قلبيهما القاسيين. وعندما وجدت أنهما كانا متعبين ومرهقين، وعندما وجدت إياد يشتكى من تآكل نعاله، واصلت المسير حافى القدمين إلى أن وصلنا قفار Gofar وطلبت منهما أن يظلا راكبين على الناقة.- وفى قفار رأيت مرة أخرى (أوه! يا له من منظر جميل)، أشجار البرقوق وأشجار اللوز مزهرة فى واحدة من واحات الجزيرة العربية. ولم نلتق أحداً فى الشارع الرئيسى الطويل؛ كان الرجال فى حقولهم، فى ذلك الوقت، أو يقضون فترة القيلولة داخل منازلهم. ومررنا على منطقة

المناخ Manakh، وكنت أعرفها جيداً؛ ولكن رفيقاي، اللذان لم يسبق لهما السير فى ذلك الطريق فى السنوات الأخيرة، واصلا سيرهما، وبالتالى ضاع منا تناول الإفطار. وعندما كنت أناديهما لم يكونا يسمعانى؛ وقصدا باباً بعيداً وراحا يطرقاه. وفى النهاية جلسا أرضاً عند نهاية الشارع، ولكننا لم نصادف أحداً. قال رفيقاى: هيا بنا إلى حائل، وأنت أركب الناقة يا خليل!" واصلنا مسيرنا عبر أطلال الحى الشمالى، الذى دللتهما أنا فيه على الطريق؛ واقترينا من جانب الصحراء، وسلكت الطريق الثانى، ولكنهما سلكا طريقاً آخر، ناديت عليهما، ونادياً علىَّ وواصلت السير راكباً الناقة. وهنا دار رأس إياد الخفيف، ولا أعرف إن كان ذلك بسبب عدم شربه الدخان فى ذلك اليوم، أم لأنه كان مرهقاً وصائماً، ولذلك راح يسبنى ويلعننى؛ وجاء يجرى خلفى مثل رجل مجنون"لكى يأخذ الناقة." وعندما أخبرته أنى لا أطيق ذلك، توقف بعيداً عنى وراح يسب ويلعن، ويدى عليه أنه فقد صوابه. وبعد مسير ميل عاد إياد إلى صوابه مرة أخرى؛ واعترف لى،"أنه إلى أن شرب دخان الصباح، كان يحس بحموضة فى صدره، وكان يشعر بالضيق، كما أحس أيضاً كما لو كان شيطاناً أو فرعوناً."- والسيطرة على مثل هذا الإحساس تشبه السيطرة على الماء!

فى هذه المرة الثالثة، ركبت الناقة، وأنا أفكر ملياً، فى ذلك الطريق المعبد المؤدى إلى حائل؛ ورحت ألاحظ أيضاً (بكراهية، لذلك الجنس) على بعد ساعات قلائل"أماكن سجودهم"؛- التى هى عبارة عن خلجان صغيرة من الحجر فى أرض الصحراء، التى يستطيع فيها عابر السبيل، أداء الصلاة فيها- إذا ما دخل عليه وقتها.- وقبيل الظهر التقينا مسافرى الصباح الخارجيين من حائل: وراح الجميع ينظرون إلىَّ بعيونهم المتشددة التى لا ترحم، وكان كل من يمر علىّ يقول ويكرر الكلام المؤلم على رفيقاى،"لماذا جئتما به ثانية؟" جاءنا بعد ذلك عمبر Amber شقيق عنبير Ameybar، راكباً جحشاً ضمن جماعة من الناس؛ كان ذاهباً إلى قفار، حيث توجد أرضه ونخله. ولكن ذلك الحبشى المحترم والخليع أيضاً حيانا بتحية توحى بخفة الظل،- خطر ببالى أن تلك التحية كانت على العكس من تحية أفراد الأسرة المالكة أو تحية أولئك المتشددين. وسرعان ما بدأنا نشاهد، عند بداية الصحراء، رأس البرج الأبيض

الخاص بالقلعة، وهنا قال مرجان: "يظن البعض أن أطفال طلال الصغار ما زالوا يعيشون وأحياء فى تلك القلعة. وأنهم يرون الدنيا من برجهم، ولا يراهم أحد." (*) وكان النخيل فى الصحراء على الجانب الأيمن، فى منطقة الشرافة es-Sherafa، التى أنشأها الأمير متعب:- وعليه واصلنا مسيرنا نحو البلدة.

دخلنا حائل قبيل صلاة العصر. ولم تكن هناك أعمال رسمية، نظرًا لغياب الأمير! كانت غالبية الدكاكين مغلقة. وكان شارع السوق الطويل ساكنًا وبلا حركة؛ وبدت تلك البلدة ميتة وخالية من الناس. شاهدت عبد الله المرتد جالسًا عند باب أحد الدكاكين؛ كما شاهدت بعد ذلك، كلاً من إبراهيم، وبعضًا من معارفى وفى النهاية شاهدت ناظر المدرسة. وقف ذلك، المتحذلق، وراح ينادينى بإشارات تدل على المكر والخداع، "الآن، مرحبًا! الحمد لله!- خليل أصبح مسلمًا!" (لأنه خمَّن أنى لا يمكن أن أعاود الدخول إلى بلاد بن الرشيد بغير ذلك.) وعند نهاية الشارع التقيت عنيبر، الذى يقوم بدور نائب الأمير فى حائل (الخالية) حاليًا نظرًا لعدم وجود الأمير؛ خرج عنيبر من القصر حاملاً فى يده سيفًا مقبضه من الذهب: حيانى، ذلك الرجل العظيم، ومضى فى طريقه. ذهبت وقصدت النزول عن الناقة أمام القلعة، فى المسحاب الخالى من الناس، الذى كان مفروضًا أن يمتلئ بالإبل الباركة التابعة لأولئك الذين جاءوا لزيارة الأمير: ولكن فى تلك الأيام. ونظرًا لقيام ابن الرشيد بالغزو، لم يحضر أحد من البدو إلى المدينة. كان نصف سكان حائل على وجه التقريب بصحبة ابن الرشيد فى الميدان؛ والباعة البدو هم أيضًا، بالإضافة إلى الرجاجيل، خدم لابن الرشيد، وهم يصاحبونه أيضًا عند القيام بالغزو. هذا النوع من الخدمة العسكرية أحبط الكثيرين من تجار مناطق شرقى نجد، الذين كانوا يرغبون فى تجربة حظوظهم فى حائل بغير هذه الطريقة.

استشرت بعض أمراء القلعة التى تقوم على الإشاعة والترويج، إذ ذاع الخبر بين الناس أن النصرانى قد عاد إلى حائل من جديد. رأيت أولئك المروجين واقفين فى بوابة برج القلعة ومعهم معد القهوة العجوز؛ "(صاحوا)، هيه! إنه النصرانى بالفعل! سوف يُعْدَمُ مرضاة لله."، وبينما كنت أقف مندهشًا، عاد عنبير؛ إذ لم يمش سوى بضع

(*) على أثر أن تولى الأمير محمد بن الرشيد السلطة فى جبل شمر فى عام ١٨٧٢ قام بقتل جميع أبناء أخيه طلال ، ولم يستثن منهم سوى ابن واحد ، كما قتل عبيدهم إلى جانب عدد كبير من الرجال الذى كان يتوجس منهم . وكان لتلك المذبحة البشعة أثرها لدى الناس يعاطفوا مع أولئك الأطفال القتلى إلى درجة اعتبارهم أحياءً كما ورد فى السياق (المراجع)

خطوات حتى استجمع انتباهه من جديد"سلام Salaam عليك! "aleyk"عليكم Aleykom السلام es-Salaam،" رد عليَّ السلام، على نحو يجمع بين الدهشة وحسن النية، ثم أشاح برئسه إلى الخلف؛ لأنهم تعلموا جميعًا كيف يقلدون الأمراء. مد عتيبر لى يده اليمنى بشئ من العظمة: كان بينى وبينه سلام العيش والملح.-" من أين جئت يا خليل؟ وأنتما أيها الاثنان من أنتما؟- حسن، اذهبوا إلى المقهى! وفيها سوف نسمع منكم الكثير." مر علينا على العايد el-Ayid، قادمًا من منزله، وحيانى بتحية طيبة.

عندما جلسنا إلى عنبير فى المقهى الكبير، سأل مرة ثانية،"وأنتما أيها البدويين اللذان معه، من أنتما؟" رد عليه إياد بتواضع جم:"نحن من الحطيم."-"لا، أنتما لستما من الحطيم."-"قلت: قل لهما هما الاثنان، من أنتما، ومن الذى أرسلكما إلى هنا." إياد:"نحن من عجيل المدينة (المنورة)، وقد أوفدنا باشا المدينة (المنورة) إلى خيبر لتوصيل خليل، ومعه رسالة، إلى ابن الرشيد."-"حسن، أنتما من العجيل، وما هى قبيلتكما؟" لا بد أن نقر بأننا بدو، وإننا من العواجى." عنيبر:" وأنت، يا خليل، أين رسائلك؟"- أعطيته رسالك من عبد الله السروان، كما ناولته رسالة الباشا المختومة. أعطى عنيبر، الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، الرسالتين إلى السكرتير، ذلك الرجل البشوش، الذى قرأ العنوان الخالى من التملق" إلى الشيخ بن الرشيد"، ثم أعاد إلىَّ الرسالتين دون أن يفضهما.- هنا دخل مفرِّج، رئيس الخدم؛ وشد على يدى بطريقة حانية، وصاح،" سمِّ!" (اختصار لكلمة"باسم الله") ثم اقتادنا إلى المضيف. وفى المضيف وضعوا أمامنا طبقًا من التمر الذى يحصل ابن الرشيد عليه على شكل ضريبة، - و- الذى يمثل كرم الربيع- ومعه سلطانية من لبن الإبل. وأرانى واحد من خدم المطبخ قطعة من النقود النحاسية القديمة، التى كانت عليها صورة نسر؛ كانت تلك القطعة قد جرى العثور عليها فى حائل، وهى من النقود الرومانية.

خصصوا لنا المخزن الذى سبق لنا أن أقمنا فيه؛ وتركنى رفيقاى ليزورا أصدقائهما فى البلدة. وسرعان ما تجمع الأطفال على عتبة المخزن وراحوا يسبونى ويلعنونى. وجاء إلىَّ أيضًا الطفل الأمير عبد العزيز، يتيم المرحوم متعب: اكتشفت أنه كبر خلال تلك الشهور الثلاثة؛ كان يتصرف تصرفات عمه، إذ كان متعالى النظرات فى

غير احتقار، فضلاً عن إنه كان يشبه الأمير محمد. وقف الطفل الأمير وراح ينظرا إليّ في صمت، وضع يده على سيفه الصغير، ولكن لم يسب الغريب أو يلعنه؛ ثم تكلم متسائلاً: "لماذا عدت، يا خليل النصراني؟"- لأني، آمل أن يشرح مجيئي صدر عمك، يا عزيزي."- لا، يا خليل! الأمير يقول: إنك يجب ألا تبقى هنا." وهنا رأيت زيداً، حارس البوابة، وهو يقتاد مرجان ممسكًا بيده؛ ثم طلب من ذلك الصبي أن يحكي له كل ما حدث لي منذ أن وصلت خيبر. والأسئلة التي من هذا القبيل تضرني ولا تنفعني: كان ذلك خطرًا سبق لي أن توقعته، بين هؤلاء العرب غير الكرماء.

قابلنا عنيبر في المقهى في المساء: قال، يا خليل، نحن لن نجعلك تمضي قدمًا، ويتعين أن ترحل عنا باكر."-: حسن، أرسلوني إلى الأمير في الشمال ومعي الرسالة القادمة من المدينة (المنورة)، إذا كنتم ترون أن ليس من حقي انتظار عودته إلى حائل."-"استرح هنا الليلة"، وفي الصباح (وفك راحتي يديه عن بعضهما) أرحل عنا!- ابق هنا، يا خليل! لقد هددك الناس اليوم، ولقد رأيت بنفسك كيف كانوا مستائين من دخولك."-"لم يستاء مني أحد، لقد حياني الكثيرون منهم.""وحياة، الله! وأنا لا يمكن أن أتحمل بقاءك هنا في حائل، وبخاصة أن كثيرين يودون قتلك، وأنا يتعين على أن أكون مسئولاً أمام الأمير: نم هنا هذه الليلة، وإن شاء الله بلا شر، واركب راحلتك عندما يطلع النهار."- وبينما كنا نتحدث دخل علينا مراسل، قادمًا من عند الأمير، في صحراء الشمال." تعجب عنيبر، في شئ من النفاق، وكيف حال الأمير! وأين كان مخيم الأمير عندما تركته أنت؟" هذا المراسل المحترم، كان رجلاً في منتصف العمر، حيّاني دون امتعاض ديني، كان المراسل غريبًا عن حائل، أو بالأحرى كان من المناطق الشرقية. عنيبر:"هل سمعت، يا خليل؟ ثم أراني الوقفات الثلاثة التالية معدداً إياها على أصابعه، غداً!- النهار!- الرحيل!"-" من حيث أتيت؛- إلى خيبر: ألست من الدين din (دينهم)"-" لا، أنا لست من دينهم."-" من هنا فإن العرب يتعجلون حياتك: وأنت إذا ما كنت من دينهم، فإنك سوف تعيش دومًا بينهم."-" إذن، أرسلني غداً، وعلى مسئوليتي، في اتجاه القصيم."

استاءوا عندما أتيت على ذكر الدولة (الإمبراطورية العثمانية): وهنا ردَّ على عنيبر قائلاً: "أية دولة! هذه هى أرض الأعراب، إنها أملاك بن الرشيد.- يقول القصيم: ولكن ليس هناك بدو حتى يقومون بتوصيله. يا خليل! نحن أنفسنا لا يمكن أن نجرؤ على الظهور فى القصيم." وأحدث إشارة غبية، بأن جعل إصبعه يذبح زوره الأسود.-"لا تفكر فى خداعى، يا عنيبر؛ أليست شقيقة أمير بريدة، واحدة من زوجات محمد بن الرشيد؟ أليس أهل القصيم حلفاء لنا؟"-"(تعجب البعض منهم) الله! إنه يعرف كل شئ."- عنيبر:" حسن! هذا غير معقول، يا خليل: ماذا تقول أيها الشريف؟"

كان ذلك الرجل شحاذاً مهندماً، وكانت عيناه رماديتين، وترتيبه الأربعين من سلالة النبى، وكانت ملابسه تشبه ملابس الأتراك، وكان قد وصل فى ذلك اليوم قادماً من المدينة (المنورة)، التى كان يقيم فيها. كانت تجارة هذا الرجل الرابحة تتمثل فى المغامرة والنفاق: وكان يقيم فى موطنه ثلاثة أو أربعة أشهر من العام؛ أما بقية العام، فكان يجوب البلاد، أو يعبر البحار ليجوب أراضى العالم الإسلامى. كان ذلك الرجل، يتخذ لنفسه محظية أو خليلة فى كل منطقة يصل إليها؛ وفى كل الأماكن التى كان يذهب إليها، كان يشرح بعض الكلمات والتعبيرات المبهجة، كما كان يعرض على الناس براءة مكتوبة بأحرف كبيرة وصادرة عن الملوك والأمراء، وكان حضوره يحظى بالتكريم، إلى حد أنه كان يسمح له بدخول أفضل البيوت، من منطلق أنه شيخ من شيوخ المدينة المقدسة، ومن منطلق أنه ابن أخ رسول الله: من هنا كان يتلقى صدقات هؤلاء الناس ثم يعود بعد ذلك إلى المدينة المنورة. كانت مدينة بخارى Bokhara من المقاصد التى يذهب إليها هذا الرجل المتدين، وكان ذلك، هو أيضاً حال المدن كلها الواقعة بعد بخارى وحتى منطقة كابول Cabul. وفى الهند المسلمة، تجول كشحاذ فترة طويلة كى يتعلم اللغة الدارجة. وفى العام الماضى، زار إسطمبول وتتبع الأسلحة [غير] المجيدية فى أوروبا؛ كما أسبغ عليه سلطان الإسلام فرماناً إمبراطورياً.- أطلعنى على وثيقة مكبرة عليها توقيع بخط يده وعلى ورقة كبيرة. وبمقتضى هذه الوثيقة كان يتعين عليه القيام برحلة ثانية إلى الهند.

– عندما طلب عنيبر رأيه ومشورته،" (ردت تلك الروح الجوفاء) والله Wellah يا Ya المحافظ El-Mohafuth، أنا أقول الشئ نفسه، أقول إن ذلك أمر غير ممكن؛ فما هي صلة هذا الرجل بالقصيم؟ وما الذى يفعله هذا الرجل بتجواله هنا وهناك فى أرضنا كلها؛ (وأردف متمتمًا)، ويكتب Wayiktub البلاد el-bilad." بمعنى"يدون أشياء عن البلاد. عنيبر:" حسن، يجب أن ترحل عنا غدًا، يا خليل؛ وأنت يا إياد عد به ثانية إلى خيبر."– إياد:" ولكنهم سيقولون لى هناك:"لماذا عدت به إلى هنا مرة ثانية؟" والله أنا لا أجرؤ على فعل ذلك يا عنيبر."فكر عنيبر وتدبر الأمر قليلاً. ورددت عليهم،"هل تسمعون كلامه؛ وحتى إذا ما عرضتمونى مرة أخرى للمخاطر، فإن الدولة قد تطالبكم وتسائلكم عنى، وأنتم يتعين عليكم كل عام دخول بعض مدن الدولة، مثل بغداد والمدينة المنورة: وأنتم حتى عندما ترسلون بخيولكم إلى الهند، ألن تكونوا فى قبضة رفاقى المواطنين وتحت سيطرتهم؟"– الشريف:" إنه يقول الحق، لقد ذهبت إلى الهند، وأنا أعرف الإنجليز وأعرف دولتهم: والآن اسمحوا لى أن أتكلم مع هذا الرجل باللغة التى يفهمها،– راح يتكلم بلغة هندوستانية– ماذا! إنجليزي لا يفهم لغة الهند؟"– عنيبر:"أنت يا إياد (أحد رعايانا البدو)! ليس مسموحًا لك أن تقول: لا؛ وأنا آمرك بتوصيل خليل إلى خيبر؛ ويتعين أن ترحل صباح باكر.– هى هو! لا بد أن وقت الصلاة قد دخل!"قال البعض: إنهم سمعوا الآذان ithin بالفعل: نهض عنيبر من مكانه، كما نهض الشريف أيضًا، ونهض بعدهم بقية الحاضرين؛ وذهبوا جميعًا لصلاة العشاء فى المسجد الكبير.

كان غريب يسكن فى المخزن المجاور لمخزنى، وكان ذلك الغريب قد عاد مؤخرًا من الحروب: سمعت من ذلك الغريب أول الأخبار المؤكدة،–"أن المسلمين كانوا فى أسوأ أحوالهم؛ ولكن إعلان الجهاد كان قد وصل إلى نهايته، وأن المحاربين عادوا إلى أوطانهم. قال: إن المسكوف Muskovs كانوا كبار الحجم وأصحاب أجسام قوية ولهم لحى كبيرة؛ ولكن أغنام النصارى كانت هى الأغراب بالنسبة لنا من بين كل ما شاهده فى أوروبا إذ كانت لتلك"الأغنام أذيال مثل أذيال الإبل" [أو أن تلك الأغنام لم تكن من سلالة تلك الأغنام الموجودة فى الجزيرة العربية]. وقال إنه وصل مؤخرًا إلى حائل

بصحبة شيخ العجمان الكبير. كان شيخ العجمان الكبير هذا قد أسره الأتراك، عندما احتل الأتراك منطقة الإحساء (*)، ونفوه إلى حدود روسيا. وبقى محتجزاً هناك طوال سبعة أعوام؛ كان أقارب ذلك الشيخ (طوال العامين الأخيرين) قد نسوه تمامًا،- زاعمين أنه مات ولقى ربه! ولكن هذا الرجل الشجاع (الأمى) سمع وهو فى بلاد غريبة صيحة القتال دفاعًا عن الدين، وهنا تقدم بالتماس إلى السلطان يطلب منه إشراكه فى ذلك الجهاد؛ وتركوا للرجل حرية أن يحمل رمحًا ويذهب للجهاد دفاعًا عن عبادة الله وعن الرسول.- هذا الدوق البدوى أصيب بجرح فى ذراعه. ومع إعلان الهدنة طلب السلطان إلى ذلك الرجل أن يطلب لنفسه مكافأة؛ ورد عليه الرجل:"أن قد أعود إلى منطقتى، التى يسمونها الحجَّار Hajjar!"- وفى شهر رمضان نزل ذلك الشيخ هو ورفاقه فى جدة: وزاروا مكة والمدينة المنورة؛ ومن المدينة المنورة توجهوا إلى حائل. واستقبلهم، محمد بن الرشيد، استقبالاً طيبًا فى حائل، وودعهم بعد أن أعطاهم هدية ملكية عبارة عن ثلاثة نياق وخُرْج ملىء بالنقود (الريالات الفضة). وعاد ذلك الشيخ العربى النبيل إلى موطنه؛ وبلغنا بعد ذلك أنه سلم نفسه للوهابيين.

ذلك الغريب، رفيقه، الذى كان دائم السخرية والاستهزاء، والذى ينظر للناس شزراً بصورة مستمرة، قال لى: إنه سبق أن رآنى قبل ثلاث سنوات فى الإسكندرية، وأنه تحدث معى أيضًا! [وأنا أعتقد أن ما قاله صحيح،- وأننى فى ذلك اليوم الذى التقيته فى الشارع، سألته أن يدلنى على الطريق.] وبدى لى كلام ذلك الرجل العربى ثقيلاً على أذنى، وأن لسانه فيه شئ من النفاق. قال الرجل: إنه من اليمن، أما حقيقة ذلك الرجل (فى وقت الاضطراب والقلاقل) فلم أقف عليها، ولم أسأله عنها. وعندما سألت ذلك اليمنى عن شريف المدينة المنورة أجابنى باحتقار شديد (لا يمكن أن يصدر إلا من شخص أوروبى)"إنه ليس شريفًا وأنا أعرفه حق المعرفة، وهو لا يعدو أن يكون مجرد شحاذ قطع المسافة قادمًا من المدينة المنورة. إلى هنا، ومعه صندوق من الشموع (التى لا يعرف شيئًا عنها فى هذه المنطقة) لتقديمه لابن الرشيد، لمجرد أن يشحذ منه أربعة أو خمسة ريالات، إضافة إلى كسوة من الملابس. وهو يفعل هذه الفعلة كل بضع

(*) احتل العثمانيون الأحساء فى عام ١٨٧١. فى عهد ولاية مدحت باشا على بغداد ، وأدت الحملة العثمانية إلى إضعاف السعوديين وتصاعد نجم ابن الرشيد . (المراجع)

سنوات قليلة، بالرغم من أنه له بيت جميل فى المدينة المنورة؛ وهو يتجول شحاذاً فى كل أنحاء الدنيا."-"ولكن لماذا كل هذا، إذا كان ذلك الرجل يود أن يعيش حياته؟"-"إنه الجشع والطمع ليس إلا."

جاء الشريف لزيارتى بعد الصلاة، ومعه رفيقه فى السفر، وكانا يرتديان معطفيهما المدنيين الطويلين، ومن فوقهما حزامين عريضين، وملابس جاهزة من النوع السيئ، وطاقية حمراء ملفوفة بشال أبيض من شيلان العمائم. سألانى،"هل لديك شيئًا من الماء؟" كنا جميعًا نشعر بالعطش بسبب الرحلة، والعطش يشبه الحمى فى الجزيرة العربية؛ وخرجت بحثًا عن شئ من الماء، كى أقدمه لضيوفى، وطلبت ذلك الماء من أولئك الذين يقيمون عند بوابة القصر. كانت البوابة مغلقة:" ماذا تريد، يا خليل؟" سمعت هذا الصوت فى الظلام، وعرفت أنه صوت عنيبر؛ كان عنيبر جالسًا على مقعد حمود المصنوع من الصلصال. سألت،" ما سبب كل هذه الجلبة حول عودتى ثانية إلى حائل؟ وعندما وجدوا أنى أحمل معى رسالة من الباشا فى المدينة المنورة؟"-"لا تحكى لنا عن الباشوات، والحكومة التى هنا، هى حكومة ابن الرشيد: وعليك أن ترحل غداً، ولن نسمع أكثر مما قلت؛" ثم التفت إلىّ رفيق، رد عليه قائلاً:"نعم، غداً وفى ساعة مبكرة! وليغرب عنا ذلك النصرانى اللعين." سألت عنيبر، عن مستشاره، طالما أنى لا أستطيع مقابلته: ولكنه لم يجيبنى على سؤالى.- تصادف أن مر علينا ناظر المدرسة حد الطبع، وعندما تعرف أصواتنا،" قال: حييتك اليوم، وأنت قادم إلى هنا، على حاد علمى، على أنك مسلم، ولكنك سوف تقْتَل الآن."لم يكن عنيبر رجلاً سيئًا، أو متشدداً، ولكنه كان له قلب عبد، وأن الخير الذى كان فى داخله يتحول بسهولة إلى فساد بفعل الأسباب الكريهة التى كانت تنهال عليه من الآخرين.

ذهبت وطرقت باب دار على العايد el-Ayid، وطلبت قليلاً من الماء. فتحت زوجته الباب وهى تقول:"مرحبًا، يا خليل."-"وأين على؟"-"ذهب زوجى لينام فى حقول القمح (الناضج)، إذ يتحتم عليه حراسة الحقل طوال الليل؛" طلبت منى الدخول، ولكنى اعتذرت. كانت صغيرة السن، وجميلة المحيًا، كما كانت متواضعة، وكان له أطفال

كثيرين طوالاً. كنت أزورهما كثيراً عندما كنت فى حائل، فى المرة الأولى، وكانت تجلس أمامى بلا حجاب، باعتبارى حكيماً، وفى وجود زوجها؛ وكان هو راضياً عن ذلك، لأنى كنت نصرانياً. أعطتنى الماء وعدت إلى مخزنى.

كان رفيق الشريف يعمل ضمن قافلة بغداد؛ وبعد ذلك أصابه المرض وبقى فى المدينة المنورة: وكان قد التقى الشريف مؤخراً، عندما كان جاهزاً للقيام برحلته إلى الشمال، وبالتالى اتفقا على أن يترافقا. وافق بعض البدو الرحل المتجهين إلى حائل، على أن يركبا معهم على إبلهم نظير ريالين عن كل واحد منهما، ولكنهما قطعا مسافة كبيرة، إلى حد أنهما وصلا مرهقين ومتعبين. عندما عادا إلى مخزنهما قلت: إنى سأقوم بزيارتهما.- إياد، "أليس الشريف ذاهباً إلى مدينة مشهد؟ سنعطيه نقوداً كى يأخذك معه؛ وعلينا أن ننتظر لنرى ماذا يمكن أن يحدث فى الصباح؛ انتبه، يا خليل! أنا لا يمكن أن أتخلى عنك."- عندما دخلنا أرانى الشريف شهادة السلطان؛ وراح يبحث عن نظارته، وعندما وضع نظارته على أنفه، وتناول الثعلب العجوز شمعته وراح يقرأ ما فى الشهادة. أرانا أيضاً وثائقه الأخرى هى وخطابات التفويض، التى أعطاه إياها الباشوات والأمراء، "قال: إن ما ينقصه هو شهادة واحدة فقط من الإنجليز!"- طلب منى أن أكتب له شيئاً، يمكنه من دخول قنصليتنا فى بغداد؛ وكان يتطلع إلى الحصول على شهادة من القنصلية تساعده على المضى قدماً فى رحلته إلى الهند. قال ذلك الباغى الأثيم سليط اللسان، "ناولنى المحبرة، أبحث فى الخُرْج أيها الرفيق." هذا الأثيم ضايقنى هنا، وكان يود منى أن أنقله إلى خارج البلاد!- "أعرنى هذه البوصة، ولن أخيب أملك،- ما هى الأعمال الطيبة التى تود منى أن أسجلها لك هنا؟ هل ستقنع عنيبر بذلك؟"- "أخ!"- (كان يفضل موتى فى هذه الصحراء على ازدهار هو فى رحلته إلى الهند).

إياد: "يا شريف، طالما أنت ذاهب إلى مدينة مشهد، خذ معك خليل، وسوف نعطيك أربعة ريالات؛ وسوف يعطيك خليل مكتوبا للإنجليز."- "إخ! قال البذئ العجوز، أربعة ريالات فقط، إخ! يمكن أن نتدبر هذا الأمر غداً. ثم أضاف المثل البائس التالى-

يحلها الحلال قبل طلوع النهار: و- والكلمة الوحيدة التى أعرفها من لغة الإنجليز، علاوة على كلمة bret(*). بمعنى خبز هى الإنجليز el-Engleys، ويرى Werigud بمعنى Very good . سألت الشريف،" هل اتخذوا منك جاسوسا أيضا فى بلاد الهند ؟"-" إى، وهناك فقط كان بوسعى أن ألوم حكومتهم: لم أذهب إلى أى مكان فى الهند، ولكنى كنت مراقبا! ومن أجل هذا فأنا أتطلع إلى الحصول على شهادة، فى مرة أخرى، من القنصلية."-" وهل هددك أحد بسبب دينك ؟"-" لا، هذا ما سوف أقوله نيابة عنهم."-" ألم يكونوا عادلين مع الجميع وبلا تفرقة ؟"-" هم عدول. بلا أدنى شك؛ ثم (قال لإياد) سوف أحكى لك حكاية. ذات يوم وبينما كنت أتجول فى الهند، تعجلت أنا ومحظية من محظياتى فى الوصول إلى بلدة غير بعيدة كى نسكن فيها: ولكن الليل دخل علينا ونحن على بعد مسافة قصيرة من البلدة، ونظرت ناحية الخلف فوجدت محطة عسكرية، لأنى كنت أخاف على المرأة من ناحية، ولأننا إن نمنا فى العراء فقد نكون معرضين للصوص.

لم يسمح لى الحارس الذى لقى تدريبه على أيدى الإنجليز فى الهند، بتجاوز البوابة **، وهذه هى الشمس قد غربت، ولذا فقد انتابتنى نوبة من الغضب ضربته على إثرها. هذا لايتفق مع أخلاقيات الجزيرة العربية؛ ولكن هذا الطفيل المتدين نشأ فى المدينة، ولذلك لم يقبل أو يحتمل أى اعتراض على ماتربى ونشأ عليه.] اشتكى الجندى وأبلغ الأمر للحارس، ولذلك إرسل الضابط المسئول عنه يطلب منى المثول أمامه، كان ذلك الضابط إنجليزيا،- كلهم من أصحاب الشعر الأشقر الذى يميل إلى الاصفرار، أى أن شعرهم مثل شعر خليل. عندما أخبرته بهويتى ووضعت أمامه الفرمانات التى كانت بجوزتى والتى رأيتها أنت بنفسك، أمر الضابط بتجهيز مسكن لنا وإعداد عشاء لنا أيضا، كما أمر بإعطائى أيضا خمسة وعشرين روبينة؛ ثم قال لى: نستطيع الإقامة هنا مدة شهر، نعطيك خلاله تعيينات غذائية يومية."-" ليتك تقنع هؤلاء الناس الموجودين فى حائل أن يتسموا بسيئ من الإنسانية تجاه الغرباء!"-" ها! (رد الشريف كما لو كان مواطنا يحتقرهم) إنهم بدو!" وهنا بدأ ذلك الرجل العجوز المنافق يستظرف.

"قال لى: بخارى مدينة أكبر من مدينه دمشق؛ والأمير- وهنا بدت عليه السخرية والاستهزاء- الذى يطلقون عليه اسم السلطان Sultan، يمتلك بلادا واسعة وأرضا طيبة؛ ولكن (وهنا غمغم وهو يتكلم) المسكوف موجودين حاليا فى تلك البلاد!:-"حسن، احكى لنا عن الجهاد."-" لقد شاركت أنا بنفسى فى الحروب والعمليات الحربية، وأنا لم أعد إلى محل إقامتى فى المدينة المنورة إلا منذ فترة وجيزة؛" وقال: إنه سمع فى المدينة المنورة عن (احتجازى) فى خيبر؛ طوال عرض أمرى على المجلس.-" لكن، إخ النصارى هم أصحاب اليد العليا؛ وقد استطاعوا الاستيلاء على إحدى المناطق."-" يصيح إياد، إخص! حدثنا يا شريف، هل استطاع النصارى على المسلمين ؟"رد الشريف بصرامة المسلمين ؟ ينصره الله!- أمر Amr الله ullah، أمر Amr الله ul-lah! بمعنى هذا من تدبير الله (سبحانه وتعالى)".- إياد." ها! يا شريف، قل لنا، ما رأيك، هل سيصل النصارى إلى هنا ؟"-" هذا أمر غير محتمل!"كان رأس إياد المكسور مليئا بالدهاء المشحون بالحقد: قلت عندئذ." ياشريف، هل تظن أن هذه الأرض تساوى فنجال قهوة عند النصارى ؟"-" حسن، هذه الأرض كلها خول chol، أى سهوب(*)، أرض جرداء واسعة شاسعة؛ إى (**)، ما الفائدة التى يكن أن تعود عليهم من هذه الأرض!""وماذا عن الإنجليز ؟"-" لقد كان الإنجليز واقفين فى جانبنا."-" هل تسمع ذلك الذى يصدر من فم الشريف!"، إياد:" لكن الشريف يقول: النصارى يستولون على أقاليم السلطان ومناطقه: والإنجليز هم أيضا نصارى!"

عندما طلعت شمس الصباح تمنيت لو أن الليل استمر إلى الأبد. لم يكن مسموحا لى بالمضى قدما أو الرجوع إلى الوراء، ووجدت أن التعب قدأ ضنانى وهدنى.- اتجهنا إلى المقهى الكبير، وهناك جلس عنيبر، وبجانبه ذلك الشريف العجوز صاحب القلب القاسى الذى كان يشرب قهوة الصباح فى شئ من الوقار المقدس." قلت: إياد يؤكد- إنه لا يستطيع، لا يجرؤ، وإنه لن يقوم بإعادتي مرة ثانية إلى خيبر."-" سوف نذهب إلى خيبر على وجه السرعة!"

(*) ايصيح فيه الاستبس ويصح فيه أيضا الشهوب ، وواحدة سهب وهو السهل مترامى الأطراف صحراوى النبوت . (المترجم)
(**) إى هنا بمعنى نعم وقد وردت بهذا المعنى فى كثير من سور القرآن . (المترجم)

كان إياد يقتاد ناقته المريضة إلى المرعى أسفل جبل أجا Ajja، ولكن البواب المغربى منعه بالقوه من فعل ذلك. قلب هذا المغربى، مثلما كان عليه قبل رحيلى عن حائل أول مرة، كان مليئا بالقوة." قلت له: تعال تعال يا زيد، ألسنا نحن الاثنين من رجال الغرب، ونشبه الحضر بين هؤلاء البدو ؟"-" كل مافى الأمر، هو أن تصبح مسلما، وسوف نحبك جميعا؛ ولكننا جميعا نعلم أنك نصرانى متشدد ؟"-" (قال للواقفين): خليل جاء ليتجرأ علينا! هذا هو نصراني، فى أرض المسلمين! ألم يكفك أننا أرسلناك ذات مرة وتركناك فى أمن وسلام، وها أنت تعود إلى هنا مرة ثانية!" كان رأس ذلك الرجل مستديرا، ووجهه ينم عن الوحشية؛ كان عنقه غليظا، وذلك على العكس من أعناق عرب نجد، وفيما عدا ذلك كان له جسم ضخم وكرش كبير.

فى غياب الأسرة الأميرية (الملكية)، كانت حياتى رهينة بين أيدي هؤلاء الأنذال القائمين على أمر المسحاب (الميدان العام). جلست أتحدث إلى ذلك الرجل كلاما هينا لينا فيه شئ من المهادنة، ورفع ذلك الوحش عصاه أكثر من مرة كى يضرب الكافر؛ ولكن كان من الصعب على زيد، الذى سبق أن وقفت معه موقفا حسنا، أن يتخذ منى موقفا غاضبا. أراء العرب تكون دائما متضاربة، وبين كل ثلاثة تجد وسيطا:- ومسألة نصرة أو تأييد قضية أى أحد من أعداء الله، أمر يجلب على صاحبه الملامة والعتاب: ومع ذلك فإن بعض أهل حائل الذين تجمعوا من حولنا وراحوا يقولون كلاما معتدلا، كانوا بمثابة عون لى. كان الغريب الأعور يقف بالقرب منا، ولم يقو على مواجهة العاصفة؛ ولكن عندما تركنى زيد مدة لحظة واحدة، همس فى أذنى، بأنى ينبغى ألا ألقى بالا، لأولئك الذين أطلق عليهم فى شئ من الاحتقار والازدراء اسم البدو الوحوش الذين لا يفهمون- ما عليك إلا أن تتظاهر بموافقتهم على رأيهم، مخافة أن يقتلوك؛ قل محمد رسول الله، وبعد ذلك وعندما تصل بلادا آمنه، تمسك أو تنازل عما قلت حسبما يحلو لك. هذا لا يعنى أنك ارتكبت خطيئة، وذلك عندما تكون واقعا تحت قهر أو عسف، وعندما تكون فى موقف لا يمكن الفكاك منه!"

راح المتسكعون والصبية والأوغاد يلاحقونى بألسنتهم البذيئة: ولكن إبراهيم الحائلى (*)، الذى سبق له أن رافقنى فى ود وحنان إلى خارج البلدة، كان على

(*) نسبة إلى مدينة حائل . (المترجم)

استعداد لمصادقتى من جديد، وراح يصيح معنفا أولئك المتسكعين والصبية،" أغربوا عن هنا! ومن العار عليكم، ملاحقة الرجل بهذه الطريقة! أيها الجبناء، ألم يسبق لكم أن رأيتموه من قبل ؟" وكان عبد الله، صاحب الذراع المكسورة، وولد حمود، من بين هؤلاء الصبية. وجدت أنه كبر وطالت قامته، وكان يعلق سيفا صغيرا فى حزامه؛ وشهر ذلك السيف على ، وصاح، أيها النصرانى اللعين، ألن تتخلى عن كفرك وإلحادك!"– همس الأعور فى أذنى،" وافقهم! إن محاولة مجادلتهم مضيعة للوقت– قال للناس– أرجعوا إلى الوراء! وسوف أتكلم أنا مع هذا الرجل؛ وسوف نرى مناسبة طيبة بمشية الله." ثم همس الأعور فى أذنى، إخ! سينالك شئ من الضرر؛ كل ما عليك هو أن تقول إنك ستكون مسلما، وخلص نفسك منهم، أثبت أنك رجل عاقل وحصيف، ولا تجعلنى أراك تموت بسبب كلمة واحدة؛ وفيما بعد، وعندما تنجو من أيديهم، ستين Settin سنه Sena عليهم، ويلعن Yulaan الله ullah أبوهم abu-hum! ترى هل توافق على ماقلته لك ؟– هو! وأنتم يا أيها الناس، أذهبوا إلى المسجد! أذهبوا وأحضروا المؤذن: لأن خليلا مسلم!"– تحول الواقفون، وأوشكوا على الانصراف ثم توقفوا ثانية؛ لم يصدقوا الكلام المعسول الصادر عن ذلك الكافر العنيد. ولكنى عندما قلت لهم،" لا داعى للذهاب!"–" صاحوا، أها! أيها النصرانى اللعين، الله يلعن والديه!"– زيد (البواب):" أنا أفكر فى أننا سوف نحول هذا (الرجل) إلى مسلم وسوف نختنه؛ وليذهب واحد منكم ويحضر لى سكينا من القصر:" ولكن أحدا منهم لم يتحرك، نظرا لأنهم كانوا يخشون الأمير وحمود ويخافونهما (وقد شاع أن حمود صديق لى)." قال زيد: تعال يا خليل، أريدك فى شيئ؛ سوف أعطيك نقودا فضية بعدد تراب هذا الميدان:– ولكن من منكم أيها العرب البائسين يستطيع أن يعطى أى شئ لأى إنسان ؟ لو أعطيتمونى هذه القلعة، وأعطيتمونى بيت المال، وأعطيتمونى الأكياس والزكائب مملوءة فضة، فلن أغير عقيدتى."– خرجت من الحلوق العديدة التى كانت تحيط بنا كلمة" أخص Skhs– إخص– إخص– إخص!"– لقد احتقرت وازدريت بعبارة واحدة، الطريق الوحيد فى الدين والقناطير المقنطرة من ثروات الدنيا! وراحوا يصيحون بعنف معربين عن كراهيتهم لذلك المعادى للدين.

-" قال صوت من الأصوات: إخ نصراني! وما الذي أوجدك في خيبر، ها ؟"-" المزيد من التمر، ومن الحمى أيها الرجل."-" صاح الجميع، الأدهى من ذلك أنه لم يمت هناك؛ ولكن إخص! هؤلاء النصارى الملعونين لا يموتون، ولا يمرضون مثل بقية الناس الآخرين: والمؤكد أن هذا (الرجل) لولم يكن نصرانيا لمات منذ زمن بعيد."-" الله يلعن أباه!" قالها بصوت متوحش وهو يغمغم، رفع زيد البواب، قبضته الضخمة؛ ولكن عنيبر ظهر قادما علينا من السوق، وهنا يصيح إبراهيم، توقف هناك! ولا تضرب خليلا."- عنيبر:" ما هذا الضجيج، ثم (يوجه كلامه لزيد) لماذا لم يركب النصراني الناقة ؟- ألم أخبركم بذلك ؟"-"لم يكن بدوياه جاهزين؛ فقد ذهب واحد منهم لحضور المزايدات في السوق."- عنيبر:" وأنتم أيها الناس ألن تذهبوا لحال سبيلكم ؟- شيطان! Sheytan ما صلتكم بهذا النصراني؛ الله يجازيكم جميعا أنتم وهو أيضا."

قلت لعينبر،" أنا على استعداد لإعطاء إياد أجرا جديدا من عندي، ولكن هدده ألا يتخلى عني."-" وما الذي حصل عليه منك قبل ذلك ؟"-" خمسة ريالات."-" إذن أعطه خمسة ريالات أخرى. [كان يكفي ريالان أو ثلاثة ريالات لرحلة العودة؛ ولكن ذلك كان من باب الحقد والكراهية، كي يعريني يكشفني في هذه الأرض الغريب والمعادية] عندما تأتي الناقة اركب.- وأنت يا زيد تأكد من دفع المبلغ؛" وعندما لم يتبق معي شيئا من المال، فكيف لي بإنقاذ نفسي في هذا البلد المخيف ؟- زيد:" أعطه تلك الريالات الخمس، ها! عجل، وإلا والله!" ويتأفف! وفي نوبة غضبه الوحشي، لكمني بقبضته الضخمة مرة ثانية في صدري. تركت الأمر كله إلى أن تحين اللحظة المناسبة، فقد كنت مسلحا تسليحا جديا؛ ولكنه إذا ما وجه إلى لكمة بكل قوته فلربما قتلني.- وسحبني إبراهيم بعيدا عن زيد." قال: توقف! فأنا معي الريالات الخمس، أين ذلك الذي يسمى إياد، وسوف أعد له تلك الريالات في يده يا خليل اركب هذه الناقة وابتعد عن هذا المكان، وسوف أذهب أنا معك." أعطيته النقود. وقاد إبراهيم المسيرة وقد أمسك بلجام الناقة في يده، وراح يمشي في شارع السوق، وتركني عند باب دكان من الدكاكين وراح يبحث عن عنيبر. تجمع المتسكعون عند عتبة المكان الذي وقفت أمامه، وأسوأ هؤلاء الناس كان ذلك الشاب الشقي الذي يدعى عبد الله العبيد، فعندما فقد أنفاسه

نتيجة السب واللعن، استل سيفه علّي مرة ثانية؛ ولكن الواقفين لاموه على فعلته، ودخلت أنا بدوري إلى المخزن.

طلب مني التاجر صاحب الدكان، الذى كان مشهديا (*) أن أعطيه غيلوني، وعزمني على الجلوس؛ وملأ غليوني بالدخان الحميدى (**)، ذلك التبغ الذى يشبه العسل والعلاج المهدئ للحياة الإنسانية." قال المشهدى: ما هى أخبار الدنيا ؟- لدينا خبر يقول: إن ملكة الإنجليزي هلكت(***) وأن ولدها حل ملكا مكانها." وبينما كنت جالسا فى سنة من التفكير العميق، كى استمع إلى كلام هذا المشهدى، دخل علينا فجاة، وجلس بيننا سياف شاب قوى، كان قد بقى فى حائل. تذكرت وجه ذلك السياف المتخشب السمج، وأن ذلك الشاب كان يدعى مغربيا، وأنه كان مكتئبا. استل سيفه وراح يتحسس حده: وقال إيدى بلا رأس- ونظرا لوجود الكثير من الرءوس بينهم، فقد أقسم بالله:" أمس، عندما دخل خليل، كنت أجرى كى أقتله بهذا السيف، ولكن البعض منعونى من ذلك!" ورد عليه التاجر:" ما الذى فعله خليل، كى تقتله ؟" السياف:" وأنا سعيد لأنى لم أقتله:"- ويدى عليه عندئذ أنه أصبح أقل تهورا؛ وبدأ يميل إلى جانبى، أكثر من ذى قبل.

عند هذا الحد ظهر عنيبر مع إبراهيم عند باب الدكان، وكان عنيبر قد راح يتجول هنا وهناك فى الشوارع الجانبية (حتي لا يراه أحد بصحبة النصرانى). وهنا دخل النائب الحبشى لابن الرشيد ثم جلس أرضا، ونحن نسمع خشخشة سيف السلطة، ثم قام بوضع السيف فوق ركبتيه. ورجى إبراهيم عنيبر ألا يصر أكثر من ذلك على الأجر غير العادل الذى يتعين على خليل دفعه من كيسه الخاص، أو يخفضه بعض الشئ.(تعجب العبد صاحب السلطة) لا، خمس ريالات!" وبدت عليه الشراسة، وراح يهزهز سيفه." سيطلب الرب منك ذلك؛ وأعطنى جدولا، أو شهادة بسلامة السلوك، يا عنيبر." تعهد بما طلبته منه، وأعطاه التاجر بعضا من الورق، وكتب إبراهيم، ممنوع على أى إنسان التعرض لهذا النصرانى أو مضايقته. وهنا بلل عنيبر خاتمه المصنوع من النحاس الأصفر، وختم به الوثيقة باسم عنيبر بن الرشيد.

(*) نسبة إلى مدينة مشهد الإيرانية . (المترجم)
(**) الدخان الحميدى : نسبة إلى عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩ . (المترجم)
(***) أخبار غير صحيحة عن موت الملكة الإنجليزية إذ من المعروف أن الملكة فيكتوريا توفيت فى عام ١٩٠١ وليس فى تلك الفترة التى كان يدور فيها الحديث . (المترجم)

"(قلت): الشريف ذاهب إلى بغداد، وسوف يمر على مخيم الأمير: وهناك بعض البدو أمام البوابة- لقد سمعت كل ذلك الآن، وأن هؤلاء البدو على استعداد لتوصيلي إلى الشمال، نظير ثلاثة ريالات. إذا كنت ستجبرني على الذهاب مع إياد، فأنت تعلم أني سوف يجري التخلي عني والتخلص مني: الخيانة لابد أن تعاقب في هذه الدنيا! ألا يصح لغريب المرور من خلال بلاد أميركم ؟ تعقل، لأني قد أرحل عنك اليوم بسلام، وقل يذكره الله بالخير." جلس الحبشي جلسة كبرياء وغطرسة وهو يهزهز سيفه على حجره، وقد علت وجهه هيبة الأمراء؛ ومع كل كلمة كنت أقولها كان يضرب بيده السوداء على مقبض السيف. وبعد أن انهيت كلامي لم يكن عنده أي رد عليه، ولكنه صاح صيحة تنم عن الطغيان والاستبداد، عجل، وإلا والله-"! ولوح بسيفه بعد أن أخرجه من جرابه، مرة أو مرتين ما هذا! تعجب! تعجب، ألم يدخل الخوف إلى نفسك بعد ؟" وهنا دخل إياد، وعد إبراهيم الريالات في يده: وسلم عنيبر الورقة إلى إياد" لقد أعطاني الأمير جواز سفره."- ولكني لن أسمح لك بالحصول على ذلك الجواز، اركب الناقة! وأنت يا إبراهيم لا تودعه إلى خارج المدينة

عند نهاية السوق وجدنا ذلك الطفيلي، الذي يدعى سيدا أو شريفا، جالسا متربعا أمام عتبه بيت من البيوت، فوق تراب الشارع. قلت على الماشي: أخرج بوصك و ورقك؛ وسوف أعطيك مكتوبا ؟" غمز ذلك الثعلب العجوز بعينيه من تحت عمامته، وراح يتمتم ببعض حكم القرآن.- وهنا مر علينا بدوي عفي يركب ذلولا (ناقه) قوية." صاح الرجل، أنا كنت قادما إليك؛ فسوف أقوم بتوصيل النصراني إلى العراق مقابل خمسة ريالات." إياد:" حسن، وإذا ما وافق عنيبر، فسوف أتنازل عن الريالات الخمس، التي هي معي بالفعل؛ وبذلك نكون جميعا قد تصرفنا جيدا، كما أن خليل سوف يرحل سلام. أجلس هنا يا خليل، بجوار الناقة، في حين سأرجع أنا والبدوي إلى عينبر، ونبرم معه اتفاقًا، إن أمكن لنا ذلك؛ والله! أنا أسف لما حدث لك."- وهنا مر علينا أحد معارفي، شخص أجنبي من الأحساء، ووقف يتكلم معي؛ كان ذلك الرجل واحدا من أولئك الأغراب المجدين في حائل، حيث كان يعمل بحياكة ملابس الأثرياء من الناس." قال:هؤلاء

الأثرياء غير متعلمين! وكل شئ حسب إرادة الله: والآن، إلى اللقاء يا خليل، وأتمنى على الله أن تصل سالما غانما إلى نهاية هذه المغامرة."

عاد إياد وهو يقول: إن عنيبرا لم يقبل الرجاء، وأنه رفض أن يقوم هذا البدوى المسكين بهذه المهمة. أنهض، وهيا بنا نبتعد عنهم؛ أما فيما يتعلق بمرجان، فأنا أعرف ذلك الذى حدث له. سوف ننتقلك إلى قفار، وسف أتركك هناك إلا أنا لست خائنا ولكنى لن أجرؤ ولا أستطيع العودة بك إلى خيبر سوف أتركك فى قفار، أو قد أتركك مع الأعراب."–" إذا أردت أن تبيعنى وتخذلنى، أفعل ذلك عند بيوت الشعر (خيام البدو) وليس فى المستوطنات؛ ولكنك ستعيد إلى النقود الى دفعتها لك."–" لا، لقد أكلت هذه النقود، ومع ذلك سوف أبذل قصارى جهدى من أجلك." سرنا فى الطريق المعبد أم لا" أخيرا تبينا أن ذلك الذى كان يتجه نحونا على رأسه لفافة، إنما كان مرجان بشحمه ولحمه،– كان يحضر معه تمنا (أرزا) وتمرا، كانت أخته (المتزوجة فى البلدة) قد أعطته إياهما. وهنا أخرج إياد كيسا من الجلد، كان فيه بعض الطعام المخصص للطريق، والذى حصل عليه من المضيف، (دون أن يحطنى علما بذلك): هذا الطعام لم يكن سوى وجبة من الشعير والتمر ومن النوع السيئ، ولا يزيد ثمنها بحال من الأحوال عن شلن واحد. جلسنا على الأرض، وفرد مرجان تمره الطيب، وأفطرنا وبعد أكلنا مع بعضنا كنت أتطلع أن يكونا معى ودودين، بالرغم من أنى لا يمكن أن أنتظر سوى المصاعب من هذين الرفيقين. ربما كان بوسعى السير مع واحد منهما وليس معهما هما الاثنان. استطاع إياد الوقوف على بعض الشكوك مفادها أن النصارى يطبقون بصورة مستمرة على ممتلكات السلطان. وأن أمة خليل برغم أنهم ليسوا أعداء، إلا أنهم لا يتمنون الخير فى دواخلهم، للدين الإسلامى. متى سأركب؛"لا، قال إياد: وقد بدأ يترنح العودة لن تكون مثل المجئ ؛ لأنى أنا الذى سوف أركب." لم أقل شيئا غير ما قلته؛ ونظرت إلى الصحراء، وكان يتعين على أن أصبر عليهما.– وراح رفيقاى يتفاخران طوال الطريق بالوعود التى أعطيت لهما فى حائل.– قال عنيبر، إنهما إن عادا إلى حائل فى فترة لاحقة، بعد أن يتقاعدا من خدمة الدولة (الأمبراطورية العثمانية) فقد ينضمان إلى خدمة الجندية (المسلحة) مع ابن الرشيد؛– على أن يكون إياد خيالاً من

بين خيالة الأمير الراكبين، ومرجان واحداً من رجاجيل الأمير.

لحقت بنا امرأتان جاءتا من حائل وكانتا ذاهبتان إلى قفار." (قالت المرأتان المسكينتان بحنان النساء) الحمد الله أن الأمر لم يصل إلى حد السوء. أه يا أنت- أليس اسمك خليل ؟- إنهم في المدينة الواقعة بعد هذه البلدة جبابرة Jababera، بمعنى رجال شديدى العنف، وهم على استعداد لذبح أى رجل من الرجال على أثر أيه نوبة خفيفة من نوبات الاستياء. ألم يفعل هو كل ذلك مع إطفال أخيه، كى يصبح هو الأمير حاليا ؟ لقد فلت منهم على خير، إنهم غلاظ وقساة Kasyin. وهو الذى يصيح الناس منادين به، أخرجوا على النصرانى أفضل من المسلمين."إياد:" إنهم هم أنفسهم النصارى والله خبيثين . بمعنى مليثين بالحقد الكراهية قال << لا أكره سوى المشاهدة، أربكم الله." تصادف أن صبيا من أولئك الصبية الذين يخدمون فى المطاعم العامة، كان من بين المرضى الذين عالجتهم، وأن هذه الصبى بالذات الذى عالجته (مجانا) أثناء تجوالى فى حائل فى المرة الأولى، كان واحدا من أشقاء مرجان. قال: إن المشاهدة كانوا يؤيدون رأى عنيبر ويدعموه.- والذى يتجول فى سوريا الفينيقية وسوريا السومرية تثور فى ذاكرته قسوة المستعمرين الفرس أو الأشوريين، الذين يطلقون عليهم اسم المتاولة (*) Metowali [وأن هذه القسوة كانت ناتجة عن الأديان غير العقلانية].

انحرفا عندئذ عن الطريق وقصدنا المبنى الشرقى فى قفار:- المستوطنات الشرقية والغربية تقع على نبعين من نبوع المياة الجوفية، ويفصل هذين النبعين عن بعضهما مسافة ميل أو أكثر. والواحيج الغربية، التى يمر بها الطريق العام أكبر من الواحة الشرقية، حتى يتسنى لنا الإقامة والسكنى معه. مررنا فى هذه المنطقة أيضا بمزارع النخيل التى هجرها أصحابها، كما مررنا أيضا بأنقاض بعض المبيوت والبساتين ،إلى أن وصلنا بعد ذلك إلى المناطق المأهولة بالسكان؛ وهنا توقف رفيقاى أمام دار ذلك الصديق. وهنا جلس كل من إياد ومرجان ليتبينا إن كان ذلك الرجل الطيب (غير المضياف بحكم أنه من سلالة بنى تميم) سيخرج للقائهما واستقبالهما والترحيب بهما.

(*) المتاولة : طائفة من طوائف الشيعة فى بلاد الشام . (المترجم)

تجمع الأطفال من حولنا بدافع الفضول، وعندما تعرف البعض منهم عليَّ، بدءوا يسبون النصراني ويلعنوه. وسبهم مرجان، بالسباب التى يعرفها الساميون فى دواخلهم، وراح يجرى وراءهم ويطاردهم بمشعابه؛ ولكن فى هذه اللحظة يصل مضيفنا قادما من الحارة التى يقيم فيها، وحيا إياد ثم دعانا للذهاب إلى منزله. وحمل ولد ذلك المضيف جو الأتى إلى داخل المقهى: كما وضعوا بعضا من العشب والعلف الأخضر أمام الناقة.

وضعوا أمامنا طبقا مملوء بالتمر؛ وصلح لنا ذلك الرجل الطيب شيئا من القهوة الخفيفة: وراح أصدقاؤه يتوافدون علينا الواحد بعد الآخر. كل هؤلاء الأصدقاء كانوا من بنى تميم، وكلهم من الفلاحين الذين لا يبدو عليهم أى شئ من التحضر؛ هم أيضا من الشغيلة الذين يعيشون عيشة أمينة اعتمادا على أنفسهم- ويدخرون أيضا من كدهم وسعيهم. وعندما قلت لواحد منهم: " أنا أرى أنكم جميعا أصحاب هياكل عظمية ضخمة، وأصحاب قامات طويلة، وذلك على العكس من سكان حائل (النحيفين)!"- رد علي محقرا إياهم،" الشمر بدو!" وبينما كنا جالسين، دخل علينا ثلاثة غرباء سمر البشرة، كانوا متجهين إلى حائل، ورأو أن من المناسب لهم التوقف لشرب القهوة.- كان هؤلاء الغرباء يحملون معهم الزكاة التى كانوا يودون تقديمها لخزانة الأمير؛ والسبب فى ذلك، أن هؤلاء الأعراب من قبيلة حرب، وكانت منطقة تجوالهم قريبة من المدينة المنورة. وبعد شرب القهوة استأنفوا مسيرهم على الفور؛ وعندما يصلون إلى حائل سوف يتجهون إلى ابن الرشيد فى مخيمه فى الصحراء الشمالية.

تركنى رفيقاى دون أن يقولا لى كلمة واحدة! وهنا أحضرت عدة (سرج) الناقة، تحسبا لا نسحابهما وتخليهما عنى. وهنا لم يعد إياد أو مرجان يخشيان من عدم الاهتمام بى، يضاف إلى ذلك أن خشونتهما وعسفهما بديا يظهران مع كل كلمة كانا يقولانها، وهنا استطعت أن أتوقع ذلك الذى يمكن أن يحدث وأنه سيكون أكثر مما نحن عليه حاليا: ومن حسن حظى أن موسم الطيب كان قد بدأ فى هذه المنطقة.- وهم يقولون: إن عيون الماء التى تعيش عليها واحتيهما تنساب أصلا من جبل أجا Ajja. ارتفاع الماء فى آبارهم التى يصل عمقها إلى ثمانية قامات ينخفض بمقدار قامة واحدة

خلال فصل الصيف الطويل. هؤلاء المضيفون من بنى تميم، كانوا عابسى الوجوه، أمام عدو الله. ومع ذلك كانت قصة حضورى إلى حائل فى المرة الأولى، معروفة لهم تماما: بل إنهم حدثونى أيضا عن ناقتى العجوز، أو إن شئت فقل: الخويرة Khueyra، وقالوا لى: إنها ولدت بعيرا مؤخرا:- تمنيت لو أنها كانت معى! تطلعا إلى حليبها الوفير الذى يمكن أن يعيش عليه رجل فى الصحراء. والناقة كبيرة السنام يكون حليبها وفيرا؛ أما إذا كان سنامها صغيرا فإن حليبها يكون خفيفا وغير وفير. وبنو تميم مضى عليهم وقت طويل جدا فى هذه المنطقة قبلهم. وهم يطلقون على جدهم الأكبر اسم تميم؛ هذا التميم كان شقيقا لوعيل Wail جد كل من العنوز Annezy والمعازى Maazy [انظر الجزء الأول ص].- وعاد رفيقاى فى المساء وعلى وجهيهما علامات الخيانة.

الفصل العاشر

الشمَّر وصحارى حرب فى نجد

عشاء من حليب القطيع. سرب من طيور القلق. رحلة صحراوية شريرة، وليلة مع رفاق خونة. على الحُصاوى مرة ثانية. كبائن بريتشان مرة ثانية." العرب يحبون الكلام الناعم". رحله شريرة ثانية. منزل من منازل الحطيم؛ الافتراق عن الرفاق الخونة. تعطش البدو إلى التبغ. امرأة جميلة من الحطيم. الصلوبة. معتوق ونوير. "نصارى" مسافرون. حياة هؤلاء الحطيم. دفن كتب النصرانى. رحلة إلى جزء من قبيلة حرب فى اتجاه الشرق. الغزال. لبن الإبل المر بسبب الشيح الرومى. منازل الحطيم. تعال إلى أعراب حرب. شائعة غير حقيقية عن غزو وهابى. العوف. شيخ من حرب. عروس من حرب. خيمة خلف بن نهال الكبيرة. كلام خلف. القروين السلايمة. الركوب مرة ثانية والنزول عند الخيام أثناء الليل. مطلق وطلّق. تعال ثانية إلى خيمة بن ناحال. ابن ناحال، تاجر بدوى. ثروته. رجل ثرى يشارك فى الغزو، لسرقة جمل واحد؛ ثم يُقْتل. فريق طلق البخيل. التجوال إلى منزل آخر." على المسكين". رؤية عجيلى من بعيد. وجه جديد خيمة قليلة المعارف.

رحلنا عن جوفار مع طلوع النهار: كان ذلك، على حد علمى، مصادفا للأسبوع الأول من شهر أبريل. وأطلق إياد ناقتنا المريضة فى المرعى؛ وراحا يقتادانها ببطئ عبر السهل الصحراوى إلى أن غربت الشمس خلف جبل أجأ Ajja ، وهنا توقفنا أسفل قمم من الجرانيت رمادى اللون. هذه الصخور عبارة عن نتوءات وكهوف أكثر من النتوءات والكهوف المثيلة فى صحراء سيناء: قمم هذه الصخور الجرانيتية شبيهة إلى حد بعيد بالشراك والفخاخ. شب إياد نارا، حمى فيها مدقته المصنوعة من الحديد، ثم وسم بها

الناقة المريضة. - كنت قد أمضيت اليوم كله سائرا على قدمي؛ وكان العجيليان يهددانى طول الوقت، بالتخلص من زكائبى وجوالاتى، بالرغم من خفة حمولة تلك الزكائب والجوالات هى والأرز الذى أحضره مرجان، على الناقة. قطعنا مسافة أربعة أميال، شاهدنا بعدها نارا مشبوبة فى أحد المخيمات؛ وعندما وصلنا إلى ذلك المخيم شاهدنا قطيعا من الإبل الباركة لتمضية فترة الليل، فى الخلاء. فى حين كان راعى ذلك القطيع هو وأخيه يحتميان بضفة من ضفاف سيل من السيول، وكانا شبّا أمامهما نارا للحراسة. ومعروف أن كلاب الأعراب لا ترافق القطعان، فضلا عن أن الرعاة لا يستطيعون تبين ذلك الذى يكون وراء مثل هذه النار، ولذلك فقد اندهشا عندما سمعانا نلقى عليهما السلام: وهنا جثونا على ركبنا لنجلس بالقرب منهما، - هذا السلام هو الذى أقام التعارف بيننا وبينهما. وهنا قام هذان الصبيان بتوقيف بعض من نياقهم، وحلبوا لنا أسطالا عدة من الحليب الحار، وكانت من فوقه رغوة كثيفة. وسمعنا صراخ حيوان من حيوانات الليل، فى المنطقة التى تركنا فيها زكائبنا وجوالاتنا مع الناقة: وهنا نهض رفيقاى وراحا يجريان وفى يديهما مشعابيهما، لأن ذلك الطائر (الذى يطلقون عليه اسم سُرُّوق، Sirruk بمعنى 'لص') يحتمل أن يسرق شيئا من الأشياء. وبعد أن تناولنا عشاءنا حليبا، رقدنا فوق رمل السيل الناعم كى ننال قسطا من النوم.

مضينا قدما فى طريقنا مع طلوع النهار. وبعد مسافة قليلة شاهدنا قطيعا كبيرا من الكائنات البحرية ترعى أمامنا، وهى واقفة على سيقانها الطويلة فى الصحراء. - ورحت أتأمل أن هذه الكائنات (هنا فى نجد) قطعت كل هذه المسافة باستخدام أجنحتها القوية قادمة من بلاد بحرية بعيدة؛ ومع طلوع شمس الغد قد تذهب تلك الطيور البحرية إلى منطقة أخرى بعيدة عن تلك الشمس المحرقة فى الجزيرة العربية! فى البداية التبس الأمر على رفاقى وحسبوا تلك الطيور قطعانا من الأغنام، بالرغم من أن الصوف الأسود هو الذى يشاهده الناس هنا فى نجد: وبعد أن جهزا بندقيتيهما الفتيليتين، تقدما على أمل الاقتراب من تلك الطيور؛ ولكنى بدأت ألاحظ بالتدريج علما كبيرا فوق الصحراء متمثلا فى أجنحة تلك الطيور المفرودة، كما شاهدت أيضا رفيقىَّ

حملة البنادق، وهما عائدين نحوى، - سألتهما "من أين تجىء هذه الطيور؟" - "والله من مكة ،" [أى من منتصف البحر الأحمر] .

كانت تربة هذا المكان زلطية أثر عليها الجفاف الشديد تأثيرا كبيرا ، وكانت تلمع من تحت أقدامنا الحافية. كان الهواء يشبه اللهب فى ضوء الشمس. والرحالة الضعيف يتحتم عليه أن يكون راكبا طوال تجواله فى الجزيرة العربية ذات المناخ القاسى: وبفعل قسوة رفيقىَّ تحتم على أن أسير دوما على قدماى؛ وكانا هما اللذان يركبان الناقة. ولما كانا يسيران بسرعة، كان لابد لى من متابعتهما وأن يكونا دوما على مرأى منى، وإلا أسفر ذلك عن تخليهما عن النصرانى: وقد بلغت من التعب حدًا ، جعلنى أفكر بعد أيام قلائل من ذلك الجهد المضنى، أننى بحاجة إلى الراحة الأبدية. واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أصبحنا فى منتصف فترة الظهيرة، وعندها أحسست أن قلبى قد ينفجر من داخلى. وهنا نزف أنفى دمًا حارًا: وهنا ناديت على رفيقىَّ اللذين كانا يركبان الناقة ويسبقانى بمسافة كبيرة، وطلبت منهما أن يتوقفا ، حتى يمكننى أن أجلس لأنال قسطا قليلا ولو للحظة قصيرة، ولكنهما لم يلقيا بالا لندائى عليهما . وهنا بدأت أتناول أحجارا كى أستقبل بها ذلك النزيف الدموى، مخافة أن أصل إلى الأعراب وقميصى ملطخ بالدم: بالإضافة إلى أن ذلك يمكن أن يؤثر على رفيقى من الناحية المعنويه! - ترتب على هذه العجلة سقوط شىء من الدم على يداى. وعندما لحقت بهما ، وشاهدا يدىَّ الملطختان بالدم شداً لجام الناقة وتوقفا مندهشين! مرجان: "أليس هذا كافرا؟" - " ألستما كافرين، عندما تخليتما عن رفيق فى الطريق؟" راحا يمشيان بعد ذلك ببطئ؛ ورحت أنا أمشى بجوار الناقة. - " أردفت قائلا: أنتما تهجران رفيقكما ، فمن هو ذلك الرجل الشريف المحترم الذى يمكن أن يستقبلكما فى خيمته بعد هذه الفعلة؟" رد مرجان،" الحفاظ على العهد يكون بين المسلمين، وليس مع عدو من أعداء الله!"

راحا يتوقفان بصورة متدرجة ثم نزل إياد من فوق الناقة: وهنا قام مرجان الذى كان ما يزال فوق ظهر الناقة، بإشعال نار عن طريق الزّناد مستخدما قطعة من حجر

الصوان: حسبت أنه يشعل تلك النار من أجل غلايين التدخين، نظرا لأنهما كانا قد اشتريا شيئا من التبغ الحميدى الحلو، بجزء من النقود التى أعطيتهم إياها فى حائل: ولكن إياد أشعل فتيل بندقيته. قلت ،" ما هذا؟" قالا،" أرنب برى!" - "أين هذا الأرنب ؟ أقول: أريانى ذلك الأرنب البرى !" كان على إياد أن يضع بادئا فى فتحة البندقية؛ ولكنهما تعثرا فى كلامهما، وبقيا مرتبكين. قلت لهما:" هل تريان أنى مثل هذا الأرنب البرى؟ وحياة من خلقنا، فى اللحظة التى توجهان فيها إلىّ فوهة البندقية سوف ألقى بجثتيكما اللتان تشبهان جثث الأرانب البرية على الأرض، وقد فارقت الحياة: أبعد الكبريت عن فتحة البندقية!" وفعل إياد ذلك الذى قلته له. دخل علينا براد المساء؛ ومضينا فى طريقنا صامتين، والذى لا شك فيه أنهما تدبرا فى ذهنيهما الفارغين ذلك الكلام الحاسم الذى وجهه لهما ذلك النصرانى." قلت لهما: انتبها أيها الرذيلين! بمعنى، انتبها أيها النذلين الدنيئين ، إلى أنكما إذا ما دفعتمانى إلى نقطة اللاعودة، فإنكما لن تكونا أكثر من مجرد كلبين ميتين؛ وسوف آخذ أنا تلك الناقة المريضة!"

وصلت مغامرتى، مع مثل هذه الظروف التعسة، إلى حد الإحباط؛ لم يكن هناك أى منفذ للغوث غير الحدود السورية التى كانت هى الأقرب إلىّ. كانت سوريا تبدو لى بعيدة جداً وبشكل مخيف؛ ولكن فى وجود ناقة جيدة، حاصلة على ما يكفيها من ماء الشرب - نظرا لأن المبالغات تشجع الناس، شأنها فى ذلك شأن النجاة من الأخطار - لم أيأس من المضى قدما؛ يضاف إلى ذلك أن الطريق كان فى منتصفه محطة للسقيا والتزود بالماء، وإذا ما قدر لى العثور على الماء، فإن ذلك ينقذ حياة الناقة وينقذ أيضا حياة راكبها. - ترى، هل يتعين علىّ توجيه وجهى شطر تيماء، التى تبعد عن هنا مسافة مائتى ميل؟ - ولكنى عندما تراءيت العلامات الأرضية البارزة من هذا الجانب، فكيف لى بالتعرف عليها مرة ثانيه! - وإذا ما أمكننى العثور على أية أعراب متجهين غربا، فإن هؤلاء البدو سيكونون من البشر أعنى القبليين من البشر، هل يتعين علىّ المضى قدما فى اتجاه الشرق فى ديار لا أعرفها؟ أم يتعين علىّ المضى قدما فى هذه النفود المخيفة بحثا عن بدو الشرارات؟ أى اتجاه من هذه الاتجاهات، إذا ما اتجهت صوبه، قد أسقط فيه مغشيا علىّ قبل أن تمتد إلى يد الغوث الإنسانية؛ ألا يمكن أن

يبادر أولئك الأعراب الأغراب بقتل الغريب، بدلا من استقبالهم لى، إذا ما وصلت إليهم بهذه الطريقة؟ كانت عيناى تعانيان من بداية الإصابة بالرمد، ولم أكن أعرف المكان الذى يمكن أن أبحث فيه عن أولئك الأعراب، وكيف لى وسط هذه الصحراء الواسعة الشاسعة مترامية الأطراف، أن أعثر على أولئك الأعراب؟ ولو برحمة من الله وصلت إلى بئر من آبار الماء، قد أستطيع أنا الشرب قطرة، بقطرة بشكل أو بآخر، ولكنى لن أستطيع تقديم الماء للناقة كى تروى ظمأها.

جفت يداى فى الأحجار على أمل أن أغسلهما عندما نصل إلى الأعراب؛ ولكن الوقت كان يصادف موسم الربيع الذى تكون فيه الماشية الكبيرة (الإبل) جزين Jezzin (صائمة عن الماء) ، وفى مثل هذه الظروف لا يكون هناك ماء بصحبة البدو الرحل، نظرا لتوفر اللبن الذى يشربونه. وهنا حسب إياد أن الحيلة انقلبت عليه ! إذ ربما شكوت منه إذا ما وصلنا منزلا من المنازل، وبالتالى يصبح هو وزميله عرضه لاحتقار الناس وازدرائهم لهما. - "قال : انتبه وإذا ما وجدت جملا يبول، سارع واغسل يديك ببوله؛ ووالله، لو رأى أحد من الأعراب الدم على يديك، فلن يتناول معك أى نوع من الطعام." - إن بول الإبل يشربه رجال القوافل المدنية، فى حاله ندرة الماء والظمأ الشديد. أنا أعرف بعض تجار المدينة (المنورة) الذين كانوا يترددون على بدو الشرارات، والذين جاءوا فى منتصف الصيف من وادى السرحان، ولكنهم وجدوا بركة المياه جافة، وكانوا يعلقون عليها أمل الحصول على الماء (وكانت تلك البركة فوق مدينة معان) ، وهنا اضطروا إلى أن يملأوا سطلهم من بول الإبل ويضعون فى ذلك البول قليلا من الدم الذى أخذوه من أذن جمل من الجمال، ثم يشربون الماء بعد ذلك . وعندما رويت هذه الحكاية لبعض البدو، ردوا على،" الشرب بهذه الطريقة لا يفيد أى رجل من الرجال، ووالله فإنه سيموت على الفور، لأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى تقطيع أمعائه."

دخل علينا المساء، وسرنا مرة ثانية عن طريق قرية العجيلة el-Agella . وعند غروب الشمس شاهدنا قافلة أخرى من الإبل وكانت غير بعيدة عنا. وشاهدنا الرعاة وهم يجرون حول بعض من الإبل التى كانت تحمل أحمالا خفيفة، وكان الرعاة يوجهون

الإبل الكبيرة إلى مكان مستوبين تلين؛ نظرا لأن تلك الليلة كانت سماؤها خالية من النجوم وكان الطقس سيئا أيضا. وعندما أدركنا أولئك الرعاة كانوا قد أوقفوا إبلهم وراحو يهمسون لها كي يبركونها - إخ - إخ - إخ! وبركت الجمال الكبيرة على ركبة واحدة أو ركبتين، وبمساعدة الرجلين الخلفيتين يستطيع الجمل أن يبرك بسهولة ويسر، ثم يفرد الجمل بعد ذاك رجليه الأماميتين الواحدة بعد الأخرى، وهو يزعج من هم حوله بصوته بسبب خشونة الحصى الذى يسند عليه جسمه ، وبالرغم من هذه الآلام يحس الجمل بالراحة، ويروح يجتر غذاءه إلى أن تشرق شمس الصباح. والجمل يخلف وراءه أثرا (يشبه أثر الزواحف) (بفعل قدميه الأماميتين، ورجليه الخلفيتين)، ويظل هذا الأثر ويمكن التعرف عليه فى تربة الصحراء الجافة بعد ذلك بعام أو عامين. ورائحة الجمل قريبة من رائحة المسك، وتشبه رائحة الكلب إلى حد ما، والأجزاء الخلفية من الجمل تفوح منها رائحة البول؛ ومع ذلك فإن الجمل، من وجهة نظرنا، أجمل من الغزال، لأن الإنسان يرى فى هذا المخلوق كل رفاهة، فى الصحراء ، [انظر الجزء الأول ص ٢٦٠ -١] .

حلب لنا الراعيان كمية كبيرة من الحليب: وشربنا حتى الشبع وواصلنا شرب الحليب إلى فترة متأخرة من الليل؛ ومع كل رشفة من رشفات الحليب تلك، كنا نحس إنها سوف تتحول إلى دم حلو قبل حلول صباح اليوم التالى، ويتحول ذلك الدم إلى لحم خفيف وعضلات مفتولة. كان المطر يتساقط على ظهورنا ونحن جلوس حول نار الحراسة التى شبوها فى بعض العصى فوق الرمل الصحراوى؛ كان الجو يبرق ويرعد. وبعد أن أحسسنا بالتعب والإرهاق افترقنا وذهبنا إلى حيث وضعنا زكائبنا وأكياسنا، ونمنا فى عباءاتنا (بشوتنا) وريح الليل تهب علينا والمطر يتساقط علينا. جلست طويلا وأنا أفكر فى طلوع الصباح، على أمل أن يحسبنى رفاقى نائما. نام رفيقاى متخذين من الصخور ملجأ لهما، وسمعتهما يقولان - وكان سمعى الحاد عونا كبيرا لى فى هذه الأخطار، مثل حدة البصر عند البدو الرحل - أنهما فى ساعة متأخرة من الليل سيقومان بتحميل أشيائهما على الناقة ويذهبان لحال سبيلهما . تركتهما ينامان: ثم نهضت من مكانى وذهبت للمكان الذى كانت فيه النار.

نام الرعاة أثناء سقوط المطر، وخطر ببالى أن أحكى لهذين الراعيين متاعبى وضيقى. كانت أختهما ترعى معهما الماشية أيضا، ولكن فى وجود شخص غريب بقيت طوال فترة المساء جالسة وحيدة فى المطر، وبعيدة عن تلك النار البهيجة. وهاهى الآن تدفئ نفسها بتلك الجمار المتخلفة عن النار السابقة، ولكنها صاحت عندما رأتنى قادما نحوها، والسبب فى ذلك أن كل شىء فى الصحراء يمكن أن يكون مخيفا. "قلت لها: سلام، وأنى سوف أتحدث مع شقيقيها." جذبت هذه الفتاه أخاها الأكبر من كتفه، وراحت تدحرجه، واستيقظ الصبى على الفور، نظرا لأنه لم يكن غارقا فى النوم فى مثل هذا الطقس. وقف الجميع، وراح الصبيان يفركان عيونهما ويتساءلان، "أوه، ماذا – ؟ ولماذا لم يتركهما الغريب يرتاحا، وما هو سبب عدم ذهابى للنوم مع رفيقاى؟" هذان الصبيان كانا رجلين ولكنهما كانا وقحين، إذ لم يستطيعا أن يتبينا أننى كنت غريبا. قلت لهما: إن الرجلين اللذين معى هما من العنوز Annezy، وأنهما من العجيل، وأنهما أخذا نقوداً لتوصيلى إلى خيبر؛ ولكنهما كانا ينتويان التخلص منى، وربما تخليا عنى فى هذه الليلة." – "(قالا، وهما يمسكان فاهيهما من التثاؤب) اسمع يا أنت، نحن مجرد خدم صغار" ولا ندرى شيئا عن مثل هذه الأمور؛ ولكننا إذا وجدنا أنهما سيسببان لك ضررا فسوف نقف إلى جانبك. عد ثانية، وارقد كما كنت، مخافة ألا يعرفا مكانك وتضيع منهما؛ ولا تخف من أى شىء، لأننا قريبين منك."

استيقظ كل من إياد ومرجان قبل طلوع الفجر بساعتين تقريبا وراحا يتهامسان وقاما بتحميل الأشياء على الناقة الباركة ثم نخساها ووقفت الناقة دون إحداث جلبة." (سمعت إياد يهمس) أمش، وسوف نعود ثانية لأخذ البندقيتين." جلست ساكنا بلا حراك، وعندما تقدما بضع خطوات بعيداً عنى وقفت كى أخيب أملهما؛ وذهبت وبندقيتيهما فى يدى، إلى المكان الموجود فيه الراعيين، وأيقظتهما. وعندما عاد الرفيقان الخائنان فى الظلام لم يجدا بندقيتيهما: وهنا جاءا إلى المكان الذى كنت أجلس فيه مع الراعيين. – قالا، آه! لقد شك خليل فيهما، شكا فى غير محملة؛ إن كل ما فعلاه هو التحرك بضع خطوات بحثا عن مأوى أو ملجأ، نظرا لأن الريح والمطر كانا يضايقاهما فى المكان الذى كانا فيه." وتغلبا بكلامهما على الراعيين المسكينين، اللذين لم يعتادا مواجهة

ظروف من هذا القبيل؛ ونظرا لضعف حالهما بسبب المطر والطقس وقفا إلى جانب الطرف الأقوى، - أى أن خليل أساء فهم ذلك الذى قام به هذان الرفيقان." قال الراعيان: حسن، خذا بندقيتيكما، وأذهبوا جميعا وناموا حيث كنتم؛ واطمئن يا خليل. وأنتما لا تسببا له قلقا مرة أخرى: - ووالله، نحن لم ننم طوال هذه الليلة الليلاء!"

مضيت قدما مع العجيليين، عندما طلع علينا ضوء النهار؛ ركب إياد الناقة. وبعد أن مشينا مسافة ميل أو نحو ذلك هددنى إياد بالتخلى عنى فى الخلاء (الصحراء)؛ بل إنه هددنى علانية بالرمى بالرصاص، ورفع علىّ مشعابه كى يضربنى به؛ ولكنى هنا وضعت يدى على لجام الناقة وأمسكت به، وقلت: إذا تكرر منك ذلك الذى قلته فسوف أطرحك أرضا . لم يشارك مرجان فى تلك المشادة؛ إذ كان يبعد عنا مسافة طويلة، نظرا لأنه لم يكن فى حاله النفسى المعتاد ، نظرا للخلاف الذى دب بينه وبين إياد فى الساعات الأخيرة. [فى الخطاب الودى الذى يدور بين أفراد عشيرة البشر تراهم (فى كل عبارة) يستعملون إقرارات مغلّظة من قبيل؛ - مرجان: والله wellah ، يا ابن عمى Yaibnammy بمعنى 'فى الحقيقة، يا ابن عمى' ! إياد : الله ullah هاديك hadik ، بمعنى 'الله يهديك!' - وحياة wahyat رقبتك rukbatak بمعنى 'وحياة عنقك!' - ويش weysh عليك aleyk بمعنى' افعل ماشئت "] - "قال إياد: حسن ، لنترك ما نحن فيه حاليا يا خليل، وأنا أقسم لك أننا لسنا بعيدين هنا عن منزل من منازل الأعراب، إذا كان الراعيان قد صدقا فيما قالاه لنا."

مشينا ساعة عثرنا بعدها على قطيع من الإبل. وبينما كان رعاة تلك الإبل يحلبون لنا شيئا من الحليب، التقينا ذلك الشخص الذى يدعى عليا Aly ، الذى سبق له أن ضيفنا من قبل فى القُصّة Gussa ! ها هو موجود اليوم فى هذه المنطقة لجلب شىء من العلف الحيوانى. أخبرنا أن زوجة من زوجاته مريضة بالحمىً: "أليس معك علاج يا خليل، لهذه الأنثى؟ إياد: " خليل لديه كناكينا Kanakina ، أى أحسن أنواع أدوية الحمى، ولقد شاهدت هذا الدواء فى المدينة (المنورة)، وإذا ما شرب إنسان القليل منه فإنه سرعان ما يتحسن حاله: كم ثمن هذا الدواء ، يا خليل؟" - " ريال واحد." على:

"ظننت أنك ستعطينى إياه ، إنه شيء قليل من الدواء، ولن يكلفك شيئا، ولكنى سوف أعطيك أربع بنسات ؛ ألم أحييك منذ أيام قلائل بشيء من التمر؟" ومع ذلك، ونظرا لأن زوجته الشابة كانت عزيزة عليه، فقد قال على إنه سوف يتجه إلى منزل البدو ويحضر حملا ثمنا لذلك الدواء. وصلنا الى فريق (جماعة) Ferij من فرق (جماعات) الشمر عند الساعة التاسعة صباحًا. كان إياد يعرف بعضا من هؤلاء الأعراب ، وكانوا هم أيضا يعرفونه تماما: وعرفت منهم أيضا أن خيام بريتشان على بعد مسير حوالى نصف ساعة من هذا المكان، وأن مكان تلك الخيام على الجانب الأيمن من الطريق الذى نسير فيه. هذا المضيف الشمرى قدم لنا فى الإفطار أفضل تمور الجبل، ومعها سطلا من لبن الربيع . تركت حاجياتى بلا أدنى شك (بين الأعراب) ، وقصدت إلى فريق بريتشان، - على أمل أن يشرب رفيقاى القهوة هناك. وكان بعض الجراد يطير ويحط على الأعشاب من حولنا.

عندما كنت جالسا فى العصر مع البريتشان ، أثناء وجود إياد فى خيمة أخرى، وعندما كان مرجان بصحبة الناقة، تحدثت إليه عن رفيقاى الخائنين، ووجهت كلامى أيضا إلى فرَّاح Ferrah ، ذلك الرجل العجوز الذى سبق أن التقيته هنا من قبل." سألتهما ، ما رأيكما؟ وأنا موجود اليوم فى دياركم وتحت سقفكم." ردًا على بعضهما ردًا متجهما" إذا كان خليل قد طلب حمايتنا فنحن يتعين علينا إعطاءه ذلك الحق." ولكنهما فى غضون فترة وجيزة، عادا عن قصدهما الطيب، مخافة أن يقال عنهما: إنهما وقفا إلى جوار النصرانى ضد المسلم:' ، أنهيا كلامهما على النحو التالى،' أنهما لا يمكن لهما التدخل بين الإخوان (بمعنى رفاق الرحلة).' وقالا لإياد، عندما عاد،' طالما أنه حمل أمتعتى الخفيفة، وطالما جئت من حائل إلى هذه المنطقة ماشيا على قدماى، وطالما أنه حصل على خمسة ريالات لتوصيلى إلى خيبر، وطالما أن إياد كان يهددنى فى كل مكان بالتخلى عنى،؛ فإن عليه أن يعيد ثلاثة ريالات، ويتركنى هنا مع الأعراب، ويأخذ الريالين الآخرين أجرا له، وينصرف بعد ذلك لحال سبيله.' ورد إياد ،" إذا كنت أنا الملام، فذلك يرجع إلى ضعف ناقتى." "هنا تعجبت، لماذا إذن أخذت خمس ريالات نظير نقل مسافر على هذه الناقة الضعيفة؟" ضحك البدو؛ وقال البعض: إننى ينبغى ألا

استعمل كلمات قاسية من هذا القبيل مع رفيق طريقى، - "يا خليل، الأعراب يحبون الكلام الجميل." أنا أعلم أن ذلك صحيح، وأن حقى الواضح الجلى يبدو أقل مما يستحق أمام كلام ذلك الرفيق المعسول. - إياد: " والله، أنا أسلم بذلك." "قالا: لقد سمعت أنت بنفسك وعده، وما عليك إلا أن تعود مع أخويك Khuak ، أى رفيقا الطريق، وسوف يكون الحال على ما يرام." - هذا هو كلام العرب الفارغ! وغربت الشمس؛ ورحل رفيقاى، وسرعان مالحقت بهما.

كان مضيفنا الشمرى قد ذبح ذبيحة الكرم: وقدم لنا هذا الطلى فى طبق كبير، من فوق أرز مسلوق فى حساء اللحم. ولكن المضيف جلس بعيدا ولم يشاركنا تناول الطعام، ولم يشاركنا أيضا حديث المساء؛ ولا أعرف إن كان ذلك بسبب استيائه من وجود كافر فى خيمته أم لأنه كان يكره رفيقاى اللذان كانا من العنوز. قلت لعلى: إنه سوف يأخذ دواء الكناكينا على سبيل الهدية، ولذلك وجدته يقف إلى جوارى وفى صفى ضد إياد؛ أجاب "سيفعل ذلك ". - وعجبت لأن عليا كان يتصرف بتلقائية تامة وهو فى خيام هؤلاء الأعراب ولكن والديه كانا بدويين ، ولما كان على قد تُرك يتيما فى القُصَّة، فقد رباه الناس فى تلك القرية. واشترى من أهل القرية بالأجل حملاً عمره عام . كى يدفع لى ثمن الدواء. والناس هنا يطلقون على الحمل اسم طلى Tully ، ويقولون للحمل الأنثى: روخال rokhal .

أحضر على طليه لى صباح الغد، عندما كنا نوشك على الرحيل ؛ وقال لى: "يا خليل، هذه هى هديتى لك!" - " وأنا أتطلع إلى أن تفى بما قلته الليلة الماضية؛ وطالما لم تبر بوعدك ولم تتمسك بكلامك، فلن أساعدك فى أمر يسير، فمن ذا الذى يهتم بى وأنا أموت!" هذا الرفيق، الذى لم يأخذ حزنى بعين اعتباره، أحس باحتقار النصرانى له: كانت زكائبى وجوالاتى فوق الناقة، وراح يحملق فيها وهو يغمغم. بدأ نور الفجر يطل علينا من تلك التلال الجرداء، ولكن المكان كان خلوا من أى صوت من أصوات المخلوقات فى تلك الصحراء المملة المرهقة؛ ومشيت أنا خلف الراكبين، إياد ومرجان.

كانت حواف الزلط حادة؛ وكانت من تحت قدماى تتوهج كما لو كانت وجارا من وجارات النار؛ وكان المسدس (الذى كنت أخفيه تحت ملابسى) يتدلى فوق صدرى؛ وكان الهواء خانقا، ولم يكن لدينا ما نشربه. كان من الصعب علىَّ مواصلة السير مشيا على قدماى، بالرغم من بطئ خطى الناقة التى كانا يركبانها: وإن هى إلا غمزة صغيرة حتى راحت الناقة تعدو وغابت عن بصرى! الصبر أمر صعب على البشر! ، أنا إذا ما أثبت لهما أنى مسلح فلربما أجبرهم ذلك على تسليم الناقة؛ ولكن من هو ذلك الذى يمكن ألا يخاف من أن يصبح لى رفيقا فى أية رحلة من الرحلات؟ وأنا إذا ما استثرتهما (على افتراض أنى مجرد من السلاح)، فلربما يهجمان على بسلاحيهما؛ وبالتالى يتعين على القضاء على حياتهما! – لكن هل سيكون ذلك عدلا؟ – لم أستطع البت فى هذا الأمر فى ضوء ضعفى البدنى وضعفى الروحى والمعنوى أيضا؛ وخطر ببالى أن الإنسان يتعين عليه التخلى عن الحياة ولا يتخلى عن العدالة، ويلوث روحه بالغضب. واصلت السير ممسكا بمشعابى ومسلياً به نفسى، – ورحت أحدث بالمشعاب أثرا فى التربة الزلطية؛ وذلك تخوفا من هذين الرفيقين الرذيلين، إذ ما ركبا ناقتهما وتخليا عنى فى الصحراء. خطر ببالى أنى يمكننى العودة إذا ما اقتفيت أثر ذلك الخط الذى رسمته على الأرض باستخدام المشعاب، لأعود فى النهاية إلى خيام بريتشان والأعراب. شاهدت الشمس وهى تقترب من وقت الظهيرة؛ وكنت أتطلع إلى كل واجهة من الواجهات الصخرية، على أمل أن أرى خلفها أو حولها إبلا ترعى أو منزلا من منازل البدو الرحل.

بعد مسافة ساعة أخرى شاهدت إبلا تصعد ماشية ببطئ عبر أرض مجوفة مسقى من مساقى المياه. التقيت رفاقى فى تلك المنطقة: فقد توقفا للتحدث إلى الرعاة، الذين سألونا عن الصحراء التى خلفناها وراءنا. هؤلاء البدو الرحل الذين يعيشون فى الصحراء الواسعة الجدباء يكونون مولعين بالأخبار؛ هؤلاء الرعاة عندما يرون مسافرين مارين بهم فى الصحراء يهرولون إليهم وينادون عليهم،' ما هى الأخبار، يا أيها الناس! – خبرونا عن التربة، التى مررتم بها ومشيتم خلالها؟ – من هم الأعراب الذين يسكنون تلك الأرض؟ – وأين هم مقيمين حاليا؟ – ومن أين يشربون؟ – وما هى

وجهتهم؟ - وما هو العشب الذى شاهدتموه؟ - وما نوع التربة التى بيننا وبينهم؟ وهل عثرتم على أية أماكن من الأماكن الجرداء (المحال)؟ - ومع من قضيتم الليلة الماضية؟ - وهل سمعتم عن أى شىء جديد، أم أنكم جئتم إلى هنا من قبيل المصادفة البحتة؟' وقد جرت العادة أن يقول ساكن الصحراء كل هذه الأشياء بصورة تلقائية ومفاجئة، حتى عندما يركض بجوار راحلته؛ وهو لا يخفض صوته (إلا عندما يكون قريبا ممن يستمع إليه) حيث يقول: 'سلام عليكم.' - وهنا يفطن المسافرون إلى استقبال ذلك البدوى استقبالا معقولا؛ ويحاولون الرد على تساؤلاته كلها بقولهم: والله Wellah يا فلان Fulan ! أنت رجل بحق.' ومع كل راعى يلقاهم، يتحتم على المسافرين أن يقولوا له 'وهم متبرمين' : الأشياء نفسها التى سبق أن قالوها لغيره من الرعاة، وينهون كلامهم بقولهم وأنت waent سليم selim بمعنى 'وأنت فى سلام' - والراعى يندر أن يودع المسافرين، وبخاصة إذا ما أعطاهم ظهره؛ أو قد يقف بعيدا، مُنتصب القامة وغير مبال، ويترك المسافرين يمضون لحال سبيلهم.

وقفت هنا ووضعت يدى على الناقة؛ ومن الأراضى المرتفعة التى وصلنا إليها شاهدنا سهلا أخضرا وسيعا أمامنا. كنا ظمآنين تماما، وأشار إياد بإصبعه إلى بعض الصخور البعيدة؛ ولابد أن نجد فيها بركا للماء.' وبخاصة (بعد سقوط الوابل الأخير): ولكنى لاحظت فى تلك الأرض [وهذا أدق بكثير من ذلك الذى يقوله هؤلاء البدو غير المتمرسين] إنها لم يسقط عليها مؤخرا أى شىء من ماء المطر، فى تلك الأيام. لم نعثر إلا على مياه حمراء اللون فى بركة من البرك، - وكان حال ذلك الماء سيئا على نحو عافته الناقة ورفضت الشرب منه. شاهدت فى هذا المنطقة أيضا موقع مخيم من المخيمات الشتوية التى هجرها أصحابها: والدلائل على ذلك المخيم كانت تتمثل فى الخنادق الضحلة، والأحجار الكبيرة التى وضعوها حول الأماكن التى نصبوا فيها بيوتهم وخيامهم. وهنا شاهدنا الإبل، التى كانت تخفيها الأرض المنخفضة، كما رأينا بعد ذلك قرية كل خيامها مصنوعة من الصوف الخشن! نظر رفيقاى إلى تلك الخيام المنخفضة وقالا: "هذه الخيام لابد أن تكون من خيام قبيلة حرب!" وعندما اقتربنا من تلك الخيام قالا متعجبين: "ولكن كم هى بيوتهم ممتدة بالقرب من بعضها البعض ! إنهم من الحطيم بكل تأكيد."

التقينا واحداً من الرعاة وهو يسوق إبله فى اتجاه الماء وحييناه - "سلام! ويا أنت! من هم الأعراب الذين يسكنون فى المنطقة التى جئتم منها؟" - رد علينا الراعى رداً صريحا، "أنا رجل من قبيلة حرب، أسكن مع هذا الفريق (الجماعة)، وهم من الحطيم." - بدأ إياد يتشكك! لأن هذا الرجل لو كان من حطيم قاسم (أعداء الدولة فى خيبر) لشكل خطرا بحق وحقيقة. ومع ذلك لم يكن بوسع هؤلاء الحطيم التراجع إلى الخلف؛ ، إذا ما ابتعد عنهم فإنهم قد يأخذون منه ناقته الضعيفة على وجه السرعة. وهنا واصل العجيليان سيرهما كما لو كانا ضيفين يحلا على منزل من منازل البدو الرحل. وهنا قفزت علينا كلاب المخيم وهى تنبح نباحا مسعورا؛ وبينما كنا نسير بالقرب من الخيام وأمامها، لم يكن الرجال والنساء الجالسين داخل تلك الخيام يحركون أى شىء سوى عيونهم، وينظرون إلينا فى صمت بوصفنا مسافرين غرباء نمر على ديارهم. توقفنا أمام الخيمة الكبيرة، من بين ذلك الصف من الخيام الذى كان يضم حوالى عشر أو اثنتى عشرة خيمة.

نزل كل من مرجان وإياد، ووضعا اللفافات على الأرض وربطا رجلى الناقة الأماميتين. ثم مشينا مشية الضيوف، فى اتجاه النصف المفتوح من الخيمة، وهو المكان المخصص للرجال؛ وهذا المكان يطل على الجهة اليمنى: وقسم الرجال هذا لا يتحتم أن يكون دوما فى ذلك الاتجاه. دخلنا، وكان ذلك هو بيت الشيخ. وكان هناك خمسة أو ستة رجال جالسين على الرمل داخل الخيمة، وكان الفضول يبدو على وجوههم جميعا (وكان سبب ذلك أن البعض من هؤلاء الرجال كانوا يعرفوننى)! وقفوا لاستقبالنا، وراحوا يطيلون النظر إلىَّ فى صمت ، كما لو كانوا يقولون: " ألست أنت ذلك النصرانى؟"

الضيف البدوى المترحل - وهذا بعيد عنه تماما - يدخل بيت الكرم الغريب عليه، وهو يحس بالاستحياء، وينبغى أن توحى نظراته بشىء من قيمته ومقامه الرجولى. جلسنا فى الخيمة، ولكن هؤلاء المضيفين غير المتحضرين - وهم من الحطيم - بقوا على صمتهم غير المريح. بل إنهم جعلوا ذلك الصمت غريبا علينا أيضا؛ وهنا راح

رفيقاى يضربان الرمل بمشعابيهما وينظران نحو الأسفل: وهنا راح الحطيميون يحملقون نحو الجانب الطويل وهم ينحنون علينا. أخيرا، واحتقارا منى لسكوتهم، ونظرا لشدة الظمأ الذى كاد أن يحرقنى ، قلت لذلك الشخص البليد الذى كان جالسا إلى جوارى، وهو أيضا حطيمى ثقيل الظل، وهو أيضا شقيق المضيف الذى نزلنا عنده، "أسقنى Eskiny ماء ma ، وهنا وقف ذلك الحطيمى على غير رغبة منه، وأحضر سطلا من الماء العكر غير النظيف. وعندما أخذت مجرد رشفة من ذلك الماء غير الصالح للشرب: ("قال بحقد وغل): رويت Rueyht بمعنى 'هل رويت ظمأك؟" طلب رفيقاى الماء، وجرى تمرير السطل عليهما . "قال الحطيم: اشربوا. فلدينا المزيد من الماء." أخيرا وضعوا أمامنا طبقا من المريسى وقليلا من اللبن : وبعد ذلك خرجوا عن صمتهم." (قال جالب الماء) أظن أننا نعرفك؛ ألست أنت النصرانى الذى جاء إلى القصيم قادما من عند ابن الرشيد؟"

هؤلاء الحطيم نزلوا فى تلك المنطقة بالأمس فقط: وهم يطلقون على سطح التربة (الجرانيتية) اسم غرلُفّة Ghrolfa ؛ والصفا Sfa هنا عبارة عن جبل تبدى لنا فى اتجاه الشرق فوق سهل من السهول، يبعد عنا حوالى سبعة أميال؛ وهؤلاء الحطيم يتعين عليهم إرسال من يجلب لهم الماء من ذلك المكان البعيد. ارتفاع المنطقة هنا كان حوالى ٤٦٠٠ قدم. وكانوا يدخلون القطعان المراح أثناء غروب الشمس؛ وبالتدريج بدأنا نشاهد معتوق Maatuk ، ومعتوق هذا، هو اسم مضيفنا؛ رأيناه وهو يحاول الإمساك بحمل صغير، وهو يقول كلاما عربيا معسولا: 'يستحيل، لا والله ، يستحيل أن نحتمل ذلك.' "أو هو! أيها الشاب، دعنى لوحدى، أليس من حقى أن أفعل بحلالى ما يحلو لى؟" ثم حمل الذبيحة إلى قسم النساء. – وبعد ذلك بساعتين أحضر معتوق الطلى المطبوخ، موضوعا فوق صينية كبيرة من فوق كمية كبيرة من التمن (الأرز) المسلوق. كاد ينوء بذلك الحمل، وراح يلتقط أنفاسه، نظرا لأن ذلك المضيف كان مصابا بمرض الربو.

قال إياد ونحن جلوس لوحدنا،" سنتركك هنا يا خليل، والقصيم أمامك خلف ذلك الجبل؛ هؤلاء أناس طيبون، وسوف يرسلونك إلى هناك." – "ولكن كيف لك بعبور

العواجى، وأنت ليس معك قربة ماء؟" - " حسن، سوف نتجه إلى زرغرود Thurghrud كى نحضر لك قربة من قراب الماء." - " الله يعرف خيانتكما، وسوف يلومونكم الأعراب على تخليكما عن رفيقكما، كما أن الباشا سيعاقبكما على ذلك؛ وكما سرقتم منى بعض الريالات فسوف يخصم هو أيضا ويصادر بعضا من متأخراتكما." - " لا تقل مثل هذا الكلام يا خليل! لا تضايقنى بمثل هذا الكلام، ولا تشكو عن رحيلنا : ولا تجعل مضيفينا يسمعون كلامك وإلا سوف لا يسمحون لك بالمضى قدما فى رحلتك."

شاهدت معتوقا يتحرك عندما كان الباقون نائمين؛ - خطر ببالى أن ذلك المضيف يمكن أن يكون رجلا طيبا، بالرغم أنه من الحطيم وقصدت إليه وقلت له: إنى أود التحدث معه. - " هل نجلس هنا، وتقول ماتشاء،" - والسبب فى ذلك أن العرب يظنون أنهم يحسنون تدبر الأمور فى عقولهم الضعيفة، عندما يجلسون جلسة مريحة على الأرض. حكيت له كيف أن رفيقاى جعلانى أقطع الرحلة إلى هذا المكان سيرا على قدماى (حوالى مائة ميل) بدءا من حائل؛ وحكيت له كيف حاولا التخلى عنى ونحن فى وسط الصحراء، بل إنهما هددا بقتلى: وهل يتعين على المضى قدما معهما بعد ذلك؟ - لا! فأنا اليوم ضيف فى خيمته؛ طلبت من معتوق أن يحكم بينى وبينهما، ثم يرسلنى بعد ذلك إلى القصيم فى أمن وسلام. - "سوف أفعل كل ذلك؛ بالرغم من أنى أنا نفسى لا أستطيع ولا أقدر على إرسالك إلى القصيم، ولكن بعضا من أهل حرب الذين لا تبعد خيامهم كثيرا، عن هذا المكان ناحية الشرق هم الذين يستطيعون ذلك؛ وقد تعثر بينهم على شخص يقوم بتوصيلك إلى القصيم. الآن، وعندما يطلع النهار، وترى هذين الرفيقين على استعداد للرحيل، فما عليك إلا أن تقول لى، دخيلك dakhilak ، وعندها سأهب لنجدتك، وإذا قاوما فسوف نحتجز منهم الناقة." - " أعطنى يدك، وأقسم لى على ذلك." - "قال: نعم، أنا أقسم على ذلك، والله! Wullah "ولكنه سحب يده إلى الخلف؛ إذ كيف له بالاتصال والتواصل مع نصرانى! - ولكن أثناء الليل، وبينما كنت نائما، كان رفيقاى يتشاوران أيضا مع معتوق: وكان ذلك التشاور بين أناس ينتمون لدين واحد، وباعنى معتوق لهما نظير ملئ غليون بالتبغ (الدخان) الحميدى الحلو.

وعندما طلع النهار وضع الرفيقان زكائبى وجوالاتى على الناقة، ورأيت إياد وهو يعطى معتوقا شيئا من التبغ الحميدى، ذهبى اللون، مما جعل الحطيمى يشكره على ذلك. ثم تناولا عباءتيهما (بشتيهما) وبندقيتيهما، وحثا الناقة فهبت واقفة فى مكانها: وأمسك مرجان اللجام فى يده وراح يدلنا على الطريق، وهو يقول نسلم neslim عليك aleyk . أرجو أن تكون عادلا." ، "إخ! رد على معتوق، اذهب معهما (واستغرب الأمر) ، أى عدل تريده أيها النصرانى؟" – " أين وعود الليلة الماضيه؟ ألا تبر بوعدك أيها الحطيمى؟ أنا لن أذهب معهما." ولكنى اكتشفت أن غضبى سيكون بلا جدوى؛ نظرا لوجود شىء من التخابر بينهم .

بعد أن ابتعد عنا كل من إياد ومرجان، صاح فىَّ الجالسون فى الخيمة،" عجل بالسير ورائهما ووراء زكائبك وجوالاتك، وإلا سيتوها منك تماما." – "أنا دخيلك، وأنت أقسمت على ذلك؛ ولكنى سوف أبقى هنا." – "لا!" – وهنا بدءوا يدفعونى (نظرا لأنهم كانوا من الحطيم). وهنا أمسك معتوق وتدا من أوتاد الخيمة وأتى به ناحيتى؛ فى حين جرى شقيقه الوغد نحوى قادما من الخلف وفى يده سيف قصير." تعجب معتوق، ها! سوف أكسر مخُّه." – " أقتله – أقتله!: (على حد قول الشباب الآخرين الذين كانوا من قبيلة حرب ومن قبيلة عنزة ويقيمون فى هذا الفريج)." يصيح الشقيق، اتركه لى وسوف أشج أنا رأس هذا النصرانى اللعين." "قلت لهم: أنا لا أستطيع التصارع مع عدد كبير من الناس، بالرغم من أنكم لستم سوى أنذال؛ ألقوا أسلحتكم أرضا. ومن فضلك أيتها المرأة الطيبة! [الكلام هنا موجه إلى زوجة معتوق التى كانت تنظر من خلال ستارتها ، وكانت تستنكر ذلك العنف وتدينه] صب لى شيئا من اللبن؛ واسمحى لى بمغادرة هذا المكان اللعين." "قالت لهم: آه! يا لهذا الخطأ الذى ترتكبونه وأنتم تطاردون الغريب لتبعدوه عنكم! هذا حرام، وأنت يا معتوق لا تنس أن ذلك الغريب دخيلك ." وهنا عجلت تلك المرأة لتصب لى شيئا من اللبن كى أشربه." قالت: اشرب ! وناولنى السطل، وهى تقول اشرب! وإن شاء الله يحدث الخير؛" وهنا غمغمت تلك المرأة بمثل حلو من أمثال هذه الديرة ودٌّ widd الغراريب (الغريب) el-ghrarib أهله ahlhu ، بمعنى "رغبة الغريب تكون فى أهله؛ أو عجِّل بعودة الغريب إلى أهله."

"قلت: انهض يا معتوق، وتعال معى كى تساعدنى فى استدعاء العجيليين مرة ثانية، فقد خارت قواى ولن أقوى على اللحاق بهما وحدى." ، " سأت معك ، ووالله، سوف أنصفك معهما." وبعد أن قطعنا مسافة ميل ، قلت له: أنا لا أستطيع المشى أكثر من ذلك، ولابد أن أجلس أرضا هنا؛ اذهب أنت واستدعهما إن استطعت أنت ذلك" إنسانية الحطيم الطبيعية إنسانية عظيمة: هذا الحطيمى الذى كان ضعيفا هو نفسه، طلب منى أن أرتاح؛ وراح يجرى فى أثرهما بأقصى سرعة وينادى عليهما وأشار إلى رفيقاى السابقين؛ وعادا إلينا." قلت: يا معتوق هذه هى نهاية رحلتى فى هذا اليوم: إياد سوف يعيد إلىّ هنا توجيه السلامة الصادر عن عنيبر، وسوف يعيد إلى أيضا ثلاثه ريالات؛ يضاف إلى ذلك أنى لا أريد من أحد منكم أن يكثر الكلام معى، لأنى رجل مرهق ومتعب وقد وصلتم بى إلى نقطة اللاعودة." – معتوق (لإياد): "ما الذى تقوله فى ذلك؟ يبدو أن رفيقكما متعب ولا يستطيع السير أكثر من ذلك، فهل ستحملانه على الناقة؟" – " سوف لا نحمله؛ نحن لا نستطيع سوى الركوب على هذه الناقة بين الحين والآخر؛ ومع ذلك سوف أحمله – المسافة كلها تستغرق نصف يوم فقط – لنصل إلى زرغرود، وسوف نتركه هناك!" ورفضت هذا العرض . معتوق: "حسن، سيبقى معنا؛ وسوف أقوم بتوصيل خليل الى حرب عند ابن ناحال Nahal ، وذلك نظير المبلغ الذى ستعيدانه إليه وأنا أقول لكما: أعيدا إليه نقوده وليكن المبلغ ريالين، ومعهما الورقة الصادرة من ابن الرشيد" – ماذا، يا رجل! إنها ملكا له." إياد: "أنا على استعداد لتسليم الورقة لخليل، وعليه يجب أن يكتب له ورقة بعدم مسئوليتى وتبرئتى أمام الباشا ؛ ولكنى لن أعطيه حتى ريالا واحداً من النقود، فقد أنفقتها كلها ، – ماذا تقول أيها الرجل! أتود أن تأخذ ملابسى؟" – معتوق: "لن نتركك ترحل هكذا! أعط خليل ريالا واحداً، وسلمه توجيه السلام ." إياد: "حسن، أنا موافق: " أخرج من جيبه كراون، "هذا هو كل ما تبقى معى؛ ولعل خليل يعطينى أربعة بنسات، لأن هذا الكراون يزيد بمقدار أربعة بنسات على المجيدى التركى." – "ربما تظن أنك نجوت وهربت نظير أربعة بنسات، التى هى ملك لى أيضا: وأنت يا معتوق خذ هذه النقود على سبيل العربون arrabun من الريالات الثلاثة نظير نقلى، حسبما قلت: إلى ذلك الجزء من قبيلة حرب."

وتسلم المبلغ، ولكن ذلك الشقى جعلنى أدفع الريالين الباقيين على الفور. حصلت بناء على ذلك، على توجيه السلامة الصادر عن عنيبر، وتلك كانت مهمة جداً لسلامتى فى هذه البلاد المتوحشة. وأصر إياد على الحصول على ورقة تفيد عدم مسئوليته، وكتبت له:" إياد، العجيلى، البجيدى، من البشر، الذى وافق بناء على أمر من عبد الله السروان، على أن يتقاضى خمسة ريالات نظير توصيلى إلى حائل، وفى حائل تحدث معه عنيبر، نائب ابن الرشيد، لإعادتى إلى خيبر مرة أخرى، نظير خمسة ريالات أخرى، وها هو يتخلى عنى هنا فى العول، أسفل الصُّفا Sfa ، فى ديرة الشمّر." وهنا أخذ العجيليان الختم من يدى ، وختموا به عشرين مرة ليضفوا على تلك الأداة المزيد من اليقين: ثم جعلهما عتيق يعودا إلى المنزل ومعهما أمتعتى. ثم رحل إياد ومرجان بعد ذلك؛ وهما غير صادقين مع رفيقهما.

هؤلاء الحطيم كانوا متشددين وذوى قلوب مكلومة، ولا يعرفون تحضر البدو: الأدهى من ذلك أن معتوق باعنى لقاء شىء من التبغ وعمّر مخه مدة ساعة أو ساعتين بذلك المخدر؛ ثم قال بعد ذلك: يا خليل دخيلك، أليس معك، وأنا أرجوك، شيئا من الدخان ؟ آه! لا تقل أنك ليس معك شىء منه أعطنى شيئا من ذلك الدخان وسوف أعيد لك الريالات الثلاثة، أنقلك على ظهر ناقتى إلى ابن ناحال." – " ليس معى دخان، حتى ولو قطعت رأسى." – "خليل، املأ غليونى مرة واحدة، وسوف أتغاضى عن كل شىء!" – لو كنت قد اشتريت شيئا من الدخان من حائل ، لسارت الأمور على مايرام."

فى هذا الفريج الحطيمى كان هناك بيت لواحد من العنوز وثلاثة بيوت لأشخاص من قبيلة حرب . سألنى بعض هؤلاء الغرباء فى العصر عن القبائل التى ينتمى إليها ذلك الرفيقان اللذان تخليا عنى. قلت: " العواجى والبجاجى من البشر." – "ألم تقل لنا ذلك من قبل، إنهما لم يفترقا! لقد صادرنا ناقتهما لأنهما قوم gom (أعداء) كما أننا لم نأكل معهما عيشا وملحاً." قال أحدهم: " عندما تكلما ظننت أن كلام أصغرهما كان يبدو هكذا، نعم، والله لقد كان من البجاجى Bejaijy . " – " بوسعك أن تلحق بهما." – " هل تدلنى على الطريق الذى سلكاه؟" – " لقد قصدا بيضاء النثيل Nethil ، ومنها

سوف يتجهان إلى العواجى Auajy . "كان إياد مكلفا بمهمة من خبير تقضى أن يقوم بإحضار ناقة السروان وناقة البيشى Bishy . [بالرغم من أن أولئك البدو كانوا أعداء للدولة (الإمبراطورية العثمانية) إلا أن جمَّالة العجيل كان يسمح لهم بصفة خاصة برعى ماشيتهم فى مراعى العواجى] . فى ذلك الركن من الصحراء كان الربيع يانعا ووفيرا (هذا العام) ، وذلك بعد سقوط أمطار الخريف [الجزء الأول ص ٦١٣ ، ٦٢٦] ، إلى حد أن الإبل كانت ترقد أرضا بعد امتلاء بطونها عند الظهيرة." - "(قال أحدهما للآخر) كيف يتأتى ذلك ؟ كيف يمكن أن تكون رفيقا لى إذا ماجاءت الإبل عائدة هذا المساء؟ هل يمكن لنا أن نركب نياقنا ونذهب لمطاردتهما واللحاق بهما: إنهما سيسيران ببطئ لأن ناقتهما ضعيفة؛ وإن شاء الله سنلحق بهما، ونذبحهما." - " (قلت): انتبه لقد أخبرتك عن مسارهما، ويمكنك أن تأخذ الناقة وتلحق بهما إذا ما استطعت ذلك، ولكنك لن تستطيع أن تصيبهما بأى أذى." رحت أفكر فى رحيلهما إلى أن دخل علينا الليل: ولكن الإبل لم تعد.

لم تكن لديهم آخر أخبار أعراب بن ناحال Nahal . تكلموا كثيرا فى وجودى عن ابن ناحال؛ وقالت الحريم : - وكن أرق الناس قلوبا فى المخيم،" خيمته كبيرة، كبيرة، جداً! وهو ثرى، ثرى جداً، - أوف! كل شيء هناك كرم فى كرم: وعندما تصل إلى خيمته قل: ' يا ابن ناحال، 'أرسلنى إلى القصيم،' وسوف يرسلك إلى هناك."

كان كل من معتوق وشقيقه الحسود بهيًّا الطلعة؛ أما أختهما - التى كانت تقيم فى بيت معتوق - فكانت واحدة من طيبات الطبيعة؛ وهذا ليس أمرا شائعا (بين الحطيم). كانت تلك الأخت تمشى مرتدية ملابس جيدة؛ ولم يكن غطاء الوجه يحجب جمالها: وبالرغم من أنها كانت فى سنوات ربيع عمرها إلا أنها لم تكن متزوجة! كان ذلك الرجل العنزى النحيف، الذى هو من أهل الشمال، والذى كان يجلس طوال النهار فى بيت الشيخ، يتنهد تنهيدة طويلة كلما ظهرت أمامه تلك المرأة - كما لو كانت حلما من أحلام دينهم؛ وكان يشدنى من عباءتى (بشتى) ويقول : " هل رأيت لتلك المرأة شبيهة من قبل !" هذه الشيخة، عندما كانت تستمع إلى آهاتهم! وإلى تأوهاتهم!، كانت

تنظر إليـهم بعينيـها الجريئتـين، وتبتسم دون تقزز أو احـتقـار. - وبـالرغم من أن هذه المرأة كانت فـارعة الطول إلا أن (الحطيميات) لم يكن بينهن من يباريها فى ذلك، أو فى الزواج! ولكن البدو الفقـراء يخلطون دمـاءهم بدم الحطيمـيـات الجـمـيـلات عن طريق الزواج؛ ولقد سمعت إياد ذلك الفاسق، يسـخـر من الحطيميات بأن راح يُصـغِّر صـوته كمـا لو كـان صـوت امـرأة، - " وهنا تجيء وتقـول للرجل فـى تواضـع: "تزوجنى، لأنى حامل، واحمينى من اللوم؛"

كان فى ذلك المنزل حطيمى عاد إليه بعد غيبة طويلة: سألته، "أين كان طوال تلك الفترة؟" - "والله، كنت فى قـرية الحيات؛ وهـى لا تبعد عن هنا سـوى مسير يوم واحد ركوبا على الناقة، ولقد تزوجت هناك امرأة (سـوداء)." - "ولماذا ؟" - " والله كنت راغبا فيـها تماما." - " وكم دفـعت لها مـهرًا؟" - " أنا لم أنفق عليـها أى مـبلغ." - "ولا هى أعطتك شـيـئـا؟" - " إى بالله! أعطتنى بعـضـا من النخـيل ." - "إذن ، هى التى دفـعت لك!" - "والله ، لم لا؟" - "ألن يكون أبناؤك سـودًا مـثل العـبـيـد، يا عُـبـيـد؟" - " إنـهـا نحاسية اللون، وبالتالى سيـميل لون بشرة أطفالها إلى الاحـمرار." وما هى علاقتك بزوجات القرية؟" - " إخ سأزورها من حين لآخر؛ وعندما أصل إلى هناك سوف أذهب إلى بيتى:" - وهنا يصيح ذلك البدوى المترحل، "اقرأ يا خليل، لتتبين إن كان ذلك الذى فعلته أنا شرعى أم غير شرعى؟" [قرية الحيات الزنجية تقع فى الجنوب الشرقى من حرة (خيبر)؛ والطريق من قرية الحيات إلى المدينة المنورة يمر بهجرة (كفر) الحويطات العامرة بالنخيل. ملاك الأرض البدو (من قبيلة العنزى)، فى هاتين المستوطنتين جرى طردهـم مـؤخـرا من هاتين المسـتـوطنتـين على يدى عـبـيـد بن الرشـيـد، نظرا لعـدم انصياعهم لإرادة الأمير، فقد سبق لهم استقبال جيرانهم من قبيلة عتيبة - والمعروف أن عتيبة كانت من أعداء بن الرشيد - باعتبارهـم دخلاء (حماة) لهم، ومن منظور أنهم يستطيعون حمايتهم من ابن الرشيد] .

كانت الإبل عزاب (ترعى) وكانت ناقـة مـعتـوق مع تلك الإبـل؛ ولم نستطـع رؤية أو مـقـابلة بن نـاحـال Nahal إلا بعـد عـودة تلك الإبل ، وذات صـبـاح حل علينا بعض

الصلوبة راكبين على حميرهم، وأعطاهم الناس أوانى وغلايات (التى غالبا ما تصنع من النحاس الأصفر) ليأخذوها معهم لإصلاحها وإعادتها لهم. وعثرت على اثنين من الصلوبة عندما كانا يخصيان حمارا خلف الخيام! - (الأعراب ليس لديهم سوى الخيول فقط). قال الغجريان (الصليبيان) وهما يضحكان : "هذا الحيوان كان أشقى من المطلوب، ولذلك فهما يجعلانه أكثر عفة!" ووجدت صليبيا عجوزا جالسا فى خيمة معتوق، وكان رجلا قوى البنية له لحية رمادية اللون؛ كانت عينا ذلك العجوز مركزتان نحوى. قلت له: "من أنت؟ " - " كنت أفكر فى أنى لو التقيتك وحدك فى الخلاء لقتلتك." - " ولماذا تقتلنى يا أيها السمكرى؟" - " أقتلك طلبا للملابسك، والأشياء الصغيرة التى قد تكون فى حوزتك، أيها النصرانى؛ - "ألا تخاف من لقاء الذئب لك فى الصحراء؟" - الصلوبة لا يسيئون إلى أحد، ولا أحد يسئ اليهم (انظر الجزء الأول صفحة ٣٢٤) . أنا أسألك عن شىء: " هل صحيح أنكم تأكلون الغنم أو الإبل التى تنفق من تلقاء نفسها؟" - " نحن نأكلها، وكيف لنا نحن الذين ليست لدينا ماشية، بأكل اللحم فى منازل الأعراب بغير هذا الطريق! والله، يا خليل، هل هذا حلال أم حرام؟"

بعد ذلك بيوم أو يومين كان معتوق قد انتوى الذهاب إلى ابن ibn ناحال Nahal ، وقال لى : " هل آخذك معى إلى قرية الحيات؟ أم أتركك فى قرية سميراء Semira أو سليمة Seleyma . "ولكنى رددت عليه،" إلى ابن ناحال؛" وكانت زوجته الطيبة، نوير Noweyr ، تلك المرأة المسكينة، وهى تطل من بين قماش خيمتها، تتحدث مع زوجها وتوصيه بى خيرا كل يوم؛" قالت: أوه! أنت لست طيبا، وأنت يا معتوق ! لماذا تؤخر خليلا وتعطله؟ بر بوعدك، وود Widd الغريب el-ghrib بلده beledhu عن aan الأجنبى el-ajnaby (هذه هى لازمة شائعة بين نساء البدو ومعناها "عجل بالغريب وهو فى طريقه إلى أهله" أو قد يكون معنى هذه اللازمة، "قلب الغريب فى بلده هو، وليس فى أرض غريبة.") النساء الطيبات جيرانها، كن يرددن تلك العبارة الدينية المتشددة من عبارات الجزيرة العربية، "لكم دينكم ولى دين؛ كل إنسان مقتنع بدينه ." كانت نوير واحدة من أولئك النساء الطيبات اللاتى يجلبن الخير لأسرهن. فى بعض الأحيان كنت أرى وجهها وقد شحب مثل لون الصلصال، وذلك عندما تكون جالسة داخل الخيمة بلا حجاب؛

بالرغم من إنها لم تكن فى صحة جيده إلا أنها كانت تذهب إلى الصحراء كل يوم، وذلك بدءا من فترة الضحى إلى ما قبل دخول العصر؛ وعندما كنت أسألها عن المكان الذى كانت تكد فيه طوال تلك الفترة؟ كانت ترد علىّ ، وهى تتنهد ،" يتعين على إحضار ماء من الصفا اليوم، وفى اليوم التالى يتعين على تفقد الإبل؛ وإلا ضربنى معتوق." كان كرم معتوق أكثر من أى بدوى آخر نزلت أنا عنده: كانت نوير تعطينى لبنا أشربه من اللبن المخصص لها؛ وسمح لى معتوق بأن أمد يدى عندما أكون جوعانا وآخذ شيئا من شرائح المريسى الطازج الذى صنعتـه نوير، وذلك أثناء فرد ذلك المريسى كى يزداد جفافا فى ضوء الشمس فوق قماش الخيمة المصنوع من الصوف الخشن. وعندما كانت الإبل تعود إلى المنزل كان معتوق يحلب للغريب سطلا كبيرا، ويقول: إن هذا من قبيل الصدقة، أو من قبيل البر الإنسانى، طلبا لمرضاة الله. خلال تلك الأمسيات كنت أشاهد الماعز وهى تجرى وتقفز ، بواقع ثلاث عنزات فى كل مرة، إذ كانت تقفز فوق أسنام الإبل، ولم تكن تلك الإبل تلقى بالا لذلك وهى باركة تجتر ما أكلته من طعام فى ضوء القمر، إلى أن تحط الغربان فوق تلك الأسنام.

كان معتوق خائفا من مسألة نقلى هذه، وذلك تخوفا من ابن الرشيد: وحكوا لى حكاية غريبة. منذ عام أو عامين نقل هؤلاء الحطيم على إبلهم بعض الغرباء، الذين كانوا يطلقون عليهم اسم "النصارى"! – وأنا لا أعرف إلى أين نقلوهم . عندما علم الأمير بذلك ، لم يتوان عن معاقبتهم عقابا قاسيا، بل وأخذ ماشيتهم. – وأضافت نوير "إى، هذا صحيح، ياخليل!" – "لكن أى نصارى! ومن أين جاء هؤلاء النصارى؟" – "والله، لم يستطيعوا الرد على ذلك، كان النصارى مجرد نصارى حسبما قيل لهم." وأذهان العرب خاوية فى تلك الصحراء الخاوية، ولا يلقون بالا لكل ما لا يتعلق بحياتهم. "كلمه "نصارى" قد لا تعنى على ألسنة هؤلاء البدو أكثر من "الأجانب الذين لا يدينون بتلك العقيدة المتشددة." معتوق:" ابن الرشيد ليس صديقا لك، وهذه البلاد خطر عليك؛ ابق معى يا خليل ،إلى أن يجىء موسم الحج ثم عد ثانية، فى الربيع القادم." – "ويمكن لك طوال هذه المدة أن تقوم على أمر رعى إبلى." – " ولكن كيف لى بذلك أثناء فصل الصيف القائظ الطويل؟" – " عندما يدخل الحر يكون بوسعك الجلوس فى خيمتى

أو شـرب اللبن؛ وسـوف أعطيـك زوجـة." - انشـرح صـدرى، عندما سمعت كلامه، لأن الأعراب لم يعودوا ينظرون إلىّ كغريب ثرى بينهم! وعندما نطق الكلمة الدالة على 'زوجة '، كتم هذا الرجل المحترم أنفاسه! - هل بوسع معتوق تقديم بنت من بنات الحطيم لتكون زوجه لرجل أبيض؟ وعليه أردف قائلا:" سوف أعطيك زوجه حربية. (*) " Harbia .

"يقول معتوق: منذ سنين مضت وصل إلى هذه المنطقة من البلاد مغربى [يشبه خليل] ، - والله، لم يقل لنا شيئا كثيرا؛ ولكن الرجل كان يشترى ويبيع ، وخلال فترة من الزمن وجدنا حاله يروج يوما بعد يوم. كان ذلك الرجل يعيش مع قبيلة حرب، واتخذ لنفسه زوجة من بنات تلك القبيلة؛ وكان لدى ذلك المغربى فى البداية قطعانا وإبلا، وتزايدت القطعان والإبل بسبب اتجار ذلك المغربى فى السمن وفى القماش . هذا المغربى لقى ربه، وأبناؤه مازالوا يعيشون مع فخذ من أفخاذ قبيلة حرب، وكلهم أحوالهم على ما يرام فى الوقت الراهن." جلسنا فى الخيمة وراحوا يسألونى، أين توجد أمتك؟' أشرت إلى الشمس الغاربة، وقلت: إننا نبحر إلى هناك بواسطة السفن. - "(قال أحدهما للآخر) : السفن زيمات Zymat ؛ ولكن ، يا خليل، لقد بلغنا أن الأمة الكافرة تعيش فى الغرب ! وأن الخطر الكبير على الإسلام، سيهلّ قادما من الغرب: كم عدد الفيضانات التى تقع بلادكم بعدها، لقد بلغنا إنها سبع فيضانات (بحار)؛ وعلى بعد كم رحلة بعد أرض السلطان تقع بلادكم؟" - " شرب القهوة، بالرغم من أن الحطيمان أحسن حالا من جيرانهم البدو، ليس له مكان فى خيام شيوخ الحطيم، كما أن هذه العادة لا تنتشر بينهم : لم يكن هناك أحد فى فريج معتوق. والعتبان هم أعداء أعراب بن الرشيد؛ ثم أشار بيده ناحية الشرق،" قال معتوق: كل الخطر يكمن فى هذا الاتجاه!" - هؤلاء الحطيم ، (على العكس من أهليهم الذين يسكنون بالقرب من المدينة المنورة) لا يصنعون الجبن.

(*) نسبة إلى قبيلة حرب (المترجم)

الشخص الحر هو الذى يحمل ممتلكاته الدنيوية على كتف واحدة:
وها أنذا قد تخلصت من أحمالى التى لا لزوم لها والمتمثلة فى كتبى ، وذلك قبيل خروجى من الجزيرة العربية، ولم (أحتفظ معى إلا بكتاب "جغرافية الجزيرة العربية" alte Geographie Arabiens Die وكتاب زهمى Zehme المعنون "منذ مائة عام هجرى" Arabien Seit hundert Jahren) وقمت بوضعهما أو بالأحرى بدفنهما فى جحر ضب؛ وأهلت الرمل عليهما ، ثم وضعت من فوقهما حجرا كبيرا. - وفى هذا الجيل أو فى الجيل القادم قد يقوم جمل من الجمال أو المطر الجارف باكتشاف ذلك العمل المظلم الذى قام به النصرانى. وبعد ذلك بستة أيام كانت خيام البدو الرحل جاهزة فى منطقة العول Aul ، وبالتالى قد يرحلون فى صبيحة اليوم التالى؛ ووافق معتوق على نقل الغريب إلى ابن ناحال ؛ وفيما يتعلق بنوير زوجة معتوق فقد كانت ترفع وجهها الشاحب، مرات عدة ، فوق ستارة النساء، وتروح تحث زوجها وهى تقول: " إخ، يا معتوق! لا تؤخر خليل أو تعطله على غير رغبة منه؛ عجل بإرسال الغريب إلى بلده."

عادت الإبل؛ وعندما طلع النهار، قال معتوق: هل أنت جاهز، سوف أحضر الناقة؛ ولكن صدقنى أنا لا أعرف مكان ابن ناحال." وضعت نوير فى خرج زوجها جلداً (قربة) صغيرة مملوءة سمناً؛ وقالت: هذه للغريب. وركبنا الناقة، ورافقنا شقيق معتوق فى الرحلة؛ وهمس بآخر توصياته فى أذن رفيقى، وكان ذلك الهمس بطبيعة الحال، فى غير صالح النصرانى: - "إى! إى!" قال معتوق. ركبنا جملا (الذى يندر استعماله فى هذا الجزء من البلاد)، والذى يعد ركوبه متعبا إلى حد ما. فى ذلك الوقت، كان قد مضى على شروق الشمس ساعة واحدة؛ وهنا يممنا وجهنا شطر جبل الصفا sfa . وبعد مسير ساعتين شاهدنا منزلا آخرا من منازل الحطيم، وشيخ هذا المنزل هو ابن ibn داموك Dammuk ، وكانت إبلهم ترعى فى منطقة الرعى. ونادى معتوق على راعى الإبل كى يسأله ويعطيه آخر الأخبار؛ ولكن اتضح أنهم لم يسمعوا بعد آخر أخبار بن ناحال.

كانت الأرض خلفنا عبارة عن صحراء جرداء؛ مررنا ببعض الصخور الجرانيتية ، التى كانت على شكل خليج، وكانت رأس ذلك الخليج متجهة ناحية الجنوب الشرقى،

أى صـوب مكة على وجـه التـقـريب: ولذلك يمكن اعـتـبـار ذلك الخليج مكانا من أمـاكن الصلاة. ولكن معتوق رد على قائلا:" هذه الأعمال، هنا من صنع الأقدمين الذين عاشوا فى هذه الديار - بنى تعمير Taamir . "شاهدنا جحرا كبيرا من جحور الضِّببة، وهنا نزل رفيـقى ليعرف "إن كـان الضب داخل الجحـر أم لا:" وعندما فعل ذلك، وراح يغنى انبسـاطا وفـرحًـا، أدى ذلك إلى إزعـاج قطيـع من الغـزال. وراح مـعـتـوق يقـرض على أسنانه فى الوقت الذى راح الغزال يهرب فرارا منا فى اتجاه الأمام ؛ ثم صاح معتوق كما لو كان رجلا بريا، وهنا راح الغزال يعدو بأقصى سرعته. ثم وقف القطيع بعد ذلك فى وسط السـهل الصـحـراوى الزلطى، وراح يلقى علينا نظرة مثل الأنسات الخـجـولات، ليتبين ذلك الذى أثار الخوف فى داخله. - فى سوريا ، شاهدت أفراسا" كانت سرعتها تفوق سرعة الغزال؛" ولكنى لم أتاكد من ذلك الذى نعده نحن، زيفا فى كلام العرب، عن هذا الموضـوع. والبدو الرحل يصطادون الحيوانات باستـعمـال كلاب الصـيد، السـريعة التى شـاهدتها وهى تسبق الأرنب البرى خـلال لحظات. سـألت مـعـتـوقا "أين بندقيـتـه الفتيلية؟ - أجابنى ، أنه خسرها أثناء غزو قامت به عتيبه عليهم - وكان ذلك منذ عام مضى ؛ وهو يركب معى حـاليا وليس معـه سـوى هذا السيف القـصـيـر ، الذى استعمله شقيقه ذات مرة فى تهديد النصرانى. وراح يتغنى بطريقة الصلاة، [بواحدة من قصائد عنترة القديمة، ويلحن يشبه طنين الذباب] طوال عدونا خلال الصحراء ونحن فوق ظهر الجمل، وكان يضبط نغمات صوته على الصوت الناتج عن اهتزاز عدة (سرج) الجمل . قال لى مـعـتـوق (متـفـاخـرا مـثل شـيخ من الشيوخ): إن الأسـر البـدوية التى فى الفريج الخـاص به تـعـيش مـعـه منذ سنوات عـدة. وقـال أيضـا: إن كل فرجـان حطيم ابن برّاك (بقيادة الشيخ قاسم) تتجمع فى منتصف الصيف وتنصب خيامـها بالقرب من وادى الرمـاح " حـيث، على حـد قـوله، يمكن العـثـور على الماء تحت الرمـل، وذلك على عـمق مشعاب واحد." - لقد شاهدنا انتشار الحطيم على نطاق واسع: وهناك بعض من بنى رشيد فى أقصى الشمال بالقرب من الكويت!

يظهـر أمـامنـا جبـل منحدر من الجرانيت يطلقـون عليـه اسـم جنَّـة Genna ؛ وعن يسارنا يوجد المسقى الذى يطلقون عليه اسم بنانه Benana ، وهو يقع فى المسافة

بين جبلين. وبعد الظهر مررنا بقطيع كبير من إبل الحطيم: ولكن هذه المنطقة تعد أسوأ مناطق الرعى (باستثناء منطقة سيناء) التى شاهدتها فى الصحراء؛ إذ لا ينمو فى هذه الصحراء سوى أشجار الشيح الرومى. وقام الرعاة بجلب شىء من الحليب لنا من نياقهم؛ ولكن ذلك الحليب كان مذاقه يشبه مذاق الشيح الرومى من حيث المرارة [والشىء نفسه ينطبق على لبن الماعز التى ترعى فى هذا المكان أيضا] . وراح الأولاد يتساءلون بطريقتهم العنيدة،" الخبر El-khabar ؟ ويش Weysh العلوم el-ellum ؟ بمعنى ما هى أخبار المكان الذى جئتم منه، وما هى الأخبار السائدة هناك ؟" - "حسن، الحمد لله." - " وأخبار عرب فلان وتركان الذين يخيمون خلفكم وبجانبكم، أين هم الآن؟ والشيخ فلان أين يخيم حاليا، ومن أين يشربون؟ هل لديكم أخبار عن أى غزو من الغزوات ؟ وما هى أخبار البلاد التى مررتم بها؟ - خبرونا هل هذه البلاد خراب أم جرداء ، أم أن ما فيها يكفى لرعى الماشية؟ وما هى الأعشاب التى شاهدتها ، أنت يا معتوق، فى تلك الأراضى؟ وما هى أخبار الأمير؟ وأين تركتم أنتم عوائلكم؟ - أوه! والفرجان والأعراب الذين أتيتم على ذكرهم، وما هى أخبار مرعاهم؟ " - معتوق: "وماهى الأخبار التى يمكن أن تعطونا إياها، من هم الأعراب الذين يخيمون بعدكم؟ وما هى أخبار الغزو والغزوات؟ وأين ابن ناحال؟ وأين خيامكم؟

وبعد مسير ساعة أو ساعتين أخريين مررنا بقطيع آخر من إبل الحطيم: ولم يكن يرعى ذلك القطيع سوى صبيين فقط! وأحدث معتوق إشارة، راح خلالها يملس بيده على لحيته، عندما بدأنا نتحرك مبتعدين عن الصبيين؛ ثم قال:" والله، لو كانوا أعداءنا لأخذنا كل هذه الإبل !" ولكن كل هذه المنطقة تعد مفتوحة لبدو عتيبة الذين يخيمون خلف وادى الرماح. وبعد ذلك بوقت قصير وصلنا إلى منزل آخر من منازل الحطيم، وهنا نزلنا عن الجمل لنرتاح. - سكان هذه الخيام كانوا يعرفونى، وقالوا لمعتوق: "إننى تجولت مع واحد من قبيلتهم، اسمه غروسيب، وأن اسمى كان خليلا، وأن أعراب قاسم اشتروا منى أدوية، ووجدوا تلك الأدوية مطابقة لما قلته لهم؛ وأننى واحد من أولئك الذين لم يخدعوا الأعراب ." أما فيما يتعلق بابن ناحال ، فقد بلغهم أنه انتقل عبر الوادى "إلى حدود عتيبة، (تلك الحدود التى تخلى العتبان عنها مؤخرا بسبب خوفهم من ابن الرشيد). كان ارتفاع الأرض هنا حوالى ٢٤٠٠ قدم، وكانت تطل على وادى الرماح.

مع طلوع النهار، استأنفنا ركوب الجمل، وبعد مسير ساعة من الزمن وصلنا إلى مجموعة أخرى من خيام الحطيم. كل الصحراء من حولنا كانت قاحلة، بل تكاد تكون محالاً، ومع ذلك فقد كانت تغص بمجموعات من خيام البدو الرحل، فى مثل هذا الوقت من العام. عثر معتوق على أخ غير شقيق له فى ذلك المنزل، وكان يعيش مع أمه العجوز؛ ونزلنا عن جملنا لنقضى معهما بعض الوقت ! أحضر ذلك الرجل لنا حليبا من الماعز ورجانى أن أشرب منه، وقد جلب لنا الكثير من ذلك الحليب، لأن ضيافته لنا كانت مجرد حليب ليس إلا؛ قال: السمن لم يؤخذ بعد. ومعروف أن الزبد يشكل نقود البدو المساكين، إذ يشترون بذلك الزبد الملابس المطلوبة لهم، وكذلك الأشياء المنزلية الأخرى؛ من هنا فقد جرى العرف أن يقوم هؤلاء البدو بتقديم لبن الخض وليس الحليب ، للضيوف. - ركبنا جملنا ومضينا فى طريقنا؛ كانت صحراء (الجرانيت) عبارة عن رمل وتربة فى هذه المنطقة؛ وفى هذه التربة، تنبت أفضل أنواع المراعى بعد سقوط أمطار الشتاء، وبناء عليه بدأت تطالعنا الأعشاب الجيدة. شاهدنا قطعان الإبل وهى ترعى أسفل جبل جنة Genna ، وعبرنا إلى رعاة تلك القطعان لنستطلع الأخبار منهم؛ ولكن معتوقا كان حاسما، ومضى قدمًا نظرا لأنه لم يكن يعرف أولئك الرعاة." قلت: هناك إبل سوداء فى الخلف، وبالتالى فإن هؤلاء الرعاة من قبيلة حرب؛" [معروف أن الماشية الكبيرة التى فى الجنوب والتى لدى القبائل التى تعيش فى وسط الجزيرة العربية مثل حرب، والمطير، والعتبان يغلب عليها اللون الأسود، وليس منها حيوان واحد أشهب اللون] . ورد علىّ معتوق، بأن ذلك الكلام صحيح تماما، وتعجب من أين لى بمعرفة تلك الأشياء التراثية عن الصحراء. واتجهنا صوب أولئك الرعاة ووجدناهم فعلا من قبيلة حرب. علمنا من الشباب أن ابن ناحال قد نزل اليوم فى منطقة السليمى؛ وحلبوا لنا لبنا طازجا. وتركناهم لنشاهد بعدهم رءوس النخيل فى قرية من قرى الصحراء، ومررنا بجبل من جبال المصائد والفخاخ يطلقون عليه اسم شيباد Chebad .

ظهر أمامنا فوق سهل رملى منخفض، جبل منبسط يطلقون عليه اسم دبى Debby ؛ وعلى بعد مسافة كبيرة خلف ذلك الجبل شاهدت الساحل الأزرق لجبل واسع وعريض يطلقون عليه اسم العلم el-Alem . "قال معتوق: خلف هذا الجبل يقع الطريق المؤدى

إلى المدينة المنورة – والرحلة تستغرق مسير أربعة أيام بالناقة." واصلنا مسيرنا طوال فترة الظهيرة؛ وشاهدنا قطيعا آخرا من الإبل يرعى عند سفح الجبل؛ اتجهنا صوب رعاة ذلك القطيع ونزلنا عندهم لشرب المزيد من الحليب ولاستطلاع الأخبار الجديدة. كان أولئك الرعاة من قبيلة حرب أيضا، ودلونا على ممر صخرى فى الجبل يوصلنا إلى ابن ناحال. ولكنى سمعت منهم خبرا غير موات مفاده: أنَّ بنى على (أى كل أفراد قبيلة حرب الذين يوجدون ناحية الشمال وناحية الشرق اعتبار من هذه المنطقة) كانوا ينسحبون جنوبا، وأن البلاد كانت خالية، أمام غزو كل من ابن سعود وعتيبة!' – إذن، كيف أستطيع المرور إلى القصيم؟ شاهدنا بعد ذلك جمعا كبيرا من الخيام السوداء المنصوبة عند سفح جبل دبى Debby ' كانوا؛ من عوف Auf ، ' على حد قول الرعاة' – وهم يأتون إلى هنا قادمين بعد المسيرات الطويلة التى يقومونَ بها فى أراضى الحجاز الجرداء فيما بين الحرمين ؛ وسبب مجيئهم إلى هنا، أنهم نمى إلى أسماعهم أخبار جودة موسم الربيع فى هذه المناطق. – والعوف El-Auf! كما سبق أن شاهدنا،: اسم كريه حتى بين أشقائهم ؛ لأن من بين العوف النشالين ومنهم أيضا السلابين والنهابين الذين ينهبون الحجاج المساكين ويسلبونهم أشياءهم. وبذلك – أكون قد وصلت طبقا لكويليه القبائل الغربية، إلى أطراف العالم (المعروف) ! لأن واحداً من أقوال هؤلاء العوف المقفاة يقول' العوف El-Auf وراهم warrahum ما ma فى fi شوف shuf ، بمعنى أنه لا يوجد أى شىء بعد العوف.' واقع الأمر أن ما رأيته كان عبارة عن عالم صحراوى له شكل جديد ومخيف أيضا ! إبل سوداء، وجبال غير صحيحة؛ وتيه شاسع من الرمال يطل على المدينة الكئيبة!

جنة عبارة عن علامة أرضية عند رعاة البدو؛ وفى أعلى ذلك الجبل توجد برك من مياه المطر. وعندما نزلنا إلى الممر المنحدر التقينا رجلا من رجال الصحراء كان يركب ناقة ويقتاد معه فرساً: كان يحمل على كتفه شلفة خيَّال متأرجحة. وهناك تراجع معتوق

(*) استعمل المؤلف كلمة Ghradran ليدل بها على الكلمة العربية 'غدران' Jhudran وواحدة 'غدير' . (المترجم)

فوق سرج (عدة) الناقة؛ ذلك الرجل المسلح الذى يشبه السحرة، كان مفاجأة لنا، وربما كان عوفيا. (*) تحدانا ذلك الرجل بشكل عام، وراحت الصخور تعكس صدى صوته المجلجل: ويبدو أن ذلك الرجل، كان صائما طوال حياته كلها فى ذلك المكان الفظيع الذى يدعى الحجاز، ويقع فى المنطقة ما بين الحرمين، ولم يتبق لذلك الرجل بعد ذلك الصيام الطويل، سوى ذلك الصوت المرعب المخيف! - كان وجهه يوحى بالحدة، وكان محياه الأسمر يشبه جبهة الخنفسة. ظن أن زكائبى فيها غنيمة؛ كما وجد فىّ أيضا غريبا." يصيح الرجل، خبرنى من أنت ؟" - رد عليه معتوق ردًا متواضعا،" حطيمى أنا، وأنت ؟" - " أنا حربى، إخ! يصيح ذلك الرجل، ومن هو، هذا، الذى معك؟" - " شامى يتاجر بين الأعراب." - "إى حسن، وأنا أرى أيضا أنه شامى، من الملابس التى يلبسها ." ثم سحب فرسه إلى جواره، وهنا وضعت يدى على المسدس الذى كان يتدلى على صدرى ،مخافة أن يشهر ذلك الميت، حربته فى وجهنا من فوق ظهر الفرس. وهنا شد معتوق لجام الناقة ليركن على الجنب؛ ولكن الحربى ضرب جمله، ومضى قدما.

نظرنا من أعلى الجبل على مكان يشبه السهل، وشاهدنا خيام الأعراب. "قال معتوق: يا خليل الناس هنا جُهَّال، ولن أقول لأحد منهم: "إنه نصرانى؛" ولا تقل ذلك أنت أيضا. والله، قد لا أذهب معك إلى بيت ابن ناحال، ولكنى سوف أوصلك إلى الأعراب الذين ينصبون خيامهم بالقرب من خيامه." - "سوف تنقلنى إلى ابن ناحال نفسه. أليس هؤلاء القبليون متشددين فى الدين؟ وأنا لن أنزل أمام أية خيمة بعد ذلك؛ وأنت أيضا لن تتخلى عن رفيقك." - "ولكن يا خليل، هناك مشادة قديمة بيننا وبينهم بشأن الإبل ؛ أنا إذا ما ذهبت إلى هناك، فلربما صادروا منى هذه الناقة." - " أنا أعلم جيدا أنك لا تقول الحق." - " لا، بحق من خلق هذا المشعاب!" - ولكن البدوى أقسم أن يكف عن الكذب ! كان محمد النجومى وأخوه قالا لى فى خيبر،" من المفيد أن خليلا لم يلتق أحدًا من قبيلة حرب؛ وإلا لكانوا قد ذبحوه: " - تكلموا عن حرب فيما بين المدينتين المقدستين، وقالوا: إنهم أشقياء سود مثل العبيد، وليس لهم من حرفة سوى الركض خلف قوافل الحجاج وهم يقولون: بقشيش bakshish !

(*) نسبة إلى بدو عوف . (المترجم)

هنا وصلت إلى حرب فى المنطقة العليا، هؤلاء القبليون من قبيلة حرب يدفعون الخراج لابن الرشيد! ولكن المفارقات التى من هذا القبيل لا يمكن تبينها من شخص جاهل خلال يوم واحد. وفى حرب التى تعيش فى نجد، اكتشفت وجود العقلية القديمة النابعة من الجزيرة العربية بينهم أكثر من العنوز Annezy . يضاف إلى ذلك أن أفضل أفراد العجيل فى خيبر كان شابا من شباب قبيلة حرب، وكان يمتاز باللطف والشهامة، وخفة الظل؛ وكان لا يرى إلا نادرا فى المقهى الذى يشرب فيه عبد الله السروان قهوته، ومع ذلك كان يأتى إلى العم محمد النجومى بين الحين والآخر، نظرا لأن محمد النجومى كان متزوجا من امراة من نساء قبيلة حرب، ولكن من فرع غير الفروع النجدية. ذات مرة قال ذلك الشاب متفاخرا: " نحن بنى سالم أفضل منك؛ لأننا ليس لدينا أى شىء فرنجى [أى من الاستعمالات الأجنبية، أو البضاعة والسلع الأجنبية التى يحضرها الأتراك والحجاج الأجانب إلى الأماكن المقدسة] ، فيما عدا هذا التبغ." - وهنا قصد معتوق إلى تلك الخيام الثلاثة أو الأربعة، التى كانت منصوبة فى مكان منعزل من الوادى؛ ووقف معتوق أمام تلك الخيام ثم نزل من فوق الناقة، وقال: إنه سوف يتركنى أمام هذه الخيام. وهنا خرجت إلينا امرأة فى مقتبل العمر، وجاءت إلينا فى المكان الذى كنا نجلس فيه إلى جوار الناقة بعد أن أنزل عنها أحمالها؛ كما جاءتنا أيضا امرأة شابة من البيت المجاورلنا . كانت تلك المرأة سعيدة ومبتهجة، بين الأعراب، وهى ترتدى ثوبها الجديد، ثوبها الأزرق المطرز بالصوف الأحمر. - ألم تكن تلك هى العروس ، فى ثوب زواجها، وهى تنتظر ذلك الشاب البدوى الحظيظ؟ اقتربت منا برقة الصحراء وجمالها، والنضارة تتجلى فى خديها، - وقد يكون اقترابها هذا هنا من قبيل التواضع المحبوب؛ وكانت تشبه الوردة الجميلة وسط هذا الجدب والخواء البشرى. سألتنا ، بكلمات امرأة شابة، 'من نكون؟' ورد معتوق على ابنة حرب،" سلام، وإن كان لديكم أحد مريض هنا، فهذا هو حكيم من الشام؛ هذا هو واحد من أولئك الذين يتجولون ومعهم أدويتهم بين الأعراب، وهو صاحب مهارة عالية: وهو يبحث عمن يمكن أن ينقله الى القصيم. سوف أترك هذا الشامى بينكم ،لأنى لا أستطيع التقدم به أكثر من ذلك ، وأنتم سوف تنقلونه إلى مسافة أبعد." وهنا استدعت هذه الشابة المرأة

الكبيرة كى يتشاورا فى الأمر؛ ورداً على: انتبه! الرجال فى الخلاء (الصحراء) ونحن هنا نساء وحدنا. وكان من الأفضل أن تتجه إلى ابن ناحال! - وها هى خيمته الكبيرة منصوبة هناك!" - معتوق: "سوف أتركه هنا؛ وعندما يعود (رجالكم) فى المساء يتدبرون الأمر." ولكنى جعلته يركب معى على أمل الوصول إلى ابن ناحال.

نزلنا عن ناقتنا أمام بيت ابن ناحال الكبير؛ ودخلنا بطريقة الغرباء وبتحية الغرباء أيضا. كان ولد بن ناحال وبعض الشباب جالسين على الرمل فى تلك الغرفة الوسيعة المصنوعة من الصوف الخشن. جلسنا أرضا وراحوا يتهامسون فيما بينهم "إننى كنت واحداً من الجنود الهاربين، التابعين للدولة، [من المدينتين المقدستين أو من اليمن] : ثم سمعتهم يتهامسون "لا، أنه ذلك النصرانى !" - ولم يتوجهوا إلينا بأى سؤال إلا بعد شرب القهوة.

كانت هناك امرأة بدوية فارعة الطول تقف خارج خيمة ابن ناحال الكبيرة! وتفوهت ببعض الكلمات الجارحة، ولم يلق لها أحد بالا. وكانت تشكو من ضعف الكرم وتحلله فى هذه الأيام! وكان ابن ناحال [تلك الروح الضعيفة تحت البشرة الناعمة] قد قصد إلى خيمة أخرى كى يبتعد عن عويل تلك الزوجة الذى يشبه عويل الرجال. وقد جرت العادة أن يتحمل البدو الغضب البشرى فى صبر وتحمل؛ والبدو يطلقون على الغضب البشرى اسم زعل zaal ، كما لو كان ذلك منزل عليهم من عند الله." والأعراب يستخفون أيضا بغضبهم ، كما أن كلماتهم العنيفة تكون قليلة الوزن . وإذا ما عنف بدوى مترحل شيخ قبيلته، فإن مثل هذا الشيخ لا يفعل أى شىء، بحكم نبله، سوى أن يهز كتفيه ويمضى لحال سبيله، أو قد يصطبر عليه إلى أن يثور عليه الآخرون ويعنفوه ولكن الألسنة السليطة، فى المدن التى يعيش فيها العرب، لا يمكن أن تصل إلى مثل هذا الحد من العنف أو السب: لأن من يتعدى على الشيوخ فى حائل، أو فى بريدة، يوسعه جنود الأمير ضربا.

كان صوت طحن حبوب البن فى الهاون المخصص لذلك يدوى مجلجلا فى خيمة ابن ناحال: وهنا رأيت ذلك الرجل العظيم هو ورفاق قهوته وهم يقتربون وثيابهم الطويلة

وأجسامهم الخالية من العضلات . هؤلاء الناس كانوا من سادة القهوة، إناس يتمتعون بوقت فراغ طيب فى الصحراء؛ أفراد قبيلة حرب يتجولون أيضا بين البدو وهم يرتدون أحلى ملابسهم. حيانا خلف Khalaf بن ناحال بابتسامة بوصفنا أغرابا عليه، كما حيانا أيضا أعضاء المجلس، ورحنا نستمع إلى تلك الحنجرة التى لها دوى مسموع خلال تلك الصحراء الجافة؛ قدم لنا يده من بعد: وسوف نجلس ونشرب قهوته، – ولم يكن شرب القهوة هذا فى صالحى. همس خلف لولده، "من يكون، أهو جندى؟" توقف الشاب مبتسما عن الكلام على أمل أن يتكلم شخص آخر: وعليه قال واحد من الشباب المرافقين للشيخ:" أظن أننا نعرفك." الابن:" ألست أنت ذلك النصرانى الذى جاء إلى حائل فى العام الماضى؟" – " أنا هو بالفعل." – " لقد جئت إلى حائل بعد ذلك بفترة قصيرة، وسمعت عنك هناك،؛ وعندما دخلت، عرفتك من الدلائل التى كانت فى ذهنى." رد خلف من بينهم ، ودون أن يعبأ بالأمر،" لقد سبق له أن زار النصارى، وكان فى ذلك الوقت يتجر فى الإبل مع مصر؛ وأن النصارى أصحاب عفة واستقامة. ووالله، فى تعامله مع واحد منهم، اكتشف النصرانى أنه حصل على ما قيمته خمس بنسات زيادة عن حقه، فركب دابته وسار بها نصف يوم لكى يلحق بصاحب الحق ليعيد إليه هذه البنسات الخمس!" أردف ابن ناحال قائلا:" خليل يتجول بين الأعراب! – حسن، ولم لا؟ إنه يحمل معه تلك الأدوية، وهم (النصارى) لديهم أدوية جيدة. وقد زار أبو فارس الأعراب من قبله: والله، لقد كان أمراء حائل يقدرون ذلك الخليل؟ ولا يعجبنى فيه سوى شىء واحد، وهو ما أراه فى سلوكيات النصارى، – خليل هذا ليس من الأمانة ! لماذا يجلس الرجال والحريم قريبين جداً من بعضهم البعض، كما لو كانوا يلامسون بعضهم البعض؟"

وهنا دخل متحدثان شابان نيابة عن القرويين فى قرية السليمى – بالرغم من أنهما كانت تبدو عليهما البداوة. كان هذان المتحدثان يشكوان من الضرر الذى تسبب لهما خَلَفُ فيه فى ذلك اليوم، عندما أرسل إبله ترعى فى مرعاهم الاحتياطى؛ 'هدده هذان الشابان بأنهما سيركبان راحلتيهما ويذهبان إلى حائل لعرض الأمر على الأمير!' وهنا قام ولد خلف باستدعائهما لتناول الطعام فى الجزء الداخلى من البيت،، والذى أقيم

(ولم أشهد لذلك مثيلا من قبل) فى منتصف تلك الخيمة البدوية الطويلة: هذا الطبق المخبأ ليس بحق من قبيل الطبق الذى يقدمه أعراب نجد، وإنما له مذاق الحياة المدنية، أو إن شئت فقل: حياة المدينة المنورة.. قال الشابان وهما، غاضبان: إنهما ليسا جوعانين، وأنهما لم يأتيا إلى هنا ليأكلا ، وأنهما هنا يحسان بأنهما فى بيتهما . خلف: "ادخلا، وكلا، وسوف نتكلم سويا بعد الطعام؟" دخلا على غير رغبة منهما، وعادا فى الحال: وعندما رءاهما خلف من جديد، ولأنه أساء إليهما، فقد راح يؤنبهما: - "ألم يتلق أهل السليمى منا كثيرا من المنافع؟ ألا نشترى منكم التمور والقمح أيضا؟ فلماذا إذن تنكرون الجميل؟ - الله يلعن أباءهم ،أباء الستة عشر كلبا." - قال آخر: "الله، يلعنهم، أباء الاثنى عشر كلبا؛" هذه أرقام أكبر من "الكلاب الستين" التى ترد فى سياق الضغينة الشديدة. كان هؤلاء هم شجعان قبيلة حرب، الذين كانوا يحملون معهم فى ثيابهم البدوية، نكهة المدينة المنورة. وهنا قال خلف: وما زال فى حلقه شيء من المرارة، ومن باب إرضائهما إنه سوف يبعد ماشيته عن ذلك المرعى فى الغد. السليمى Selemy (أو إن شئت فقل: السُليمة Soleyma) عبارة عن مستوطنة صغيرة من مستوطنات الشمر تضم اثنا عشر أسرة، وآبارهم عميقة جداً.

عندما ذهب الشابان لحال سبيلهما، عاد خلف إلى حاله السابق وراح يصغى مستمعا إلى شأننا. واقتاد معتوقا إلى خارج الخيمة، وهدد ذلك الحطيمى المحترم، تخوفا من استياء بن الرشيد، وسأله عن مرورى خلال البلاد، وسأله أيضا عن مجيئى إلى منزل ذلك الحطيمى. ذهبت إلى خلف وقلت: " أنت لا تستطيع، على حد قول الجميع، إرسالى إلى القصيم؛ لقد نزلت أمام بيتك، ونعمت بكرم ضيافتك، سوف أستريح عندك اليوم وغداً؛ ثم اعطنى رجلا من رجالك، يرافقنى إلى القصيم، نظير أجر أدفعه له." كان صوته ناعما، ولكن قلب خلف الجاف كان مليئا بالنفاق:" ما ma أقدر ukdar ؛ ثم أجاب وكيف لنا بإرسالك إلى القصيم؟ - من الذى يمكن أن يقامر بالذهاب إلى هناك؟ أهل عنيزة أعداء لنا." - " يا خلف، لا تعطيل، بوسعك أن تساعدنى إذا أردت أنت ذلك." - "حسن، اسمعنى ! ادخل فى الإسلام، وسوف أرسلك إلى أى مكان تريد؛ قل: " لااله إلاالله" وسوف أرسلك الى القصيم بكل ترحاب." - " هل تعد بذلك ،

قبل الشـهادة؟". "هل أنا رجل من الذين يكذبون فـى كلامـهم." - "إذن ، اسـمعوا يا كل الحاضرين :لا إله إلا الله! - اطلب منهم إحضار الناقة." - "نعم! قل أيضـا إن محمداً رسـول اللـه!" - "لم يكن ذلك ضـمن اتفاقنا؛ اطلب الناقة يا خلف! وأبـعدنى عن هنا." "لم أكن أعرف أن النصارى يمكن أن يقولوا ذلك ؛ كل ما أقصده هو أن تكون مسلما. يا خليل، بوسعك العثور على بعض الجماميل Jemmamil (الجمَّالة) من أهـل القصـيم، الذين يجيئون إلى العول، فى هذا الوقت من العام، لبيـع الأقمشـة للأعراب. وقد سـمعت بالأمس عن وصـول واحد منهم إلى هذه المنطقة [لم يكن ذلك صـحيحـا]؛ وسـوف ينقلك الجمَّال معه إلى هناك نظير ريالين. وبعد أن تتناول العشاء وتشرب حليب المساء، اركب ثانيـة مع هذا الحطيمى! وسـوف يوصلك إلى ذلك الجمّـال،" ولكنى قـرأت فى تعبـيرات وجهه أن ذلك لم يكن كلاما صـادقا. ثم أخذ مـعتوق على جنب مرة ثانية، - وتحدث معه فترة طويلة؛ وطلب منه مهددا إياه، أن يحملنى بعيدا عنه. وبعد تناول العشاء طلب منى معتوق أن أركب الناقة. قلت لابن ناحال: " إذا مـا تخليتم عنى فى هذه الصـحراء؛ وإذا لم يستقبلنى أحد، وعدت إليك ثانيـة، فهل ستستقبلنى عندئذ؟" - رد علـى خلف،' سوف يستقبلنى.'

مع دخـول الليل ركبنا النـاقة وافـترقنا عن ابن ناحـال؛ واتجه مـعتوق صـوب فريج سبق له أن شاهده أثناء مجيئنا من جنة Genna . وبعد سـاعة من المسير، قال معتوق : "هنا رمل، هل لنا فى النزول عن الناقة هنا، لننال قسطا من النوم؟" - نحن لم نشـاهد نيران الحراسـة. - هيا بنا نواصل المسير: وإذا ما سـاء الأمر، قل لى: مـاذا أفعل أيهـا الرفيق؟" - " يا خليل، لقد قلتها لك بالفعل - إننى سـوف آخذك لتعيش معى فى الفريج الذى أعيش فيه." وهنا سمعنا كلبا ينبح من داخل الوادى المظلم: اتجهنا صوب صـوت نباح الكلب، ووصلنا أمام خيام ثلاثة؛ ووجدنا قطيعا من الإبل الباركة التى كانت تجتر طعامها أثناء الليل: كانت النار مطفأة، وكان الأعراب نائمين بالفعل . نزلنا عن الناقة وأنزلنا عنها أمتعتنا، وقيدنا الناقة من قدميها الأمـاميتين كنت على وشك أن أتقدم صوب الخيام ولكن معتوقا منعنى من ذلك، - "ليس هذا من اللياقة فى شىء ؛ ولكن يجب علينا الانتظار هنا، ونعطيهم الفرصة، ثم ننتظر لنرى إن كان أحد منهم سيخرج لدعوتنا أم لا."

بعد برهة قصيرة اقترب منا رجل" قال: أخ! بعد أن ألقينا عليه السلام، لماذا لم تدخلوا إلى البيت ؟" كان ذلك الرجل يحمل رمحا في يده، ويحمل سيفا في اليد الأخرى. وجدنا المضيف، داخل البيت، وكان جالسا ينفخ النار في الوجار؛ ووضع مزيدا من الوقود كي يحدث شيئا من الإضاءة. أيقظ ربة البيت؛ وناولتنا من فوق الستار سطلا من اللبن المتعفن القديم، الذي يصنعون منه نوعا من المريسي مر الطعم. شربنا من ذلك المشروب الليلي المؤسف، وتحول الجو العام إلى مزيد من الأمن والثقة؛ ومع ذلك ، كان حامل الرمح والسيف ما يزال واقفا ، ممسكا بسلاحيه في يديه ، ثم انحنى ناحيتنا." قلت له في النهاية: كيف الحال، الآن أيها الصديق ! هل حسبتنا لصوصا، أنا ورفيقي ؟"، "أخ ! الرجل لا يصبر كثيرا على حارسه، لأن الخطر محدق دوما." قال معتوق على سبيل المرح: " هو لا يترك مطلقا هذا السيف الضخم أو الرمح، سواء أكان مستيقظا أم نائما!" "وبناء على ذلك، حسبنا أن هذا الرفيق كان فارسا من فرسان ضوء القمر. قلت لمضيفنا: "أنا حكيم من دمشق، وأنا ذاهب إلى القصيم: وسوف يتركني رفيقي هنا، فهل لك أن ترسلني إلى هناك مقابل أربعة ريالات أدفعها أجرا عن ذلك؟" رد على ردًا لطيفا." سننظر في هذا الامر غدًا، وأعتقد أننا سوف نتفق مع بعضنا البعض، سواء قمت أنا بتوصيلك أو قام غيري بهذه المهمة؛ وفي ذات الوقت فلتبقى معنا هنا يوما أو يومين." وبينما كنا نرتاح، قالت ربة البيت: صاحبة اللبن المتعفن، شيئا موجها لواحد منا، جعلني أظن أننا لم نصل بالطريقة الصحيحة ولم نستقبل الاستقبال الصحيح: كانت تلك المرأة زوجة مهجورة من زوجات شقيق مضيفنا. سألت معتوقا،" أهذه هي أخلاق أهل قبيلة حرب!" – وهمس لي مرة ثانية،" الأمر كما تقول أنت تماما؛ ولكن قل لي يا خليل: هل أتركك هنا، أم أنك ستعود معي؟" – وعندما طلع النهار، قال لهم معتوق : " أنا سوف أتركه معكم، ديروا بالكم عليه." وهنا ركب ناقته وافترق عنا.

مطلق (كان ذلك اسم مضيفنا):"هيا بنا نذهب إلى ابن ناحال، ونستشيره في الطريق التي يمكن أن نرسلك بها إلى القصيم، ولكن كعب رجلي مشقوق ولا أستطيع الذهاب." وضعت شيئا من المرهم على الجرح، وأعطيته جوربا قصيرا؛ وهنا أحضر

البدوى حذاء قديما سبق أن اشتراه من المدينة المنورة. مشينا حوالى نصف ميل، وبعدها رأيت خيّالا، ومعه حربة طويلة، يركب قادما فى اتجاهنا: كان يبدو عليه أنه رجل شرس صارم الملامح. - كان ذلك الشخص هو وحده، من بين الحاضرين فى قهوة خلف، هو الذى عارضنى بالأمس. هذا الخيّال كان هو طلُّق Tollog ، الابن الأكبر لمضيفنا! وكانت الخيمة التى مررنا عليها فى تلك الليلة هى خيمته ! كما أن تلك الزوجة المهجورة كانت زوجته أيضا! كانت طرفة طيبة من طرف العرب أن نعرف الأسباب التى جعلت رجلا متزوجا حديثا يؤثر النوم خارج بيته فى خيمة ابن ناحال.

يصيح ذلك الخيّال وهو يحملق فىّ "كيف الحال الآن!" وهنا رد عليه أخوه نيابة عن الحكيم الشامى والحطيمى. - " إخص! فى أى اتجاه سار ذلك الحطيمى؟" (ويدفع الرجل حربته ثم ينهض واقفا) سوف أعدو خلفه وأعيده إلى هنا من جديد، - الله يلعن أباه! وهل عرفت أنت أن هذا نصرانى؟" وقف مطلق مندهشا مدة لحظة واحدة! ثم قال ذلك الرجل النبيل بعد ذلك: " و wa لو low ، بمعنى "حتى وإن كان كذلك ....؟ فهو ضيف علينا وغريب أيضا؛ كما أن ذلك الحطيمى قطع مسافة كبيرة ويصعب اللحاق به." - واصل طلق مسيره قدما؛ كان سليط اللسان وقاس فى بيته ،أما مطلق فقد كان رجلا معتدلا. مررنا بمرعى من مراعى الربيع، ونادى مطلق على طفل من الأطفال، كان يرعى الغنم على بعد مسافة قصيرة، وبالتالى يمكن له أن يعدو عائدا إلى المنزل ليخبر أهل المنزل عن ذلك المرعى ويطلب منهم الانتقال إليه. وبعد أن قطع الطفل مسافة لا بأس بها ناداه مطلق وطلب منه العودة ليقول له :' لا !' لأنه غير رأيه: فقد كان مختل العقل إلى حدما، - وهذا هو حال كل رجل واحد من بين ثلاثة من رجال فى الحياة الصحراوية. شاهدت فى المكان الذى مررنا به أسفل حد من الحدود الأرضية، بعض الغرف الأرضية المستديرة، مثل تلك الغرف التى فى الديار الغربية والتى حسبتها نوعا من القبور.

كان خلف قد رحل عن المكان منذ الأمس: فقد وجدناه فى خيمته ممددا على الأرض يستعد للنوم - كان الوقت ظهرا . وهنا راح ذلك الرجل يستغرب رؤيتى مرة

ثانية، ولكن مطلق مضيفي هو الذي دافع عني في الأمور كلها. استدار خلف بعد فترة ثم نهض واقفا، مثل الثعلب، ثم قال بنظرات هينة: " أها! هذا هو خليل يعود إلى هنا مرة ثانية؛ وكيف تخلي عنك ذلك الحطيمي الملعون يا خليل؟" وعندما بلغه أن معتوقا أخذ مني أجرا أردف قائلا: " لو عرفت ذلك، لكنت قطعت رأسه، وصادرت ناقته؛ - هو! يا من هناك، حضروا قهوة الظهيرة." ورد عليه ولده،" لقد صلحنا القهوة بالفعل وشربناها." - " إذن، صلحوا قهوة مرة ثانية، ولا تتأخر بها." كان خلف قد تزوج قبل عشرين يوما، من ابنة من بنات القرية، ودفع لها مهرا؛ وتهامس البدو على سبيل المرح، إنها ما تزال عذراء. ولذلك كان قلبه ما يزال مكلوما: وانتهز ولد خلف الفرصة كي يسخر من الحطيمي، وراح يعمل على إنقاذ والده عن طريق الكلام المكشوف، سعيا لطلب النصيحة والمشورة من شخص يسمونه الحكيم. وفي النهاية قال ابن ناحال: "طالما أن خليلا نزل في بيتك ، فعليك أن ترسله إلى أي مكان يشاء يا مطلق."

كان ابن ناحال، أي ابن النحل بحق وحقيقة، تاجرا بدويا ، إذ كان يجمع الحلا والرحيق من كل ما هو في الخلاء (الصحراء). وبالرغم من أن ابن ناحال لم يولد في أسرة من أسر الشيوخ، إلا أنه تربى ونشأ، بحكم تجارته في الإبل، ليكون واحدا من أثرى أعراب الجنوب وأغناهم؛ وكان لذلك الرجل زبائن يتجرون معه، في بيع البن والملابس والأقمشة بين الأعراب . وقد زادت ثروته الحيوانية إلى حد تعين معه تقسيمها إلى قطيعين كبيرين حتى يسهل رعيها؛ ومع ذلك فإن ابن ناحال بالرغم من عدله، كان يجد الوسيلة التي تمكنه من اقتطاع شيء من الأجور الهزيلة التي كان يعطيها لرعاة ماشيته. لم يكن ابن ناحال من أصحاب قطعان الأغنام أو الماشية الصغيرة (التي تعطي الزبد) التي هي أكثر فائدة للأسر البدوية الفقيرة المترحلة؛ ولكنه كان يتقاضى ثمنا لبضائعه الصغيرة، على شكل كميات كبيرة من السمن. كان لدى ابن ناحال علاوة على ذلك. شيئا يحسبه الأعراب كنزا كبيرا (ميتا) من النقود، ويحفظه ذلك الرجل في صندوقه. قام ابن ناحال بأولى مغامراته ، قبل سنوات عدة على شكل قطيع من الإبل ذهب به إلى مصر. هذا الحربي المغامر قطع مئات الأميال الصحراوية، وكان يتخذ لنفسه رفاقا على طول الطريق؛ هذا في الوقت الذي كانت أنظار أفراد قبيلته

تتجه إلى كل من المدينة المنورة ومكة، ولم تكن معتادة على الذهاب إلى مصر. ويصل ابن ناحال بسلام، ومعه قطيعه، إلى مصر ليجنى ربحًا مقداره سبعين فى المئة. وبعد ذلك بسنوات عدة (انخدع بفعل شائعة من الشائعات) وقام بمغامرة شبيهة بمغامرته الأولى التى قام خلالها بالذهاب إلى مصر؛ ولكنه فوجئ برخص أسعار الإبل فى هذه المرة الثانية؛ ووصلت خسارته إلى ثلاثين فى المئة. لم يكن خلف يعرف القراءة أو الكتابة، – إذ لم يكن بحاجة اليها؛ وعندما وضعت ورقة عنيبر فى يده قال: " نحن بدو! ولا نعرف القراءة." حياة خلف، وقلة كرمه، الذى كان يمكن للكثيرين أن يفرحوا به معه، كانت خلوا من الراحة والطمأنينة التى قد تنشأ عن مثل هذا الخير الوفير. وأهل نجد يطلقون على الرجال الذين يكونون من هذا القبيل اسم تجار tajirs . وخلف حاليا شيخ من شيوخ الأعراب، ولكنه شيخ بلا مضمون، والسبب فى ذلك أن البدو يعولون على مسألة الدم والسلالة فى تولى المشيخة؛ وقد ترتب على ذلك تقلب أعداد الأسر التى كانت تنضم إلى خلف أو تنفصل عنه. كانت تلك الأسر تشكل جماعته Jummaa أو إن شئت فقل فريجة Ferij ؛ يضاف إلى ذلك أنه كان رجلا من رجال ابن الرشيد.

كان سعر السمن رخيصا فى ذلك العام، إذ كان الصاع يباع بريال واحد فى حائل؛ ولكن خلفاً كانت لديه أخبار تفيد أن صاع السمن يباع فى جدة بريالين فى ذلك الوقت. وبينما كنا جالسين حول وجار القهوة تعجبت عندما سمعت الأعراب يتساءلون فيما بينهم عن "كم تبعد جدة عن هنا؟"، وكان البعض منهم، يلومون أنفسهم لأنهم لم يسبق لهم الذهاب إلى مكة (لأداء فريضة الحج)، بل إنهم كانوا يتساءلون ،" أين تقع جدة!" – جدة، التى تبعد عن هذا المكان مسافة تزيد على أربعمائة ميل، لم تكن من وجهة نظر خلف هو وحمّاليه من البدو، تبعد عن هذا المكان أكثر من اثنا عشر رحلة سريعة بالإبل. ولذلك سوف يذهب إلى جدة، فى هذه الأيام، وهو يحمل معه أحمالا كثيرة من السمن النقى، ليحصل مقابلها على مبلغ كبير من النقود. والأعراب كلهم يتعاملون بالمقايضة؛ ولكن قلة قليلة منهم هى التى لديها الذكاء، والقدرة على التنفيذ ، وتحمل الآلام من أجل تنفيذ مشروع قانونى وناجح. وهنا خطر ببالى.، هل أركب معه وأرى المزيد من البلاد التى لا أعرفها؟ – لكن لا، الأفضل لى أن أزور القصيم،

التى تشكل أرض النفود الوسيطة التى يعيش فيها المواطنون النجديون المجدين. كل ما لدى خلف، بما فى ذلك إبله التى يبلغ عددها ثلاثمائة جمل، ونقوده ومنقولات أسرته يقدر بما لا يزيد على ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى ؛ وتلك ثروة كبيرة فى ظل الحياة البدوية الصحراوية الهزيلة! ولما كان خلف بدويا فقد كان يشارك أيضا فى الغزو؛ وكان هو وأصدقاؤه يركبون دوابهم ويذهبون لغزو أجزاء من قبيلة عتيبة. البدو الذين يكونون من هذا القبيل يقومون بالغزو مرة واحدة كل عام، ليسرقوا خلالها بعضا من الإبل ؛ وذلك عندما تتجدد دماؤهم بفعل شرب الحليب فى موسم الحليب (الربيع) ، أو عندما يضيق الحال بهم خلال قحط الصيف. وإذا ما أصيب ابن ناحال بطلقة أثناء الغزو، فما فائدة اقتصاده وعدم تبذيره من ناحية، وبيعه السمن من الناحية الأخرى؟

رويت هذه الحكاية فيما بعد لصديق فى عنيزة؛ فرد على بحكاية أخرى. – "كان هناك أيضا رجل ثرى، شيخ من شيوخ عتيبة، رجل معروف لنا جميعا؛ كان يملك خمسمائة من الإبل أما ماشيته الصغيرة فكانت بلا عدد. كان ذلك الرجل فى بدايات شيخوخته ، ومع ذلك لم يكن يهدأ مطلقا، إذ كان دائم الحركة، بل وكان يشارك فى الغزو أيضا، الغزو الذى كانوا يقومون به على أعدائهم الشمر. وفى الغزو الأخير الذى قاموا به توغلوا إلى مسافة بعيدة داخل أراضى العدو؛ وبعد أن استولوا على غنيمة قيمة، تحول الرفاق عائدين إلى موطنهم. ولكن خيالة الشمر أدركوهم، نظرا لأنهم كانوا يركبون نياقا، وأغاروا عليهم وطوقوهم؛ ونظرا لشدة العداوة، لم يتركوا أحدًا منهم على قيد الحياة."! – شاهدت خيالة كثيرين بين أفراد قبيلة حرب. وهذا طلُّق ومطلق بالرغم من أنهما من أسرة متواضعة كان لديهما حصان وفرس يتناوباهما. ووجدت أن حوافر الفرس كانت طويلة أكثر من اللازم فى هذه التربة الرملية: قال طلّق: 'لا يوجد بيطار فى هذا المكان، ولكن عندما يمر علينا واحدٌ من الصلوبة فسوف يقوم بتقليم هذه الحوافر.' – كان كلام حرب يتردد فى مسمعى ، متكسرا، مثل الكلام العربى لأهل المدن، أو ذلك الكلام الذى كان يدور على لسان محمد النجومى فى خيبر. هؤلاء، من أعراب المدينة المنورة.

بالرغم من أن شائعة مشاركة ابن سعود لعتيبة فى الغزو كانت على كل لسان، إلا أنها كانت شائعة لا أساس لها من الصحة! ولم أكتشف انتقال ذلك الخبر على وجه السرعة فى الجزيرة العربية، اللهم باستثناء طرق القوافل ؛ ومع ذلك، فإن المرء فى موسم عدم المرور على تلك الطرق، قد ينتظر شهورا ، دون أن يسمع خبرا واحداً . هذا الإنذار أدى إلى تأجيل رحلتي : " قال مطلق : اصبر إلى أن نسمع المزيد من الأخبار؛ وسوف أوصلك أنا بنفسي، لا إلى عنيزة - فهم أعداء، ولا إلى بريدة، وإنما سأوصلك إلى السُبيعية Sbeyieh بالقرب من النبهانيه Nebhanieh [أسفل جبال أبنات Abanat]؛ وأهل هذه القرية أناس طيبون، وسوف ينقلونك إلى مسافة أخرى بواسطة بعض الجمَّالين." ولكن الآخوين ارتبكا عندما أقنعتهما بأنهما يبالغان فى المسافة. "كيف للغريب بمعرفة بلادهم! - ما الذى يفعله إذن هنا؟" فى الجزيرة العربية دخلت القرى على رغبة مني ، ولكن دخولي إلى تلك القرى كان بصحبة البدو: بلغنى أن واحدا من السلايمة قال: "إنهم سيقطعون النصرانى إربا إربا إذا ما خاطر بوجوده بينهم ؛" ولكن واقع الأمر أن البون شاسع جداً بين كلام هؤلاء الناس وأفعالهم.

الكرم والضيافة هنا ليست على ما يرام؛ إذ لا يقدمون هنا سوى لبن الخض، ولا يضعون منه أمام الضيف سوى كأس واحدة على مدى النهار بطوله. كنت أحس بالسعادة عندما كانت ماشيتهم تعود قادمة من المرعى بواقع يوم واحد من بين كل يومين، حيث كان يسمح لهم ذلك بتقديم شربة صغيرة من الحليب الدافئ فى كل مرة. كان طُلَّق ، ذلك الخيَّال المرح، رفيقا متشددا؛ أما مطلق فكان يتمتع بشيء من رجاحة العقل: وكان شقاء الضيف هنا يتمثل فى زوجة طُلَّق المهجورة البائسة. هذه الهجرة (الكفر) الجائلة التى كان يسكنها ثلاثة أشقاء لم يكن فيها من نعم الله وأمنه سوى الشيء القليل؛ كانت أصواتهم الغاضبة تستمر من طلوع النهار إلى طلوع النجوم فى السماء من فوقنا. وبالرغم من أن قراب الحليب كانت مملوءة بحليب الربيع إلا أن ذلك الحليب كان فى أيدى الحريم ، اللاتى كن يغلينه ويحولنه إلى مريسى ، كى يبعنه بعد ذلك فى المدينة المنورة. ويبدو أعالى نجد يزدرون هذه التجارة التافهة ، ويستصغرون ضعف كرم هؤلاء الناس.

وقد أدى عدم التغذية إلى دخولي في غيبوبة دامت طول اليوم. وذات صباح شاهدت فريجا نصب خيامه حديثا على حافة الوادي، وكان مقابلا لخيامنا: ودون أن يلاحظني أحد، ذهبت إلى ذلك الفريج تحت ستار بيع الدواء. لم يكن هناك في الخيام سوى قلة قليلة من الرجال وراحوا يسألوني عن اسم النصراني؛ وتعالى صوت المرأة كي تعرف أنواع الأشياء البسيطة التي معي، ولم يقدم لي أي واحد منهم أي شيء من اللبن . تركتهم وخطر ببالي أني رأيت بعض الخيام التي كانت منصوبة خلف خيامهم: وبعد أن مشيت مسافة ميل، اكتشف أن تلك الخيام لم تكن سوى مجرد صف من الأشجار والأدغال. وبالرغم من ابتعادي عن الأصدقاء، وبالرغم أيضا من أني كنت أعزلا، إلا أنني مضيت قدما، على أمل العثور على بعض خيام الأعراب . استطعت تمييز بقعة سوداء كانت تتحرك عن بعد فوق السهل المرتفع، وظننت أن ذلك ربما كان قطيعا من الماعز: إذن سوف أقصد ذلك القطيع وأشرب منه حليبا . عبرت كي أستظل بظل شجرة هزيلة من أشجار السنط؛ نظرا لأن التربة التي ضربتها الشمس كادت هي الأخرى تحرق نعليّ النحيفين، واستدرت لأرى بدويا طويلا يخرج من الأرض المكسّرة ويمر عليّ راكبا جمله؛ هذا البدوي لم يلاحظ الغريب أو ينتبه إليه : ومشيت بعد ذلك مسافة ميل أو ميلين ، كي أصل إلى قطيع الماعز. ولكني لم أجد غير امرأة شابة حامل كانت ترعى تلك الماعز. - 'سلام Salaam ، وهل تدلني هذه المرأة على مكان ينصب الناس فيه خيامهم، واسم هؤلاء الناس؟' ردت على سؤالي وهي متخوفة بعض الشيء ، إنها لا تعرفهم ، لأنهم ليسوا من أعرابها.' - "يا سيدتي، هل تعطيني شيئا من الحليب !" - "من Min فين fen الحليب halib بمعنى من أين لي بهذا الحليب؟ لقد حلبنا الماعز في الصباح الباكر في الخيام؛ ولا يوجد حاليا أي شيء من الحليب في ضروع هذه الماعز، كما أني ليس لدى إناء أحلب لك فيه": وقالت إن خيامها تقع على مسافة بعيدة ." ألا يوجد هنا بالقرب منا فريجا يمكن أن أقصده خلال فترة الصباح هذه؟" - " اصعد قليلا على جانب التل وسوف أشير لك على ذلك الفريج: انظر هناك! ولعلك تستطيع أن ترى خيامهم ." لم تكن عيناي على ما يرام؛ ولكني لاحظت ذلك الاتجاه الذي كانت تشير إليه بإصبعها ومضيت قدما في طريقي. وبعد مسير نصف ساعة، في أرض

وعرة ومكسَّرة، رأيت أول ما رأيت المنزل، عندما اقتربت من المكان؛ ثم توجهت نحو الخيمة الكبيرة من بين هذه الخيام، والتى شاهدت فيها بعض الناس جالسين داخلها.

قفزت علىَّ كلابهم وقد فتحت أفواهها؛ وهنا شاهدت رب البيت يجرى وفى يده فأس يشبه السكين لكى يطارد الكلاب ويبعدها عن الغريب (الضيف) القادم. - وبينما كنت جالسا بين هؤلاء الأعراب ، اكتشفت أنهم لم يكونوا من أولئك البدو الذين أقصدهم وأبحث عنهم. ورحت أتساءل بالتدريج، "هل لديكم شيء من التمر؟" - يضاف إلى ذلك أن أكلى الطعام معهم سيكون فى مصلحة أمنى وسلامتى. وهنا رد على ذلك الرجل الطيب ردًا بشوشا ،" ليس لدينا شيئا سوى الجبن؛ وسوف نقدم ذلك الجبن لك على وجه السرعة." كان المضيف غريبا على هذا المكان، إذ كان هاربا من المطير، ويعيش هنا فى ديار حرب، لأنه قتل نفسا بغير حق. جلس ذلك الرجل مع حرب يحاول تجميع ألياف بعض الأشجار الصحراوية، ليصنع منها فى النهاية حبالا جيدة. قال: هناك جلبان Jolban (آبار) غراميق ghramik (عميقة) جدًا فى هذه الديار." هؤلاء الناس الفقراء عاملونى معاملة شريفة، وكانوا يسألونى أسئلة ويجيبون هم عليها. قلت: "جئت بحثا عمن يمكن أن ينقلنى إلى القصيم نظير أجر." ورد علىَّ الرجل" عنده ناقة جيدة؛ وإذا ما دفعت له خمسة ريالات، فسوف ينقلنى ويضعنى فى وسط سوق عنيزة!"

عندما عدت ثانية لمضيفى - " أين ذهبت يا أنت؟ تعجب مطلق؛ ذهابك إلى هذه المسافة البعيدة عن خيامنا فيه خطر عليك: هناك الكثيرون الذين لو وجدوك وحدك قتلوك، البدو كفرة، يا خليل." وعندما أخبرته باسم الرجل، الذى سينقلنى إلى عنيزة، أردف قائلا: "لا علاقة لك بذلك الرجل ! إنه مطيرى. وإذا ما ركب معك (رديفا) فعليك أن تحذر سكينه - المطيرى لا يمكن أن يمنع نفسه من الخيانة، أو قد يقتلك وأنت نائم!" هذا الكلام الشرير يروج بين القبائل المتجاورة؛ ولكن مبلغ علمى أن ذلك المطيرى كان يمكن أن يوصلنى بشرف إلى عنيزة. كان مطلق صاحب أرجح عقل بين كل العرب الذين أعرفهم ، فيما يتعلق ببعض الأمور. وعندما لاحظ مطلق أننى كان النوم يغالبنى فى بعض اللحظات، وأنا جالس، حتى أثناء اشتداد حرارة الشمس ، وعندما لاحظ أننى كنت أتجول مبتعدا عن الخيام

(البخيلة) - إنما كان ذلك بحثا منى عن صخرة آوى إليها حماية لى من هذا التدنى المعنوى، وأملا فى أن أغمض ولو للحظات - قال: " لقد لاحظ أن صدرى كان يفيض (حزنا) هنا بينهم:" ونظرا لقيامى بتلك الرحلة إلى القلب، ونظرا أيضا لأنه لا يستطيع هو نفسه أن ينقلنى إلى هناك؛" بالرغم من كل ذلك، ومن أجل خاطرى، فقد نسى مسألة الغزو الذى يقوم به ابن ناحال، - ذلك الغزو الذى مكنه من اقتراض حصان آخر."

إلى جانب ابن ناحال ، كان هناك مستشار آخر لصحتى يدعى عليا، ذلك الرجل الذى كان يحمل رمحا وسيفا: هذا السيف كان عبارة عن حد غير مقسى من الحديد وربما كان جانبا من جوانب رمح من الرماح الخفيفة التى يستعملها كبار ضباط المدينة المنورة، - هذه الشخصية كانت تضفى على صاحبها طابع الرجل المشاكس المحب للحرب والقتال. قال علىٌ بصوت ينم عن المعاناة الطويلة: "أنا Ana صاحبك Sahibak ." كان ذلك الرجل من حرب العلا el-Aly : حرب العلا هؤلاء توجد منطقتهم فى الشمال الشرقى وليسوا من أعراب هذه الديرة. سألته: "أين تركت زوجتك وأطفالك وإبلك؟" رد على:" أنا لا شىء عندى سوى هذه العباءة (البشت) والملابس التى ألبسها وكذلك السلاح الذى أحمله: أنا ana يتيم yatim " . هذا البدوى المسكين الذى يبلغ من العمر خمسين عاما لم يكن يعرف حقيقة عمره؛ يا لها من جهنم إن قدر لذلك الرجل العيش أكثر من ذلك فى هذا الجوع وهذا البؤس! علىّ هذا هو وأخيه، ورثا عن أبيهما مجموعة من النخيل، فى المدينة المنورة؛ ولكن ولد الأب القوى استطاع السيطرة على أخيه ضعيف العقل: وهنا قال مطلق:" هذا الرجل المسكين (الأحمق على وجه التحديد) لم يكن له علاج." - " ولماذا يحمل هذه الأسلحة دوما فى يديه؟" - " إنه خائف على شىء حدث منذ سنوات مضت: كان على هو وصديق له، بعد أن انتهيا من تناول العشاء، قد نهضا واقفين، وقالا: إنهما سوف يتغالبان . تصارعا مع بعضهما: واستطاع على التغلب على الآخر وسقط فوقه؛ - وربما فى تلك اللحظة أحس بأن شيئا انفجر فى داخله، نظرا لأن الذى سقط على الأرض كان قد فارق الحياة! لم يوجه أحد الاتهام إلى على؛ ومع ذلك هرب ذلك المسكين حفاظا على حياته، واعتبارا من تلك اللحظه وهو يمشى مسلحا على هذا النحو،مخافة أن يعثر عليه أقارب الميت ويقتلونه."

فى المساء كان يجلس معنا شاب من أقارب زوجة طلّق الجديدة. كان ذلك الغريب من فريج آخـر؛ وبعـد أن وجه الكثير من الإهانات إلى النصارى - أردف قائلا: "أنت يا طلُق وأنت يا مطلق! والله أنتما لم تحسنا صنعا باستقبالكما لكافر فى بيوتكما؛" ثم أخذ لنفسه أقرب مكان من موقد النار" - وذلك على العكس تماما من تقاليد البدو - وأبعد الضيف والغريب إبعادًا تاما عن النار ليكون فى مـهب ريح المسـاء؛ فى كوة صغيرة مصنوعة من قماش الخيام، وتشبه بخل هؤلاء الناس إلى حد بعيد، لتكون مجلسا للرجال. تعجبت، "لابد أن هذا الرجل من العجيل!" - ردوا علىّ ، إنه عجيلى بالفعل ! شخص متباه، يا خليل." - "لقد اكتشفت أنهم كلاب، أتراك ، وخونه؛ وأقسم بإيمانى ، أنى وجدت فيهم أرذل البشر." - " والله يا خليل، إنك صادق." - "من أى فرع من فروع قبيلة حرب، يكون هذا الرجل؟" - " إنه حزيمى." "تقول حزيمى: إذن أيها الأصـدقـاء الطيبين ، هذا الشخص المتباهى المتفاخر هـو صلوبى!" - "هذا صحيح ، يا خليل !" وراح الجميع يضحكون. هذا الشاب الصغير، عندما بدأ يتمالك نفسه لم يجد لديه ما يقوله سوى سبُّك Subbak بمعنى "قبحك الله". بدى عليهم أن معرفتى لأمر من هذا القبيل، كانت عندهم أمرا يدعو إلى الدهشة والعجب. - الحزيم، فخذ أو فرع قديم من أفخاذ أو فروع قبيلة حرب، والناس يستهزئون بهم كما لو كانوا من الحطيم؛ والبدو فى حالة الثورة والغضب يسمون الحطيمى والشرارى وكذلك الصانع بأنهم صلوبيون ، وهنا فسح المكان، وأدى ذلك الضحك إلى نوع من المصالحة مع النصرانى. - كنت أتعجب كثيرا عندما أرى قسما كبيرا من خيمة طلُق مغلقا؛ ولكن فى الصباح، عندما كانت الزوجه الشمطاء وأم أطفاله خارج الخيمة، تغلى السمن، خرج من الخيمة وجه جديد، - امرأة شابة جميلة، تلبس ملابس جديدة ونظيفة! كانت تلك زوجة طلُق الجديدة فى مخدع الزواج؛ وتلك كانت أيام العسل، التى لا تقوم خلالها بأعمال المنزل . تقدمت بعينيها اللامعتين فى ضوء الشمس الحارقة.

ومع طلوع شمس اليوم التالى وجدت أن الخيام الثلاثة أصبحت أربع . كان القادمون الجدد من السيادين Seyadin وليسوا من الصلوبيين أو من الصنّاع وإنما (كما سبق أن رأينا) من عمال الحزم قريبى الشبه بالبدو، ويحملون معهم بضائع

يتجولون بها بين الأعراب. ذهبت لزيارة هؤلاء الغرباء؛ - "سلام!" - عليكم السلام ؛ تعال يا خليل ، هل أنت هنا ؟ " ألا تذكر يوم أن جئت مع الحطيم وشربت القهوة فى قصرنا ، فى قفار؟" أضافت المرأة المسكينة، "وأنا أصلحت لك عباءتك الممزقة." "قال الرجل: يا خليل أين غليونك؟ سوف أملأه لك بالتبغ الحميدى." مولود مع البدو، وهو يعرف كل دروب الصحراء؛ لقد وصل فى تجواله إلى القصيم، وأجاب على كل الأسئلة التى وجهتها إليه: - أنهم لا يقسون على أولئك الذين قست عليهم الدنيا! ولم يكونوا متعصبين أو متشددين بأى حال من الأحوال.

الفصل الحادى عشر

رحلة إلى القصيم : بريدة

البدو الحمالون. الذهاب مع حامد، الشمرى. تقرير زائف عن غزو بن سعود لعتيبة. حفر حُفر للماء فى الخلاء. غزوات بن الرشيد. الصلبة. بنو على. سميراء، قديما ديرة الرولة. تركى، بدوى من المدينة (المنورة). رحلة بنى سالم . العطية. عاصفة من المطر. قوس قزح الثلاثى. البرق فى الصحراء أثناء الليل. البدو المتدينون. ضيف لطيف. منزل من منازل حرب على شكل دائرة. الفرن، من أقارب حرب. جبل سارة. أولى قرى القصيم. عيون. قصًة. أبراج المراقبة. ضعف الكرم فى القصيم. الأرض الرملية العميقة وسكانها. سطح بريدة. المدينة. قصر الأمير. سرقة أشياء النصرانى وهو فى الفناء. جابر، ضابط الأمير. قصر حجيلان. عبد الله شقيق الأمير. مواطنو بريدة؛ أفضلهم يؤجرون الإبل للقوافل. المآسى القديمة للأمراء. المدينة. أمسية مضطربة. السفر فى الغد إلى عنيزة. حفر الآبار. أشجار الإثل.

وصل فى صباح اليوم نفسه بدويان معهما أحمال من التمن (الأرز) على ظهور الإبل ؛ كان هذان البدويان قد أحضرا تلك الأحمال من العراق لكل من طُلّق ومطلق! كان البدويان من الشمَّر، ويعملان حمًالان ضمن قافلة الحج التابعة لابن الرشيد. ورحت أعجب كيف استطاع هذان البدويان العثور على خيامنا بعد رحلة طويلة من هذا القبيل: وقالا لى: إنهما بعد أن تجاوزا حائل راحا يسألان عنا على النحو التالى، - 'أين ابن ناحال؟' - الإجابة:' سمعنا عن وجوده فى الجنوب الشرقى. - البعض يقولون: إنه انتقل إلى مسيرات عتيبة. - وعندما سألنا عنه آخر مرة، كان فى ذلك الجزء من البلاد، أى فى مسيرات عتيبة. - وقيل إنه ذهب مؤخرا فى اتجاه سليمة Seleyma . -

وسوف تجد أغرابه ما بين العلامات الأرضية الفلانية والعلاّنية. - إنه يرعى فى المنطقة المحيطة بجنة. وبينما كانا ينزلان أحمالهما، وفد عليهما بعد غيبة طويلة بدوى غريب، ولكنه معروف فى هذا الفريج ،كان يركب ناقته: كان ذلك البدوى قد قطع ١٣٠ ميلا فى اتجاه الغرب لزيارة بدو البشر ، الذين تربى ونشأ بينهم؛ ولكنه يقيم مع بدو حرب فى الوقت الراهن. كان ذلك البدوى الغريب من الشمر، وكانت له زوجة هجرها وتعيش كأرملة فى منزلنا: جاء الرجل إلى هنا لزيارة ولده الصغير. تشاور معى مطلق فى استئجار ذلك البدوى الأمين لنقلى إلى القصيم. نادينا ذلك البدوى: - رد علينا ، والله، خشى ذلك البدوى من عبور بلاد مفتوحة من هذا القبيل، مخافة أن يستولى الغزاة العتبان على ناقته؛ ولكن مطلق أقنعه، بقوله إنه يستطيع أن يشترى بالأجر الذى سيحصل عليه، حملا من التمر (الرخيص جداً فى القصيم) ليأتى به إلى هنا إلى موطنه وأسرته. عرض ذلك البدوى نقلى إلى البكيرية el-Bukkerieh : ولكننا وافقنا على خمسة ريالات على أن يوصلنى إلى بريدة. قال الرجل الذى كان يدعى حامداً Hamed: "اركب!" erkub ؛ وقام البدوى بتحميل أشيائى، ثم ركب خلفى، - ومضينا قدما . قال طلّق: الله يوصلك إلى نهاية رحلتك! الله، يكفيك الشر!"

كانت الشمس قد أشرقت منذ ثلاث ساعات: واجتزنا خلالها ساحلا من البازلت، نزلنا بعده إلى فريج جديد؛ كان فيه بيت حامد. ومن ذلك البيت أخذ حامد قربة الماء وحفنات قليلة من المريسى - كانت هى كل زاده طوال رحلة طولها يزيد على ٤٥٠ ميلا - ولم يقل لزوجته أكثر مما يلى:" يا امرأة، أنا ذاهب مع الغريب إلى بريدة." وأطاعته فى صمت؛ والشائع هنا أن البدوى لا يودع زوجته عند الرحيل: - "(قال حامد): أتسمعين؟ سيرى مع هؤلاء الأعراب لحين عودتى !" ثم حمل ولدها الصغير بين ذراعيه وقبله. - سرنا فى اتجاه الشمال فى بداية الأمر تحسبا للعتبان وخوفا منهم: الصحراء هنا من الجرانيت الذى يتخلله كثير من الصخور البازلتية سوداء اللون. كانت مسيراتنا بعد ذلك عامرة بمناظر الأعراب الذين ينتشرون هنا وهناك، وهم من بنى سالم salem ؛ كنا نرى خيام هؤلاء الأعراب سوداء اللون فى كل مكان وعلى كل جانب . كل هؤلاء البدو من قبيلة حرب كانوا يتجمعون فى اتجاه سميراء Semira ، فى ديرة الشمَّر،

حتى يتسنى لهم دفع الضريبة هناك، فى يوم محدد، عن طريق جباة الضرائب التابعين لابن الرشيد؛ نظرا لوجود الماء بصورة وفيرة لماشيتهم. تركنا العلامة الأرضية الخاصة بالبنانى Benany على بعد مسير نصف يوم فى اتجاه الغرب؛ وواصلنا المسير قدما على طريق وادى الرماح، – كان ذلك الوادى يقع على بعد أميال قليلة على الجانب الأيمن .قال لى حامد مشيرا إلى بعض الجبال البازلتية ،التى لم تكن تبعد عنا كثيرا: إنها تقع خلف ذلك الوادى : هذا الممر المائى الجاف يطوق ديرة حرب فى منطقة نجد؛ والأرض الواقعة خلف ذلك الوادى كلها تابعة للعتبان. التقينا أثناء سيرنا بقطيعين من الإبل؛ وحلب لنا الرعاة لبنا سائغا وتبادلنا معهم الأخبار. وعند غروب الشمس كنا نسير أسفل جبل منحدر من البازلت؛ وشاهدنا بقعة سوداء، فوق كثيب من الرمال المنجرفة؛ وكانت تلك البقعه السوداء عبارة عن خيمة من خيام البدو الرحل؛ ثم شاهدنا إبلهم بعدذلك ، وأدخل السرور إلى أنفسنا فى أعقاب التفكير فى حليب المساء." قال حامد: ألا ترى يا أنت ؟ الإبل هنا كلها ذكور! والدليل على ذلك أسنامها المنخفضة؛ – والسبب فى ذلك أن هذه الإبل تستخدم فى الحمل: والأعراب هنا يتركون النياق تسمن ولا يستعملونها فى الحمل.

شاهدنا المزيد من الخيام التى كانت مقدمة الجبال تخفيها عنا. وعندما نزلنا من فوق جملنا، تعرف علىّ أولئك البدو أيضا! – صاح وغد منهم (لقد سبق أن رأى الكافر فى حائل)،" أها! النصرانى !" هذه الكلمة بعثت البرودة فى قلبنا وفى قلوبهم.. هؤلاء القبليون كانوا من قبيلة حرب؛ كانت النساء هنا يرتدين خُزُمًا (*) من الفضة فى أنوفهن، – هذه الخُزُم لا تكون هنا كبيرة الحجم بين البدو . كانت تشيع هنا أيضا أخبار تلك الشائعة التى مفادها أن بن سعود هو والعتبان على وشك القيام بغزو، "وأن ذلك الغزو قد وصل أسوار بريدة." القسم الخاص بالرجال، فى هذه الخيام والذى لا يتعدى ثلث الخيمة، كان يوجد فى الجانب الأيسر من الخيمة ، المخصص للنساء ،

(*) خُزُمًا: واحدة خزام وهو الحلقة من الفضة أو الذهب التى تضعها البدوية فى أنفها من قبيل التزين. (المترجم)

فى بيوت كل من العنزى والشمر فى نجد: هذا القسم يكون على الجانب الأيمن فى بعض الأحيان؛ وذلك فى خيام حرب فى منطقة نجد، ولكن هذا القسم يكون على الجانب الأيسر فى أغلب الأحيان؛ أما فى خيام الحطيم فيكون ذلك القسم على اليسار؛ وفى السواد الأعظم من بيوت البلى يكون ذلك القسم على اليسار. الأعراب هنا من النوع الكئيب غير المضياف؛

أخيرا أحضر لنا رب الأسرة سطلا من حليب المساء، وتركنا بكلمات مقتضبة. كانت دائرة العرض هنا٢٧ْ) عند هذا الارتفاع الذى يقدر بحوالى٤٣٠٠ قدم، كان الليل، هنا فى منتصف شهر أبريل باردًا تحدث حامد معى، حول زيارة قرية الروضة فى الصباح، ولم تكن تلك القرية تبعد عنا كثيرا. سمعنا أن الكثيرين كانوا يموتون بسبب الحمى فى تلك القرية، بالرغم من عدم انتشار ذلك المرض، من قبل، بين سكان هذه القرية. خطر ببال حامد أنى يمكننى أن أبيع للقرويين فى هذه القرية بعضا من أدويتى؛ ورددت عليه،" سنذهب إلى تلك القرية، إذا لم يكن هو خائفا من ذلك :" ولكن بعد طلوع الشمس قال: " القرية ستكون بعيدة علينا."

مشينا قرابة ساعة أو ساعتين ، وتراءت أمامنا نهاية جبل سلمى **Selma** على الجانب الأيسر: " قال حامد: الجبل ينحدر إلى الأسفل ،إلى أن يصل إلى الروضة تقريبا. "وأخبرنى أن مستجدة **Mustijidda** قرية أصغر من تيماء **Teyma** . وانحرفنا عن طريقنا السابق لنتجه جنوبا : هذه التربة الصحراوية عبارة عن سهل غير مستو، فيه كثير من الأماكن الحجرية التى يطلقون عليها اسم سُمُت **sumt** ،التى لاقت أقدام جملنا المتورمة الأمرين فى المشى عليها. وعند دخول وقت الظهر تركنا البلزيه **Bellez-zieh** عن يميننا ، والبلزية هذه واحدة من مستوطنات زراعة القمح ولكنها ليس فيها أى شىء من النخيل. والبلزية هذه فيها خمسة منازل موزعة على قصرين، أو حوشين إن صح التعبير ؛ والكفر (الهجرة) الذى يقع فى الصحراء الشاسعة، لا يحميه من اللصوص سوى اسم بن الرشيد فقط (ذلك الاسم القوى الذى له وزنه) : هذه الأرض الواسعة خالية حاليا من الأعراب. وبعد العصر بفترة قصيرة وصلنا إلى حفر الماء

(آبار الماء) التى يطلقون عليها اسم الشبريَّة es-Shibberieh : وهنا نزل حامد عن الجمل وراح يجرى كى يملأ قربة الماء. ثقوب الماء هنا يصل عمقها إلى عشر أقدام فقط (وهى من ماء المطر العذب) ، وقد جرى حفر هذه الثقوب فى شعْب، تنساب فى وادى الرماح ." قال حامد: فتح ثميلة themila من هذا النوع – يحتاج إلى عمل رجلين مدة يوم واحد: يقوم أحدهما بالحفر مستخدما مشعاب فى حين يقوم الآخر بإخراج ناتج الحفر باستعمال يديه" : – أسفل السطح الزلطى لهذه التربة توجد طبقة من اللهم (الغرين) الطرى . والأرض المحيطة بذلك الوادى الكبير عامرة بالمياه الجوفية التى توجد على عمق صغير؛ من هنا فإن حامد يمتدح ديرته بهذه الميزة التى لا توجد فى المناطق التى يتجول فيها البشر." والتى يوجد فيها مراعى جيدة كثيرة، ولكن الماء شحيح ، وعلى أعماق كبيرة؛ ولكن فى ديرة الشمر هناك العديد من حفر الماء فى كل مكان، ومن هنا ينتشر الأعراب ويتفرقون على شكل أسر وعوائل دون خوف من العطش ."

عندما خلطت بالماء شيئا من المريسى رفض حامد السطل الذى قدمته له، قائلا أنه قد شرب بالفعل: ولكنى فهمت أنه تحاشى الشرب مع النصرانى ؛ وحتى عندما كنا ننزل عند أى أحد من الأعراب لم يكن يشرب مطلقا من السطل الذى يوضع أمامى . هذا الرجل المسكين صاحب الروح الطيبة، (وما أكثر أفراد هذه النوعية من البشر)، والذى كان يعانى من خلل بسيط فى ذهنه، ثقل عليه أن يعرف أنى كنت انتقد تصرفاته التى تشبه تصرفات أهل بلاد فارس ، والتى كانت مخالفة لتصرفات الناس فى الصحراء. – "قال: لكن آه! هيا بنا نعجل ونترك هذا المكان خوفا من العتبان ؛ هذه الأرض مفتوحة، وإذا ما مر علينا غزو الآن فسوف يكتشفون أمرنا." – سألته عن بلاد عتيبة الموجودة خلف الوادى ؛ قال: إنه سبق له الدخول إلى هذه البلاد أثناء قيام ابن الرشيد بغزوها. قال: إن بلاد عتيبة عبارة عن سهول رملية فيها مراعى جيدة، وفيها قمم صخرية مثل القمم التى أمامنا هنا، (وأن هذه القمم من الجرانيت ومن البازلت)، وأضاف أيضا: إن الأعراب فى تلك البلاد أثرياء من حيث قطعان الماشية. وقال لى أيضا إنه زار كلا من مسكة Miskeh وذرية Therrirh ، وهما مستوطنتان حرتان،

وفقيرتان ومفتوحتان أيضا أمام الجميع؛ ويقول البعض إن هاتين المستوطنتين تتبعان القصيم: وقد تهيأت لى الفرصة بعد ذلك للتجوال فى تلك المنطقة البدوية، التى ينزل فيها البدو المترحلين. حامد هذا شارك فى كل الغزوات التى قام بها الأمير: وحذا حذوه أيضا كثير من البدو الفقراء لكى يروا الغنائم التى سيعطيهم الله إياها؛ نظرا لأن أيدى الناس لا تصل إلى شىء عندما يكون أفراد الغزو بين نياق الأعداء، والماشية المبعثرة، والخيام المهجورة : وقد حصل حامد على الناقة التى نركبها حاليا بهذه الطريقة، ومن ثم راح يركبها بعد ذلك فى كل غزوة من الغزوات التى يقوم بها الأمير. لم يستطع أن يؤكد لى السلالة الأصيلة لتلك الناقه ، لأنه أخذها من الأعداء، علاوة على أن أحدا لا يعرف نسبها.

"تساءلت، ما رأيك ؟ أليس من الخطيئة أن يقتل الإنسان الناس وينهب أشياءهم؟" رد علىَّ حامد، مستسلما وموافقا بصفته مسلما على كل كلمة من تلك الكلمات الدينية ، "حسن – ، أنا أعتقد ذلك، وأنا أشكر الله لأنى لم أقتل إنسانا فى حياتى؛ أنا لم آخذ شيئا سوى الغنيمة." فى الحقول التى تكون من هذا القبيل، يتبعثر الكثير من نياق البدو ويضيع والناقة مخلوق غبى ، التى لا يربطها إحساس بصاحبها؛ وهو إذا ما استحثها ، فمن المحتمل أن تبرك منه على الأرض شأنها شأن الغنم، بل إن ذلك قد يحدث أثناء القيام بالغزو. وإذا ما هز راكب الناقة لجامها، فربما وقفت منه وراحت تنهق، والناقة قد تتصارع مع الإنسان عندما تولى الأدبار. بعض النياق عنيد، وقد تحمل من يركبها وتدخل به أرض العدو؛ يضاف الى ذلك أن أسرع النياق يتفوق الحصان عليها من حيث السرعة. من هنا فإن راكبى الخيول، بالرغم من تسلحهم بالرماح فقط، وبرغم من أنهم يركبون على ظهور الخيول بلا ركاب ، إلا أنهم لهم ميزة فى العمليات الحربية الصحراوية، يتفوقون بها على حملة البنادق الفتيلية الذين يركبون النياق وراكب الناقة المسلح ببندقية فتيلية إذا ما خلت بندقيته من الرصاص، واتجه صوبه خيال ليقتله، تعين على صاحب البندقية الفتيلية أن يلقى نفسه من فوق الناقة، على الأرض متخليا عن ناقته وتاركا إياها تذهب لحال سبيلها.

بدأ جبل الحبشي el-Hebeshy يتراءى لنا، وهو جبل بازلتي أسود طويل يقع خلف سميراء. - شاهدنا جماعة راكبة، تشبه طابورا من الخيالة كانت تتجه نحونا قادمة من الخلاء: كانت تلك الجماعة عبارة عن عشرين فردا من الُصلوُبة كانوا راكبين حميرهم. وهنا تطوع حامد وبادر إلى ركوب الناقة ليلقى هؤلاء الناس طلبا لمعرفة الأخبار، ولكني كنت أمسك بلجام الناقة في يدى ومنعته من ذلك الذى ينتويه: وهنا نزل واحد من أولئك الصلبة عن حماره وجرى قادما نحونا؛ - صبي، حيانا بتحية لم أسمعها من قبل، الله ullah يعينكم Yayna-kam ، بمعنى كان الله في عونكم! كان أولئك الصلبة يقومون بالسمكرة في أنحاء قرية سميراء؛ وأبلغنا أننا سوف نعثر على الأعراب بعد تلك القمم. بمسافة قصيرة. مضينا قدما، وعندما مالت الشمس إلى الغروب، قال حامد: "لقد خدعنا الصلبي!" لأننا لم نر الأعراب إلى الآن. واعتبارا من هذا المكان راح حامد يريني قمم أشجار الإثل في منطقة سميراء : وبعد أن سرنا ميلين آخرين تراءى أمامنا منظر الفريج. كان ذلك الفريج عبارة عن مجموعة صغيرة من خيام بني علي، التي نصبها أصحابها أمام المستوطنة.

نزلنا عن الناقة، وتعرف الناس عليّ أنا النصراني في هذه المنطقة؛ تكلموا معي بطريقة جارحة فيها كثير من الغلظة؛ ولكنهم لم يكونوا بخلاء. وبني على يَذُمهم بنو سالم على إنهم أعراب أفظاظ، وكفار أيضا؛ والسبب في ذلك أن الكثيرين منهم لم يتعلموا الصلاة؛ كما أنهم جميعا لا يصومون شهر رمضان: بل إنهم يدعون أيضا أن بني على ليسوا من سلالة قبيلة حرب . وبينما كنا جالسين حول وجار القهوة في المساء، تراجع البدو فجأة، وهبوا واقفين على أقدامهم وتركوني جالسا؛ لأنهم جميعا شاهدوا ثعبانا صغيرا يتلوى بيننا: وهنا قام واحد منهم بتوجيه ضربة واحدة من مشعابه إلى ذلك الثعبان السام.

ركبنا ناقتنا عند طلوع الفجر وقصدنا قرية سميراء طلبا لتناول الإفطار . كان حامد قد قايض بندقيته أثناء الليل في الخيام مع صبي، بنعجة وحمل يساويان خمسة ريالات؛ هذه البندقية الفتيلية قديمة الطراز لا تساوى أكثر من ريالين ونصف الريال،

وكان حامد قد حصل عليها من غزوة من الغزوات: كانت البندقية قصيرة أكثر من اللازم مما يوحي بانفجار جزء منها. وعندما واصلنا مسيرنا ونحن خائفين عبر الصحراء، قام حامد بوضع رصاصة مزدوجة فوق البارود القديم؛ ونظرا لأنه كان يتشكك في انطلاق البندقية، فقد جعلته يشعل النار في البارود ويقوم بتعمير البندقية من جديد. وأخذ حامد يقتاد ماشيته بطيئة الخطى، كى يبيعها فى المستوطنة: ولكننا لم نكن قد قطعنا مسافة كبيرة عندما لحق بنا ذلك الصبى الذى ندم على الصفقة. راح ذلك الصبى التعيس ينادى حامد، الذى راح هو الآخر يسرع الخطى؛ ولكن الصفقة التى تتم بين السكان غير العادلين فى الصحراء لا يسرى مفعولها إلا بعد انقضاء اليوم الثالث عليها. رد عليه حامد بكلام معسول ولكن الصبى صاحب القلب المكلوم بدأ يوبخ حامد وأعاد إليه بندقيته. وهنا تلقى حامد بندقيته مرة ثانية، بسرور بالغ؛ أخذ الصبى غنمه، وراح يقتادها إلى محل إقامته. وهنا بدأت الشمس تشرق أمامنا فوق جبل الحبشى.

قرية سميراء الصغيرة القديمة ليست سوى مسوَّر (قصر) من المنازل داخل سور عال له أبراج من الطين؛ هذه القرية تبدو من بعد كما لو كانت قلعة منعزلة فوق الجانب الصحراوى من الأرض. يوجد فى هذه المنطقة أيضا مسوران آخران صغيران (قصران). هذه المنطقة الصغيرة لا تغطى أكثر من فدانين على أكثر تقدير؛ والبوابة لا تعدو أن تكون مجرد باب فى الجدار على الجانب الأيمن، وخارج ذلك السور يوجد مجرى سيل جاف تتصرف فيه أمطار الشتاء. والأرض المنزرعة من قرية سميراء، تقع خلف ذلك السور وهى أرض جرداء لا تسر الناظر إليها، والأرض هنا لا تطل على أغصان النخيل التى تسر الخاطر! هذه الأرض لا تستعمل إلا فى زراعة الحبوب فقط: وقد شاهدت حقول القمح أثناء نضج المحصول المكون من القمح والشعير عندما كانا جاهزين للحصاد. والإبل لا تستطيع الدخول من باب البلدة؛ ولذلك لم أكن راغبا فى ترك حاجياتنا خارج السور، على مرأى من الأطفال الذين يلعبون ؛ ولكن حامد قال: إن هذا المكان هو المُنوخ (أى مبرك الإبل) وأن الأشياء ستكون فى مأمن ولن يلمسها أحد من الأطفال. – جلسنا ننتظر ذلك الذى يمكن أن يأتى إلينا ويدعونا لتناول الإفطار .

لم يحدث أن وصلت إلى منْزل من منازل البدو الرحل دون إحساس بالبشر والسرور، ولكنى لم أدخل قرية صحراوية فى حياتى دون أن يكون قلبى مكلومًا؛ ونحن نبحث عن مضامين القرآن، وأخلاقيات الفلاحين غير السليمة، والكرم الجارح . قال لى حامد، إن المكان هنا فيه ثلاثين بيتا ويسكنه حوالى مائة نسمة؛ والقرويون هنا يطلق عليهم اسم الشبرامى es-Shubramy ، وهم من بيت الشيخ راشد Rashid الشبرامى es-Shubramy : وأنهم ينتمون إلى قبيلة بنى تميم العريقة واسعة الإنتشار فى منطقه نجد.

جاءنا أحد الرجال؛ وبعد تبادل السلام اقتادنا لشرب القهوة. مررنا على بعض الطرق الطينية إلى أن دخلنا غرفة القهوة؛ التى كانت مجرد ملجأ ضيق مصنوع من جريد النخل المحمول على جدران من الطين. ولم يكن بداخل تلك الغرفة سوى قلة قليلة من الناس؛ الذين كانوا متكئين على أكواعهم، فوق الأرض الطينية، ظلوا صامتين طوال الرشفة الأولى والرشفة الثانية: وبنى تميم مخلوقات ثقيلة وغير متحضرة . واصطحبنا مضيفنا بعد شرب القهوة لتناول الإفطار، فى منزله؛ وقدم عشرات الأعذار لأنه لم يقدم لنا سوى شيء من التمر فقط، الذى جاء به من الجبل وعندما سألته عن سبب عدم وجود مزارع للنخيل فى بلدهم ؟ وأن الماء قريب جدًا ، إلى حد أن النباتات الصغيرة إذا ما امتدت جذورها نحو الأسفل فى اتجاه الرطوبة لا تكون بحاجة إلى الرى بعد انقضاء السنوات الأولى؟ أجابنى ، النخل لا يجود هنا." التربة فى بلدة سميراء من النوع شديد الحلاوة، كما أن الماء الجوفى هنا هو من ماء المطر النقى.

وهذا هو حامد الذى أخذ منى قطعة من الذهب فى البداية، يأخذ هذه القطعة ويذهب بها الى المستوطنة، ليرى إن كان يمكن له استبدالها بعدد من الريالات. ورد مضيفنا ، "إنها تساوى الكثير أيها البدوى، وفى القصيم تساوى أكثر مما تساويه هنا؛ والذى لا شك فيه، – أن هذا هو خليل. " نظر إلىَّ الرجل الطيب، واتضح لى أنه يعرفنى؛ ولكنه بلغ من الأمانة حدًا جعله لا يكشف عن ذلك أمام الناس أو يضايقنى فى هذا المكان. قال لرفيقى:" هل تعرف من يكون هذا الرجل؟" ورد عليه حامد عابسا،"

إى! – واحفظ هذه النقود أيها المضيف، إلى أن أعود إليك مرة ثانية." العرب أصحاب شراهة شديدة؛ وعهد حامد بذهبه إلى رجل غريب فى غير وجود شاهد! ولكن أغلب الظن أن تلك الوديعة سوف يحفظها المتلقى المسلم ويصونها ، كى يعيدها إلى صاحبها. هذه الوديعة قد تصبح إرثا، – ثم توضع كى تعطى للورثه [راجع سفر الخروج ٢٢ الآيه ٧ وما بعدها] . سألت مضيفنا عن الآثار الموجودة فى هذا البلد." أجابنى، "هذا البلد كله، كان فى الماضى ديرة dirat للرولة! Ruwalla" وقد سبق أن أوضحنا أن أولئك الرولة كانوا من أعراب المدينة المنورة فى يوم من الأيام! [ص ٢٠٥] ، – ولكن مضاربهم الحالية موجودة فى أقصى الشمال، أى على بعد مسافة ٢٠٠ ميل عن هذا المكان. طلب منى مضيفى إعطاءه دواء لولده؛ وهنا بدأت أفرح من جديد،من منطلق أنى لدى ما يمكن أن أقدمه هنا.

تعد قرية سميراء، التى تقع فى الممر ما بين جبل شمر والحجاز محطة رئيسية من محطات السقيا والتزود بالماء. وسرعان ما يصل بدو سالم أو إن شئت فقل: بنى سالم، إلى هذه المحطة لكى يجرى تحصيل الضرائب المطلوبة منهم. بقاء البدو بصحبة ماشيتهم قد لا يستمر سوى ساعات فقط؛ ويجرى تحصيل الضرائب وجبايتها، بواسطة البعثة العربية خلال جزء من اليومين. ولكن كيف يستطيع جباة الضرائب جمع هذا العدد الكبير من الأعراب والسيطرة عليهم كل عام؟ ولكن خوف الأعراب من ابن الرشيد هو الذى يجعل مثل هذه الأعمال تتم فى يسر وسهولة. – والشيوخ يحضرون عملية الجباية هذه ليبتوا فى الأمور ، وكل من يخدع الأمير يعرض عنقه للخطر. وبنو على يجرى تحصيل الضرائب منهم فى مسقى الفعارة Fuara ، الذى يبعد مسافة "رَحْلَة" واحدة شرقى مسقى سميراء، أى بالقرب من وادى الرماح. فى الفعارة توجد مجموعة من الآبار والعيون، كما توجد أيضا بعض أراضى زراعة القمح، ولا يوجد سوى قصر واحد فى هذه المنطقة يعيش فيه قروى مغامر من قرية المستجدة، والذى عقد العزم على فلاحة أرضه وريها خلال موسم الربيع: ولكن حاله لم يتحسن تحسنا كبيرا. عيون الماء قليلة جداً فى الأراضى المرتفعة من الجزيرة العربية، إلى حد أن الناس يقولون: إن هذه العيون المائية تكاد تكون معدومة. وبعد أن عدت من تلك الأسفار

إلى دمشق ، قمت بزيارة للأمير عبد القادر (الذى كان ضليعا بين فقهاء المسلمين، فيما يتعلق بالتراث العربى وأمور الدين) ؛ وهنا وجه إلى ذلك النبيل الجزائرى السؤال التالي: هل كانت هناك عيون كثيرة [فى تلكم الأراضى التى زرتها أنا فى الجزيرة العربية] يسقى الأعراب منها قطعان أغنامهم وماشيتهم؟' وتعجب هذا الرجل عندما قلت له: إن تلك العيون تكاد تكون غير موجودة! وعندما قلت له أيضا: إن مياه الصحراء (ومياه الواحات) يجرى جلبها من الآبار.

وجدنا الناقة والزكائب والجوالات ، عند باب القرية، فى المكان الذى تركناها فيه: كان الارتفاع هنا حوالى ٣٩٠٠ قدم. وهنا بدأنا نتجه صوب جبل حبشى : - وبعد مسير ساعة واحدة رحب بنا صوت من بين الأدغال! كان هناك رجل ومعه ناقته على مقربة منه. وهنا صاح حامد مناديا مرة ثانية،" أوه! ألا تريد أن تعرف الأخبار ، تعال إلى هنا !" - ثم نزل عن الناقة، ليعرف مقصد ذلك الرجل، الذى راح يحدث لنا بعض الإشارات؛ فى حين سرت أنا ببطئ فى اتجاه الجبل. وبعد حوالى نصف ساعة شاهدت رجلين يسرعان قادمين من خلفى وراكبين على ناقة من النياق: خطر ببالى أنهما ربما كانا لصين، وهنا وضعت سلاحى فى وضع الاستعداد، - إلى أن بدأت أتبين صوت حامد وأتعرفه. الرجل الثانى مع حامد، هو ذلك الرجل الذى كان يصلح القهوة بالقرب من أحد الأدغال عندما مررنا عليه؛ ولم يفعل شيئا سوى أن نادى علينا لنشرب معه القهوة. هذا الرجل المحترم، واسمه تركى، كان تاجرا من تجار الماشية (أو إن شئت فقل وسيطا بين البدو والقصابين) فى المدينة المنورة: وهو بالرغم من إقامته فى المدينة المنورة ينتمى إلى قبيلة حرب. ومع دخول فصل الربيع، كان يأتى إلى هذا المكان لابتياع الأغنام . كان رجلا متقدما فى السن، وكانت خفة ظله تتسم بانحرافات العرب . حملق ذلك الرجل فى وجهى وأطال النظر إلىّ ؛ والسبب فى ذلك أنه مر على ابن ناحال بعد رحلينا بيوم واحد وسمع منه عن النصرانى: ثم وصل إلى هذا المكان قبل أن نصل نحن إليه والسبب فى ذلك أننا مشينا على شكل دائرة فى اتجاه الشمال. سألنى تركى،' هل أنا بحق ذلك الذى يسمونه النصرانى؟' (هذا الاسم الملئ بالمضايقات والإزعاج)! ثم أجاب هو نفسه على السؤال مغمغماً،' لا يمكن أن أكون أنا

ذلك الرجل، لأنى أنا رجل مسالم؛ يضاف إلى ذلك أن حامد ذكرنى أيضا بالخير." - ولكن هيا بنا، نضبط الخطى كى نمضى فترة الظهيرة مع بعض الأعراب، الذين يقال: إنهم نصبوا خيامهم فى المنطقة التالية." مشينا ثلاث ساعات ثم نزلنا عن إبلنا فى المنْزَل الذى يقيم فيه أولئك الأعراب. وهنا كنت مصمما على القيام بالرحلة التى حددتها لنفسى . - هؤلاء الأعراب لم يكونوا محبوبين أو بشوشين. [وبدو نجد بالرغم من ملامحهم السمراء، تزداد سمرتهم بفعل الدخان والأقذار - وبخاصة أيديهم التى تشبه أيدى الزنوج؛ ولكن بشرتهم التى لا تشوبها الشمس تميل إلى الابيضاض] .

عندما استأنفنا المسير ثانية سألت الرفاق : " هل كان هؤلاء الناس من حرب أم من الصلبة؟" وأجابونى وهم يضحكون،" إنهم من قبيلة حرب ، من بنى على؛ - خليل يعرف كل شىء! إنهم ، والله، يشبهون الصلبة." وعندما استدرت وأنا فى عدة (سرج) الناقة، جفلت الناقة من تحتى، وانطلقت بسرعة جنونية؛ وقبل أن أتمكن من التحكم فيها طرت فى الهواء، وسقطت على ظهرى فوق أرض رملية؛ - والويل كل الويل لمن يسقط هذه السقطة على أرض من الحجر! لقد شاهدت بعض البدو وهم يتشوهون تشوها قاسيا بفعل سقطة من تلك السقطات فوق أرض حجرية. كانت تلك رذيلة من رذائل ناقة ذلك الرفيق، ولكنه لم يحذرنى من ذلك ؛ والصحراء فيها الكثير من النياق المتوحشة مثلما فيها الكثير أيضا من الأغنام المسالمة. وأنا عندما سقطت من فوق الناقة كنت حريصا على البارومتر الذى أقيس به الارتفاع؛ ومن باب الحظ الحسن، لم يهتز ذلك البارومتر الذى كنت أمسكه فى يدى. وهنا جرى حامد، وعدا تركى بناقته السريعة وتجاوز الناقة الهاربة؛ ونزلنا مرة ثانية . مشينا مدة ثلاث ساعات أخرى ، وصلنا بعدها إلى فريج آخر من فُرُج قبيلة حرب، ونزلنا فى ذلك الفريج لقضاء الليل؛ وهنا عثر تركى علىٍّ بعض معارفه؛ وهنا أصبح النصرانى غير معروف للناس.

والبدو يشبون نار المساء عندما تبدأ الشمس فى الغروب . كان تركى واحداً من هؤلاء الأعراب، الذين يوحى محياهم بالضعف ، وهم متيمون بالقهوة، إلى حد أنهم لا يعدون أى يوم من أيام حياتهم، إذا لم يشربوا القهوة بواقع مرة واحده كل ثلاث

ساعات. ولو قدر لتركى أن يترك فى أرض المسيحيين لبقى كل يوم مخمورا على مقعده فى خمارة القرية. هذا البدوى لم يكن يركب الناقة إلا نادرا؛ وكان حمله لخرجه نو الشراريب أقل بكثير من حمله لطاسة تحميص البن، ودلة القهوة، والصندوق الذى يحتوى على ثلاثة فناجيل، والهاون ويد الهاون المصنوعين من النحاس الأصفر، علاوة على سطل من الخشب كان يستعمله خصيصا فى شرب الماء: لم يكن معه أى شىء من الطعام كى يتزود به أثناء السير على الطريق، وكان يتطلع دوما كل ليلة إلى تناول العشاء مع الأعراب. أما فيما يتعلق بالملابس فلم يكن مع هذين الرفيقين أى شىء منها باستثناء تلك الملابس التى كانا يرتديانها ؛ وعندما يصل الواحد منهم إلى مصدر من مصادر الماء يبادر بغسل ملابسه، ويستر نفسه بعباءته (بشتة) المصنوع من الصوف الخشن، إلى أن تجف ملابسه بفعل حرارة الشمس . هذا هو ذلك المحترف، قد أخرج عدة القهوة؛ وقد وضعها منظمة حول الوجار، ثم قال: "من من الحاضرين هنا معه شىء من البن؟" وهمست له قائلا: إن هؤلاء أناس فقراء وليس لديهم أى شىء من البن." قال: انتظر! وسوف ترى بعينك: " - وفى الحال، جرى إحضار حفنة من حبوب بن [جنوب الجزيرة العربية] من خيمة من تلك الخيام الفقيرة! وما أن وضعنا الدلة على النار، حتى انهال علينا منجذبا إلى النار ، جحفل من الخنافس صفراء اللون، التى جرى ضربها، لتسقط بعد ذلك فى حفرة النار. دافع تركى عن دلة القهوة دفاعا مستميتا لفترة وجيزة؛ ثم سحب الدلة على جنب وقال متعجبا:" انتبه، يا خليل! النصارى سوف يسقطون فى النار بهذه الطريقة ؛ لأن النار هى مثواهم، وهكذا سيكون مآلهم فى جهنم ،الله يحرقهم ! ولكنى أعتقد أنك بكل تأكيد لست واحداً منهم؛ إخ! يا خليل ، قل إنك لست نصرانيا! " - كان الشىء الوحيد الذى قدمه لنا الضيف فى تلك الليلة يتمثل فى صب شىء من حليب النياق لنا؛ وكان نفاق حامد يتمثل فى التعفف: وهنا قلت له أمام الجميع،" قل له: يملأ سطلنا! - ولا داعى للمجاملات التى لا وزن لها." وهنا رد على حامد مغمغماً، "عاداتكم ليست مثل عاداتنا."

ركبنا نياقنا بعد طلوع النهار وركب معنا تركى أيضا. وخلف جبل حبشى دخلنا إلى سهل واسع كبير يمتد فى اتجاه الأفق. لم يسبق لى رؤية سهل واسع من هذا

القبيل منذ أن غادرت سوريا؛ والسبب فى ذلك أن منظر أرض السهل فى نجد يكون محاطا من جميع الاتجاهات تقريبا بالجبال والمرتفعات . كانت العلامات الأرضية الدالة على المسقى، الذى يطلقون عليه اسم الغريمر Ghraymar تبدو لنا كما لو كانت مرتفعات تشبه الأهرامات ، من الحجر الجرانيتى ، ولكنها تبدو سوداء اللون بسبب ظل السحاب المنعكس عليها. هذه الأرض المستوية التى يطلق الناس عليها هنا اسم فويليق Fueylik تستمر اعتبار من هذه المنطقة إلى أن تصل إلى نفود القصيم، وهنا كان رفاقى أيضا يخشون الغزو المحتمل ويتخوفون منه . تركى : يا خليل أنت تركب معنا بلا خوف أو قلق! ولكننا إذا ما التقينا الغزو فسوف أهرب أنا وحامد على هذه الناقة، ونتركك على الناقة التى تركبها ، وسوف يأسرك الغزو." كانت قد سقطت على هذه المنطقة زخة من زخات أمطار شهر أبريل كانت.تتبدى لنا خيوطها فى ضوء الشمس كما لو كانت شعرات ذهبية اللون ؛ وتركت أرض الصحراء على مشاعرنا أثرا جميلا بفعل حلاوة الخضرة الحلوة التى ظهرت فى إثر سقوط تلك الأمطار. وعندما اقتربنا من الصخور، شاهد رفاقى الماشية الكبيرة، وحسبوا ذلك غزوا فى منطقة السقيا! وبعد ذلك اتضح لنا أن تلك كانت مجرد قطعان من إبل الأعراب: كانت هناك مئات من الإبل الواقفة بعيدا عن بعضها البعض ، أو الباركة بالقرب من أصحابها، وكانت هذه الإبل كلها تنتظر الدور كى تشرب وترتوى. كانت تلك عبارة عن رحْلة، وكانوا أولئك أناس (من قبيلة حرب) يسقون ماشيتهم بعد أن وصلوا إلى منتصف هذه الرُحْلة. كانت هناك بعض أمتعتهم المنزلية بعد أن أنزلوها عن إبل النقل؛ كانت بنات حرب يركبن على الإبل الأخرى، فى السلال التى تعلق فى سُرُج الإبل، – تلك السلال كانت مزينة بقماش ملون وخيوط طويلة وشرائط طويلة مصنوعة من جلد الإبل . فى القبائل التى سبق لى التعرف عليها. هذه الأبهة تكون من فعل ربات بيوت الشيوخ؛ ولكن هؤلاء الأعراب الذين نحن نراهم هنا من بنى سالم، – وبنو سالم هؤلاء أناس يتجولون بين البدو الرحل وهم مرتدين أحلى ملابسهم . ويبدو أن كل واحد من بنى سالم هؤلاء كان عطافة Atafa [انظر الجزء الأول، – أو إن شئت فقل عطيفة Ateyfa] ، – والعطافة أو العطيفة هى تلك الحدائية التى تتغنى من سلتها بألحان القتال ، بصوتها العذب

لتوقد قلوب شباب القبيلة أثناء القتال، (والأعراب حساسين لهذه المسألة إلى حد بعيد). - إذ يرى كل واحد منهم هذه الحدائية وكأنها زوجة له، وهى بلا حجاب كما لو كانت فى يوم عرسها! - والعطافة أو العطيفة تكون واحدة من بنات شيخ من الشيوخ؛ ولكن حامد قال: إنها يمكن أن تكون مزعونة (*) mezuna أخرى: وقد جرى العرف ألا تقتل العطافة؛ ولكن عندما تتطاير الطلقات، قد يسقط الجمل الذى يحمل العطافة أو يفر هاربا، وهنا يتهدد الخطر حياة هذه الصبية. كانت قطعان الأغنام راقدة فى مجرى سيل جاف، تنتظر الشرب من الماء؛ وكانت حمير الرعاة تقف إلى جوارهم.

بئر الصحراء، الضخمة الذى له فتحة مربعة الشكل، مبطنة من الداخل بأحجار البازلت المرصوصة بالطريقة الجافة؛ كان عمق البئر إلى سطح الماء يقدر بحوالى ثلاث قامات. كانت الإبل الواقفة أمام الغدران، تدوس على روث له رائحة نفاذة، وتحاول طرد الذباب الذى كان يحط عليها. كان هناك حوالى عشرين من البدو يرتدون قمصانهم الطويلة ويتحلقون حول أضلاع البئر الأربعة، وهم يتغنون بصوت مرتفع، ويتصببون عرقا فى ضوء الشمس. وفى وسط الماشية شاهدت قلة قليلة من الشيوخ ومعهم أفراسهم؛ وكانت كلاب مخيم أولئك البدو الرحل ترقد وهى تلهث فى الظل الناتج عن الجمال الطويلة؛ وكنا نحن الغرباء نمر عليها دون أن تتحدانا أو تعترض طريقنا! هذا هو شيخ من الشيوخ، كان يقف بالقرب منا، يتناول سملّته (قربته)، ثم يتناول سطلا، ويروح يصب لنا شيئا من اللبن. هذا شيخ آخر يسألنا عن المكان الذى ننتوى الذهاب إليه، ويقول: "سوف يرافقنا فى الغد [الذى يطلقون عليه اسم الجبيلى el-jabily]، إذا ما بقيت اليوم معه فى خيمته . - انتبه أيضا لأن المطر يشكل خطرا، ونحن أيضا سوف ننصب خيامنا بعد هذه المنطقة بمسافة قصيرة." حامد: "والله، يحتمل ألا أنتظر؛ لأن صدرى ضاق وأود العودة إلى موطنى ثانية." - لم أكن معروفا لأى أحد من هؤلاء الأعراب .

(*) مزعونة بمعنى جميلة فى لغة البدو . (المراجع)

رحلنا عن المكان ولكن تركي بقي هناك. كانت الصحراء بعد هذه المنطقة عبارة عن سهل زلطي وسيع: كان هناك منخفض عن يميننا؛ وأسفل هذا الجبل كانت هناك هجرتان (قريتان): قرية مخول Makhaul (وهي قصر من قصور زراعة القمح) وقرية عُثيم Autheym ، وكان عدد البيوت في هاتين القريتين خمسة بيوت. وفي أواخر فترة العصر تساقطت بعض قطرات المطر من السحاب المنخفض؛ وبعدها هطل علينا مطر غزير بصورة مفاجئة، كان سقوط المطر شديدا وصوته واضحا وهو يصطدم بالأرض الزلطية، إلى حد أن السهل كله أصبح يفيض خلال لحظات قليلة. وبقيت الناقة التي كنت أركبها ثابتة ومتحوطة لعاصفة البرد. وسرعان ما سرى البلل خلال عباءاتنا المصنوعة من الصوف الخشن؛ وهنا بدأنا نبحث عن ملجأ لنا أسفل بطن الناقة.

وبعد حوالي نصف ساعة انتهى ذلك الحال السيئ، وهنا ركبت الناقة مرة ثانية. وبدأت أشاهد الطيور الصغيرة، التي لم أراها من قبل وهي تطير فرحة فوق سطح الصحراء المبلل بالماء. وهنا ظهرت الشمس، ومن بعدها ظهر منظر يشرح الخاطر ويسر النفس ! ظهر أمامنا قوس قزح ثلاثي (الصورة رقم ٦) مرسوم في الهواء من أمامنا! فقد كان هناك قوسان ومن فوقهما قوس ثالث يرتكز على نهايتي القوس الأول؛ ويشبه القوس الأول أيضا في تدرجه اللوني. - هذه الأقواس هي بمثابة الأقواس السماوية لتركيبة الشمس، وهذا القوس يوحي بهدوء السماء بعد المعركة التي دارت بين العناصر في أرض الجزيرة العربية الصحراوية.

غربت الشمس في عتمة متدرجة تحولت إلى ليل دامس على وجه السرعة. واصلنا مسيرنا على أمل الالتقاء ببعض الأعراب، وكان المطر القليل يتساقط علينا بين الحين والآخر. كان البرق يظهر على الأرض من أمامنا، ولكن بلا رعد؛ وكان البرق ذو العرف الطويل يظهر أمامنا في الأفق معلقا، مدة لحظات، على امتداد الأفق الواسع؛ كانت هناك ومضات أخرى طويلة تندفع نحو الأسفل على شكل سلاسل مزدوجة من البرق والضوء. الشكل العام لكل هذه الأنواع من البرق كان يشبه مجرد شعرة واحدة من الصوف سقطت في الماء. - كنا بين الحين والآخر نسمع زئيرا خافتا وليس عاليا

للرعد. ثم شاهدنا بعد ذلك القمر الجديد، الذى يبلغ من العمر يومين، شاهدنا القمر وهو يغرب . والناس هنا يحيون ظهور الهلال بتحية دينية، هنا فى صحارى الجزيرة العربية، وقد حيينا القمر، نحن جوَّالى الليل المساكين، بالتحية نفسها؛ كان ذلك اليوم، على حد علمى، يوافق اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل. واصلنا بحثنا عن نيران البدو، وسمعنا من حولنا صراخا لطيور لم أعرف ما هى. أخيرا هيئ لحامد أنه شاهد وميض نار للحراسة. واصلنا مسيرنا وكنا نشاهد ذلك الوميض من حين لآخر، وفى بعض الأحيان الأخرى كان ذلك الوميض يختفى عن أنظارنا بفعل أرض الصحراء غير المستوية. كان ظلام الليل دامسا، الأمر الذى أدى إلى تعثر الناقة، فضلا عن أننا لم نتمكن من رؤية الأرض. أما حامد، الذى يندر أن يخطئ علامة من العلامات، فقد بدأ يتخوف من احتمال سقوطنا من مكان عالٍ إلى آخر منخفض: ولذلك قال: إنه لن يستمر فى مغامرة من هذا القبيل. لم يكن معنا ما نأكله، وبعد أن نزلنا من فوق نياقنا وقد ابتلت ملابسنا، جلسنا فى المطر بجوار الناقة؛ ولكن هدأ هبوب الريح مما جعلنا نروح فى سنة من النوم.

طلع نهار الغد علينا وأصوات الطيور العذبة تتردد من حولنا، كما لو كنا فى بلد من بلاد الشمال! جففنا ملابسنا، وأصبحت خفيفة على ظهورنا، وكنا قد تخطينا ذلك الظرف السيئ. بعد أن قطعنا مسافة ليست بالقصيرة شاهدنا الخيام أمامنا على بعد ميل تقريبا، كما شاهدنا أيضا بعض الإبل التى كانت ترعى. ومع هذا المنظر الإنسانى المبهج رحت أستحث الناقة كى تعدو، وهنا راح حامد يتغنى بأغنية السرج بصوت عال. جاء بعض هؤلاء الأعراب – وقد كانوا من بنى على – للقائنا؛ لأنهم عندما شاهدوا خرجى أحمر اللون المصنوع من صوف السجاد، حسبوا أنى واحد من أولئك السماسرة [وهم هنا يقولون للسمسار مشوَّم mushowwam] الذين يجيئون من البلاد المجاورة، ويترددون على بلادهم بين الحين والآخر لشراء الإبل . وعندما وصلنا إلى أولئك الأعراب، قال أحدهم لزميله، "ألم أقل لك إنه كان مثلما قلت؟" ورد عليه زميله، "إى، أنا عرفته من النظرة الأولى." نزلنا أمام خيمة وأنزلنا أشياءنا؛ واقتادنا أولئك الذين كانوا يقفون بجوارنا إلى بيت الشيخ. "قالوا: قهوة الصباح جاهزة؛ هيا بنا،

لنشرب القهوة وننعش أنفسنا، وتحكوا لنا الأخبار." وهنا أطلق حامد ناقتنا لترعى؛ ثم اتجهنا صوب المقهى. - وهنا بدأ يظهر علينا رب البيت الذى وقفنا أمام خيمته، ثم أقبل علينا لتحيتنا: عدنا مع رب ذلك البيت لتناول الإفطار ، ثم نلنا هناك قسطا من الراحة. كان ارتفاع هذا السهل يقدر بحوالى ٣٤٠٠ قدم.

كل أولئك الأعراب سبق لى التعرف عليهم، وهم جماعة مرحة من الناس الأشقياء، الظلمة، الخرافيين والمتشددين أيضا. وبالرغم من أن بنى على يلومهم الناس ويصفونهم بالكفر، وبخاصة من قبل أفراد قبيلة حرب الموجودين فى ديرة المدينة المنورة، إلا أن هؤلاء البدو الذين يقيمون فى هذا المنزل كانوا كملاً - أكثر من القبليين الذين يعيشون فى الخلاء (الصحراء)، وذلك فيما يتعلق بالالتزام بالدين والحفاظ عليه. السبب فى ذلك، أن الشمس عندما كانت فى وسط السماء، وقف واحد من أولئك الرجال الصحراويين وتقدم نحو الأمام [ولم يسبق لحامد، الذى سبق له أن كان مواطنا فى ثلاث من القبائل الكبيرة، أن رأى مثيلا لذلك الرجل بين البدو] ليقوم بدور المؤذن muethin ! وعندما وصل إلى نهاية الأذان، الصلاة es- salat والسلام es-salam Wa عليك aleyk ، ياأول Yaauwel خلق Khulk وخاتم Khatim رسل rusul الله Illah ، تجمع هؤلاء الناس الصحراويين خلفه فى صف واحد ؛ وراحوا يركعون ويسجدون ويحمدون الله! الدين الذى فى هذه البلدة، كان بلا أدنى شك تقليدا للدين السائد فى القصيم القريبة من تلك البلدة، والقصيم هذه واحدة من البلدان الوهابية. - قالوا أيضا صلِّ Sull يا ya ، تعال taal صلِّ Sull ، بمعنى "تعال يا أنت وصلِّ !" ولكنى اعتذرت، وانسحبت من بينهم. لم يغب عن بالى مطلقا، ألا أكون موجوداً وقت إقامة الصلاة بين هؤلاء العرب المتشددين. - ابتعدت عنهم مسافة نصف ميل على الرمل الحار، وجلست فى ظل دغل ؛ ولكنى لم أغب عن أعينهم التى تشبه أعين الصقور: لأنى عندما عدت إليهم ، قالوا: " الغريب لم يُصلِّ؛ وآه! وهو لا يمكن أن يكون مسلما!" وهنا حدث بينهم نوع من الهياج.

تناولت الطعام فى خيمة من الخيام، وكنت أجيب على تساؤلاتهم بإجابات قصيرة، "ما الداعى إلى هذه الأسئلة الكثيرة، أيها الأصدقاء ؟ أنا نصرانى." قال بعضهم

للبعض الآخر: لكن كيف! يمكن أن يكون هناك فى هذه الدنيا، أعمى، لا يعبد الله؟"
أطالوا النظر إلىّ، وسألوا رفيقى، "كيف حال الرفيق؟ كيف تثق أنت نفسك بوجودك معه؟ رجل وثنى!" رد عليهم حامد معتدلا، "كان خليل رفيقا طيبا، وإنه سمع خيرا عنه بين الأعراب؛ وفى كل مرة كان خليل يتكلم فيها عن الدين، كان يبدو كما لو كانت تربطه رابطة صحيحة بالله (سبحانه وتعالى)؛ يضاف إلى ذلك أن جرس كلماته كان قريبا جداً من جرس كلام المسلمين الدينى." وبهذه الطريقة أمكن مهادنة بنى على من منطلق أنى رحّال، ويجب عليهم ألا يضايقونى؛ وهنا ردوا "إن شاء الله سوف أبقى فترة قصيرة فى منطقة القصيم المتفقهة فى الدين، إلى أن يفتح الله لى طريقى وينورنى !"
وقالت النساء الطيبات فيما بينهن: ود Widd الغريب el-ghraib بلده beledhu . وعندما وقف البدو على حياتى البدوية المترحلة، تساءلوا ، هل كل أهلى كانوا من البدو؟"

فى منتصف فترة العصر، قرر حامد المضى قدما ثانية – وترتب على ذلك تمضية ليلة أخرى فى الخلاء (الصحراء)؛ حدثت لنا بالأمس نوبة شريرة، واتفقنا على إثر تلك النوبة – أننا إذا ما عثرنا على الأعراب فإن ذلك يمكن أن يكون يوما من أيام الراحة. ولكن حامد تكلم ملتمسا العذر لنفسه،" أن صدره ضاق، إلى حد أنه يتشوق للعودة إلى موطنه مرة أخرى!" – "هذا هو الربع الأخير من اليوم؛ وهذا هو السحاب المنخفض ! أين فهمك ؟" أجابنى قائلا: " لو قدر لى البقاء، فإنه سوف يتخلى عنى؛" ثم ذهب ليأخذ ناقته: ولكنى اكتشف أنه بقى عندها ليرعاها. قال البدو لنا: إن هناك أمامنا فريجا من" الأعراب الطيبين"؛ الذين تسلموا مؤخرا تموينهم الصيفى من الأرز الذى يأتى من العراق، وبالتالى سيكون بوسعنا تناول العشاء معهم . أشرت إلى حامد ليعود إلىّ ومعه ناقته . – ثم ركبناها وسرنا مدة ساعتين: ووصلنا إلى ذلك المنزل، عند غروب الشمس ولكننا عندما لم نجد أحداً من الرجال فى الخيمة الرئيسية، نزلنا بعيدا عنها بمسافة قليلة وجلسنا على الأرض. وفى الحال، جاء إلينا رب البيت الذى كان واحداً من الشيوخ، وكان بصحبته بعض الرجال، الذين جاءوا من خيام بعيدة عن الخيمة الرئيسية، يضاف إلى ذلك أن تلك الخيام البعيدة لم يكن عددها يتجاوز ثلاث أو أربع خيام؛ وقفوا للحظة ليتحققوا من هويتنا !ثم أقبل الشيخ علينا وهو يقول: "ما الذى

جعلكم تجلسون هنا، انهضوا يا قوم! وادخلوا الخيمة." - وهنا بدأت ألاحظ أغنامهم وهى تدخل المراح؛ ووجدت قطيعا طيبا من الغنم يرقد أمام كل خيمه من الخيام: ولكنى لم أشاهد سوى جمل واحد أو جملين على أكثر تقدير.

هؤلاء الأعراب ليس لديهم ماعز: وماشيتهم الصغيرة عبارة عن أغنام سوداء اللون بيضاء الرءوس، من أعالى نجد؛ لم يكن هناك أية جزّة بيضاء بين تلك الأغنام. وعندما سألت حامداً، "أين إبل هؤلاء الأعراب؟" أجابنى هامسا، "هؤلاء الأعراب هم أوريمات Oreymat حرب، وليست لديهم سوى قطعان من الغنم؛ وليس لديهم إبل." هذه إذن حياة أخرى من حياوات الرجال الذين يسكنون الصحراء ويعيشون فيها بلا إبل! أردف حامد قائلا: "هذه نوعية من البشر لا علاقة لها بالعمليات الحربية؛ وقد ضاعت إبلهم بسبب الغزو، ولكنهم لم يردوا على الغزو بغزو مماثل . وهم ليس لديهم سوى هذا العدد القليل من الإبل التى يستعملونها فى الحمل والنقل: ومع ذلك فحالهم على ما يرام ؛ لأن لديهم كميات كبيرة من السمن الذى يحصلون عليه من نعاجهم، التى تراها أمامك؛ - وهم يسوقون yusukun الزكاة ez-zika بمعنى" يدفعون الزكاة لابن الرشيد." [أغنام الحرب والشمر فى هذه الديار كلها سوداء اللون ، أكبر جسما من الأغنام الأخرى، ويعتقدون أيضا أن النعاج السوداء تدر حليبا أكثر من غيرها من النعاج. والغنم دونا عن سائر الماشية الأخرى تضعف فى الشمس، ونحن نرى تلك الأغنام وكل واحدة منها تحاول أن تستظل بظل الأخرى، وترفع رءوسها فى فترة الظهيرة؛ والمؤكد أن جزَّات الصوف بيضاء اللون يفضلها الناس فى البلدان الحارة] .

هؤلاء البدو الذين يعرفهم الناس هنا ببنى سالم أصحاب سلوكيات طيبة؛ ولم يحدث أن أكرمنى أحد غيرهم وعاملنى بهذه الطريقة الجيدة. قال واحد منهم - سبق له أن رأى النصرانى وتحدث معه فى حائل - كلاما طيبا فى حقى وذكرنى بالخير عندهم. كرم بنى سالم هنا خالٍ من الحقد والضغينة التى ينطوى عليها الكرم فى منطقة المدينة المنورة وبخاصة من قبل أفراد قبيلة حرب، يضاف إلى ذلك أن خيام بنى سالم هنا كانت مقسمة تقسيما متساويا: كان الرجال هنا أيضا بشوشين [مما يعنى

أنهم كانوا شبعانين فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية]، وأصحاب همة . سألنى مضيفنا الشيخ سالم سؤالا يدل على المراوغة ، هل لدى دواء لعينيه الملتهبتين ؟ أعطيته أفضل دواء عندى؛ وقال لى وهو يتنهد: "من ذا الذى يمكن أن يقطع بمدى فائدة ذلك الدواء لى، لأن ذلك بيد الله وحده. هذا السالم (الذى كان أفضل كل من عرفتهم وتعرفت عليهم) أحضر لى على الفور هدية من المريسى، ومن الزبد: وقدم لنا عشاء مشبعا من الأرز (التمن) والسمن. وعندما كنت أحس بالتعب والإرهاق كنت أرقد على الرمل داخل الخيمة الآمنة وأروح فى سبات عميق: ولكن سالم، الذى كان يجلس إلى جوارى، قال لى: إنه يتعين عليه أن يظل صاحيا طوال الليل، تحسبا لهجوم الذئاب – ونحن نتعرف على مجئ الذئب عن طريق النباح المستمر الذى يصدر عن الكلاب – التى تحوم حولنا. هذا هو حال أولئك البدو الذين توقفوا عن تربية الماشية فى الصحراء.

استيقظنا مع طلوع النهار كى نواصل مسيرنا؛ وأحضر المضيف لنا سطلا كبيرا من لبن الخض: كانت ضيافة ذلك الرجل بمثابة رحمة لنا ونحن فى طريقنا إلى حائل . – سرنا مدة ساعتين ؛ وهنا ارتفعت الشمس فوق الصحراء وارتفعت معها حرارتها، إلى أن وصلنا إلى منزل من منازل بنى على، وكان ذلك المنزل عبارة عن ست عشرة خيمة منصوبة على شكل دائرة، – وهذا الشكل لم يسبق لى أن رأيته فى الجزيرة العربية، ولكن الماشية الكبيرة لهذا القسم من بنى على، كانت ترقد داخل مظلة من الخيام وحبال ممدودة، الأمر الذى يُصَعِّب من سرقة تلك الماشية بواسطة اللصوص أثناء الليل. – وإذا ما وقف جمل من الجمال واقتيد إلى الأمام فإنه تجرى خلفه بقية الإبل (شأنه فى ذلك شأن الأغنام التى لدى بنى على) ؛ وبالتالى لا تؤدى أخفاف الإبل إلى إيقاظ البدو النائمين. اكتشفنا أن بنى على هؤلاء من أعراب القهوة، إنهم من عشاق النوم أثناء النهار، وأنهم يفنون حياتهم باستعمال الحثالة الكريهة الناتجة عن مخدر المُخا (*) Mokha ؛ واكتشفنا أنهم أيضا أصحاب سلوكيات توحى بالغيرة

(*) مخدر المخا : المقصود به البن اليمنى الذى يأتى من مخا باليمن . (المراجع)

والحسد، وأنهم ليسوا كرماء. كان البعض منهم ينظرون إليّ، ويتهامسون مع بعضهم البعض، ويسخرون منى! - كان كل البدو الرحل التابعين لابن الرشيد قد سمعوا عن ذلك النصرانى الذى جاء إلى بلادهم من قبل . وضعوا التمر أمامنا ؛ وبينما كنا جالسين نشرب القهوة ، خرج رجلان ومعهما بندقيتيهما الفتيليتين ليفتحا النار على كلب من الكلاب ، أطلقا عليه اسم ساروق Saruk ، بمعنى "اللص". لم يكن أحد يعطى ذلك الكلب شيئا يأكله، وكان الجميع يطردون ذلك الكلب من بيوتهم، وكانوا جميعا ينتظرون نفوق ذلك الحيوان؛ ولكن ذلك الكلب كان يسرق المزيد كى يسد رمقه. هذان الراميان البدويان فتحا نيران بندقيتيهما من مسافة ثلاثين ياردة؛ وأخطأ إصابة ذلك الكلب وعندما ضاع رصاص الطلقتين فى الرمل، وارتدتا ناحية البشر، هرب الكلب وراح يجرى فى الخلاء (الصحراء) ، وهو يعوى عواء يوحى بالحزن؛ وهنا عاد الراميان، اللذان لم يكونا على استعداد لتبديد رصاصتين أخريتين، إلى وجار القهوة - وسرعان ماناديت على حامد وطلبت منه أن نركب الناقة؛ مخافة أن يدخل علينا وقت الصلاة ويترتب عليه اكتشاف أمر النصرانى.

مشينا ساعة أو ساعتين، وأدركنا رحْلةً من رحْلات الأعراب: كان أولئك الأعراب من الفرن el-Furn ، وهم سلالة من قبيلة حرب، سميت باسم شيخ الأسرة، والذى يشغل منصب شيخ بنى على؛ - كان هؤلاء الأعراب هم أولئك القوم الذين كان تركى يبحث عنهم. وهنا تقدم نحونا بعض الشيوخ الشبان ، وهم راكبين نياقهم، أو إن شئت فقل: راحلاتهم rahals [وهذه الكلمة هى الشائعة فى هذه الديرة] ليسألوا المسافرين عن الأخبار الجديدة: وعرفنى أولئك الشيوخ الشبان لأنى سمعت البعض منهم وهم يتكلمون همسا،" إنه هو الكافر"؛ وقال واحد منهم:" انظر هذا هو خرجه محشو بالفضة والذهب! إلى حد أن ذلك الخرج يكاد يكسر عنق الناقة!" وقال آخر لنا:" أنتما أيها المسافران، اللذان يركبان الناقة، نحن سوف ننزل هناك ، فى المنطقة الواقعة خلف سارة Sara [ساحل جبلى من الرمل على شكل قوس كنا نراه أمامنا] ؛ واستريحا اليوم فى خيمتى." - أضاف زميل آخر لهم، بطريق الهمس الذى يوحى بالخسة والنذالة، "تعالا عندنا هذا المساء وسوف تريا المباراة." ظننت أن مرحه هذا ربما كان

هو يرمى من ورائه إلى تهديدى بسكين مثلما فعل ذلك الشيخ القحطانى عندما كنت فى حائل. اعتذرنا: "قال حامد: نحن مضطرين إلى مواصلة السير، حتى يتسنى لنا اجتياز طريق (خطر) أثناء الليل؛" وبعد هذه الكلمة، ضربت الناقة ، وسعدت لأنى سبقت وكنت فى المقدمة. وهنا تجاوزنا التربة البللورية إلى تربة أخرى من الحجر الرملى: كان ارتفاع هذا السهل الصحراوى حوالى ٣٣٠٠ قدم. " لابد من تجاوز سارة (الساحل الجبلى الرملى) ولكن ذلك التجاوز يجب ألا يكون فى وضح النهار، على حد قول حامد، تحاشيا للعتبان؛ هيا بنا نحاول الوصول إلى تلك الإبل الموجودة فى الخلف، لنشرب من هناك شيئا من الحليب؛ وننال قسطا من الراحة هناك إلى أن يدخل علينا المساء." - شاهدت جبل ساق الوحيد الذى يقف بعيدا منعزلا وسط سهل القصيم، - على الجانب الأيمن؛ شاهدته كما لو كان مخروطا حاداً، أسود اللون فى ضوء السماء الصافية الخالية وكان حامد أيضاً يرى قمم جبل أبانات el-Abanat الذى يمتد على جانبى وادى الرماح، خلف جبل ساق، وعلى بعد مسافة كبيرة منا.

وصلنا إلى أولئك الرعاة؛ وتقدم أصغرهما وأخذ منى سطلى وراح يجرى أسفل نياقه وملأ السطل حليبا من فوقه رغوة وعاد به إلىّ. جلست لأشرب الحليب؛ وعندما انتهيا من سماع أخبارنا قال كبيرهما:" هذا الرجل أطول من أى رجل آخر بين أعرابنا! - ما سبب مضيك قدما، أيها الغريب؟ ابق معنا هنا! وسوف نعطيك حصانا، وسوف نعطيك أيضا عباءة (بشتا) قرمزى اللون، - وبالله ، فإن هذا الرجل الذى يحمل فى يده حربة طويلة سوف يقضى على العتبان! - وسوف يعطونك أيضا فتاة لتكون لك زوجة." رحلنا عن هؤلاء الرعاة الطيبين : وعندهم تركت كلام الصحراء وأسلوب الحياة فيها، ورحت أتكلم اللغة التى يتكلمها القرويون الذين يعملون ضمن قوافل القصيم. واصلنا المسير ونحن فوق ناقتينا كى نتجاوز سارة Sara ؛ وعند غروب الشمس كنا قد صعدنا إلى شق فى جبل من الجبال: وواصلنا مسيرنا فى ضوء النجوم فوق تلك الهضبة المكونة من الحجر الرملى، عاقدين العزم على مواصلة السير طوال الليل، الذى كان بارداً وبلا مأوى لنا.

وعند منتصف الليل، ومع تخوف حامد من خيامنا، وتخوفه أيضا من مغالبة النوم لنا، شد الرجل لجام الناقة؛ ووقفنا ونزلنا في مكان رملي فيه بعض الأدغال ؛ وقيدنا رجلي الناقة الأماميتين ورحنا ننال قسطا من النوم. ومع طلوع الفجر ركبنا الناقة: واستطعنا تجاوز ذلك المرتفع من الحجر الرملي، وعندما طلعت الشمس نزلنا إلى سهل من السهول، وهنا شاهدت نخيل أول قرية من قرى القصيم. "قال حامد: هذه هي قرية الروض er-Rauth ، وفيها خمسون بيتا." شاهدنا بعض النساء القرويات وهن يقطعن العلف ليقدمنه للإبل التي تعمل في آبار الماء. هؤلاء الحريم صحن، لأنه خيل لهن أننا لصوص، إلى أن ألقينا عليهن السلام! - كانت النساء قد تقدمن إلى الأمام وهن يرتدين ثيابهن المهلهلة تخوفا منا وتحسبا من أن نكون لصوصًا . وهنا سأل حامد، الذي كان ما يزال خائفا من العتبان، هؤلاء النساء،" يا أيتها الحريم !ما الذي عندكن لتقولوه لنا عن آخر غزو حدث في هذه القرية؟" وأجبنه، "أنه منذ أيام قلائل جرى تجريد بعض النساء من ملابسهن على بعد مسافة صغيرة من أسوار القرية!"

ها هي نفود القصيم الرملية تمتد أمامنا ، والتي بدأت تتدافع أمامنا على شكل موجات طويلة متورمة، تنحرف أمامنا ناحية الشمال وناحية الجنوب. وبعد مسير أربعة أميال مررنا بواحة يسمونها عيون Aun ؛ هذه الواحة تشبه الخليج ضمن جبل سارة الذي سبقت الإشارة إليه من قبل . وفوق صخرة عالية على جانب النفود توجد منارة مبنية من الطين على شكل برج من أبراج المراقبة [ومسألة برج المراقبة هذه موجودة في سائر قرى منطقة القصيم] . والمراقب (الذي يتعين أن يكون رجلا حاد البصر) يحصل على أجره من مشاركة جماعية يسهم فيها الجميع: وتتمثل مهمة ذلك المراقب ، في مراقبة واستطلاع أرض المنطقة من ذلك البرج خلال شهور الربيع وذلك بدءًا من طلوع النهار إلى غروب الشمس؛ لأن الأعراب في تلك الفترة، يطلقون ماعزهم، بعد أن يستعيدوها من الأعراب، للرعي خارج الواحة. رأينا ذلك المراقب وهو دائم الحركة داخل رواقه في أعلى البرج، تحت أشعة الشمس الحارقة؛ كان ذلك المراقب يتنقل في كل مكان، ليراقب تحت ظل يده الأرض الرملية الجرداء الواقعة أمامه. قال حامد: النخيل الموجود في عيون نصف عدد النخيل الذي في تيماء؛ وعدد السكان هنا يتراوح

بين ٤٠٠ و٥٠٠ نسمة. وعيون تقع عند مفترق المسارات التى يسلكها الجمّالة فى القصيم، عندما ينتوون السفر إلى جبل شمر، أو إلى أرض الشمال، أو إلى المدينتين المقدستين . وهنا أصبح رفيقى على قناعة تامة من أنه يتبغى أن يتركنى فى هذا المكان؛ الذى وعدنى بأنى سوف ألتقى فيه بناقلين متجهين إلى أماكن مختلفة، بل إن منهم من يذهب حتى إلى الكويت وإلى البصرة، والله، هم هنا أكثر بكثير من بريدة".

كانت هناك بعض المواشى الكبيرة ترعى فى النفود - لم تكن تلك الحيوانات الكبيرة من الإبل ولكن آه! يا له من منظر جميل، هذه هى أبقار القرية ترعى وسط هذه الصحراء الرملية التى لا تسر الخاطر! قلت:" سوف أتجه بناقتى إلى تلك الأبقار كى أصيب شيئا من الحليب." ورد علىّ حامد، "سوف تطلب ذلك الحليب ولن تحصل عليه، فلا تذهب إلى هناك يا خليل لأن هؤلاء الناس ليسوا مثل البدو، ولكنهم أناس من أهل القرية Geria ، بمعنى إنهم أناس لا يعرفون الكرم : وها هى قرية خيرة تلوح لنا فى الأفق ، وسوف نقترب منها بعد فترة وجيزة ونتراءى فيها برج المراقبة، وسوف ننزل فى تلك القرية لتناول طعام الإفطار." رأيت منحدرا طينيا فى اتجاه الجنوب من النفود. لم يكن حامد يعرف اسم تلك الواحة: قال: " والله، الجراية Geraieh (البلدان والقرى) هنا كثيرة فى منطقة القصيم!" وخلال ساعتين من الزمن وصلنا إلى قرية قصّة Gassa ، التى هى واحدة من قرى النخيل، وهى محاطة بسور ، ونخيلها هو أفضل أنواع النخيل منذ أن تركت بلدة تيماء، - وهذا هو ما قاله حامد ، الذى يعرف بلدة تيماء حق المعرفة. وعندما سألته ما معنى الاسم قصّة Gassa أجابنى بأن " هناك نوع من القرع العسلى يحمل هذا الاسم: " ولكن المعروف أن البدو سذج فى اشتقاقاتهم. وبرج المراقبة - الذى يقولون له هنا المرقاب mergab أو الجرّة Jarra - مقام على صخرة فوق القرية. وأساس هذا البرج مبنى من الحجر الغشيم المثبت بالملاط، أما بقية البرج فهى من الطين المبنى بطريقة ومصنعية جيدة من قطع الصخور. ها نحن أصبحنا فى منطقة القصيم، ذلك البلد المزدحم بالسكان وشديد التدين، فضلا عن كونه بلدا من بلاد النفود التى يعيش فيها الأفراد الذين يعملون فى القوافل. لم ندخل إلى ذلك المكان، وتوقفنا عند بيت منعزل يقع أسفل المرقاب، أو إن شئت فقل: الجرّة أو برج المراقبة.

كان الوقت يصادف موسم حصاد الشعير: وكان ذلك يصادف اليوم الأخير من شهر أبريل . وكان ارتفاع الأرض في هذه المنطقة حوالي ٢٨٠٠ قدم.

نزلنا من فوق ناقتنا وخرج رب البيت قادما من الداخل، ليأخذنا إلى المقهى، وقام واحد من الأطفال بحمل زكائبي وجوالاتي إلى الداخل : وقام حامد بإحضار لجام الناقة وحكمتها، لأن الأمن هنا ليس مستتبا على حد قوله. كانت أرضية المقهى مفروشة برمل النفود! وبعد أن شرب كل منا فنجالين من القهوة نادانا المضيف إلى الدخول في مخزنه؛ حيث وضع أمامنا طبقا كبيرا من التمر – ليس من بينه حبة واحدة من النوع الممتاز، كما وضع أمامنا أيضا سطلا من الماء. وأهل القصيم ليسوا من عشاق الكرم: والأعراب المساكين (الذين يسافرون بلا نقود) يقولون عن أهل القصيم ومن باب التحقير لهم: 'ليس في القصيم شيئًا بلا ثمن!' – وهذا القول صحيح . والقصيم تشبه مناطق الحدود، وسكانها تحولوا إلى حضر: وبلاد القصيم الرملية ،التي تقع في وسط الجزيرة العربية، أقل استقرار واستيطانا من سوريا نفسها. والقصمان (*) من النوع الحريص ومن المغامرين أيضا: وفيهم الكثير من دم بني تميم. وثلث سكان القصيم ممن يعملون في قوافل التجارة التي تذهب إلى المناطق الأجنبية، وإلى المدينة المنورة، ومكة، وإلى الكويت وإلى البصرة وبغداد ، وكذلك إلى البلاد الوهابية، وإلى جبل شمر. والكثيرون من أهل القصيم يغادرون بلادهم وهم في ريعان الشباب ، بحثا عن الثراء خارج بلادهم؛ حيث يعمل البعض منهم بالجندية (كما سبق أن أوضحنا) مع الحكومة العثمانية: وقد كانوا إلى وقت قريب جداً يعملون ضمن قوات العجيل في بغداد ، ودمشق والمدينة المنورة. – ومعروف أن كل منطقه نجد، الواقعة شرقي واحة تيماء – تدخل في إطار الحركة التجارية في منطقة الخليج الفارسي، وليس في نطاق الحركة التجارية السورية: من هنا فإن الطابع (الأجنبي) لنجد هو طابع بلاد الرافدين! وهجرة السواد الأعظم من أهل القصيم تكون إلى بلاد الرافدين ، – وغالبية هؤلاء المهاجرين من المزارعين ومن صغار الباعة ؛ وقله قليلة من هؤلاء المهاجرين هم الذين أصبحوا تجارا أثرياء.

(*) القصمان : أهالي القصيم . (المراجع)

أهل الجزيرة العربية من المناطق الأخرى غير القصيم يقولون على سبيل الاحتقار، عندما يطالعون القرى الخضراء فى القصيم، وهى مختفية بين الرمال المتعرجة: "القصيم كلها نفود". نفود القصيم عبارة عن بلد رملى ، الماء موجود على عمق قريب جداً من سطح الأرض، فى كل أنحاء المسارات والدروب الوسطى من وادى [الرماح] الكبير. وقام الناس بحفر الآبار وزراعة النخيل فى الأرض المنخفضة [التى يقولون لها هنا "قاع" أو"خبرة"]، والتربة هنا من النوع الغرينى، والماء ليس مالغا أو مرًا : وهذا هو حال كل قرية من قرى القصيم . والبلدان الرئيسية هنا تنتمى إلى أواخر العصور الوسيطة. وأقدم مستوطنات القصيم التى ورد ذكرها عند الجغرافيين المسلمين ، تقع على بعد مسافة كبيره جداً ، اعتماداً على ما قمت به من تحريات واستقصاء، وهى حاليا عبارة عن أطلال وأسماء لا تخطر على البال ونسيها الناس. وفقراء القصيم والوشم يتجولون هنا وهناك حتى وهم داخل بلادهم؛ وعمال الزراعة صغار السن يبحثون عن العمل فى المدن المختلفة ، التى يسمعون أن العُروق el-urruk ، بمعنى"عرق جبينهم" يعود عليهم بأجر سخى. لو قدر للقصيم أن تكون أرضا جرداء، لتحول ذلك البلد الرملى، شأنه شأن الأرض الواقعة خلف الأردن ، إلى صحراء عامرة بالأنقاض والأطلال القروية البائسة.

جلس مضيفنا مع صديق له، وأغلق باب فناءه تحسبا لأى اعتداء من قبل الأشخاص المتسكعين . هؤلاء الرجال القصمان ، يضعون على رءوسهم الغترة (غطاء الرأس) البغدادية المصنوعة من الحرير، والتى تتدلى على رءوسهم وأكتافهم؛ ويلبسون تحت هذه الغترة (الشال) الطربوش التركى، أحمر اللون . سألنى المضيف من أى بلد أكون ." أنا رحّال ، من دمشق ." - " لا، أنت لست شاميا لأن كلامك أفضل من كلام الشوام ؛ لأنى سافرت إلى سوريا وزرتها : خبرنى، ألست واحداً من أولئك السكان الذين يعيشون فى قرى الحوران ؟ كنت فى الحوران مع العجيل. من أنت ؟ أنت لست من المسلمين؛ هل أنت يهودى إذن ، أم أنك من النصارى؟" - " نعم ، أيها المضيف، أنا مسيحى؛ هل ستسحبنى إلى مكان بعيد وتقتلنى ؟" - " لا ! ولا تخش شيئا ؛ أليست هذه هى القصيم؟ التى يسافر السواد الأعظم من سكانها إلى البلاد الأجنبية؛

هؤلاء الذين رأوا الدنيا يختلفون عن أولئك الجهّال ، وسوف يعاملونك معاملة متحضرة." - علمنا من مضيفنا أن ابن سعود وصل إلى المجمعة؛ ولكن ثبت عدم صدق تلك الشائعة، عندما وصلنا إلى القصيم ، وفى ديار حرب أيضا! كان مضيفنا يود شراء حبوب الكنين من الحكيم؛ وطلبت منه نصف ريال ثمنا لتلك الحبوب؛ ولكنه لن يدفع سوى أربعة بنسات - ، وذكرنى بكرمه غير السخى. - "ألن ترافقنى إذن إلى بريدة؟ وسوف أعطيك الحبوب." - "ما الذى يجعلنى أدفع ثمنا للكناكينا؟ وفى القصيم ستجد الناس يقدمون حبوب الكنين للناس (وذلك من قبيل الإحسان)."

مشينا بناقتنا على قاع تعلوه قشرة من الملح يقع خلف القرية: وماء البئر الموجودة فى قُصَّة له طعم ذلك الملح . الواحة، التى هى أكبر من وادى الرماح يسكنها حوالى ثلاثمائة نسمة. تخطينا الطقس المظلم ، وها هى الشمس تشرق علينا من جديد خلال فترة العصر ؛ واعترانى ونحن نمشى هنا فى صحراء القصيم، إحساس بركود ذلك الهواء المشبع بالملح ، وهو مثل الهواء الذى نصادفه فى غور سهل الأردن خلف منطقة جرش . وها نحن ما زلنا نشاهد عن يميننا امتداد ذلك الساحل المنخفض من الحجر الرملى؛ وأسفل ذلك الساحل شاهدت نخيلا وأبراجا للمراقبة فى هجر (كفور) وقرى بعيدة. والتربة هنا رملية وبها حبيبات من الصخر الرملى؛ وعلى جانب المسار الذى نسلكه أرى كثبانا عميقة من رمال النفود. وبعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال وصلنا أمام بلدة شكوك Shukkuk ، التى لا تبعد كثيرا عن بريدة؛ بلدة شكوك هذه تقف - (وهذا هو ما لم أره فى أية مستوطنة أخرى من مستوطنات الجزيرة العربية) وحدها وبلا أسوار! على الجانب الصحراوى من المسار الذى نسير فيه. وأمام شكوك شددنا لجام الناقة لنسأل عن المزيد من الأخبار، ونشرب من الماء العذب الذى فى هذه البلدة. وبلغنا أن حسنًا Hasan ، أمير بريدة، الذى يطلقون عليه هنا اسم ولد weled مهنا Mahanna ، كان بصحبة جماعته المسلحة يقومون بعملية من عمليات الغزو فى الصحراء. - كان مهنا، ذلك الجمَّال الثرى فى بريدة، يقرض الناس بالربا، إلى أن تحول نصف سكان القرية إلى مدينين له؛ واستطاع فى النهاية، بمساعدة من الوهابى، اغتصاب كرامة الأمير ومكانته! - وأبلغنى حامد بما هو أغرب من ذلك عندما قال:

إن شيخ قرية، كافر kafer ، بالقرب من قصيبي، هو واحد من أهل الصنايع، في هذه الأجزاء من البلاد! وقال أيضا إن ثراء ذلك الرجل هو الذي مكنه من أن يصبح شيخا للقرية. [ربما كانت هذه الواحة حرة، وأنها كانت خاضعة لسيطرة بريدة أو حائل] .

رأيت هنا كثبان النفود الرملية الضخمة؛ وهي من النوع الذي يطلق البدو عليه اسم التعوس taus أو إن شئت فقل النفود Nefud (وجمعه أنفاد anfad) : وفي القصيم نسمع أسماء أخرى لهذه المسميات مثل عدنات adanat أو كثيب Kethib (وجمعه كثبان Kethban) . قال حامد: "وادي الرماح يقع هنا على مسافة غير بعيدة عن هذه الكثبان على الجانب الأيمن (في اتجاه عنيزة). مشينا مدة ساعة ونصف الساعة، ثم وصلنا بعد ذلك إلى حرف النفود، وعندها كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. ومن هذه المنطقة بدأ يتراءى لنا منظر طبيعي كما لو كان من مناظر الأحلام! – بلدة كبيرة مبنية من الطين وسط الرمال الجرداء ومن حولها أسوار وأبراج وشوارع ومنازل! هذه هي بريدة! وهذه المنارة (المئذنة) مربعة الشكل هي مئذنة المسجد الكبير في بريدة. رأيت هذه المدينة، كما لو كانت القدس في وسط الصحراء! [وذلك عندما تنظر إليها من فوق جبل الزيتون] . كانت آخر أضواء الشمس وآخر أشعتها تنير الطين المعتم بطريقة رائعة؛ كما كانت تلك الأشعة تخترق أيضا أشجار الإثل الكئيبة . سألت رفيقي،" أين نخيل أهل بريدة؟" وأجابني،" ليس في هذا المكان، النخيل يوجد خلف هذا الكثيب الرملي الضخم، وفي اتجاه (وادي الرماح)."

حامد: "بينما كنا نسير في الطريق ، أرجوك أن تسامحني إن كنت قد أغضبتك أو أسأت إليك في وقت من الأوقات؛ وصارحني إن كنت قد وجدتني رفيقا طيبا؟ يا خليل، ها أنت ترى بريدة! وأنا سوف أتركك اليوم في هذا المكان. وعندما ترى نفسك في أية قرية من قراهم فلا تقل أنا نصراني ، لأنهم سيكرهونك كراهية شديدة؛ ولكن صل مثلما يصلون، طوال فترة تجوالك في البلاد، ولا تحاول بأي حال من الأحوال أن تأتي شيئا يجعلهم يحسون أنك لست من المسلمين : افعل ذلك، حتى يضمرون لك الخير، ويساعدوك على المضي قدما. لا تنتظر أن تجد أهل هذه البلدان طيبين مثل البدو!

ولكن حاول أن تؤقلم نفسك معهم؛ وإلا فلن يطيقوا مقامك بينهم لفترة طويلة. أنا أنصحك بما فيه فائدتك – وأنا لا أجبرك على شيء لا تريده! قل: إنك مداوى mudouwy ، وأخبرهم بما معك من أدوية، وعن الأمراض التى تعالجها هذه الأدوية: وهذه هى المهنة التى يجب أن تعيش بها هنا. لقد عانيت الكثير من اسم النصرانى، وما الفائدة التى عادت عليك من هذا الاسم؟ قل الآن، إذا ما أمكنك ذلك: أنا مسلم."

تقابلنا مع بعض الناس من أهل المدينة، وهم خارج أسوارها، عندما كانوا يستنشقون هواء المساء؛ ومررنا بهم وسألوا رفيقى البدوى: وشاهدت بينهم سيافا من الجالا صارم الملامح يعمل لحساب الأمير. ورد عليهم حامد، " نحن ذاهبان إلى قصر الأمير." قالوا: " قصر الأمير بعيد عن هذا المكان، وها هى الشمس قد غربت؛ ألم يكن من الأفضل لكما أن تنزلا أمام بيت فلان؟ الذى يبعد مسافة قصيرة عن البوابة، وتبقيا فى ذلك المكان هذه الليلة؛ على أن تذهبا إلى الأمير فى الصباح." تجاوزناهم وعبرنا بوابة المدينة : السور الطينى حديث البناء، ولكن سُمْكه لا يصل إلى قدمين. لم نعثر على أى أحد فى تلك الشوارع الكئيبة؛ فقد انصرف الناس إلى بيوتهم لتناول العشاء، كما أن الدكاكين التى كانت فى السوق أغلقها أصحابها لدخول الليل عليهم: بيوت هذه المدينة مصنوعة من الطين المخلوط بالرمل ومتفتتة . وراحت الناقة تمشى ونحن فوق ظهرها فى تلك الطرق المهجورة : مررنا على المكان العام غير المرصوف الذى يطلقون عليه هنا اسم المجلس mejlis ؛ الذى وجدت أنه تجوف بفعل أقدام أهل المدينة! كما أن فى المدينة أيضا مسجدا كبيرا له منارة (مئذنة) عالية. شد حامد لجام الناقة عندما وصلنا إلى مقر! إقامة الأمير، والذى يطلقون عليه اسم منوخ munokh الشيوخ es-Sheukh .

فتح البواب الباب، ونزلنا داخل المقر من فوق ناقتنا. الرحلة من الروض er-Rauth إلى مقر الأمير يصل طولها إلى ما يقرب من خمسة وعشرين ميلا. لم يمض وقت طويل، قبل أن ينادى علينا صبى من صبية المطبخ، " انهضا وسميا بالله." واقتادنا إلى داخل أحواش مظلمة؛ ومن تلك الأحواش صعدنا سلما طينيا إلى مكان تناول العشاء.

كانت درجات ذلك السلم متآكلة من المنتصف، على شكل ميزاب، وكنا نتعثر أثناء الصعود بفعل الظلام. مررنا على رواق وشرفة فى الأعلى ، الأمر الذى أعاد إلى ذهنى ذكرياتى عن مبانينا الخاصة بالأديرة: وأوصلنا ذلك الصبى بلا أية إضاءة إلى نهاية بهو من الأعمدة، أحسسنا بأن الأرض فيه كانت عبارة عن أنقاض . وفى هذا المكان أحضر لنا الصبى العشاء، الذى كان عبارة عن عصيدة غليظة القوام من القمح مسلوقة فى الماء (نوع من البرغل burghrol فى الجزيرة العربية) ، وليس عليها أى شيء من السمن: حللنا ضيوفا على أمير بريدة الفلاح . هذه هى وجبة المساء فى القصيم ، ولكنها يجب أن تطهى مع شيء من الحليب والزبد؛ هذا البرغل ، يطهى فى البيوت الطيبة، مع شيء من العصيدة، وغالبا ما يخلط بالأرز، ويقدم مع طلى مسلوق.
– بعد أن أكلنا وغسلنا أيدينا ، تعين علينا العودة ونحن نتحسس طريقنا فى الظلام ، ونحاذر مخافة أن ينكسر عنق.أى واحد منا ، وهذا أغلى بكثير من هذا الصنف من العشاء. – وهنا ودعنى حامد بطريقة البدو: ركب ناقته؛ وشعرت بالارتياح عندما تجاوز رفيقى بسلام بوابة ذلك (الطاغية). كان القمر طالعا؛ وسوف يركب حامد ناقته ويواصل مسيره خارجا من المدينة، على أمل أن يقضى الليل فى قرية من القرى.

طلبت عندئذ زيارة "الأمير" – "شقيق حسن، الذى تركه الأمير نائبا له فى بريدة؛ وردوا علىّ، "الوقت متأخر ، والأمير موجود فى قسم آخر من المدينة : – البكِّير! el-bakir بمعنى فى الصباح." وهنا تجمع حولى كل من البواب، ومُصلح القهوة، والسيَّاف، وبعض الخدم الآخرين الذين يعملون فى دار الضيافة: كانت بوابات الحوش مغلقة، ولن يسمحوا لى بالتحرك. وبينما كنت جالسا على مصطبة من الطين، فى ضوء القمر، فزعت من تعبى وإرهاقى على (...)(*) صوت المؤذن وهو ينبعث من المئذنة يدعو الناس إلى صلاة العشاء. – آه! تأملت الأمر؛ ويا لسهو ذاكرتى الصغير ! يا لهذه الفرصة التى ضاعت منى! لماذا بقيت مستيقظا إلى هذه الساعة المتأخرة، والأمير غير موجود هنا، كما لا يوجد أحد هنا يمكن أن يخلصنى ، إلى أن يطلع علىّ النهار؟

(*) عبارة غير لائقة تمس المقدسات الإسلامية رأينا استبعادها . (المراجع)

وهنا تساءلت بسرعة، "أين مكان النوم؟" ردت علىّ تلك الضبّاع ، فى شىء من الاحتقار والازدراء، "ألن أصلى معهم، قبل أن أدخل للنوم؟" - أرونى غرفة فى مبنى المقر المظلم، والتى كانت تستعمل مقهى صغيرا من قبل.

كل شىء كان صامتا وساكنا فى الداخل كما لو كنا داخل كنيس صغير. ورحت أتحسس الجدران المبنية من الطين، ودست على رماد وجار من وجارات القهوة: وجلست على أرض الغرفة الطينية. كان مسدسى موضوعا فى قاع الخرج، الذى وضعه البواب فى مكان آخر وأغلق عليه الباب: تناولت مديتى، وخطر ببالى أنهم يجب ألا يبرحوا المكان سالمين إذا ما أساءوا إلى أو تسببوا فى إيذائى؛ ومع ذلك، كنت أتمنى أن تمضى تلك الليلة فى سلام. لم أنم سوى ساعة واحدة، سمعت بعدها وقع أقدام تتجه ناحيتى، كان ذلك القادم يبحث أو يتحسس بعض الأشياء على الأرض؛" قال ذلك الصوت: انهض، واتبعنى ، فأنت مطلوب أمام الشيوخ فى صالة القهوة:" - سبقنى صاحب ذلك الصوت، وتبعته؛ ووجدت أناسا جالسين يشربون القهوة، ويبدو أنهم كانوا من حرس الأمير. طلبوا منى الجلوس وناولنى واحد منهم فنجالاً من القهوة: ثم سألونى بعد ذلك ،" هل أنت ذلك النصرانى الذى كان مؤخرا فى حائل؟ لقد كنت هناك بصحبة واحد من قبيلة العنزى؛ وقد طردك عنيبر من هناك على جرّابتهم jurraba (أى الناقه الجرباء): كان يتعين عليهم إعادتك إلى خيبر؟" - " أنا هو." - "فلماذا إذن لم تذهب إلى خيبر ؟" - " لقد قلتها بنفسك ، - نظرا لأن الناقة كانت جرّابة jurraba ؛ هؤلاء البدو لم يستطيعوا توصيلى أو نقلى إلى خيبر، وهذا هو ما يعرفه عنيبر حق المعرفة، ولكن العبد لم يلق لكلامى بالا: - قل لى : كيف عرفت أنت ذلك؟" - " كنت فى حائل، وقد رأيتك هناك . ألم يمنع عنيبر ذهابك إلى القصيم ؟" - "سمعت كلامه الكاذب، بأنكم أعداء، ولم أسمع أى شىء عن منعه هذا ! كيف لذلك العبد يمنعنى عن السفر والانتقال، خارج حدود بلاد بن الرشيد؟" - وهنا راحوا يضحكون ويهزون رءوسهم، وهنا شاهدت بعض أسنانهم، - وتلك إشارة طيبة! وأردف المتسائلون - فى شىء من العجلة والتسرع،" ما هى الأوراق التى معك، يا أنت! انصرف وعد إلينا بتلك الأوراق؛ لأننا يتعين علينا الحصول على تلك الأوراق ،

على الفور، ثم نقوم بعد ذلك بتوصيلها إلى الأمير، - ثم قالوا (للصبي): اذهب مع النصراني."

فتح البّواب االمخزن الذى وضع فيه زكائبى وجوالاتى وخرجي. وأخرجت صندوق الأدوية؛ ولكن يبدو أن حركات يداى كانت بطيئة فى نظر أولئك الأشقياء الذين تبعونى ، وهنا قام أسوأهم، وهو رجل قحطاني، بضربى بقبضة يده، ولعن النصرانى وسبه وعنّفه. " صاحوا ، أخرج أوراقك كلها!" وخطفوا الأوراق من يدى:" قالوا: سنذهب بهذه الأوراق إلى الأمير على وجه السرعة." خرجوا؛ وأغلقت البوابة بعدهم: وتركونى وحدى فى الحوش (الفناء). بقى معى ذلك الوغد الذى ضربنى: واتجه ناحيتى ويده على سيفه، وغمغم قائلا: "أنت كافر! قل لا إله lailah إلا ill الله ullah" ؛ وجاء بعده شخص آخر، وآخر . جلست فوق المصطبة الطينية فى ضوء القمر، ورددت عليهم،" غدا، سوف أستمع اليكم؛ أما الآن ، فأنا متعب تماما."

راحوا يفتشون صدرى (بحثا عن النقود)! ووقفت ، ووقفوا كلهم حولى. - كان البواب قد همس بكلمة فى أذنى ،" إذا كان بحوزتك نقود فاعطها لى لتكون فى عهدتى ، لأن هؤلاء سوف يسرقون ما معك :" ولكنى تأكدت أنه هو أيضا واحد منهم! تجمعوا كلهم عليّ، وخطر ببالى أن أقول متعجبا:" حرامية Haramieh ، لصوص ! ياهو! أيها الجيران الشرفاء!" ثم أرى ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك ؛ ولكن الوقت كان متأخراً، وهذا القسم من المدينة معزول. - لم يرد أحد على صوتى، ولو سمعنى أحد، فالذى لا شك فيه أنهم سوف يتراجعون عن معاونتى؛ والسبب فى ذلك أن العرب [الذين يسكنون بلاداً ضعيفة الحكم ومليئة بالأخطار] يغلب عليهم دوما أن يكونوا أنذالا ووضيعين وجبناء أيضا: عندما صحت قائلا: 'لصوص'! وجدت هؤلاء التعساء يقفون مذهولين بعض الشىء: "لا تصيح (قالوا بصوت أجش) وإلا والله - !" وعليه فهمت ، أن ما يفعلونه بى كان من قبيل الحقد والغل، وهنا واصلت الصياح؛ وعندما بدأت أحرك يداى ، وصل بهم الجبن إلى حد، لاحظت معه أننى بالرغم من ضعفى، إذا ما بذلت جهداً ولو ضعيفا فسوف أخلص نفسى منهم: إلا أن ذلك كان فى منتهى السوء أيضا

– لأن ذلك قد يحتم عليهم العودة إليّ ومعهم السلاح؛ يضاف إلى ذلك أنني كنت محاطا بالأسوار ، الأمر الذى يصعب معه هربى من المدينة. كان عدد أولئك الذين يتصارعون معى ستة أفراد : وهنا خطر ببالى أن أصيح قائلا: حرامية ! haramieh وأبذل شيئا من المقاومة كى أطيل الوقت وأعطلهم عما ينتوون القيام به. كنت أتمنى طوال الوقت أن يعود إلى ذلك الضابط الذى ذهب إلى الأمير. وهنا أصبح كيس نقودى فى أيدى أولئك الأوغاد؛ والذى أتعبنى كثيرا ذلك البارومتر، – هذا البارومتر كان يبدو لهم كما لو كان ساعة فى ضوء القمر! وهنا خطف القحطانى الحبل الذى كنت أعلق به ذلك البارومتر فى عنقى ؛ وراح يجرى وفى يده ذلك البارومتر مثل كلب يمسك فى فمه عظمة جيدة. أخذوا منى عباءتى وغترتى (غطاء رأسى)؛ وفى النهاية تركنى أولئك الأوغاد واقفا وحدى مرتديا سروالا ثم سارعوا إلى حيث الباب الذى وضعوا عنده خرجي وزكائبى . ولكنى خطر ببالى أنهم لن يعثروا على مسدسى فى الظلام؛ وهذا هو ما حدث فعلا.

– هذا هو ضابط الأمير يقف مرة ثانية عند البوابة، يطرق وينادى حتى يسمحوا له بالدخول: وهنا ذهب البواب ليفتح الباب. قال الضابط الذى دخل من البوابة: "ماذا حدث؟" – " لقد جردوا النصرانى من كل شيء ." – " من الذى فعل ذلك؟" – " كان القحطانى هو الذى بدأ بذلك ." "قلت: وهذا الرفيق، كان واحداً من أمهر اللصوص بينهم!" وبقيتهم هربت إلى داخل المقر، عندما عاد مندوب ألأمير." (قال الضابط) : آه! يا للعار! هذا الرجل يُسْرق فى قصر الأمير؛ وهو رجل يحمل رسائل من السلطان، ما هذا الذى فعلتموه؟ لعنكم الله جميعا." "قلت : فلتأمرهم بأن يعيدوا إليّ ملابسى، بالرغم من أنهم مزقوها." – " الأمير سوف يعطيك ملابس غير هذه الملابس." وهنا جاء أولئك اللصوص إلى حيث يوجد الضابط، قادمين من الأركان التى كانوا يتوارون فيها؛ وطلب منهم، "أعيدوا إلى الغريب ملابسه: – وقال لى: كل ماسرقوه منك سيعود إليك، وسوف يترتب على ذلك قطع يد المتسبب؛ والله سوف تقطع كل يد امتدت وسرقت شيئا من أشيائك. وأنا جئت إلى هنا لتوصيلك الى مسكن جهّز لك ؛ ولكنى يجب أن أعواد إلى الأمير: – وأنت، وأنت – وأنت الآخر إياكم إياكم والعودة الى مثل هذا الذى فعلتموه، وإلا سوف يصب الأمير عليكم جام غضبه." وردوا عليه،" نحن لم نفعل ذلك،

ولكنه رفض أن يقول ،لا la إله ilah إلا ill الله Ullah" - "هذا هو كـذب! - لأنى قلتـهـا أربعة أو خمس مرات كى أشرح صدرهم ؛ ولكن أرجو أن تسمعنى فسوف أقولها ثانية ، "لا La إله ilah إلا ill الله Ullah . (*) - الضـابط: "سوف أذهب عنك، أعود إليك حالاً." - " لا تتركنى وحدى بين اللصـوص." - " لا تخف من أى شىء، فلن يجـرؤ أى أحـد منهم على فعل أى شىء ضدك"؛ وطلب من البواب أن يغلق البوابة من بعده.

عاد الضابط على وجه السرعة: وأمر أولئك اللصـوص ، بناء على أمر الأمير، أن يعيدوا إلى النصرانى كل ما سرقوه منه؛ أمر البواب بإشعال نار فى الموقد كى يتولد عنها شىء من الضوء. هذا السياف القحطانى، الذى كان رئيسا لتلك العصابة، واحد من عصبة الأمير - وطلب منى راجيا أن أعطيه إحصائية دقيقة بالنقود التى كانت فى حافظة نقودى: "لآن كلامى قد يجعل يده فى موضع الخطر؛ وأنى إذا ما قلت الحق فإن الله سيرحمنى." - "هل تظن، أيها البائس، أن رجلا مسيحيا يمكن أن يكون من أمثالك!" مَثُل الضابط، هذه هى حافظة نقودك؛ كم المبلغ الذى ينبغى أن يكون فيها؟ خذها، وعد دراهمك derahim . " اكتشفت أن أيديهم البربرية عبثت بمحتويات الحافظة؛ إذ لم يتبق فى الحافظة سوى بضع بنسات!" النقص هو كيت وكيت". - الضابط: " أنتم ! يا من أخذتم نقود الرجل، انصرفوا وعودوا ومعكم هذه النقود، وعليكم لعنة الله." انصرف السيّاف، وعاد ومعه النقود، - قطعتان فرنسيتان من الذهب قيمة كل منهما ٢٠ فرنك: هى كل ما تبقى معى فى هذا العالم المرير. الضابط : "قل لى: أهذه هى فلوسك fulus كلها؟ " - هذه هى فلوسى كلها." - "هل هناك شىء آخر؟" - "لا!" - كشف القحطانى لى عن شكره ووجهه تبدو عليه الدهشة والاستغراب. الضابط: "وماذا غير ذلك ؟" - " كيت وكيت." - " انصرف الأشقياء وعادوا ومعهم تلك الأشياء الصغيرة، التى وصلت إليها أيديهم، بعد أن جردونى من ثيابى، ومن خرجى وزكائبى وجوالاتى. الضابط: "انتبه، هل عادت إليك أشياءك كلها، هل هناك مفقودات أخرى؟" - " نعم، ساعتى" (البارومتر الذى كان يشكل أهم شىء عندى بعد مسدسى

(*) من الواضح أن "خليل" لم يستكمل الشهادة حيث ظل متمسكًا بعقيدته المسيحية . (المراجع)

فى الجزيرة العربية)؛ ولكنهم تعجبوا،" أية ساعة ! لا، لقد أعدنا له كل شىء بالفعل."
الضابط: آه! أيها الكذابين، أيها الملاعين، أيها اللصوص، أعيدوا للرجل ساعته ! وإلا سوف أبلغ الأمير باليد الآثمة." أعادوا إلىّ الساعة (البارومتر)؛ أعادوها إلى على غير رغبة منهم: هذه الآلة، ربما بدت لهم كما لو كانت ذهبا خالصا. – وقد سعدت عندما وجدت فى الصباح أن الآلة (البارومتر) لم تصب بسوء: وأن بوسعى أن أقيس بها ارتفاع قامة واحدة.

قال عندئذ: ' الوقت متأخر، ويتعين علىَّ تمضية الليلة هنا.' – "أعرنى سيفا إذا ما تعين علّى النوم فى هذا المكان اللعين؛ وإذا ما هجم على أحد، فهل ينبغى علىَّ ألا أقاتلهم؟" – "ليس هناك أى خطر بعد الآن، أما فيما يتعلق بهؤلاء فسوف يجرى احتجازهم فى صالة القهوة لحين طلوع نهار الغد:" ثم اقتاد معه هؤلاء المذنبين. – كان الضابط قد أحضر معه أوراقى: والشىء الذى لم يكن ضمن هذه الأوراق شهادة عدم الاعتراض الصادرة من عنيبر!

عندما طلع النهار، جاءنى ضابط الأمير – الذى اسمه جابر Jeyber – وطلبت منه مجددا أن أقوم بزيارة الأمير. ورد على جابر بأنه يتعين عليه الذهاب إلى الأمير والتحدث معه حول هذا الموضوع. وعندما رجع إلىّ، حمل خرجى على كتفيه الضعيفين وهو يقول: إنه سوف يوصلنى إلى المسكن الذى سأقيم فيه. رافقنى إلى واحد من الشوارع ، كان يقع فى طرف المدينة؛ ثم انعطف داخلا إلى فناء مخزن، أمام مبنى كبير – قديم ومتفتت، والذى كان يقيم الأمير فيه فى الزمن الماضى [كان سور المنزل هنا المبنى من الطين لا يتعدى ارتفاعه مائة ياردة بأى حال من الأحوال] . صعدنا عن طريق درج (سلم) من الطين إلى صالة كبيرة فى الأعلى : حيث كانت تجلس اثنتان من نسائه. كان جابر مستأجر هذا القصر المتعفن واحداً من قبيلة القحطان. وعند نهاية القصر كانت هناك غرفة، خصصها لى كى أسكن فيها."قال:' أنا متعب، وأنت متعب أكثر منى؛ وفنجال من القهوة سيفيدنا نحن الاثنين.:" جلس جابر إلى جوار الوجار لتصليح قهوة الصباح.

وهنا جاءنا بعض من الشخصيات الرئيسية فى المدينة؛ وهم يرتدون الملابس (الثقيلة) على طريقة أهل بلاد الرافدين. وعدد كبير من الذين يرفلون فى النعمة فى بريدة هم من الجماميل Jemmamil، بمعنى أنهم من أصحاب الجمال الذين يتجرون مع القوافل. هذا يعنى أيضا أن هؤلاء الجماميل هم الذين ينقلون القمح فى بلاد الرافدين؛ كما أنهم هم الذين ينقلون الأرز (التمن) والقماش إلى نجد ؛ وهم الذين ينقلون التمر والقمح من القصيم (عندما تناسبهم الأسعار) إلى المدينة المنورة . وهم فى الخريف ينقلون السمن، الذى سبق لهم الحصول عليه من مناطق البدو الرحل ، إلى مكة؛ وينقلون البن من مكة. هؤلاء الناس من مواطنى الجزيرة العربية يشبهون الفلاحين! وهم أناس اعتادوا السفر والأسفار؛ ولكنى وجدتهم متعصبين لدودين.

قال جابر عندما انصرف أولئك الجماميل: "هل أنت مستعد الآن لزيارة الأمير؟" مضينا قدما؛ وأخذنى من خلال شارع إلى مكان أمام قصر الأمير. وجدنا رفيقا متجهمًا جالسا هناك، فى التراب مثل (سيدنا) أيوب: وكان يجلس معه اثنان أو ثلاثة آخرين ، - ربما كان سن هذا الرجل حوالى خمسة وثلاثين عاما. سألته، "أين عبد الله الأمير؟" قالوا: "إنه الأمير!" - "(همست) جابر، أهذا هو الأمير؟" - " إنه هو." - سألت الرجل،"هل أنت ولد مهنا؟" أجاب ،"إى." "(قلت): هل جرت العادة هنا أن يسرق الناس أشياء الغرباء فى وسط مدينتك؟ لقد أكلت من عيشك وملحك؛ وسطى علىّ خدمك وأنا فى الفناء (الحوش)." - "الذين سرقوك كانوا من البدو." - " ولكنى عشت مع البدو؛ ولم يسرقونى فى أى منْزل من المنازل التى عشت معهم فيها: ولم يضع منى مطلقا أى شىء من أشيائى فى أية خيمة من خيام المضيفين الذين استضافونى. تقول: إنهم كانوا بدوا؛ ولكنهم كانوا رجال الأمير!" - عبد الله: "أقول إنهم جميعا كانوا من القحطان." طلب أن يلقى نظرة على "ساعتى." "أنا ليست معى ساعة؛ ولكن هذا هو تلسكوب !" وضعه على عينيه ثم أعاده إلى. قلت، "أنا أعطيك إياه،؛ ولكنك سوف تعطينى ملابس أخرى غير الملابس التى مزقها خدم الأمير." - لم يقبل هديتى، الفلاح ليس على استعداد لإعطاء النصرانى أى تعويض؛ وأنا لم تعد لدى نقود كى اشترى المزيد من الملابس." قال: أنت سترحل اليوم." - " إلى أين؟" - "إلى عنيزة؛ وفى عنيزة

هناك بعض الجمّالة الذين رحلوا عنا بالأمس، وهم ذاهبين إلى قرية سدوس Siddus : وسوف يوصلونك إلى هناك." - في سدوس (التي يفترض أنها المكان الذي يحج إليه عبدة الأوثان في البلاد أو "المسيحيين" قبل مجيء محمد (ﷺ) وجدوا "مسلة" قديمة أو إن شئت فقل: عمود قديم، عليه بعض النقوش أو الكتابات. [الجزء الأول ص ٢٤٥ .] ولكن ذلك كان خداعا وتحايلا من عبد الله، فقد كان يكذب عليّ فيما يتعلق بالجمّالة الذاهبين إلى سدوس: ويصيح عبد الله بعد ذلك قائلا: "من Min يشيل Yeshil ، بمعنى من الذي سيقوم بنقل النصراني على جملة إلى الوادي؟" - التي عرفت فيما بعد أنها منطقة النخيل في وادي الرماح : قلت له: 'سوف أرتاح اليوم، لأني كنت مرهقا تماما ولا أستطيع مواصلة الركوب . 'ووافق عبد الله (عن غير طيب خاطر)؛ والسبب في ذلك أن كل أهل الجزيرة العربية [ساكني هذه الأرض المرهقة] يقدرون مظاهر وعلامات الضعف الإنساني - " حسن، حسبما تريد؛ وأنا أحسب أن ذلك يكفيك."

- جاء شاب صغير يعزمني على شرب القهوة. "قال عبد الله: هم يستدعونك، اذهب معه." تبعت كلا من المراسل هو وجابر : وصلنا إلى بيت من البيوت المهمة في المدينة؛ وفيه دخلنا إلى صالة بهيجة من صالات القهوة. شاهدت الجدران وكانت مليّسة بالجبس؛ وكان السجاد الفارسي مفروشا من حول وجار القهوة. وشاهدت حطب الغوطة ghrotta (نوع من حطب شجر الإثل الذي ينمو في النفود) وهو مشتعل في الوجار، وكان هناك المزيد من ذلك الحطب موضوعا في كوة في الجدار ليكون في متناول مُصلّح القهوة إذا ما أراد المزيد منه: وهذا هو حال الأسر الجيدة كلها في منطقة القصيم. في صالة القهوة هذه، كانت تجلس جماعة من الناس الذين كانوا مهندمين في لباسهم؛ وكان هناك شاب صغير يكتب رسالة يمليها عليه رجل كبير السن والمقام. ولكن انشغال هذا الشاب بالكتابة لم يمنعه من سب النصراني وتعنيفه، بين الحين والآخر وكان يلعن ذلك الذي كان يقول عنه إنه دين ملوث. - كانت ملامح ذلك الشاب، هي تلك الروح الوحشية التي كانت تعتمل في داخله! وتوصلت إلى أن مرد كل ذلك 'إلى أن أحداً لم يلم هذا الشاب أو يزجره على ما يفعل. صمت كل هذه اللحى رمادية اللون كان من باب احتقار ذلك الأوروبي؛ أصحاب هذه اللحى لم يكن بينهم

شيء يدعو إلى الاحترام سوى الملابس التى كانوا يرتدونها ! لم أسمع كلمة مشجعة أو متعاطفة من هؤلاء الناس؛ وكنت أتعجب من سبب استدعائهم لى ! وبعد أن شربت الفنجال الثانى غادرت المكان وتركتهم جالسين؛ وعدت إلى المكان الذى كنت أقيم فيه عند جابر، والذى يطلقون عليه اسم قصر الحجيلان (*): وفى قصر الحجيلان هذا التقانى ولد صغير ومعه خبزتين غير مخمورتين، جاء بهما من بيت الضيافة. خبز هذه المدينة مر الطعم وجاف؛ ولم أستطع بلعه حتى فى أيام الجوع.

قصر الحجيلان هذا، بناه عبد الله، ولد عبد العزيز، وهما من أمراء بريدة. وقد قُتل عبد الله على يدى مهنا عندما اغتصب الحكم بمساعدة من الوهابى. وبقى مهنا شيخا على المدينة سنوات عدة، (**) وأبناء مهنا هما حسن (الأمير الحالى) وعبد الله.

وأبناء الأمير الشاب الذى قتل هربوا إلى عنيزة، المدينة المجاورة لهم. – وبعد مضى سنوات عدة، وفى فصل الربيع، وعندما كانت الجماعة المسلحة مخيمة مع الأمير حسن فى النفود، تسللوا أثناء الليل ودخلوا بريدة؛ واختفوا فى منازل بعض أصدقائهم. وفى الغد، وعندما كان الطاغية يمر من المكان الذى كانوا فيه، متجها إلى المسجد الكبير لأداء صلاة الظهر، اندفع أولاد عبد الله نحوه وهاجموه بسكين! وقتلوه فى وسط الشارع. وهنا قام واحد من الخيالة الذين بقوا فى المدينة، بامتطاء صهوة جواده، وخرج من بوابة المدينة، وراح يعدو فى اتجاه النفود؛ ؟ إلى أن عثر على الغزو وعلى الأمير حسن. – وعندما سمع حسن ذلك الخبر المؤلم أصدر أمره بالركوب والتعجيل بالعودة إلى المدينة، وأن يصل الجميع إلى بريدة فى تلك الليلة.

(*) قصر الحجيلان : ينسب هذا القصر إلى حجيلان أقوى زعماء القصيم وأكثر المناصرين للسعوديين فى عهد دولتهم الأولى ، ولم يقف إلى جانب القوات المصرية أثناء وصولها إلى القصيم بقيادة إبراهيم باشا . (المراجع)

(**) مهنا : كان من أشد المتعصبين للدعوة السلفية ، تم تعيينه شيخًا على بريدة فى عام ١٨٤٨ من قبل الإمام فيصل بن تركى السعودى . وكان مهنا حاكمًا طاغيًا أرهق أهالى بريدة بالكثير من الحملات العسكرية التى كان يقوم بها لصالح السعوديين . (المراجع)

فى الوقت ذاته، تشبث بالمدينة عبد الله، الذى كانت له قدم أقصر من الأخرى؛ وفى ظل كل هذا الخوف والاضطراب، كانت جماعة عبد الله هى الأقوى؛ كما أن أهل المدينة، الذين عانوا طويلا من طغيان المهنا، لم يكونوا على استعداد لمساندة قتل الغير بدون وجه حق. وصمد عبد الله، واستطاع قبل حدوث أى نوع من العصيان، محاصرة الأمراء جميعهم فى بيت واحد.

كان الوقت ليلا عندما وصل عبد الله هو وجماعته المسلحة إلى باب ذلك المنزل الذى كان يحاصر فيه الأمراء؛ ولتوفير الإضاءة اللازمة (لذلك العمل المريع)، قام بإشعال تنور كبير فى الشارع. وراح أبناء عبد الله وقلة قليلة من الناس الذين كانوا أصدقاء لهم داخل المنزل، يقومون بالدفاع عن أنفسهم باستعمال البنادق الفتيلية، من فوق سطح المنزل. – وتقدم بعض الشباب الشجعان الذين كانوا برفقة عبد الله، صوب باب المنزل، وهم يحمون أنفسهم بباب (مصنوع من فلوق النخيل) ومن فوقه طبقة سميكة من التمر وبذلك استطاعوا أن يحموا أنفسهم من حملة البنادق، وتمكنوا من إحداث ثقب، وضعوا فيه البارود ومعه الفتيل. ثم وضعوا جمرة فوق البارود! – ويحدث انفجار مروع ماتت على إثره كل الأرواح التى كانت داخل المنزل، – يضاف إلى ذلك أن شابا صغيرا أصيب بجراح بالغة؛ هذا الشاب (الذى كان يحمل سيفا فى يده) كان مفروضا أن يقفز عليهم من أعلى المنزل، أثناء دخولهم من الباب، ثم يهرب بعد ذلك ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك: وأخذ يجرى هنا وهناك ، ويلعن الجميع ويسبهم إلى أن سقط على إثر طلق نارى أصابه. – وصل حسن أثناء الليل، ووجد قتلة والده، ووجد المدينة هادئة: ومن ثم أصبح أميرا على بريدة. – أمراء آخرون من هذه السلالة الأميرية فى هذه المدينة رأيتهم فيما بعد وهم يعيشون فى المنفى فى عنيزة، كما أن واحداً من بين شقيقين كبيرا السن، كانا من مرضاى، وهما الآن فقيران وضريران، هو الذى يستحق، حسب الميراث، أن يكون الأمير الحالى لمدينة بريدة!

تجولت فى أنحاء ذلك القصر الحزين، الذى يمكن مقارنته بالقصر الموجود فى حائل، من منطلق أن كلا منهما واحد من المقرات الملكية أو الأميرية إن صح التعبير؛

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن قصر بريدة أصغر من قصر حائل باعتبار أن بريدة أصغر من حائل. ولكن إذا ماقارنا المدينتين ببعضهما البعض، نجد أن حائل بلدة قروية شبه بدوية، وفيها سوق (شارع) أجنبي؛ أما بريدة فهي مركز حضري كبير يغلب عليه أسلوب الحياة السارى فى وسط نجد. وفناء القصر، الواسع مثل سوق من الأسواق، يتصل برمال النفود ! داخل هذا القصر الخرب، عثرت على صالة للقهوة ارتفاعها يقترب من ارتفاع منزل من طابق واحد، من فوق بعض الشرفات - وهذا يشبه الصالات الإنجليزية القديمة من هذه الناحية بالذات، كما أن تلك الشرفات منظمة تنظيما جيداً: الجدران المصنوعة من اللّبن المخلوط بالرمل كانت مزينة بحليات من الجبس. هذا القصر الذى (كما يبدو) يخيم عليه السكون وأكل الزمن عليه وشرب، والذى يقع هنا فى وسط الجزيرة العربية، بنى فى أيام أجدادنا . أعجبتنى الأعمال الجبسية تجىء على جدارن تلك الصالة وذلك القصر الذى بنى من الطين. هذا العمل الجبسى يقفز مثل نبات بفعل أيدى الحرفيين الساميين Semitic ، كما أن تلك الأعمال الجبسية تجيئ بمثابة صورة لما يدور فى أذهان هؤلاء الحرفيين حول الطبيعة! - التى ينظرون إليها ليست نظرة الفيثاغورثيين (*) المحدودة ببضعة خطوط، ولكنها مزينة فى كل مناحيها وغير محدودة أيضا ، ترى هل جاءوا بهذا العمل من الهند؟ فنحن نجد فى سوريا مهارة فائقة فى الأعمال والبنايات المبنية من الطين؛ هناك الصوامع المصنوعة من الطين التى يستخدمها الناس مخازنا، وهناك الوجارات الطينية، وصوامع تخزين القمح، كل ذلك نشاهده داخل أكواخ الناس فى سوريا. وفى لبنان، نجد الجدران والأعمدة المصنوعة من الطين، فى بعض من بيوت الفلاحين الأثرياء، مطلية بطبقة من الصلصال، ومدهونة بطريقة غير مهذبة.

- بدت لى عمارة ذلك القصر المبنى من الصلصال غريبة وعجيبة تماما! [مدى كفاية هذه الوسائل التافهة، فى أيدى هؤلاء الأعراب الحازقة، التى تصل بتلك الوسائل إلى نهاية كاملة من هذا القبيل] . الزينات الحوافية التى يصنعها أولئك البناءون هى

(*) الفيثاغورثيين: الذين يتبعون نظريات فيثاغورث . (المترجم)

ذلك الذى نطلق عليه نحن اسم سن سمك القرش، وأصدق مثال على ذلك هو المضيف الموجود فى حائل. فهو عبارة عن سلسلة من العقود العمياء مستديرة الرءوس، ويجرى تدويرها أيضا كى تسمح بدخول الضوء إلى السور الخارجى، ويجرى طلاء هذه العقود بالمغرة الخضراء والحمراء. وربما كان ذلك الشخص الذى بنى قصر الحجيلان، واحد من المعلمين muallem البغداديين – وهذا هو ما نستخلصه من بعض البنايات المهمة، التى تبعد كثيرا عن أية منطقة من المناطق الحضرية ، وتقع فى المناطق الصحراوية. كان ذلك قبل سنوات، من مشاهدتى لقلعة من القلاع بين أنقاض عزيزة Utherah فى جبل سعير Seir ، الذى يوجد فيه بركة ماء على شكل بئر، يستخدمها الحويطات مسقى لهم ولحيواناتهم : هذا المبنى قديم ولكنه ليس من الأطلال أو الخرائب؛ وهنا قال لى محمود: وهو من بلدة معان "هذه القلعة بنيت فى زمنه، بواسطة البدو!" سألت وأنا مندهش تماما،" هل البدو ماهرين فى البناء؟" – محمود: "لا، ولكنهم أحضروا معلّماً من دمشق ؛ الذى جعلهم يجلبون أفضل الأحجار من تلك الأنقاض، وبالطريقة التى علمهم إياها ذلك المعلم راحوا يبنون البنايات التى من هذا القبيل." فى تلك القلعة البدوية شاهدت الكثير من المزاغل والعقود، إضافة إلى أن المبنى كله كان مبنيا بالأحجار الغشيمة وبلا ملاط! والبدو يستوعبون الأمور التى لا تكون بعيدة عن مداركهم وخارجة عن نطاق ذكائهم؛ كما أن هناك قبائل تتحول إلى حرّاثين أو إن شئت فقل: فلاحين خلال فصل الصيف. [الجزء الأول] – كان جابر يسكن بين جدران المضيف القديم المتفتتة. مُلاّك الأرض من الفلاحين الجدد فى بريدة لا يعيرون الكرم والضيافة العامة انتباها ؛ الأمر الذى يجعل سكان الصحراء ينظرون إليهم نظرة فيها شىء من الاستخفاف وعدم التوقير.

خرجت مع جابر لشراء بعض الحاجيات من السوق، ومشاهدة البلدة. مررنا عبر سوق يبيع أعلاف الماشية، ومعظمهامن الجلبانيات (*) : ومن خلف ذلك السوق دخلنا

(*) الجلبان: نوع من العشب الذى يصلح علفا للماشية (المترجم)

إلى دكاكين باعة الطعام، - شاهدت معلقا داخل تلك الدكاكين نقانق (*) كبيرة الحجم (من الضأن - ضأن بلاد الرافدين)! كما شاهدت كثيرا من السلال المليئة بالجراد المقدد، فى كثير من الدكاكين الأخرى. هذه السوق فيها أيضا دكاكين لطهى الطعام - وهذا النوع من الدكاكين غير معروف فى حائل شبه البدوية - ويستطيع المرء فى دكاكين طهى الطعام هذه، الحصول على وجبة من الأرز ولحم الضأن المسلوق، أو لحم الجمل نظير بنسات عدة. وبوسع الغريب أن يعيش فى بريدة، فى وسط الجزيرة العربية الرعوية المتنقلة، كما لو كان يعيش فى بلاد الرافدين تماما؛ اللهم باستثناء أن بريدة ليس فيها خمارات . بعض من أولئك الجالسين الذين يبيعون الخضروات كانوا من النساء! - دمشق ليست على هذه الدرجة من التحضر! ولا يوجد فى عنيزة سوى عدد قليل من البائعات الفقيرات. وبريدة التى تعد عاصمة الواحات فى الجزيرة العربية كلها، ترتبط ببلاد الشمال المستقرة عن طريق قوافل التجارة؛ يضاف إلى ذلك أن بنى تميم لا يختلفون عن الدماء المخلطة للأعراب الذين يسكنون هذه المناطق الحدودية.

تدافع الصبية الأوغاد والمتسكعون فى الشوارع على النصرانى الغريب؛ وراحوا يتجمعون حولى ونحن نسير فى الطريق. وبالقرب من المجلس أو ميدان السوق، شاهدنا ذلك السياف الحبشى، جالسا على مصطبة من الطين؛ هذا هو واحد من سيافى الأمير، وقد سبق لى أن رأيت ذلك الوجه مساء البارحة، خارج بوابة المدينة. وهناك راح ذلك السياف الأسمر يعنف جابر ويؤنبه، لأنه يسير معى على هذا النحو أمام الناس؛ ويقف ذلك السياف على قدميه، وفى يده عصا، وراح يلقى بعصاه على عباءات (بشوت) بعض الواقفين، متكلما باسم الأمير. ولما كان جابر بدويا ليبراليا (متحررا)، ولكنه أكثر خوفا من أهل الحضر، فقد بادر بعد أن استمع إلى ذلك الكلام، إلى اقتيادى عبر بعض الشوارع الخلفية ليعود بى على وجه السرعة: إذ كان مفروضا أن أزور قسما آخرا من المدينة، ولكنه عاد بى، من طرق ومسارات منعزلة، إلى المكان الذى يعيش فيه. ووعدنى بأنه سوف يركب معى فى الغد إلى عنيزة؛ قال: عنيزة ليست

(*) نقانق: منبار محشو باللحم المفروم (المترجم)

بعيدة عن هنا." هذه البلدان جرى توقيعها على الخرائط على اعتبار - أن المسافة بين المدينتين تقدر برحلة واحدة: ولكن هذه الأمور لا يمكن الوثوق بها فى خرائط الجزيرة العربية! كان جابر، الذى كانت قامته وسلوكياته تدل على الدم البدوى، من القحطان المقيمين فى القصيم. هذا الجابر، بالرغم من فقره بين أفراد قبيلته، إلا أنه كان سليل واحد من الشيوخ، وقد ترك جابر حياة الصحراء ليصبح واحداً من جماعة الأمير المسلحة في بريدة. كان وجهه ومحياه الضعيف يوحى بحظه العاثر؛ كان جابر قد تخطى منتصف العمر بسنوات قلائل؛ ولم تكن روحه المعنوية عالية بما فيه الكفاية. أدى الطابع البدوى المعتدل، فى ذلك الرجل، إلى التخفيف من تشدده القحطاني؛ يضاف إلى ذلك أننى كنت ضيف الله عليه فى ذلك اليوم: كان يدافع عن قضيتى فى المدينة، كما كان محاميا ومدافعا عنى عند عبد الله. ولكن روح التشدد لم تنطفئ تماما فى جابر؛ فهناك من يقول:، هذا (الرجل) لا يمكن أن يذهب إلى الرياض؛ لأنهم سيقتلونه هناك!" كان جابر يرد عليهم مبتسما،" إى إنهم غاية فى التشدد هناك؛ وقد لا يطيقون وجوده بينهم." تكلم الرجل أيضا وفى ذهنه تعصب مسلمى نجران [التى يدين سكانها بالإباضية (*) ، شأنهم شأن أهل مدينة مسقط"] . كان جابر قد أمضى القسم الأول من حياته فى تلك المناطق الجنوبية: قال: إن وادى الدواسر، ووادى بيشة مليئان بالقرى الجيدة.

دخلت علينا حرارة الظهيرة؛ وذهب جابر لينام فى جزء قصى من تلك البناية المتهالكة. كنت قد رحت فى سنة من النوم فى غرفتى، وفجأة سمعت صوت تزييق الباب القديم المدهون باللون القرمزى، ودهشت لانفتاح الباب! - ودخلت على امرأة شابة قذرة المظهر. سألتها لماذا قطعت علىّ راحتى؟ وجاء ردها مثل الكلام الإنجيلى القديم: تخليني Tekhalliny أنيم anem فى fi حضنك hothnak ؟ ترى، من الذى أوفد هذه المرأة شديدة الوقاحة إلىّ؟ العرب، هم أحط الأعداء، - هل يتطلعون إلى الفرصة التى يستطيعون

(*) الإباضية : أطلق عليها المؤلف خطئًا البياضية Bayadiyyeh . والإباضية فرقة دينية يعتبرها مؤرخو الملل الإسلامية من الخوارج . وتنسب الإباضية إلى جابر بن زيد وعبد الله بن إباض الذى ثار على عبد الملك بن مروان . والمذهب الإباضى من أكثر المذاهب الإسلامية اعتدالاً . وقد انتشرت الإباضية فى عمان وفى بعض المناطق فى شمال وشرق القارة الإفريقية . (المراجع)

من خلالها توجيه الاتهام إلى النصراني؟ ولكن هذه المرأة الطيبة لم تتراجع ولو لحظة واحدة؛ لأني عندما أنبتها ورحت أعنفها وقفت لتصب جام غضبها على الغريب وهي تقول: وصوتها يحمل نبرة البؤس الكريه." أها! النصراني اللعين! وأنني على وشك أن يقتلني المؤمنون؛ وأن أولئك المؤمنين، في الطريق، وموفدين من قبل الأمير للقيام بذلك العمل! وأنني لن أفلح في الهرب منهم." - نهضت من مكاني وأعدت الأمتعة إلى مكانها وقفلت الباب مرة ثانية. - ولكني تعجبت من كلامها، وتأملت أنني من أجل الدين وحده كنت أتعرض لتلك الأضرار اليومية في الجزيرة العربية. - وهنا عاد إلى جابر بعد أن استيقظ من نومه؛ وحكت له حريمه تلك المغامرة التي حدثت أثناء غيابه: وهنا تركني جابر وهو يقول: إنه يتعين عليه الذهاب إلى الأمير.

عقب ذلك مباشرة سمعنا أهل المدينة وهم يتوافدون على المنزل ، وأصواتهم وضجيجهم يصل إلينا عبر النافذة، التي كانت تفتح إلى الداخل على شارع من الشوارع، وراح أولئك الناس يرمون علينا الأحجار! - وسرعان ما امتلأ الدرج بأولئك الناس؛ وراحوا يطرقون الباب الذي كانت النساء قد أحكمن غلقه؛ - "وا أسفاه؛ قالت الحريم، وهن يخبطن بأيديهن: ما الذي يمكن أن نفعله الآن؟ لأن هؤلاء الناس الثائرين سوف يقتلوك، وجابر غائب عن البيت." كانت واحدة منهن حضرية، والثانية بدوية: وكلتاهما كانت طيبة في حق الضيف. جلست أرضا ورحت أقول لهما: " يا أختاي: يجب أن تدافعا عن البيت بلسانيكما." - كانتا على استعداد لفعل ذلك؛ وهنا طلت المرأة الحضرية من النافذة وراحت تشتم وتتوعد أولئك الذين يقومون بتلك الضوضاء والضجيج والهرج والمرج في الشارع." ها! يا همج؛ من هم أولئك الذين يقذفون الأحجار عبر وداخل سكن الحريم؟ إخص ! من تكونون أنتم؟ - ماذا تريدون ؟ أخزاكم الله! - أوه! هل تبحثون عن خليل النصراني؟ خليل ليس هنا؛ أنتم أيها الأغبياء، خليل ليس هنا: أبعدوا عنا واذهبوا لحال سبيلكم! أنا أقول، يا للعار عليكم ولعنكم الله." - وصاحت من كانت تقوم على أمر تدبير البيت، في أولئك الموجودين في الخارج،" أها! ماذا تريدون؟ - إخص ! من هم أولئك الذين يطرقون الباب على نحو يبغون من ورائه كسر الباب؟ أنتم أيها الشباب الشياطين الذين لا يستحون ! خليل ليس موجودا هنا؛

لقد مضى قدما فى طريقه، اذهبوا وابحثوا عن النصرانى ،اذهبوا، اغربوا عنا! قلنا لكم مرارا إن خليل مضى قدما فى ترحاله، ونحن لا نعرف إلى أين ذهب ، - إخص! [راح الناس يطرقون الباب بالأحجار] أوه أيها الرفاق الذين لا يستحون! هل تودون الدخول إلى بيوت الناس عنوة ، وبالذات إلى سكن الحريم؟ فليبتليكم الله جميعا بوباء من عنده؛ وسوف يعاقبكم الأمير على ذلك" وبينما كانت المرأة تتكلم كان هناك هرج ومرج وحركة أقدام خارج الباب؛ وكانت أصوات ضربات عصيهم وأحجارهم تدوى فى خشب باب البيت. - ومع ذلك أسفر صوت هاتين المرأتين المخلصتين عن تعطيل أولئك المتظاهرين! وكنت أعلق آمالى على الحظ وعلى عودة جابر على وجه السرعة إلى بيته. ولكن لو قدر لأولئك المتظاهرين الدخول إلى البيت لقطعونى إربا إربا، هل أبقى على حياة أول من يقوم منهم بالإقدام على مثل هذا العمل؟ صاحت المرأتان ،" لماذا تطرقون الباب على هذا النحو أيها الملاعين؟ - إخص! هل ستفتحون باب دارنا عنوة بحق وحقيقة؟"

أخيرا عاد جابر إلى البيت؛ وباسم الأمير طردهم جميعا من أمام بيته، وأخرجهم من فناء بيته. - وعندما دخل البيت هز كتفيه وقال لى: "إنهم يطالبون الأمير بقتلك! وهُم يقولون: لم يسبق مطلقا أن دخل رجل نصرانى إلى بريدة": هذه هى الصيحة التى تتردد فى المدينة ، وعبد الله يؤيد ما يذهب إليه الناس! - لقد دافعت عنك أمامه. وإذا شاء الله أن تمضى هذه الليلة هنا بسلام، فسوف أقوم غدا، بعد مجئ ناقتى التى أرسلت فى طلبها، بتوصيلك عن طريق الحوارى المنعزلة إلى مكان بعيد عن هنا؛ أنقلك منه إلى عنيزة." - وبينما كنا نتكلم سمعنا أولئك الحضر وهم يتجمعون من جديد فى فناء المنزل! وكانت الدفعات الأولى منهم تقف على درج (السلم) البيت بالفعل، - وكان الباب مفتوحًا. ولكن جابر كان يهددهم بعقاب الأمير لهم، وطردهم مرة أخرى من بيته؛ ثم إلى خارج فناء البيت. وعندما عاد، سأل زوجته، بنظرة شك، عمن قام بفتح البوابة (من الداخل) ؟ نظرا لأنه تركها مغلقة! قال: إنه يتعين علىَّ الخروج مرة ثانية، كى يتحدث مع عبد الله ؛ ولكنه يتعين ألا يغيب عن البيت وقتا طويلا. أنا لن أتركه يمر، بعد أن يعدنى بإغلاق بوابته ويعطينى مفتاحها (الخشبى) كى أحتفظ به معى.

ولم يبق فى البيت سوى تلك الزوجة المسكينة ، هى وخشب الباب القديم ، الذى يفصل بينى ، أنا الغريب الذى لا حول له وبين ذلك التوحش من جانب أولئك الحضر المتزمتين . وعندما عاد جابر، قال إن المدينة هادئة: فقد، أمر عبد الله ، بناء على وساطة جابر، بعدم الفوضى والتزام الهدوء، وعاد المتظاهرون إلى بيوتهم؛ وترك البوابة مفتوحة.

جاء بعد ذلك بعض المواطنين الرئيسيين لزيارتى: جلسوا حول وجار القهوة وهم يرتدون الملابس البغدادية وغتر سائبة وطواقى حمراء اللون؛ بينما راح جابر يُصلِّح القهوة. ومن بين الجالسين برزت العمامة المدنية (*) الكبيرة شديدة البياض - الخالية من البقع بالرغم من أنه كان ينام وتلك العمامة فوق رأسه، ذلك الأفّاق العجوز من نسل النبى! الذى كان قبل شهر شاهد إثبات على الأضرار التى نزلت أو لحقت بى فى حائل! سألت "من أنت؟" - "أوه! ألا تذكر تلك المرة التى اجتمعنا فيها فى حائل؟" - وهل عدت بهذه السرعة من الهند؟" - "التقيت الأمير، وأنهيت مهمتى معه؛ وأنا لن أذهب إلى الهند إلا بعد الحج ." وعقب انصراف هؤلاء جاء شيخ شاب، جاء إلينا قادما من مخيم الأمير حسن؛ الذى كان يبعد عنا مسافة نصف رحلة فى صحراء النفود Nefud . جلس القادم الجديد بين الحاضرين وبدأ يسألنى؛ وسألته عن الأمير الغائب. واكتشفت أن بداخله حقداً طبيعيا؛ كما اكتشفت أيضا نوعا من الغموض الذى تحول إلى شكل من أشكال البذاءة والصلافة الخطيرة فى ذلك الإنسان. وبعد كلامه الثقيل، أردف متسائلا" هل أنت نصرانى أم مسلم؟" - "أنا نصرانى، تعرفه كل هذه المدينة؛ اترك لى أنامسألة توجيه الأسئله." - "إذن سوف يقتلك المسلمون، بمشيئة الله ! هل تسمع ما أقول ؟ المسلمون سوف يقتلوك!" هذا الشاب فتح فمه، من باب التكشير فى وجهى، فاكتشفت داخل فمه دوائر حمراء تشبه أسنان البغل. - المؤكد أن حالة التشدد الدينى [بالرغم من منطقيتها!] ليست منبتة الصلة أو العلاقة بالطبع السيئ؛ والذى لا شك فيه أن ذلك الشاب كان من سلالة من السلالات العربية الشقية. وبالرغم من أنى كنت ضيفا على جابر فى هذا اليوم، إلا أنه ابتسم ابتسامة باهتة توحى بالتشدد

(*) نسبة إلى المدينة المنورة (المترجم)

القحطاني، عندما سمع كلاما يكاد يكون شبيها بالعسل عندما يتردد على مسامعهم - "كافر يُقتل بواسطة المسلمين!" ونظرا لأن ذلك الشاب كان شيخا ورسولا من قبل حسن، فقد دخلت في دوامة من التفكير وأنا أتدبر ذلك الكلام المسموم. وبعد أن رحلوا، قلت لجابر وحكيت عن شدة إعجاب ذلك الشاب بذاته وتشدده؛ ورد على جابر وهو يهز كتفيه، أن تخميني في محله، لأن ذلك الشاب كان رجلا سيئا بالفعل!

- شاءت الأقدار أن يجئ تجوالي في الجزيرة العربية في وقت كان فيه الصراع الديني على أشده [على حد فهمهم] ، [الله وأعداء نبيه] مع النصارى. وهاهم المتشددون يثيرون الصخب والضجيج مع الأمير، وطالما أن الله أوقع نصرانيا في أيديهم، فلماذا لا يعدمونه؟" أخيرا مالت شمس ذلك اليوم المضطرب إلى الغروب. وبعد الغروب خرجت إلى الشرفة لاستنشاق شيء من الهواء البارد: وعندما عثرت على سلم مكسور تسلقت إلى قسم علوي من سقف المنزل، كي ألقي نظرة على هذه المدينة العظيمة من مدن الجزيرة العربية. - ولكن بعضا من أهل المدينة، الذين كانوا يمشون في الشارع، صاحوا عندما رأوني،" - أنزل ! أنزل! الكافر ينبغي ألا ينظر إلى أي بلد من بلاد المسلمين." أحضر لي جابر وجبة من لحم الضأن المسلوق ومعه شيء من الأرز (وكان قد اشترى تلك الوجبة من السوق) : وبعد أن أكلت الوجبة قال جابر: إننا إخوان. ثم خرج بعد ذلك للقاء الأمير.

عاد جابر إليَّ وكله شك وغارق في أفكاره!' قال: إن الناس بدءوا يتصايحون ويصرخون مرة ثانية إلى عبد الله؛ الذي رد عليهم، بأن يفعلوا معي ذلك الذي يحلوا لهم : لقد قال لهم: إنهم ربما يكونوا قد قتلوا النصراني بالفعل في الصحراء؛ لأن عملية القتل هذه لا يمكن أن تتم في المدينة .' وهنا سألني جابر، 'هل يمكن أن أتخلى عن زكائبي وجوالاتي وخرجي، أهرب سرًا من بريدة سيرا على الأقدام؟' أجبته، " لا! - وقل بحق يا جابر. جابر ! ألا تنوي خيانتي؟" ووعدني بحكم إخلاصه أنه لن يخونني." حسن، إذن ما هو الخطر المحدق؟" - "آمل ألا يحدث المزيد من الخطر، هذه الليلة، في بيتي على أقل تقدير." - "كيف لي بتجاوز الشوارع في الصباح؟" - "سنتجاوز الشوارع؛

الخطر ليس فى المدينة وإنما فى عملية الملاحقة نفسها." - " كم عدد الخيالة الموجودين فى بريدة، عشرين مثلا؟" - " إى ، وأكثر من عشرين." - " أذهب بسرعة، وقل لعبد الله، خليل يقول: أنا رجل rajol دولة Dowla ، بمعنى ، رجل تؤمنه وتحميه (حسبما هو وارد فى أوراقى) حكومة السلطان: وإذا ما حدث لى مكروه (وأنا ضيف) بينكم ، فإن ذلك يمكن أن يجر عليكم المتاعب. وهل يقبل، أن يعدم رحّال داخل ضمن الحماية الإمبراطورية، بسبب الدين، لمجرد أنه يمر خلال بلادكم، علما بأن السلطان متسامح فى مسألة الدين هذه؟ وأرجو أن تبلغهم أنهم ليسوا هنا فى مأمن، وسط هذه الصحراء؛ نظرا لأن 'ذراع الدولة طويلة!' هل تذكر ذلك الذى حدث فى جدة ودمشق! وهل تذكر كيف جرى عقاب المذنب والمتسبب، وذلك بناء على أوامر من السلطان! "ورد علىّ جابر، 'سوف يذهب ويبلّغ هذا الكلام لعبد الله.'

عاد إلىّ جابر وملامحه توحى بالارتياح ، وهو يقول: إن عبد الله وافق على كلامى: وأنه أصدر أوامره بألا يتعرض أحد للنصرانى أو يسيئ إليه؛ ووعد، بألا يصيبه أى شر فى تلك الليلة. جابر: "نحن الآن فى أمن وسلام ، الحمد لله! أدخل واسترح، يا خليل؛ حتى يمكنك أن تكون جاهزا فى ساعة مبكرة."

كنت مستعدا للرحيل قبل طلوع النهار؛ ومضى علىّ الوقت كما لو كان مائة عام قبل أن أرحل عن بريدة. وعند شروق الشمس جلس جابر يُصلّح القهوة؛ ولم يكن متعجلا! ولم تأت إلينا الناقة الموعودة. - " ومتى ستجئ ناقتك إلى هنا ؟" - " قبيل الظهر." - " إذن ، كيف سنصل إلى عنيزة هذه الليلة؟" - " سبق أن قلت لك: إن عنيزة ليست بعيدة عن هنا." طلب منى أيضا أدوية لمظاهر شيخوخته وعجزه وكبر سنه. - "فى عنيزة!" - "لا، ولكن الآن؛ لأنى سوف أترك هذه الأدوية هنا." وعندما تسلم الأدوية، بدأ جابر يستغرب مسألة ركوب ناقته إلى عنيزة. خطر ببالى أن المضيف لا يمكن أن يحنث فى يمينه؛ ولكن يبدو أنهم ينفقون حياتهم كلها فى التضليل و الخداع. - هنا جاء القحطانى الذى كان قائدا للعصابة فى المتاعب التى حدثت فى الليلة السابقة؛ وجلس ذلك القحطانى أمام وجار قهوة القبلى؛ حيث كان يود أن يشرب قهوة الصباح.

كان جابر يود أن يجعلني أصدق أن ذلك الرفيق جرى زجره بالأمس أمام عبد الله: ولكني لم أرى أثر لذلك الزجر على وجه ذلك الرجل . هذا الشقى الذى آذانى مؤخرا على استعداد الآن للدفاع عن قضيتي! قلت لجارة جابر البدوية، التى كانت تجلس معنا "خبريني، ألا يتلبسه الجن؟" وهنا رد ذلك الشاب عن نفسه، "إى، يا خليل، أنا أستشعر الجنون فى بعض الأحيان." لقد جاء يطلب دواءا من النصرانى ، – الذى لم يطلبه من واحد من دينه.

سمعت صوت خطو شخص أعرج يصعد سلم القصر: كان ذلك هو الأمير الأعرج عبد الله الذى دخل علينا! وهو يتكىء على عكازه. كان الثوب الذى يرتديه الأمير والغترة التى على رأسه فى منتهى القذارة: جلس عبد الله بجوار الوجار، وراح جابر يصلح المزيد من القهوة. قال عبد الله، – وهو يشير إلى رجل فقير الحال كان يقف عند الباب جاء بصحبته؛" هذا هو الذى سوف يحملك على ناقته إلى عنيزة؛ أنهض ! ، أحضر أشياءك." – "لقد وعد جابر بتوصيلى على ناقته." ولكن مضيفى (الذى لم يكن يقل إلا كذبا) اعتذر عما قاله،' إنه سوف يتبعنا ، عندما تصل ناقته.' أعطى عبد الله الجمّال أجره، ربع مجيدى، أى ما يعادل أحد عشر بنسا. – حمل الرجل خرجى على كتفيه، وصل بى من خلال شارع معزول إلى جمل بارك أمام كوخه المبنى من الطين. ركبنا الجمل وسرنا خلال الحارات فى طريقنا للخروج من المدينة.

هذا هو نخيل بريدة وأراضيها الزراعية تحيط بنا من كل جانب فى اتجاه وادى الرماح، فى المنطقة ما بين كثيب رملى كبير والطريق المؤدى إلى عنيزة؛ والذى يمتد مسافة ثلاثة أميال فقط إلى (الخُضَار el- Khuthar) . شاهدت آبارهم، المحفورة فى رمال النفود، – هذه الآبار ليست عميقة، وتنزل خلال صلصال أزرق مشوب بالبياض، ومن بعده الصخر الرملى: هذه الآبار المبطنة بمبان جافة [والتى ينظر إليها الناس هنا، كما هو الحال فى غربى الجزيرة العربية ، على أنها من عمل الأقدمين!] يبدأ حفرها وينتهى حفرها أيضا فى القصيم فى اليوم نفسه. الآبار الفرعية، أو إن شئت فقل: الآبار قليلة التكلفة يجرى حفرها على شكل حفر وسيعة فى الرمل، ويصل عمقها

فقط الى طبقة الصلصال؛ وهم يبطنون الجوانب المتحدرة من تلك الآبار بحزم من الحطب والرمل. وفوق فتحة البئر التى تنزل على شكل مربع إلى طبقة الصلصال، يوجد هيكل من خشب الإثل، يستخدم فى أعمال السوانى (*) الخاصة برفع الماء؛ وكل حفرة من تلك الحفر تتسع لاثنتين من تلك السوانى. الجدران المبطنة والتى على شكل مربع. يعمل فى سوانيها أربعة من الإبل ؛ وهناك بعض الآبار المزوجة التى تشتمل على ست أو ثمانى سوانٍ، كى تروى مساحة كبيرة من الأرض، التى تكون على شكل مربع؛ والإبل تسحب من الجانبين. ويصل العمق فى كل بئر إلى سبع قامات: وهذا العمق يصل إلى ثمانى قامات فى نهاية فصل الصيف.

ماذا يكون ذلك الصلصال؟، الأكيد أنه طمى الأنهار، التى كانت تنساب على وادى الرماح فى الزمن القديم، وهذا النهر ربما كان فرعا من أفرع نهر الفرات. هنا فى هذه المنطقة آبار من الزمن القديم؛ وبخاصة بالقرب من نهاية المزارع، فى الموقع الذى يطلقون عليه اسم مَنْزَل Menzil بنى Beny هلال Helal .

تأسست بريدة منذ ثلاثة إلى أربعة قرون مضت: وأهل هذه المدينة معروف أنهم من بنى تميم. وأنا أعتقد ، أن عددهم لا يزيد على ٥٠٠٠ نسمة؛ وإذا ما أضفنا إليهم سكان القرى، والهجر، التى تعتبر ضواحى من بريدة نجد أن هذا العدد يزيد على ٦٠٠٠ نسمة. وبعد أن قطعنا ميلا ثانيا ونحن نسير بجوار نخيل بريدة التقينا شخصا عائدا من بستان من البساتين، شاب صغير كانت ملابسه النظيفة توحى بأنه واحد من أثرياء البلدة . سأل ذلك الشاب جمَّالى، الذى كان اسمه حسن، إن كان يحمل منه رسالة لتسليمها لشخص فى عنيزة؛ وعندما بدأ يتكلم معى عرفت أنه كتابى ، أى يقرأ ويكتب." قال ذلك الشاب: آه! أنت نصرانى، فى البلد الذى أنت ذاهب إليه، سيحولونك بمشيئة الله، إلى مسلم!" – تكلم ذلك الشاب أيضا عن قرية سدوس، وهو يحسب أنه عثر فى كتبه القديمة على أن الاسم القديم لتلك القرية كان 'كردوس' kerdus

(*) هذه هى الكلمة الشائعة فى نجد وفى المنطقة الشرقية وهى تدل على معنى كلمة 'الساقية' (وجمعه سوان) المصرية . (المترجم)

وليس "سدوس" كما هو الآن؛ وقال لي: إن الناس في تلك القرية عبدوا الصنم Sanam الذي هو عبارة عن صورة في تلك القرية. كما نظر إليّ ذلك الشاب كما لو كنت واحداً من أولئك الذين عبدوا الأصنام! - وقد تعجبت عندما رأيتهم يزرعون أشجار الإثل، فوق كثيب بريدة الرملي الكبير، في تلك الأرض التي لا ينزل عليها الندى ويندر أيضا سقوط المطر عليها ، وبخاصة أن أشجار الإثل تحتاج إلى أن تكون جذورها فوق المياه الجوفية. وهم يغرسون أ شجار الإثل في الرمل السائب ويروونها مدة عام؛ إلى أن تطول جذورها ثم يتركونها تعتمد على نفسها. شجرة الإثل من الأشجار التي يندر أن يكون لها ساق مستقيم، ولكنها خلال اثنى عشر عاما تتحول إلى خشب (ثقيل هش) لا يصلح إلا في أعمال السواني: يضاف إلى ذلك أن أغصانها الخضراء وفروعها جيدة الاحتراق. - ورمال الجزيرة العربية عندما تزرع بأشجار الإثل تتحول إلى غابة خضراء.

ملحق للفصل الحادى عشر

قوس قزح الثلاثى. – ملاحظة بقلم الأستاذ . جى. تيت. – ظهور أقواس قزح الإضافية التى تحدث بين الحين والآخر أمر معروف. وهذه الأقواس ترجع إلى ضوء الشمس المنعكس من بحيرة من البحيرات – أو كما هو الحال هنا من سطح أو أسطح من الأرض الرطبة وماء المطر) وتكون خلف الناظر إلى القوس. ومبادئ علم البصريات توضح أن هناك شمسين، بحيث تكون الشمس الثانية خلف الأفق، فى حين تكون الشمس الأولى فوق الأفق.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل